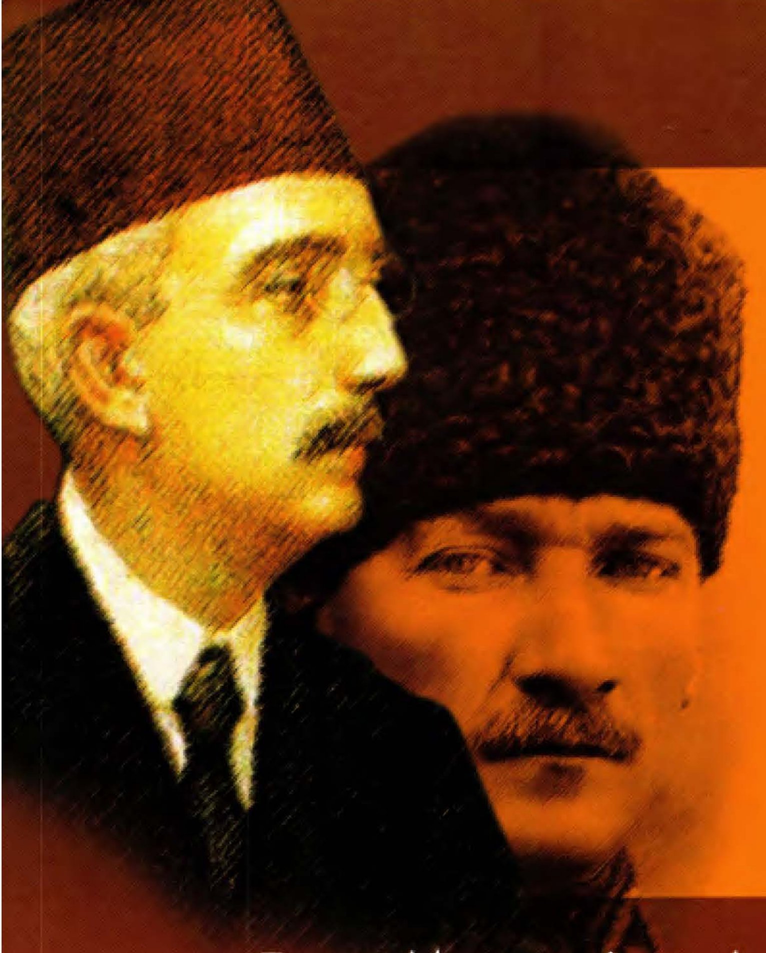


السلطان وحيد الدين
وأتاتورك

نعمة موسى جبلي

دار الآفاق العربية

السّلطان وحيد الدّين ﷺ وأتاتورك

نعمة موسى جبلي

دار الآفاق العربية

جبلي ، نعمة موسى
السلطان محمد وحيد الدين وأتاتورك
تأليف : د/ نعمة موسى جبلي
ط 1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية 2013
462 ص ، 24 سم
1- محمد السادس ، محمد وحيد (1861-1926)
2- تركيا - تاريخ
3- تركيا – الملوك والحكام

تدمك : 978-977-344-225-3
رقم الأيداع :2012/23224
الطبعة الأولى
2013/1434 م

نشر – توزيع – طباعة
55 شارع محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر – القاهرة
تليفون : 22617339 -00202 تليفاكس : 22610164-00202
Email: daralafk@yahoo. Com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ



صدق الله العظيم

سورة طه،آية (١١٤)

شكر وتقدير

أتقدم بشكري وتقديري إلى الأستاذة الدكتورة ماجدة صلاح مخلوف، أستاذ اللغة التركية وآدابها بكلية الآداب، جامعة عين شمس، لتفضلها بالإشراف على هذه الرسالة، ولمساعدتها الكبيرة لي طيلة سنوات البحث.

كما أتقدم بشكري وتقديري إلى الأستاذة الدكتورة عزة عبد الرحمن الصاوي، أستاذ اللغة التركية وآدابها بكلية الآداب، جامعة عين شمس، والأستاذة الدكتورة زينب سعد الدين أبو سنة، أستاذ اللغة التركية وآدابها، ورئيس قسم الدراسات الأرمينية بكلية الآداب، جامعة القاهرة، لتفضلهما بمناقشة هذه الرسالة.

الفهرس

الفصل الثالث

رؤية السلطان محمد وحيد الدين لأتاتورك

٨١ - ١٠٤

الفصل الرابع

السلطان وحيد الدين من خلال خطاب أتاتورك

١٠٧ - ١٣٠

الفصل الخامس

رؤية الكماليين للسلطان محمد وحيد الدين

١٣٣ - ١٤٥

الفصل السادس

السلطان محمد وحيد الدين في كتابات الأتراك المعاصرين والمحدثين

١٤٩ - ١٨٨

قائمة الاختصارات

صفحة	s.= sayfa
مجلد	c. = cilt
مرجع سبق ذكره	a.g.e = adı geçen eser
رقم	nr.= numara
ملف	Ds.= dosya
المترجم	Çev.= Çeviren
مجلس الأمة التركي الكبير	TBMM
مضبطة مجلس الأمة التركي الكبير	TBMM zabit ceridesi

الحروف العثمانية وطريقة نطقها

ينطق مثل حرف (ج) في اللغة العربية	گ
ينطق مثل (ch) في اللغة الإنجليزية	چ

الحروف التركية الحديثة وطريقة نطقها

ينطق مثل حرف (غ أوي) في اللغة العربية	Ğ
ينطق مثل (sh) في اللغة الإنجليزية	ş
ينطق مثل (ch) في اللغة الإنجليزية	ç

القسم الأول

الدراسة

السلطان محمد وحيد الدين من خلال المصادر التركية

المقدمة

يُعتبر السلطان محمد وحيد الدين، المعروف بالسلطان محمد السادس (١٨٦١ – ١٩٢٦)، إحدى الشخصيات الهامة في تاريخ الدولة العثمانية. وترجع هذه الأهمية إلى أنه كان أخر السلاطين العثمانيين، وأنه شهد نهاية الدولة العثمانية، وقيام الجمهورية التركية عام ١٩٢٣. وقد ارتبط اسمه في هذه المرحلة، بعدد من الإجراءات والمقولات التي تتهمه بالخيانة. واختلفت أراء المؤرخين والكتاب والساسة المعاصرين حول شخصية السلطان محمد وحيد الدين، ودوره في المرحلة الأخيرة من عمر الدولة العثمانية. ولم تفرد في المكتبة العربية، دراسة كاملة عنه حتى الآن، وبالتالي لم تفسر مواقف كثيرة لهذا السلطان، وهى مواقف ظلت في طي النسيان والكتمان. ولم تتح لهذا السلطان الذي وُصف بالخيانة، فرصة الدفاع عن نفسه وتفسير موقفه. كما لم تُتح لنا في الوطن العربي، أية فرصة للتعرف على السلطان وحيد الدين، من خلال أي مرجع عربي، باستثناء محاولات الأستاذة الدكتورة ماجدة مخلوف، أستاذة الدراسات التركية بكلية الآداب، جامعة عين شمس، التي حاولت بها إلقاء الضوء على هذا السلطان، وكانت هذه المحاولات معيناً لي في التعرف عليه، وإنجاز هذا البحث.

في بعض المراجع العربية وجدت جهلاً بالسلطان وحيد الدين، فأشارت بعض المراجع إليه بالسلطان العثماني دون ذكر اسمه. وفي أحد المراجع أُشير إليه بوصفه ابن السلطان مراد الخامس، الذي هو شقيقه. وفي مراجع عربية أخرى وجدت تشويها للسلطان وحيد الدين، حيث صورته بأنه وقف ضد حركة المقاومة الشعبية التي اندلعت في الأناضول، وحاول القضاء عليها، وأنه خاض صراعاً ضد الكماليين، وأنه استصدر فتوى من شيخ الإسلام تبيح قتل العصاة، وإعدام مصطفى كمال ورفاقه. وصورته مراجع أخرى بأنه لا يفكر في شيء سوى عرشه وشخصه.

وجدير بالذكر أن السلطان وحيد الدين تربى في كنف أخيه السلطان عبد الحميد الثاني، وكان أقرب أخوته إلى نفسه في الشكل والتكوين، وكان معجباً به ودربه أحسن تدريب، وكان يدعوه دائماً إلى حضور مجلسه، وتمثل فكره السياسي.

هدف البحث

يتمثل هدفنا دراسة السلطان محمد وحيد الدين، دراسة موضوعية، ومناقشة الآراء المختلفة حوله، وعرض هذه الآراء على واقع الحقائق التاريخية، وعرض وجهة نظر السلطان محمد وحيد الدين في كل ما أُثير حوله من اختلاف وجهات النظر. ونحاول تبين العلاقة بينه، وبين مصطفى كمال أتاتورك الذي تعرف عليه وحيد الدين وهو ولي للعهد، وكان معجباً به، وببطولته العسكرية، فوثق به وقربه إليه. فمن خلال علاقتهما نحاول معرفة رؤية كلاهما للآخر، ومدى تأثر الأتراك المحدثين بالآراء التي أُثيرت حول السلطان محمد وحيد الدين. وحدود هذه الدراسة زمانية، من عام ١٩١٨ إلى ١٩٢٢.

منهج البحث

التزمنا في هذه الدراسة بالمنهج التاريخي التحليلي النقدي، مع فهم رؤية الكتاب المعاصرين للسلطان محمد وحيد الدين، والكتاب المحدثين، بالإضافة إلى رؤية رجال الحركة الكمالية. وبالمنهج التاريخي الوصفي في تسجيل السيرة الذاتية للسلطان محمد وحيد الدين، والمرحلة التاريخية التي عاشها السلطان.

وينقسم موضوع البحث إلى قسمين: القسم الأول، يتضمن دراسة موضوعية للسلطان محمد وحيد الدين، من خلال المصادر التركية. والقسم الثاني، يتضمن ترجمة لكتاب بعنوان "وحيد الدين" للكاتب التركي نجيب فاضل قيصه كورك.

الجديد في موضوع البحث

لم تُفرد من قبل دراسة مستقلة لفهم شخصية السلطان محمد وحيد الدين، ودوره في أخريات أيام الدولة العثمانية، حيث أنه أخر السلاطين العثمانيين، وعاش السنوات الأخيرة من عمر الدولة وماواكبها من أحداث ووقائع هامة.

الأهمية العلمية

إلقاء الضوء على شخصية السطان محمد وحيد الدين، من خلال ماكتبه الأتراك عنه، خاصة وإنها من الشخصيات التاريخية التي يدور حولها الاختلاف بين الباحثين.

خطة البحث

العنوان: السلطان محمد وحيد الدين من خلال المصادر التركية، مع ترجمة كتاب "وحيد

الدين" لنجيب فاضل قيصه كورك.

المدخل : حالة الدولة العثمانية عند نهاية الحرب العالمية الأولى .

القسم الأول : الدراسة

الفصل الأول : السلطان محمد وحيد الدين ، نشأته وحياته

الفصل الثاني : الدولة العثمانية في فترة حكم السلطان محمد وحيد الدين (١٩١٨- ١٩٢٢)

الفصل الثالث : رؤية السلطان محمد وحيد الدين لأتاتورك

الفصل الرابع : السلطان محمد وحيد الدين من خلال خطاب أتاتورك

الفصل الخامس : رؤية الكماليين للسلطان محمد وحيد الدين

الفصل السادس : السلطان محمد وحيد الدين، في كتابات الأتراك المعاصرين والمحدثين

القسم الثاني : الترجمة: ترجمة كتاب "وحيد الدين" لنجيب فاضل قيصه كورك

تحدثت في المدخل عن حالة الدولة العثمانية عند نهاية الحرب العالمية الأولى، فبدأت بنبذة عن الحرب العالمية الأولى وأسباب نشوبها. وأشرت إلى موقف الدول الأوروبية من الدولة العثمانية، وكيف كانت هذه الدول مختلفة فيما بينها بسبب تضارب المصالح والأهداف، وكثيراً ما وصل العداء بينها إلى درجة الحروب، والاشتباكات المسلحة، ولكنها وقفت دائماً ضد الدولة العثمانية، وتوحدت مواقفها عندما تعرضت مصالحها هناك للخطر. وكان الحلفاء لا يرغبون في دخول الأتراك الحرب إلى جانبهم، حتى يتيسر لهم تحقيق أطماعهم في البلاد الخاضعة للدولة العثمانية. كما أشرت إلى أسباب اشتراك الدولة العثمانية في الحرب إلى جانب الألمان، وموقف حكومة الاتحاد والترقي- التي تولت مقاليد الحكم منذ عام ١٩٠٩، بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش، وتولية السلطان محمد رشاد مكانه- من الحرب. وكذلك موقف السلطان محمد رشاد، وولي العهد محمد وحيد الدين منها. ثم نهاية الحرب، وحالة الدولة العثمانية عند انتهائها.

وأفردت الفصل الأول للحديث عن السلطان محمد وحيد الدين، عن مولده، ونشأته، وثقافته، وشخصيته. وأشرت إلى نوعية العلاقة التي تربطه بأخيه الأكبر السلطان عبد الحميد الثاني، حيث قضى فترة شبابه، ونضوجه، وبداية كهولته، في العصر الحميدي الذي استمر

لمدة ٣٣ عاماً. وكان عمر السلطان محمد وحيد الدين، عندما تولى السلطان عبد الحميد الثاني العرش، ١٥ عاماً. ثم تحدثت عن فترة ولاية عهده، عندما تولى السلطان محمد رشاد أخيه، العرش.

وفي الفصل الثاني تحدثت عن الظروف التي تولى فيها السلطان محمد وحيد الدين، العرش، حيث تولى العرش في ٤ يوليو عام ١٩١٨، في العام الأخير للحرب العالمية الأولى. كما تحدثت عن شخصيته كسلطان، وموقفه من حكومة الاتحاد والترقي. وتناولت في هذا الفصل أيضا الجهود التي بذلها السلطان لإنقاذ الدولة عند توليه العرش. وأشرت إلى هدنة موندروس التي كانت سبب الكوارث التي أصابت الدولة، وحالة البلاد بعد توقيع هذه الهدنة. وتحدثت بإيجاز عن احتلال أزمير، وإرسال مصطفى كمال إلى الأناضول، ثم تناولت ذلك بالتفصيل في الفصل الثالث. وتحدثت أيضا عن معاهدة سيفر، وضغط الإنجليز على السلطان من أجل توقيعها، ورفض السلطان ذلك. وأشرت إلى اتهام السلطان بالخيانة بعد الانتصار على اليونانيين في حرب الاستقلال، ثم مغادرة السلطان لوطنه. وأشرت أيضا إلى زيارته لمكة بعد خروجه من استانبول، واعتزامه الإقامة بها. وتناولت حياته في الغربة، في سان ريمو بإيطاليا، وحرصه على عدم الإساءة لوطنه بأي شكل من الأشكال، وأملة الذي لم ينقطع في العودة مرة أخرى إلى وطنه، ثم وفاته في ١٦ مايو عام ١٩٢٦.

ودار الفصل الثالث، حول العلاقة بين السلطان محمد وحيد الدين، ومصطفى كمال أتاتورك خلال فترة ولاية العهد، فأشرت إلى بداية التعارف بينهما، واختياره لمصطفى كمال ليرافقه وهو ولي للعهد في زيارة ألمانيا للاتصال بالقادة الألمان، والاطلاع عن قرب على أحوال الجبهات الحربية. ثم أول لقاء بين مصطفى كمال ووحيد الدين بعد توليه العرش، بعد وفاة السلطان محمد رشاد. وتكليف السلطان، مصطفى كمال بمهمة قيادة المقاومة الشعبية في الأناضول، وكيف قدم له السلطان كل المساعدات التي أعانته على تحقيق المهمة التي كلفه بها، وتحقيق النصر على اليونانيين في حرب الاستقلال. وختمت الفصل بالحديث عن رؤية السلطان لمصطفى كمال.

وفي الفصل الرابع، تحدثت عن رؤية مصطفى كمال أتاتورك للسلطان محمد وحيد الدين من خلال خطابه المعروف بنطق. بدأت الفصل بالتعريف بهذا الخطاب، والانتقادات

المختلفة التي تعرض لها. وتناولت الانطباعات الأولى لمصطفى كمال عن السلطان وحيد الدين، ثم أشرت إلى انقلابه على السلطان، وتوجه مصطفى كمال الجمهوري. ثم تحدثت عن صورة السلطان وحيد الدين من خلال خطاب أتاتورك، وعن تأسيس المجلس الوطني التركي الكبير الذي جاء تمهيداً لإلغاء السلطنة. ثم تناولت مسألة إلغاء السلطنة، وأسباب ذلك كما وردت في خطاب مصطفى كمال.

وفي الفصل الخامس تناولت رؤية رجال الحركة الكمالية، المعروفين بالكماليين، للسلطان وحيد الدين، وبدأت الفصل بتعريف الكماليين وإيراد هامش عن حرب الاستقلال التي خاضوها تحت قيادة مصطفى كمال أتاتورك، ثم جهود السلطان لإصلاح الجيش.

وفي الفصل السادس، أوردت آراء الكتاب الأتراك المعاصرين للسلطان وحيد الدين، والكتاب المحدثين، في السياسة التي انتهجها السلطان بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. وموقفه من مصطفى كمال، ومعاهدة سيفر، والحركة الشعبية في الأناضول. وآرائهم أيضا في فتوى الحكم بإعدام مصطفى كمال، وإرسال قوة إعادة الانضباط إلى الأناضول، وحادثة آنزافور المعروفة بـ"جيش الخليفة". ورؤيتهم لاتهامه بخيانة الوطن، ومغادرته استانبول على ظهر سفينة حربية إنجليزية. وفي نهاية الفصل أوردت دفاع السلطان وحيد الدين عن نفسه من خلال مذكراته.

ويتضمن القسم الثاني من البحث ترجمة كتاب "وحيد الدين" للكاتب التركي نجيب فاضل قيصه كورك، وهو مفكر وكاتب مسرحي وشاعر وصحفي وروائي. قُلد وسام أشعر شعراء اللغة التركية في عام ١٩٨٠، ونال عمادة الأدب التركي بجدارة. ولد في استانبول في ٢٦ مايو ١٩٠٤، وكرس حياته لخدمة الإسلام والدفاع عنه. وأعاد الاعتبار إلى شخصيات تاريخية شُوهت نتيجة دعايات بعض الأحزاب، مثل شخصية السلطان عبد الحميد الثاني، والسلطان محمد وحيد الدين. واستمر يشتغل بالكتابة حتى وفاته في ٢٦ مايو ١٩٨٣. وله عدة دواوين شعرية، وعدة مؤلفات نثرية تضم كتب فكرية، ومؤلفات إسلامية، وصوفية، ومسرحيات، بالإضافة إلى القصص القصيرة، والكتب التاريخية، والأبحاث الأدبية، والتراجم، والسير، والمقالات، والسيناريوهات والخطب. وقد أضفت هامشاً للترجمة، للتعريف بأهم الأحداث والشخصيات التي وردت في النص. كما حرصت على كتابة بعض

الكلمات التركية كأسماء الشوارع بالشكل الذي تنطق به في اللغة العربية، وليس باللغة العثمانية. والعبارات التي كتبتها باللغة العثمانية أوضحت كيفية نطقها باللغة العربية.

وينتهي البحث بخاتمة تشتمل على أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وملحق لأهم الوثائق التي استعنت بها خلال هذا البحث، وثبت بالمصادر والمراجع وملخصاً للبحث باللغتين العربية والإنجليزية.

الباحثة

مدخل

حالة الدولة العثمانية

عند نهاية الحرب العالمية الأولى

الحرب العالمية الأولى

اندلعت الحرب العالمية الأولى بسبب تنافس الدول الغربية التي خاضتها، للسيطرة على مناطق، يشعر كل من الأطراف المتنافسة بأهميتها الاستراتيجية بالنسبة له. ونشبت أيضا بسبب رغبة كل من الفريقين في توسيع نطاق سيطرته الاقتصادية، وفرض نفوذه على طرق المواصلات الهامة عبر القارات، وسيطرته على الأقطار التي يجد فيها مجالاً حيوياً لاقتصادياته وتجارته. ولم يكن التحالف بين الدول المتحاربة بسبب الرغبة في مساعدة الدول الأخرى الحليفة، بل رغبة في تحطيم قوة الخصم، والقضاء على أطماعه، ولذلك كانت الحرب العالمية الأولى، ميداناً للتسابق بين الدول العظمى في ابتكار أحدث الأساليب التكتيكية، وكانت مجالاً للتنافس في وضع الخطط الاستراتيجية[١].

وبدأت الحرب عقب اغتيال طالب صربي متطرف لولي عهد النمسا، فرانز فيرديناند وزوجته في سراييفو في ٢٨ يونيه ١٩١٤. فانتهزت النمسا هذا الحادث، وأعلنت الحرب ضد صربيا. ثم اتسعت هذه الحرب المحلية لتشمل القارة الأوروبية كلها، فأعلنت روسيا مسئوليتها عن حماية الصرب، وبدأت التعبئة العامة، واستعدت للحرب. وعندما رفضت الإنذار الألماني بوقف هذه التعبئة، أعلنت ألمانيا الحرب عليها.

في تلك الأثناء كان هناك تحالف بين فرنسا وروسيا، لذلك أعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا أيضا. وأخذت في تنفيذ مشروعها الحربي الذي يتمثل في غزو فرنسا عن طريق اختراق بلجيكا ولوكسمبورج، في ١٤ أغسطس ١٩١٤. وكانت تلك بداية الحرب العالمية الأولى التي شارك فيها ثلاثين دولة، واستمرت أربعة أعوام ونصف العام.

ورغم تفوق الجيش الألماني، كان الحلفاء يتفوقون على ألمانيا، والنمسا، والمجر في القوة العسكرية، وكانت الأساطيل الإنجليزية تسيطر على البحار.

انتصرت ألمانيا على روسيا في معركة تاننبرج، ولكنها انهزمت أمام فرنسا في معركة المارن[٢].

---

(1) محمد صلاح الدين حسين، الحرب العالمية الأولى، إستراتيجية الميدان الغربي ،دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية ١٩٥٣، ص ٥ ،٦.

(2) المارن: هو نهر من روافد السين الذي يمر في باريس، ويقع إلى الشمال الشرقي منها. وقد دخلت ألمانيا الأراضي الفرنسية حتى ذلك النهر، وجرت على ضفافه أكبر المعارك، مثل معركة المارن الأولى التي وقعت

موقف الدول الأوروبية من الدولة العثمانية

كانت الدول الأوروبية مختلفة فيما بينها بسبب تضارب المصالح والأهداف، وكثيراً ما وصل العداء بينها إلى درجة الحروب والاشتباكات المسلحة. ولكنها وقفت دائماً ضد الدولة العثمانية، وتوحدت مواقفها عندما تعرضت مصالحها هناك للخطر.

كانت فرنسا لا ترغب في دخول الأتراك الحرب إلى جانب الحلفاء، حتى يتيسر لها تحقيق أطماعها في البلاد الخاضعة للدولة العثمانية. وكانت روسيا تخشى انضمام الدولة العثمانية إلى جانب الحلفاء، خشية أن تحول انجلترا وفرنسا دون تدخلها في شؤون السلطنة، والاستيلاء على استانبول. أما إنجلترا فقد كانت ترغب في دخول الأتراك إلى جانبها، لأن مصلحتها تقتضي ذلك. كما كانت لا ترغب في معاداة الدولة العثمانية، لأنها كانت تريد المحافظة عليها. فكانت تهتم بمراقبة التوسع الاستعماري الألماني من ناحية، والعلاقات التركية الألمانية من ناحية أخرى، لأنها كانت تخشى دخول الأتراك الحرب إلى جانب الألمان، في حالة اندلاع الحرب بينهما، مما يؤدي إلى تهديد طريق الهند. لذلك أرادت تجنب الحرب مع تركيا، آخذة في اعتبارها وجود سبعين مليون مسلم في الهند في ذلك الحين كانوا لا يزالون يعدون السلطان العثماني، الخليفة الذي يعلن الجهاد ويجب طاعته(٣). وكانت أول حادثة أدت إلى فساد الصداقة التركية- الإنجليزية، هو قيام الأسطول العثماني في ٢٩ أكتوبر ١٩١٤، بضرب الموانئ الروسية، فقام الإنجليز بمصادرة السفن الحربية العثمانية التي تُصنع في ترسانات السفن الإنجليزية. ولكن بعد الحرب لم تنضم إنجلترا إلى عملية اقتسام الأناضول، بل سعت إلى عمل هدنة مع الدولة العثمانية، وتولت هي تنفيذ الهدنة(٤).

في ٦ سبتمبر ١٩١٤. وتُعتبر هذه المعركة نقطة تحول في الحرب العالمية الأولى، حيث حولت الحرب التي شنها الألمان من حرب متحركة سريعة، إلى حرب دفاعية ثابتة استمرت أربعة أعوام. وفقد الألمان عامل الوقت، وهو المحور الذي كانت ترتكز عليه خططهم الإستراتيجية، وتحولت الحرب لصالح فرنسا. ووقعت معركة المارن الثانية في ١٨ يوليه ١٩١٨، ووجهت فيها الجيوش الفرنسية والأمريكية ضربة مضادة حاسمة للقوات الألمانية...انظر محمد صلاح الدين حسين، الحرب العالمية الأولى، إستراتيجية الميدان الغربي، مرجع سبق ذكره، ص ٥٩، ١٦٦- ١٦٨

(3) علي حسون، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م، ص ٢٣٤، ٢٣٥

(4)Tevfik Bıyıklıoğlu, “Atatürk Anadolu’da”, Çağdaş Matbaacılık ve

موقف حكومة الاتحاد والترقي من الحرب

كان موقف قادة الاتحاد والترقي[٥] من الحرب متبايناً. فلم يؤيد طلعت باشا[٦]، الصدر الأعظم[٧]، فكرة الحرب في البداية، ولكنه أيدها بعد ذلك. أما جاويد بك، وزير المالية الذي ظل متمسكاً بموقفه المعارض، اضطر إلى الاستقالة. ونادى جمال باشا[٨] في البداية بحياد

Yayıncılık, Ltd.Şti. Mayıs 2000, s. 49

(5) كانت جمعية الاتحاد والترقي، في بداية نشأتها، جمعية سرية أسسها مجموعة من الشباب التركي داخل كلية الطب العسكرية في ٣ يونيو ١٨٨٩. كان أعضاء الجمعية يهدفون إلى خلع السلطان عبد الحميد الثاني، وإعادة الدستور. أمر السلطان عبد الحميد الثاني، بالقبض على أعضاء الجمعية، فهرب الكثير منهم إلى باريس، وانضموا إلى جماعة تركيا الفتاة التي أسسها أحمد رضا بك هناك، وأصدروا صحيفة (مشورت) للهجوم من خلالها على سياسة السلطان عبد الحميد الثاني. ثم انضمت جمعية الحرية العثمانية التي أسسها الأمير صباح الدين، إلى جمعية تركيا الفتاة، وأصبح اسمها الاتحاد والترقي، وتم تأسيس أول فرع لها في سلانيك. ومن أبرز أعضاء هذه الجمعية، طلعت باشا، وأنور باشا، وجمال باشا، ونيازي باشا. استطاع أعضاء هذه الجمعية- من خلال إثارة الجيش- إجبار السلطان عبد الحميد الثاني على إعادة الدستور عام ١٩٠٨، وتشكيل مجلس المبعوثان الذي حظي الاتحاديون فيه بالأغلبية. ثم حدثت واقعة ٣١ مارس، وتم خلع السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩، وتولى بعده السلطان محمد رشاد. ودفعت حكومة الاتحاد والترقي- ممثلة في الصدر الأعظم طلعت باشا، ووزير الحربية أنور باشا، ووزير البحرية جمال باشا- بتركيا إلى الدخول في الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، تلك الحرب التي انتهت بالهزيمة، وبهروبهم من تركيا. انظر Mustafa Şükrü Hanioğlu, Bir siyasal örgüt olarak Osmanlı İttihad ve Tarakkı Cemiyeti ve Jön Türklük 1889-1902", İletşin Yayınları, Kanlıca 1985,s.9-27

(6) محمد طلعت باشا: ولد عام ١٨٧٤ م في أدرنة بتركيا، وهو من زعماء تركيا الفتاة، وأمين عام جمعية الاتحاد والترقي. كان رئيساً لهيئة البريد والبرق، ثم عُزل عام ١٩٠٨. وعندما أعلن السلطان عبد الحميد الثاني الدستور، وتم افتتاح مجلس المبعوثان، أصبح نائباً عن أدرنة، ثم عُين وزيراً للداخلية. تولى الصدارة العظمى من عام ١٩١٧- ١٩١٨. واستقال من الصدارة بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وتوقيع هدنة موندروس عام ١٩١٨. وهرب إلى ألمانيا مع أنورباشا وجمال باشا حيث قتله أحد الأرمن في برلين عام ١٩٢١. انظر Ekrem Üzümeri ve Değerleri,Tükiye Ansiklopedisi, Rüzgarlı Matbaası,cilt v, Ankara 1956-1957, s.264

(7) الصدر الأعظم أو الوزير الأعظم: هو رئيس الحكومة، ووكيل السلطان. وهو المسئول عن تدوين قرارات السلطان، ويرأس الديوان السلطاني. وكان يقود الجيوش العثمانية، ويسمى سردار أكرم. ويسمى ديوانه بالباب العالي. انظر Midhat Sertoğlu, Resimli Osmanlı Tarihi Ansiklopedisi, İskit Yayını, İstanbul 1958, s.273

(8) جمال باشا (١٨٧٢ – ١٩٢٢): قائد عسكري، وأحد قادة حزب الاتحاد والترقي. تخرج من الكلية

الدولة، ولكنه في النهاية انضم إلى جانب أنصار الحرب، وأهمهم أنور باشا(٩). وكان أهم المعارضين للحرب السلطان محمد رشاد(١٠)، وولي العهد محمد وحيد الدين، وبعض الوزراء. ولم تكن فكرة اشتراك تركيا في الحرب، تلقى ترحيبا من جانب الشعب بصفة عامة(١١).

الحربية عام ١٨٩٥، وتولى رئاسة أركان حرب الجيش الثالث، وكان أحد ضباط جيش الحركة الذي عمل على خلع السلطان عبد الحميد الثاني. تولى ولاية أدرنة ثم بغداد. كان شخصية عنيفة. تولى وزارة البحرية عام ١٩١٣، وخلال الحرب العالمية الأولى، تولى قيادة الجيش الثاني إلى جانب وزارة البحرية ثم قيادة الجيش الرابع، واضطلع بمهمة الدفاع عن سوريا. ذهب إلى مصر حيث عبر سيناء ووصل حتى قناة السويس، وانهزم أمام القوات الإنجليزية. بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، هرب إلى جورجيا حيث قتله اثنين من الأرمن في تبليس عام ١٩٢٢. انظر Grand Master Genel Kültür Ansiklopedisi, Milliyet Yayınevi,cilt1,Ankara 1992,s.175

(9) أنور باشا (١٨٨١ - ١٩٢٢): قائد عسكري، وأحد قادة حركة تركيا الفتاة، وحزب الاتحاد والترقي. تخرج من الكلية الحربية عام ١٩٠٣، وشارك في تمرد ١٩٠٨ ضد السلطان عبد الحميد الثاني الذي أضطره إلى إعادة الدستور. واشترك في حرب طرابلس(١٩١١-١٩١٢) ضد الإيطاليين، وفي حرب البلقان الثانية، واستعاد مدينة أدرنة عام ١٩١٣، ثم أصبح وزيراً للحربية عام ١٩١٣. وهو أحد الرجال الثلاثة الذين حكموا الدولة العثمانية وهم: طلعت باشا وجمال باشا. وقد لعب دوراً أساسياً في دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب الألمان، وبعد هزيمة الدولة في عام ١٩١٨، هرب مع طلعت باشا وجمال باشا من تركيا إلى ألمانيا. ثم رحل هو إلى روسيا ثم إلى تركستان بعد تمرده على روسيا، وحاول تنظيم الجيش التركستاني، وحارب الروس، فقتله الجيش الأحمر الروسي خلال إحدى المعارك في عام ١٩٢٢. انظر Ekrem Üzümeri ve Değerleri,Tükiye Ansiklopedisi, a.g.e. cilt 11, s.255

(10) السلطان محمد رشاد (محمد الخامس) (١٩٠٩ - ١٩١٨): هو ابن السلطان عبد المجيد الأول. تولى الحكم بعد خلع أخيه عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩، وكان عمره ٦٨ عاماً. كان مهذباً، ومثقفاً، واسع الاطلاع على الثقافة الإسلامية، وملماً بالأدب الفارسي، ومهتماً بدراسة التاريخ الإسلامي والعثماني. بعد ثلاث سنوات من توليه العرش، بدأت الحرب الإيطالية- الليبية عام ١٩١١، واحتلت إيطاليا، ليبيا بعد حرب دامت سنة. واندلعت حرب البلقان، وهُزمت الدولة العثمانية، وتمكن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي من إحكام قبضتهم على السلطة. واشتعلت الحرب العالمية الأولى، وانضمت الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا في الحرب. وهُزمت الدولة العثمانية، وحليفتها ألمانيا. توفي قبل استسلام الدولة بعدة شهور، وتولى بعده أخوه، السلطان محمد وحيد الدين. انظر محمد إحسان حقي، ذيل تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، تحقيق محمد إحسان حقي، دار النفائس، بيروت ١٩٨٦، ص ٧١٥، ٧١٦

(11) داجوبيرت فون ميكوش، مصطفى كمال، المثل الأعلى، ترجمة كامل صموئيل مسيحة، المكتبة الأهلية في بيروت للترجمة والتأليف والنشر، بدون تاريخ، ص ١٤١،١٤٢

أسباب دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب الألمان

كانت الدولة العثمانية ترتبط بعلاقات وطيدة مع ألمانيا. فقد بدأ التقارب العثماني- الألماني منذ عهد السلطان عبد الحميد الثاني[١٢] الذي أدرك أنه بحاجه إلى وجود قوة أوروبية تسانده، لمقاومة مؤامرات إنجلترا، وفرنسا، وروسيا، وللحد من نفوذهم، فوطد علاقاته بألمانيا لهذا الغرض، وأيضا لتنفيذ الكثير من مشروعاته. وكان السلطان يحرص على ألا تتحول علاقته بألمانيا، إلى مخططات استعمارية، ليوجد نوعاً من التنافس الدولي الذي يبعد الأطماع الغربية عن بلاده.

فقد رأى السلطان عبد الحميد الثاني أن ألمانيا بقيادة القيصر ويليام الثاني (١٨٨٨ – ١٩١٨)، لا تبغي السيطرة والاستعمار مثل بريطانيا وفرنسا. وكانت ألمانيا حينئذ قد حققت وحدتها، ووجدت في الدولة العثمانية مجالاً واسعاً للتعاون. واعتقد القيصر أن تقوية علاقاته معها، سيؤدي إلى حل مشكلات ألمانيا الاقتصادية، فقد كانت القوة الإنتاجية الصناعية في ألمانيا وتجارتها في تزايد مستمر، وأصبح مستقبلها الاقتصادي مرتبطاً بمقدرات استانبول.

وكان من ثمار التقارب الألماني- العثماني، التعاون العسكري بين الجانبين. فأرسل

---

(12) السلطان عبد الحميد الثاني: هو ابن السلطان عبد المجيد الأول، وشقيق السلطان محمد وحيد الدين. وهو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية. ولد في ٢١ سبتمبر ١٨٤٢م، وتولى الحكم عام ١٨٧٦ م بعد خلع أخوه مراد الخامس. كانت الدولة عند توليه السلطنة تعاني من سوء الوضع الداخلي، حيث ورثت أزمة مالية اشتدت وطأتها في عهد السلطان عبد العزيز. وسوء الوضع الخارجي بسبب تمرد البوسنة والهرسك، وإعلان الصرب الحرب على الدولة، والحرب الروسية التي اندلعت في١٨٧٧، وقيام الثورات في بلغاريا بتحريض من روسيا والنمسا. واتفقت الدول الغربية على عقد مؤتمر استانبول لبحث المسألة الشرقية. وأظهر السلطان روحا إصلاحية، وعهد بمنصب الصدر الأعظم إلى مدحت باشا، أحد زعماء الإصلاح، فأمر بإعلان الدستور الذي ضم ١١٩ مادة، تضمنت حقوق يتمتع بها السلطان كأي ملك دستوري. ونص على تشكيل مجلس نواب منتخب يسمى بمجلس المبعوثان. ولكنه ألغى العمل بالدستور. ثم. دبرت جمعية (الاتحاد والترقي) انقلابا على السلطان عبد الحميد الثاني تحت شعار (حرية، عدالة، مساواة)، وأجبرته على إعادة العمل بالدستور. وتم عزله عام ١٩٠٩ بعد اتهامه بالرجعية، وتنصيب شقيقه محمد رشاد خلفاً له. وأقام السلطان عبد الحميد الثاني تحت الإقامة الجبرية حتى وفاته في ١٠ فبراير ١٩١٨م. ومن إنجزاته دعوة جميع مسلمي العالم إلى الوحدة الإسلامية، والانضواء تحت لواء الجامعة الإسلامية. كما اهتم بتدريب الجيش وتقوية مركز الخلافة. انظر محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، أخر السلاطين العثمانيين الكبار، سلسلة أعلام المسلمين، دار القلم، دمشق،الطبعة الأولى ١٩٩٠، ص ٣١-٤٩.

السلطان عبد الحميد الثاني، العسكريين الأتراك إلى ألمانيا ليستكملوا دراساتهم في معاهدها العسكرية، وأوفد الضباط لحضور المناورات العسكرية. واستورد منها الأسلحة والذخائر. وأهم المشروعات التي نفذتها ألمانيا في أراضي الدولة العثمانية، هو خط سكة حديد بغداد(١٣).

في بداية الحرب صادر الإنجليز البارجتين التركيتين (سلطان عثمان) و(رشيدية)-اللتان كان يتم صنعهما في بريطانيا- وقاموا بضمهما إلى أسطولهم، فسمحت الحكومة التركية للطرادين (جوبن وبريسلاف) الألمانيتين بالدخول إلى مياه الدردنيل في ١١ أغسطس ١٩١٤، وبقاء بحارتهما فيهما، على الرغم من احتجاج الحلفاء. فقررت الحكومة البريطانية سحب بعثتها البحرية من استانبول، بسبب رفض الحكومة التركية إرسال البحارة الألمان إلى بلادهم. ودخول هذين الطرادين إلى الدردنيل كان قد جرى باتفاق مسبق مع أنور باشا وطلعت باشا، بهدف تقوية الأسطول العثماني وتعزيزه. ولما ثارت المشكلة قامت الدولة بشرائهما وأطلقت علي أحدهما اسم السلطان سليم (ياووز) والآخر (ميديلي)، وعينت الأميرال (سوشون)، على رأس الأسطول السلطاني في البحر الأسود في ١١ أغسطس(١٤). وكانت النوايا الفرنسية تجاه الدولة العثمانية واضحة، فعندما قام جمال باشا بزيارة فرنسا مندوباً عن الباب العالي، لحضور المناورات الفرنسية، وللتباحث بشأن عقد معاهدة لتقوية العلاقات بين البلدين، كشف تلك النوايا عندما اقترحت فرنسا شروطاً لإعطاء استقلال داخلي لسوريا وإطلاق يدها فيها. هذا كله أدى إلى تقوية جانب أنور باشا وأنصاره المؤيدين لدخول الحرب. كما كانت هناك أسباب أخرى رجحت كفة الانحياز إلى جانب الألمان، منها الإحساس التركي بالخطر الروسي المحدق، ومحاولة رد الجميل للألمان الذين ساعدوا الدولة في حروب البلقان، على الرغم من الهزيمة المنكرة. وهكذا اختار الأتراك الدخول في الحرب إلى جانب الألمان، برغم الأطماع الألمانية في بلاد الشرق التي لم تكن مكشوفة، على العكس

---

(13) محمد سهيل طقوش، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، دار بيروت المحروسة، الطبعة الأولى ١٩٩٥، ص ٤٧٨ - ٤٨٠

(14) روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، الجزء الثاني، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٣، ص ٣٠٦ وانظر أيضا Ahmed Emin, "Turkey in the World War", Oxford University Press,London 1930, p.72

من أطماع الحلفاء التي كانت واضحة، حيث أخذت طابعاً عملياً باحتلال فرنسا لبلاد المغرب، ومعظم أفريقيا الوسطى، والقرن الأفريقي. وباحتلال إنجلترا لمصر، وإيطاليا لطرابلس الغرب، وإريتريا، وجزء من الصومال، بالإضافة إلى جنوبي الجزيرة العربية، وشرقها، وبلاد الهند. وبرغم محاولات الحلفاء لإبقاء تركيا على الحياد، بإغرائها ببعض العروض مثل إلغاء الامتيازات الأجنبية(١٥)، وتقديم القروض لها في مقابل تسريح البعثة الألمانية، وإعادة بحارتها إلى بلادهم، ولكن الاتحاديين رفضوا العروض، وألغوا الامتيازات الأجنبية من تلقاء أنفسهم في سبتمبر ١٩١٤. إذ كان في مقدمة الأسباب التي دفعت تركيا للدخول في الحرب العالمية الأولى، رغبتها الشديدة في إلغاء الامتيازات الأجنبية التي كانت تقف في طريق محاولات الإصلاح، التي كانت تقوم بها حكومة طلعت باشا، الذي أراد إدخال الحضارة الغربية للبلاد، والتخلص من تهديدات الدول الكبرى، التي كانت تعيق هذا الإصلاح. كما قام الاتحاديون بإغلاق مضيقي البوسفور والدرنيل في وجه السفن الأجنبية(١٦).

انضمام الدولة العثمانية إلى الحرب

بعد فشل الألمان في معركة المارن، استمالت ألمانيا الدولة العثمانية للدخول في الحرب، وفتح جبهة روسية جديدة في البحر الأسود، حتى تضطر روسيا إلى نقل قوات إلى القوقاز، وتضطر انجلترا إلى حماية قناة السويس ومصر، والاحتفاظ بقسم كبير من قواتها في مصر، بدلاً من إرسالها إلى الجبهة الغربية، وهي ميدان الحرب الرئيسي في أوروبا، وبذلك يتم تخفيف الضغط على الجبهة الغربية(١٧). واستغلت ألمانيا الأزمة المالية التي كانت تمر بها تركيا، فعرضت تقديم قرض مالي يبلغ خمسة مليون ليرة. لكن السلطان محمد رشاد، والصدر

---

(15) كانت الامتيازات التجارية والاقتصادية التي أتاحتها الامتيازات الأجنبية، تثير استياء الأتراك. فقد كانت الشركات التجارية الأجنبية مستقلة وبعيدة عن سيطرة الأتراك، وكان الأجانب بموجب هذه الامتيازات، لايسددون الضرائب أو رسوم الإقامة للدولة العثمانية، برغم استفادتهم من الخدمات التي تقدمها الحكومة. وقد رأت قوات الحلفاء أن إلغاء الإمتيازات، تصرف غير مشروع من الحكومة التركية. انظر Arnold J. Toynbee, "Türkiye, Bir Devletin Yeniden Doğuşu",11,Baskı,Çağdaş Matbaacılık ve Yayıncılık Ltd.Şti.Ocak 2000, s.51-53

(16) داجوبيرت فون ميكوش، مصطفى كمال، المثل الأعلى، مرجع سبق ذكره، ص ١٣١

(17) توفيق برو، القضية العربية في الحرب العلمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) دمشق ١٩٨٩، ص ١٠٠

الأعظم طلعت باشا، والشعب التركي بصفة عامة، كانوا يعارضون دخول تركيا الحرب، ويرجحون وقوفها على الحياد. وكان جمال باشا يريد أن تدخل تركيا الحرب إلى جانب الحلفاء وسعى لذلك، ولكن دول الحلفاء كانت ترفض انضمام تركيا إليهم. واستغل أنور باشا وزير الحربية، معاداة ألمانيا لروسيا ليقنع الأتراك بضرورة التحالف مع ألمانيا، لإحباط مساعي روسيا الهادفة إلى السيطرة على المضائق. فعقد اتفاقاً سرياً- بدون علم جمال باشا، وبقية أعضاء الوزارة- مع ألمانيا من أجل خروج الأسطول العثماني إلى البحر الأسود، وضرب المرافئ الروسية. فأصدر أنور باشا أوامر للأسطول بالتحرك نحو الموانئ الروسية على البحر الأسود، دون استشارة مجلس الوزراء، وهو يعلم أن ذلك الأمر كفيل بإدخال الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا. ورغم معارضة جمال باشا وزير البحرية آنذاك لهذه الأوامر، اضطر للرضوخ في النهاية بسبب الأزمة المالية التركية، ولأنه رأى أن ألمانيا يمكنها حماية الدولة العثمانية من الأطماع الروسية فيها، بعد رفض الحلفاء محاولته دخول تركيا الحرب إلى جانبهم. ثم وقعت المعركة البحرية حيث دخلت قطعتان بحريتان تركيتان ميناء (أوديسا) الروسي، وأغرقتا الطراد الروسي (دويتر). وجرت معارك بحرية بين القطعة البحرية الألمانية (برسلو) و(كيفاتودوسيا) الروسية، وبين (حميدية) العثمانية و(توفوروسله) الروسية. وإثر هذه المعارك دخلت الدولة الحرب إلى جانب الألمان. وأغرق الأسطول العثماني، عدداً من السفن الروسية، فاحتج سفراء دول الحلفاء على ذلك. ولم تجب الحكومة العثمانية على احتجاجهم، فأعلن الحلفاء الحرب على الدولة العثمانية في نوفمبر ١٩١٤(١٨).

وفي ١٨ مارس ١٩١٥، حاول الإنجليز غزو الدردنيل بشن حملة عسكرية على شبه جزيرة غاليبولي، بهدف إنشاء ممر بين البحر الأبيض والبحر الأسود، والاستيلاء على استانبول، لإنقاذ روسيا من عزلتها ومحاصرة ألمانيا. ولكن هذه الحملة فشلت، وانهزم الأسطول الإنجليزي، فقام الحلفاء بمهاجمة ممتلكات الدولة العثمانية في الشرق الأوسط. وأعلنت انجلترا حمايتها على مصر، وانشغل الإنجليز بتعزيز الدفاع عن قناة السويس من الشرق، بعد فشل الهجوم التركي على القناة. وفي العراق، حاول الإنجليز إنقاذ جيشهم الذي

---

(18) روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، الجزء الثاني، ترجمة بشير الشباعي، مرجع سبق ذكره، ص ٣٠٦ ،٣٠٧ ومذكرات جمال باشا، تعريب علي أحمد شكري، القاهرة ١٩٢٣، ص ل- م. وانظر أيضا Lewis Geoffrey, "Turkey", Ernest Benn, London 1974, p. 45,46

حاصره الأتراك عند كوت[١٩]. وكانت هذه أول حرب تدخلها إنجلترا ضد الدولة العثمانية[٢٠].

نهاية الحرب

تمكن الحلفاء من اختراق خط (هندنبرج) الدفاعي، بعد معركة المارن وغيرها من المعارك التي وقعت في مقدونيا في ١٥ سبتمبر عام ١٩١٨م، وفي فلسطين. وصار الموقف الحربي سيئاً بالنسبة لألمانيا والنمسا والمجر وتركيا وبلغاريا. وساعد دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب في بداية عام ١٩١٨، على إحراز الحلفاء النصر ضد الألمان وحلفائهم. فقد شاركت الولايات المتحدة بـ ٢ مليون مقاتل، تمركز أغلبهم في فرنسا[٢١]. واضطرت بلغاريا لإلقاء السلاح في ٢٩ أكتوبر، وتركيا في ٣٠ أكتوبر، وخرجت دولة (النمسا ـ المجر) مفككة، بعد هزيمتها في معركة (فيتوريو ـ فينيتو) أمام الجيش الإيطالي في ٣ نوفمبر، وأصبحت موازين القوى الأوربية في صالح الحلفاء. وبدأت الدعوة إلى عقد مؤتمر للسلام لبحث مصير الشعوب التي ترغب في الاستقلال. واضطرت ألمانيا إلى قبول جميع الشروط المفروضة عليها من جانب الحلفاء، بمقتضى هدنة نوفمبر[٢٢]. وانعقد مؤتمر لندن في ديسمبر ١٩١٨[٢٣]، وتم افتتاح مؤتمر الصلح في باريس[٢٤] في ١٨ يناير ١٩١٩ بحضور ٢٧ دولة.

---

(19) محمد صلاح الدين حسين، الحرب العالمية الأولى، إستراتيجية الميدان الغربي، سبق ذكره، ص ١٠١

(20) علي حسون، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٧

(21) Winston S. Churchill, "The World Crisis (1911-1918)" vol.2, Odhams Press, London 1939, pp. 1384,1385

(22) بعد هزيمة ألمانيا أمام الحلفاء، طلب القادة الألمان لوندروف وهندنبرج من الحكومة الألمانية الاتصال بالرئيس الأمريكي ويلسون، ليتوسط في طلب الهدنة من الحلفاء، واعتبار هذا استسلاماً غير مشروط. وعندما طلبت الحكومة الألمانية من ويلسون ضرورة عقد الصلح، اشترط ويلسون أن تنسحب القوات الألمانية من الأراضي التي احتلتها أولاً، ثم يبدأ التفاوض بشأن مسألة الهدنة. ووافقت ألمانيا على جميع الشروط التي وضعها ويلسون في مبادئه الـ ١٤ التي أعلنها في ٨ يناير عام ١٩١٨، وأن تكون هذه المبادئ أساساً للصلح. وتم توقيع الهدنة في ١١ نوفمبر ١٩١٨. انظر
U.S Foreign Relations, vol.1, Diplomatic papers 1918, U.S Government Printing Office, Washington 1933, p. 337- 358

(23) انعقد مؤتمر لندن في بداية ديسمبر ١٩١٨، وحضره ممثلوا دول الحلفاء، والرئيس الأمريكي ويلسون. ركز المؤتمر على المسائل المتعلقة بتشكيل مؤتمر الصلح، وخاصة تحديد مكان المؤتمر، حيث تم اختيار باريس مكاناً لانعقاده. كما اهتم المؤتمر بتنفيذ شروط الهدنة، وبحث مسألة المستعمرات، وحرية الملاحة، وتحديد

وتم توقيع معاهدة فرساي[25] في ٢٨ يونيه ١٩١٩، تلك المعاهدة التي فرضت على ألمانيا تسليم أساطيلها البحرية، وعتادها الحربي، وإخلاء الضفة اليسرى من نهر الراين التي احتلها الحلفاء[26].

الدولة العثمانية عند انتهاء الحرب

كانت نهاية الحرب العالمية الأولى هي بداية تفكك الدولة العثمانية، وانهيارها بعد ذلك. وفقد الأتراك الولايات العربية التي كانت خاضعة للدولة العثمانية في الشرق العربي الأسيوي، وتم تقسيمها إلى دويلات. وبعد هدنة موندروس، تم تقسيم الوطن التركي بين المنتصرين، ففقد الأتراك أجزاء من دولتهم احتلتها قوات الدول الأوروبية المنتصرة ومعهم اليونانيين. وفقد الشعب التركي حريته واستقلاله، ولم يعد أمامه سوى الالتجاء لمبادئ ويلسون[27]. وكانت نهاية الحرب هي بداية الأحداث التي أدت إلى إلغاء السلطنة ثم الخلافة

مسئولية الدول التي انهزمت في الحرب. انظر Marston .V.S., "The Peace Conference of 1919" (Organization and Procedure), London 1944, p 44

(24) بدأ مؤتمر باريس في ١٢ يناير ١٩١٩، بحضور رؤساء حكومات ووزراء خارجية الدول الأربعة العظمى المنتصرة في الحرب، وهى الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وإيطاليا وفرنسا. وتم انتخاب كليمنصو رئيس وزراء فرنسا، رئيساً للمؤتمر، وأُستبعدت منه الدول المهزومة، وروسيا، والدول المحايدة. انظر شوقي عطا الله الجملة، عبدالله عبد الرازق ابراهيم و رباب محمود عبد الحميد سلام، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، "من مؤتمر فينا ١٨١٥ حتى الآن"، الجزء الثاني، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ص ١٢٨

(25) اضطر الألمان في ٢٨ يونيو ١٩١٩ إلى التوقيع على معاهدة الصلح (فرساي) بالشروط التي اتفق عليها الحلفاء، رغم احتجاجهم على هذه الشروط. واشتملت المعاهدة على البنود التالية:
تأسيس عصبة الأمم، حيث نصت المعاهدة على مبادئ إنشاء هذه المنظمة. رسم حدود ألمانيا مع جيرانها. تشكيل خريطة أوروبا بعد الحرب. نزع سلاح ألمانيا. محاكمة الأفراد المتهمين بخرق القوانين والمعاهدات الدولية أو بارتكاب جرائم ضد قوانين الحرب. التعويضات. انظر شوقي عطا الله الجملة، عبدالله عبد الرازق ابراهيم و رباب محمود عبد الحميد سلام، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، من مؤتمر فينا ١٨١٥ حتى الآن، الجزء الثاني، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٩، ١٣٠

(26) أحمد إسماعيل ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى ١٩٩٦، ص ٢٢٥

(27) بعد انتصار الحلفاء في الحرب بفضل تدخل الولايات المتحدة، رفض الرئيس الأمريكي ويلسون التقيد بالاتفاقيات السرية التي أبرمت في عامي ١٩١٥ و ١٩١٦، بين دول الحلفاء لتوزيع غنائم الحرب. وأراد أن يقيم العلاقات الدولية بعد الحرب على أسس جديدة تضمنت ١٤ مبدأ- للسلام، ولإعادة بناء أوروبا من جديد بعد الحرب العالمية الأولى- أعلنها في ٨ يناير ١٩١٨ وتشمل:

بعد ذلك، وإلى قيام الجمهورية التركية(٢٨).

بعد هزيمة الأتراك في الحرب، وعقد هدنة موندروس في ٣٠ أكتوبر ١٩١٨، قرر زعماء حزب الاتحاد والترقي مغادرة البلاد هرباً من مسؤوليتهم عن الحرب والهزيمة. وهؤلاء الزعماء هم طلعت باشا، رئيس الوزراء وأنور باشا، وزير الحربية وأحمد جمال باشا، وزير البحرية وقائد الحملة العثمانية على الجبهة المصرية وحاكم سوريا، وعزمي بك، والي بيروت وبدري بك، مدير شرطة استانبول والدكتور ناظم بك، والدكتور بهاء الدين بك، من كبار رجالات الحزب.

غادر هؤلاء السبعة البلاد في أوائل نوفمبر عام ١٩١٨، على ظهر سفينة حربية ألمانية إلى جزيرة القرم التي كانت تحت السيطرة الألمانية آنذاك. وهناك استقبلتهم السلطات الألمانية بالترحاب، ووضعت تحت تصرفهم قطار حملهم إلى برلين بناءً على طلبهم(٢٩).

---

١. تقوم العلاقات الدولية على مواثيق سلام عامة، وتكون المعاهدات الدولية علنية وغير سرية.

٢. تأمين حرية الملاحة في البحار خارج المياه الإقليمية في السلم والحرب، إلا ما ينص عليه الاتفاق الدولي خلافا لذلك.

٣. إلغاء الحواجز الاقتصادية بقدر الإمكان، وإيجاد مساواة بين الدول المتعاونة في المحافظة على السلام.

٤. تخفيض التسلح إلى الحد الذي يكفل الأمن الداخلي.

٥. وضع إدارة عادلة للمستعمرات تنفذ ما يحقق مصالح سكانها.

٦. الجلاء عن الأراضي الروسية كلها، والتعاون مع أي حكومة روسية يختارها الشعب.

٧. الجلاء عن أراضي بلجيكا وتعميرها.

٨. الجلاء عن فرنسا، ورد الألزاس واللورين، وتعمير ما خرب منها بسبب الحرب.

٩. إعادة النظر في حدود إيطاليا بحيث تضم جميع الجنس الإيطالي.

١٠. منح القوميات الخاضعة للإمبراطورية النمساوية حق تقرير مصيرها.

١١. الجلاء عن صربيا ورومانيا والجبل الأسود، وإعطاء صربيا منفذا إلى البحر، وإقامة علاقات جديدة بين دول البلقان كافة مبنية على أسس قومية وتاريخية، وضمان حريتها السياسية والاقتصادية.

١٢. ضمان سيادة الأجزاء التركية، وإعطاء الشعوب الأخرى غير التركية التي تخضع لها حق تقرير المصير، وحرية المرور في المضائق لجميع السفن بضمان دولي.

١٣. بعث الدول البولندية بحيث تضم جميع العنصر البولندي، وإعطائها منفذاً إلى البحر، وضمان استقلالها السياسي والاقتصادي دوليا.

١٤. إنشاء عصبة الأمم. انظر U.S Foreign Relations, op.cit, p. 15,16

(28) Tevfik Bıyıklıoğlu, "Atatürk Anadolu'da", a.g.e. s.59

(29) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق محمد إحسان حقي، دار النفائس، بيروت

احتوت التسوية التي تمخضت عنها معاهدة موندروس ثلاثة أقسام:

١ - التسوية في أوروبا وبصفة خاصة في تراقيا.

٢ - تدويل المضائق واستانبول، ووضعهم تحت انتداب الولايات المتحدة الأمريكية.

٣ - تسوية مشكلات أسيا الصغرى والعراق وفلسطين وسوريا والجزيرة العربية.

وأصبحت الدولة العثمانية بعد التسوية قاصرة على تركيا، بعد أن احتل الجيش البريطاني العراق حتى الموصل، والشام وحلب. وسيطرت قوات الحلفاء على المضائق، وأعادت إغلاقها في وجه السفن الحربية، وفرضت على تركيا معاهدة سيفر في ١٠ أغسطس ١٩٢٠[٣٠].

وهكذا ضاعت نصف الدولة العثمانية بضياع دمشق والقدس وبغداد والموصل وحلب. وأخذ العرب يحلمون بتكوين إمبراطورية عظمى تضم كل العرب. وأصبحت خطوط السكك الحديدية والمنافذ البحرية، تحت سيطرة الحلفاء. وأصبح في وسع الدول الكبرى أن تتقدم لالتهام ما تبقى من الدولة العثمانية[٣١].

قال لويد جورج[٣٢]، رئيس وزراء بريطانيا حينئذ- موضحاً أن إلغاء الخلافة كان أحد نتائج الحرب العالمية الأولى- في مقالة نشرتها جريدة الديلي كرونكل، افتتحها بعنوان (قُضي الأمر وأُلغيت الخلافة الإسلامية): "إن عاصفة الحرب التي ثارت في ١٩١٤ - ١٩١٨، زعزعت شجرة البيت العثماني ثم اقتلعتها بخلع أخر الخلفاء، وطرد الأسرة كلها رجالاً ونساءً من أملاك الحكومة التركية. كما زعزعت شجرة الخلافة التي ظلت قائمة أكثر من ألف عام، ثم أسقطتها على الأرض كما تسقط أعجاز النخيل الخاوية"[٣٣].

١٩٨٦، ص ٧٢٣ .

(30) محمد سهيل طقوش، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، مرجع سبق ذكره، ص ٥٦٣

(31) داجوبيرت فون ميكوش، مصطفى كمال، المثل الأعلى، مرجع سبق ذكره، ص ١٧١

(32) ديفيد لويد جورج (١٨٦٣ - ١٩٤٥م): أحد زعماء حزب الأحرار البريطاني، دخل الحياة البرلمانية عام ١٨٩٠. وأصبح رئيسًا للوزراء أثناء النصف الأخير من الحرب العالمية الأولى من ١٩١٦ إلى ١٩٢٢، استطاع أن يسيطر على السياسة الخارجية البريطانية، ويحدث تغييراً كبيراً في نظام الحكم البريطاني. انظر The New Encyclopaedia Britannica, vol. 7, London 1988, p.424

(33) صحيفة المقطم، العدد رقم ١٠٦٦٨، السنة السادسة والثلاثون، ٣ ابريل ١٩٢٤م، ٢٨ شعبان ١٣٤٢ هـ.

الفصل الأول

السلطان محمد وحيد الدين نشأته وحياته

مولده

ولد السلطان محمد وحيد الدين ابن السلطان عبد المجيد الأول[1] في ٤ يناير عام ١٨٦١ م، ٢١ جمادى الأخر عام ١٢٧٧هـ، في قصر (دولمة باغجة). وكان هو أصغر الأبناء الذكور الذين يبلغ عددهم ٤٢ وترتيبه ٢٣ من بينهم. وأمه هي السيدة (إقبال جوليستو)، وهي الزوجة الرابعة للسلطان عبد المجيد. مات أبوه في ٢٥ مايو عام ١٨٦١م. وماتت أمه بعد وفاة زوجها بأربعة أعوام في عام ١٨٦٤م، متأثرة بوباء الكوليرا الذي انتشر في استانبول آنذاك.

أصبح وحيد الدين يتيماً بعد وفاة والده، فلم يكن قد بلغ عامه الأول[2] إذ كان عمره أربعة شهور فقط. وعندما ماتت أمه كان عمره أربعة أعوام[3].

نشأته وثقافته

عندما توفى السلطان عبد المجيد الأول، وتولي بعده أخوه السلطان عبد العزيز[4]، قام الأخير بإخراج

---

(1) تولى السلطان عبد المجيد الأول بن السلطان محمود الثاني ووالد السلطان وحيد الدين، السلطنة العثمانية لمدة ٣١ عاماً وعشرة شهور. ولد عام ١٨٢٢، وتولى السلطنة وعمره ١٨ عاماً. كانت الحكومة عند توليه الحكم في غاية الاضطراب بسبب انتصار جيوش محمد علي في نصيبين، واحتلالها عينتاب وقيصرية وملطية. استمر السلطان عبد المجيد الأول في عملية الإصلاح الداخلي، التي بدأها والده السلطان محمود الثاني، الذي كان يهدف إلى تحديث الدولة. وأدرج هذه الإصلاحات في الفرمان المعروف (بفرمان كلخانة)، الذي أصدره بإيعاز من مصطفى رشيد باشا في عام ١٨٣٩، وقُرأ علناً أمام الوزراء والأعيان. واستكمله عام ١٨٥٦ بفرمان التنظيمات، الذي سُمي (بالخط الهمايوني)، وفيه تم إضفاء صفة الرسمية على حركة تغريب الدولة العثمانية. ومن أهم بنوده إلغاء نظام الالتزام، والقضاء على الرشوة والفساد. معاملة جميع رعايا الدولة معاملة متساوية، مهما كانت أديانهم ومذاهبهم. والمساواة في التجنيد بين المسلمين وغير المسلمين. والقضاء على حواجز نظام الملل، ليتمتع كل مواطني الدولة العثمانية بحق المواطنة، مع فتح المجال لغير المسلمين ليتولوا وظائف الدولة .وتوفي في عام ١٨٦١. انظر İslam Ansiklopedisi,cilt 1 Beşinci Baskı,Milli Eğitim Basımevi, İstanbul 1978, s.92-94

(2) -Murat Bardakçı, "Şahbaba", yaylacık Matbaası, Pan Yayıncılık, dördüncü basım, İstanbul 1998, s.31,35,

(3) Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", Büyük Doğu yayınları, İstanbul 1975, s. 20

(4) السلطان عبد العزيز: هو عم السلطان عبد الحميد الثاني، والسلطان وحيد الدين. ولد في عام ١٨٣٠، وتولى العرش في عام ١٨٦١ بعد وفاة أخيه السلطان عبد المجيد الأول، وفي عهده قامت ثورة كريت وأخمدت عام ١٨٦٩. وتم فتح قناة السويس عام ١٨٦٩، وفي نفس العام صدرت مجلة الأحكام العدلية، والقوانين التي أجازت للأجانب امتلاك العقارات. وأصدر قانون التجارة البحرية. وسار السلطان عبد العزيز في طريق الإصلاح وساوى بين جميع رعايا الدولة، حتى لا يسمح لأوروبا بالتدخل في شؤون الدولة، بحجة طلب هذه المساواة. ثم أنشأ نيشان الشرف العثماني، لمكافأة من يخدم الدولة والملة والدين بكل صدق وأمانة. وابتدع السلطان عبد العزيز عادة السفر للخارج لتفقد ملكه، فسافر إلى مصر بصحبة الأمراء، مراد أفندي الذي تولى السلطنة بعده وعبد الحميد أفندي، ورشاد أفندي، ويوسف عز الدين أفندي، والوزيران فؤاد باشا، ومحمد باشا. كما سافر إلى باريس بدعوة من الإمبراطور نابليون الثالث. وفي عهده حصلت مصر على امتيازات كثيرة، فصارت ولاية مصر خديوية بمقتضى فرمان ٧ يوليو ١٨٦٧. وانحصرت الخديوية في ابناء إسماعيل باشا الذى حصل على لقب خديوى أي نائب السلطان. اهتم بالأسطول والجيش العثماني. وأنشأ المدارس العسكرية. وتم عزله عام ١٨٧٦. ويؤكد بعض المؤرخين إنه قُتل بتدبير من أعضاء تركيا الفتاة الذين أعلنوا أنه مات منتحراً. تولى بعده مراد الخامس ابن أخيه عبد المجيد الأول. انظر

أرملة أخيه - وهي والدة وحيد الدين- من القصر ومعها طفلاها، هو وأخته مديحة التي كانت في سن الخامسة، حيث أرسلهم إلي أحد القصور الواقعة على الساحل في منطقة أيوب، وهو قصر كان يسكنه أحد السلاطين القدامى.

وعندما ماتت والدته، أرسل هو وأخته للإقامة عند زوجتين أخريتين من أرامل السلطان عبد المجيد الأول. فأرسلت أخته مديحة إلى أم أخيها الأكبر (كمال الدين أفندي)(٥)، واسمها (فارديسانان)، وهي الزوجة الثالثة للسلطان عبد المجيد الأول. أما وحيد الدين فقد تربى عند (شايستا هانم)، زوجة السلطان عبد المجيد الخامسة.

لم يسعد وحيد الدين في حياته مع (شايستا هانم) بسبب تسلطها، فرحل في بداية شبابه من منزل زوجة أبيه. واستقر في جناح، في أحد القصورالصغيرة التي أقامها السلطان عبد العزيز من أجل إقامة أولاد أخيه، السلطان الراحل عبد المجيد الأول، الذين لا سكن لهم. وكان معه في هذا الجناح اثنين من الخدم، وهم مساعده الذي لازمه منذ مولده، وخادمته السيدة (مهرة فلك)، والطائر الذي كان يلازمه وتربى معه في القصر(٦).

تلقى وحيد الدين تعليمه في مدرسة الفاتح، وكان يهتم بتثقيف نفسه، ويقضي معظم وقته في القراءة في موضوعات كثيرة ومختلفة. وكان يتلقى دروساً خصوصية لاستكمال تعليمه. ومن الموضوعات التي شغلت اهتمامه - وكانت أيضا موضع اهتمام آبائه وأجداده- هي الأدب والموسيقى والخط(٧).

كان السلطان وحيد الدين يجيد العزف على آلة (القانون) الذي كان صديقه في فترة إمارته، وفي سنوات نفيه. فقد نظم عدة أغاني يتحسر فيها على الوطن، ويناجي فيها الله، ويدعوه أن يرحمه من عذابه في محنته، ويخفف آلامه.

وكان ملماً بالأدب، وبأصول الوزن والقافية. وله أشعار كتبها في فترة شبابه، وأشعار حزينة كتبها وهو بعيد عن الوطن، وكانت من بين أوراقه عند وفاته.

وكان خطاطاً بارعاً كالمحترفين مثل الكثير من أجداده. وكان رائعاً في خط الرقعة، وكتابته مستوية، ولا

مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة وتقديم وتحقيق وتعليق محمد حرب عبد الحميد. كلية الآداب جامعة عين شمس، دار الأنصار، القاهرة ١٩٧٨ص ١٣٥

(5) كلمة أفندي كلمة يونانية دخلت إلى اللغة التركية عن طريق بيزنطة، واستخدمها أتراك أسيا الصغرى في العهد السلجوقي. ثم استخدمها العثمانيون في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، للدلالة على الشخص المتعلم. ألغيت هذه الكلمة رسمياً كلقب في عهد الجمهورية في تركيا، بمقتضى القانون رقم ٢٥٩٠ بتاريخ ١٢/٢٦ /١٩٣٤. انظر مذكرات السلطان عبد الحميد، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٥

(6) Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s.36,37

(7) كان السلطان محمد الفاتح، والأمير جم، وياووز(السلطان سليم الأول)، والسلطان سليمان القانوني، والسلطان أحمد الأول وغيرهم من سلاطين وأمراء آل عثمان، يقرضون الشعر. وكان السلاطين سليم الثالث، ومحمود الثاني، وعبد العزيز، والأمير قورقود يعزفون الموسيقى، ويلحنون. وكان السلطان أحمد الثالث، والسلطان محمد الثاني خطاطين.

يجد صعوبة في وضع أفكاره على الورق. وكان يكتب معظم كتاباته بالقلم الرصاص.

كان مولعاً بالفقه - وهو كل ما يتعلق بالشريعة والعبادات والمعاملات- فقد درس الفقه وتفسير القرآن والحديث واللغتين العربية والفارسية. وتعلم جيداً قواعد هاتين اللغتين، وبلغ مستواه فيهما إلى حد القراءة وفهم النصوص، لكن الحديث بهما كان ضعيفاً[٨]. وكان يعرف اللغة الفرنسية لكنه لم يكن يتحدث بها كثيراً[٩].

كان وحيد الدين متعمقاً أيضا في العلوم الإسلامية الأخرى، وفي فترة سلطنته كان يناقش بعض الفتاوى، ويطلب إجراء تعديل بعض النصوص.

وكان دائم الاطلاع على العلوم الشرقية، والفلسفة الإسلامية. ويحرص على حضور مجالس العلم ويحب الجلوس مع المتبحرين في علوم التصوف.

وتعلم وحيد الدين الرماية والفروسية، وكان من عادته التجول وهو مسلح. فكان يخرج بصحبة ابن عمه الأمير عبد المجيد أفندي، حيث يتدربان على الرماية في الحدائق التي خلف البسفور. وكان وحيد الدين لا يفارق سلاحه، وكان يتجول داخل قصره وهو يحمله. وخلال سنوات نفيه كان معه مسدسان، أحدهما في جيبه، والآخر في غرفة نومه[١٠].

شخصيته

كان السلطان وحيد الدين مثقفاً، ويتمتع بالذكاء، ويستطيع أن يقرأ ما بداخل الإنسان بالنظر إلى عينيه. وكان لماحاً وسريع الفهم، ولم يكن يقرر شيء إلا بعد تفكير طويل. إن ماضيه نظيف جداً، فقد رأس الدولة بعد وقوعها في مستنقع الأزمة، وحمل مسئوليات جسيمة. وحتى لا يُدهس مرة أخرى من الدول المنتصرة، اضطر أن يمد يد الصداقة إلى تلك الدول. وهو هنا يشبه في تاريخ الأمم المسعودين الذين كالشمعة التي تحترق من أجل إنقاذ الشعب والوطن[١١].

كان من أذكى آل عثمان، فعندما كان يخاطب محدثه، كان يتفحصه جيداً دون أن يظهر على وجهه أي تعبير، كما كان إنساناً كتوماً مثل أخيه السلطان عبد الحميد الثاني، وكان يزن كل كلمة تخرج من فمه[١٢].

كان حساساً، وصاحب أفكار، يعرف كيف وبأي شكل يستخدمها. وهو إنسان أصيل وصاحب شرف أسطوري[١٣]. وكان ظريفاً ومقتدراً وسريع البديهة، لكنه كان حاد المزاج. ويبدو بارداً أمام من لا يألفهم،

---

(8) Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s.37-39

(9) Metin Hülagü, Tarih ve Medeniyet, Sayı: 43 Ekim 1997, s. 27.

(10) Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s .39,40

(11) Reşad Ekrem Koçu, Osmanlı Padişahları, Ana Yayınevi, İstanbul 1981, s.437

(12) الرجل الصنم، تأليف ضابط تركي سابق، ترجمة عبدالله عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨٢ م (مترجم عن التركية)، ص ٩٣، ١٢٧، ١٣٢

(13) هذا هو وصف المخابرات الإنجليزية له، في تقرير لها في عام ١٩٢٠، انظر M.İsmail çalak, Tarih ve

ولا يتحدث إلا قليلاً، أما أمام من يعرفهم فكان يبدو مؤدباً ولبقاً وشخصية إيجابية. وكانت تعبيراته صريحة، وأسلوبه واضح وصادق، وكانت حياته الخاصة بعيدة عن أي فضائح(١٤).

كان وحيد الدين رقيق الحس(١٥). ولأنه ذاق اليتم والوحدة في طفولته، صار رحيماً بالأطفال والفقراء. فقد كان يدفع للفقراء مصاريف الدراسة أو الجنازة، كما كان ينفق على المرضى(١٦). وفي عهده لم يصدر حكماً بالإعدام على أحد(١٧).

كان السلطان وحيد الدين عادلاً(١٨)، ولا يكن حقداً لأحد(١٩). وكان متديناً وإسلامه قوياً(٢٠). لم يعرف طعم الخمر طيلة عمره، باستثناء نقطة واحدة شربها عندما كان في رحلة ألمانيا في فترة ولاية عهده، حيث اضطر في أحد الولائم الرسمية إلى أن يرفع كأس الشمبانيا إلى فمه، ثم رشف نقطة واحدة، وأنزل الكأس بسرعة. وكانت لديه القدرة على التحمل والصبر على كل شيء بأصالة ووقار سلطاني(٢١).

كان وحيد الدين يهوى اقتناء السلاح وتربية الخيل. فقد كان يربي في حديقة قصره في (چنگل كوي)

.Medeniyet, Sayı:43 ekim1997, s. 17

Metin Hülagü, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s.27)14(

(15) كان يقول: "إنني أشعر دائماً بفراق والدي، وعندما أرى يتيماً في أي وقت، أتذكر في الحال شفقة الأب. فالحرمان من الأب أليم جداً". انظر Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s. 247

(16) Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s.٤١

(17) عندما كان وحيد الدين يجلس على العرش العثماني، صدر أول حكم بالإعدام ضد القائمقام كمال بك، لقيامه بقتل وتهجير الأرمن. وكان قد تم اعتقال كمال بك خلال فترة حكومة فريد باشا. أرسل الحكم إلى السلطان وحيد الدين من أجل التصديق عليه، فرفض وطلب من شيخ الإسلام صبري أفندي، إصدار فتوى شرعية حول هذا الأمر. فأصدر الشيخ فتوى لا تجيز حكم الإعدام، بوصفه حكماً سوف يؤتي بنتائج سيئة، سواء كان سلبياً أو فاسداً. فصدق وحيد الدين على هذه الفتوى ولم يتم تنفيذ حكم الإعدام. وتجاه هذا الأمر قال السلطان محمد وحيد الدين ما يلي: "سنين عديدة وأنا أرى النفس البشرية وقد أصبحت شديدة الإسراف. لا يجب الإفراط في إصدار قرارات الإعدام. فإذا أصبحت سيئات الإنسان تجاه جناب الحق كثيرة جلله فهذه أشياء بين العبد وربه. إنني جئت بجبين طاهر، ولا أبلغ الكمال حتى الحشر، ولا أريد أن أرحل عن الدنيا وأنا ملوثاً بالدماء في أيام عمري الأخيرة!". انظر Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s. 162,163

(18) عندما تولى وحيد الدين العرش قال أحمد رضا بك، رئيس مجلس الأعيان آنذاك: "بجلوس وحيد الدين على العرش، بدأ عهد العدل والقانون. وسيصير لقب الحاكم الجديد العادل، وليس الغازي" انظر Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s 80

(19) يقول السلطان وحيد الدين لباشكاتبه علي فؤاد توركجلدي: ".إنني لا أكن حقداً لأحد. ولا أشعر بأنني أريد الثأر من أحد. وإذا غضبت ذات يوم من شخص ما، ثم جاءني هذا الشخص لاجئاً إلي، يزول غضبي في الحال." انظر Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s.247

(20) يقول السلطان وحيد الدين عن نفسه ما يلي: "كان في أسرتنا العلية كافة أنواع الرجال، الثمل والظالم والمجنون والأبله، لكن لم يكن في أسرتنا أبداً الملحد الذي لا يعرف دينه! حتى عبد العزيز الذي كان أكثر منا جميعاً تحرراً ولامبالاة، كان حتى آخر نفس وهو يسلم الروح، محتضناً القرآن. ولقد رأيتم أنتم بأعينكم في مكتبة قصر يلديز، المصحف الشريف المخضب بالدماء." انظر المرجع السابق، ص ٢٤٧ .

(21) Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s.258, 272

خيول سباق، وقد منحها لمصطفى كمال باشا، الذي أرسله إلى الأناضول، وكلفه بقيادة المقاومة الشعبية(٢٢).

كان السلطان وحيد الدين شجاعاً، قادراً على المواجهة. إذ برغم إدراكه مدى نفوذ جماعة الاتحاد والترقي كان يواجههم بشجاعة(٢٣). وذات يوم خلال سلطنته، وخلال احتلال قوات الحلفاء استانبول، تردد أنه سيتم تعليق جرس في جامع آياصوفيا. فأمر وحيد الدين إحدى الفرق التي كانت موجودة في الجامع، بإشعال النيران فيمن يريدون تعليق الجرس في الجامع أو تحويله إلى متحف(٢٤). وفي تلك الأثناء هرع إلى آياصوفيا جماهير غفيرة من المسلمين، ولكنها لم تفعل شيئًا، بل وشعرت بالراحة عندما رأت هناك وحدة من الجنود الأتراك تمركزت حول الجامع بأمر من وحيد الدين(٢٥).

وحيد الدين والسلطان عبد الحميد

عندما تولى السلطان عبد الحميد الثاني العرش، كان وحيد الدين في سن الخامسة عشرة، وظل حتى سن الـ ٤٨ منتظراً دوره للجلوس على العرش. أي أن فترة شبابه ونضوجه وبداية كهولته، قضاها في "العصر الحميدي" الذي استمر لمدة ٣٣ عاماً.

كان السلطان عبد الحميد الثاني يحب أخوه وحيد الدين أكثر من باقي أخوته، حتى أنه اشترى من أخيه كمال الدين أفندي، الأراضي الواسعة التي تحيط بقصره، وأهداها إلى أخيه وحيد الدين أفندي، وكتب له وثيقة تمليك جديدة(٢٦). وكان من المقربين له من بين أخوته الأمراء الآخرين، يحب صحبته والحديث إليه وتحقيق رغباته، ويجد فيه شبيهاً له مادة ومعنى.

---

(22) Hüseyin Nihal atsız, "türk ülküsü", Burhan Yayınevi, İstanbul 1956, s.86

(٢٣) عندما كان وحيد الدين ولياً للعهد، لجأ إلى قصره في جنكل كوي، ملازم اسمه شعبان أفندي- وكان من أصدقائه-إثر تعقبه بأمر محمود شوكت باشا، قائد الإدارة العرفية في ذلك الوقت، والذي سعى للقبض عليه. وعندما علم أنه لجأ إلى قصر وحيد الدين، حاصر قصره، وطالبه بأن يسلمه هذا الشخص بدون مقاومة. فخرج وحيد الدين من باب قصره، شاهراً سلاحه قائلاً: "لاأتخلى عن شخص لجأ إلى قصري واحتمى به. ومن يقتحم قصري عنوة، فسوف أضربه بالنار، ولن تأخذوا شعبان أفندي أبداً." انظر

- Ahmet Reşit Rey, "GördüklerimYaptıklarım", Türkiye Yayınevi, İstanbul 1945, s.263

(24)- Hüseyin Hilmi Işık, "Saadet – i Ebediyye", 6 baskı İstanbul 1968, s. 976 ve Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", Sebil Yayın, Üsküdar- İstanbul 1992, s.89,90

(25) يقول الكاتب التركي صلاح الدين تانسيل : "إن الروم كانوا منذ أمد بعيد يريدون تحويل آياصوفيا إلى كنيسة مرة أخرى، وقد بذلوا مساعي كبيرة لتحقيق ذلك. ومن هذه المحاولات، هجرة الآلاف من الروم الذين كانوا يعيشون في روسيا إلى استانبول، بادعاء هروبهم من ظلم البلاشفة. وقام الأغنياء منهم بشراء منازل المسلمين المحيطة بالجامع، بأسعار مرتفعة. ولمواجهة هذا الموقف أصدرت الحكومة التركية قراراً يقول: إن من يريد بيع منزله الذي يجاور آياصوفيا، لابد أن يبيعه لوزارة الأوقاف. وبسبب ذلك تم وضع وحدة عسكرية تركية في فناء جامع آياصوفيا. انظر Selahattin Tansel, "Mondros'tan Mudanya'ya Kadar", c.1, Millî Eğitim Basımevi, İstanbul 1991, s.85,86

(26) İsmail hakkı okday, "Yanya'dan ankara'ya", Sebil yayınevi Cağaloğlu, İkinci basım, İstanbul 1975, s.335 ve Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s.40

كان السلطان عبد الحميد يُعّلم وحيد الدين كيفية إدارة شئون الدولة، ويطلعه على أسرار الحكم وأساليبه. وكان وحيد الدين خلال فترة سلطنته، يسير على منهاج عبد الحميد الثاني، ويعتقد مثله أن وجود الدولة العثمانية يتطلب سلطنة قوية، وأن يكون الإسلام عماد هذه السلطنة. ويعتبر تسرب الأفكار الغربية إلى تركيا ضاراً بمصلحة البلاد، وقاضياً على تاريخها المجيد[٢٧]. كما كانا متشابهين من ناحية علاقتهما بالدين، وارتباطهما بالإسلام . فقد كان عبد الحميد من أكثر السلاطين العثمانيين الـ ٣٦ تديناً، وخشية لله، وإحساساً بالمسئولية، ومثله كان السلطان محمد وحيد الدين.

يقول السلطان محمد وحيد الدين عن السلطان عبد الحميد، مبدياً آرائه في جمعية الاتحاد والترقي، ما يلي:

"إذا كان أخي حضرة السلطان عبد الحميد قد جاء بعد السلطان سليم (ياووز)، كان سيتبوأ أعلى مكانة من بين السلاطين العثمانيين، ويجعل الدولة صلبة، ومحكمة البنيان، وقادرة على الصمود في وجه أعدائها في الداخل والخارج. وقد ألمح لي عبد الحميد بنفسه بهذا المعني. لكنه جاء في عصر يُعد من أخطر العصور و أحرجها، وطيلة ٣٣ عاماً عايش وضعاً مأساوياً، مليئاً بالمشاكل الباقية من الماضي. ولكنه برغم ذلك استطاع أن يحافظ على المريض من الموت، وإن لم يستطع أن يجلب له الصحة والسعادة. فقد هدمته جمعية الاتحاد والترقي بسبب طبع التدين الذي كان يتمتع به، والذي لم يسمح له بأن يريق الدماء أبداً. ومن بين أبناء عبد المجيد، انتقوا من هو أكثر حلماً وسلماً و شفقة ورفقاً وتوكلاً وتحملاً، وأكثر ضعفاً في الإرادة، وأقل معرفة بالسياسة، فوجدوا فيه بغيتهم، وجاء الدورعليه، فوضعوه على العرش. وهكذا أدخلوا الدولة التي عمرت ٦٠٠ عاماً، في طريق الدمار لمدة ستة أعوام، وبعد تسعة أعوام أسقطوها. لايوجد في تاريخنا أي عدو داخلي أو خارجي استطاع الإساءة للأمة، أكثر من هؤلاء الذين أصبحوا أداة اليهود والماسون[٢٨] والدونمة[٢٩][٣٠]".

---

(27) داجوبيرت فون ميكوش، مصطفى كمال «المثل الأعلى»، مرجع سبق ذكره، ص١٥٧، ١٥٨.

(28) الماسونية: تعني "البناء الحر" وهي عبارة عن منظمة أخوية عالمية، يتشارك أفرادها عقائد وأفكار واحدة حول الأخلاق، وتفسير الكون، والحياة، والإيمان. وتتصف هذه المنظمة بالسرية والغموض- وباللذات في شعائرها في بدايات تأسيسها- مما جعلها محط كثير من الأخبار والشائعات. وهذه المنظمة، بسعة انتشارها وتمكنها من الوصول إلى معظم الحكومات العالمية القوية، هي من تملك زمام قيادة العالم. لذلك يتهم البعض الماسونية بأنها تحارب الفكر الديني، وتسعى لنشر الفكر العلماني. تزعم الماسونية إنها مؤسسة فلسفية تحب الخير للإنسانية، وترجو لها الرقي والتقدم، وتهدف إلى البحث عن الحقيقة. ودستورها هو الحرية والمساواة والإخاء، وغايتها تعميم الأخوة الماسونية السائدة بين أعضائها، كي تشمل البشرية كلها. ومن أهدافها القريبة، السيطرة على العالم عن طريق بث أفكارها، والهدف البعيد هو تأسيس جمهورية ديموقراطية عالمية خفية. انظر جواد رفعت آتلخان، أسرار الماسونية، ترجمه عن التركية وعلق عليه نور الدين رضا الواعظ وسليمان محمد أمين القابلي، بيروت، مكتبة المثقف، سنة ١٣٧٦ هـ، ص ١٩- ٣٠.

(29) الدونمة: هم طائفة يهودية، تظاهرت بالإسلام. ظهرت في تركيا في القرن السابع عشر، وكان رئيسها هو الحاخام اليهودي (شباتاي تسيبي) الذي ادعى أنه المسيح المنتظر، مما أدى إلى حدوث فتنة في البلاد، فتم اعتقاله. ولكي يتخلص من حكم الإعدام، ادعى هو وجماعته إنهم اعتنقوا الإسلام. وقد نُفي إلى ألبانيا حيث مات هناك عام ١٦٧٥. وانقسم أتباعه بعد موته إلى ثلاثة فرق متنازعة. وهم يخفون هويتهم الحقيقية حتى عن أطفالهم، حتى سن الزواج. وقد سكنوا في سلانيك

وحيد الدين وليا للعهد

عندما تولى السلطان محمد رشاد، العرش العثماني عام ١٩٠٩بعد خلع السلطان عبد الحميد على يد الاتحاديين، كان الأمير وحيد الدين قد قارب سن الخمسين. وكان الضعف قد دب في أوصال الدولة العثمانية، وتمكن منها بعد سيطرة الاتحاديين على الحكم. إذ تمكن ضباط الاتحاد والترقي من تكوين الحكومة عام ١٩٠٨ م، وخلع السلطان عبد الحميد الثاني في العام التالي، لينفردوا بإدارة دفة الحكم في الدولة العثمانية[٣١]. ثم نصبوا السلطان محمد رشاد على العرش. كانت البلاد تعاني الكثير من الاضطرابات في فترة حكمه، مثل ضياع طرابلس الغرب، واستقلال أكثر دول البلقان. وظهور النزعة التركية، حيث سعى حزب الاتحاد والترقي إلى تتريك الشعوب غير التركية الخاضعة للعثمانيين، مثل العرب والشركس والأكراد والأرمن. ونشوب الحرب العالمية الأولى التي أسقطت الدولة العثمانية. ولكن شاء الله ألا تسقط في عهد السلطان محمد رشاد، بل في عهد خليفته محمد وحيد الدين[٣٢].

في تلك الفترة كان الأمير وحيد الدين يشعر بالقلق تجاه حال الدولة التي تسرع الخطى نحو الانهيار، وكان يرى أنه من الواجب إنقاذها. لم يكن يفكر في أنه سوف يصير سلطاناً، لوجود أميران يكبرانه سناً، وهما الأمير سليمان أفندي، ويوسف عز الدين أفندي، ابنا عمه السلطان عبد العزيز. أي إن وحيد الدين كان ترتيبه الثالث في ولاية العهد، لكن وفاة الأمير سليمان المفاجئة جعله في الترتيب الثاني. ولذلك وضع السلطان محمد رشاد وحيد الدين في مقام ولي العهد الثاني، وإن لم يكن بصفة رسمية، أي لم يصدر فرماناً بذلك. وكان يدعوه دائماً بقوله يا ولي العهد الثاني. وبعد وفاة يوسف عز الدين صارت ولاية العهد إلى الأمير وحيد الدين، وكان ذلك في١ فبراير عام ١٩١٦ ،خلال الحرب العالمية الأولى. وجدير بالذكر أن السلطان محمد وحيد الدين كان معارضاً لدخول تركيا الحرب، منذ أن كان ولياً للعهد. وظل ولياً للعهد منذ هذا التاريخ، وحتى ٤ يوليه ١٩١٨ أي عامين وخمسة شهور[٣٣].

وحواليها، ولكنهم انتشروا في أرجاء مختلفة من تركيا بعد حرب البلقان، والحرب العالمية الأولى. وكان لهذه الطائفة أثر كبير في تقويض الدولة العثمانية والخلافة. لمعرفة المزيد من التفاصيل، انظر محمد علي قطب، يهود الدونمة في تركيا، الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٠٢

(30) Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s.59,60

(31) استمر حكم الاتحاد والترقي تسعة أعوام. وعند موت السلطان محمد رشاد كان طلعت باشا يشغل منصب الصدر الأعظم، وأنور باشا كان ناظراً للحربية ووكيل القائد الأعلى. وهما من حزب الاتحاد والترقي. انظر ماجدة مخلوف ، الخلافة في خطاب أتاتورك، دار الآفاق العربية،٢٠٠١، ص ٣٠

(32) محمد إحسان حقي، ذيل تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، مرجع سبق ذكره، ص ٧١٥

(33) كانت ولاية العهد في عهد السلطان محمد رشاد، للأمير يوسف عز الدين ابن السلطان عبد العزيز. فقد كانت ولاية العهد في الدولة العثمانية، من حق أكبر أفراد الأسرة الهالكة سناً، بعد الجالس على العرش، وليس من حق أكبر أولاد الجالس على العرش. مات عام ١٩١٦، وقيل إنه مات مسموماً على يد الاتحاديين، لأنه لا يوافقهم على سياستهم. انظر:
Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s.76-78

وكان وحيد الدين يعيش في تلك الفترة في جناح ولي العهد في قصر (دولما باغجة)، وينشغل منذ الصباح حتى المساء، مع بعض الضباط الذين يثق بهم، في تعقب التحركات العسكرية في الجبهات المختلفة.

وخلال فترة ولاية عهده زار أوروبا مرتين. الأولى، زيارته فيينا لحضور جنازة إمبراطور النمسا والمجر، فرانز جوزيف الذي توفي في ١٢ نوفمبر ١٩١٦. وكان وحيد الدين ممثلاً للدولة العثمانية في جنازته. كان معه في تلك الزيارة لطفي سيماوي بك، ووظيفته "باش مابين القصر" أي رئيس ديوان القصر السلطاني. والتقرير الذي كتبه للباب العالي عن وحيد الدين خلال الزيارة، مليئاً بالإشادة بدرايته ولياقته ووقاره. وكانت السياحة أو الزيارة الثانية إلى ألمانيا والنمسا(٣٤).

(34) Lütfi simavı Bey, "Sultan mehmet Reşad Hanın ve Halefinin sarayında Gördüklerim", kısım II, Dergah Yayınları, İstanbul 1984 s. 109.

الفصل الثاني

الدولة العثمانية في فترة حكم السلطان محمد وحيد الدين (١٩١٨ ـ ١٩٢٢)

اعتلاء وحيد الدين العرش العثماني

بعد وفاة السلطان محمد رشاد، اعتلى وحيد الدين العرش العثماني باسم السلطان محمد السادس، في ٤ يوليو ١٩١٨، في بداية الهزيمة التي هددت استقلال الدولة العثمانية، في العام الأخير للحرب العالمية الأولى، وكان عمره حينئذ ٥٧عاماً. وتمت مراسم البيعة في قصر طوب قابي. وكان ذلك قبل أربعة شهور من سقوط الدولة العثمانية(١).

في البداية تردد وحيد الدين في الموافقة على اعتلاء العرش، ثم وافق على اعتلائه ليفعل شيئاً للوطن في ذلك الوقت العصيب الذي تمر به الدولة، وهو يعبر عن ذلك بقوله: "إن لم يكن في إمكاني أن أقدم شيئاً لبلدي وسلطنتي، كنت لا أقبل هذا الحمل الثقيل، وأظل مرتاحاً في چنگل كوي. إنني لم أتول السلطنة ليُكتب على قبري بعد انقضاء عمري كلمة سلطان"(٢).

---

(1) Kadir Mısıroğlu, " bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e . s. 123

(2) كان قبول السلطان وحيد الدين للعرش يعد ذكاءً منه، ذلك الذكاء الذي يصفه باشكاتبه على فؤاد توركجلدي، بأنه ذو فكر يشبه فكر الجان. وكان أيضا شجاعة منه، حيث كان العرش العثماني في ذلك الوقت لا يمكن أن يجذب أحداً، أو يجعل أحداً يطمع في اعتلائه. انظر Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s.146

يتحدث السلطان وحيد الدين في مذكراته عن مسألة قبوله عرش السلطنة، فيقول: "بعد وفاة أخي السلطان محمد رشاد في الأيام الأخيرة للحرب، كنت في چنگل كوي، وجاء طلعت باشا وأنور باشا ومعهما خيري أفندي من أجل البيعة الرسمية، فطلبت تأجيل الحديث في هذا الأمر، لأنني في الواقع لم أكن عاشقاً للسلطنة. شعر هذا الوفد الرسمي بالدهشة أمام موقفي المتردد والمستغني. فقال طلعت باشا إن القانون الأساسي ينص على مبايعتك باعتبارك أكبر أفراد الأسرة العلية سناً، وولي عهد السلطنة. ونهض وأراد أن يمسك يدي لمبايعتي. فطلبت منه أن يمهلني حتى الغد. وانشغلت في تلك الليلة في التفكير. وفي النهاية رأيت أنني إذا لم أقبل مسئولية السلطنة التي لابد أن أضطلع بها بالإرث والاستحقاق، فسوف أصبح إنساناً حقيراً، هارباً من المسئولية الوطنية. وشعرت بميل إلى قبول مقام السلطنة بحس التضحية المجرد، وخاصة إنه لم يكن هناك في الأسرة العلية من يستطيع الاضطلاع بهذه المسئولية. وعند مبايعتي قلت لطلعت باشا: "إنني محتاج للتعزية على شيئين، أحدهما موت أخي، وهو سلطان كان يراعي المشروطية. والآخرعلى اضطراري شغل مقام دولتنا في أخطر وأدق اللحظات. وإنني أقبل السلطنة بأمل خدمة وطني. فبايعني طلعت باشا. وتم عمل مراسم البيعة الرسمية المعتادة. وقدمت الحكومة استقالتها وفق الأصول عندما يتغير السلطان. ولكنني أبقيت طلعت باشا في منصبه، وأوضحت له إنني لا أفكر في عمل أي شيء، عدا تمني انتصار أمتي في هذه الحرب الكبيرة التي دخلتوها. فأنا رئيس هذه الأمة التي مفروض أن تكون كتلة واحدة، ولكن أنتم الهيئة المسئولة. وأنا ليس لدي تصرف خاص سوى دعمكم. فلتستمروا في أداء مهمتكم. وأنا سأعمل بأحكام

تقليد السيف

مراسم تقليد السيف- أي وضع السيف في خصر السلطان- تشبه مراسم وضع التاج على رأس الملك في الدول الأوروبية. وهى مراسم تدل على السلطة والمقدرة، فلم تكن علامة السلطة في السلاطين العثمانيين التاج، ولكن علامة السلطة هو تقليد سيف حضرة عمر بن الخطاب، في جامع أبي أيوب الأنصاري. فقد جرت العادة أن تتم مراسم البيعة في أول يوم لجلوس السلطان على عرشه، أما تقليد السيف فيتم تأخير مرسمة لعدة أيام بعد تولي العرش.

وقد تقلد وحيد الدين السيف في ٣١ أغسطس ١٩١٨. وكان المفروض أن يقلده السيف كالعادة شيخ المولوية[٣] الموجود في قونية، عبد الحليم أفندي. لكن وحيد الدين لم ينسى له البرقية التي أرسلها إلى أخيه السلطان عبد الحميد بعد خلعه عن العرش التي قال فيها: "إنك لا تستحق السيف الذي حمله أجدادك". ولذلك رفض وحيد الدين أن يقلده أحد شيوخ المولوية السيف. كان موجوداً في تركيا في ذلك الوقت، أحمد الشريف السنوسي الذي حضرإلى استانبول من ليبيا، بقصد ضمان التأثير على العالم العربي، من خلال فرمان "الجهاد الأكبر" الذي أعلن استجابة لدعوة السلطان محمد رشاد. ولما توفى السلطان محمد رشاد، ظل السنوسي في استانبول، لحين إرساله إلى الخارج لهذا الهدف. فقرر وحيد الدين أن يقوم الشيخ السنوسي بتقليده السيف. ويعد تقليده السيف قرأ السلطان الفاتحة لصاحب المقام، ثم تلقى

القانون الأساسي وأحكام المشروطية." انظر:Murat Bardakçı, “şahbaba”, a.g.e. s. 17,426

(3) المولوية من أهم الطرق الصوفية. مؤسسها مولانا جلال الدين الرومي المتوفي عام ٦٨٣ هـ. وهو من أعظم شعراء التصوف، فارسي الأصل والمولد، عاش معظم حياته في مدينة قونية التركية. وهو ناظم معظم الأشعار التي تُنشد في حلقة الذكر المولوية. اشتهرت الطريقة المولوية بما يعرف بالرقص الدائرى لمدة ساعات طويلة، يدور الراقصون حول مركز الدائرة التي يقف فيها الشيخ، ويندمجون في مشاعر روحية سامية ترقى بنفوسهم إلى مرتبة الصفاء الروحى، ويستغرقون في وجد كامل يبعدهم عن العالم المادى.و يصحب رقصة الدوران عزف على آلات موسيقية بسيطة مثل الناي والدف والقانون. والرقص والموسيقي تحرك النشوة الدينية في نفوسهم، وتعمل على إذكاء نار الحب الإلهي. ولاتزال الطريقة المولوية مستمرة حتى يومنا هذا في مركزها الرئيسى في قونية. ويوجد لها مراكز أخرى في إستانبول وغاليبولى وحلب، حيث تُستخدم مراسم المولوية كجزء من الفولكلور التركى. والمريد المولوي يسمى "درويش" والتي تعني الفقير. وكان مكان تجمع المولويون يسمى التكية المولوية أو تكية الدراويش. انظر حسين مجيب المصري، من أدب الفرس والترك، الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٩، ص ١١١

التهنئة من الحاضرين. وقام بتقبيل السيف الذي تقلده، ووضعه على رأسه، ثم أعاده الى الكرسي، وتركه ثم عاد إلى قصره. وطلب السلطان وحيد الدين ألا يُعزف له المارش السلطاني المعتاد، وأن يُعزف بدلاً منه، المارش الذي لحنه الملحن الإيطالي (دونيزيتي) للسلطان محمود(٤).

شخصية وحيد الدين بعد توليه العرش

بدأ السلطان محمد وحيد الدين سلطنته بإرادة سلطانية جديدة تكشف عن شخصيته. فقام بتعديل مسودة "الخط الهمايوني" عندما عُرضت عليه، وطلب إلحاق بعض النقاط بها، مثل: ضرورة الاهتمام بالمحافظة على المعايير الإسلامية الحقيقية والحيثية العثمانية. والعمل على إقرار العدل والانضباط والأمن. وضرورة اتخاذ التدابير اللازمة للتخفيف عن الأهالي الذين تضرروا من غلاء الأسعار. وعدم طرد الموظف من وظيفته لغير أسباب قانونية. وضرورة اختيار الموظفين من ذوي الشرف والاستقامة(٥).

واتخذ إجراءات تدعم المكانة المعنوية للسلطان، وتعيد لها هيبتها. فقام بتغيير موضع توقيع الفرمانات، حيث كان يضع توقيعه أعلى الفرمان، بعد أن جرت العادة أن يوقع الصدر الأعظم والوزير المسئول أسفل الفرمان، ويصدق السلطان أسفل توقيعهما.

واتجه إلى تخفيف المعاناة عن شعبه الذي أرهقته سنوات الحرب، وعانى من ظلم حكومة الاتحاد والترقي(٦).

---

(4) كان محرماً على غير المسلم حتى عهد التنظيمات، أن يطأ جامع أبي أيوب الأنصاري، ولذلك تم إقامة سرادق كبير يسمى "أوطاغي همايون" داخل أسوار أدرنة قابي، يجلس فيه السفراء الأجانب الذين يحضرون لتهنئة السلطان بتقليد السيف. وبعد أن يتلقى السلطان مباركة السفراء، يذهب إلى مركز قشلاق الإنكشارية في قراكوي. وهناك يشرب العصير، ثم يأمر بملأ كوب العصير الفارغ بالذهب. ويعطية لحامله الذي يأخذه وينسحب من أمام السلطان خطوة خطوة إلى الخلف، ويرتفع الدعاء للسلطان بالنصر على الأعداء، ويردد الجميع قولهم إن شاء الله. وهنا تنتهي مراسم تقليد السيف. وظل السلاطين العثمانيين يقبلون مباركة السفراء الأجانب في أدرنة قابي حتى إلغاء الإنكشارية. وكان الذي يقوم بتقليد السلطان السيف، رئيس الطريقة المولوية. انظر: İsmail hakkı okday, "Yanya'dan ankara'ya", a.g.e. s.351-354

(5) Ali Fuad Türkgeldi,"görüb işittiklerim", Türk Tarih kurumu Basımevi, Ankara 1984, s. 141.142

(6) برغم سوء حالة الدولة عند اعتلاء السلطان وحيد الدين العرش، لم يتخل السلطان عن شجاعته ومبادئه وأسلوبه المهذب. إذ قرر بأن من يريد مقابلته عليه أن يستأذن أولاً، وذلك ماعدا الصدر الأعظم

موقف السلطان وحيد الدين من رجال الاتحاد والترقي

كان السلطان وحيد الدين يكره الاتحاديين، وخاصة طلعت باشا وأنور باشا، فكان يقول إن أعمال هذين الرجلين لن تؤدي سوى إلى القضاء على الدولة. حتى كان أحد عوامل التقارب بينه وبين مصطفى كمال، هو تصوره أنه يكره الاتحاديين مثله. ولما كان السلطان يدرك دور الاتحاديين في القضاء على الدولة العثمانية، فقد وجه ضربة لهم فور توليه العرش، وقام بإقالة توفيق بك الاتحادي المشرف على موظفي القصر من منصبه. فقد كان يعتبره عميلاً وممثلاً لجماعة الاتحاد والترقي(٧).

وبرغم سطوة الاتحاديين فإن السلطان وحيد الدين عندما تولى العرش، نزع عن أنور باشا صفة وكيل القائد الأعلى، واكتفى بأن يكون وزيراً للحربية(٨). فقد كان يهدف إلى القضاء على سلطة جمعية الاتحاد والترقي التي كانت سبب الكوارث التي شهدتها الدولة. وكان يريد أن يوضح للاتحاديين أنه حاكم صاحب سطوة وكلمة في إدارة سلطته، وليس سلطان سلبي والعوبة في أيديهم. والواقع أن الاتحاديين كانوا مطلعين على ميل السلطان هذا، في ظل الوضع المفجع للدولة، وسقوط دول الوفاق الواحدة تلو الأخرى، مما لم يدع مجالاً للشك في الهزيمة القادمة برغم مزاعم النصر النهائي(9).

وأنور باشا. وكان هذا عكس المعمول به في عهد السلطان محمد رشاد، فقد كان الوكلاء مهما كانت رتبتهم، ومهما كانت قضاياهم، يأتون إلى القصر بدون استئذان ويقابلوه. وطلب السلطان وحيد الدين من النواب عند تشكيل أول حكومة في عهده، الإدلاء بالقسم قائلاً لهم: "مثلما أقسم أنني سأحترم أحكام الشرع الشريف، والقانون الأساسي، وسأصدق الوطن والأمة، فإنني أطلب منكم أن تدلوا أنتم أيضاً بالقسم". وكان السلطان وحيد الدين رؤوفاً بشعبه. فعندما قام فريد باشا بعد اعتلائه الوزارة، باتخاذ تدابير تؤدي إلى رفع الأسعار، مثل فرض رسم البيع على الواردات الأساسية مثل الأرز والسكر والغاز والقهوة، رفض السلطان هذا الرسم الثقيل، وحصره على بعض البضائع المستوردة، مما خفف من وطأته. انظر Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e.s.117-162

(7) Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s.١٢٩

(8) وصف السلطان وحيد الدين هذا الإجراء بقوله: "هذا أول شق أحدثه داخل الاتحاد والترقي." انظر: İsmail hakkı okday, " Yanya'dan ankara'ya", a.g.e. s.346

(9) İsmail hakkı okday, "Yanya'dan ankara'ya", a.g.e. s.347

حالة استانبول بعد تولي وحيد الدين العرش

"بعد ٢٠ يوماً من تولي السلطان محمد وحيد الدين العرش، تعرضت مدينة استانبول لأول هجوم جوي. في البداية قام سرب من طائرات الحلفاء- مكون من ست طائرات استطلاع- بالتحليق فوق المدينة في٢٣ يوليه ١٩١٨. وبعد أربعة أيام شنت طائرتان هجوماً جوياً على المدينة ليلاً، وألقت عدة قنابل لم تصب أحداً. وفي ٢١ أغسطس ١٩١٨ قام سربان آخران بإلقاء القنابل على مبنى وزارة الحربية- الذي صار الآن جامعة استانبول- فأصابت سوقاً مسقوفاً بجانبها، وهدمت بعض المحال، وأصابت عشرة أفراد بجراح. فقد كان الإنجليز- برغم هزيمة جبهات العراق وسوريا وفلسطين- تغضبهم مقاومة الترك، لذلك كانوا يريدون إنهاء الحرب - مع تحقيق النصر- بإحراز هدف أخيروهو ضرب المدينة الرئيسية للدولة العثمانية. فقامت قوات الحلفاء بشن أربع هجمات جوية على أطراف المدينة، لم تلق فيها القنابل فقط، بل ألقت ايضا المنشورات، وأثناء هذا الهجوم سقطت إحدى طائرات الحلفاء. وتركت هذه الهجمات الجوية التي تزايدت بمرور الأيام آثاراً سيئة على الشعب، وعلى الرأي العام. فاضطرت بعض القيادات العسكرية إلى اتخاذ بعض التدابير لمواجهة هذه الهجمات. ومن الدراسات التي تمت، ومن الطيار الذي تم أسره بعد سقوط طائرته، تم اكتشاف أن طائرات الحلفاء تطير من قواعد في جزيرتي ليمني(١٠) و تاشوز. فقامت الطائرات الألمانية والعثمانية في تاريخ ٢٤ و ٢٨ سبتمبر ١٩١٨ بالهجوم على الجزيرتين، وقصف قواعد الطيران هناك. لكن الإنجليز ردوا على هذا الهجوم، بهجوم جوي أشد من هجوم ٢٧ أغسطس. فقام سرب مكون من سبع طائرات بقصف استانبول قبل الظهر في ١٨ أكتوبر، وسرب آخر مكون من سبع طائرات قام بقصفها بعد الظهر، وقُتل خلال هذين الهجومين ٥٠ شخص، وجُرح مائة آخرون. وألقت طائرات الحلفاء في خلال هذه الهجمات منشورات كثيرة تعلن فيها، أن بلغاريا طلبت الصلح بسبب انقسام جبهات مقدونيا، وعدم قدرتها علي المقاومة. وتأثر شعب استانبول بالمنشورات التي أسقطتها الطائرات في الهجوم الأخير، أكثر من تأثره بالقتل والجراح، وهو الذي تحمل الفقر والمجاعة وفقدان الآلاف من أبنائه في الجبهات المختلفة على أمل تحقيق النصر في النهاية. فقد شعر أن

(10) ليمني، هى جزيرة تقع في بحر إيجة، بين تركيا واليونان.

تلك التضحيات التي تحملها على مدى أربعة أعوام ذهبت سدى، وأنهم سيضطرون في النهاية إلى الانسحاب من الحرب بعد الهزيمة. وكان السلطان وحيد الدين يدرك مدى حزن شعب استانبول ويشاركهم همهم"(١١).

جهود السلطان وحيد الدين لإنقاذ الدولة عند توليه العرش محاولة عقد صلح منفرد

السلطان وحيد الدين هو أول من سعى إلى تحقيق الصلح، لضمان خروج الدولة العثمانية من حرب لا أمل فيها. فعندما تولى العرش رأى ضرورة التوصل إلى عقد صلح منفرد مع دول الحلفاء، من أجل إنقاذ تركيا، ولكنه لم يجد الإمكانيات التي تمكنه من هذا، بسبب تشدد الاتحاديين. وبرغم كل العقبات، استمر السلطان في سعيه لإنقاذ سلطنته ودولته من الموقف البائس، فطرق كل باب. وفي الأول من شهر أكتوبر عام ١٩١٨، أفاد السلطان، الدكتور بارودي المعتمد لدى السفارة الإنجليزية في سويسرا، سراً إنه يفكر في ثلاثة وسائل، من أجل تحقيق هذا الهدف:

١ .أن يجد وسيلة للاتصال بالإنجليز في سويسرا.

٢ . أن يصل إلى الإنجليز من خلال إزمير- ميدللي، وذلك عن طريق رحمي بك، والي إزمير،(وكان السلطان يفضل هذا الطريق).

٣ .أن يصل إلى الإنجليز عن طريق الحدود السورية.

وفى نفس اليوم ذهب وزير الإعاشة قره كمال، ووزير المعارف شكري بك، إلى برن من أجل نفس الهدف. واقترحت حكومة إنجلترا على ويلسون، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية حينئذ، إعلان شروط الصلح والهدنة التي ستوقع مع الدولة العثمانية، والتي تقررت خلال مؤتمر وزراء الخارجية الذي انعقد في باريس. وذُكر في المذكرة التي قدمها اللورد اكتون، سفير إنجلترا في سويسرا، في مدينة برن، أن السلطان وحيد الدين سيتحرك على نحو غير مباشر، لأنه يخشى أن يُقتل على يد أنور باشا. وكانت شروطه أن يبقى هو على عرشه، وأن تعترف إنجلترا باستقلال الدولة العثمانية. وبعد ذلك أعلن فؤاد سليم بك، سفير الدولة العثمانية في برن، في المذكرة بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩١٨، أن عزت باشا - الذي تولى

(11) İsmail hakkı okday, "Yanya'dan ankara'ya", a.g.e. s.354-356

الوزارة بعد استقالة وزارة طلعت باشا- قد منح حكومته صلاحية مناقشة شروط الهدنة، وأن اللورد اكتون سيقوم بعمل المناقشة في مكان آخر بناءً على تعليمات من وزارة خارجية إنجلترا[12].

تشكيل هيئة الأركان الخاصة

كان السلطان وحيد الدين قد أخذ من أنور باشا صفة القائد الأعلى عندما تولى العرش، وشكل في قصره هيئة أركان خاصة، مشكلة من ياوره إسماعيل حقي باعتباره رئيس أركان المعية السنية، وناشد بك، نقيب من سلاح الفرسان[١٣]. وخصص حجرة خاصة لهذه الهيئة، وكانت هناك خرائط عسكرية كبيرة، وُضعت على منضدة كبيرة في وسط الحجرة. وكان إسماعيل حقي ومعه ناشد بك يقومان بكتابة التقارير العسكرية حول دقائق الوضع، بناءً على المعلومات العسكرية الواردة من وزارة الحربية. وهذا مكن السلطان من الاطلاع بصفة مستمرة على الموقف عن قرب، وكانت الهيئة تُطلع السلطان يوما بيوم على التحركات العسكرية في جبهات فلسطين والعراق والقوقاز واليمن وتراقيا. وعلى موقف الدولة العثمانية بالنسبة لفرنسا وانجلترا وروسيا، التي كانت قد انسحبت من الحرب منذ فترة طويلة، بعد عقد معاهدة الصلح (بريست ليتوفيسك)، ووصول الإنجليز حتى القوقاز في الجبهة الروسية. وعندما أدرك السلطان أن الوضع العسكري صار سيئا للغاية، فكر في ضرورة عقد هدنة مع دول الحلفاء. وبعد هجوم اليونانيين على إزمير[١٤]، واندلاع الثورة الشعبية، أخذ

---

(12)İsmail hakkı okday, " Yanya'dan ankara'ya", a.g.e. s.347,349,350 ve Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s.140

(13) كان ناشد بك رفيق سلاح لمصطفى كمال في أنافارطة. قام وحيد الدين بإرساله إلى الأناضول- بعد تعيينه لمصطفى كمال مفتشاً على الجيش- ليكون حامل البريد للسلطان. فقد كان حلقة الاتصال بين السلطان وبين الأناضول، من خلال جولاته المكوكية بين استانبول والأناضول. وقدم مساعدات كبيرة للثورة الشعبية. انظر: İsmail hakkı okday, "Yanya'dan ankara'ya", a.g.e. s.348

(14) إزمير هي مدينة تقع في غرب تركيا. كانت مستعمرة إغريقية أعاد بناءها انتيجونس الأول في القرن ٤ ق.م. صارت أكبر وأغنى مدن أسيا الصغرى تحت حكم الرومانيين والبيزنطيين. وأصبحت مركزاً مسيحياً، وإحدى مدن الكنائس السبع بآسيا. خربها تيمورلنك عام ١٤٠٢، وأسقطها الأتراك عام ١٤٢٤. وفي عام ١٩١٩ احتلتها القوات اليونانية، وجعلتها تحت الإدارة اليونانية بمقتضى معاهدة سيفر عام ١٩٢٠. ثم ألغت معاهدة لوزان ١٩٢٣ هذا الإجراء عقب انتصار الأتراك على اليونانيين، وطردهم من أسيا الصغرى

السلطان يترقب الاشتباك الدامي في قلب الأناضول، على هذه الخرائط العسكرية(١٥).

وزارة الإنقاذ

كلف السلطان توفيق باشا، بتشكيل وزارة جديدة بعد استقالة طلعت باشا في ٨ أكتوبر ١٩١٨. ولكن توفيق باشا لم يستطع تشكيل الحكومة، لأنه كان لا يريد أن ينضم أحد من الاتحاديين إلى حكومة الإنقاذ.

وكان مصطفى كمال قد أرسل في ٧ أكتوبر ١٩١٨، من (قصبه باغچة) والمعروفة اليوم بولاية (أضنة)، برقية إلى القصر يوصي فيها السلطان - بعد أن يوضح الوضع السيء في الجبهة، حيث كان في ذلك الوقت في جبهة فلسطين، وكان قد انسحب إلى الشمال بعد سقوط هذه الجبهة(١٦) - بأن يؤسس حكومة جديدة برئاسة أحمد عزت باشا. وبالفعل كلف السلطان عزت باشا، وزير الحربية السابق وياوره الأكرم، بتشكيل الحكومة الجديدة. ومنحه السلطان رتبة مشير، وكان يشغل أيضا منصب وكيل وزارة الحربية. وأصبح عزت باشا، صدراً أعظم، وشكل حكومة في ٢٧ أكتوبر ١٩١٨ تضم الأسماء نفسها التي ذكرها مصطفى كمال في برقيته، باستثناء واحد، هو نفسه أي مصطفى كمال الذي تم استبعاده من وزارة الحربية التي كان قد طلبها. وذكر أحمد عزت باشا أن سبب استبعاده هو الموقف الحرج الذي كان في الجبهة، وواساه بأنه بعد الصلح سينظر في هذا الأمر. ومن الأسماء التي ذكرها مصطفى كمال لضمها للحكومة الجديدة، فتحي بك، وزير الداخلية من المبعوثان، وأصبح

في حربي ١٩٢٢،١٩٢٠. وجرى تبادل بين سكان إزمير اليونانيين. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ١٩٥٩، ص ١٢٩

(15) İsmail hakkı okday, “Yanya’dan ankara’ya”, a.g.e. s.347,348

- الأناضول هى الجزء الأسيوي من تركيا، وهى عبارة عن شبه جزيرة جبلية بين البحر الأسود في الشمال، وبحر إيجة في الغرب، والبحر المتوسط في الجنوب. ويبلغ ٩٧ ٪ من مساحة تركيا. انظرالموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣١

(16) أخفق أتاتورك في مهمة الدفاع عن الجبهة السورية خلال الحرب العالمية الأولى، تلك المهمة التي كلفه بها السلطان محمد وحيد الدين. وقام بالانسحاب منها بدون خوض أي معركة ضد الحلفاء. وكان انسحابه هذا سبباً في ضياع بلاد الشام، ووقوع جزء كبير من الجيش العثماني في الأسر. لمزيد من التفاصيل، انظر ماجدة مخلوف، بيان السلطان محمد وحيد الدين، آخر السلاطين العثمانيين، مجلة المنار الجديد، ابريل ٢٠٠٥، ص ١١٨، ١٢٨

اسمه فيما بعد فتحي أوقيار[١٧]. ورؤوف بك[١٨]، (رؤوف أورباي) وزير البحرية الذي صارت وظيفته رئيس أركان وزارة البحرية. وتحسين وعزمي وجنبلاط وخيري أفندي شيخ الإسلام. ورشيد عاكف باشا، رئيس مجلس شورى الدولة من الأعيان، وجاويد بك، وزير المالية وعبد الرحمن شرف أفندي، وزير الأوقاف وسعيد بك، وزير المعارف وضياء باشا، وزير المرافق والدكتور جلال مختار بك، وزير الإعاشة.

وهكذا تأسست حكومة أحمد عزت باشا التي أوصى بها مصطفى كمال في برقيته المشهورة بـ (باغچة تلجرافي) التي أرسلها إلى القصر في ١٤ اكتوبر١٩١٨، وهى الحكومة التى وقعّت الهدنة كأول مهمة لها، تلك الهدنة التي نتج عنها احتلال الدولة[١٩].

هدنة موندروس

تم توقيع هذه الهدنة في ٣٠ أكتوبر ١٩١٨، على ظهر المدرعة الإنجليزية (سوبيرب)[٢٠] في ميناء موندروس بجزيرة ليمني، من جانب الوفد التركي الذي يمثل حكومة عزت باشا، والذي تشكل من سعد الله بك، قائمقام أركان حرب ورشاد حكمت، مستشار الخارجية، وبرئاسة رؤوف بك (أورباي)، وزير البحرية، مع وفد الإنجليز برئاسة كالثورب، نائب

---

(17) فتحي أوقيار هو صديق مصطفى كمال في المدرسة. عينه بعد ذلك سفيراً لسنوات طويلة، ثم رئيساً للوزراء في عهد رئاسته للجمهورية، ثم زعيماً شكلياً للمعارضة حيث كان رئيساً لحزب المعارضة في عهد أتاتورك. والمعارضة نفسها كانت صورية. وكان أنور باشا يبغضه لصداقته لمصطفى كمال. انظر الرجل الصنم، تأليف ضابط تركي سابق، ترجمة عبدالله عبد الرحمن،مؤسسة الرسالة بيروت،الطبعة الرابعة ١٩٨٢م (مترجم عن التركية)، ص ٥٨

(18) كان رؤوف بك ضابطاً في البحرية، وعضواً بارزاً في الاتحاد والترقي، ورئيساً للوفد الذي وقّع هدنة موندوروس. وهو أحد الضباط المقربين من أتاتورك منذ بداية الحركة الكمالية، وأحد الشخصيات البارزة في هذه الحركة. وكان وزيراً للبحرية في ذلك الوقت، لكنه كان ضد أتاتورك في موقفه من السلطنة العثمانية والخلافة. انظر ماجدة مخلوف، الخلافة في خطاب أتاتورك، مرجع سبق ذكره، ص ٥٤

(19) Ali Fuad Türkgeldi,"görüb işittiklerim", a.g.e. s.157 ve Mahmud Kemal İbnül-Emin, "Osmanlı Devrinde Son Sadrazamlar", cilt 2, Maarif Matbaası, Ak Kitabevi, İstanbul 1964 s. 1918 ve Ahmet İzzet Paşa, "Feryadım", c.2 Nehir Yayınları, İstanbul 1994, s. 278

(20) كتاب الوطنية العثمانية، تأليف مدام بيرت جورج جوليس، ترجمة أحمد رفعت، دار الطباعة الفنية ١٩٢٢ (مترجم عن الفرنسية)، ص ١٣

الأميرال الإنجليزي. وقد أكد السلطان على أعضاء الوفد بأنه توجد مادتين ينبغي التركيز عليهما، وهما ضمان المحافظة على حقوق الخلافة والسلطنة والأسرة العثمانية، وأن يكون استقلال بعض الولايات داخلياً وليس سياسياً، حتى لا يصير استقلالاً هشاً، يكون في قبوله إهانة للعالم الإسلامي. وبرغم تحذير السلطان وقّع رءوف بك على الهدنة استناداً على الضمانات الشخصية التي أخذها من كالثورب. وتمت هذه الهدنة بوساطة الجنرال الإنجليزي "تاونزهند" الذي كان قد أُسر من جبهة العراق قبل ذلك، وكان يقيم في ذلك الوقت في (بيوك أدا) وكان يأمل في فك أسره إذا تم تنفيذ هذا الأمر[٢١].

وكانت هدنة ثقيلة الشروط تمثل استسلام الدولة التركية حيث أدت إلى:

١- استيلاء الحلفاء على جميع استحكامات البوغاز.

٢- تسريح الجيش.

٣- تسليم الأسطول لدول الحلفاء.

٤- السماح للحلفاء باحتلال ما يتراءى لهم من الأراضي، إذا كانت تمثل تهديداً لأمن الدول المنتصرة (فقد كانت المادة السابعة من هذه الهدنة تقول: "من حق الحلفاء احتلال ما يتراءى لهم من الأماكن التي تكفل أمنهم" وهذه المادة كانت سبب المصائب التي جاءت بعد ذلك).

٥- تم وضع جميع المراسلات تحت سيطرة دول الحلفاء.

٦- قامت فرنسا باحتلال أضنة في الجنوب، واحتلت إيطاليا قونيه ولواء أنطاليا في جنوب غرب تركيا، واحتل الإنجليز مرعش وأورفة وعينتاب في الجنوب، وسامسون[٢٢] ومرزيفون في الشمال[٢٣].

---

(21) Tarık Mümtaz Göztepe, "Osmanlıların Son Padişahı Vahiddeddin, Mütareke Gayyasında", Sebil Yayınları, İstanbul 1969 s. 58 ve İsmail hakkı okday, "Yanya'dan ankara'ya", a.g.e. s. 365

(22) سامسون، ميناء على البحر الأسود

(23) Reşad Ekrem Koçu, "Osmanlı Padişahları", a.g.e, s.438

انظر ايضا محمد عزة دروزة، تركيا الحديثة، القاهرة ١٩٤٦، ص ١١ - ١٥ و عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٠، ص ٢٤٣

وكان مصطفى كمال في تلك الأثناء قائداً للجيش السابع، ثم أصبح قائداً لجيوش الصاعقة التي كانت في جبهة فلسطين ضد الجيش الإنجليزي، وذلك بناءً على تعيين السلطان وحيد الدين له. وكان يتولى قيادة تلك الجيوش في البداية المارشال (ليمان فون ساندرز)، قائد القوات الألمانية ، ثم ترك قيادتها إلى مصطفى كمال. وقد هُزمت جيوش الصاعقة، وانسحبت أمام القوات الإنجليزية التي نجحت في احتلال فلسطين ولبنان وسوريا. ويصف السلطان وحيد الدين هذه الهدنة بأنها هدنة مشئومة، وأنها مصدر كل المصائب التي حدثت بعد ذلك. ولم يقابل الوفد الذي وقع المعاهدة بل وطلب ضرورة استقالة الحكومة التي وقعتها[٢٤].

حالة الدولة العثمانية بعد الهدنة

كانت الوزارة التي قامت بالتوقيع على الهدنة صورة من حكومة الاتحاد والترقي التي زج رجالها بالدولة إلى الحرب، وهم المسئولين عن ذلك حيث الكثير من وزرائها من نفس الحزب. ولذلك عندما عُقدت الهدنة، استطاع طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا الفرار بسهولة من الدولة إلى الخارج هرباً من المحاكمة[٢٥]. وعاد مصطفى كمال في تلك الأثناء إلى العاصمة بناءً على استدعاء عزت باشا، الذي اعتزم أن يستقيل من رئاسة الوزارة لأن السلطان كان ينوي تشكيل حكومة جديدة برئاسة توفيق باشا. وبالفعل تألفت حكومة أخرى برئاسة توفيق باشا في ١١ نوفمبر ١٩١٨[٢٦].

وسيطر الحلفاء على كل شيء، فاحتل الإنجليز الموصل وعنتاب وحواليها في ٣ نوفمبر، واحتلوا الأسكندرونة في ٩ نوفمبر، وفي ١٠ نوفمبر احتلوا موقعهم المستحكم في چناق قلعة، وسيطروا على البسفور. وفي ١٣ نوفمبر ١٩١٨- أي بعد توقيع الهدنة بـ ١٥ يوم،

---

(24) Ali Fuad Türkgeldi, "görüb işittiklerim", a.g.e. s. 172 ve Mahmud Kemal İbnül-Emin "Osmanlı Devrinde Son Sadrazamlar", a.g.e. s. 1988

- عندما قرأ وحيد الدين ادعاء أن استقالة حكومة عزت باشا- التي اعتبرها السلطان شكل أخر من حكومة الاتحاد والترقي- تمت بناءً على ضغط السلطان، وهذا مخالف للقانون الأساسي، قال مكذباً هذا الادعاء " تولدت نغمة أخرى من نفس الناي " انظر Ali Fuad Türkgeldi, "görüb işittiklerim", a.g.e. s. 158

(25) Tahsin Ünal, "Türk Siyasi Tarihi", Kutluğ Yayınevi, İstanbul 1974, s. 454

(26) هـ. س. ارمسترونج ، الذئب الأغبر، مصطفى كمال، ترجمة حلمي مراد، دار الهلال ، ١٩٧٦ (مترجم عن الإنجليزية) ص ٧٨

وقبل عودة مصطفى كمال من فلسطين بيوم- رست ٦١ قطعة أسطول تابعة لدول الحلفاء تضم السفن الإنجليزية والفرنسية والإيطالية واليونانية، في ميناء استانبول أمام قصر دولماباغچة. وبذلك وقعت استانبول تحت الاحتلال المشترك للحلفاء بقيادة الأميرال (كالثورب)، بصفته مندوباً سامياً تعاونه لجنة ثلاثية تضم مندوباً عن كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا. وفي وقت قصير دخل استانبول ٣٥ ألف جندي إنجليزي، و٤٠ ألف فرنسي، و٤ آلاف إيطالي، وألفين يوناني. وهكذا احتلت الجيوش الإنجليزية العاصمة، وكل قلاع الدردنيل، والمواضع الحربية الهامة في أنحاء تركيا. بينما احتلت الجيوش الفرنسية استانبول، وملأ جنودها شوارع (جالاطة)، كما استولت على أطراف أضنة. واحتلت الجيوش الإيطالية (بيرا)، واستولت على أنطاليا، وأطراف قونية. وأشرف ضباط الحلفاء على شئون الشرطة، والحرس الوطني، وعلى الميناء وخطوط السكك الحديدية. كما أشرفوا على تجريد القلاع من أسلحتها، وتسريح الجيش[٢٧].

وانهارت الدولة العثمانية، وانسلخت عنها مصر وسوريا وفلسطين وبلاد العرب. وباتت تركيا خاضعة لسيطرة الحلفاء وقبضتهم الحديدية. كما انهارت الأداة الحكومية انهياراً تاماً. وعانى الأتراك من الهزيمة، وأصبح مصيرهم بيد الحلفاء المتصرين[٢٨].

واستقرت أمام القصر السفن اليونانية، وكان يزور هذه السفن يومياً الآلاف من الروم الذين يعيشون في استانبول. وكانت أحاديثهم اللاتينية، وهتافهم بحياة قادة هذه السفن تصل إلى آذان السلطان وحيد الدين، مما اضطره إلى الانتقال إلى قصر يلديز، وظل هناك حتى غادر الوطن.

وطالب الإنجليز بضرورة حل البرلمان، لأنه كان السبب - في رأيهم- في الدفع بتركيا إلى غمار الحرب العالمية. فقاموا بالضغط على السلطان حتى يحله، لكن السلطان لم يكن يريد ذلك، خشية إجراء انتخابات جديدة على هوى الإنجليز. وخشية أن يكون هناك فراغ سياسي، مما يتيح الفرصة لتدخل الإنجليز في الانتخابات[٢٩].

---

(27) Tevfik Bıyıklıoğlu, “Atatürk Anadolu’da” , a.g.e. s. 20

(28) أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص ٩٩ ، ١٠٠

(29) Kadir Mısıroğlu, “bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin”, a.g.e. s.155,204

ثم اضطر توفيق باشا إلى الاستقالة، وجاء فريد باشا إلى الصدارة. وفي تلك الأثناء استمر احتلال الأناضول، وترددت شائعات تقول أن اليونانيين سوف يدخلون إزمير. وأراد اللنبي - الجنرال الإنجليزي الذي جاء إلى استانبول في ظل تلك الأحداث- تعيين مصطفى كمال في قيادة الجيش السادس الموجود في المقاومة حينئذ، ولكن مصطفى كمال لم يقبل عرض الجنرال اللنبي، لأن استانبول أصبحت مركز أنشطة سياسية(٣٠).

جهود السلطان وحيد الدين لإنقاذ وطنه بعد الحرب

بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى، وفرار رجال الاتحاد والترقي الذين زجوا بتركيا في هذه الحرب، حيث كانت مقدرات البلاد في أيديهم، حاول السلطان وحيد الدين أن يمسك بزمام الأمور. وبعد هدنة موندروس، انتهج السلطان وحيد الدين سياسة تستهدف إنقاذ بلاده، وشعبه، وشرف أسرته العلية. فاتخذ عدة إجراءات تستهدف إصلاح الوضع الداخلي، وتحسين الوضع المعيشي للمواطنين. وبذل السلطان جهوداً سياسية من أجل كسب الوقت لتهدئة غضب الشعب، ومهادنة دول الحلفاء. فكر السلطان في ضرورة قيام ثورة شعبية في الأناضول تعمل على تخليص الوطن من الاحتلال الأجنبي، لأنه كان يرى أن اندلاع مقاومة رسمية علنية يقودها الجيش، سيؤدي إلى القضاء على الدولة العثمانية على يد قوات الحلفاء. كما كان يشك في إخلاص الجيش، لأن معظم قادته كانوا من الاتحاد والترقي. ولذلك أرسل السلطان وحيد الدين، مصطفى كمال باشا إلى الأناضول للاضطلاع بهذه المهمة(٣١).

احتلال أزمير وإرسال مصطفى كمال إلى الأناضول

وقع الهجوم اليوناني في ١٤ مايو ١٩١٩. ومن الملاحظ أنه أثناء الحرب العالمية الأولى التي استمرت من ١٩١٤ـ١٩١٨، لم يلتق الجيش العثماني في مواجهة الجيش اليوناني ولا مرة واحدة. وبرغم هذا دخل هذا الجيش من خلال قوات الحلفاء المنتصرة إلى استانبول، حيث رست السفن الحربية اليونانية في مياه البوغاز. ثم قام الجيش اليوناني بتحريض من لويد جورج، رئيس وزراء إنجلترا، بالهجوم على أزمير. في تلك الأثناء كان شعب استانبول يعاني

(30) - Falih Rıfkı Atay, "19 Mayıs", Ulus Basımevi, Ankara 1944, s. 14
(31) Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e s. 429-444

الفقر والجوع وليس قادراً على القتال أو المقاومة، فلم يكن هناك سلاح أو تشكيلات عسكرية منظمة ولكن في الأناضول بدأت أعمال المقاومة الحقيقية.

واحتلال إزمير في ١٥ مايو ١٩١٩، حدث بقرار مشترك من دول الحلفاء، حيث احتل جيش اليونان ميناء إزمير بقرار من لجنة الحلفاء العليا المقيمة في باريس، بموجب المادة السابعة من هدنة موندروس، التي تنص على أن من حق الحلفاء احتلال مايتراءى لهم من الأماكن التي تكفل أمنهم. وحذرت اللجنة، السلطان من مقاومة اليونانيين، معتبرين ذلك مقاومة لجميع الحلفاء، أي نقض الهدنة. ولكن احتلال إزمير أصبح مسألة تخص اليونان فقط، بعد حدوث الخلافات بين الحلفاء. وسقط فريد باشا مغشياً عليه، عندما علم باحتلال اليونان لإزمير، واستقال من الصدارة. وفي ١٩ مايو ١٩١٩ تم تشكيل حكومة الداماد[٣٢] فريد باشا الثانية، وإرسال مصطفى كمال إلى الأناضول عن طريق سامسون[٣٣]. وانضم الشعب التركي الذي نهض لمقاومة اليونانيين الذين هجموا على الوطن، إلى مصطفي كمال باشا من أجل إنقاذ الوطن والحفاظ على استقلاله. وفي ٢٣ مايو ١٩١٩ عُقد (الاجتماع العام)، أو مسيرة السلطان احمد، التي جاءت تعبيراً عن انفعال وغضب الأتراك من احتلال إزمير. وفي ٢٧ يونيو ١٩١٩ جاء مصطفى كمال إلى سيواس. ثم وصل إلى أرضروم في ٣ يوليو ١٩١٩، وتم افتتاح مؤتمر أرضروم في ٢٣ يوليو١٩١٩، ودعا فيه إلى وحدة البلاد ضمن الحدود القومية. ثم عقد مؤتمر سيواس في سبتمبر ١٩١٩، وتشكلت فيه الهيئة التمثيلية، ثم انتقل مقر هذه الهيئة إلى أنقرة. وفي٢٣ ابريل ١٩٢٠ تم افتتاح مجلس الأمة التركي الكبير في أنقرة. وفي ٢٦ ابريل ١٩٢٠ أرسل مجلس الأمة التركي الكبير برقية تأييد للسلطان[٣٤].

مجلس شورى السلطنة

اجتمع مجلس الشورى مرتين باسم مجلس شورى السلطنة في استانبول. وكلا الاجتماعين تما في الوقت الذي لم يكن فيه مجلس المبعوثان موجود. وقد اجتمعا من أجل

---

(32) داماد: كلمة فارسية معناها صهر السلطان

(33) مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ.٢٠٠٦ م، الناشر دار الأفاق العربية، ص ٤٦٩

(34) Reşad Ekrem Koçu, “Osmanlı Padişahları”, a.g.e. s.439

تبادل الرأي تجاه الأحداث السياسية التي وقعت، ولم يصدر عنهما أي قرار نظراً لعدم وجود المجلس.

مجلس شورى السلطنة الأول

بدأ الاجتماع الأول بمناقشة مفتوحة وقصيرة في ٢٦ مايو ١٩١٩، في قصر يلديز، في الدور العلوي في صالون كبير، وحضره مجموعة مختارة من المدنيين والعسكريين، والسلطان وحيد الدين وولي عهده عبد المجيد أفندي والصدر الأعظم. كان السلطان في هذا الاجتماع يبدو مهموماً وحزيناً حتى أنه ترك المجلس، وبجانبه عبد المجيد أفندي، ونزل إلى جناحه الخاص في الدور الأوسط. ولم يكن لهذا الاجتماع أية علاقة بمشروع معاهدة سيفر، لأنها لم تكن قد تمت بعد. وكان قد سبق هذا الاجتماع بثلاثة أيام، ترتيب مظاهرة كبيرة في ميدان السلطان أحمد، حيث ثار الشعب لمحاولة اليونان احتلال أطراف إزمير. ولذلك رتب وحيد الدين هذا الاجتماع للتباحث مع المثقفين من الأمة في هذه الأمور، والمشاورة معهم فيما يمكن عمله. ولذلك كان يبدو مهموماً وحزيناً(٣٥).

في هذا الاجتماع الذي دعا إليه السلطان بسبب احتلال إزمير، أشار المشاركون فيه إلى مدى عجز حكومة فريد باشا، وطُرحت أفكار حول ضرورة الدفاع عن الأتراك كشعب، داخل أسس مثل مؤتمر الصلح المجتمع في باريس في ذلك الوقت. وتقرر في هذا الاجتماع أنه لاشيء يمكن أن يعوض الأتراك عن الأراضي التي غالبية سكانها من الأتراك، وذلك في ضوء (مبادئ ويلسون) المعلنة.

وأرسل مصطفى كمال باشا الذي كان يتابع هذا الاجتماع من الأناضول، في تاريخ ٢ يونيو ١٩١٩، رسالة بالشفرة إلى كاظم قره بكير قائد الفرقة الـ١٥ في أرضروم، معلقاً على اتهام المجتمعين لفريد باشا بالعجز قائلاً: "يبدو أن شورى السلطنة فقدت الثقة في حكومة فريد باشا، فالروح الثورية استيقظت في استانبول من جديد"(٣٦).

---

(35) يقول علي فؤاد توركجالدي: "رأيت السلطان وحيد الدين يبكي. وقال لي، إنني أبكي حزناً مثل النساء." انظر Ali Fuad Türkgeldi,"görüb işittiklerim", a.g.e. s. 216

(36) Mustafa Budak, "İdealden Gerçeğe", Küre Yayınları, İstanbul 2002 s. 74

مجلس شورى السلطنة الثاني

في ١٦ مارس ١٩٢٠ هجم الإنجليز على مجلس المبعوثان، وقاموا بحله. فدعى السلطان إلى عقد اجتماع لمجلس شورى السلطنة في قصر يلديز، في نفس الصالون، للتشاور في أمر حل المجلس، وفي مشروع معاهدة سيفر.

في هذا الوقت كان الإنجليز يضغطون من أجل قبول معاهدة سيفر، والسلطان وحيد الدين يماطلهم من أجل كسب الوقت[٣٧].

وكان مجلس شورى السلطنة الثاني، أحد جوانب هذه المماطلة. وكان حاضراً في هذا المجلس صهر السلطان، إسماعيل حقي بك (اوكداي). في هذا الاجتماع، جاءت صفوة استانبول من وزراء وأعيان وباشاوات ووزراء قدامى وأشراف. ووقف فريد باشا ليلقي كلمة الافتتاح، وبدأ يتحدث عن سوء الوضع السياسي، وروى أنه قد تم تقديم معاهدة صلح سيفر التي وضعتها دول الحلفاء المنتصرة، إلى هيئتنا التمثيلية بدون تعديل، وطلبوا منها إما الموافقة على مسودة هذه المعاهدة أو رفضها. وبناءً على ذلك فإن المطلوب من هؤلاء المجتمعين هو الموافقة أو عدم الموافقة. وكان أي مادة في هذه المعاهدة غير قابلة للتعديل، لأن الدول المنتصرة أجمعت أرائها على هذه المعاهدة. لكن كان من الممكن الاستماع إلى الشكاوي المتعلقة بها، سواء شفاهة أو كتابة، لكن التعديل ليس موضوع بحث. وكان من بين الموجودين ولي العهد عبد المجيد أفندي، وكان شاحب الوجه من شدة تأثره. وأيضا كان هناك شيخ الإسلام السابق، مصطفى خيري أفندي، ومن العسكريين كان هناك هادي باشا، رئيس حزب حرية الائتلاف، والعقيد متقاعد صادق بك. وقف البعض وأخذوا يعلنون صراحة عن أرائهم ضد المعاهدة، وتحدث آخرون منهم صادق بك الذي وصف المعاهدة بأنها "فرمان إعدام" للدولة الكبيرة التي استمرت ٦٠٠ سنة. وهكذا كان كل ما فعله الحاضرون هو التأثر والوقوف على الأقدام وقول الخطب ثم الجلوس. وفي النهاية قال فريد باشا من يقبل المعاهدة يقف على قدميه، ثم أشار إلى السلطان بأن يغادر الاجتماع. فوقف

---

(37) يقول وحيد الدين عن معاهدة سيفر: "إنني قررت المماطلة، وأعلنت للجنة خلافة هندستان التي أرسلت لي وفداً من أجل الاستفسار عن معاهدة سيفر، إنني أرجح انتظار ما ستسفر عنه الأحداث. وإذا ساءت الأمور، ولم تنجح سياسة الانتظار والمماطلة، واضطررت لتوقيع المعاهدة، فسوف أتنازل عن العرش." انظر Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s. 437

السلطان ليخرج من الصالون، فنهض جميع الحاضرين احتراماً للسلطان وتحية له. ولم يُفهم هل كان وقوفهم هذا احتراماً للسلطان، أم موافقة على المعاهدة. وكان رضا باشا- من فريق المدفعية وعضو مجلس الأعيان- حاضراً في هذا الاجتماع، وقال صائحاً في الصدر الأعظم اعتراضاً على لعبته: "إننا قمنا احتراماً للسلطان، وليس قبولاً للمعاهدة"(٣٨).

معاهدة سيفر

معاهدة سيفر هي مشروع معاهدة، قام بالتوقيع عليها الداماد فريد باشا في ١٠ أغسطس ١٩٢٠، ورفض السلطان التصديق عليها.

كانت المعاهدة تنص على:

حصول أرمينيا ومنطقة الحجاز على الاستقلال، وضم جزء كبير من شرق تركيا إلى أرمينيا. وأن تكون سوريا وفلسطين ولبنان دولاً مستقلة، تتولى الوصاية عليهم القوات المنتدبة من عصبة الأمم. فتم وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، والعراق وفلسطين وشرق الأردن تحت الانتداب البريطاني. وأن تتخلى الدولة العثمانية عن سلطاتها الإقليمية في شمال أفريقيا. وتتخلى عن تراقيا الشرقية لليونان، ومنح أزمير والأقسام الداخلية التابعة لها استقلالاً ذاتياً تحت إشراف اليونان لمدة خمس سنوات. وأن تحصل اليونان على جزر بحر إيجة، ومنطقة تراقيا، باستثناء رقعة ضيقة. ووضع منطقة أضاليا تحت الإشراف الإيطالي، ومنح حرية الملاحة في كل المياه المحيطة بالدولة العثمانية، لسفن جميع الدول. ونصت المعاهدة أيضا على تقليص حجم القوات المسلحة التركية، ومنع الدولة من إقامة أية استحكامات عسكرية. وسيطرة لجنة الحلفاء على الاقتصاد العثماني. كما نصت على ضرورة حصول كردستان على الاستقلال، حسب البندين ٦٢ و٦٣ من الفقرة الثالثة من المعاهدة، والسماح لولاية الموصل بالانضمام إلى كردستان، استنادا إلى البند ٦٢ ونصه: "إذا تقدم الأكراد القاطنون في المنطقة التي حددتها المادة (٦٢)، إلى عصبة الأمم - خلال سنة من التصديق على هذه المعاهدة - وأعلنوا أن غالبية سكان هذه المنطقة ينشدون الاستقلال عن تركيا، وفي حالة اعتراف عصبة الأمم أن هؤلاء السكان لهم الحق في حياة مستقلة، وتوصيتها بمنح هذا الاستقلال، فإن تركيا تتعهد بقبول هذه التوصية، وتتخلى عن كل حق لها في هذه

---

(38) İsmail hakkı okday, “Yanya’dan Ankara’ya”, a.g.e. s. 384 -386

المنطقة. وستكون الإجراءات التفصيلية لتخلي تركيا عن هذه الحقوق، موضوعا لاتفاقية منفصلة، تُعقد بين دول الحلفاء وتركيا". وهكذا لم تترك هذه المعاهدة للدولة العثمانية، إلا مساحة محدودة جدا من الأرض في أوروبا. ونتيجة لهذه المعاهدة أصبحت اليونان على بعد أميال من استانبول، وأصبح لها موطئ قدم على ساحل أسيا الصغرى، بمثابة منفذاً على البحر لتنطلق منه في حركة توسع داخلية للاستيلاء على الأناضول الغربي. وطُلب من العثمانيين أن يقدموا تنازلات كبيرة، لمن تبقى في داخل الدولة من غير المسلمين. وأُذيعت نصوص المعاهدة بأسلوب دعائي مثير للشعب التركي الذي ثار ضد الحكومة(٣٩).

الضغوط البريطانية

تزايد ضغط الإنجليز - بوصفهم قوات احتلال- على السلطان حتى يقوم بالتصديق على شروط معاهدة سيفر التي أخذت تتبلور. وحتى يقوم بحل مجلس المبعوثان الذي كان لا يريد أن يحله، لكنه اضطر نتيجة للضغط أن يحله في النهاية. وشكل السلطان وحيد الدين حكومة على رضا باشا في ٢ أكتوبر ١٩١٩. وأجرى انتخابات جديدة برغم وقوع أجزاء كبيرة من الدولة تحت الاحتلال. وبدأت الانتخابات في ١٥ أكتوبر ١٩١٩. وبعد ثلاثة شهور تشكل مجلس المبعوثان العثماني الأخير، وفي ١٢ يناير ١٩٢٠ بدأت فعاليات هذا المجلس. وكان في هذا المجلس رءوف بك، المنتخب بصفته ممثلاً عن سيواس، واشترك في المساعي الرامية لوضع الميثاق الوطني. وأُنتخب في هذا المجلس أيضا مصطفى كمال، مبعوثاً عن أرضروم لكنه لم يلتحق بالمجلس(٤٠).

وبذل السلطان ما في وسعه من أجل إزالة عدم التفاهم الذي أحدثه الإنجليز بين أنقرة واستانبول. وفي ٨ فبراير ١٩٢٠ تم إجراء تعديل في حكومة علي رضا باشا(٤١).

حاول الإنجليز الضغط على حكومة رضا باشا لإعلان أن الذين يشتركون في ثورة

---

(39) محمد سهيل طقوش، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، مرجع سبق ذكره، ص ٥٦٣

(40) عن رئاسة المجلس يقول مصطفى كمال :" إن انتخابي لرئاسة المجلس سيكون مفيدا، فقد أعلنت وجهة نظري إلى الأشخاص الذين يجب أن يعملوا في سبيل ذلك كل ما هو ضروري." انظر Rıza Nur, "Hayat ve Hatıratım", c.11, Altındağ yayınevi, İstanbul 1968, s.234

(41) Kadir Mısıroğlu, " bir mazlum Padişah", a.g.e. s. ٢٦٨

الأناضول عصاه، فرفض رضا باشا، وقدمت الحكومة استقالتها. وأيضا حاولوا ذلك مع حكومة صالح باشا التي تشكلت بعد حكومة رضا باشا، ولكنه رفض أيضا. فوقعت حادثة ١٦ مارس ١٩٢٠، ووطأ الإنجليز مجلس المبعوثان، و قاموا بتفريقه، واعتقلوا بعض ممثلي الأمة، وتم نفيهم إلى مالطا. وفي ٢٧ مارس ١٩٢٠ اتصل مصطفى كمال بـ جلال الدين عارف الذي كان في طريقه إلى أنقرة، وطلب منه إصدار بيان يفيد أن المجلس سوف يجتمع في أنقرة(٤٢). وقدمت الحكومة استقالتها في ٢ ابريل ١٩٢٠. وحُل مجلس المبعوثان العثماني الأخير، ثم تم تشكيل حكومة الدماد فريد باشا الرابعة في ٤ ابريل ١٩٢٠(٤٣). واحتلت قوات دول الحلفاء العسكرية استانبول، وسيطر الجنود البريطانيين على وزارات الحربية والبحرية والبريد والبرق. وبهذا الاحتلال انعزلت استانبول عن الأناضول عزلاً تاماً، وأدى ذلك إلى زيادة اشتعال المقاومة الشعبية في الأناضول. واجتمع النواب الذين فروا من استانبول، مع النواب الجدد الذين انتخبوا من ولايات الأناضول، في أنقرة. وتم تشكيل مجلس الأمة التركي الكبير في ٢٣ ابريل ١٩٢٠. وكان التجاوز والاعتداء على المدينة التي تضم عرش السلطنة، بمثابة رسالة صريحة من دول الحلفاء بأن استقلال تركيا لم يعد موضوع

(42) İsmail hakkı okday, "Yanya'dan ankara'ya", a.g.e. s. 239-241

(43) Kazım karabekir, "İstiklal Harbimiz", Türkiye Basımevi, İstanbul 1960, s.550

يقول كاظم قره بكير: "الحقيقة إن الذي أقنع الإنجليز، واستمالهم إلى الضغط على مجلس المبعوثان العثماني الأخير هو رؤوف أورباي الذي كان مبعوثاً لسيواس في المجلس. والهدف هو ضمان أن ينتقل مركز الفعالية السياسية من استانبول إلى أنقرة. ورؤوف أورباي نفسه اعترف إلى فريدون كاندامير أنه فعل ذلك بناءً على اتفاق بينه وبين مصطفى كمال بينها هما في سيواس، حيث قال: (فعلت ذلك من أجل تأمين إنشاء مجلس ملي أي شعبي في الأناضول. فحتى تقام حكومة ملية فإنا مستعد للتضحية بنفسي في سبيل الضغط على المجلس المجتمع في استانبول)." انظر Feridun Kandemir, "Hatiralar ve Söyleyemedikleri ile Rauf Orbay", Yağmur Yayınevi, İstanbul 1965, s. 45

- ويعترف بهذه الحقيقة أيضا، حسن رضا سوياك، كاتب مذكرات مصطفى كمال باشا. وكان يلازمه دائماً حتى أخر أيام حياة مصطفى كمال. انظر Hasan Rıza Soyak, "Atatürk'ten Hatıralar", c.1, Yapı Kredi Yayınları, İstanbul 1973, s. 126- 127

- كما يؤكد رضا نور الذي كان مبعوثاً لسينوب في المجلس، على حقيقة ضغط الإنجليز على المجلس من أجل حله. انظر Kadir Mısıroğlu, " bir mazlum Padişah", a.g.e. s.166

بحث[٤٤].

مؤتمر لندن (٢٣ فبراير ١٩٢١)

بعد احتلال استانبول بالكامل في ١٦ مارس عام ١٩٢٠، وبعد سقوط الحكومة التي تشكلت في ظل الاحتلال، جرت انتخابات في أنقره، ونجح مصطفى كمال فيها وشكل حكومة برئاسته وجمع النواب فيها. وهكذا وُجدت سلطتان تنفيذيتان في البلاد، إحداهما في استانبول، والأخرى في أنقرة. وبايعت الأناضول الخليفة في إستانبول، ولم يبقَ سوى أنقرة. فسارع الإنجليز بعقد معاهدة سيفر- التي وقعها الداماد فريد باشا ورفض السلطان التصديق عليها- في ١٠ أغسطس ١٩٢٠ لإضعاف مركزه في مواجهة مصطفى كمال. ودعت دول الحلفاء، حكومة استانبول مع حكومة أنقرة معا لحضور مؤتمر صلح في لندن لحل المسألة الشرقية. فتم تشكيل وفد للانضمام إلى مفاوضات الصلح في لندن برئاسة بكير سامي ممثلاً لحكومة أنقرة، ووفد أخر برئاسة توفيق باشا ممثلاً لحكومة استانبول وللسلطان. وذهب الوفدان التركيان إلى هذا المؤتمر الذي حضره ممثلون من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا. وفي ٢٣ فبراير ١٩٢١، غادر توفيق باشا المؤتمر الذي كان يمثل استانبول فيه، قائلاً للويد جورج عندما انتقد بشدة الذين يتزعمون الثورة الملية أي الشعبية: "لابد من نقل حق الكلام إلى سامي بك ممثل حركة المقاومة الشعبية ورئيس وفد أنقرة". وفشل المؤتمر بسبب إصرار الحلفاء على جعل ولاية إزمير تحت حكم اليونانيين[٤٥].

الانتصار على اليونانيين ونتائجه

تشددت أنقرة تجاه استانبول بعد تحقيق النصر في حرب الاستقلال. وخلال الجلسة السرية التى انعقدت في مجلس الأمة التركي الكبير، لمناقشة موضوع إرسال ممثلين إلى مؤتمر الصلح الذي سينعقد في لوزان (١٩٢٢-١٩٢٣)، تمت مناقشة موضوع خلع السلطان وحيد الدين عن العرش. ومن الأسباب التي ساقها مصطفى كمال لتبرير ذلك، أن السلطان أصبح عاجزاً ومنقاداً للأجانب، وخاضعاً لهم[٤٦].

---

(44) كتاب الوطنية العثمانية، تأليف مدام بيرت جورج جوليس، مرجع سبق ذكره، ص ٣٧ ، ٤٦، ٢٦٤

(45) Kadir Mısıroğlu, “bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin”, a.g.e. s. 194

(46) مصطفى كمال (غازي) نطق، تورك طيارة جمعيتي، أنقرة ١٩٢٧، ص ٤٢١

في تلك الأثناء بينما تتزايد النفرة من وحيد الدين، ويزيد ادعاء الخيانة من الغضب الشعبي يوماً بعد يوم، كان وحيد الدين يسجد شكراً لله عند سماعه خبر انتصار الثورة ويكاد يطير من شدة سعادته. ولكن الانتصار على اليونانيين الذي كان له الفضل فيه، تحول إلى نصر ضد السلطان. إذ بعد الانتصار- الذي أحرزه الجيش الذي تشكل بقيادة مصطفى كمال، بعد تأسيس مجلس الأمة التركي الكبير في أنقرة- على اليونانيين عقب الهجوم الذي وقع في ٢٦ اغسطس ١٩٢٢، وبعد تحقيق استقلال تركيا، والتوقيع على هدنة مودانيا في ١٠ اكتوبر ١٩٢٢، تم إلغاء السلطنة في ١ نوفمبر ١٩٢٢ بناءً على قرار المجلس. وبعد خمسة أيام استولى رفعت باشا على مقاليد الأمور في العاصمة استانبول بانقلاب مفاجئ، وتم إسقاط حكومة السلطان. وقابل رفعت باشا، السلطان في قصره، وطلب منه الموافقة على قبول مقام الخلافة بدلاً من سلطنة المشروطية المحددة بالقانون الأساسي، حتى ينقذ نفسه ومكانته. وأخبره إنه سيقوم بإرسال برقية حتى تعترف حكومة أنقرة وقانون التشكيلات الأساسية بذلك، وسيتولى مسئولية إقناع مصطفى كمال. رفض السلطان قبول تولي مقام الخلافة مجرداً من السلطنة، بعد فصل الخلافة عن السلطنة، لأنه كان يرى أن هذا الفصل يجعل المقام الذي يجمع العالم الإسلامي مجرد لفظاً بلا معنى، ويلقى بمقر الخلافة في وضع خطير(٤٧).

طلب السلطان مراراً من رفعت باشا، ممثل حكومة أنقرة في استانبول، التحدث إلى

---

(47) يقول السلطان وحيد الدين في مذكراته: "إن الخلافة في حد ذاتها سلطة. فهي تعني رئاسة القوة التنفيذية والتشريعية. فالخلافة مندمجة أساساً في السلطنة، ولكنها ليست من موجبات السلطنة، أي ليس كل سلطان يكون خليفة. إن حضرة نبينا جمع في شخصه المبارك بين السلطة والنبوة. فموكلي ذي الشأن كان يجمع بين القوة التنفيذية والقيادة. أما الخلفاء الراشدين الذين خلفوه كانت لديهم السلطة التنفيذية والقضائية، وذلك بموجب اسم الخليفة الذي يعني الوكيل. فكان كل واحد منهم في مقام السلطان. إن الخلافة بدون سلطنة تصير خلافة معلولة وموهومة، وذلك لأن حضرة رسول الله جمع بين النبوة والسلطنة. فلم يكن مبعوثاً من أجل قومه فقط مثل الأنبياء الآخرين، بل بُعث لنشر الدين بين الأمم جميعاً. ولكن لأن صفته كانت رسول الله وخليفة الله، فلا يمكن إطلاق وصف سلطان عليه. أما الخلفاء الراشدين، كانوا خلفاء حضرة محمد، وكانوا سلاطين على الأمة. ولذلك يستحيل أن تكون هناك خلافة بدون سلطنة، وإلا أصبحت مثل البابوية، وهذا أمر غير مشروع لأن الدين الإسلامي ليست فيه سلطة روحية. والشكل الأخير الذي يريد الكماليين إعطائه للخلافة، لا يصل حتى لمرتبة البابوية المستقلة في الفاتيكان. ولهذا فإنني لا أوافق على هذا الشكل، وإذا وافقت على ذلك فستكون إهانة لموكلي ذي الشأن ولأسرتي العلية. انظر Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s.174,417-426

مصطفى كمال من أجل التوصل إلى اتفاق، ولكن مرت شهور دون أن يتمكن من ذلك. كما أنه انتهز فرصة المولد النبوي، وأراد أن يهنئ مصطفى كمال وحكومته بانتصار الأناضول، ويسعى إلى الصلح معه، وأعلن عن رغبته تلك لأنقرة. لكن هناك احتمال كبير أن مصطفى كمال كان يتهرب من الحديث مع السلطان. وعندما لم يتلق السلطان أي رد جاد على رغبته، فقد الأمل من محاولة إقامة حوار أخير مع مصطفى كمال(٤٨).

مفاوضات وحيد الدين لمغادرة استانبول

لجأ السلطان وحيد الدين إلى الإنجليز لمساعدته على مغادرة الوطن، لأنهم كانوا إحدى القوى المسيطرة على مقدرات تركيا بعد الحرب العالمية الأولى، وكانوا يحتلون استانبول في ذلك الوقت. وكان اللجوء إليهم، من أجل توفير وسيلة آمنة للخروج من الوطن(٤٩). وعلى هذا الأساس جرى التفاوض بين السلطان وحيد الدين، والسير الإنجليزي والمفوض فوق العادة(هوراس رامبولد)، في ٦ نوفمبر عام ١٩٢٢. ثم تشاور (رامبولد) مع نظرائه الفرنسيين والإيطاليين الموجودين في استانبول، حول ما يمكن عمله لمساعدة السلطان على مغادرة استانبول. وأرسل رسالة إلى السلطان وحيد الدين، حملها إليه مستر (ريان) كبير المترجمين في المفوضية الإنجليزية، أوضح فيها إنه سيسافر إلى لوزان في ١٥ نوفمبر، وعلى السلطان أن يرحل قبل هذا التاريخ، وإلا تعرض للخطر في حالة بقائه في استانبول. وأخبره أنه يجري الاتصال بالجنرال السير (تشارلز هارينجتون) القائد الأعلى للقوات الإنجليزية في تركيا(٥٠).

واستمر التفاوض مع المختصين العسكريين الإنجليز الذين يتناولون موضوع رحيل السلطان وحيد الدين عن استانبول، عن طريق طبيبه الخاص رشاد بك(٥١). وجرت

---

(48) Şevket Süreyya Aydemir, "Tek Adam", c.3, Remzi Kitapevi, Beşinci Baskı, İstanbul 1988, s. 61

(49)-Kadir Mısıroğlu, "Osmanoğullarının Dramı", dördüncü basım, Sebil Yayınevi, İstanbul 1990, s. 107

(50) أوضح (هوراس رامبولد) في تقرير بتاريخ ٢٠ نوفمبر عام ١٩٢٢ بعث به إلي اللورد (كيرزون)، وزير خارجية بريطانيا، أن السلطان برغم خوفه على حياته، كان يتباطأ في مغادرة استانبول. انظر Metin Hülagü, Tarih ve Medenyet, a.g.e. s. 28

(٥١) حرض الدكتور (رشاد بك)، السلطان على الرحيل عن استانبول، ورحل هو نفسه معه. وقد عمل

المفاوضات الخاصة بموضوع مغادرة السلطان وحيد الدين للبلاد مع ممثلي الإنجليز في استانبول، بسرية تامة. وتم اختيار الأشخاص الذين جرى التفاوض بواسطتهم بكل عناية. ولم يعتمد السلطان وحيد الدين في هذا الأمر حتى على أقرب الياوران إليه(٥٢). فقد بدأ (محمد علي بك) المفاوضات مع الإنجليز، ثم انتقلت هذه المهمة بعد ذلك إلي القائمقام (زكي بك)(٥٣).

قام الدكتور رشاد بك، مساء يوم ١٥ نوفمبر ١٩٢٢، بإجراء مفاوضة قصيرة بشأن السفينة الإنجليزية (مالايا) الموجودة في البحر المحيط بقصر "دولماباغچة"، مع السير (دبليو دى دبليو ماثيوس) والقائد (ماكدونالد) والملحق البحري (أر إن)، من ممثلي الإنجليز. وأفاد الدكتور (رشاد) في هذا التفاوض بشكل واضح، أنه يخشى أن تتعرض حياة السلطان للخطر، وأوضح أنه لابد من التوصل إلي قرار في الحال مع زكي بك(٥٤).

ومن هذا المنطلق ذهب المستر (ماثيوس) في نفس المساء إلى منزل الجنرال السير (تشارلز

الدكتور (رشاد) بتحريض من أنقرة، سواء خلال فترة الإقامة في استانبول، أو خلال السنوات التي أعقبت اللجوء. ولكنه انتحر في (سان ريمو) بعد أن ترك خطاباً للسلطان أوضح فيه أنه خانه وخدعه. انظر Kadir Mısıroğlu, "Geçmişi ve Geleceği ile Hilafet", Sebil Yayınevi, İstanbul 1993, s. 276

(52) يبدو أن السلطان لم يشأ أن يشترك في هذا التفاوض، توفيق باشا أو أولاده الاثنين، وهما من ياورانه، وهما المقدم أركان حرب (علي نوري) والمقدم أركان حرب (إسماعيل حقي)، وهو صهره في نفس الوقت. كما لم يشرك أيضا الأميرال السابق (فخري بك) النقيب بحري، وياوره الذي قدم بعد ذلك خدمات جليلة لأسطول الجمهورية. ولم يتخذهم كواسطة في هذا التفاوض لأنهم كانوا منحازين ومرتبطين جداً بحركة المقاومة الشعبية. انظر Tarık Mümtaz Göztepe, "Osmanoğullarını Son Padişahı Vahdeddin Gurbet Cehenneminde", Sebil Yayınları, İstanbul 1991, s. 12, 13,201-204

(53) محمد علي بك: من أقرباء الأسرة السلطانية، ويجيد اللغة الإنجليزية، وهو قائمقام سلاح الفرسان وابن (رؤوف باشا) مشير السلطان الخاص. وزكي بك: هو شقيق زوجة وحيد الدين السابقة، وقائد الموسيقى الهمايونية في القصر. وقد عاش مع السلطان وحيد الدين في الغربة حتى وفاة السطان، وكان مسرفاً للغاية. وبعد فترة من وفاة السطان انتحر لأنه لم يتحمل حياة الفقر. انظر: Tarık Mümtaz Göztepe, "Osmanoğullarını Son Padişahı Vahdeddin Gurbet Cehenneminde", a.g.e. s. 13

(54) İlhan Bardakçı, "Vahdeddin`den Mustafa Kemal`e", Türk Edebiyatı Vakfı, İstanbul 1993, s. 108

هارينجتون). وأجرى مباحثات مع الجنرال (هاستينجز أندرسون) والمقدم (كولستون) والملازم (كاندال). ورأوا أنه يجب عمل الاستعدادات الخاصة برحيل السلطان بسرعة. وفي عربة تاكسي يرتدي سائقها طربوش حتى لا يلفت الانتباه، وعن طريق حي (تقسيم)، ذهب السير ماثيوس والملازم كاندال- بناءً على اقتراح الجنرال (هارينجتون)- إلى قصر جالاطة سراي للالتقاء بزكي بك. وتم إجراء المفاوضات المتعلقة بمسألة رحيل السلطان وحيد الدين، نظراً لأن التليفون وسيلة غير مأمونة في عمل مفاوضات سرية. وكانت الساعة حوالي ٧ أو ٨ مساءاً، وكانت الشوارع هادئة حول القصر، وتخلو من المارة. وفي هذا اللقاء أفاد زكي بك أن السلطان وحيد الدين يرغب في مغادرة استانبول. وبعد مناقشات طويلة استمرت ثلاث ساعَات، تقرر أن يغادر السلطان وحيد الدين القصر صاعداً من باب (أورخانية) في الساعة ٨ صباح يوم الجمعة الموافق ١٧ نوفمبر. وحُددت تلك الساعة، لأنها الوقت الذي يخلو فيه المكان من الحرس. وطلب ممثلي الإنجليز من السلطان خطاباً رسمياً ينص على أنه طلب اللجوء إلي الإنجليز(٥٥). وسبب هذا الطلب هو للحيلولة دون وضع حكومة لندن في موقف الذي قام بإجبار السلطان على الهرب، وحتى لا تسيء العلاقة بين إنجلترا وأنقرة، وبينها وبين العالم الاسلامي(٥٦).

وتقرر أن يكون في معية السلطان ابنه أرطغرل و زكي بك والياور عمر باشا وخمسة أو ستة أشخاص آخرين يحدد زكي بك أسمائهم(٥٧).

وسلم القائمقام زكي بك خطاب اللجوء إلى الجنرال هارينجتون في ١٦ نوفمبر ١٩٢٢، في مقر مكتب الحربية في (بانجالتي)(٥٨).

---

(55) Public Record Office, Foreign Office Archives no: 371/ 7962. 163552, 20 November 1922

(56) -Ilhan Bardakçı, "Vahdeddin`den Mustafa Kemal`e", a.g.e. s. 110.

(57).Metin Hülagü, Tarih ve Medenyet ,a.g.e. s. 29

(58) هذاهو خطابه الذي يحمل عنوان: (البلاط الهمايوني السلطاني): "إلى جناب الجنرال هارينجتون، قائد جيوش احتلال دار السعادة. إنني ألجأ إلى فخامة دولة الإنجليز، لأنني أرى أن حياتي في استانبول معرضة للخطر، ولذلك أطلب منكم نقلي من استانبول إلى مكان أخر." وهو مؤرخ بتاريخ ١٦ تشرين ثاني ١٩٢٢، وبتوقيع خليفة المسلمين محمد وحيد الدين. انظر Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s 242

رحيل السلطان عن استانبول

في التاريخ الذي تقرر لرحيل السلطان وحيد الدين، وضُع العقيد (ستيلا) قائد لواء حرس استانبول، وكتيبة الحرس الخاص للسيد (ماثيوس)، والملازم (كاندال)، كدليل عند باب عثمانية. وقام الضابطان بنقل السلطان ومعيته داخل سيارة إسعاف، وساروا في خط سير يمر بمزرعتي (بالموقچو ونيشان طاش). وصلوا إلى (بشيك طاش)، ومن هناك وصلوا إلى القاعدة البحرية التي أمام (طوبخانة) في الساعة ٨٣٠ تقريباً. وكان في استقبال السلطان وحيد الدين هناك الجنرال (هارينجتون)، وقائد الأركان العامة السير (هاستنجز أندرسون)، ومساعد المفوض الإنجليزي فوق العادة في استانبول السير (نافيل هاندرسون)، والعقيد (بايرد).

ركب السلطان في الحال سفينة بخارية تسمى (يلديرم)، أخذته إلى سفينة حربية تسمى (مالايا)(٥٩)، تحت إدارة القبطان (باين)، واستقبله الأميرال السير (اوزموند بروك) القائد الأعلى لأسطول البحر الأبيض، بكل احترام. وضمن الجنرال (هارينجتون) أمن وسلامة موظفي القصر، وباقي أفراد عائلة السلطان الباقية في استانبول، تطبيقاً للخطة السابقة التي نُفذت في صباح يوم ١٧ نوفمبر ١٩٢٢(٦٠).

وعند مغادرة السلطان وحيد الدين لاستانبول. لم يكن بجانبه من أسرته سوى ابنه الأمير أرطغرل أفندي، أما معيته فكانت تضم زكي بك قائد الموسيقى الهمايونية السابق وياوره، وعوني باشا رئيس الياوران، واثنان من أغاوات الحرم، والباشطبيب رشاد باشا، ورئيس موظفي القصر الياور عمر باشا، وزهدي بك مبعوث (نائب) سينوب السابق،

---

(59) كانت السفينة (مالايا) عبارة عن سفينة حربية مهداة لإنجلترا من مسلمي جزر الملايو. وهى مسماه علي اسم هذه الجزر القديمة. وكانت الحكومة الإنجليزية- بينما تقوم بإبعاد وحيد الدين، الخليفة عن استانبول- تصور نفسها بأنها تقدم جميل إلى العالم الإسلامي، وإلى مسلمي الملايو الذين أهدوها هذه السفينة، بتخصيصها لخدمة السلطان، مما يمكنها من السيطرة على مشاعرهم، وتوجههم الديني تجاه الخليفة. ولغرابة التاريخ! فإن السفينة (مالايا) التي حملت آخر سلطان عثماني إلى الغربة، شاركت في مراسم جنازة مصطفى كمال، أول رئيس للجمهورية التركية عام ١٩٣٨، أي بعد ١٦ عاماً من رحيل السلطان وحيد الدين. انظر Kadir Mısıroğlu, “bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin”, a.g.e. s.335

(60) Public Record Office, Foreign Office Archives no: 371 / 6469. 163650

والسيدان مظهر وخير الدين أفندي من أصحابه، وإبراهيم المسئول عن الملابس، وشكري المسئول عن التبغ، ومحمود بك رئيس الحلاقين... وغيرهم من مسئولي الخدمة، مثل: المسئول عن سجاجيد الصلاة والمسئول عن الإبريق(٦١).

وبعد مغادرة السلطان وحيد الدين استانبول، علي ظهر المدرعة الإنجليزية (مالايا) التابعة لأسطول البحر الأبيض- وبينما هو لايزال في السفينة- أرسل هارنجتون رسولاً إلى رفعت باشا يخبره بما حدث، كما قام بإعداد بيان أذاعه على الشعب. وأدلت وكالة (تي اتش أر)- نقلاً عن قيادة قوات الاحتلال الإنجليزي في استانبول- بهذا الخبر الرسمي: "نظراً للوضع الراهن للذات الشاهانية، تعلن إنجلترا رسمياً: أن السلطان طلب حماية إنجلترا له بصفته خليفة جميع المسلمين، وأنه أبدى رغبته في مغادرة استانبول في الحال، حفاظاً على حياته وحريته. وقد نُفذت رغبة الذات الشاهانية هذا الصباح"(٦٢).

ولم يستطع أفراد أسرة السلطان اللحاق به إلا بعد ١٦ شهراً من رحيله عن استانبول، عندما أصدر مجلس الأمة التركي الكبير، في ٣ مارس ١٩٢٤، القانون رقم ٤٣١ الذي ينص على ضرورة مغادرة أفراد الأسرة السلطانية الوطن. هذا بالرغم من قيام وحيد الدين خلال إقامته في منفاه في (سان ريمو)، بإرسال طلبات عديدة، في أوقات مختلفة، إلي وزير خارجية إنجلترا اللورد (كيرزون)، من أجل أن يساعده في إلحاق أسرته به، ولكنه لم يتلق رداً علي أي منها، أو أية مساعدة من جانبه في هذا الموضوع(٦٣).

بعد تحرك السفينة (مالايا)، أخبر الإنجليز وحيد الدين بأنه يتعين أولاً الذهاب إلى جزيرة مالطا- القاعدة البحرية الإنجليزية- لأن السلطان لم يحدد في بداية الأمر مكان معين يمكن تهيئته لإقامته. وكان لورد كيرزون قد اعتذر للسلطان من قبل عن عدم إمكانية السماح له بالاستقرار في قبرص، عندما رغب وحيد الدين في ذلك؛ وذلك لأسباب سياسية حيث سيُساء فهم ذلك الأمر، وسيؤدي إلى سوء العلاقات بين إنجلترا وتركيا. ولهذا السبب وصل السلطان ومعيته في ٢١ نوفمبر ١٩٢٢، صباح يوم الثلاثاء في وقت مبكر، إلى الجزيرة. وفي

---

(61) Kadir Mısıroğlu, "Osmanoğullarının Dramı", a.g.e. s. 184 – 185.

(62) Public Record Office, no: 371/9119. 162922, 20 August 1923

(63) Tarik Mümtaz Göztepe, "Osmanoğullarını Son Padişahı Vahdeddin Gurbet Cehenneminde", a.g.e. s.15

أثناء توجه السلطان بالسفينة الحربية الإنجليزية إلى مالطا، أعلنت أنقره خلعه من مقام الخلافة بعد أن وصمته بالخيانة، وانتخبت عبد المجيد أفندي خليفة مكانه. وقبل دخول وحيد الدين الجزيرة، رجاه المفوض الأعلى السير (نافيل هندرسون) بأن يؤخر إعلان مغادرته استانبول حتى ظهر ذلك اليوم؛ نظراً لعدم علم شعب الجزيرة بأنه سوف يأتي إلى جزيرتهم(٦٤). مكث وحيد الدين في الجزيرة ٤٥ يوماً، ثم توجه إلى الحجاز(٦٥).

زيارة مكة(٦٦)

عندما علم الملك حسين - الذي كان يمثل الخلافة في الحجاز- أن وحيد الدين رحل عن استانبول وذهب إلى مالطا، كتب خطاباً إلى السلطان يدعوه إلى الحج(٦٧). تأثر السلطان

---

(64). Public Record Office, op.cit, no: 371 / 6469. 163650

(65). كانت الحجاز في ذلك الوقت تحت سيطرة الشريف حسين بن علي، الذي قاد العصيان العربي الذي تفجر منذ الحرب العالمية الأولى، وأعلن أميراً على الحجاز عام ١٩١٦، ثم ملكاً عام ١٩١٨، ولم يكن ينقصه سوى الخلافة. انظر Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s. 276,277

(66) على مدى ستة قرون لم يؤدِ أي سلطان عثماني فريضة الحج، وحتى وحيد الدين؛ فبرغم زيارته لمكة فإنه أدى عمرة فقط، ولم يحج أيضا. انظر المرجع السابق ص 298

(67) يقول كل من الكاتبين التركيين، مراد برداقجي ونجيب فاضل قيصه كورك: "إن ما شجع أمير الحجاز على توجيه دعوته إلى السلطان، قوله وهو في الطريق إلى مالطا، بعد مغادرته استانبول: (ليس من صلاحية أي أحد عزلي من مسئوليتي سوى حضرة جناب الرسول، وإنني أحافظ حتى الآن على السلطنة والخلافة)، وكان الغرض من توجيه هذه الدعوة هو انتزاع مسئولية الخلافة من السلطان الذي أصبح لا حيلة له. فقد كان هدف الملك حسين هو استغلال قوة النفوذ المعنوي للخلافة في تشكيل وحدة سياسية بزعامته، في أنحاء شبه الجزيرة العربية. وسعى إلى إخفاء هذا القصد الحقيقي من وراء ستار الدعوة البريئة، وحتى يتحقق له ذلك أبدى احترام شديد في دعوته للسلطان. انظر Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s.122 and Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s. 234

- انظر ملحق الوثائق ص 297 ، وثيقة رقم (١) ص 298

- نشرت جريدة القبلة مقالة بعنوان: "الحق لا يعدم أنصاراً "، أشارت فيه إلى الحديث الذي أجراه محرر جريدة وقت، مع المستر كراين. وهو الحديث الذي نشرته جريدة اللواء المصري، في عدد ٣١٥ بتاريخ ١٣ رجب ١٩٢٣، مترجماً عن صحيفة وقت. فقد سأل المحرر قائلاً: ما هو قصد الملك حسين من دعوة محمد السادس؟ فأجاب المستر كراين قائلاً: لقد تحدثت مع الملك حسين في هذا الخصوص في جدة، فأكد لي أن هذه الدعوة لا تنطوي على أي مقصد سياسي، وأن الدعوة كانت شفقة منه على محمد السادس الذي كان يفضل أن يقضي بقية حياته في بلاد إسلامية بدلاً من مالطا. ولا يريد الملك حسين أن يكون آلة للسياسة الأجنبية، وإنما يرمي إلى التمسك بطلب الاستقلال لبلاده، وتحقيق الاتحاد العربي. وهو يجاهد في سبيل تنفيذ

وحيد الدين بهذه الدعوة حيث وجدها فرصة لتسكين ألم فراق الوطن(٦٨).

وبناءً علي ذلك غادر مالطا. وخلال توجهه إلى الحجاز مر بمصر حيث علم هناك بنية الملك حسين، ورغم ذلك توجه إلى مكة(٦٩). وبرغم الاحترام والإكرام من جانب الملك

المعاهدة المبرمة بينه وبين إنجلترا في عام ١٩١٥. انظر جريدة القبلة، العدد ٦٧٢ بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٢٣، ص ٣ ، وجريدة اللواء المصري، العدد ٣١٥ ، ١٣ رجب ١٩٢٣.

(68) كان وحيد الدين يدرك أن زيارته للحج تكتنفها مخاطر جمة، وسوف تُستغل سياسياً أسوأ استغلال؛ لذلك أعلن في خطابه الذي كتبه إلى ابنته صبيحة، عن نيته قبول دعوة الملك حسين، وكيف توصل إلى قراره؟ إذ يقول: "... لما كنا لن نواصل الإقامة في مالطا، وهناك احتمال للعودة إلى وطننا العظيم، وحتى تحين هذه اللحظة السعيدة، يجب أن أبقى بصفتي الشخصية، محافظاً على هيبتي، وكرامتي. ونظراً لما أتمتع به من حيثية، لايصير مناسباً الإقامة في دولة أجنبية؛ ولذلك رأيت أنه قد آن الأوان لأن ألجأ إلى الروضة المطهرة، وإلى حضرة صاحب الرسالة. ويدفعني لذلك إحساسي الديني، وحرماني من أسرتي، وظروفي الحالية. وكان تفكيري في اللجوء إلى حضرة النبي والعيش إلى جواره في بلده، ليس معناه أبداً إنني ألجأ إلى الملك حسين. فإن هذه البلدة المباركة هى دار الإيمان، ودار كل المسلمين، وليس من حق أي واحد أن يدّعي حق تملكها، أو التحكم فيها. ولذلك فإنني عقدت العزم على التوجه إلى المدينة مباشراً، كأي فرد مسلم عادي، وكنت سأخبر الملك حسين بأنني أعتزم الذهاب إلى المدينة. إذ من المناسب إشعاره بذلك من أجل الاحتياط. ولكن قبل أن أخبره بقراري، دعاني الملك حسين لزيارة مكة، من خلال البرقيات التي انهالت علي الواحدة تلو الأخرى. وهكذا جاءت هذه الدعوة، في الوقت الذي كنت أفكر فيه بالفعل في القيام بهذه الزيارة. ورأيت أنني بذلك سأتمكن من زيارة بيت الله، ثم الذهاب بعد ذلك إلى المدينة. وجناب الحق والرسول يعلمان أن هذه المحاولة ليس ورائها أي غرض سياسي، أو تحريض خارجي، بل كانت بسبب تأثير فراق الوطن، وبدافع من حسي الديني." انظر Yılmaz Çetiner, "Son Padişah Vahdettin", Milliyet Yayınları, İstanbul 1993, s. 319 – 320

وهذا هو رد السلطان وحيد الدين علي دعوة الملك حسين: "إنني كنت أفكر بالفعل في الذهاب إلي الحجاز من أجل أن أكحل عيني برؤية مقام النبي، ولذلك فإنني أقبل هذه الدعوة إيماناً مني بإنها بشرى معنوية لا مثيل لها، وأعتبرها دعوة من حضرة رسولنا الكريم". انظر: Tarik Mümtaz Göztepe, "Osmanoğullarını Son Padişahı Vahdeddin Gurbet Cehenneminde", a.g.e. s. 39

(69) في أثناء وجود وحيد الدين في مصر، يكشف خطاب جاءه من (سيد طالب) مبعوث سابق لمصر في البصرة، وهو صاحب نفوذ كبير، الغرض الحقيقي من دعوة الملك حسين. فيقول: "سلطاننا العظيم ذو القدرة والشفقة، ولي نعمتنا وحضرة الخليفة. يؤسفني أن أقول أن استجابتكم لدعوة الملك حسين –عفواً– تكشف عن غشاوة كبيرة حجبت النجابة السلطانية. فهذه الدعوة التي تبدو في ظاهرها أن الملك حسين يسعى إلى إظهار صداقته وعبوديته لمقام الخلافة المقدس، فهو في الحقيقة يسعى لانتزاع الخلافة لنفسه. ومن أجل إثبات صحة هذا الادعاء، فإنني أخبرك أن فيصل بن الحسين– ذلك الملك الموجود في سوريا– يذكر منذ فترة طويلة اسم والده في الخطبة مقترناً بصفة الخليفة، وفي هذا دليل كافٍ على ما أقول." انظر Tarik

حسين، ومعاملته بوصفه واحد من السلاطين العثمانيين، فإن إنفاقه ببذخ طيلة مدة زيارة وحيد الدين، وإكرامه المبالغ فيه، كانا سبباً لزيادة شكوك السلطان[٧٠]. وفي أثناء إقامته بمكة، نشر أول بيان خاطب به العالم الإسلامي، تحدث فيه عن الحرب العالمية الأولى، وعن معاهدة سيفر، وهدنة موندروس، ومسألة فصل السلطنة عن الخلافة، وعن الحرب القومية وزعمائها[٧١].

وعندما تيقن السلطان وحيد الدين من غرض الملك حسين، قرر مغادرة الحجاز وهو يحمل لقب الخلافة والسلطنة. وحتى لا يصبح ألعوبة في يد أي فرد، اتخذ قراره بالتوجه إلى حيفا[٧٢]. ولكن الحكومة التركية رفضت أن يقيم في فلسطين، واقترحت أن يقيم في سويسرا، ورجح هو أن يقيم في إيطاليا؛ لأنها في رأيه دولة محايدة، ومناسبة أكثر للاستقرار فيها[٧٣].

Mümtaz Göztepe, "Osmanoğullarını Son Padişahı Vahdeddin Gurbet Cehenneminde", a.g.e. s.66

(70) انظر المرجع السابق، ص ٨٧

(71) هذا البيان يدافع فيه وحيد الدين عن نفسه. وهومنشورفي كتاب قدير مصر أوغلي، كما نشرته أيضا صحيفة سبيل. انظر ٢٤٨:

Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. .
Gazetesi, 8 Eylül 1978 ve Sebil

- النص العربي لهذا البيان منشور في حسين بن محمد نصيف، ماضي الحجاز وحاضره، ص ٧٦، وهي نسخة مصورة عن مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، المكتبة المركزية، الرقم العام٢٠٢٨٨. وهناك ترجمة لهذا البيان الذي كتبه السلطان محمد وحيد الدين باللغة العثمانية إلى اللغة العربية، لشيخ الإسلام مصطفى صبري، وقد طُبع منه نسخ متعددة في مطبعة الحكومة بمكة، باللغتين العربية والتركية.

وقد نُشر هذا البيان باللغة العربية في مجلة المنار الجديد. انظر ماجدة مخلوف، بيان السلطان محمد وحيد الدين، أخر السلاطين العثمانيين، مجلة المنار الجديد، ابريل ٢٠٠٥، ص ١١٨

(72) انظر ملحق الوثائق ص 297، الوثائق أرقام (٢، ٣) ص 299 ، 300

(73). يقول نجيب فاضل قيصه كورك: إن الملك حسين كان يترقب فرصة أن يحصل من وحيد الدين في أقرب وقت، على الوثيقة التي تعلن تنازله طواعية عن الخلافة، ومبايعته على ذلك. و كان هذا هو سبب الإكرام والاحترام والبذخ الشديد. فقد كان يظن أنه سيكسب ود وحيد الدين، عندما يضعه تحت يده بشكل مستمر، غارقاً إياه في الذهب. انظر:

Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a,g,e, s. 234

وفاة السلطان وحيد الدين

كان وحيد الدين يتصور طيلة أيام غربته في إيطاليا -التي استمرت ثلاثة أعوام ونصف العام- أنه سوف يعود إلى وطنه مرة أخرى. وكان يأمل في ذلك بالفعل، وحتى في لحظات يأسه، لم ينقطع أمله هذا. كان مقتنعاً برغم كل شيء أنه ذات يوم سيعود إلى بلده، ويستعيد التاج والعرش(٧٤). كما أن جميع من كانوا في الغربة، كانوا يتعقبون السنين عاماً بعد عام، بصبر شديد، منتظرين صدور العفو، ومنح الأسرة العثمانية الأذن بالعودة إلى الوطن(٧٥).

وفي ليلة ١٦ مايو عام ١٩٢٦، بعد أن تناول العشاء، جمع كل من في القصر، من السيدات والحريم في حجرته، وأخذ يتسامر معهم، ويتحدث أحاديثاً حلوة حتى وقت متأخر من الليل. كان يتحدث عن عودته إلى استانبول وإلى قصر الإمارة في (چنگل كوي). وكان كل واحد منهم يروي حديثاً شيقاً عن ذكريات الشباب، والرفاهية التي ولت. وكانت هذه الذكريات، هي أخر ما رواه، فقد توفى في تلك الليلة.

وبسبب إنه لم يدفع إلى الباعة الذين حول منزله، ١٢٠ ألف ليرة - دين عليه- تم الحجز على تابوته لمدة ١٥ يوماً. وكانت هذه أول مرة في التاريخ يُحجز فيها على تابوت حاكم سابق، بسبب دين لم يدفعه. وعندما فتحوا الخزينة التي كان يحتفظ فيها بأوراقه ونقوده عند موته، لم يجدوا فيها سوى٤ ليرة ذهب وربع ليرة ونيشان (أسرة آل عثمان) المنزوع منه أحجاره الكريمة. وهذا لا يكفِ لسداد الدين(٧٦).

ولم تقم تركيا بدفع دينه، أو تخليصه من الحجز. كما لم تسمح له بالدفن في تراب الوطن. ولم تبدِ حتى في لحظة موته أي خير أو وفاء له. وفي النهاية - وإن جاء هذا متأخراً- قام الملك حسين ملك الحجاز السابق، والملك فيصل ملك العراق، وعمر طوسون باشا من أمراء مصر، بإرسال مساعدات نقدية تم بها تصفية الدين، وتخليص الجنازة من الحجز. وتم إحضار نعشه إلى الشام، في موكب جنازة برعاية أحمد سامي بك، الزوج السابق للأميرة

---

(74) Tarik Mümtaz Göztepe, "Osmanoğullarını Son Padişahı Vahdeddin Gurbet Cehenneminde", a.g.e. s. 195.

(75).Yılmaz Çetiner, "Son Padişah Vahdettin", a.g.e. s. 359.

(76) Tarik Mümtaz Göztepe, "Osmanoğullarını Son Padişahı Vahdeddin Gurbet Cehenneminde", a.g.e. s. 112, 198

عائشة، إحدى بنات السلطان عبد الحميد الثاني. وتم دفنه في ساحة جامع السلطان سليم (ياووز) في دمشق[٧٧].

لم يكُف السلطان وحيد الدين - حتى في لحظات حياته الأخيرة- عن ذكر وطنه، وعن أمله في العودة. وعندما أدرك أنه لن ينال هذه الرغبة، قال هذه الكلمة، كوصية لأحد المقربين له: "عندما تعودوا إلى الوطن قولوا إنني لم أخن وطني!"[٧٨].

(77) المرجع السابق، ص ٢٠٢

(78) Kadir Mısıroğlu, " bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 94.

الفصل الثالث

رؤية السلطان محمد وحيد الدين لأتاتورك

بداية اللقاء بين وحيد الدين ومصطفى كمال أتاتورك

في سبتمبر عام١٩١٧، في العام الثالث للحرب العالمية الأولى، جاء الإمبراطور ويليام الثاني إلى استانبول لزيارة حليفة السلطان محمد رشاد. في تلك الزيارة منحه السلطان رتبة مشير الجيش العثماني، والزي والسيف الخاص بتلك الرتبة، والوسام الفخري المزود بالسيف. تعرف وحيد الدين على الإمبراطور خلال زيارته الأخيرة، حيث كان وليا للعهد. وكانت هذه الزيارة هي الزيارة الثالثة التي قام بها الإمبراطور الألماني لاستانبول، إذ قام بزيارة استانبول مرتين في عهد السلطان عبد الحميد الثاني.

وكان لابد أن يرد السلطان محمد رشاد علي هذه الزيارة، ولكن لأنه كان مريضاً، ولا يستطيع أن يؤديها؛ أوكل إلى ولي العهد محمد وحيد الدين، أن يقوم هو بالزيارة موفداً من قبله، ليقدم للإمبراطور سيفاً هدية منه، ولمشاهدة الجبهة الألمانية في برلين. وتقرر أن يصحبه في هذه الزيارة مصطفى كمال باشا، ولطفي سيماوي، باش مابين السلطان محمد رشاد (أي رئيس ديوان القصر السلطاني)، وناجي (ال دنيز) باش ياوره، ورفيق بك وهو أحد أقربائه، ورشاد بك طبيبه الخاص.

تعرف وحيد الدين بمصطفى كمال باشا قبيل سفره إلى ألمانيا، وكان مصطفى كمال في تلك الأثناء عائداً من الجبهة الفلسطينية(١).

كان مصطفى كمال يتمتع بشهرة كبيرة عقب الحرب العالمية الأولى، باعتباره قائداً عسكرياً قديراً، وبطل معركة "چناق قلعة"(٢). وكان موضع إعجاب وحيد الدين الذي كان حينئذ ولياً للعهد(٣).

---

(1)- İsmail hakki okday, “Yanya’dan ankara’ya”, a.g.e. s.328,329

(2) چناق قلعة: أي القلعة السلطانية أو قلعة الدردنيل. اهتم السلطان عبد الحميد الثاني بتقويتها في سنوات حكمه لأنه كان يعرف إنها مفتاح الأمان لحماية استانبول، وتقويتها يساعد على صد أي اعتداء يقع على الدولة العثمانية، ويستهدف العاصمة استانبول. وفي معركة چناق قلعة، وصل أسطول أقوى دولتين بحريتين في العالم في ذلك الوقت، واستطاع مصطفى كمال أن يستفيد من تحصين القلعة، ويضد قوات الحلفاء، ويكلفها خسائر كبيرة. وبسبب هذا الانتصار، أصبح أتاتورك يتمتع بشهرة عسكرية وشعبية كبيرة. انظر ماجدة مخلوف، الخلافة في خطاب أتاتورك، مرجع سبق ذكره، ص ٣١.

(3) قال وحيد الدين عندما تم تعيين مصطفى كمال أتاتورك ليكون ياوراً له أثناء سفره إلى ألمانيا: "إنه محظوظ وممتن لأن يكون في رفقته بطل معركة "چناق قلعة". كما كان السلطان عبد الحميد الثاني، وكان حينئذ

زيارة ألمانيا

رافق مصطفى كمال باشا، الأمير وحيد الدين في زيارته الرسمية إلى ألمانيا في ١٥ ديسمبر عام ١٩١٧، حيث وجدها فرصة لمقابلة الإمبراطور ويليام الثاني، والاتصال بالقادة الألمان، والاطلاع عن قرب على أحوال الجبهات الحربية. وفي أثناء جولته في الجبهة الألمانية الغربية[٤]، أعرب عن أرائه في إمكانية سقوطها، كما تحدث عن وضع ألمانيا أثناء الحرب. وتوطدت علاقته بولي العهد خلال الرحلة، وصارا صديقين. وحاول مصطفى كمال أن يقنع وحيد الدين، أن ألمانيا لا تستطيع أن تكسب الحرب، وأن التحالف معها غير مجدٍ، وأن أنور يجب أن يُنحى عن الحكم. كما اقترح على وحيد الدين أن يتولى قيادة الجيش الخامس أسوة بالأمراء الألمان، وأن يعينه هو نائباً عنه في القيادة[٥].

أمر الأمير وحيد الدين صهره عمر فاروق أفندي الذي رافقه في رحلة ألمانيا، بأن يتعرف على أفكار مصطفى كمال، وهل هو ضد الاتحاد والترقي، ومع السلطنة والخلافة، أم لا؟ وعندما أخبر عمر فاروق السلطان، بأن مصطفى كمال سكير، قال: "إن السكارى لا يخبئون سراً، وأثناء سكره يفصح عن أفكاره بصراحة". وفعلا فعل عمر فاروق ما أمره به الأمير، وقدم له تقريراً يفيد أن مصطفى كمال ضد الاتحاد والترقي، ومرتبط بمقامي السلطنة والخلافة. بعد ذلك اعترف عمر فاروق أفندي، للأمير محمود شوكت أفندي ابن السلطان عبد العزيز قائلاً: "إنني ضللت وحيد الدين برأيي الخاطيء في مصطفى كمال؛ لأن وحيد الدين بعد ذلك اختار مصطفى كمال، عندما أراد أن يرسل أحد الضباط إلى الأناضول، لكنني ماذا كان في استطاعتي فعله؟ فقد خدعني فكره. فقد أظهر أنه ضد الاتحاد والترقي، وأنه مرتبط بمقامي السلطنة والخلافة. ومنذ ذلك الحين والأمير يثق به، ويعتقد إنه ضد

مخلوعاً عن العرش، معجباً أيضا بأتاتورك لكونه "أحد الباشاوات الذين بيضوا وجه الدولة." انظر المرجع السابق ص ٣١.

(4) في أثناء زيارة وحيد الدين لألمانيا، تجول في الخنادق التي في جبهة جاليشيا. وعندما طلب الضباط الألمان منه أن يطأطأ رأسه حتى لا يتعرض للخطر، رد قائلاً: "التركي لا يطأطأ رأسه أبداً في مواجهة العدو" انظر Hüseyin Nihal Atsız, "Türk ülküsü", a.g.e. s. 85

(5) Falih Rıfkı Atay, "Çankaya", Doğan Kardeş Basımevi, İstanbul 1984, s. 105, 106

الاتحاد والترقي، والحقيقة إنه لم يكن كذلك"[٦]. فقد قال مصطفى كمال لفالح رفقي آتاي، وهو أحد المقربين له ما يلي: "نعم أنا لست ممثلاً للاتحاد والترقي، لكنني سأقول لك إن جمعية الاتحاد والترقي كانت جمعية محبة للوطن، وأنا موجود داخل هذه الجمعية منذ بدايتها، وظللت بداخلها مدة طويلة جداً من الزمن"[٧].

كان السلطان مخطئاً في اعتبار مصطفى كمال ضد الاتحاديين، ومخطئاً أيضا في اعتباره من مؤيدي السلطنة والخلافة، وبرغم شكه في هذا- وهو ما يتضح من خلال تكليفه الأمير عمر فاروق أفندي، بالتأكد من ذلك- فقد صدق أنه مع السلطنة بناءً على تقرير شفهي من الأمير عمر فاروق. لكن مصطفى كمال كان منذ سنوات شبابه ضد السلطنة، بل وكان يسعى لإنشاء إدارة جمهورية[٨]. كما كان من بين ضباط "جيش الحركة"[٩] الذي جاء من سلانيك[١٠] إلى استانبول. وقد انضم بوصفه "مندوب بنغازي" إلى مؤتمر الاتحاد والترقي في عام ١٩٠٩. ومنذ ذلك التاريخ وهو بينهم[١١]. ويقال أن من سماه بجيش الحركة هو

---

(6) - Kadir Mısıroglu, " bir mazlum Padişah, Sultan Vahideddin", a.g.e. s. 114,115

(7) Falih Rıfkı Atay, "19 Mayıs", a.g.e .s. 11,12

(8) Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan Vahideddin", a.g.e. s.١91

(9) جيش الحركة: هو الجيش الذي تحرك من سلانيك نحو العاصمة استانبول، للقضاء على الحركة المضادة للدستور العثماني الذي أعلنه السلطان عبد الحميد الثاني. وحاصر هذا الجيش قصر يلديز، وأعلن الأحكام العرفية، وأنشأ محاكم استثنائية لمحاكمة المناهضين للدستور. واجتمعت الجمعية العامة للاتحاديين، وقرروا خلع السلطان عبد الحميد الثاني، واعتبروه مسئولاً عن تفجر الحركة المضادة. انظر محمد سهيل طقوش، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، مرجع سبق ذكره، ص ٥٤٢

- اعترف مصطفى كمال في مذكراته: بإنه كان يتآمر على السلطان عبد الحميد الثاني بوصفه رجلاً ضعيفاً، وإنه وجماعته حاولوا تجريده من القوة الباقية التي يتمتع بها، لتحرير البلاد من شره. واعترف أيضا أنه كان منضماً إلى المعارضين للسلطان. انظر داجوبيرت فون ميكوش، مصطفى كمال، المثل الأعلى، مرجع سبق ذكره، ص ٦٣، ٦٤

(10) سلانيك: هي مدينة يونانية تقع شرق اليونان على خليج سلانيك، فتحها السلطان مراد الثاني عام ٨٣٢هـ- ١٤٢٨م، وكانت من أكبر المدن التابعة للدولة العثمانية. وكان اليهود يشكلون نصف سكانها، وهم ينحدرون من اليهود الذين طُردوا من الأندلس. انظر شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، مهران مطبعةسي، جلد٤، استانبول ١٣٠٦ - ١٣١٦ص ٢٥٩١١، ٢٥٩١٢

(11) كان مصطفى كمال مجرد عضواً اسمياً في جمعية الاتحاد والترقي، وكان في الواقع من ألد خصومها،

مصطفى كمال نفسه. وقد استطاع مصطفى كمال إخفاء توجهاته ونواياه، حتى أنه في أحد أيام رحلة ألمانيا، سأله سامي بك عن رأيه في وحيد الدين، فأجاب مصطفى كمال قائلاً: يمكن عمل الكثير مع هذا الرجل، بشرط التواجد دائماً أمام عينيه، وخدمته بصدق وأمانة(١٢).

اللقاء الأول مع مصطفى كمال بعد اعتلاء العرش

عندما تولى السلطان محمد وحيد الدين العرش العثماني، كان مصطفى كمال مريضاً يُعالج في "كارلسباد"(١٣) من مرض أصاب كليتيه. وعندما تلقى مصطفى كمال خبر وفاة السلطان محمد رشاد، وجلوس وحيد الدين على العرش، لم يعد إلى إستانبول بل أرسل إلى القصر برقية تهنئة في ١٩ يولية ١٩١٨، يوضح فيها وجهة نظره الكاملة تجاه وحيد الدين، وحكمه القيم عليه. ثم عاد إلى استانبول بناءً على مناشدة عزت باشا له بالعودة إلى العاصمة، بعد تولي وحيد الدين العرش(١٤).

استقبل وحيد الدين مصطفى كمال بكل ود وترحيب، وأشعل له سيجارته بيده، وهي عادة تدل-وفق التقاليد التركية- على الإكرام والاحترام(١٥). فشجعت هذه المعاملة

ومعارضي سياستها، بل كان يدعو أصدقائه الضباط للالتفاف حول جمعية "الوطن والحرية". وفي تلك الأثناء كانت جمعية الاتحاد والترقي يزداد تأثيرها وانتشارها، فالتف أصدقائه الضباط حولها، وتركوا جمعية الوطن والحرية. وبذلك ابتلعت جمعية الاتحاد والترقي، جمعية الوطن والحرية، وضمت إليها أصدقاء مصطفى كمال. وكان الاتحاديون لايعيرون مصطفى كمال أية أهمية، ولم تكن تعجبهم تصرفاته. وكان هو حاقداً عليهم حتى النهاية؛ لأنهم كانوا أكثر جرأة وتضحية منه، برغم إنها جرأة وتضحية في سبيل الباطل. فكان مصطفى كمال بالنسبة للاتحاديين مجرد شخص يحترق شوقاً للشهرة والصعود. سكيراً وانتهازياً، ودائم النقد بين أصدقائه للأوضاع القائمة. وساقطاً من الناحية الأخلاقية لكونه مغرماً باللهو والمجون. وبرغم كفاءته العسكرية، كان شرهاً للشهرة لا يشبعه أي شيء. وعندما أُعلن الدستور في عام ١٩٠٨، سيطر الاتحاديون- بالرغم من كونهم لم يستلموا الحكم بعد- على معظم الأماكن الحساسة. وقام أنور -الذي كان لا يرتاح إلى مصطفى كمال- بنفيه إلى طرابس الغرب، بحجة القضاء على ثورة هناك. انظر الرجل الصنم، مرجع سبق ذكره، ص ٦٧- ٧١.

(12) Kadir Mısıroğlu, “ bir mazlum Padişah, Sultan Vahideddin”, a.g.e. s.118,189

(13) كارلسباد: مدينة في تشيكوسلوفاكيا

(14) Necip Fazıl kısakürek, “Sultan Vahiduddin”, a.g.e. s. 125

(15) يصف مصطفى كمال هذه المقابلة قائلاً: "قابلني بلطف كبير، وأبدى لي قرباً أكثر من السابق عندما كان ولياً للعهد. وأشار إلي بالجلوس أمامه، والتقط من صندوق السجائر على المنضدة التي كانت بيننا سيجارة،

مصطفى كمال؛ فسعى لكي يوطد نفوذه وتأثيره على وحيد الدين، كي يصبح القوة المحركة لصاحب العرش، وبهذا يرتقي إلى القمة، ويستأثر بالسلطة التي يريدها. كما أراد أن يصاهر السلطان حيث طلب منه أن يزوجه ابنته صبيحة، ولكن السلطان رفض لأنها كانت مخطوبة للأمير عمر فاروق، ابن الأمير عبد المجيد، ابن عم السلطان وولي عهده[١٦]. في ذلك اللقاء أخذ مصطفى كمال يصارح وحيد الدين بآرائه بحرية. وفاتحه مرة أخرى في أمر تولية قيادة الجيش -الذي تحدث إليه بشأنه خلال رحلته معه إلى ألمانيا، عندما كان ولياً للعهد- موضحاً له أن ذلك سيمكنه من السيطرة الكاملة على الجيش. وتحدث معه أيضا عن ضرورة تجريد أنور باشا، والقادة الألمان، من كل سلطة، وذلك حتى يسيطرهو على مقاليد الأمور، ولا يصير مجرد سلطاناً بالاسم فقط. وأكد له استعداده لأن يضطلع بأعباء القيادة العامة، عند تعيينه نائباً للقائد الأعلى للجيش. كما عرض عليه اقتراحه بضرورة التحرر من التحالف الألماني، وعقد صلح منفرد مع قوات الحلفاء، لكن السلطان لم يجبه إلى طلبه، ولم يعده بأي شيء[١٧]. وعندما التقى مصطفى كمال بالسلطان وحيد الدين مرة أخرى، كرر كلامه واقتراحاته السابقة، فأجابه السلطان وحيد الدين قائلاً: "أيها الباشا: إن شعب استانبول جائع، وأنا أهتم قبل أي شيء بإشباع الشعب، وعندما أضمن إشباعهم، اتخذ بعد ذلك التدابير التي تتحدث عنها." وعندما صمم مصطفى كمال على إقناع السلطان باقتراحاته- فقد كان كل أمله في تلك المرحلة أن يُعين نائباً للقائد الأعلى للجيش، أي نائباً للسلطان، عندما يتولى قيادة الجيش- قال له السلطان: إنه سيتشاور مع طلعت باشا وأنور باشا في الأمور التي يجب عملها. وهو بهذا أراد أن يتهرب من مصطفى كمال، وإلحاحه[١٨].

رغبة مصطفى كمال في تولي وزارة الحربية

بعد عقد هدنة موندروس، رحل قادة الاتحاد والترقي عن تركيا في ٢ نوفمبر ١٩١٨،

وقدمها إلي، وأخذ هو سيجارة. وبعد أن أشعل سيجارته قدم نفس الكبريت إلي، وأمام هذه المعاملة الرقيقة تفتحت آمالي؛ فقدمت له في باديء الأمر تهاني بصيغة مناسبة، وقلت له إنه اعتلى العرش العثماني في ظرف خطير. وتحدثت معه حديث طويل." انظر الرجل الصنم ، مرجع سبق ذكره، ص ٩٥

(16) ماجدة مخلوف، الخلافة في خطاب أتاتورك، مرجع سبق ذكره، ص ٦٤ .

(17). أرمسترونج، الذئب الأغبر، مرجع سبق ذكره، ص ٨٧ .

(18) Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s. 127,128.

واستقالت حكومة عزت باشا. وعاد مصطفى كمال باشا، قائد جيش الصاعقة إلى استانبول، وحاول إعادة عزت باشا إلى الصدارة، حتى يحصل منه على وزارة الحربية. فكان يحرض مجلس النواب على عدم إعطاء الثقة إلى الوزارة الجديدة التي سيؤسسها توفيق باشا، ويبذل قصارى جهده لتحقيق ذلك. وكانت أكثرية المجلس في ذلك الوقت في أيدي الاتحاد والترقي الذين كانوا يرون-اعتماداً على هذه الأكثرية- ضرورة تولية عزت باشا مرة أخرى. وكانت قائمة أسماء الحكومة جاهزة، ومنصب وزير الحربية مخصصاً لمصطفى كمال. فجرى إعداد برنامج يفيد أن الصدارة لا تليق بتوفيق باشا، وبذل مصطفى كمال ما في وسعه حتى لا يتم طرح الثقة في توفيق باشا، فتحدث إلى وكلاء الأمة من الاتحاديين وحاول اقناعهم، ولكن محاولاته باءت بالفشل. ففي ساعة الاقتراع مضى مصطفى كمال إلى "قاعة الغرباء" في دار البرلمان، لينصت إلى مناقشة الاستجواب، وفي النهاية فاز توفيق باشا بأغلبية ساحقة، فقد خشي النواب من مصطفى كمال، وآرائه، وشدة بأسه، وارتابوا في مطامعه(١٩). وأخذت وزارة توفيق باشا الثقة بأكثرية ساحقة، فانسحب مصطفى كمال إلى بيته في (أكارتلر)، ولم يجد أمامه من حيلة سوى الذهاب إلى القصر للحديث مع وحيد الدين، فقد تصور أنه يستطيع إقناعه، ولكن وحيد الدين- الذي كان على حد قوله: "يخفي بصورة شيطانية قراراً في رأسه، ويبدو أمامنا بمظهر خادع، ولا يكشف عما يدور في داخله"- دعاه لصلاة يوم الجمعة، لمناقشته فيما يريده(٢٠).

التقى مصطفى كمال بالسلطان وحيد الدين بعد الصلاة، وطلب منه بشكل مباشر أن يؤلف حكومة قوية لتواجه الأعداء، قائلاً: "إن كلمة واحدة من جلالتك كفيلة بتقوية الحماسة الوطنية، فاجعلني وزيراً للحربية في حكومة قوية، وأنا كفيل بإنقاذ تركيا. فهذا البرلمان يجب أن يُحل، فإن نصف النواب خونة، وأعضاء في جمعية الاتحاد والترقي، وأصدقاء لأنور. ونصفهم الآخر من الجبناء، وليس منهم رجل واحد صلب العود(٢١). ولكن السلطان تجاهل جميع مطالبي، وطلب مني ضماناً لإخلاص الجيش للسلطنة. وبادرني بقوله: (إنني أرى أن ضباط وقادة الجيش يحبونك جداً، فهل تضمن لي ولائهم لي، وعدم الإضرار

---

(19) أرمسترونج ، مرجع سبق ذكره، ص١٠٢

Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e.s.١٠٤ (20)

(21) Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", s. 168,169

بي؟). ولما لم أفهم المقصود من هذا الكلام سألته قائلاً: هل تعتقد أن الجيش سيثور ضدكم؟ لم يجب السلطان، بل أغلق عينيه، ثم كرر نفس السؤال. فأجبت قائلاً: أنا عائد لتوي إلى استانبول من عدة أيام فقط، ولا أعرف الموقف عن قرب، ولا أظن أن هناك ما يدعو الضباط، وقادة الجيش للثورة ضد ذاتكم السلطانية، ولكني أعدكم أن لا يسوؤكم شيء من جانب الجيش. فأضاف السلطان قائلاً على نحو مبهم: (لكن أنا لا أقصد اليوم، ولا غداً). فارتبت وتحيرت من الجملة الأخيرة، وقلت لنفسي، هل يفكر السلطان في القيام بعمل قد يؤثر على الضباط وقادة الجيش المحبين للوطن، ويريد أن يخدعني، ويضمنهم عن طريقي؟ لكن هل عندما أصرح له بتفكيري، سيخدم هذا هدفي وغرضي الذي جئت من أجله؟ إن أمامي رجل يبدو أنه قد اتخذ قراراً ما منذ فترة طويلة، ولكني لا أعرف ما هو، لا أنا ولا الأشخاص الآخرين الذين أنا على اتصال بهم الذين لا يريدون أن يفهموا شيئاً، وبالتالي لا يستطيعون اتخاذ أي تدبير. وبينما أنا في انشغالي بهذه الأفكار، نهض السلطان، وأنهى المقابلة قائلاً: (أنت قائد عاقل، وأعلم إنك ستخفي الأمر، ولاتعلنه لأصدقائك). وخرجت من لقاء وحيد الدين، وأنا بلا أمل ومتأثر، لكن لا أعرف، ولا أفهم السبب الحقيقي لتأثري "(٢٢).

وهكذا مكث مصطفى كمال الذى أُبعد عن وزارة الحربية بشكل ماكر، وبأسلوب ذو مغزى - منذ هذا التاريخ، وبعد حديث قصير مع السلطان لم يخرج منه بأي نتيجة- بلا عمل، أولاً فى منزل أمه في (بشيكطاش)(٢٣)، ثم في (عقاراتلر) ثم في منزله في (شيشلي) لمدة ٦ شهور. وكان يتابع كارثة السقوط كلها وهو في منزله، ولم يبدِ أي دليل أو علامة على أنه يخطط لثورة شعبية في الأناضول. وظل لا يعمل ولا يفكر في أي شئ سوى ترقب الأحداث في نهاية عهد السقوط، حاملاً لقب "الياور الفخري لحضرة السلطان"(٢٤).

تكليف السلطان مصطفى كمال بمهمة قيادة المقاومة الشعبية

كان السلطان محمد وحيد الدين يدرك أن الدول الغربية - وخاصة إنجلترا وفرنسا- لن

---

(22)Murat Bardakçı, “Şahbaba”, a.g.e.s.115,116 ve Falih Rıfkı Atay,“Çankaya”, a.g.e.s. 107

(23) بشيكطاش: هى إحدى ضواحي استانبول

(24)Necip Fazıl kısakürek, “Sultan Vahiduddin”, s. 168,169

تسمح بالقضاء على تركيا، لأن وجودها ضروري لإقامة التوازن في المنطقة. فالقضاء على تركيا يؤدي إلى فتح الطريق أمام روسيا، للاستيلاء على الأناضول، وعلى مضيقي البسفوروالدردنيل. وكان يرى أن الغرب لايريد سوى استئصال أطراف الدولة العثمانية، وجعلها دويلة صغيرة مثل دول البلقان وباقي الدول التي كانوا يهدفون إلى إيجادها في المنطقة على أنقاض الدولة العثمانية. وبناءً على ذلك كان السلطان محمد وحيد الدين يعلم أن استرجاع بعض ما أُخذ لايتم بالهبة، بل لابد من القتال في سبيل استرجاعه. وبالتالي لابد من إشعال ثورة في البلاد، خاصة في الأناضول، بعيداً عن العاصمة استانبول التي استولى عليها الحلفاء[٢٥]. إذ بعد هدنة موندروس، واحتلال اليونانيين لإزمير وارتكابهم كافة أشكال العنف، بدأت حركات مقاومة محدودة في الأناضول، ففي إزمير اعتصم كثير من الفدائيين بالجبال. وتأسست عدة جمعيات، كان الهدف المشترك لها هو الدفاع عن الحقوق الوطنية في مواجهة تجاوزات، واعتداءات اليونانيين. فشكلت جمعية (تراقيا تاش إيلي) في أدرنة وحواليها، وفي الشرق في أرضروم[٢٦]، شُكلت جمعية (الدفاع عن الحقوق الملية في الولايات الشرقية) وكان مركزها العام في استانبول[٢٧]. وفي إزمير تأسست جمعية (الدفاع عن الحقوق

---

(25) بيان السلطان وحيد الدين. انظر Metin Hülagü, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s. 30,31

(26) أرضروم: هى ولاية تقع شمال شرقي تركيا، استولى عليها السلاجقة عام ١٢٠١، ثم الأتراك عام ١٥١٧، واحتلها الروس ثلاث مرات في أعوام ١٨٢٨، ١٨٧٨، ١٩١٦. واجتمع فيها المؤتمر الوطني التركي في ٢٣ يوليو ١٩١٩. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٠

(27) تأسست جمعية الدفاع عن الولايات الشرقية في استانبول في ٤ ديسمبر ١٩١٨. وفي ١٠ مارس ١٩١٩ أنشأت شعبة لهذه الجمعية في أرضروم، وكانت تهدف إلى ضمان تمتع جميع الأهالي بالحقوق السياسية والملية التي يكفلها القانون. وحماية الحقوق التاريخية للمسلمين. وضمان عدم الانحياز، والتزام العدل عند التحقيق في الجرائم، وعند عقاب المتجاوزين. وكانت هذه الشعبة تعمل بالاتحاد مع جمعية الدفاع عن الحقوق التي تأسست في طرابزون، في ١٢ فبراير ١٩١٩، والتي كانت تنادي بضرورة الارتباط بالدولة العثمانية. والعمل على حماية الحقوق الملية أمام مؤتمر السلام، وفقاً لمباديء ويلسون خاصة المادة ١٢ التي تنص على: ضمان سيادة الأجزاء التركية. وإعطاء الشعوب الأخرى غير التركية التي تخضع لها، حق تقرير المصير. وحرية المرور في المضائق لجميع السفن بضمان دولي. وقد تمسك العثمانيون بنصوص المباديء التي قررها ويلسون، ولهذا فإنهم عندما وقعوا شروط هدنة موندروس، لم يكن بداخلهم أدنى شك في بقاء السيادة العثمانية على

العثمانية) وكانت تهدف إلى إيقاظ الوعي القومي، وجمعية (رد الحق) التي كانت تهدف إلى مقاومة الاعتداء اليوناني. وفي طرابزون، شُكلت جمعية (الدفاع عن الحقوق) وفي استانبول كانت توجد جمعية (الدفاع عن لامركزية طرابزون وحواليها)[٢٨]. وهذه الجمعيات- وإن كانت غير منظمة- كانت تهدف إلى غاية واحدة، هي إنقاذ الخليفة، ومقاومة الاحتلال[٢٩]. لذلك فإن الوضع كان مُهيئاً، وكان يحتاج إلى شخص، يجمع ويوحد، ويدفع، ويقود[٣٠]. وكان السلطان يدرك أن هذه الحركات الشعبية ستمكنه من المناورة أثناء عقد مؤتمر الصلح، ليحقق أكبر قدر من المكاسب. ولكنه كان يخشى من المخاطر التي قد تتولد عن اتخاذ موقف مناهض، والوقوف بالسلاح ضد احتلال غرب الأناضول. فتظاهر السلطان أمام الإنجليز- الذين طلبوا منه القضاء على حركات المقاومة الشعبية التي اندلعت في الأناضول، وتحقيق الأمن والاستقرار هناك- بأنه لا يؤيد هذه الحركات حتى يتجنب انتقام الأعداء، وحتى لا يتحقق قولهم: "لم يعد على خريطة العالم دولة اسمها تركيا". وفي الوقت نفسه قام بدعم هذه الحركات سراً.

في ذلك الوقت كان السلطان وحيد الدين يثق في مصطفى كمال، وكانت تجمع بين السلطان ومصطفى كمال عدة نقاط مشتركة ساعدت على تقاربهما[٣١]. فقد كان السلطان

سائر أرجاء السلطنة، التي يعد العنصر الإسلامي أكبر العناصر فيها. وكان هذا الاعتقاد راسخاً في نفوسهم، حيث كان أحد مبادئ ويلسون، التي قبلوا الصلح بموجبها.

انظر كتاب الوطنية العثمانية ، تأليف مدام بيرت جورج جوليس، مرجع سبق ذكره، ص ١١٤

(28) Tevfik Bıyıklıoğlu, “Atatürk Anadolu’da”, a.g.e s.26, 27

(29) يقول أتاتورك: "إن الشعب والجيش في ذلك الوقت كانو مطيعين، وصادقين نتيجة الروابط الدينية والتقليدية التي جذرتها العصور في وجدانهم تجاه ذلك المقام، ومن يحتل ذلك المقام. وإن الشعب والجيش - أثناء تفكيرهم في سبيل للخلاص- كانوا يفكرون بدافع هذا الاعتياد الموروث، في إنقاذ مقام السلطنة والخلافة العلية، قبل تخليص أنفسهم." انظر مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٤ ، ٨

(30) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٤ ، ٥

يقول رؤوف أورباي: "إن لم يكن مصطفى كمال انضم إلى حركة المقاومة الشعبية، لم تكن الدولة تم إنقاذها، وإذا لم يقم مصطفى كمال بتوحيد حركات المقاومة المحدودة، التي أسسها محبي الوطن في غرب وشرق وجنوب الأناضول، كانت كل حركة منفصلة سيتم إبادتها، والقضاء عليها بسهولة، فهو المنقذ الكبير."

انظر: Tevfik Bıyıklıoğlu, “Atatürk Anadolu’da", a.g.e. s. 10

(31)Nizamettin Nazif Tepedelenlioğlu, “Ordu ve Politika”, Kutup Yıldızı

يعتقد أنه مناهضاً لجماعة الاتحاد والترقي مثله، كما كان كلاهما رافضاً اشتراك الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى(٣٢)، وكلاهما كان يرى في هدنة "موندروس" ضرراً بالغاً للدولة. لهذه الأسباب عين وحيد الدين، مصطفى كمال مفتشاً على الجيش التاسع، بحجة أن يكون المندوب الذي طلب الإنجليز إرساله لإخماد حركات المقاومة الشعبية في الأناضول. وأمر السلطان بإعطائه مخصصات رسمية، واعتماد مالي كبير. ومنحه قرار حكومي يشتمل على المهام المكلف بها، باعتباره رئيساً لمفتشية الجيش التاسع(٣٣). وقد اختار السلطان مصطفى كمال لهذه المهمة لأنه كان أكثر الضباط الذين يعرفهم وطنية، ولأنه قدير في قيادته العسكرية. فقد استطاع أن يرد الإنجليز مهزومين عن (غاليبولي) عام ١٩١٥، ونال بذلك حب الأتراك، وتقدير السلطان، باعتباره منقذ العاصمة استانبول من الإنجليز. ورأى السلطان أن إرساله لدعم حركات المقاومة الشعبية في الأناضول، سوف يحظى باحترام وتقدير كبير من أتراك الأناضول، باعتباره مبعوث السلطان. فأرسله إلى (سامسون) نيابة عنه. فقد كان السلطان وحيد الدين في البداية يفكر في أن ينتقل إلى سامسون(٣٤)، ليكون بنفسه على رأس حركة

Yayınları, İstsnbul 2003, s.230-234

(32) كان مصطفى كمال يؤمن بأن الحكمة كانت تقتضي أن تقف تركيا على الحياد، حتى تتبين الكفة الراجحة فتساومها على مؤازرتها. انظر أرمسترونج،مرجع سبق ذكره، ص ٥٢

- ويقول السلطان وحيد الدين عن الحرب العالمية الأولى: "كنت دائماً ضد دخول تركيا الحرب. لقد اعتليت العرش مكان أخي السلطان محمد الخامس، في وقت لم يكن من الممكن الرجوع عن خوض الحرب بما كان سيضر بنا. وكان أملي الوحيد أن يتم إبرام الصلح. لكن حكومة (الاتحاد والترقي) الشبيبة الأتراك، التي سيطرت على مقادير الأمور منذ عام ١٩٠٨، جعلت محاولاتي كلها الرامية لإبرام الصلح لا تسفر عن أي نتيجة. وحرموا الدولة من جميع المصالح التي كنت انتظرها من الدخول في مباحثات صلح منفردة."

انظر Ömer Farouk Yılmaz, Tarih ve Medeniyet, sayı 43 ekim 1997, s25

(33) تم نشر القرار الحكومي في جريدة تقويم الوقائع الرسمية، "Takvim –i vekayı" بتاريخ ٥ مايو، نسخة رقم ٣٥٤٠. وكانت المهام المكلف بها مصطفى كمال مهاماً عسكرية ومدنية. انظر ملحق الوثائق ص 297، الوثائق أرقام (٤- ١٩) ص 301- 316، الخاصة بتعيين مصطفى كمال رئيساً لمفتشية الجيش التاسع. والمهام المكلف بها في وثيقة رقم (٦) ص303

(34) يروي سامي بك ابن أخت السلطان وحيد الدين هذه الحكاية: "إن السلطان اتفق معي على الرحيل عن استانبول، والذهاب إلى الأناضول، ليقود حركة المقاومة الشعبية بنفسه، واجتمعت بأولادي وزوجاتي وأخبرتهم أن خالي ينوي الرحيل إلى الأناضول. وقمت بتجهيز أمتعتي. وقبل الفجر بقليل جاء رامبولد، المفوض الإنجليزي الأعلى في استانبول، وطلب مني الذهاب معه إلى قصر يلديز لمقابلة السلطان، وبالفعل

مقاومة الاحتلال هناك، لكن رجاله حذروه من مغادرة استانبول، فاستجاب لرأيهم، وهو ما ندم عليه بعد ذلك. فعندما صارح توفيق باشا برغبته تلك، نصحه بألا يفعل ذلك لأن هذا سيثير قوات الحلفاء، وسيؤدي إلى ضياع استانبول(٣٥).

وفي ١٣ مايو ١٩١٩ تناقش جواد باشا، المستشار الأول لوزارة الحربية، مع داماد فريد باشا، الصدر الأعظم، بشأن خط الحركة الذي سيتعقبه مصطفى كمال في الأناضول، وكان ذلك في نيشان طاشي. وفي اليوم التالي - في ١٤ مايو الساعة السابعة والنصف مساءً- التقى السلطان وحيد الدين مع مصطفى كمال، في صالون صغير في قصر (يلديز) تطل نوافذه على البسفور، حيث السفن الحربية الإنجليزية تقف متراصة، وموجهة مدافعها تجاه القصر. ودعاه إلى الجلوس بجانبه متقاربان، وبعد أن أشاد بأعماله البطولية التي قام بها - مشيراً إلى إنها سوف تُكتب في كتب التاريخ- حدثه عن المهمة التي اختاره للقيام بها، ووصفها بأنها أهم خدمة سيؤديها، حيث الاجتهاد بجد وصدق، سيؤدي إلى إنقاذ الدولة من الكارثة التي وقعت فيها(٣٦). وأخبره بأنه قام بتوزيع بعض قادة الجيش، على رأس فرق الأناضول، ومهمته هو المعلنة - التي تعرفها الحكومة والإنجليز- هي التفتيش على فرق الأناضول، وتحقيق الأمن في سامسون ونواحيها، وإخضاع جيش الشرق لشروط الهدنة. ولكن المهمة

ذهبنا إلى هناك. ويبدأ رامبولد حديثه مع السلطان بقوله: (إذا غادرت استانبول فسنغادرها نحن الإنجليز أيضا، ولن يبقى فيها نفر إنجليزي واحد. ولكن يقف على أعتاب جامليجة خمسة ألاف جندي يوناني، كلهم على استعداد للدخول إلى استانبول، فما رأيك؟ والقرار قرارك) ثم ذهب. فأمر السلطان الذي كان قد جهز حقيبته بإفراغ الحقائب، ورجح البقاء في استانبول، حتى لا تقع في أيدي اليونانيين." انظر Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e s.219

(35) يقول السلطان وحيد الدين في مذكراته التي أملاها لعوني باشا: "كان من الضروري أن أتمسك برأيي، وأكون على رأس الجيش، وأتوجه إلى الأناضول، لكن الصدر الأعظم عارضني معارضة شديدة عندما صارحته بتفكيري هذا، وحاول هو وعزت باشا ورضا باشا إثنائي عن الذهاب، و قد جاهدتهما طويلاً، ولكن انهزمت في النهاية. فقد قالا لي: (سنحارب مع مصطفى كمال، ونبايعك حتى النصر. فإذا انهزم مصطفى كمال باشا لا قدر الله، فسيكون هو المسئول، أما إذا ذهبتم أنتم إلى الأناضول، وحدث لا قدر الله أن انهزمتم، فمن الذي سينقذ الموقف؟ فمنذ هزيمة أنورباشا وطلعت باشا، وأنتم تجاهدون من أجل تسوية الموقف مع الدول المنتصرة)." انظر Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e, s. 420

(36) Zekeriya Türkmen, "Mütareke Döneminde Ordunun Durumu ve Yeniden Yapılanması (1918-1920)", Türk Tarih Kurumu, Ankara 2001, s.127

الأساسية والسرية، هي دعم حركات المقاومة في شرق الأناضول، حتى يتسنى لرجال السياسة المناورة أثناء عقد مؤتمر الصلح، للحصول على أكبر قدر من المكاسب. وأخبره أنه حتى ينجح في هذه المهمة، عليه أن يبدو معارضاً للحكومة في استانبول الواقعة تحت سيطرة قوات الاحتلال، في خلال سعيه لاستقلال الوطن، وطرد المحتلين. ثم أنهى معه اللقاء بعد أن أقنعه بصعوبة[٣٧] لقبول هذا التكليف، وشد على يده ودعى له بالتوفيق، ومنحه بعض الهدايا داخل علبة من القطيفة، وكانت عبارة عن ساعة صغيرة، حُفر على غطائها شارة السلطان وحيد الدين. وأعطاه مبلغاً كبيراً من ماله الخاص، من أجل المهمة التي كلفه بها لإنقاذ الوطن.وخط همايوني[٣٨] يجعله بمثابة ممثل السلطان في الأناضول، حيث يعطيه صلاحيات مدنية وعسكرية واسعة، تمكنه من تنظيم حركات المقاومة الشعبية في حركة واحدة منظمة، تحت قيادته لطرد قوات الاحتلال. وكان هذا هو أخر لقاء تم بين السلطان

---

(37) يقول علي نوري بك بن توفيق باشا، وهو من ياوران وحيد الدين: "إنه عندما جاء ناجي باشا (باش مابين القصر) أي رئيس ديوان القصر السلطاني، وقال لنا أن مصطفى كمال وافق على المهمة، من فرحتي صفقت بيدي، وقلت أخيراً استطاع السلطان إقناعه بقبول المهمة."

والواقع أن مصطفى كمال كان غير مرجحاً ترك استانبول، لأنه اعتبر هذا التعيين كنفي واستبعاد له من استانبول وهى مركز السياسة. وهذا ما أشار إليه بعد ذلك في نطق حيث قال: "أرسلوني إلى الأناضول بهدف نفيي واستبعادي." انظر مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص٧و ,Kadir Mısıroğlu "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 205

(38) ترجمة الخط الهمايوني: "من ياوران السلطان، إلي اللواء أركان حرب مصطفى كمال باشا. بسبب الوضع السياسي الحاصل الآن، والذي أصبح في صالح حلفاء الحرب الكبيرة. وبسبب تعرض ملك أجدادنا العظام، ومقام الخلافة والسلطنة، للمشاكل والمخاطر المهلكة، فإني أصدر قرار سلطنتي السنية بتعيينكم، لتقوموا بتشكيل حركة موحدة تضم الأهالي والموظفين والجنود، من أجل تأمين الأمن في المنطقة. وبذل الجهد لمنع وقوع أشياء ضد رغبة السلطان. والعمل على دعم وحماية الدولة. وتخليص ملكنا من أيادي المعتدين. وتبليغ سلامي السلطاني للجميع هناك. توقيع محمد وحيد الدين." وصورة هذا الخط، نشره مولان زاده رفعت، في كتاب له صدر عام ١٩٢٩ في حلب بعنوان "Türkiye İnkılabının İçyüzü" أي حقيقة انقلاب الأناضول، وهو يحمل تاريخ ١٤ مايو ١٩١٩. انظر ,Murat Bardakçı "Şahbaba", a.g.e. s. 129 , 139.

- هذا الخط كتبه عوني باشا بخط يده، وأعطاه لمصطفى كمال. وبعد الانتصار على اليونانيين تم وضع عوني باشا في قائمة الـ ١٥٠، وعاش فترة من حياته مع وحيد الدين في إيطاليا، ثم رحل إلى رومانيا. Kadir Mısıroğlu, " bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s . 205-207

وحيد الدين ومصطفى كمال في القصر[٣٩]. لأن السلطان التقى بمصطفى كمال باشا مرة أخرى في صلاة يوم الجمعة الموافق ١٦ مايو ١٩١٩. وكان معه في هذا اللقاء فريد باشا، الصدر الأعظم، وعوني باشا، ياور السلطان. وجرى هذا اللقاء داخل إحدى الغرف، وأدلى مصطفى كمال بالقسم[٤٠]، من ورقه بيده، وكان يضع يده الأخرى على المصحف، قائلا: "أقسم بالله أن أبذل ما في وسعي لتشريف السلطان مصدر الفخر، وتحقيق رغبه الخليفة في مهمة التفتيش الموكلة إلي في الأناضول ونواحيها،على الموظفين، والعسكريين، والمدنيين، مستنداً على الصلاحيات الواسعة التي تخولها لي اللائحة الخاصة، التي تشتمل على ٢١ مادة، والتي أعدتها الحكومة، وصدق عليها السلطان". وبعد قسم اليمين خرج عائداً إلى السفينة التي كانت تنتظره في الميناء[٤١].

المساعدات التي تم تقديمها إلى مصطفى كمال

لم يكتف السلطان وحيد الدين بمنح مصطفى كمال الفرمان أو الخط الهمايوني واسع الصلاحية، بل دعمه أيضا بالنقود. فقد منحه ٣٥ ألف ليرة من ماله الخاص بعد أن باع خيول سباق كانت لديه، فلم يكن السلطان يملك ثروة شخصية كبيرة[٤٢].

---

(39) Necip Fazıl,a.g.e, s. 181,182 ve Falih Rıfkı Atay, "19 Mayıs", a.g.e. s. 28,29

- حكى مصطفى كمال حكاية لقائه مع السلطان وحيد الدين، وتكليفه بمهمة إنقاذ الدولة، لتشارلز هـ . شيريل السفير الأمريكي في تركيا، في شهر أغسطس عام ١٩٣٢. ورسم له صورة الغرفة، على علبة سجائر. وصورة العلبة منشورة في كتاب شيريل. انظر Charles H.Sherrill,"Bir Elçiden Gazi Mustafa kemal", Tercüman Yayınları, İstanbul, tarihsiz, s. 11

(40) تحدث عوني باشا ياور السلطان، في مذكراته عن هذا القسم الذي كتبه هو بخط يده، قائلاً: "كان السلطان يرتدي ملابسه العسكرية، ويقف على قدميه، وأمامه منضدة عليها المصحف. وتقدم مصطفى كمال بخطوة عسكرية، ووضع يده اليمنى على المصحف، وأخذ يقرأ القسم من الورقة التى في يده اليسرى. وكان هذا هو القسم الذي قال عنه المناهضين لمصطفى كمال وللجمهورية - سواء من المدنيين أو العسكريين- إنه لم يحفظ اليمين." انظر

Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s. 135 ve Gotthard Jaeschk, "Türk Kurtuluş Savaşı Kronolojisi", c.2,Türk Tarih Kurumu Yayını, Ankara 1989, s. 117

(41) Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s.135

(42) Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s.229

وقدم وزير البحرية، ورئيس أركان الحربية، وجميع الموظفين، إلى القوات الوطنية الكثير من المساعدات، في صورة تهريب السلاح وإرسال الضباط(٤٣)، كما تم إرسال مخصصات سرية إلى مصطفى كمال، لدعم حركة المقاومة الشعبية(٤٤).

وحاول مصطفى كمال أن يأخذ - إضافة إلى مرتب الثلاثة شهور- مخصصات فوق العادة، له وللضباط الذين معه، في اليوم الذي تحرك فيه من استانبول(٤٥). وتوجد وثيقة بتوقيع مصطفى كمال، تثبت أنه تقاضى مبلغ ألف ليرة من وزارة الداخلية، بأمر من السلطان محمد وحيد الدين، قبل توجهه إلى الأناضول(٤٦).

كما طلب مصطفى كمال من صالح باشا - عند لقائه في آماسيا- مبلغ الـ ٤٠٠ ألف ليرة الموجودة في خزانة جمعية معاونة الأسطول الهمايوني، وقد أعلن هذا بنفسه في نطق(٤٧).

---

(43) Edgard Pech, "les Alliés et la Turquie", Les Presses Universitaires de France, Paris 1925, s. 68 ve Harb Tarihi Vesikaları Dergisi, sayı 1, E.U.Basimevi, 1953 "11" numaralı vesika

- انظر ملحق الوثائق ص 297 ، وثيقة رقم (٢٠) ص 317

(44) ينكر مصطفى كمال أنه أخذ نقود معه عند سفره إلى سامسون. ولكن جوتهارد جاسك الذي تحدث عن مسألة المخصصات السرية التي مُنحت لمصطفى كمال، دون أن يكشف مقدارها، يقول: إن الداماد فريد باشا أعلن في ٢٩ من نفس الشهر الذي رحل فيه مصطفى كمال إلى سامسون، في برقية أرسلها له، أنه أمر وزارة الداخلية بإرسال مخصصات سرية إلى مقر إقامته. وهذا مثبت في قرار مجلس الوكلاء في ١ حزيران. انظر Goothard Jaeschke, "Türk Kurtuluş Savaşı Kronolojisi", c.2 a.g.e. s. 123

(45) يقول صباح الدين سالاك: "بعد النصر قال خصوم مصطفى كمال السياسيين الذين اختلفوا معه، أن السلطان أرسله إلى الأناضول، ومعه نقود كثيرة منه. والدليل على ذلك صورة الإيصال الذي نشره محمد علي بك - الذي كان وزيراً للداخلية في تلك الأثناء، والذي طرده مصطفى كمال من استانبول بعد الانتصار على اليونانيين، وتم ادراجه في قائمة الـ ١٥٠- في الجريدة المسماه "La Republique Enchainee" التي تصدر في باريس، والخاص بمبلغ ١٢٥ ألف ليرة، قدمها لقطع الجيش التاسع. انظر Sabahattin Selek, "Anadolu İhtilali", c.1, Remzi Kitabevi, İstanbul 1963, s. 110

(46) انظر ملحق الوثائق ص 297 ، وثيقة رقم (٢١) ص 318

(47) قال مصطفى كمال عن هذا في نطق ما يلي: "كان الوضع في جبهات آيدين يزداد حرجاً، لذلك قررنا أنا وصالح باشا في آماسيا أن نكتب إلى وزارة الحربية، حتى تخصص ٤٠٠ ألف ليرة من نقود جمعية الأسطول، لسد احتياجات هذه الجبهة. ورجونا من قيادة الفيلق ١٢ الذي في قونية، الدعم بقطع المدفعية والبنادق الألية، وإعطاء المعدات الحربية والأسلحة إلى المجاهدين الذين في الجبهة." انظر مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٦

ذهاب مصطفى كمال إلى الأناضول

سافر مصطفى كمال إلى الأناضول من ناحية، كرجل وضعت الحكومة ثقتها فيه. وكممثل اعترفت دول الحلفاء به، ووافقت على تعيينه مفتشاً على الجيش التاسع، وحاكماً عاماً على الولايات الشرقية. ومن ناحية أخرى، كنائب عن السلطان لإنقاذ الوطن من المحتلين، بعد أن أعطاه السلطان صلاحيات مدنية وعسكرية واسعة، في المناطق المجاورة للمنطقة المكلف التفتيش بها، ليتمكن من تنظيم حركات المقاومة الشعبية في حركة واحدة منظمة تحت إدارته، لطرد قوات الاحتلال بموجب فرمان السلطان. فخرج مصطفى كمال من استانبول عن طريق البحر(٤٨) في ١٧ مايو - بعد أن وضع مع جواد باشا مستشار الحربية الأول، رموزاً للمراسلات البرقية السرية، حتى يكون على اتصال دائم باستانبول- ووصل إلى سامسون في ١٩ مايو ١٩١٩. واصطحب معه ١٨ قائداً عسكرياً اختارهم لمساعدته، لكي يتصدى لليونانيين المحتلين. وعندما كان مصطفى كمال في الأناضول، كان يتحرك معلناً أنه يتحرك باسم الحكومة، والسلطان. فقد كان في ذلك الحين صديقاً للسلطان، ولم يكن يبدو عليه أنه يدس للحكومة، أو أنه غير راضٍ عنها. فقام بجمع الولاة وأفهمهم أنه سيقوم بتدابير وافقت عليها السلطات ورجال الحربية سراً، وأكد لهم أن الأعمال التي سيقوم بها مؤيدة من قبلهم تأييداً تاماً، ولا يجب أن يعترض عليها أحد منهم، بل ينفذون جميع ما يأمر به فوراً . وأصدر من أرضروم أمراً إلى جميع قادة الجيش والولاة، بعدم تسليم الأسلحة إلى قوات الاحتلال. وقام بجلب الجنود وأمدهم بالسلاح(٤٩).

نقل مصطفى كمال مقر قيادته من سيواس إلى مدينة كافسا، ثم إلى آماسيا – وهى بلدة

- وهذه الطلبات كلها تم تنفيذها. انظر Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 228

(48) بعد ركوب مصطفى كمال السفينة متوجهاً إلى سامسون خرجت شائعة تقول: "إن الإنجليز سوف يوقفون السفينة في البحر ويقبضون عليه". ويقول قدير مصر أوغلي: "أليس كان من الممكن أن يمنع الإنجليز مصطفى كمال من السفر أصلاً بالضغط على السلطان بألا يجعله يسافر؟ أولم يكن من الممكن أن يوقفوا السفينة في نفس اللحظة، قبل الإقلاع ويقبضون عليه، أو إنه لم يكن هناك جنود إنجليز في سامسون وحواليها؟ فلماذا يطاردون السفينة في البحر؟" . انظر Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s.211

(49) داجوبيرت فون ميكوش، مصطفى كمال، المثل الأعلى، مرجع سبق ذكره، ص١٨٩، ١٩٠، ٢٠١

بعيدة في داخل البلاد، تقع على الطريق الرئيسي الذي يصل بين شرق تركيا وغربها- حتى يتحرر من مراقبة الإنجليز له، لأن ضابط قلم المخابرات الإنجليزي كان يراقب حركاته وسكناته(٥٠). ولتنفيذ المهمة التي كلفه بها السلطان وحيد الدين، أدرك مصطفى كمال أنه بحاجة إلى معاونة قادة الجيوش المتفرقة. فاستدعى رفعت باشا قائد الفيلق الثالث من سيواس، ودعا على فؤاد باشا قائد الفرقة العشرين المعسكرة في أنقره، كي يقابله في آماسيا. فحضر على فؤادباشا وفي صحبته رؤوف بك،وزير البحرية السابق. وطلب من علي فؤاد ان يوافيه يوميا بتقرير عن الوضع في إزمير. واتصل بجعفر طيار، قائد الفرقة الأولى في أدرنة. وأعطاه تعليماته(٥١).

وأخذ مصطفى كمال يدعو المنظمات الشعبية في تراقيا والأناضول، إلى الاتحاد في مؤتمر عام يُعقد في سيواس - التي تُعتبر مركزاً للأناضول- بعد عقد المؤتمر المحلي في أرضروم(٥٢). ويدعو جميع الأطراف إلى عقد الاجتماعات والمظاهرات، وإلى خلق جو من

(50) الحقيقة إن الإنجليز تشككوا في نوايا مصطفى كمال، فبدأو التحرك منذ اليوم الذي وطأ فيه سامسون، وأرسلوا خطاب إلى وزير الحربية بتوقيع الجنرال ميلن، قائد البحر الأبيض يسألونه عن السبب الفعلي لإرسال مصطفى كمال إلى الأناضول. والرد بتاريخ ٢٤ مايو ١٩١٩ الذي بعثه وزارة الحربية على هذا الخطاب، لم يطمئن الإنجليز الذين كانوا يريدون "ضمان التطبيق السريع لأحكام الهدنة". انظر "Harb Tarihi vesikaları Dergisi",a.g.e. vesika nr: 15-20

(51) Şaban İba, "ordu- devlet-siyaset", çiviyazıları,İstanbul,1998.s.58

(52) في ٢٥ ابريل ١٩١٩، قررت جمعية الدفاع عن الولايات الشرقية، عقد مؤتمر في ولاية أرضروم. انعقد هذا المؤتمر في ٢٣ يوليو ١٩١٩. وحضر مصطفى كمال بملابسه العسكرية ذات الأشرطة الياورية، لأنه كان ياوراً فخرياً للسلطان، ويحمل رتبة باشا، فلم يكن قد جاءه رد الحكومة على طلب استقالته. وعندما صعد منصة الرئاسة طلب منه الحضور أن يخلع رتبة الباشا. وبعد انتخابه لرئاسة الهيئة التمثيلية، خلع ملابسه العسكرية، وارتدى ملابس مدنية أحضروها له. ودام المؤتمر ١٤ يوماً، وأُتخذت فيه عدة قرارات، وهى : المحافظة على وحدة الدولة. والعمل على عدم انفصال الأرمن عن الدولة العثمانية. والرد بشدة على تجاوزاتهم. ورفض كافة أشكال الاحتلال الأجنبي. وتأسيس الهيئة التمثيلية أو هيئة ممثلي الأمة. ويكون من مهام هذه الهيئة، تشكيل حكومة مؤقتة تتولى مسئولية الدفاع عن الوطن، في حالة عجزحكومة استانبول. وتأسيس تشكيلات الحرس المسلح في جميع الأرجاء. ورفض الوصاية أو الحماية الأجنبية. وتشكيل مجلس الأمة لمراقبة الحكومة. وعندما أُنتخب مصطفى كمال رئيساً للهيئة التمثيلية قال هذا الدعاء: "ندعو الله المتعال، واجب الوجود بحرمة الحبيب الأكرم، أن يحفظ أمتنا النجيبة، المدافعة عن الوطن المبارك، والحارسة الأمينة للدين الأحمدي الجليل إلى يوم القيامة. وأن يحفظ مقام السلطنة والخلافة الكبرى. وأن يحفظ هيئتنا الملقاه على عاتقها الحفاظ على مقدساتنا. أمين" انظر:

ويدعو جميع الأطراف إلى عقد الاجتماعات والمظاهرات، وإلى خلق جو من الحماس الوطني. وبعد أن جمع حوله الجيش والشعب، وعناصر المقاومة، ووحد الجهود العسكرية والمدنية، بدأ مقاومته لليونانين(٥٣). وكان مصطفى كمال يقول في بياناته: "لقد قرر العدو أن يدمر تركيا وطننا، ويمزقها شر ممزق، ويقيم ولاية يونانية حول سامسون. وقد امتلأت جميع قرى الإقليم بوكلاء بطريرك اليونان، وبات السلطان خليفتكم مسلوب الحول والقوة، أسيراً في أيدي الإنجليز، لذلك أرسلني إليكم كي أنقذكم. لكنكم يجب أن تنقذوا أنفسكم بأنفسكم. ولا جدوى في بقائكم مكتوفي الأيدي في انتظار عون من الخارج. وانما السبيل الوحيد إلى إنقاذ وطنكم من الهلاك المحتوم، وحماية زوجاتكم، وبيوتكم من العار والمذلة، هو أن تتطوعوا في صفوف الجيش الوطني الجديد، وتقاوموا العدو بقوة السلاح"(٥٤). وفعلاً يُعقد هذا المؤتمر بعد ذلك في ٤ سبتمبر ١٩١٩(٥٥). وأمر بأن يكون هذا القرار سراً قومياً، ولذلك

Tevfik Bıyıklıoğlu, "Atatürk Anadolu'da", a.g.e. s. 29 ve Falih Rıfkı Atay, "Çankaya", a.g.e. s. 190

(53) Ardal Aydoğan, "Samsun'dan Erzurum'a Mustafa Kemal", Atatürk Araştırma Merkezi, Ankara 2000, s.33,34

(54) أرمسترونج، الذئب الأغبر، مرجع سبق ذكره، ص ١١٣ - ١١٦

(55) تقرر عقد مؤتمر سيواس بحيث يكون أشمل وأعم من مؤتمر أرضروم. ولكن هناك من عارض هذا التوسع وعلى رأسهم كاظم قره بكير. كان المعارضون يرون أنه ليس من الصواب إثارة الإنجليز، ودفعهم إلى القيام بعمل مضاد. أي يرون الأفضل الاكتفاء بمؤتمر أرضروم، وترتيب شروط الصلح، وعدم القيام بأعمال قد تعرض الحركة للمخاطر. ولكن مصطفى كمال أصر على انعقاد المؤتمر الذي عُقد في ٤ سبتمبر ١٩١٩، ولم يحضره سوى خمسة أعضاء من الهيئة التمثيلية، من أصل تسعة أعضاء. وأُنتخب مصطفى كمال رئيساً للمؤتمر. وفي اليوم الرابع للمؤتمر غيروا اسم جمعية الدفاع عن حقوق شرقي الأناضول، إلى جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والروملي. وغيروا المادة التي نصها: "إن الهيئة التمثيلية مثل الهيئة العامة لشرقي الأناضول" إلى "إن الهيئة التمثيلية تمثل الهيئة العامة للوطن". وانفض المؤتمر في ١١ سبتمبر عام ١٩١٩، بعد انتخاب هيئة تمثيلية أكثر عدداً من المؤتمر السابق. ولكن الأعضاء ظلوا في سيواس بعد انتهاء المؤتمر. وبعد هذا المؤتمر استقر رأي مصطفى كمال على قطع جميع الصلات بين الأناضول واستانبول. وأخبر جميع الدوائر الرسمية - العسكرية والمدنية- بإنهم مرتبطون بالهيئة التمثيلية الموجودة في سيواس، إلى أن تسقط الحكومة الخائنة، التي أصبحت سداً بين السلطان، وبين الأمة. انظر Falih Rıfkı Atay, "Çankaya", a.g.e.s. 197 و انظر ايضاً، علي سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، مكتبة طرابلس العلمية العالمية، ١٩٩٨، ص ٣٩١ . و انظر ملحق الوثائق ص 297، وثيقة رقم (٢٢) ص 319

فإن قدوم الممثلين إلى سيواس يجب أن يكون فرادى، وبشكل سري. وفي ٢٤ يونيو سافر إلى أرضروم(٥٦).

وقد أثار نشاطه هذا، نقمة وزارة الداخلية في استانبول "التي لم تكن على علم بالاتفاق السري بينه وبين السلطان"، فقد كان شرط نجاح مصطفى كمال في هذه المهمة هو أن يبدو معارضاً لحكومة استانبول الواقعة تحت سيطرة قوات الاحتلال، بينما يسعى في الواقع لاستقلال الوطن. فأرسل وزير الداخلية، علي كمال تعليمات إلى جميع الولايات يدعوها إلى الوقوف ضد مصطفى كمال. وعندما وصل مصطفى كمال إلى أرضروم سلمه كاظم قره بكير، برقية مرسلة من رفعت يقول فيها، إن استانبول أصبحت تشك في مصطفى كمال، واتخذت بعض القرارات بخصوصه، وهى إقالته، والبقاء في أرضروم، وعدم الذهاب إلى سيواس. فقد تبين بشكل واضح أنه يدعو الأمة إلى المقاومة. وبينما كان السلطان يخفي فرحه بالنجاح الذي حققه مصطفى كمال، اضطر الباب العالي بضغط من المحتلين، إلى إقالة مصطفى كمال من الجيش. وبينما كانت الحركة الشعبية تشتعل في الأناضول، كان وحيد الدين ينكوي يومياً بشروط معاهدة موندروس. وكانت تُجرى تعديلات في الحكومة التي تعاقبت الواحدة تلو الأخرى في استانبول، نتيجة ضغوط قوات الحلفاء - التي أعلنت في يوم ١٦ مارس، احتلال استانبول رسمياً- ووضعوا أيديهم على النقاط الحيوية. ولم يتوقفوا عند هذا الحد، بل أخذوا يضغطون على مجلس المبعوثان، فيبقوا على المبعوثين الذين يرغبون فيهم، ويغيرون ويبدلون وفق هواهم. وبسبب ذلك أخذ المبعوثون يفرون إلى الأناضول الواحد تلو الآخر. فطالب الإنجليز - في خطابات بتاريخ ٦ يونيو ١٩١٩- باستدعاء مصطفى كمال وأركان معيته إلى استانبول في الحال. ولما رفضت وزارة الحربية استدعاء مصطفى كمال، كرر الإنجليز طلبهم في ٨ يونيو١٩١٩. فاضطرت وزارة الحربية - التي تحت الاحتلال- إلى الرضوخ للأمر الواقع، نظراً لإصرار الإنجليز على رجوعه. ويأتي طرد الباب العالي، لمصطفى كمال من الجيش، في نفس الوقت الذي قدم هو فيه استقالته من السلك العسكري(٥٧). وانضم إلى

(56) Falih Rıfkı Atay, "Çankaya", a.g.e. s. 189

(57) مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص ٤٥٢. ٤٥٧

مؤتمر أرضروم باعتباره مدنياً، وذلك من ضمن سياسة الخداع التي انتهجها. والواقع أنه برغم دعوته، فإن الإنجليز ووزارة الحربية كانا يعلمان أن مصطفى كمال الموجود في أرضروم، لن يعود إلى استانبول. فالإنجليز كانوا ينتهجون تكتيك إيجابي بهذا الضغط، وهم على يقين أنه لن يأتي بنتيجة أبداً، إلا وقوع مواجهة وخصومة بين حكومة استانبول، والحركة التي في الأناضول(٥٨).

وهناك وثيقة تفيد صراحة أن الإنجليز هم الذين ضغطوا من أجل استدعاء مصطفى كمال، وأن السلطان كان يرى أن هذا الاستدعاء غير مناسب(٥٩).

كما توجد برقية أرسلها مصطفى كمال إلى السلطان، يعترف فيها أن السلطان واقع تحت ضغط الإنجليز، وهو ما اضطره لإصدار قرار عودته. وهناك وثائق أخرى يعترف فيها مصطفى كمال، أن تعيينه جاء من قبل السلطان. ووثائق تفيد أن السلطان أصدر فرمان سلطاني من أجل إعادة النياشين والميداليات التي أُخذت من مصطفى كمال، لأنه لم يتم إقالته بل هو قدم استقالته(٦٠).

رأي السلطان وحيد الدين في مصطفى كمال:

أولا: في بداية التعارف بين وحيد الدين ومصطفى كمال

كان السلطان وحيد الدين يثق في مصطفى كمال، ويستأمنه. وهذه الثقة جاءت منذ مصاحبته في رحلة ألمانيا. ولذلك قام بإرساله إلى الأناضول. والحقيقة لم تكن هذه الثقة في محلها. فلم يكن السلطان يعلم بمحاولته الانقلاب عليه بل والسعي إلى قتله(٦١).

---

(58) Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah , Sultan vahideddin", a.g.e. s. 211

(59) انظر ملحق الوثائق، وثيقة رقم (٢٣) ص 320

(60) Kadir Mısıroğlu, " bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 213,214,

انظر ملحق الوثائق، الوثائق أرقام (٢٤ ، ٢٥) ص 321 ، 322

"Atatürk'le İlgili Arşive Belgeleri" , Ankara 1982, s. 46 -47 ,52,78,81 .

(61) تناول طارق ممتاز جوزتپه الحديث عن محاولة الانقلاب، ولكنه لم يتطرق إلى مسألة محاولة قتل وحيد الدين. أما صلاح الدين تانسيل فيقول: "إن صحيفة صباح نشرت في تاريخ ٢٦ ديسمبر ١٩١٨ تقول، هناك عدة محاولات سرية تهدف لإسقاط حكومة توفيق باشا. وإن مصطفى كمال باشا موجود في قائمة الحكومة التي تجهز هذه المساعي، من أجل ترشيحه لوزارة الحربية. وكذّب مصطفى كمال في اليوم التالي هذا الخبر.

كان أول لقاء تم بين مصطفى كمال ووحيد الدين في ١٣ ديسمبر ١٩١٧، قبل يومين من رحلة وحيد الدين إلى ألمانيا في ١٥ ديسمبر، وكان لا يزال ولياً للعهد. في تلك الأثناء كان مصطفى كمال عائداً من الجبهة، ومقيماً في فندق (بيرابالاس) عندما جاءه نائب السلطان، أنور باشا لدعوته للقاء السلطان في القصر، حيث كان مقرراً أن يرافق ولي العهد في رحلة ألمانيا(٦٢). ومنذ بداية الرحلة، حاول مصطفى كمال اتخاذ وضع السيطرة والتحكم في السلطان، حتى أنه تدخل في الملابس التي يلبسها، والتحية التي يلقيها. وخلال زيارته القيادة العليا للجيش الألماني في ألمانيا، بدأ بنقد أسلوب الألمان في إدارة الجيش، مما عرضه لسخرية الإمبراطور والمارشال هندنبرج وامتعاضهما. وفي إحدى الزيارات للجبهة استفهم عن تعبئة الوحدات، ثم صعد على شجرة، وأخذ في الرصد والمراقبة، وانتقد الوضع. وهناك قدم لولي العهد الاقتراح التالي: "عندما ترجع إلى استانبول، اطلب حالاً قيادة إحدى الجيوش، وسأكون أنا رئيس أركان حربك". فقد كان مصطفى كمال يحاول التقرب من ولي العهد، والسيطرة عليه، لكي يكون في المقدمة عندما يتسلم السلطة، فيستطيع الوصول إلى السلطة والجاه. ولكن وحيد الدين كان يتفحصه جيداً دون أن يظهر على وجهه أي تعبير(٦٣).

وكان الانطباع الأول الذي كونه السلطان عن مصطفى كمال أثناء رحلة ألمانيا، أنه صاحب ذكاء حاد. وشعر أنه محظوظ لأن يكون في رفقته بطل "چناق قلعة". ولكنه اكتشف

لكن الحقيقة أن مصطفى كمال وأصدقائه كانوا يرون، إما إسقاط الحكومة، أو أخذ مكان في هذه الحكومة، مثل وزير داخلية أو حربية. ولما رأوا صعوبة تحقيق هذا، فكروا في اللجوء إلى وسيلة أخري. وتم الاستقرار على "إنشاء لجنة ثورية". هذه اللجنة هدفها خلع السلطان، وإسقاط الحكومة، وتأسيس حكومة جديدة. لكن لم تتحقق أي نتيجة من هذا الاقتراح الذي قدمه مصطفى كمال في شيشلي. وقد وردت الإشارة صراحة إلى قتل السلطان وحيد الدين، على لسان فالح رفقي، في كتابه چانكايا حيث قال: "اقتنع مصطفى كمال، وبعض أصدقائه من عدم جدوى قتل وحيد الدين، وإسقاط الحكومة." انظر:
Tarık Mümtaz Göztepe, "Osmanlıların Son Padişahı Vahiddeddin, Mütareke Gayyasında", a.g.e. s.97 ve Selahattin Tansel, "Mondros'tan Mudanya'ya Kadar" , a.g.e. s. 77,78 ve Falih Rifki Atay, "Çankaya" , a.g.e. s. 158

(62) Şükrü Tezer, "Atatürk'ün Hatıra Defteri",Türk Tarih Kurumu Basımevi, Ankara 1972, s. 167

(63) الرجل الصنم ،مرجع سبق ذكره، ص ٩٠ . ٩١

بعد ذلك أن طمعه وطموحه شديد، حيث سعى إلى الارتباط به ومصاهرته. فقد كان أمل مصطفى كمال هو تحقيق الشهرة والثروة والسيطرة. فقد كان يريد أن يصبح رجلاً عظيماً(٦٤). وكان كل هدفه أن يصبح صاحب سطوة. وعندما لم يستطع أن ينالها عن طريق الاتحاديين، أراد أن ينالها من السلطان نفسه. وعندما أُتيحت له الفرصة أن يلتقي بوحيد الدين، طلب منه مشاركته حياته، عندما اقترح عليه أن يتولى قيادة الجيش الخامس، ويصبح هو رئيس أركان هذا الجيش. وهو هنا أراد أن يشاركه حياته، ولكن هذه الشراكة استمرت حتى بعد مماتهم. فقد كانت شراكة أساسها، أنه عندما يتحقق لطرف العلا، لابد وأن يختفي الطرف الآخر(٦٥).

كان كل ما يهم مصطفى كمال هو طموحه الشخصي، لذلك لم يهدأ من الحوم حول وحيد الدين بعد توليه العرش، بعد وفاة السلطان محمد رشاد، والاشتراك أحياناً في أداء شعائر العبادة في معيته. فقد كان كل ما يحرص عليه مصطفى كمال أمام هذا التغيير في السلطنة والخلافة، هو شهوة المنصب فقط(٦٦).

ويرى السلطان أن مصطفى كمال كان جريئاً ودائم النقد لغيره. وأنه رجل طموح أشبه

---

(64) تحدث مصطفى كمال نفسه عن أفكاره التي ستوصله إلى هذه العظمة فقال: "إن الرجل لا يسعى لأن يكون عظيماً، بل لابد وأن يكون هو في الأصل رجلاً عظيماً. ويتم اختيار الرجل الذي يقوم بإنقاذ الدولة بناءً على هذه العظمة، ليحقق هذا الإنقاذ. وإن لم يكن الذي تم اختياره عظيماً في الأصل، فلن يتمكن من تحقيق هذا الهدف. فالعظمة هي: ألا تلتفت لأحد، أو تحاول جذب انتباه أحد، لأن العظيم هو الذي يلفت الانتباه. فيبدو أنه هو الوحيد القادر على إنقاذ الدولة. ولتحقيق هذا الهدف سوف تجد من يقف ضدك، ومن يحاول تغيير مسارك، ومن يضع أمامك العراقيل. فإذا لم تكن عظيماً في الأصل، وكنت ضعيفاً وبلا حيلة، فستجد نفسك غير قادر على المقاومة. لكن إذا كنت في الأصل عظيم، فسوف تعمل على تخطي العراقيل، قانعاً بأن أحداً لن يقدم لك المساعدة. بعد ذلك إذا قالوا لك، إنك عظيم، اضحك على قولهم هذا." انظر:
Murat Bardakçı, “Şahbaba”, a.g.e. s.74

(65) المرجع السابق 74

(66) عندما سمع مصطفى كمال نبأ وفاة السلطان محمد رشاد قال: "والظاهر إن انفعالاً غير اعتيادي قد اعتراني عندما تلقيت هذا النبأ، لأنني جلبت انتباه ضيوفي. لا أدري هل كنت آسفاً أم كنت فرحاً؟ لا أعرف جيداً. ولكن الحقيقة هو إنني لم اشعر بالأسف على السلطان المتوفى، ولم يهمني أن يكون السلطان الجديد طويل العمر أم قصيره. إذن هل كان انفعالي مرده إنني لم أكن في أثناء هذا التغيير في استانبول؟ لا أستطيع أن أقطع بشيء، ولكن المؤكد إنني مررت بنوع من الانفعال. انظر:
Murat Bardakçı, “Şahbaba”, a.g.e. s.75

بالعاصفة، خطير، لا يمكن السيطرة عليه إذا تحقق له النفوذ. لكنه قد يكون ذا نفع أحياناً. وقد أحس السلطان بكراهية مصطفى كمال الشديدة لأنور باشا، وزير الحربية، ووكيل القائد الأعلى. فقد ظل طوال الرحلة، دائم النقد له، ويتهمه بأنه يسعى لهدم الأسرة العثمانية(٦٧). وقد رآه صريحاً وشجاعاً ولا يخفي كراهيته للألمان، وأنه كان ينتهز كل فرصة للتقرب منه، وإثبات صداقته له. وبرغم إدراكه لرعونته وانتهازيته ورغبته في تولي المناصب العليا، كان يثق في قدرته على الاضطلاع بالمهام الخطيرة(٦٨).

ثانيا: عند انقلاب مصطفى كمال على وحيد الدين

قبل البداية الجدية للحرب القومية، أرسل السلطان وحيد الدين، صهره الأمير عمر فاروق أفندي إلى الأناضول للاشتراك في حرب التحرير، ولكن مصطفى كمال أمر بعودته إلى استانبول مرة أخرى. فقام بإرسال ولي العهد عبد المجيد أفندي، فأمر بعودته أيضا. فقد كان يريد إبعاد أفراد الأسرة السلطانية عن الأناضول، حتى يستأثر هو بالسلطة. وعندما رأى السلطان أن الأجواء صارت ضده في الأناضول، فكر في الذهاب إلى هناك، بدون أن يلفت نظر الإنجليز لذلك، بناءً على نصيحة عوني باشا. لكن توفيق باشا رأى أن هذا سيؤدي إلى حدوث انقسام بين مؤيدي مصطفى كمال، ومناصري الخلافة، مما يزج بالدولة في حرب أهلية(٦٩).

قال السلطان وحيد الدين عن مصطفى كمال عندما انقلب عليه: "إن مصطفى كمال باشا خان ثقتي فيه(٧٠)، فهو يلعب أدواراً مختلفة في كل زمان. فقد كان يريد أن يبقى هو

---

(67) ظل أنور باشا وزيراً للحربية حتى الهزيمة في الحرب العالمية الأولى، وكان أيضا يحمل لقب نائب القائد الأعلى للقوات التركية، لأن السلطان كان هو القائد الأعلى للقوات التركية، وكان مصطفى كمال يحقد على أنور باشا لأنه كان بنفس سنه، ولكنه كان متقدماً عليه في الرتب إلى درجة لايمكن تخطيها. وعندما سُئل أنور باشا لماذا لا ترقي مصطفى كمال إلى رتبة لواء؟ قال: إنه إذا ترقى إلى رتبة الباشا أي لواء، فإنه سيرغب في أن يكون سلطاناً. وإذا أصبح سلطاناً فإنه سيرغب في أن يكون إلهاً. وفي هذا دليل على طمعه. انظر الرجل الصنم، مرجع سبق ذكره، ص ٧٦، ٩٠، و80 Falih Rıfkı Atay, "Çankaya", a.g.e. s.

(68) Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e.s.68

(69)Murat Bardakçi, "Şahbaba", a.g.e s. 441 ve Kadir Mısıroğlu, "Sarıklı Mücahitler", Sebil Yayınevi, İstanbul 1981, s.59-64

(70) كان مصطفى كمال ذوعزيمه جبارة، لاتضعفها عاطفة أو خُلق أو وفاء. يحاول بلوغ أهدافه بأي ثمن،

الرئيس الأوحد للحركة الشعبية كلها، فأخذ يسيء للحكومة المركزية مستنداً على سببين مقدسين وهما، الدفاع عن الدولة، وإنقاذها. ثم بعد ذلك أخذ يثير الشعب ضدي مستخدماً كافة أنواع الدعاية. وسعى لتجريد حكومة استانبول من جميع وسائل، وعناصر الدفاع الخاصة بها. وبلغ به الأمر أن يقول، إنني أحصل على نقود من الأجانب"(٧١).

ويعتبر السلطان، مصطفى كمال مسئولاً عن عقد هدنة موندروس، التي كانت سبب الكوارث التي عانت منها الدولة بعد ذلك. فقد اضطرت الدولة إلى عقدها بعد إخفاقه في مهمة الدفاع عن الجبهة السورية. تلك المهمة التي كلفه بها السلطان خلال الحرب العالمية الأولى. فقد قام بالانسحاب من هذه الجبهة ولم يدخل في أية معركة ضد الحلفاء. وكان انسحابه بجيشه إلى جبال طوروس، سبباً في ضياع بلاد الشام، ووقوع جزء كبير من الجيش العثماني في الأسر. وهو أيضا لم يعترض على توقيع هذه الهدنة، برغم قوته العسكرية، إذ كان في ذلك الوقت، قائداً للجيش السابع(٧٢).

وأي سلاح، ومهما يطل به الانتظار. لا تأخذه شفقة على أحد، أو توهن من عزيمته عاطفة، أو يمنعه من قراراته إخلاص لإنسان. كان يسخر من جميع المبادئ والمثل العليا الأخلاقية، فقد كانت في نظره، ليست أكثر من غطاء يخفي رياء الناس، وحماقة الحمقى. وكانت سخريته ذكية، قاطعة، لايخفف من حدتها المزاح الملطف للأمور، وتظهرة بمظهر الرجل المجرد من المشاعر الرقيقة، الذي لا يخلص لإنسان، أو لمثل أعلى، أو لنظام مرسوم. شبيه الذئب الكاسر، المجرد من العاطفة، أوالخلق، او المبادئ السامية، أو السلوك القويم، أو أي شيء غير شهواته." انظر هـ . ارمسترونج ، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٢.

(71) Murat Bardakçı, “Şahbaba”, a.g.e.s .١٧٥

(72) خلال الحرب العالمية الأولى، كلف السلطان وحيد الدين - بعد توليه العرش- مصطفى كمال بمهمة الدفاع عن الجبهة السورية، وأوصاه بالعمل على ألا تقع هذه الجبهة في يد الحلفاء. وعندما وصل مصطفى كمال إلى الجبهة السورية، كانت القوات العثمانية تستعد لمواجهة هجوم بريطاني وشيك. تسلم مصطفى كمال قيادة الجيش السابع، وسيطر على القطاع الأوسط من خط الدفاع العثماني. وكان الجيش الثامن عن يمينه ومعه الفرقة الثانية والعشرون، والجيش الرابع عن يساره، يحمي سكة حديد الحجاز. وفي ١٩ اغسطس وقع الهجوم الإنجليزي، وهزموا الجيشين، وحاصروا الأتراك، وحالوا دون انسحابهم إلى الخلف. فانسحب مصطفى كمال إلى دمشق. وأمره ليمان فون ساندرز، القائد الألماني للجبهة السورية، بأن ينشئ خطاً دفاعياً جديداً. ولكن مصطفى كمال قرر الانسحاب إلى شمال حلب، وعرض هذا الأمر على القائد الألماني، الذي رفض تحمل مسئولية هذا القرار، الذي يؤدي إلى وقوع جزء كبير من الدولة العثمانية في يد الإنجليز، بدون إبداء أية مقاومة تُذكر. ولكن مصطفى كمال أبدى استعداده لتحمل المسئولية، وأصدر أمره بالانسحاب إلى شمال حلب، مما أدي إلى استيلاء الإنجليز على دمشق، بدون أية مقاومة من جانب القوات العثمانية التي تحت

وكان السلطان يقول عن مصطفى كمال، إنه مجهول الأصل، ثوري مقدوني، ويشبه الصرب إلى حد كبير. خلال الحرب اليونانية أعلن أتاتورك عصيانه ضدي وضد السلطنة والدولة، وعمل على تنفير الأتراك من الأسرة العثمانية(٧٣). وتجاوز حدوده، وارتكب في الأناضول أعمالاً وحشية، من قتل وصلب. وأنشأ محاكم الاستقلال التي أصدرت أحكام الإعدام على الذين يعترضون على إجراءاته. وكان عنيفاً في قمع الثورات، إذ أعدم في ثورة قونية المئات من مؤيدي السلطنة(٧٤). فهو ومن التفوا حوله ما هم إلا بلاشفة، ويعتمدون كثيراً على مساعدة البلاشفة لهم(٧٥).

قيادته. لمزيد من التفاصيل، انظر ماجدة مخلوف ،بيان السلطان محمد وحيد الدين،آخر السلاطين العثمانيين، مجلة المنار الجديد، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٨

(73) داجوبيرت فون ميكوش، مصطفى كمال، المثل الأعلى، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٣

(74) ماجدة مخلوف، بيان السلطان محمد وحيد الدين،آخر السلاطين العثمانيين، مجلة المنار الجديد ،مرجع سبق ذكره، ص١٢٩

(75) كان مصطفى كمال - منذ وصوله إلى الأناضول، عام ١٩١٩- يتطلع إلى التفاهم مع السوفييت، للحصول على مساعدتهم، ولتهديد الحلفاء. وكانت روسيا تساند الثورة التركية، وتساعد الأتراك، لأنها كانت ترى أن تركيا ذات أهمية استراتيجية لها، أمام أي تدخل للحلفاء. وبعد مؤتمر سيواس، أرسل مصطفى كمال مبعوثاً غير رسمياً إلى روسيا، للحصول على مساعدات منها للثوار الأتراك. وأمدته روسيا بالفعل بالمساعدات في بداية عام ١٩٢٠. وسبب إسراع روسيا إلى مساعدته، إعلان الحلفاء معاهدة سيفر، بعد احتلالهم استانبول. وبعد تشكيل المجلس الوطني التركي الكبير في ٢٣ ابريل ١٩٢٠، عمل مصطفى كمال على تدعيم علاقاته بروسيا. فأرسل بعثة رسمية إلى موسكو برئاسة بكير سامي، وزير الخارجية. كما أرسل مذكرة إلى لينين، يدعوه إلى إقامة علاقات دبلوماسية مع تركيا، ومساندتها ضد الحلفاء. وتلقى مصطفى كمال من وزير الخارجية الروسي، خطاباً يعترف فيه بالميثاق الوطني، ويعده بإقامة علاقات دبلوماسية، والتعاون العسكري مع تركيا. ولكن بعد أن حصل مصطفى كمال على المساعدة من الروس، انقلب عليهم، لأن وزير خارجية روسيا طلب منه أن تتنازل تركيا عن إقليمي خان وبتليس لأرمينيا. فأمر كاظم قره بكير بأن يتوجه بجيشه الذي في الشرق إلى أرمينيا، ويسترد قارص وأردخان وباطوم. انظر Kinross Belfour Patrick, "Ataturk ,The Rebirth of A Nation",Weidenfield and Nicolson, London 1964, p.240-243

- يرى بعض الأتراك أن الانقلابات التي جاءت بها الكمالية، مأخوذة كلها من الشيوعية، وقد كان مصطفى كمال ينوي تسمية الدولة بعد إعلان الجمهورية (خلق جمهوريتي) أي جمهورية الشعب. ولكنه عدل عن ذلك. انظر Niyazi Berkes, "Türkiyede çağdaşma", Doğu-Batı yayınları, İstsnbul 1978, s.617

الفصل الرابع

السلطان وحيد الدين من خلال خطاب أتاتورك

خطاب أتاتورك:

هو الخطاب المعروف بنطق الذي ألقاه أتاتورك في المؤتمر الكبير لحزب الشعب الجمهوري عام١٩٢٧، والذي استغرق شهراً في كتابته. وضع أتاتورك في هذا الخطاب خلاصة فكره وتجربته، وتحدث فيه عن دوره في حرب الاستقلال، والمراحل التي مرت بها منذ ذهابه إلى سامسون في ١٩ مايو ١٩١٩حتى إلغاء الخلافة الإسلامية في عام ١٩٢٤. فتناول فيه أهم الأحداث التي أحاطت بإلغاء السلطنة العثمانية وانعقاد مؤتمر لوزان في العام نفسه، ثم إعلان الجمهورية التركية في العام التالي، ثم إلغاء الخلافة الإسلامية والمبادئ التي اتخذتها الحكومة الكمالية أساساً للجمهورية. وتضمن الخطاب عدداً من المراسلات التي تمت في تلك الفترة بين أتاتورك وقادة الجيش، وأبرز فيه الأسباب التي دعته للقيام بالخطوات التي سبقت وأحاطت وأعقبت إعلان الجمهورية التركية. كما يشرح أتاتورك في هذا الخطاب فلسفته في بناء الدولة التركية الحديثة ووجهة نظره في الدولة العثمانية تاريخياً وسياسياً وحضارياً، ورأيه في السلطان محمد وحيد الدين والخلافة والدين ومشروعه البديل للخلافة الإسلامية. وقد استعرض فيه بالتفصيل الصراع الذي خاضه ضد السلطان والخليفة محمد وحيد الدين من أجل تحقيق الاستقلال للشعب، وكل الأسباب التي رآها ضرورية لإلغاء السلطنة العثمانية ثم الخلافة – التي هي من آثار الدولة العثمانية على حد رأيه- التي يراها قد أضرت بالشعب التركي، واستعرض أيضا دوره في وضع الأسس التي قامت عليها الجمهورية التركية بعد أن ساعد الشعب في إزالة كل ما يعوق الاستقلال والحاكمية الشعبية وقيام الجمهورية التركية[١].

ويُعتبر خطاب أتاتورك وثيقة نفهم من خلالها فكر وحركة أتاتورك. فقد تناول فيه وجهات النظر المختلفة تجاه قراراته التي تتعلق بإلغاء السلطنة والخلافة، ومحاولته جعل تركيا دولة علمانية، وأورد فيه رأي المؤيدين والمعارضين له[٢].

---

(1) تم طبع هذا الخطاب للمرة الأولى بالحروف العربية عام ١٩٢٧، وعدد صفحاته ٥٤٣ صفحة من القطع الكبير، ثم أعيد طبعه بعد ذلك بالحروف اللاتينية عام ١٩٣٨. واستغرق إلقاء هذا الخطاب ستة أيام متتالية من ١٥ إلى ٢٠ أكتوبر ١٩٢٧. انظر ماجدة مخلوف، الخلافة في خطاب أتاتورك، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤.

(2) محمد حرب، المثقف وتغيير نظام الحكم، حالة أتاتورك، دار الأفاق العربية ٢٠٠١، ص ١٣٣

انتقاد خطاب أتاتورك :

اختلفت آراء المؤرخين، والمثقفين، ورفاق أتاتورك، حول أفكاره الواردة في خطابه. فيرى رضا نور[٣] من خلال تعليقه على خطاب أتاتورك، أن كثيراً من المسائل التي عرض لها مصطفى كمال في خطابه كتبها خطأ، وكثيراً من الوقائع تغافل عنها. وفي كل سطر يظهر نفسه بإنه هو فقط الذي صنع كل شيء. وطبع أتاتورك في ذلك الكتاب الوثائق التي تكون في مصلحته فقط، ولم يضع فيه ما لا يتفق مع مصالحه من وثائق. ويتضح من قراءة هذا الخطاب أن مصطفى كمال يغالط في الأحداث، ويبدلها بحيث تكون في صالحه. إن له جرأة في تزييف التاريخ[٤].

ويصف الكاتب التركي، محمد دوغان خطاب أتاتورك بأنه ادعاء، بل ويمكن اعتباره اتهام وجهه أتاتورك لأكثر من ٤٠٠ شخصية تاريخية في عهده، وقسم كبير من هذا الاتهام سلبي، ولم تُعط الفرصة لأي من هذه الشخصيات للدفاع عن نفسها[٥].

ويقول الكاتب التركي، شوكت ثريا أيدمير: "إن ما قاله أتاتورك في الخطاب عن رفاق الكفاح القدامى كان بلا شك قاسياً، وغير منصفاً، وفيه إدانة لهم. لكن هذا يساعد على فهم الحالة الروحية لأتاتورك الذي لم يكن حتى تاريخ هذا الخطاب (١٩٢٧) مجرد رجلاً عسكرياً بل رئيس دولة، وكان يلف أتاتورك في ذلك التاريخ إحساساً أسطورياً. فقد كان يرى الأحداث والبشر من زاويته هو، وكذلك الوثائق التي ألحقها بالخطاب كانت تخضع لتقديره

---

(3) الدكتور رضا نور (١٨٧٩ - ١٩٤٣) هو طبيب ومؤرخ ورجل سياسة تركي معروف. تخرج من الكلية الطبية العسكرية ثم أصبح أستاذاً فيها. دخل معترك السياسة عام ١٩٠٨ وتوجه إلى الأناضول مشتركاً في حرب الاستقلال. وكان رئيساً للوفد التركي الذي عقد معاهدة الصداقة مع روسيا عام ١٩٢١، ونائباً في مجلس محادثات لوزان. أُنتخب نائباً في مجلس النواب في أنقرة، وشغل منصب نائب وزير الخارجية في عهد مصطفى كمال. في كتابه حياتي وذكرياتي سرد الكثير من أسرار تلك الفترة من التاريخ التركي، وقد أودع نسخة من هذه المذكرات في فرنسا ونسخة أخرى في المتحف البريطاني، وقد اشترط عدم فتح هذه المذكرات قبل عام ١٩٦٠ مبرهناً أن دافعه لم يكن الحقد الشخصي أو المنفعة الشخصية عند هجومه أو نقده للكثير من الشخصيات المهمة في ذلك التاريخ. ونُشرت هذه المذكرات في تركيا عام ١٩٦٨. انظر الرجل الصنم، مرجع سبق ذكره، ص ٤٦، ٤٧

(4) ماجدة مخلوف، الخلافة في خطاب أتاتورك، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤ ، ٢٥

(5) Mehmet Doğan, "Kemalizm", Esra Yay., Konya 1994, s. 36,37

هو. ونطق وثيقة سياسية أودعها أتاتورك ثنايا التاريخ من خلال وجهة نظره هو[٦].

ويرى شيخ الإسلام[٧] مصطفى صبري أفندي[٨] أن هذا الخطاب كتبه مصطفى كمال،

---

(6) Şevket Süreyya Aydemir, "İkinci Adam İsmet İnönü", c.1, Remzi Kitabevi, İstanbul 1993, s. 218

(7) شيخ الإسلام هو صاحب أعلى رتبة علمية في الدولة العثمانية، ويرأس الطبقة العلمية، وقد أُستحدث هذا المنصب في عهد السلطان مراد الثاني، وكان يسمى في أوائل عهد الدولة العثمانية بقاضي عسكر. وفي عهد السلطان محمد الفاتح كان يُعرف بالمفتي حيث كان يقوم بإصدار الفتاوي الخاصة بالدعاوي القضائية، ثم صار يُعرف بشيخ الإسلام. والصدر الأعظم هو المسئول عن تعيين شيخ الإسلام. وكان شيخ الإسلام عضواً في الديوان السلطاني الذي يرأسة الصدر الأعظم نيابة عن السلطان. انظر Mehmet Zeki Pakalın, "Osmanlı Tarih Deyimler ve Terimleri Sözlüğü", cilt 3, Milli Eğitim Basımevi, İstanbul 1983, s. 347-350

(8) ولد الشيخ مصطفى صبري في عام ١٨٦٩م في الأناضول بمدينة "توقاط". حفظ القرآن الكريم في العاشرة من عمره، أرسله والده إلى مدينة قيصرية لمتابعة تعليمه، وهناك تعلم العلوم العربية، والعلوم الشرعية، كما تعلم المنطق وأصول المناظرة والوعظ. ثم انتقل إلى الآستانة لاستكمال تعليمه في جامع السلطان محمد الفاتح. تم تعيين الشيخ مصطفى صبري مدرساً في جامع الفاتح. ثم عُين في قصر يلديز بوظيفة مدير القلم السلطاني الخاص. ثم أميناً لمكتبة يلديز. عُين شيخاً للإسلام مرتين. وعينه السلطان محمد وحيد الدين عضواً في مجلس الأعيان العثماني. وعندما استولى الكماليون على العاصمة اضطر إلى الهجرة إلى اليونان في عام ١٩٢٢ حيث أصدر جريدة باللغة العثمانية سماها (يارين) ثم هاجر إلى مصر سنة ١٩٢٣م. ومن مؤلفاته (النكير على منكري النعمة) المترجم عن كتابه التركي (الإمامة الكبرى) الذي بحث فيه مسألة الخلافة من الناحية السياسية، وهاجم الكماليين وبيّن فسادهم، ونفّر العالم الإسلامي عامة ومصر خاصة منهم، وحذر من شرورهم، ونبه المسلمين إلى سوء نياتهم في التفريق بين الخلافة والسلطنة، وبين دوافع هذا التفريق، وأوضح الآثار المترتبة عليها. وتحدث عن فساد دين الكماليين، وعن تعصبهم للجنس التركي، ومحاربتهم للعصبية الإسلامية، واستخفافهم بالقرآن، وبتعاليم الإسلام التي يرون أنها غير صالحة للقرن العشرين. وقدم نماذج من كتابات كتابهم الداعين إلى التخلص من سلطان الدين، وإبعاده عن سياسة الدولة، اقتداءً بالأوروبيين، وقدم الشيخ أمثلة بالقوانين التي خالفوا فيها الشرع. وهو يرى أن الكماليين خرجوا من عباءة الاتحاديين الملاحدة، ولا فرق بينهم، فهم مثلهم في صلتهم باليهود، وتواطئهم مع الإنجليز، وأراد أن ينبه المصريين إلى ما يضمره الكماليون للإسلام وشريعته وأهله، وما ينطوون عليه من خبث النية وفساد الدين، وأن الخلافة التي ابتدعوها مجردة عن السلطة ليست من الإسلام في شيء، وأن فصل الدين عن الدولة ليس إلا وسيلة للتخلص من سلطانه وشريعته. ومن كتبه (مسألة ترجمة القرآن) و(موقف البشر تحت سلطان القدر) رد فيه على من زعم أن تأخر المسلمين وتواكلهم وانحطاطهم وتخلفهم إنما يرجع إلى إيمانهم بعقيدة القضاء والقدر، وفند آراءهم ومزاعمهم بحجج قوية، و(القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون) رد فيه على الماديين الملاحدة الذين يشككون في وجود الله تعالى، وعلى الذين ينكرون الغيب

لتبرير حركاته ضد ولي نعمته الذي ذكره فيه بأخس الألقاب البذيئة(٩).

الانطباع الأول لمصطفى كمال عن وحيد الدين:

تعرف مصطفى كمال بوحيد الدين، ولي العهد في ١٣ ديسمبر ١٩١٧، قبيل سفره مع وحيد الدين إلى ألمانيا في ١٥ ديسمبر عندما اختاره أنور باشا في مهمة مرافقة ولي العهد في زيارته لألمانيا رداً على زيارة إمبراطورها الأعلى لتركيا. وتم تعيين مصطفى كمال ياوراً لولي العهد، فتوجه إلى قصره للتعرف عليه بصفة رسمية، وعندما قابله لأول مرة كان انطباعه الأول أنه إنسان يثير الضحك ويستحق الشفقة و"عاجز أبله" وشعر بداخله بضيق شديد تجاهه، وأنه غائب عن الوعي، لا يعرف عن أحوال العالم شيئاً. وعندما يقول شيئاً يغمض عينيه ويفكر طويلاً، وكأنه مستغرق في تأمل صوفي ثم يفتح عينيه ويغمغم ببضع كلمات(١٠).

وتقرر السفر في ١٥ ديسمبر، والتقى بولي العهد في يوم السفر في المحطة، ولم تعجبه تصرفات وحيد الدين ولا ردائه ولا طريقة تحيته للمودعين وللجماهير، حتى إنه لفت نظر إحسان بك، المسئول عن البروتوكول إلى أنه كان من الواجب أن يرتدي وحيد الدين ملابس

والنبوة والمعجزات. وأما كتابه (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، وعباده المرسلين)، وهو آخر ما ظهر للمؤلف من كتب في حياته، وطبعه عام ١٩٥٠م في أربعة مجلدات كبيرة، فقد احتوى خلاصة آراء الشيخ في السياسة، والاجتماع، والفلسفة، والفقه، كما احتوى معاركه الفكرية مع عدد من أعلام عصره، كالمراغي، ووجدي، والعقاد، وهيكل وغيرهم. عاش فقيراً ومات فقيراً. وكانت شجاعته مضرب الأمثال، فقد حارب الاتحاديين وعلماء الدين المتغربين. وقد عمل طوال حياته على تغيير الوضع نحو الأفضل، وقد زاد نشاطه منذ أن أحس بالخطر المحدق بالدين الإسلامي في العالم الإسلامي. توفي الشيخ مصطفى صبري في القاهرة عام ١٩٥٤م. انظر محمد حرب (العثمانيون في التاريخ والحضارة)، دار القلم، دمشق ١٩٨٩، ص ٢٨٩ - ٢٩٢

(9) مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، مرجع سبق ذكره، ص ٤١٥.

(10) Necip Fazıl kısakürek, “Sultan Vahiduddin", a.g.e. s. 84,85

يقول مصطفى كمال عن هذا اللقاء ما يلي: "جلست على مقعد غير مريح في حجرة زُينت جدرانها بأفخر أنواع السجاد بينما وقف رجال القصر في أرديتهم الرسمية يتهامسون. ودخل وحيد الدين، وكان رجلاً هزيلاً، كثيف شعر الجسم، ذا رقبة طويلة، ووجه يبدو عليه الضعف، يرتدي مجموعة من ثياب الصباح لا تلائم جسمه، وجلس على أريكة مزدحمة بالوسائد والرياش، وبعد أن تقبل تحيات رجال حاشيته، أغمض عينيه ثم فتحهما مرتين بعد مجهود وأبدى ملاحظتين تافهتين، ثم عاد يغالب النعاس، فأدركت أنني أجلس مع أبله". انظر أرمسترونج، الذئب الأغبر، مرجع سبق ذكره، ص ٨٢

عسكرية. ثم على حد قوله قام بتعليمه كيف يشير للمشيعين بعد أن كان يرفع كلتا يديه ويشاور بهما، وأنه كان مطيعاً، وكلما كان يشير إليه بشيء ينفذه(١١).

وتغيرت نظرة مصطفى كمال لوحيد الدين بعد أن ابتعد القطار عن استانبول، فوجده رجلاً مختلفاً ، عينيه مفتوحتين ،موفور الانتباه ، ذكي وينظر إليه بنظرات ثاقبة. وأبدى وحيد الدين ارتياحه وسعادته وفخره لسفره معه لأنه القائد الذي أنقذ استانبول، وصارت بينهما صداقة وصحبة حلوة. وأدرك مصطفى كمال أن شخصية وحيد الدين تغيرت بالفعل بعد أن غادر استانبول، وتحرر من رجال القصر الذين كانوا يتجسسون عليه، وصار حراً وبدت شخصيته الحقيقية(١٢). وغير مصطفى كمال باشا من رأيه السابق، وأصبح وحيد الدين- الذي كان يقول عنة "المسكين المستحق للشفقة"- في رأيه مصدر الأمل الواعد(١٣)، برغم

---

(11) يقول الكاتب التركي مراد برداقچي: "إن كلام مصطفى كمال عن وحيد الدين في المحطة، والملاحظات التي أبداها مثل أنت سير ونحن نأتي خلفك، وسلم على الأهالي وأنت تنظر من النافذة، هذا كلام لا يمكن أن يحدث لأن مصطفى كمال حتى لو كان حينئذ برتبة جنرال لا يمكن أن يملي أوامره وملاحظاته هكذا على ولي العهد، لأن هناك برتوكول خاص، وطريقة خاصة للتعامل مع الملوك وأولياء العهد في كل زمان ومكان. فإذا كان مصطفى كمال قد فعل ذلك فعلاً مع وحيد الدين لكان تم فصله من وظيفته في الحال. ومن يدقق في هذه الخواطر يراها لا تنتمي إلى مصطفي كمال، بل يمكن أن تكون من خواطر فالح رفقي" انظر ٧٣ - Murat Bardakçı, Şahbaba, a.g.e.s.70

(12) يقول مصطفى كمال عن لقائه بوحيد الدين في القطار: "اعتبرت هذا اللقاء كاف من أجل تلك الليلة، فاستأذنت قائلاً: "إنني لا أريد أن أقلق راحتكم أكثر من ذلك". وعندما عدت إلى الصالون الخاص بي في القطار شعرت بالانشراح. كنت أفكر في أن هذا الشخص لابد وأن يكون شخصاً عاقلاً. عندما قابلته لأول مرة في استانبول، بدا ولي عهد غريب الأطوار تحت تأثير شروط وأسباب تسهيل لقائنا في رأي العارفين ببواطن الأمور في هذا الزمان. لكن بعد أن غادر استانبول، شعر بالتحرر تماماً، وعندما فهم أنه يتحدث مع رجل من الرجال الذين يُعتد بهم، لم يجد مانعاً في أن يبدي شخصيته الحقيقية. ولهذا تمكنت أن أطلعه على الأحوال والأمور الضرورية، وأصبح في مقدوري، في رأيه، أن أبدأ نشاطي مرتكزاً على بعض الأسس فتفاءلت. وتمر أيام الرحلة الواحد تلو الأخر، وكل يوم كنا نلتقي لقاءات إما طويلة أو قصيرة، واقتنعت حينئذ أنه يمكن عمل بعض الأشياء مع هذا الرجل، بشرط إظهار الود والتقرب منه وتنويره. وأعربت عن وجهة نظري هذه لأشخاص مثل ناجي باشا وأخرون. وأشرت إلى ضرورة إعداد ولي العهد للقيام بمهمة تستهدف مصلحة الدولة. واستمرت رحلتنا في لقاءات من هذا النوع الذي بين الأصدقاء". انظر
Necip Fazıl kısakürek, “Sultan Vahiduḍdin”, a.g.e. s 90,91

(13) يشرح الكاتب الإنجليزي، هـ.س.ارمسترونج في كتابه (الذئب الأغبر)، أسباب تغير شخصية وحيد الدين عند مغادرة القطار استانبول فيقول: "عاش وحيد الدين ستين عاماً في القصر تحت حكم السلطان عبد

أنه ندم في البداية على قبوله السفر مع وحيد الدين، حيث شعر بالألم أن يرى بلاده تُمثل في أوروبا بواسطة بعثة يرأسها مثل هذا الأمير العاجز الأبله الذي يطل من أحد نوافذ القطار بوجهه النحيل، وعينيه الغبيتين، يتقبل في إعياء هتافات الجماهير عند بدء تحرك القطار.

وعندما تلقى مصطفى كمال خبر وفاة السلطان رشاد وجلوس وحيد الدين على العرش، أرسل إلى القصر برقية تهنئة في ١٩ يوليه ١٩١٨ بتوقيعه كقائد للجيش، يوضح وجهة نظره الكاملة تجاه وحيد الدين وحكمه القيم عليه. وهذا ما قاله بنفسه: "إن جلوس أفندينا على العرش قد بعث الأمل الكبير في عبدكم، وفي إمكانية تحقيق سلامة وسعادة وطننا. وبرغم الحزن على وفاة السلطان المرحوم، فإنني مقتنع وواثق تماماً من أنكم ستنقذون وطنكم وأمتكم وجيشكم حتى لا يصير ألعوبة. وأنكم ستعدلون من الوضع الأليم. وأرجو أن تقبل الذات السلطانية جزيل شكر، وعظيم احترام عبدكم"(١٤).

وعندما التقى بالسلطان وحيد الدين بعد توليه العرش طلب ضرورة توليه قيادة الجيش، وتعيينه هو نائباً للقائد الأعلى. فرفض السلطان وقال له إنني أريد أن أضمن إشباع شعب استانبول أولاً. فاقتنع مصطفى كمال أنه أمام ثعلب مكار؛ فالسلطان كان يريد أن يكسب شعب استانبول، لأنه كان يبحث عن نقطة ارتكاز قوية تسانده في الاضطلاع بمهمة إنقاذ الوطن(١٥).

الحميد الذي كان قد أُعجب به ودربه أحسن تدريب، لكنه لم يكف عن مراقبته طيلة الوقت بواسطة جواسيسه، فعاش الأمير في خطر دائم واتخذ هذا المظهر التنكري الخادع، مظهر الأبله الواقع تحت تأثير مخدر أو منوم حتى لا تفلت منه هفوة واحدة أو إشارة تنم عن طموحه أو اهتمامه بالسياسة أو بالعالم الخارجي، فيزج به في غياهب السجون أو يختفي من الوجود، بينما يخفي وراء هذا المظهر فكراً ثاقباً، وعقلاً ذكياً، وكانت سياسة وحيد الدين ضد الاتحاديين؛ ولذلك كان مراقباً في فترة ولاية عهده من قبلهم هو وزائريه، فكان يحذرهم ومن ثم حرص في العاصمة على أن يعامل مصطفى كمال بالإهمال والازدراء اللذين يقتضيهما الحذر. أما بعد أن غادر وحيد الدين القصر والعاصمة، تغيرت شخصيته وصار يحييه في حرارة، ويعتذر إليه بأنه لم يستطع التبسط معه في الفرصة السابقة، ثم هنأه على نجاحه وانتصاراته كقائد حرب، وبهذا الإطراء أرضى غرور مصطفى كمال بحيث أزال استياءه وأثلج صدره من فوره، وسرعان ما صار الاثنان صديقين حميمين، وأنفقا فترة الرحلة في أحاديث تسودها روح الثقة والتفاهم المتبادل". انظر هـ. س. ارمسترونج، الذئب الأغبر، مرجع سبق ذكره، ص ٨٣، ٨٤.

(14) Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s. ١٢٥

(15) Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s.١٢٩

انقلاب مصطفى كمال على السلطان وحيد الدين:

كان هدف مصطفى كمال خلال حركة المقاومة الشعبية في الأناضول - كما أعلنه في البداية - هو إنقاذ الخليفة والسلطان وحيد الدين الموجود تحت أسر الاحتلال في استانبول، فكان يؤكد بإصرار أن الهدف من الحركة هو إنقاذ السلطان الأسير. وقد أوضح مصطفى كمال هذا القصد خلال مراسلاته الرسمية؛ ففي ١٩ يناير ١٩٢٠ أرسل مصطفى كمال خطاباً مهماً إلى السلطان وحيد الدين يوضح فيه أن هدف الحركة الشعبية هو العمل على استقلال السلطان، واستعادة سيطرته ليس على استانبول فقط بل على العالم الإسلامي كله، وأنه سيجتهد في سبيل ذلك. إذ يقول فيه: "سيدي المحترم، إن الغاية المقدسة، والهدف الأصلي للحركة الشعبية التي نجحت في إبعاد شبح تقسيم الوطن الذي يجهز له من خلال المعاهدات الخاصة، تلك الحركة التي استطاعت أن تحقق تأثيرات جيدة بفضل الله في موقفنا السياسي بصفة عامة، هو حماية وجودك وضمان سلامة مستقبلك، وذلك عن طريق توحيد جميع القوى المادية والمعنوية والمحافظة عامة على حاكميتكم، وعلى استقلال حضرة السلطان، الممثل الأعلى المحترم للدولة العثمانية. وحتى يصبح سلطان تركيا، وممثل هيئتنا، حضرة سيدنا صاحب الهيبة وخليفة الإسلام المقدس، صاحب المقام العالي المرتبط في وجدان العالم الإسلامي كله، صاحب نفوذ وسيطرة مادية ومعنوية، ليس فقط في وطننا كله بل في جميع أرجاء العالم الإسلامي . ومن هذا المنطلق فقد اعتنقت الحركة أمل أوسع، بحيث يكون الإنقاذ هو إنقاذ أسيا كلها بعد إنقاذ استقلالكم وإنقاذ مقام جلالتكم..... إنني قمت بتدعيم القوة الساحقة الموجودة في الأناضول بالعمل باسم السلطان..... وإنني أبشرك بإنني شكلت حركة مقاومة شعبية كبيرة - في سبيل تحقيق الغاية المقدسة التي أعرضها بكل إيمان وثقة- في الأناضول. وقد شاركت فيها جميع القرى، وجهزت الأمة كلها بلا استثناء سواء بالتفاهم أو بالقوة للتضحية بالروح في سبيل سيادة الذات الشاهانية وحصانتها. إن إحساس العبادة، الذي بلا نهاية، والذي في رؤوس ووجدان وأرواح الأمة كلها التي ترتبط بسلطانها، يعد بحدوث التقدم والرفعة من أجل المستقبل، ويهب الأمل في التوصل لشروط الصلح التي صارت قريبة بالاتحاد والتقارب الذي أبدته الأمة. وفي مجلس المبعوثان الموجود في حالة انعقاد منذ أسبوع، حصل إجماع قوي على هذه الآمال والغايات، وارتبطت جميع التشكيلات

الملية بهذه الأغلبية التي أجمعت على ضرورة العمل على تحقيق سلامة الدولة التي يحفظها الله، وعلى ضرورة تحقيق رغبات السلطان. ولقد أرسلت كل من رءوف بك، ناظر البحرية السابق وبكير سامي بك، من الوكلاء، للعرض على حضرتكم الإيضاحات، والتفصيلات الخاصة بمباحثاتنا المتعلقة برغباتكم، وبالموقف السياسي والشعبي بصفة عامة، والغايات التي تستهدفها تشكيلاتنا الشعبية ...وأقدم سلاماتي واحتراماتي المستمرة للأبد، إلى حضرة السلطان الذي يشعر بمدى صداقتي، وتبعيتي له التي أؤكدها له في كل زمان، على أمل ألا أستمر محروماً من شرف تمريغ الوجه في عتبة حضرة الخليفة التي تعلو حتى السماء. توقيع م. كمال".

وفي ٢٧ ابريل ١٩٢٠ أرسل برقية باسم الديوان تقول: "نحن نرتبط بعرشك ارتباطاً شديداً. وإذا كان جنود العدو قد دخلوا استانبول، فإننا مستمرون في الحرب، إن لم ينسحبوا من فوق تراب وطنك". وكانت برقيات الصحف تكتب في عناوينها الرئيسية "حضرة خليفتنا ذو الشأن، المخلص لوطنه"(١٦).

علم مكتب الاستخبارات الإنجليزية الذي في استانبول بأمر هذا الخطاب، وبمحتواه، فقام بإخبار لندن في تقرير مرسل في فبراير عام ١٩٢٠ بهذا الموضوع، إذ قال إن مصطفى كمال أرسل إلى السلطان خطاباً نيابة عن القوى الوطنية، وأنه طمأن السلطان عن هذا الموضوع، وأن السلطان رد ببرقية - عن طريق رئيس السكرتارية- على هذا الخطاب المرسل، ولكن محتوى الخطاب الذي أرسله السلطان لمصطفى كمال، لا يُعرف حتى اليوم(١٧).

ومنذ تلك اللحظة، تغير الهدف المقصود، وهو "إنقاذ السلطان والخليفة" ودخل في مرحلة أخرى، وصار الكلام يستهدف إنقاذ مقامي السلطنة والخلافة، وليس إنقاذ وحيد الدين الذي يعترف مصطفي كمال في خطابه المعروف باسم نطق، بأن الأمة لا يمكن أن ترفع راية العصيان ضد الخليفة؛ حيث كان الشعب التركي يرى في انتفاضته، أنه يؤدي واجبه من أجل الدين والأمة. وكان الجيش والأمة يهتمون بسلامة مقام الخلافة العالي والسلطنة أكثر

(16) Murat Bardakçı, “Şahbaba”, a.g.e. s.170 ,171

(17) انظر المرجع السابق،ص ١٧٢.

من اهتمامهم بسلامتهم، ولم يتصوروا إمكانية الخلاص والسلامة بدون السلطنة والخلافة. وأن من يبدي فكراً معارضاً ومخالفاً لهذا يُعتبر في الحال خائناً وكافراً ومرتداً[١٨].

وفي المرحلة التالية حدث تغير كبير في سياسة مصطفى كمال تجاه وحيد الدين، فبعد أن قال - في افتتاح جلسة مجلس الأمة التركي الكبير الأولى في عام ١٩٢٠ ، في خطبته الأولى التي ألقاها في المجلس والتي بدأها بإعلان خضوعه وعبوديته للسلطان وبالتلميح بأن السلطان هو الذي أرسله لبدأ حركة الإنقاذ[١٩]: "إنه توجه للأناضول حسب الرغبة السامية للسلطان[٢٠]. ولكون مقام السلطنة هو مقام الخلافة في نفس الوقت فإن سلطاننا هو رئيس لجمهوز المسلمين. وإن الغاية الأولى لجهادنا لا تستهدف الفصل بين مقام السلطنة ومقام الخلافة، بل تستهدف الإعلان للأعداء بأن إرادة الأمة ضدهذا الفصل، وتستهدف تخليص هذه المقامات المقدسة من الأسر الأجنبي لإنقاذ صلاحيات أولي الأمر من ضغط الأعداء"[٢١]. صار يقول بعد ذلك: "إن السلطان الخليفة، الواقع تحت الأسر والذي يلزم إنقاذه صار مع الزمن خائناً". وصار الكلام مختلف حتى أنه لم يعد يذكر المقامين، بل صار الكلام حول إنقاذ البلاد من وحيد الدين، وصار الحديث عن حالة دولة خالية من السلطنة والخلافة، وعن تخليص الدولة من السلطنة والخلافة نتيجة لهذه التغيرات[٢٢].

واشتدت تأثيرات سياسة الحركة الشعبية المناهضة لمعاهدة سيفر ولاستانبول، وبرزت أكثر أفكار مصطفى كمال التي اعتاد أن يقولها صراحة للمقربين منه في الأسابيع الأولى للحرب القومية، وكانت تدور حول الجمهورية وإمكانية تطبيقها.

وفي خريف ١٩٢٠ بدا مصطفى كمال مختلفاً عن مصطفى كمال الذي كان يقول منذ عدة شهور، في ٢٤ أبريل ومن نفس الكرسي، وفي مجمل حديثه عن السلطان، إنه "أقيم هدية من

---

(18) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٨

(19) هذه الخطبة نشرتها جريدة (أورطة دوغو) الصادرة في استانبول، بتاريخ ٢٩ نيسان ١٩٧٤

(20) من ملف وقائع الجلسة الأولى للمجلس بالأحرف العربية. هذا الاعتراف موجود في النسخة المكتوبة باللغة العثمانية، وعندما نُقلت إلى الحروف اللاتينية، أمر مصطفى كمال بحزف هذه العبارة، وهي عبارة تثبت أن وحيد الدين هو الذي أناط به مهمة تشكيل حركة مقاومة شعبية. انظر الرجل الصنم، مرجع سبق ذكره، ص١٧٣ ، ١٧٤.

(21) المرجع السابق، ص ١٦٦

(22) Murat Bardakçı, “Şahbaba”, a.g.e. s. ١٥٩

أجدادنا العظام". وكان يقول عن القرارات التي قيل له أن السلطان يتخذها ضده في استانبول: "أنا شخصياً لا أصدق أي شيء. فلو سمعت هذا الكلام من فم السلطان نفسه، كنت سأقول إنه فعل هذا نتيجة للضغط الذي يتعرض له"(٢٣).

وفي ٢٥ مايو ١٩٢٠ بعد معاهدة سيفر، بدأ الحديث في جلسات المجلس يتخذ إتجاهاً آخر، وانتهى عصر الكلام عن إنقاذ السلطان، وأصبح الحديث عن إنقاذ مقامي الخلافة والسلطنة، وإذا كان هناك بعض النواب لا يزالون مرتبطين بفكرة إنقاذ السلطان الأسير، واعتباره أساس الحرب القائمة في الأناضول، فإن مصطفى كمال أصبح يقول: "لا أرى داعٍ للاستغراق في مناقشة مسألة الخلافة والسلطنة المهمة جداً. فإن إنقاذ الخلافة والسلطنة هي أولى أولوياتنا. وإنني أرى أنه من أجل تحقيق الإنقاذ، يجب أن يكون هدفنا الأول هو حماية السلطنة، و مقام الخلافة الذي نرتبط به. ولا يجب أن نهمل هذا المقام الذي هو أساس الرباط الحقيقي الذي يربط بين العالم الإسلامي. ولا يمكن أن يؤخذ منا هذا المقام بالقوة. ومن أجل تحقيق الهدف فإننا بحاجة إلى قوى العالم الإسلامي. وإنني مقتنع بأنه لا يجوز فتح باب المناقشة حول هذه المسألة في مجلسنا الأعلى. ولكن للأسف! فمقام الخلافة والسلطنة يشغلها الآن رجل خان الأمة والدولة. فالرجل الذي يحمل لقب السلطان والخليفة خدع الأمة، وأحاط نفسه بمجموعة من المفسدين من أجل تسهيل الفساد. إن عدم التصدي لرجل بلغت به الجرأة على الفساد، وأحاط نفسه بالنظم الفاسدة، وتركه بلا محاكمة يصير من باب الغفلة، وليس من باب الحكمة. ولنأخذ هذا الأمر على عاتقنا ونحقق ما نريده، لأن أمتنا جبلت على الطاعة العمياء لهذا السلطان والخليفة. وإذا أخذنا هذا الأمر مأخذ الجد فسنقضي على آمال أعدائنا كلها سواء الإنجليز أو من معهم. لقد دأبت الأمة على تقديم فروض الطاعة العمياء بلا قيد ولا شرط لشخص يقال له السلطان والخليفة، فقد آن الأوان أن نحقق أهدافنا بأنفسنا، وأن نفعل ما نريد نحن. إن الرجل الأسير لا يكون سلطاناً. فإذا كان السلطان لا يستطيع أن يستخدم قوته وقدرته، فهنا لابد أن يكون الإلغاء. وبناءً على ذلك لا يجوز الانشغال بهذه المسألة. واليوم فإما أن نعترف بالسلطان، أو نحل آخر محله في

---

(23) قال مصطفى كمال بعد أسبوعين من الفتوى الخاصة بدري زادة، التي أعلن فيها أن مصطفى كمال عاصي. ولابد من إعدامه: "إذا سمعت هذا الكلام من فم الذات الشاهانية نفسه، سأقول إنه قالها نتيجة للضغط والتضييق عليه." انظر Murat Bardakçı, “Şahbaba”, a.g.e. s. ١٥٨

الحال. إننا نثبت لأي شخص أننا لم نُخرج مقام السلطنة والخلافة من رؤوسنا في أي وقت. إن هدفنا ليس معاداة أحد، بل هدفنا هو سعادة وسلامة وطننا والعمل من أجل استقلاله داخل حدود واضحة. ولذلك فإنه في اليوم الذي يتم فيه التنازل بدون اغتيالات أو أسر أو إقصاء، فإننا مستعدون للتفاوض مع أعدائنا. فإذا كانت القوة هى كل شيء؛ فلابد وأن نضع نصب أعيننا المسألة الأخلاقية، وأيضا نضع نصب أعيننا توازن القوة، فالضعيف لايمكن أن يحكم القوي. فإن القوة قبل أي شيء، وفي الدرجة الثانية تبقى الإنسانية والعدل وجميع المبادئ"(٢٤).

اتجاه مصطفى كمال لإعلان الجمهورية:

كان مصطفى كمال دائماً ضد السلطنة والخلافة، وقد اضطر أن يخفي تلك المشاعر ونجح في ذلك، ويتبين ذلك مما قاله في نطق عام ١٩٢٧: "كان شرطاً أساسياً أن نبقى صادقين ومرتبطين تماماً بالخلافة والسلطنة، وألا نتخذ وضعية خصومة ضد دول الحلفاء "، وكان يفكر في إلغاء السلطنة وإقامة نظاماً جمهورياً منذ عام ١٩١٧(٢٥).

لم يكن مصطفى كمال ثورياً فقط، بل هو دبلوماسياً خبيراً أيضا، وكان يعرف كيف يخفي أفكاره بمهارة حتى عن أقرب أصدقائه. وتعمد أن يخفي عداوته للإنجليز، كما تفادى أن يصطدم بالسلطان حتى قراره في ١ نوفمبر ١٩٢٢. وتوخى الحذر حتى لا يبدو أنه ضد السلطان الذي يحبه الشعب. وحاول السيطرة على الإنجليز وفريد باشا، وأن يتلاعب بالخلافات بينهما حتى يقضي على جانب فريد باشا. وكان يرسل الكثير من البرقيات التي تفيد ارتباطه بالسلطنة والخلافة، إلى السلطان وحيد الدين(٢٦).

كان مصطفى كمال ماهراً حيث كان يضع السلطان وحيد الدين وحكومة استانبول في قبضته. واستطاع أن يطوع عناد وحيد الدين، وفي نفس الوقت يضمر الكثير من الشرور تجاهه، لدرجة أنه في أثناء الهدنة اقترح إسقاط الحكومة في محاولة انقلاب، وحتى اقترح قتل

---

(24) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ١٠ و Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s.171-174

(25) Şükrü Tezer, "Atatürk'ün Hatıra Defteri", a.g.e. s. 132

(26) Gotthard Jaeschke,"Kurtuluş Savaşı ile ilgili İngiliz Belgeleri", Türk Tarih Kurumu Basımevi, Ankara 1971, s.122,123

وحيد الدين(٢٧).

وقد أفصح أصدقاء مصطفى كمال المقربين، الذين كانوا يقومون بكتابة مذكراته، عن توجهه الجمهوري، حيث قال مظهر مفيد بك في مذكراته التي احتوتها مجلدين، أن مصطفى كمال كان ينوي إعلان الجمهورية، فقد أخبره بينما هم في أرضروم، أنه سيعلن الجمهورية. وسجل مظهر مفيد هذه المعلومة. وعندما سأل محمود أسد بوزقورت، مصطفى كمال صديقه المقرب، عن متى سيعلن صراحة قراره بشأن إنشاء إدارة جمهورية - وكان ذلك في ٢٠ يوليو ١٩١٩- قال مصطفى كمال: "سأقولها صراحة، أنه عندما يأتي وقت مناقشة شكل الحكومة، فإن شكلها سيصير جمهورية"(٢٨).

كما قام مصطفى كمال بتعديل بعض مواد قانون التشكيلات الأساسية الذي وُضع في ٢٠ يوليو ١٩٢١، حيث أضاف إلى المادة الأولى جملة هي: "شكل الحكومة التركية هو شكل الجمهورية". وكذلك أكد أتاتورك في حديثه مع حسام الدين أرتورك وهو أيضا من أصدقائه المقربين، بقوله: "سوف نؤسس الجمهورية على كل الأحوال". والملاحظ أن هذه الملاحظات من مصطفى كمال قد قالها في عام ١٩٢١، وهو ما يوضح أنه كان يبيت النية على إعلان الجمهورية(٢٩).

صورة وحيد الدين كما وردت في خطاب مصطفى كمال:

يقول مصطفى كمال عن السلطان وحيد الدين في خطابه، إنه بعد انتهاء الحرب العالمية، وهروب الذين دفعوا بالبلاد إليها، خوفاً على حياتهم، كان وحيد الدين وهو الرجل الذي يشغل مقامي السلطنة والخلافة مذعوراً، يبحث عن إجراءات دنيئة تخيل أن يضمن بها حياته وعرشه فقط. وكانت حكومته برئاسة الصدر الأعظم، فريد باشا، عاجزة، وفاقدة اعتبارها، وخاضعة لإرادة السلطان فقط، راضية بأي وضع يمكن أن يحميها ويحمي أشخاصها. إن

(27) Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 196,197

(28) Mazhar Müfit Kansu, "Erzarum'dan ölümne Kadar Atatürk'le Beraber", c.1, Türk Tarih Kurumu basımevi, Ankara 1966 , s. 35 ,74

(29) Hasan Rıza Soyak, "Atatürk'ten Hatıralar", a.g.e. s. 182 ve Hüsamettin Ertürk, "İki Devrin Perde Arkası", Sebil Yayınları, İstanbul 1996, s. 442,443

قبول حماية ورعاية دولة أجنبية لا يعني سوى الحرمان من الوصف الإنساني والاعتراف بالعجز والمسكنة، ولا يمكن أن يُستبعد احتمال أن يأتي الذين انحدروا إلى هذا الدرك، بسيد أجنبي يضعونه فوق رؤوسهم طواعية[٣٠].

واتهم مصطفى كمال وحيد الدين، بأنه كان على رأس المتسببين لجمعية محبي الإنجليز[٣١] التي شكلها- على حد قوله في خطابه- هؤلاء من يدّعون أنهم محبي الإنجليز ولكنهم هم المحبون لذاتهم ولمنافعهم الشخصية، الذين يبحثون عن وسيلة لضمان حماية الإنجليز عن طريق حكومة (لويد جورج) دون التفكير فيما إذا كانت إنجلترا تأمل فعلاً في الحفاظ على دولة عثمانية منتهية ومن ثم حمايتها[٣٢].

فقد كانت دول الحلفاء في حالة اعتداء مادي ومعنوي على الدولة العثمانية، وتنوي القضاء عليها وتقسيمها. وحين كان السلطان والخليفة لا يفكر في شيء آخر سوى الوسيلة التي سيتمكن بها من إنقاذ حياته، ويضمن بها سلامته وكانت حكومته أيضا مثله، كان الشعب الذي صار يفتقر إلى الزعامة، متخبطاً ينتظر من ينقذه. وكان الجيش اسماً بلا جسم. والقادة الذين أرهقتهم الحرب مشغولين بالبحث عن وسيلة للخلاص، ولا يعلمون شيئاً عن خيانة السلطان والخليفة، بل كانوا مطيعين له نتيجة الروابط الدينية الراسخة في وجدانهم تجاه هذا المقام، ومن يحتل هذا المقام، ولذلك كانوا في سعيهم نحو الخلاص يفكرون بدافع الاعتياد الموروث في إنقاذ مقامي السلطنة والخلافة - التي أصبحت مجرد ألفاظاً بلا معنى- قبل إنقاذ أنفسهم. ولم يكن لديهم استعداداً لتقبل فكرة الخلاص بدون خليفة وسلطان، ومن كان يبدو معارضاً لهذا يوصف بأنه بلا دين وبلا انتماء وخائن ومرتد، ويشترك في هذا عامة الشعب وخواصه على حد سواء[٣٣].

---

(30) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٣

(31) تكونت جمعية محبي الإنجليز في استانبول في أغسطس عام ١٩١٩ م، وكان هدفها المحافظة على الرابطة التي تربط السلطان والخليفة العثماني بالإمبراطورية الإنجليزية التي تسيطر على أغلب مسلمي العالم، والاستفادة من هذه العلاقة في عمل الدعاية التي تحث المسلمين في المستعمرات الإنجليزية، والتعاون مع الوزراء في حكومة استانبول من أجل حث شعب الأناضول على المقاومة. انظر ماجدة مخلوف، الخلافة في خطاب أتاتورك، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣

(32) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٦

(33) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٨ ، ٩

ويصف مصطفى كمال، وحيد الدين والمحيطين به في خطابه، بأنهم مجموعة من المجانين، لا تربطهم بالوطن والشعب أي رابطة دينية أو فكرية. ولا ينبغي أن يكونوا في موقع المحافظ على استقلال الدولة والشعب، في الوقت الذي يبذل فيه الشعب كل أنواع التضحيات في سبيل تحقيق الاستقلال. ويرى أن العمل على استمرار السلطنة العثمانية سيلحق أكبر ضرر بالشعب التركي؛ لأنه لن ينظر بعين الثقة إلى هذا الاستقلال الذي تحقق(٣٤).

ويصور مصطفى كمال وحيد الدين في خطابه، بأنه صار خصماً للكفاح الشعبي، لا يؤمن جانبه منذ اللحظة الأولى لبداية هذا الكفاح الذي يُعتبر تطور طبيعي للتاريخ لا يمكن تجنبه. فهدف هذا الكفاح كان إنقاذ الوطن ومواجهة الاعتداء الخارجي، وكلما نجح الشعب في تحقيق هدفه، تحقق معه حكم الإرادة الشعبية، وهو ما اعتبره السلطان خطراً فسعى إلى تجنبه(٣٥). لذلك كان لابد من تحريض كل من الشعب والجيش على عصيان الحكومة العثمانية، وعصيان السلطان العثماني وخليفة المسلمين. ويشرح سبب قيامه بتشكيل مجلس الأمة الكبير، وهو وطأة الضرورة الناجمة عن أسر الخليفة والسلطان(٣٦).

ويتهم مصطفى كمال السلطان وحيد الدين بأنه خائن، وإنه أداة الأعداء ضد الوطن والشعب، وعندما يقول الشعب عن هذا الرجل إنه خليفة وسلطان(٣٧)، فلابد بالضرورة أن يكون مطيعاً لأوامره ومجبراً بالضرورة أيضا على تنفيذ ما يسعى إليه العدو من آمال. إن الرجل الخائن الممنوع من استخدام قدرة وصلاحيات مقامة، لا يمكن أن يكون في حد ذاته سلطاناً وخليفة(٣٨).

ويقول عن السلطان، إنه من المحزن التفكير في أن نرى مخلوق وضيع مثل وحيد الدين- رأى أن وجوده بين أمته خطر يهدد حياته وحريته- قائماً على رأس أي أمة ولو لمدة دقيقة

---

(34) المرجع السابق، ص ٩

(35) المرجع السابق، ص ١٠

(36) المرجع السابق، ص ٢٧٢

(37) كان الشعب بقلبه وعواطفه محافظاً على السلطنة والخلافة، وكانت الجمعية الوطنية تميل إلى إنشاء ملكية دستورية. انظر هـ. س. ارمسترونج، الذئب الأغبر، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٧

(38) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٣٥٢

واحدة. ومما يستحق الذكر أن هذا الوضيع ما زال مستمراً في دناءته، حتى بعد أن خلعه الشعب من مقام السلطنة الموروث. ولا شك أن مبادرة الشعب التركي بهذا الخلع أمر جدير بالتقدير[٣٩]. ويقول إن مجموعة وحيد الدين المكونة من توفيق باشا ومن هم على شاكلته، يرون أن من مصلحتهم التهالك على الأقدام البالية المنهارة لعرش ملوث، ولا يشغلها شيء سوى الترويج لمقاصدها الخفية[٤٠]. وهو يرى أن المجموعة العثمانية التي تحكم استانبول محرومة من الإدراك ومن الضمير. وأن الأسرة العثمانية اغتصبت سلطة الأمة التركية، واستولت على السلطنة بالقوة، واستمروا في هذا التسلط منذ ستة قرون، وقد وضع الشعب حداً لهؤلاء المغتصبين، وأخذ السلطة والسلطنة[٤١].

ويرى أتاتورك أنه بموجب نظام توارث سقيم، استطاع إنسان سافل أن يحرز لقباً عظيماً، ومقاماً رفيعاً. هذا الإنسان هوى بأمة أصيلة- لها من عزة النفس درجة عالية- إلى مثل هذا الوضع المخجل. باستطاعة أي مخلوق عاجز، عديم الحس، محروم من الإدراك، أن يقبل الدخول في حماية دولة أجنبية، لكن ليس من المقبول أن يحمل مخلوق كهذا صفة خليفة كل المسلمين. وإذا استمر في حمل هذه الصفة فسوف يؤدي بنا إلى أن نكون أسرى في بيوتنا، وأن تكون كل الشعوب الإسلامية أسيرة. ويصف الأمة التركية بإنها مثالاً للحرية والاستقلال، حيث استطاعت أن تقضي على لعبة الخلفاء الذين استباحوا كل أنواع الذل لكى يحافظ إنسان بوضاعة على حياته التي لا قيمة لها. ويقول إن الدول في علاقاتها مع بعض لايجب أن تولي أي أهمية إلى الأشخاص الذين بلغ بهم حد التدني أن يتسببوا في الإضرار بالدولة التي ينتسبون إليها على وجه الخصوص، و بالشعب، ولا يفكرون في شيء آخر سوى مكانتهم وحياتهم الشخصية. وإن وضع نهاية لعصر التعلق بنظام يعتمد على الهانيكانات في العلاقات بين الشعوب، يجب أن يكون التمني الحقيقي للعالم المدني[٤٢].

وعندما تم اختيار عبد المجيد أفندي خليفة، طلب منه مصطفى كمال أن يدين في البيان

---

(39) مصطفى كمال (غازي) نطق،مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٣ ،٤٢٤

(40) المرجع السابق، ص ٤٢٠

(41) المرجع السابق، ص ٤٢٤

(42) كانت كلمات مصطفى كمال تلك هي أساس إدعاء الخيانة الذي التصق بوحيد الدين حتى اليوم. انظر مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٣ ، ٤٢٤

الذي سيدلي به أمام العالم الإسلامي، تصرفات وحيد الدين صراحة. ولكن عبد المجيد اعتذر عن الخوض في الحديث عن أي أمر يتعلق بوحيد الدين، فاقترح مصطفى كمال أن يتناول البيان الحديث عن الشخصية المعنوية للخليفة السابق بدون ذكر اسم وحيد الدين صراحة، وأن يتناول الحديث عن الدرك الذي انحدر فيه الأتراك في عهده. ولكن عبد المجيد رفض ذلك أيضا، لأنه رأى أن ذلك سيمس سلوك وحيد الدين وسجاياه(٤٣).

تأسيس مجلس الأمة الكبير تمهيداً لإلغاء السلطنة:

في ١٦ مارس ١٩٢٠ وقع الاحتلال الكامل لاستانبول من جانب الإنجليز، وانفض مجلس المبعوثان، وسارت الأحداث في صالح مصطفى كمال الذي بدأ بإرسال البلاغات إلى جميع الولاة، وقادة الجيش، يخبرهم بانعقاد مجلس تأسيسي في أنقرة. وبعد خمسة أسابيع من انفضاض المجلس في استانبول - أي في ٢٣ أبريل ١٩٢٠- اجتمع في أنقرة باسم مجلس الأمة التركي الكبير. وكان المجلس يضم الأعضاء الذين هربوا من استانبول، والأعضاء المنتخبين من قبل بعض الولايات. أقنع مصطفى كمال- بصفته رئيساً لجمعية الدفاع عن الأناضول والروم إيلي- الشعب العثماني بصواب فكرة الانتخاب القائم على أسس أقوى من الأسس السابقة، وأقر المجلس التقرير الذي أعده مصطفى كمال، بتشكيل حكومة من بين أعضائه، وأن تكون للمجلس السلطة التشريعية والتنفيذية، وأن يضطلع بمهام الحكومة، ويكون رئيس المجلس رئيساً للحكومة. وبدأ استخدام اسم تركيا بشكل رسمي خلال اجتماعات هذا المجلس. وكان مصطفى كمال يعتبر نفسه رئيساً للدولة والحكومة، معتبراً الخليفة في أسر الإنجليز، ولهذا أجاز لنفسه أن يحتفظ مؤقتاً بكل حقوق السيادة على البلاد. وأخذ يباشر مسألة تعيين الموظفين في الأعمال التنفيذية والقضائية والإدارية، وتحويل جانب من هؤلاء الموظفين إلى الإدارات التي أستحدثها، وأصبح لكل نائب مندوب أو وكيل مكلف بالإشراف على الأعمال التنفيذية والتشريعية(٤٤).

وأخذ مصطفى كمال يوزع بيان افتتاح جلسة مجلس الأمة التركي على كل ولاية، ورئيس

---

(43) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٤ ، ٤٢٥

(44) كتاب الوطنية العثمانية، تأليف مدام بيرت جورج جوليس، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٤ و Afet İnan, "Türkiye Cümhüriyeti ve Türk Devrimi", T.T.K. Basımevi, Ankara 1973,s.69

بلدية، وعلى كل الوحدات العسكرية، وعلى مراكز هيئة (الدفاع عن الحقوق). وهذا البيان يتألف من ٦ مواد تشمل: "إعلان تاريخ افتتاح المجلس، وهو٢٣ ابريل عام ١٩٢٠، وتوجيه بأنه عندما تُتلى الأسماء السلطانية لمولانا، وسلطاننا، وخليفتنا، يجب أن تُتلى الأدعية من أجل خلاص حضرته السامية، ومن أجل خلاص بلده وخلاص رعيته. وأن تُعطى المواعظ حول ضرورة إيفاء كل فرد بالواجبات الوطنية التي سيكلف بها من قبل مجلس الأمة، وحول أهمية وقدسية كفاح الأمة في سبيل إنقاذ المقام العالي للسلطنة والخلافة، وإنقاذ الوطن المجزأ"[٤٥].

كان المجلس يتألف من ٣٨٥ مبعوثاً، منهم ١١٥ موظفاً، و٦٦ رجل دين، و٥١ عسكرياً، و٤٦ مزارعاً، و٣٧ تاجراً، و٢٩ محامياً، و١٥ طبيباً، و٨ شيخاً، و٦ صحفياً، و٥ أغا، و٥ رئيس عشيرة، ومهندسان. وانقسم المجلس في البداية إلى مجموعات صغيرة مثل مجموعة الاستقلال، ومجموعة الشعب، ومجموعة الإصلاحات. ثم أصبح المجلس جناحين فقط، وهما جناح مصطفى كمال وأنصاره تحت اسم (الدفاع عن الحقوق) الذين كانوا يرون أن الاستقلال لا يتم إلا مع تغيير بنية تركيا. والجناح الآخر هو الجناح المحافظ، وكان يضم رجال الدين، والنواب المتدينين، وكان يرى أن الوصول إلى الاستقلال يكون عن طريق تقوية الروابط الدينية، ويشكل فيه نواب الأرضروم مركز الثقل. وكان يضم ١٢٠ عضواً أي ثلث عدد الأعضاء، وكان زعيمه علي شكري، وهو ضابط ركن في البحرية ونائب طرابزون. ومن أبرز أعضائه الشاعر محمد عاكف. وقد استكمل هذا الجناح كيانه بشكل كامل بعد مرور سنة ونصف على افتتاح المجلس، لكن نشاطه انحصر في المعارضة الشديدة بالكلام فقط، ولم يستطع الاستمرار إلا إلى نهاية المجلس الأول. واختفى هذا الجناح بعد ذلك وتعرض زعيمه للاغتيال. وقد كان جناح علي شكري أول وآخر جناح للمعارضة ضد مصطفى كمال[٤٦]. ثم تحولت مجموعة الدفاع عن الحقوق إلى حزب الشعب. وقام المجلس

---

(45) كان العلماء من أعضاء المجلس يرون ضرورة استئذان السلطان قبل افتتاح المجلس لكي يكتسب المجلس صفة الشرعية، وأنه مادام السلطان لم يعين نائباً للسلطنة، كما أنه بصفته خليفة لم يعين وكيلا له في أمر الخلافة، في هذه الحالة تقوم وزارة الشرعية بمقام نائب السطان، ووكيل الخليفة في هذه الحكومة المؤقتة، وأن يكون المجلس بمثابة هيئة مشورة للخليفة. انظر Niyazi Berkes , "Türkiyede çağdaşma", a.g.e . s.490, 492 , 500

(46) الرجل الصنم، مرجع سبق ذكره، ١٤٦- ١٤٨، ١٥٢ – ١٨٧

بعد أسبوع من انعقاده بإصدار قانون الخيانة الوطنية، الذي اعتبر كل من ناهض الحركة الشعبية التي اندلعت في الأناضول خائناً للوطن. وتم قطع العلاقات مع استانبول. وكان هذا المجلس تمهيداً لإلغاء السلطنة، ونهاية الدولة العثمانية، وإعلان الجمهورية التركية(٤٧).

إلغاء السلطنة:

بعد انتصار مصطفى كمال على اليونانيين، وتوقيع هدنة مودانيا في ١١ أكتوبر ١٩٢٢(٤٨)، حاول الكماليون الاستيلاء على استانبول. وفي ٢٨ أكتوبر ١٩٢٢ دعا الإنجليز السلطان وحيد الدين أن يرسل وفداً إلى لوزان لبحث شروط الصلح، ورجوا منه أن ينقل الدعوة أيضا إلى مجلس الأمة في أنقرة. فأرسل توفيق باشا برقية إلى مصطفى كمال ضمنها أفكاره بخصوص التحرك معاً إلى مؤتمر الصلح في لوزان الذي دعت إليه دول الحلفاء. وعندما علم مصطفى كمال بعزم بريطانيا ودول الحلفاء دعوة حكومة استانبول أيضا للمفاوضات، غضب لأنه لا يريد أن يكون للدولة العثمانية أي وجود، وفكر في ضرورة إلغاء السلطنة للحيلولة دون اشتراك تلك الحكومة في المفاوضات حتى لا يكون هناك ممثلان عن تركيا، ويكون هناك خلاف في وجهات النظر، وحتى تكون حكومة أنقرة هي الممثل الوحيد في تلك المفاوضات. وبالفعل أصدر مصطفى كمال قانون الخيانة الوطنية، وتم فصل السلطنة عن الخلافة تمهيداً لإلغائها برغم المعارضة الشديدة(٤٩). ثم بعد شهرين من الانتصار تم إلغاء السلطنة في الأول من نوفمبر ١٩٢٢، وتجريد الخلافة من سلطتها الزمنية بقانون قدمه للمجلس، وأعلن بموجب هذا القرار نهاية الدولة العثمانية، وصار السلطان

---

(47) Şaban İba, “ordu- devlet-siyaset”, a.g.e. s.72

(48) بعد أن تمكن الأتراك من استرداد أفيون قره حصار في ٢٦ أغسطس عام ١٩٢٢، وهزيمة اليونانيين في دوملوبينار وانسحابهم، قاموا باحتلال أزمير وتحريرها من السيطرة اليونانية في ٩ سبتمبر ١٩٢٢. وفي ١١ أكتوبر ١٩٢٢ وقّعت اليونان هدنة مودانيا مع مصطفى كمال، وبموجبها تخلت له عن تراقيا. انظر Mehmet Arif Bey, “Anadolu İnkılabı”, Çelikcilt Matbaası, ARBA Araştırma Basım Yayın, İstanbul 1987, s. 82

(49) بعد تحقيق النصر رأى المعارضون من أعضاء المجلس ضرورة العودة إلى الإدارة المدنية، وربط هذه الإدارة بالباب العالي في استانبول لارتيابهم أن مصطفى كمال سيقوم بإلغاء السلطنة، وكان رءوف بك ورفعت باشا وعلى فؤاد باشا وجعفر طيار يؤيدون الخلافة والسلطنة. انظر مصطفى كمال (نطق)، مرجع سبق ذكره، ص ٤١٥ – ٤٢١.

وحيد الدين من وجهة نظر أنقرة حائزاً فقط على صفة "الخليفة". ورفض السلطان وحيد الدين ذلك لأنه يعلم أنه لا يجوز شرعاً ألا يكون الخليفة - الذي يرعى شئون المسلمين جميعاً- صاحب سلطة كبيرة، وأفاد بهذا بوضوح لرفعت باشا، الذي جاء نيابة عن القوة الشعبية إلى استانبول حيث قال له: "لا يستطيع عزلي من منصبي إلا موكلي ذو الشأن[٥٠]، وأبدى بوضوح أنه لا يعترف بهذا القرار[٥١]. وبعد ٢٠ يوماً من إلغاء السلطنة تم عقد مؤتمر الصلح في لوزان في ٢٠ نوفمبر ١٩٢٢، وكان رئيس الوفد عصمت باشا، وزير الخارجية والممثل الثاني هو الدكتور رضا نور، وزير الصحة[٥٢]. وبعد إلغاء السلطنة صار اسم "الدولة العثمانية" الذي استخدم لقرون طويلة في ذمة التاريخ، وحل محله اسم "تركيا"[٥٣].

أسباب إلغاء السلطنة كما وردت في الخطاب:

بعد تحقيق النصر في حرب الاستقلال، كان أتاتورك يؤكد حرصه على الخلافة والسلطنة، ولم يعلن هدفه الذي يريد تحقيقه، حتى إنه عندما أُنتخب رئيساً للهيئة التمثيلية

---

(50) قالت صحيفة (مشرق) التي تصدر في (كوهينور) في الهند: "إن فصل السلطنة عن الخلافة، غلطة ارتكبها مجلس أنقرة لأنها لا تستند على أي قاعدة شرعية. فالأصول التي بُني عليها انتخاب الخليفة، لاتخول فصل الخلافة عن السلطنة أصلاً". وكتبت جريدة القبلة تقول: "إن تجريد الخليفة من سلطته الزمنية يجعل المصالح الدينية تابعة لمصالح الدولة، وفي هذا اعتداء على أهم مبادئ الديانة الإسلامية، وأقوى الحجج التي يدلي بها هؤلاء هو أن الخليفة ليس فرد مثل البابا وإنما هو حاكم وخليفة، وإذا جرد الأتراك الخليفة من السلطة الزمنية، يصير من العبث أن يقولوا له (إنك الآن خليفة وإن لم تكن لك سلطة زمنية)، إذ بدون السلطة الزمنية لا يستطيع الحاكم أن يكون خليفة". انظر جريدة القبلة، العدد ٦٥٦، ٢٩ يناير ١٩٢٣ - ١٢ جمادى الثانية ١٣٤١ ص ١ نقلاً عن صحيفة (مشرق) الهندية، العدد ٥٠ بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٩٢٣.
ونفس الجريدة العدد ٦٤١ السنة السابعة، ٤ ديسمبر ١٩٢٢ - ١٥ ربيع ثاني ١٣٤١ . ص ٣
- جريدة القبلة هي جريدة دينية، سياسية، اجتماعية تصدر في مكة الكرمة.
- يرى شيخ الإسلام، مصطفى صبري أفندي أن الخلافة عن رسول الله هي التزام بأحكام الشرع الإسلامي، ومن يتولى حكم المسلمين هو خليفة عن الرسول، وإلغاء الخلافة معناه التخلي عن هذا الالتزام، وعزل للدين عن الدولة، وإلغاء سلطته عليها، وهذا ما حدث بالفعل؛ إذ بعد إلغاء الخلافة في تركيا تم تشكيل حكومة لا دينية (علمانية). انظر مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، مرجع سبق ذكره، الجزء الرابع، ص ٣٢٢ ، ٣٢٣.

(51) İsmail hakkı okday, "Yanya'dan ankara'ya", a.g.e. s. 293

(52) مصطفى كمال (نطق)، مرجع سبق ذكره، ص ٤١٥ - ٤٢١ .

(53) Reşad Ekrem Koçu, "Osmanlı Padişahları", a.g.e. s.441

قال هذا الدعاء: "ندعو الله المتعالي، واجب الوجود بحرمة الحبيب الأكرم، أن يحفظ أمتنا النجيبة المدافعة عن الوطن المبارك، والحارسة الأمينة للدين الأحمدي، الجليل، إلى يوم القيامة، وأن يحفظ مقام السلطنة والخلافة الكبرى، وأن يحفظ هيئتنا الملقاة على عاتقها الحفاظ على مقدساتنا.... أمين". وحتى يحقق مصطفى كمال هدفه في القضاء على السلطنة والخلافة، بدأ بتحريض الأتراك ضد السلطنة العثمانية لأن السلطان العثماني في رأيه أصبح :"خصماً لا يؤمن جانبه لحركة الكفاح الوطني" و"خائناً للشعب التركي"، و"هو الأداة التي يستخدمها الأعداء ضد الوطن والشعب"، ثم عمل على فصل الخلافة عن السلطنة، ثم ألغى الخلافة بعد ذلك(٥٤).

أعرب مصطفى كمال في خطابه عن احترامه لمقام الخلافة، ثم شرح الأسباب الموجبة لفصلها عن السلطنة حيث قال: "إن الدولة العثمانية لم يبق لها في نظر العالم أية قيمة، وصارت خارج نطاق القوانين الدولية، وكان من المفترض أن يتم وضعها تحت الوصاية الدولية، فقد وجد الأتراك أنفسهم في مواجهة العالم وجهاً لوجه برغم عدم مسئوليتهم عن أخطاء الماضي"(٥٥). كان مصطفى كمال يرى أن مقدرات الشعب لا توضع في يد فرد بشكل مباشر من خلال السلطنة والحاكمية الفردية، إنما من خلال مجلس الأمة التركي الكبير، الذي يمثل السلطنة والحاكمية الشعبية. وأبرز في خطابه أن تخفيف الخليفة من أعباء الحكم، سيساعد على إبراز عزة وشموخ الرابطة الروحية التي تربط الأتراك بالعالم الإسلامي، وأن الخليفة سيظل رفيع المكانة في تركيا، ويستند على دولة تركية يقوم فيها مجلس الشعب مقام السلطنة.

وشرح مصطفى كمال في خطابه خطواته التي اتخذها من أجل إلغاء السلطنة، فرأى أنه من الضروري التعرض للقضايا التي لم يألفها الشعب بالتدريج حتى يضمن تطبيق قراره الذي اتخذه وهو إلغاء السلطنة، وأن الضرورة اقتضت طرح المسائل التي يرى أن هناك محاذير كبيرة لدى الشعب تحول دون طرحها للمناقشة. فبدأ بتحريض الشعب والجيش على عصيان الحكومة والسلطان العثماني. وكان مصطفى كمال يرى أنه يجب على الشعب أن يتصدى بالسلاح للذين يعتدون على موطن أجداد الترك، وعلى استقلال الترك أياما كانوا،

(54) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ١٠ ،١١، ٣٥٢

(55) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٨

والصراع معهم. وكان يرى أنه من غير المناسب إظهار هذا القرار المهم منذ اليوم الأول، أو التعبير عن حتمية وضرورته. فكان من الضروري تقسيم تطبيقات هذا القرار إلى مجموعة صفحات، وتهيئة مشاعر الشعب، وأفكاره، مع الاستفادة من الوقائع ومجريات الأمور، والسير نحو الهدف خطوة خطوة. ومن أجل تسهيل بعض عُقَد التردد المحتمل وجودها في الأذهان، تحدث عن الكفاح الشعبي الذي يراه بمثابة تطور طبيعي للتاريخ لايمكن تجنبه، يهدف إلى خلاص الوطن، ومواجهة الاعتداء الخارجي. ويرى أنه كلما اقترن هذا الكفاح الشعبي بالتوفيق، أدى إلى تحقيق كل أسس وأشكال حكم الإرادة الشعبية بالتدريج، وأن السلطان الذي صار منذ اللحظة الأولى خصماً للكفاح الشعبي، صار لايؤمَن جانبه، وأنه هو شعر منذ اللحظة الأولى بهذا التطور التاريخي المقدر، لكنه لم يستطع أن يعبر عن هذا الإحساس صراحة. ويقول أنه خاض كفاحاً حقيقياً، ومادياً، ماهيته تفوق التصور. فقد كان هناك خطر خارجي قادم يحمل في طياته الكثير من التغيرات المتوقعة، وأمام هذا الخطر الخارجي، كان يخشى من روح المقاومة لهذا الخطر الذي ينطوي على تغيرات مغايرة للأعراف، ومن الاستعداد الفكري، والحالة الروحية للشعب. ولذلك رأى أن الطريق العملي والمضمون للنجاح هو تطبيق كل مرحلة عندما يحين وقتها. وكان يرى أن هذا هو طريق السلامة لرقي ورفعة الشعب، وكان هذا هو الإطار الذي تحرك فيه في البداية(٥٦).

اعتبر مصطفى كمال تلك المرحلة عبارة عن فترة انتقالية، يمكن بها الانتقال من عهد السلطنة إلى عهد الجمهورية. وقد حدث صراع في هذه الفترة بين فكرين أحدهما يرى العمل على استمرار عهد السلطنة، والآخر يرى ضرورة تأسيس الحكم الجمهوري وإلغاء السلطنة، وكان هو من مؤيدي هذا الفكر. واضطر إلى إبعاد أفكار المؤيدين للسلطنة عن ساحة التطبيق، حتى يستطيع تطبيق أفكاره هو عندما يحين الوقت المناسب. وعندما تم وضع قانون المؤسسات الرئيسية، أصر مؤيدو السلطنة على توضيح حقوق السلطان والخليفة وصلاحياته. فكان لا يتحدث في هذا الموضوع على اعتبار أن الوقت ليس مناسباً لمناقشة مثل هذه الأمور. وكان يسعى إلى جعل إدارة الدولة تتمركز في إطار الحاكمية الشعبية بالشكل الذي يتجه دوماً نحو الجمهورية، بدون الحديث عن الجمهورية بشكل مباشر. وكان يحاول

---

(56) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ١٠

إثبات أنه يمكن إدارة الدولة بدون وجود منصبي السلطنة والخلافة. وكان يصر على الإيحاء بأنه لا توجد سلطة أكبر من سلطة مجلس الأمة الكبير، ولذلك أحال مهام رئاسة الدولة إلى رئيس المجلس. وعندما كان أنصار السلطنة يعترضون، لم يكن يفصح عن هدفه الحقيقي، بل يدلي بإجابات تتناسب مع مقتضيات الوقت(٥٧).

ويقول مصطفى كمال إنه عندما دعته دول الحلفاء في ٢٨ أكتوبر عام ١٩٢٢ إلى مؤتمر الصلح الذي انعقد في لوزان، كانت هذه الدول تريد الاعتراف بحكومة قائمة في أنقرة، لذلك دعتها مع السلطان إلى المؤتمر. وهذه الطريقة في الدعوة المشتركة أدت إلى اتخاذ إجراء إلغاء السلطنة الفردية. فتم بموجب القانون المؤرخ في ١ نوفمبر الفصل بين السلطنة والخلافة، وتم تأييد السلطة الملية أو الشعبية التي كانت تباشر الحكم فعلاً منذ فترة تجاوزت العامين ونصف العام، بينما تُركت الخلافة لفترة أخرى دون أن يكون لها حقوق صريحة(٥٨).

بدأت المناقشات في المجلس حول مسألة الفصل بين السلطنة والخلافة في ٣٠ أكتوبر عام ١٩٢٢، وتم الحديث عن حقيقة الحكومة العثمانية التي تحكم استانبول، والتي كان يراها البعض داخل المجلس، عبارة عن مجموعة من الناس محرومة من الإدراك، والضمير. وطالبوا بأن تُتخذ الإجراءات القانونية اللازمة تجاه هؤلاء الرجال "الذين وقّعوا على الهوية التاريخية للباب العالي، والذين ارتبطوا به أكثر من أي شيء آخر". وتمت قراءة تقارير خاصة بضرورة معاقبة هؤلاء الرجال الموصومين باسم وشعار الحكومة في استانبول، بموجب قانون الخيانة الوطنية.

وتم إعداد تقرير يفيد انقراض الدولة العثمانية، وميلاد الدولة التركية الجديدة. إذ يفيد هذا التقرير: أنه بموجب قوانين المؤسسات الرئيسية الجديدة، يصبح الشعب صاحب الحق في إدارة دفة الحكم. ووقّع على هذا التقرير ما يزيد على الثمانين من "الأصدقاء"، بالإضافة إلى توقيع مصطفى كمال نفسه. وعند قراءة هذا التقرير كان هناك شخصان اتخذا موقف المعارضة الجادة له، وهما الميرآلاي صلاح الدين بك، نائب مرسين وضيا خورشيد بك، الذي أُعدم في أزمير. فقد أظهرا بوضوح أنهما غير مقتنعان بإلغاء السلطنة.

---

(57) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ١١

(58) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٠

وفي يوم ٣١ أكتوبر ١٩٢٢ اجتمعت مجموعة (الدفاع عن الحقوق)، وعرض مصطفى كمال في هذا الاجتماع البيان الخاص بضرورة إلغاء السلطنة العثمانية. وفي اجتماع المجلس في اليوم الأول من نوفمبر عام ١٩٢٢، طُرحت نفس المسألة لمناقشات طويلة، وقام مصطفى كمال بعرض بيان مفصل حول هذا الموضوع . وأوضح - مستنداً على الوقائع التاريخية، وباحثاً في تاريخ الإسلام والترك - إمكانية الفصل بين السلطنة والخلافة، وأن يكون مجلس الشعب التركي الكبير، صاحب مقام الحاكمية والسلطنة الشعبية. وأوضح أيضا أن الخلافة قد انتهت بالفعل من على وجه الأرض، بإعدام هولاكو للخليفة المعتصم. وأنه إذا كان السلطان سليم الأول قد حكم مصر عام ١٥١٧ ولم يبدِ اهتماماً للاجئ هناك يحمل لقب الخليفة، فلا يوجد إذن لقب خلافة موروثاً إلى يومنا هذا(٥٩).

وتم تحويل التقارير المتعلقة بمسألة فصل الخلافة عن السلطنة إلى ثلاث هيئات: وهي (هيئة المؤسسات الرئيسية) و(هيئة الشرعية) و(هيئة العدلية)، واجتمعت الهيئات الثلاث في مكان واحد، وأُنتخب لرئاستها الشيخ مفيد أفندي، وبدءوا في مناقشة الموضوع. أوضح الشيوخ - أعضاء الهيئة الشرعية- أنه لا يمكن فصل الخلافة عن السلطنة، وعندما وصلت المناقشة إلى طريق مسدود، أخذ مصطفى كمال الكلمة من رئيس اللجنة المشتركة، وصعد فوق المقعد الذي أمامه وقال: "أيها السادة، إن العلم يقول: إن السلطة والسلطنة ليستا هبة أو منحة من أحد إلى أحد، ولا تُمنحا بالمناقشة والمباحثة. السلطة تُنتزع بقوة وقدرة السلطنة. لقد اغتصبت الأسرة العثمانية سلطة الأمة التركية، واستولت على السلطنة بالقوة، واستمروا في هذا التسلط منذ ستة قرون. أما الآن فإن الشعب التركي بصدد وضع حد لهؤلاء المغتصبين، وقد أعلن الشعب العصيان، وأخذ الشعب بالفعل السلطة والسلطنة، وهذا أمر واقع. وموضوع المناقشة ليس هو: هل سنترك للأمة السلطة والسلطنة أم لا؟ فهذا الأمر أصبح أمراً واقعاً، وحقيقة معلومة. وإذا نظر كل واحد إلى المسألة على إنها مسألة طبيعية، فسيكون متفقاً معي في الفكر. وإذا جرى الأمر على عكس ذلك، فسيتم صياغته في دائرة القواعد المرعية أيضا، لكن من المحتمل أن بعض الرؤوس سوف تُقطع"(٦٠).

---

(59) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢١

(60) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢١ ، ٤٢٢

وبعد كلمة مصطفى كمال، تم وضع لائحة القانون بسرعة، وتُليت في الجلسة التالية في نفس اليوم. واعتلى مصطفى كمال المنصة للاعتراض على مسألة أخذ الرأي بالأسماء، حيث رأى أنه لا حاجة إلى ذلك، لأن المجلس سيوافق بالإجماع. وبعد أن ارتفعت الأصوات بالرأي، قال الرئيس: موافقة بالإجماع، وأُسكتت الأصوات المعارضة. وكانت هذه الجلسة، هي الصفحة الأخيرة من مراسم انهيار وانقراض السلطنة العثمانية(٦١).

"وكان هذا هو ما تلقاه السلطان وحيد الدين، من الرجل الذي أرسله إلى الأناضول وقال له (يا باشا إنك تستطيع إنقاذ الدولة)، وهذا ما أصابه بعد ثلاث سنوات من الانتظار في غرفته الخاصة، متابعاً حرب الاستقلال ليلاً ونهاراً على خريطة مجسمة للأناضول، واضعاً عليها إشارات الأعلام، وداعياً لها من كل قلبه بالنصر. وهذا هو ما أصاب هذا السلطان الذي أمر قواته المتوجهة لحرب جيش القوات الملية- والذي ما رضي بهذا إلا لتمويه قوات الحلفاء - بأن لا تبدي أية مقاومة حقيقية، وأن تتقهقر من أول ضربه، هذا السلطان الذي لم ينحرف أبداً إلى استخدام قوات الأعداء"(٦٢).

- يقول قدير مصر أوغلي: "إن إلغاء السلطنة تحقق نتيجة لتهديدات مصطفى كمال". انظر Kadir Mısıroğlu, “bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin”, a.g.e. s.323,324

(61) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٢

(62) الرجل الصنم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦١.

الفصل الخامس

رؤية الكماليين للسلطان محمد وحيد الدين

من هم الكماليون:

يُطلق لفظ الكماليين على مجموعة الضباط الذين كانوا تحت قيادة مصطفى كمال أثناء حرب الاستقلال[١]. فعند خروج مصطفى كمال من استانبول متوجهاً عن طريق البحر إلى

---

(1) حرب الاستقلال: هي الحرب التركية اليونانية التي اندلعت نتيجة السياسة الاستعمارية التي أراد الحلفاء تطبيقها، وكان سبب هذه الحرب استيلاء اليونان غير المبرر على الأناضول بموافقة مجلس الحلفاء الأعلى، الذي أراد أن يخرج من المأزق الدبلوماسي الناتج عن الاتفاقيات السرية، التي تمت خلال الحرب العالمية الأولى. فقد كانت اليونان تطالب بالحصول على تراقيا الشرقية الغربية حتى البحر الأسود، وقد وافق الحلفاء على هذه المطالب حتى تفصل الأراضي اليونانية بين تركيا، والدول الأوروبية الأخرى. كما طالبت اليونان بولاية إزمير في غرب الأناضول، وساندت بريطانيا هذه المطالب لجعل اليونان أداة لحماية مصالحها الخاصة بالمضائق، ومواجهة الحركة الشعبية في الأناضول حتى لا تقتدي بها باقي الدول. وجاء التصدي للفرنسيين والأرمن في مرعش وعينتاب وأورفة وأضنه، من حركات جماهيرية وشعبية دعمتها القوات الملية، وهي القوات التي حاربت اليونانيين قبل افتتاح المجلس الوطني، وكانوا خليطاً من الجنود ومن الأهالي المدنيين. وبعد افتتاح المجلس، بدأت الجيوش النظامية التصدي لليونانيين وانتهى دور الحركات الفدائية. وتتشكل حرب الاستقلال من أربعة مراحل: معركة إينونو الأولى التي وقعت في ١٠ يناير ١٩٢١ رداً على الهجوم الذي شنه اليونانيون في ٦ يناير ١٩٢١، وانتهت بالانتصار. وبهذه المعركة انتهى دور القوات الشعبية وتم تشكيل الجيش. وكانت توجد في تلك الأثناء وزارة توفيق باشا في استانبول. ومعركة إينونو الثانية التي كانت أصعب من المعركة الأولى، وكانت إضافة لها وتم الانتصار فيها أيضا. ومعركة صقاريا التي وقعت بعد ثلاثة شهور من معركة إينونو الثانية في ٢٣ أغسطس ١٩٢١، وكان هدف اليونانيين في تلك المعركة تجميع صفوفهم للهجوم على الجيش القومي. وكانو يتفوقون عليه في العدد والعتاد، ولذلك انسحب الجيش في البداية أمام القوات اليونانية، وتم تعيين مصطفى كمال قائداً عاماً بصفة استثنائية أثناء هذه المعركة. وعندما لم يتحقق هدف اليونانيين بعد هجوم دام ١٠ أيام بدءوا في التراجع. وكانت معركة دفاع وليس هجوم، وبعد ٢٠ يوماً من بداية المعركة في ١٣ سبتمبر ١٩٢١، تحقق النصر للأتراك، ومُنح مصطفى كمال لقب الغازي، ورُقي لرتبة المارشال، وأصبح القائد العام للجيش بصفة دائمة. بعد انتصار صقاريا بدأت المساعي السياسية، وتم توقيع مذكرة تفاهم مع أنقرة في ٢٠ أكتوبر ١٩٢١. وحضر المباحثات التي جرت بين الأتراك والفرنسيين، مصطفى كمال، وعصمت اينونو، ويوسف كمال، وكيل الخارجية، وتم استرداد أضنة بموجبها، ثم تقرر عقد مؤتمر في باريس لحل مسألة الأناضول. وطُرح في تلك الأثناء في المجلس، فكرة استدعاء ولي العهد عبد المجيد أفندي لجعله زعيماً لهم، وعندما جاء الأمير عمر فاروق ابنه بدلاً من أبيه، طلبوا منه العودة إلى استانبول. ثم وقع الهجوم الكبير، حيث بدأ اليونانيون يدعمون صفوفهم، وقواتهم التي في تراقيا بهدف الاستعداد لاحتلال استانبول. في تلك الأثناء حدث عصيان بين الوحدات اليونانية، وانشغل الجيش بالسياسة وبدأ ينهار. وفي أغسطس ١٩٢٢ بدأ الهجوم الكبير بقيادة على إحسان باشا الذي رسم خطة الهجوم، والجيش الثاني بقيادة شوقي باشا، وقائد الجبهة عصمت باشا، ورئيس الأركان فوزي باشا.

سامسون - التي وصلها في ١٩ مايو ١٩١٩- اصطحب معه ١٨ قائداً عسكرياً، اختارهم لمساعدته لكي يتصدى لليونانيين المحتلين بناءً على توصية السلطان وحيد الدين[٢]. فقد كان تحت قيادته، العقيد كاظم بك الهانسترلي، رئيس أركان التفتيش، والعقيد رفعت بك، قائد الفيلق الثالث، وأصبح فيما بعد الجنرال رفعت باشا الذي كان على رأس القوة الوطنية التي دخلت استانبول بعد الانتصار على اليونانيين. والمقدم عارف بك، الرئيس الثاني لأركان التفتيش، والذي شُنق أثناء محاولة اغتيال مصطفى كمال في إزمير. والرائد خسروبك، المدير الأول لشعبة التفتيش، الذي أصبح فيما بعد نائباً وسفيراً. والنقيب جواد بك، باش ياور التفتيش. والمقدم الدكتور ابراهيم تالي، رئيس صحة التفتيش، والذي أصبح فيما بعد نائباً. والرائد الدكتور رفيق بك، مساعد رئيس صحة التفتيش، والذي أصبح فيما بعد نائباً ثم وزيراً للصحة ثم رئيساً للوزارة. وعلي فؤاد باشا، وكان قائداً للفرقة العشرين في أنقرة، ورءوف بك، وزير البحرية السابق. وباقي المرافقين الذين كانوا مع مصطفى كمال عند سفره إلى سامسون، وكان من بينهم النقيب إسماعيل حقي، صهر السلطان وحيد الدين[٣].

جهود السلطان وحيد الدين لإصلاح الجيش

في البداية حاول السلطان وحيد الدين السيطرة على الجيش، وتصفيته من الاتحاديين. فانتهج عدة سياسات تهدف إلى بناء جيش موالي للسلطنة العثمانية، فنزع من رئاسة الأركان كافة أجهزتها السرية، وقام بتحويلها إلى مكتب فني. وألغى التشكيلات المخصوصة التي

ولعب كاظم قره بكير دور المنقذ لمعركة الاستقلال بالقوات التي جلبها معه من الشرق. وانتهى هذا الهجوم بالانتصار في ٩ سبتمبر ١٩٢٢، وتم تحرير الأناضول، وإزمير، وبورصة من اليونانيين، ووصلت القوات القومية حتى استانبول، وأدرنة، ثم تم توقيع هدنة مودانيا. انظر

- Arnold J. Toynbee, "Türkiye,Bir Devletin Yeniden Doğuşu", c 11, a.g.e. s. 9
- Arnold J. Toynbee, "The Western Question in Greece and Turkey", Houghton Mifflin Company, New York 1922, p.71
- Mehmet Arif Bey, "Anadolu İnkılabı", a.g.e.s. 60 – 82

-الرجل الصنم ، مرجع سبق ذكره ص ٢٢١.

(2) Fethi Tevetoğlü,"Atatürk'le Samsun'a Çıkanlar", Atatürk ve Çevresi Yayınları, Ankara, 1971 s.16

(3) Mehmet Arif Bey, "Anadolu İnkılabı", a.g.e. s.25

- انظر ملحق الوثائق ص 297، الوثائق أرقام (٢٦- ٢٩) ص 323 – 326

كانت بمثابة أجهزة مخابرات. وقام بتشكيل هيئات النصيحة وأرسلها الى المناطق التي اندلعت فيها الاضطرابات في الأناضول بصفة خاصة. وقد تشكلت من صفوة المجتمع العثماني، وعدد من الأعضاء غير المسلمين، وكان هدفها توحيد كافة العناصر العرقية، والدينية، وبحث الحالة الاقتصادية في الأناضول، ومعرفة احتياجات الأهالي هناك(٤). كما قام السلطان وحيد الدين بعد تسريح الجيش(٥) بموجب هدنة موندروس بإعادة تنظيم تشكيله، فقد استغل عدم تطرق المادة الخامسة من معاهدة موندروس إلى تشكيلات الجيش الداخلية، واكتفائها بتقليص عدد العسكريين، فتقدم بطلب إلى الجنرال ويلسون في ٢ يناير ١٩١٩، يطلب فيه إعادة تنظيم تشكيل الجيش ليتألف من ٩ فرق وعشرين مجموعة. وبذلك استطاع إعادة الضباط إلى هذه الوحدات فيما بعد. وحافظ على كادر الضباط بشكل سري لأنه نواة الجيش. وقام بتشكيل لجنة التدقيق والتصنيف التي مهمتها تحديد أفضل ضباط الجيش العثماني، وجعلهم بعيداً عن عملية تسريح الجيش، وحددت اللجنة عدد ٢٥٠٠ ضابطاً(٦). وقام بتشكيل مفتشيات الجيش، ومنها مفتشية الجيش التاسع الذي عين مصطفى كمال رئيساً لها. وكانت مفتشيات الجيش تتولى مهام قيادات الجيش العثماني التي أُلغيت بموجب أحكام هدنة موندروس، وكانت تعني بشئون التدريب العسكري وجمع الأسلحة والذخائر والمعدات في المخازن والعمل على حمايتها. وتبدو هذه المفتشيات كتشكيلات

(4) Zekeriya Türkmen, “Mütareke Döneminde Ordunun Durumu ve Yeniden Yapılanması (1918-1920)”, Türk Tarih Kurumu, Ankara 2001, s. 33,90

(5) تم تسريح الجيش العثماني فيما عدا وحدات حرس الحدود، بموجب معاهدة موندروس، بناءً على المادة الخامسة من المعاهدة. فتم تسليم الأسلحة، ووضع السفن الحربية تحت إدارة دول الحلفاء. ولكن الدولة العثمانية لم تلتزم بهذه المادة التزاماً تاماً، وقررت إدارة عملية تسريح الجيش مما يتيح لها تشكيل حركة مقاومة قومية، فتباطأت في عملية تسليم الأسلحة، وقامت بإرسال العسكريين والأسلحة والذخائر سراً إلى الأناضول. وقام الجيش بإخفاء ممتلكاته الأخرى مثل الخيول، وغيرها وبيعها للتجار والأهالي. وقد التزمت الدولة بالسرية التامة في تنفيذ هذه السياسة التي لم تكشفها دول الحلفاء. انظر:

Fahrettin Altay, “On Yıl Savaş ve Sonrası”, İnsel Yayınları, İstanbul 1970, s.152

(6) طارق عبد الجليل السيد، "دور المؤسسة العسكرية في الحياة السياسية في تركيا المعاصرة على ضوء المصادر التركية"، رسالة دكتوراة. قسم اللغات الشرقية، فرع اللغة التركية. كلية الآداب، جامعة عين شمس ٢٠٠٨، ص٤٨

تأسست من أجل تطبيق أحكام الهدنة، ولكن بالنظر إلى تطبيقاتها وإلى إجراءات الضباط القائمين عليها، نجدها أهم تشكيلات تأسست في هذه الفترة، استهدفت تحرير الوطن التركي من الاحتلال(٧).

وكانت جميع الفرق العسكرية في الأناضول عبارة عن وحدات غير متكاملة بلا تجهيزات أو أسلحة. وكانت ألوية هذه الفرق مبعثرة بين سامسون وآماسيا وطرابزون. وصارت هذه الوحدات تحت الأمر المباشر لمصطفى كمال بعد ذهابه إلى سامسون، حيث كانت له صلاحية إصدار التعليمات إلى الوحدات العسكرية، وإلى الموظفين المدنيين، والإداريين لكونه يحمل في جيبه فرماناً أي قراراً سلطانياً بهذا الخصوص، وهو القرار الذي حصل عليه من السلطان، لأن المهمة الخطيرة التي سيقوم بها كانت تحتاج إلى مثل هذه الصلاحية الاستثنائية. وقد مكنه هذا القرار من الاتصال برقياً بجميع الجهات، وهذه الصلاحيات الاستثنائية تشكل دليلاً على أن السلطان هو الذي أرسله إلى الأناضول للقيام بالثورة الملية(٨).

رؤية الكماليين للسلطان وحيد الدين:

عندما وصل مصطفى كمال إلى سامسون، جمع أخلص رفاقه من القادة أمثال كاظم قره بكير باشا، ورفعت باشا، وعلى فؤاد باشا، ورءوف أورباي حوله، وطلب منهم منحه ثقتهم من أجل خوض الحرب للحصول على الحرية والاستقلال. فأعلنوا جميعهم ثقتهم المطلقة به، وتعهدوا أنهم سيكونون له أتباعاً مادام يخدم الوطن، ويضحي في سبيله. ولكنهم اشترطوا عليه شرطاً واحداً: وهو ألا يقوم بعمل من الأعمال فيه مساساً بحقوق السلطان، أو تجريحاً له. وأكدوا له أنه ينبغي أن تكون الخلافة فوق كل شيء، وألا تُمس السلطنة بضير، فأكد لهم ما يريدون "لأنه لم يجد مفراً من هذه التأكيدات". وحتى الأهالي، والموظفين الذين انضموا إليه، كان ذلك بدافع أنهم يخدمون السلطان ويحافظون على العرش المهدد(٩).

وعندما أعلن مصطفى كمال عن رغبته في إقامة حكومة مؤقتة في الأناضول -لأن

---

(7) انظر المرجع السابق ص ٥١

(8) الرجل الصنم، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٥

(9) داجوبيرت فون ميكوش، مصطفى كمال، المثل الأعلى، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٠ – ٢١٢

الحكومة المركزية والسلطان واقعان تحت سيطرة الحلفاء- بدأ الكماليون تساورهم الشكوك في نيته، لأنهم كانوا جميعا يعرفون نزعته الثورية ويخشون بأسها. فأبدى رءوف معارضته في اتخاذ أية خطوة من شأنها إغضاب السلطان الخليفة، أو حكومته المركزية. أما على فؤاد فكان حذراً، متهيباً وغير متأهباً لقبول مصطفى كمال رئيساً له. وكان رفعت أيضا يرتاب في مصطفى كمال، وقد استعاد إلى ذاكرته ما سمعه من أرائه على ظهر السفينة، وهم في طريقهم إلى سامسون، وهى كلها تنطق بمطامعه، وأفكاره الثورية، وعدم احترامه لجميع ما درج الناس والتقاليد على الولاء له. وحاول مصطفى كمال أن يقنعهم باقتراحه ويكسبهم إلى صفه، فقد كان في أمس الحاجة إلى معاونتهم. وأخيراً رضخ لرغبته رءوف، وعلى فؤاد. أما رفعت فقد ظل متردداً، إذ لم يرى أية فائدة من إنشاء حكومة مستقلة في الأناضول، لكنه أمام إلحاح مصطفى كمال، وحرج الموقف، اضطر إلى الموافقة. ثم تلقى مصطفى كمال تأييد كاظم قره بكير، قائد جيش ديار بكر، لقراراته، ثم جاء تأييد جعفر طيار من أدرنه، ومن القائد العام لمنطقة قونية. وبذلك ربح مصطفى كمال الجولة الأولى من الصراع، وهو ضم كبار قادة الجيش إلى صفه(١٠).

كان الكماليون لا يرضون عن تصرفات حكومة استانبول تجاههم، ولكنهم كانوا لا يريدون التخلي عن السلطان أو تجريده من سلطته، حتى ولو كانوا هم أنفسهم الذين سينعمون بهذه السلطة. فقد كانوا يحبونه أكثر من أنفسهم، ويقدمون مصالحه الذاتية حتى على مصالح الشعب. وأثناء مؤتمر سيواس، كان أول اقتراح عُرض وقُبل فوراً، هو عدم المساس بالسلطنة أو الخلافة. وجدير بالذكر أن رءوف بك، وكاظم قره بكير، وعلي فؤاد، ورفعت باشا، قد قطعوا علاقتهم بمصطفى كمال بعد ذلك، وانشقوا عليه بعد أن رأوا أنه قضى على الخلافة، وطرد أفراد أسرة السلطان بعد التأكيدات التي قدمها لهم(١١).

رؤوف أورباي:

كان رءوف بك ضابطاً بحرياً، قاد الطراد (حميدية) عام ١٩١٢ أثناء الحرب البلقانية، وعمل كقبطاناً للسفينة الألمانية (امدين) خلال الحرب العالمية الأولى، وحقق الكثير من

---

(10) أرمسترونج، الذئب الأغبر، مرجع سبق ذكره، ص ١١ ، ١٤

(11) داجوبيرت فون ميكوش، مصطفى كمال، المثل الأعلى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٣ ،٢٤٢

البطولات، وفي نهاية الحرب عُين وزيراً للبحرية. وكان رئيساً للوفد الذي مثل تركيا في التوقيع على هدنة موندروس، والذي قبل شروطها معلناً تأكيده أن الأمة الإنجليزية، وحليفاتها ستحافظ على كلمتها. وبرغم تعهده بالوثوق في مصطفى كمال، كان يبدي معارضته له في مسائل كثيرة(١٢). وعندما سأل مصطفى كمال، رءوف بك عن رأيه، وقناعته الشخصية فيما يتعلق بالسلطنة، والخلافة قال: "إنني موالٍ لمقام السلطنة، والخلافة وجدانياً، وشعورياً لأن أبي تربى بفضل السلطان، ونعمته. فقد كان أبي أحد رجال الدولة العثمانية، وأنا أيضا تجري في دمائي آثار تلك النعمة، وأنا لست جاحداً، ولا يمكن أن أكون كذلك. إن الإخلاص للسلطان دين في عنقي، أما ارتباطي بالخليفة، فهو أمر نابع من تربيتي، وفضلا عن هذا فإن لدي وجهة نظري الخاصة. فالسيطرة على الوضع العام هنا أمر صعب، ولا يمكن أن يحقق هذا سوى مقام ألف الناس أن يرونه مقاما رفيعا، لا يمكن أن يرقى إليه أحد قط، هذا المقام هو مقام السلطنة والخلافة. وإلغاء هذا المقام، والعمل على إقامة كيان آخر مكانه، له ماهية أخرى، أمر يوجب الكارثة والخسران، بل إنه أمر لا يمكن أن يجوز أصلاً"(١٣).

رفعت باشا:

كان رفعت باشا ضابطاً في سلاح الفرسان، فخوراً بنفسه، مشهوراً بشجاعته. وقد تولى قيادة قوات مقدونيا في ثورة سلانيك، ودافع عن غزة في حصار طويل ضد الإنجليز. وأثناء الرحلة إلى سامسون، كان رفعت باشا - الذي تم تعيينه قائداً للجيش الثالث في سيواس - مع مصطفى كمال الذي ترك نفسه على السجية فراح يتكلم عن أفكاره، ومطامعه، وخططه، بينما كان رفعت باشا يصغي صامتاً. فقد أدرك رفعت باشا مدى كفاءة مصطفى كمال، ومؤهلاته كقائد، أو زعيم لثورة. وكان يؤيده في أمر تنظيم حركة مقاومة لليونانيين، لكنه وهو ينصت إليه شعر أن وراء كل ذلك تكمن أنانية مصطفى كمال الطاغية، وتصميمه على اغتصاب السلطة بأي ثمن. فقرر أن يقف في صفه على أن يراقبه ويحذره(١٤).

وكان رفعت باشا قد أُدرج ضمن زعماء القوة الشعبية بعد أن وافق على مهمة تنظيم حركة مقاومة شعبية، وعلى الذهاب إلى الأناضول مع مصطفى كمال باشا. وقام بعد ذلك

---

(12) داجوبيرت فون ميكوش، مصطفى كمال، المثل الأعلى، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٤-٢٦٤،٢١٧

(13) مصطفى كمال (غازي) نطق مرجع سبق ذكره، ص ٤١٨

(14) أرمسترونج، الذئب الأغبر، مرجع سبق ذكره، ص ١١١ ،١١٢

بالتوقيع على قرارات آماسيا[15]. وكان في البداية محجماً عن الذهاب إلى الأناضول، ولكنه أراد ألا يبدو معارضاً للحكومة. وبرغم التفكير العميق لم يستطع أن يتراجع. ولهذا السبب بدا خلال أحداث الأناضول متردداً ومرتاباً. لم يكن يعتقد أن العمل الذي بدأه مصطفى كمال باشا كان هو طريق الخلاص، هذا بالإضافة إلى إنه كان لا يثق في مصطفى كمال. كانت علاقة رفعت باشا بمصطفى كمال باشا تشبه العلاقة بين كاظم قره بكير ومصطفى كمال، هذه العلاقة التي استمرت حتى النصر لم تكن علاقة رفض رئاسة رئيس، لكن علاقة عدم الثقة بالرئيس مع الاجتهاد دائماً في عدم جعل الرئيس يشعر بأنه بالنسبة له ككابوس، وكان يراه لائقاً بمقام الرجل الثاني لا الرئيس. وعندما سُئل رفعت باشا عن سبب سوء الفهم بينه وبين مصطفى كمال باشا، أجاب قائلاً : "إنه لم يكن بيننا أبداً أي تفاهم"[١٦].

ويتحدث رفعت باشا عن انتصار الأناضول فيقول: "إنه نصر رخيص وقع مصادفة خلال رحلة كاظم قره بكير إلى الشرق. كان مصطفى كمال لا يعجبه الباشاوات: كاظم قره بكير، ولا علي فؤاد، أو رءوف بك، وكان يحتقرهم ويحط من شأنهم". ورغم إنه يصف مصطفى كمال بأنه "كان رجلاً رديئاً"، فهو لا ينقصه حقه، ولا يغتصب منه نصيبه الكبير في شرف تحقيق النصر في الحرب القومية فيقول: "إن مصطفى كمال نفذ المهمة التي كُلف بها على نحو مثالي حتى النصر. ولا شك في إنه كان مثالاً للقائد والزعيم. لكن بعد تحقيق النصر، التف حوله جماعة من الوصوليين وأثروا عليه، ووجود هذه الجماعة من حوله كان السبب في فساد النظام، وانصب كل غضبي على مجموعة الوصوليين تلك. وفي أحيان كثيرة كنت أُذكّره

---

(15) بعد سقوط حكومة فريد باشا، تولى رضا باشا الوزارة، وحدث التفاهم بين أنقرة واستانبول، وعادت الاتصالات بين استانبول والأناضول مرة أخرى. ثم جاء وزير البحرية، صالح باشا إلى آماسيا في ٢٠ أكتوبر ١٩١٩ للتباحث مع الهيئة التمثيلية، وجاء مصطفى كمال، ومعه بكير سامي بك، ورءوف بك من سيواس إلى أماسيا، واستمر النقاش بينهما لمدة ثلاثة أيام . وانتهت المباحثات بينهم بتصديق صالح باشا على قرار انعقاد مجلس المبعوثان في الأناضول في بورصة، وتم وضع بروتوكول ينظم هذه المسألة. ثم أصدر جمال باشا، وزير الحربية قراراً بضرورة تدعيم الجبهات الملية، ومنح العقيد رفعت بك مهمة تنظيم جبهة إزمير كلها، وأرسلت حكومة استانبول وفداً إلى الأناضول برئاسة فوزي چاقمق، رئيس الأركان العامة في مهمة الاطلاع على الموقف العام في الأناضول. انظر Mehmet Arif Bey, "Anadolu İnkılabı", a.g.e. s. 35,36

(16) Sabahattin Selek, "Anadolu İhtilali", c.1, a.g.e. s.130-132

وأنقده".

ويقول رفعت باشا " أما وحيد الدين الذي اضطروه للرحيل إلى إيطاليا! هذا السلطان سيئ الحظ، فقد فعل كل ما بوسعه من أجل إنقاذ الوطن، وفي النهاية يكون وضعه هكذا. كأنه لم يفعل أي شيء، إنه سيئ الحظ، فقد وصفوه بأنه خائن الوطن. أنا أعرف عن قرب إنه الرجل الوحيد الذي حث مصطفى كمال، ودفعه إلى هذا العمل. ومؤكد هذه الحقيقة سيظهرها التاريخ ذات يوم. إن السلطان وحيد الدين كان يشعر بمدى الكارثة بعد الحرب العالمية الأولى أكثر من أي شخص آخر، ومن أجل إنقاذ الوطن قام بإرسال القادة الشبان إلى الأناضول، وأبدى تضحيات مادية، ومعنوية كبيرة من أجل تحقيق هذا الإنقاذ. وهو الذي اختار مصطفى كمال وأرسله إلى الأناضول. إن التاريخ هو العلم الذي يجعل العدالة الإلهية تنجلي، وتُظهر حقائق الوقائع. وذات يوم عندما يحين الوقت ستظهر الحقيقة، بعد التحقق من كل الأشياء من دفتر مذكرات أناس مثلي "(١٧).

بعد تحقيق الانتصار، مُنح رفعت باشا شرف أن يصبح أول قائد يدخل إلى استانبول، لأن مصطفى كمال لم يكن يريد أن يختار قائداً غيره يمكن أن يسبب له كارثة. فقد كان رفعت باشا يفهم مقتضى الأمور وذو إدراك ووعي كاملين، وكان رئيسه يعرف كيف يستغله. وفي هذا السياق فإنه عند الحساب الخاص لفترة الحرب القومية نجد أن فعالية رفعت باشا كانت من أسباب النتائج الإيجابية لهذه الحرب. ويقول رفعت باشا عن سبب خروج السلطان وحيد الدين من اسطنبول: "إن وحيد الدين لم يكن يفكر في مغادرة البلاد، ونحن الذين قمنا بإقناعه أن وجوده قد يتسبب في الإضرار بالوطن والشعب والأسرة العثمانية". إذ قبل إلغاء السلطنة بعشرة أيام، كان رفعت باشا في استانبول، وعندما أُلغيت السلطنة التقى بالسلطان. لم يكن السلطان يفكر في مغادرة البلاد، وكان مقتنعاً أن القرار الذي أصدره مجلس الشعب الكبير لا يتفق مع القانون الأساسي، وهذه المسألة القانونية أثارها فيما بعد جلال الدين عارف، مدرس الحقوق الأساسية. وأثناء لقاء رفعت باشا بالسلطان قال له: "إن الأفكار في أنقرة مشوشة، وربما يقدمونكم للمحاكمة". فقال السلطان: "إنني مستعد للمحاكمة، ليس هناك ما أخشاه". فقال رفعت باشا: "لابد من التضحية من أجل سلامة الدولة والشعب،

---

(17) Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin" , a.g.e. s. 129-130

حتى لا نفسح المجال لوقوع انقسام بين الشعب، مما يؤدي إلى وقوع حرب أهلية". وبهذه النقطة الحساسة فقط تنازل السلطان عن إصراره، وجعلناه يتخذ قراره بمغادرة الدولة"(١٨).

كاظم قره بكير:

يرى كاظم قره بكير أن السلطان وحيد الدين هو أول من أحاط بجميع أوجه الضعف، والقصور، وفكر في وسيلة لإنقاذ الوطن. ففي بداية الهدنة تجمع في استانبول القادة الشبان مثله هو، وعلي فؤاد، وجعفر طيار، ورفعت باشا. وكان مصطفى كمال باشا في تلك الأثناء من أوائل القادة الذين عادوا إلى استانبول، وتجمعوا هناك تاركين وحداتهم تواجه السقوط، وكان أمله الوحيد هو تولي وزارة الحربية، فلم يكن يفكر في شيء اسمه الحركة القومية. وقد قام هو بزيارته في ١١ابريل عام ١٩١٩ حتى يثنيه عن رغبته في دخول الوزارة، وللتحدث معه بشأن مسألة البقاء في استانبول المشار إليها فوجده مريضا. أما السلطان وحيد الدين فقد قام بدعوة هيئة القيادة العليا لوحدات جيش السلطنة - الذي تم تسريحه بموجب أحكام الهدنة- إلى الاجتماع في قصره، حيث لفت الانتباه إلى مسألة تجمع القادة في استانبول، ومدى خطورة هذا الوضع. إذ رأى أن هذا الوضع غير سليم، وأنه لابد من عودة القادة إلى الخدمة في الأناضول في مهمة جديدة. ويبرز كاظم قره بكير قول السلطان وحيد الدين في هذا اللقاء الذي تم في ٦ ديسمبر عام ١٩١٨، مؤكداً هذه الحقيقة: "قبل الحديث والتفاوض بشأن تأمين الصلح، لا يجب إضعاف الجيش، أو إبعاد القادة الشباب عن الاضطلاع بمسؤلياتهم. وإلا فلن نكون بعيدين عن وضع الأندلس، ولكن عودة القادة الشباب المتجمعين في استانبول إلى الأناضول على رأس الجيش، سيحول دون القضاء على الوطن التركي". وأصبح هذا اللقاء أحد عوامل ضمان بقائي أنا وشباب القادة الآخرين على رأس وحداتهم. فتم تشكيل ما يعرف بمفتشيات الجيش العثماني، وبناءً عليه تم تعيين فوزي چاقمق باشا، مفتشاً على الجيش الأول ومركزه استانبول، وعُين جمال باشا، مفتشاً على جيش الصاعقة ومركزه قونية، وعُين مصطفى كمال باشا، مفتشاً على الجيش التاسع - الذي تغير اسمه إلى الجيش الثالث - ومركزه أرضروم. وتم تعيين رفعت باشا، قائداً على الفيلق الثالث، وكاظم قره بكير باشا،

---

(18) Ziya Nur Aksun, “Osmanlı Tarihi”, Ötüken Neşriyat, c. 6, İstanbul 1994, s.367 .

قائداً على الفيلق الخامس عشر. وهكذا نجد أن السلطان أول من أدرك سوء وضع الجيش، وأن فكرة قيام قادة شباب الجيش بالمقاومة الشعبية (الملية)، وعودتهم إلى رأس وحداتهم، جاءت من السلطان[١٩].

وعندما أخذ مصطفى كمال يجمع أنصاره في مجلس الأمة التركي الكبير في جناح "الدفاع عن الحقوق"، ويحاول السيطرة على المجلس، وتطويعه لإرادته عند ظهور الجناح المعارض، بدأت الشكوك حول نيته إعلان الجمهورية خاصة بعد إصدار قانون التشكيلات الأساسية. واعترض كاظم قره بكير على هذا القانون، لأنه لم يوضع فيه النصوص المدعمة، والضامنة لمؤسسة الخلافة. وكانت هذه هي نقطة الخلاف بين مصطفى كمال والكماليين، وبينه وبين رجال الدين الذين كانوا يسعون بكل وسيلة إلى تأسيس نظام قائم على الشريعة وحدها[٢٠].

فوزي باشا چاقمق:

يُعتبر فوزي باشا چاقمق، الركن الثاني في الحرب التركية اليونانية. التحق بالمجلس التركي الكبير في ٢٧ ابريل ١٩٢٠، بعد عدة أيام من اجتماعه في أنقرة. حيث التحق بأنقرة مرسلاً من طرف السلطان وحيد الدين، وأُعلن نائباً عن كوزان. وقد روى بالتفصيل الظروف الثقيلة التي عاشها السلطان، وأحوال استانبول، في حديث طويل من على كرسي مجلس الأمة التركي الكبير أمام وكلاء الأمة. فقد قال فوزي چاقمق الذي رأى الأحداث رؤية العين: "إن السلطان أوصاني بالذهاب إلى الأناضول، والانضمام للحرب القومية، وأوصاني ألا أتوانى عن ذلك". وأوضح أن السلطان وحيد الدين كان واقعاً تحت ضغط قوات الاحتلال الشديد، وكان يعاني كدراً وهماً وقلقاً من جراء ذلك، ورغم هذا كان يصدر أوامره إلى أعضاء الحكومة بألا يقطعوا اتصالهم بأنقرة. وأشار فوزي چاقمق إلى أن فتوى شيخ الإسلام دري زاده التي استغلها ضده خصومه، لم تكن من طرف السلطان، ولا بأمره، ولا برضاه، بل بضغط الإنجليز بأن تخرج هذه الفتوى.

---

(19) Kazım karabekir, “İstiklal Harbimiz”, a.g.e. s.81-92

(20) Falih Rıfkı Atay, “Çankaya”, a.g.e. s. 304

- في تلك الأثناء جاء وفد استانبول برئاسة عزت باشا وصالح باشا إلى أنقرة للتفاهم مع مصطفى كمال، فتم احتجازهما، ومنعهما من العودة إلى استانبول، ولم يُسمح لهما بالعودة إلا بعد تعهدهما خطياً بأنهما سوف ينسحبان من حكومة استانبول. انظر الرجل الصنم، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٨، ٢٢٠

وبين أن حيدر زاده الذي شغل منصب شيخ الإسلام قبل دري زاده، تعرض لضغط الإنجليز لإخراج هذه الفتوى المطلوبة، وترك منصبه لعدم استطاعته مقاومة ضغطهم. أما دري زاده الذي تولى المنصب بعده، فقد أتوا به وتمت توليته من جانب الحكومة حتى يعطي هذه الفتوى التي خرجت بضغط حراب الإنجليز، ويخلص الوزارة من ضغطهم. وليست هناك أية علاقة للسلطان بهذه الفتوى التي صدرت ضد رجال المقاومة الوطنية(٢١).

إن ذهاب مصطفى كمال إلى الأناضول كان معلوماً للإنجليز وحتى بإذنهم. وهم لم يمانعوا في خروج مصطفى كمال إلى الأناضول، ولما ذهب إلى هناك أخذوا يضغطون على الحكومة في استانبول، وعلى الخليفة حتى يتعقبوا القوة الملية. وبهذا يضعوا الطرفان في مواجهة بعضهما البعض من أجل إحداث فتنة، مما يؤلب الشعب ضد الخليفة والحكومة(٢٢).

رضا نور:

يقول رضا نور إن مصطفى كمال لم يكن يفكر في أن يتجه إلى الأناضول لكي يشارك الوطنيين في حركتهم الشعبية ضد المحتلين. لكن السلطان وحيد الدين هو الذي أحس بالحاجة إلى وجود قوة تواجه قوات الاحتلال الأجنبي، على أن تتشكل هذه القوة من الشعب، والجنود والجيوش في الأناضول. وتقوم هذه القوة في الظاهر، بمعارضة كل من قوات الاحتلال والسلطان، وتطالب بالاستقلال. ولكي تتحقق هذه الفكرة، وجد أن مصطفى كمال هو الشخص المناسب لتنفيذها، فقام السلطان بمنحه مبلغاً من المال، وكذلك حصل مصطفى كمال على بضعة آلاف من الليرات من ميزانية الحكومة. ونشرت جريدة (ريبابلك انشانس) في باريس، الصورة الفوتوغرافية للإيصال الذي تسلم به مصطفى كمال المبلغ. استدعى السلطان مصطفى كمال، وأفهمه الأمر، ثم كلفه به وأعطاه في يده الفرمان الخاص بذلك، وفي الوقت نفسه جعله يقسم بشرفه أنه سيؤدي هذا العمل، وأنه سيطيع الأوامر الصادرة إليه، وأنه إذا صدرت إليه الأوامر ذات يوم بإنهاء هذا العمل فعليه أن يطيع الأوامر.

---

(21) TBMM Zabıt ceridesi, c.1, 6 İctima, Brinci celse, Ankara 1940

(22) Kadir Mısıroğlu, “ bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin”, a.g.e. s. 170

فالسلطان وحيد الدين هو الذي دفع بمصطفى كمال- الذي كان يسعى لتولي وزارة الحربية- إلى الأناضول بحجة قمع التمرد هناك، ولكن مصطفى كمال قرر الانتقام من السلطان وانقلب عليه. وعندما حاول مصطفى كمال الانضمام إلى مؤتمر أرضروم، لم يُقبل انضمامه. فبدأ المكائد، واستطاع الدخول، فقد كان مصطفى كمال محتالاً، ومتآمراً، يحكم تدبير المكائد، والحيل، وهذا ما أسماه البعض ذكاءً. وعندما انضم للمؤتمر طلب أن يكون الرئيس، ثم ذهب إلى سامسون وشكل الهيئة التمثيلية. وكان كاظم قره بكير، ورءوف أورباي يخشون طمع مصطفى كمال، ويرون أنه سيكون في المستقبل بلاءً على رأس الأمة. فلم يكن رءوف أورباي يريد أن يكون مصطفى كمال رئيساً للهيئة التمثيلية، ولكنه رأسها في النهاية بفضل على فؤاد باشا.

في تلك الأثناء لم يكن لمصطفى كمال وجود يُذكر في الثورة، ولكنه صار رئيسها بعد ذلك. وعندما تشكل مجلس المبعوثان العثماني الأخير في ١٢ يناير ١٩٢٠، أُنتخب مبعوثاً عن أرضروم، لكنه لم يلتحق بالمجلس بل حاول أن يرأسه. فقد جاء حتى إزميت من أجل أن يدخل المجلس، وأن يصبح رئيساً له، ولكنه صرف النظر عن المجيء إلى استانبول، لأن البعض حذره من أن الإنجليز قد يعتقلونه. ولما علم أن المجلس يجتمع في استانبول، قال سوف ينتخبوني رئيساً للمجلس.

ثم يعلق رضا نور على طمع مصطفى كمال بقوله، من العيب أن يريد الإنسان كل شيء لنفسه، الرئاسة والمكانة، فهذا يعد دليلاً على طمع هذا الإنسان. فهذه هي عادته يريد نفسه فقط. مثلاً بعد ذلك اتخذ لنفسه لقب الغازي[٢٣]، ورتبة المشير، والقائد. إن ملايين الليرات لا تكفيه، كل شيء يريده لنفسه، فهو يعمل لمصلحته فقط، ويقول إنني أفعل كل ما هو ضروري من أجل الدفاع عن الوطن دون أن يوضح ما هو هذا الضروري الذي يفعله[٢٤].

ورغم أن رضا نور يتفق مع مصطفى كمال في الفكر والثقافة[٢٥]، كان يعارض موقفه

---

(23) الغازي: لقب أُطلق على السلاطين، والقادة المسلمين الذين حققوا انتصارات في الحروب التي خاضوها في سبيل الله لنصرة الإسلام. انظر:

Bekir Sıtkı Baykal, "Tarih Terimleri Sözlüğü"; Türk Dil Kurumu, Ankara 1974, s.51

(24) Rıza Nur, "Hayat ve Hatıratım", a.g.e . c. II, s. 513.234

(25) كان بعض المثقفين الأتراك يرون أن الخلافة الإسلامية ضرورية للجمهورية التركية للمحافظة على

من السلطنة، والخلافة الإسلامية. فهو يقول في مذكراته: "إنه كان مع فكرة إلغاء السلطنة، ولكن لم يخطر له على بال مسألة إلغاء الخلافة. فقد كان يرى أن إلغاء الخلافة مضر، وأنه من الضروري أن تكون الخلافة قوة دينية مستقلة عن الحكومة. فلا يجب أن تُهدم الخلافة، بل يجب إصلاحها وتدعيمها، فرغم استبداد موسوليني، كان يدعم البابا. إن الخلافة قوة، والعالم الإسلامي بدون الخلافة يصير ضعيفاً، بدون قائد، أو أمل "(٢٦).

مكانة متميزة لها في مواجهة السياسة الأوروبية، حتى لا تتحول من دولة عظمى إلى دولة صغيرة. وكانوا يرون أن الخلافة لا تتعارض مع الشعور القومي، إنما هي جزء من القومية التركية. وكان هؤلاء المثقفون يرون أنه إذا ضاعت الخلافة الإسلامية من الأتراك، فلن يكون لتركيا أهمية تُذكر في العالم الإسلامي، وأنه يتعين على كل تركي يعتز بقوميته أن يتمسك بالخلافة بكل ما أوتي من قوة. انظر ماجدة مخلوف، الخلافة في خطاب أتاتورك، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢.

(26) Rıza Nur, " Hayat ve Hatıratım", a.g.e. c. 1, s. 476,477 ve c.111, s. 1335-1337.

الفصل السادس

السلطان محمد وحيد الدين

في كتابات الأتراك المعاصرين والمحدثين

مقدمة:

اختلفت الآراء حول السلطان محمد وحيد الدين، أخر سلاطين الدولة العثمانية، فبينما يرى البعض أنه خائن للوطن، وأنه رحل على ظهر سفينة إنجليزية، يرى البعض الآخر من الكتاب المعاصرين والمحدثين، أنه بطل أوكل إلى مصطفى كمال مهمة إنقاذ الوطن من المحتلين، فأرسله إلى سامسون من أجل إثارة حركة مقاومة شعبية في الأناضول. وتركزت نقاط الخلاف حول :

أولاً: السياسة التي انتهجها السلطان بعد الحرب العالمية الأولى:

١. التقرب من الإنجليز.
٢. توقيع معاهدة سيفر.
٣. مناهضة مصطفى كمال وحركة المقاومة الشعبية في الأناضول.
٤. فتوى الحكم بإعدام مصطفى كمال.
٥. إرسال قوة إعادة الانضباط إلى الأناضول، وحادثة آنزافور "جيش الخليفة".

ثانياً: اتهام السلطان بخيانة الوطن ومغادرة استانبول على ظهر سفينة حربية إنجليزية

ومن خلال كتابات الأتراك المحدثين، وكتابات وأراء معاصريه هو، نتعرف على حقيقة مواقف السلطان محمد وحيد الدين.

أولاً: السياسة التي انتهجها السلطان بعد الحرب العالمية الأولى :

١. التقرب من الإنجليز

ما يأخذه الكتاب الأتراك المعاصرين على السلطان وحيد الدين، أنه على حد قولهم، دأب منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى - التي انتهت بهزيمة تركيا- وطيلة حرب الاستقلال، على انتهاج سياسة مصادقة الإنجليز، والتقرب من الفرنسيين. وذلك اقتداءً بالسياسة التي انتهجها أخيه السلطان عبد الحميد الثاني، الذي أخذ عنه قدرته على التخطيط السياسي، والمناورة دون تهور، وكانت هي أيضًا سياسة أبيه السلطان عبد المجيد الأول[1]. كما يرون أن

(1) يتناول السلطان وحيد الدين في مذكراته السياسة التي انتهجها فيقول: "لقد واجهت المصائب التي جلبتها الحرب العامة التي استمرت أربعة أعوام، كما واجهت بعدها مصائب الهدنة. بعد الحرب كان كيان الدولة في وضع خطير، وكانت استانبول وضعها غير مستقراً. لكن بعد الهدنة أبدت الدول المنتصرة رضاها عن بقاء استانبول في تركيا. وفي أثناء الهدنة وقعت أخطاء أخرى بسبب عدم براعة الحكومات المتوالية التي

السلطان كان – حتى خروج مصطفى كمال إلى الأناضول- يدير أمور الدولة بمفرده، ودون أية رقابة. وبينما كان مصطفى كمال في الأناضول منشغلاً بإنقاذ الدولة والشعب، كان وحيد الدين يتربص به، وأنه قد وافق على شروط هدنة موندروس اعتقاداً منه أن إنجلترا لن تغير من سياستها الودية تجاه الدولة العثمانية، وأنه بالإمكان نيل عفوها وصداقتها فيما بعد(٢).

الواقع أن السلطان وحيد الدين كان يرى أن إنقاذ وطنه لا يكون بالسلاح ومواجهة أوروبا، وكان يؤيد سياسته تلك، الكثير من المثقفين والمفكرين في الدولة، وكثير من الأجانب أيضا. وكان هذا مجرد خلاف في وجهات النظر حول طريقة التفكير وتناول الأمر. وقد وُصم بالخيانة لأنه كان يخشى أن يقال: "إنه دفع بأمته إلى خضم الأحداث الخطيرة وأنه حارب وأراق الدماء، فمكث في استانبول يعاني ذل سياسة التوكل والحذر. فقد كان لا يريد المقامرة باستقلال الأمة"(٣).

إن السلطان محمد وحيد الدين بوصفه رجل دولة، استطاع السيطرة على الوضع المضطرب الذي استمر حتى بعد الصلح، دون أن يكون مسانداً ومؤيداً لدول الحلفاء، بل كان لا يؤمن جانبهم(٤). وكان ينتقد صراحة الذين دفعوا بتركيا إلى الحرب، ويؤمن من كل

تولت إدارة البلاد. وأنا بوصفي سلطاناً مشروطياً (أي دستورياً) كنت أشارك في تصحيح أخطائهم. وكنت أرى أن مبدأ مهادنة دول الحلفاء الموروث عن والدي من قبل الحرب العالمية هو سبيل النجاة. وأرى أيضا أنه لابد من انتهاج سياسة مسايرة الإنجليز والفرنسيين، وعدم العمل على إغضابهم أو التحرك ضدهم لأنهم كانوا يتربصون بنا، ويريدون الانتقام منا بعد انتصارهم وهزيمتنا. انظر مذكرات السلطان وحيد الدين في Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s.424

(2) Tevfik Bıyıklıoğlu, "Atatürk Anadolu'da", a.g.e. s. 8,9

(3) مقالة رفيق خالد، نشرها بعد وفاة السلطان وحيد الدين في صحيفة (دوغري يول) التي كانت تصدر في حلب. انظر: Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s.555

(4) يروي السلطان لباشكاتبه عن رأيه في الحلفاء فيقول:
"إن الأجانب لا يؤمَن جانبهم... الله يعلم ما أتحمله ليلاً ونهاراً وأعلمه أنا أيضاً! فقد جعلونا نحل مجلس المبعوثان نتيجة ضغطهم علينا. يعلنون عن أفكارهم بصراحة وبلا إحساس، أنا حاكم دستوري، ولكنهم يعاملونني كأنني حاكماً مطلقاً. ويرجعون إلي مباشرة. وعندما أبحث أي أمر من ناحية دستورية، يواجهوني بقولهم أي دستور هذا، إننا نعرفك أنت فقط، فأنت السلطة الوحيدة التي أمامنا، والتي نرجع إليها ونحن نعهدك طاهراً ونظيفاً، يعني يريدون أن يقولوا إنك إن لم تنفذ كلامنا فلن نعترف بوجودك. لابد من تحمل هذه الأحوال من أجل إنقاذ مستقبلنا، ومن ناحية أخرى فإننا عندما نرجع إليهم في شيء لا يستجيبون في الحال بل يردون بقولهم إن الجنود الموجودين هنا هم المكلفون بالأمر. صحيح إنني أجلس فوق ريش نعام

قلبه أنه يمكن إنقاذ تركيا مرة أخرى، بإقامة علاقات جيدة مع إنجلترا(٥)، والسعي إلى الصلح معها. وكان كبار رجال الدولة يؤمنون بهذا أيضا، وحتى مصطفى كمال نفسه كان يقول إننا نعتبر الإنجليز أصدقاء. كما قال في صحيفة (وقت) في بيان له: "إنني لا أشك في النوايا الحسنة للدول التي عقدت الهدنة مع حكومتنا، أو في نوايا إنجلترا- التي وضعت شروط الهدنة باسم هذه الدول - تجاه الدولة العثمانية"(6).

كان الإحساس بإمكان مساعدة الإنجليز للأتراك، سببه هو أن الإنجليز كانوا هم القوة المسيطرة على جميع قوات الحلفاء، فلم يكن أمام الأتراك سواهم من يستطيعوا الاستناد عليهم(٧).

كان اختلاف وجهات النظر بين أنقرة واستانبول، هو سبب الخلاف الذي حدث بين حكومة السلطان وحيد الدين في استانبول، والحكومة التي يرأسها مصطفى كمال في أنقرة. فالميثاق الوطني الذي وضعته حكومة مصطفى كمال، كان يهدف بالأساس إلى إنقاذ الأراضي التي حددها هذا الميثاق ويستبعد استانبول، إذ كان مصطفى كمال بهذا يحافظ على أنقرة رمز الدولة التركية الجديدة، ويتخلص من استانبول رمز الدولة العثمانية التي يناصبها العداء. أما السلطان وحيد الدين فكان هدفه هو المحافظة على استانبول لكونها عاصمة الدولة ومقر

السلطنة، لكن لا أخفي عليك أنني أجلس فوق رماد الوطن المشتعل. الواقع أن أخي السلطان محمد رشاد كان عرشه واقعاً تحت ضغط أغلبية القوى الداخلية. لكن أنا أواجه قوة أقوى من تلك القوى بمراحل عديدة، وإذا كنت أنا من بعده لا أستطيع أن أدير أمور الدولة بكل عدل وأمانة وعدم تحيز، فوالله ما قبلت هذا الحمل الثقيل طوال عمري." انظر:

Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s.151

(5) Metin Hülagü, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s. 27

(6) وقد اتضح هذا التوجه خلال حديث مصطفى كمال الذي أدلى به لصحيفة (منبر) في ١٧ نوفمبر ١٩١٨، أثناء الهدنة وقبل ذهابه إلى الأناضول، رداً على سؤال ما هو شعوركم تجاه الإنجليز؟ إذ قال: "إنني حاربت ضد الإنجليز في جبهات أريبورنو وأنافارتا وفلسطين. وإنني كنت في هذه الحروب، وفي الحروب الأخرى في المناطق الأخرى، أؤدي واجبي نحو وطني وأمتي من واقع موقعي كجندي، ولكن ليس في قلبي كراهية أو عداوة للإنجليز، ولست أنا فقط الذي أقدر اهتمام الإنجليز برعاية استقلال دولتنا، وحرية الأمة العثمانية، بل إن الأمة العثمانية كلها تحب الإنجليز كثيراً، وتعتبر إنجلترا الصديق الوحيد للشعب العثماني. انظر:

Gotthard Jaeschke, "Kurtuluş Savaşı ile ilgili İngiliz Belgeleri", a.g.e. s. 99

(7) Kadir Misiroglu, "bir mazlum Padisah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 182

الخلافة، وكانت سياساته وتحركاته كلها تتجه صوب هذا الهدف. وقد سعى مصطفى كمال إلى إقناع وحيد الدين بضرورة مغادرة استانبول إلى الأناضول بدعوى قيادة المقاومة الشعبية، لكن السلطان وحيد الدين كان حريصاً على عدم مغادرة استانبول أثناء حرب الاستقلال، لاعتقاده أن خروجه من استانبول- وهي عاصمة الخلافة- يعني ضياعها من يد الأتراك[٨].

كان السلطان محقاً في قلقه على استانبول، لأن موضوع ترك أو عدم ترك اسثانبول وهي مقر السلطنة العثمانية في يد الأتراك، لم يكن يشغل الأتراك فحسب، بل كان أيضا يشغل أوروبا. ففي الأسبوع الأول من نوفمبر ١٩١٩، تلقى (تي بي هوهلر) أحد المسئولين في المفوضية الإنجليزية العليا في استانبول، خطاباً من وزارة الخارجية الإنجليزية يفيد أنه سوف يتم نقل العاصمة إلى بورصة، وأنهم يقلقون من وحيد الدين. إذ يقول الخطاب: ".. بعد النصر سوف تُمحى الدولة العثمانية من أسيا الصغرى، وستكون بلاد العرب وسوريا وبلاد الرافدين وتراقيا والجزر تحت إدارة أخرى. وستقام دولتي الكرد والأرمن في الشرق والغرب بموجب مبادئ ويلسون، وسوف يُقضى على الأفندي الكبير(يقصدون السلطان وحيد الدين) الذي تملأ ألقابه الكثيرة أولى صفحتي المعاهدة(معاهدة موندوروس)، وسيصبح مجرد رئيسًا محلياً غير مهماً، يحمل صفة مبهمة كزعيم ديني مبهم. وليس هناك احتمال أن تصبح استانبول مدينة إسلامية مقدسة. فالأتراك لا يعترفون بهزيمتهم، وأن السلطنة صارت الآن

---

(٨) والدليل على هذا أن السلطان وحيد الدين، دعا مفيد مظهر بك - الذي جاء للانضمام لمجلس استانبول الأخير، الذي عُقد في ١٢ يناير ١٩٢٠ بصفته ممثلاً للأمة- إلي القصر وقال له: "إن هيئة التمثيل هي درة تاج سلطنتي، ليرضى الله عنكم. أنتم أنقذتم الوطن والشعب والسلطنة والخلافة. فليمنح الله حضرة مصطفى كمال باشا الصحة والعافية. ألا يأتي لتشريف استانبول! إنني أتشوق للقائه. "ثم سأله قائلاً : "ما الخطة التي تفكرون فيها من أجل إنقاذ دولتنا من الأعداء؟" فيرد عليه بقوله: "الحل هو أنكم تذهبون إلى الأناضول أو حتى إلى بورصة، لأن الشعب إذا رأى سلطانهم على رأسهم يصبح الأمر مثل ثورة عامة، ولا يقاوم الأعداء هذا. "فاحتد السلطان ونهض واقفاً وقال: "هل تريد مني أن أفر من عاصمة سلطنة أجدادي العظام؟" فأجابه مظهر بك: "لا إنني أعرض عليك أن تكون على رأس الأمة مثل أجدادك العظام، في هذا الوقت العصيب الذي يمر به الوطن والأمة". فأشاح السلطان بوجه واستغرق في التفكير. كان السلطان حينئذ يتمني أن يكون بالفعل على رأس الأمة في ذلك الوقت، ولكن كما يعترف هو بقوله: "إذا كنت قد ذهبت إلى الأناضول، كانت استانبول ستضيع وتصبح تابعة للروم. إنني في كل صلاة كنت أدعو الله أن يحفظ استانبول. إنني لم أغادرها إلا بعد أن أقنعوني أن رحيلي عنها سيكون لبضعة شهور فقط، وإنني سأعود إليها مرة أخرى" انظر: Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s.100-101

شيئاً لا قيمة له"(٩).

ومن واقع مذكرات وزير الخارجية البريطاني، لورد كرزون نرى أنه كان يفكر في أمر استانبول، وكيفية إخراج السلطان والخليفة منها بصفة خاصة. ولكن الإنجليز كانوا يخشون ثورة مسلمي الهند وغيرهم من المسلمين(١٠)، ولذلك اكتفت إنجلترا وقوات الحلفاء باحتلال استانبول فقط، مع تركها تحت الإدارة التركية، وكانوا يرددون دائماً أن الهدف من احتلال استانبول هو حفظ النظام لحين يتم إبرام معاهدة الصلح، وليس الهدف انتزاعها من يد الأتراك(١١).

٢. توقيع معاهدة سيفر(١٢)

بالنسبة لاتهام السلطان وحيد الدين بالتوقيع على معاهدة سيفر، فهو لم يصدق عليها، لأنها أصلاً لم تكن معاهدة بل مسودة معاهدة، ولم تأخذ أية صفة رسمية حتى وقتنا هذا، ولم تُنفذ. وتوقيعها ليس كافياً لإعطائها شرعية، بل كان يجب التصديق عليها من جانب السلطان حتى تأخذ هذه الصفة، وهو ما لم يتم. فقد كان المفروض أن يقوم مجلس المبعوثان بالتوقيع عليها أولاً، ثم تُعرض بعد ذلك على وحيد الدين فيقوم بالتصديق عليها، ولكن هذا لم يحدث. ففي ١١ ابريل ١٩٢٠ كان المجلس مغلقاً، وبذلك لم يقم وحيد الدين في أي وقت بالتصديق على هذه المعاهدة(١٣). الواقع أن الصدر الأعظم فريد باشا هو الذي وقّع على

---

(9) Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s.101

(10) كان المسلمون في الهند يعلنون في تلك الفترة: "إن تعاطفنا مع الأتراك ليس عملاً من أعمال السياسة، وليس مسألة حدود دول، إنما هو مسألة تتعلق بالدين. فسلطان تركيا هو خليفة رسول الله وأمير المؤمنين، وطاعة السلطان الخليفة بالنسبة لنا فريضة دينية. إن هدفنا هو الدفاع عن ديننا، والعمل على عدم المساس بالأماكن الإسلامية المقدسة، وضمان سيادة الإسلام، وتبعية شبه الجزيرة العربية، وإطاعة الأمر الذي أوصى به نبينا قبل وفاته. انظر Nıyazı Berkes, "Türkiyede çağdaşlaşma", a.g.e. s. 499

(11) Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s. 145, 155

(12) تمت الإشارة إلى هذه المعاهدة بالتفصيل في الفصل الثاني ص ٣١

(13) Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s. ١٦٥-١٦٧

يقول السلطان وحيد الدين: "إنه لم يقم بالتصديق على هذه المعاهدة، وأنه كان مستعداً للتنازل عن العرش إذا اضطر إلى التصديق عليها. وكان توقيعها من جانب فريد باشا مجرد كسباً للوقت، ولكن لم يتم التصديق على هذه المعاهدة أبداً." انظر بيان وحيد الدين في

Metin Hülagü, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s.32

مسودة المعاهدة، إذ كان يرى أن توقيعها قد ينقذ استانبول، ظناً منه أن الإنقاذ سيأتي على يد الإنجليز. بينما السلطان كان يرى أن كسب الوقت أفضل، وكان كلما طالبه الإنجليز بالتصديق على المعاهدة كان يقول: "إن التصديق عليها سيزيد من ثورة الأناضول، والثوار هناك سوف يتهمون الحكومة بالاستسلام(١٤)".

وكان مصطفى كمال يرى أن معاهدة سيفر مجرد مشروع معاهدة. فقد تحدث في خطابه (نطق) عن معاهدة سيفر قائلاً: "أيها السادة بعد هدنة موندروس، اقترحت الدول المخاصمة لتركيا شروطاً للصلح أربع مرات، أولها مشروع معاهدة سيفر التي تم وضعها، وتنظيمها من جانب دول الحلفاء بالاشتراك مع عضو مجلس الشعب اليوناني، موسيو فينيزلوس، بدون السماح بأي نقاش حولها أو التباحث بشأنها. وقامت حكومة وحيد الدين بتوقيعها في ١٠ أغسطس ١٩٢٠، وهذا المشروع لم يتم حتى مناقشته في مجلس الأمة التركي الكبير". وبعد ذلك يقارن مصطفى كمال بين سيفر ولوزان، ويذكر سيفر دائماً في كل مرة بإنها مشروع معاهدة . وحتى في ذكره توقيعها قال، تم توقيعها من جانب حكومة وحيد الدين، ولم يقل أن وحيد الدين قام بتوقيعها(١٥) .

وذكر عصمت إينونو(١٦) في مذكراته، أن سيفر كانت مشروع معاهدة(17). ويفيد أحمد

---

(14) يقول إسماعيل حقي ابن الصدر الأعظم توفيق باشا، وصهر وحيد الدين في مذكراته: "إن السلطان وحيد الدين لم يوقع ولم يصدق على معاهدة سيفر، ولكن فريد باشا هو الذي وقّع عليها على سبيل إنه توقيع مؤقت نتيجة للضغط عليه، وحتى السلطان نفسه كان رافضاًهذا التوقيع المؤقت، وأبدى بشكل واضح أنه لا يقبل شروط الصلح التي تتضمنها هذه المعاهدة. لكن فريد باشا خدع مجلس شورى السلطنة والسلطان وقام بالتوقيع على المعاهدة." انظر:

İsmail hakkı okday, “Yanya’dan Ankara’ya”, a.g.e. s. 384 -386

(15) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٤٥٣ ، ٤٥٤

(16) ولد عصمت إينونو في مدينة إزمير عام ١٨٨٤، وعمل ضابطاً في الجيش العثماني، في الأركان العامة في اليمن. وقاد الجيش الرابع أثناء الحرب العالمية الأولى في سوريا، وانضم إلى حركة المقاومة الشعبية أو الملية في الأناضول مع مصطفى كمال. وقد حقق الانتصار في معركتين خاضهما في حرب الاستقلال ضد اليونان في مدينة (إينونو) قرب أنقرة، ولذلك لقب بهذا الاسم. شغل منصب رئيس الأركان العامة عامي ١٩٢٠،١٩٢١، كما شغل منصب وزير الخارجية عام ١٩٢٢ حيث مثل تركيا في مؤتمر لوزان. وشغل منصب رئيس الوزراء في الفترة (١٩٢٣-١٩٢٤) والفترة (١٩٢٥-١٩٣٧)، وهو ثاني رؤساء الجمهورية التركية، فقد تولى الرئاسة في الفترة من ١١ نوفمبر ١٩٣٨ إلى ٢٢ مارس ١٩٥٠. وهُزم حزبه في انتخابات

رشيد ري، وزير الداخلية في ذلك الوقت في مذكراته، أن السلطان وحيد الدين لم يصدق على هذه المعاهدة، وهذا أمر مؤكد، ولكن فريد باشا اضطر إلى توقيعها(١٨).

نظراً للظروف التي أحاطت بالسلطان وحيد الدين بعد الهزيمة في الحرب العالمية الأولى، حرص السلطان على انتهاج سياسة كسب الوقت حتى يزول غضب دول الحلفاء من الأتراك، وتتغير الظروف التي تضطره لقبول المعاهدة التي كانت مثار جدل بين جميع مثقفي الدولة. وخلال الوقت الذي أتاحه للوفد الذي أرسله إلى باريس من أجل تعديل شروط معاهدة سيفر، ضمن تزايد فعالية حركة الأناضول. والواقع أن الدولة لم تتعرض للاحتلال بسبب معاهدة سيفر - التي ظلت في حالة مشروع معاهدة، ولم يتم التصديق عليها، والفضل يرجع في ذلك إلى مراوغة السلطان وحيد الدين- ولكن الذي عرّض الدولة للاحتلال هى معاهدة موندروس. فلماذا لم يتم وضع من قاموا بتوقيع هدنة موندروس، في قائمة الـ ١٥٠ التي ضمت الأعضاء الذين وقّعوا معاهدة سيفر معلنيين خيانتهم؟ فقد كان رئيس الوفد الذي وقّع معاهدة موندروس هو رءوف أورباي، وكان مصطفى كمال في ذلك الوقت على رأس جيوش الصاعقة، ذلك الكيان العسكري القوي. وبذلك يكون المسئول عن تعرض الدولة للاحتلال الذي تم بسبب هذه الهدنة، هما هذان الشخصان. فقد أرسل مصطفى كمال برقية إلى القصر من (باغچة) القريبة من (أضنة) من أجل تشكيل وزارة أحمد عزت باشا التي وقعت تلك الهدنة. كما أن رءوف أورباي وقّع الهدنة باسم هذه الحكومة. وقام مصطفى كمال بعد ذلك بتعيين رؤوف أورباي، نائباً أول لرئيس الهيئة التمثيلية في أنقرة(١٩).

٣. مناهضة مصطفى كمال وحركة المقاومة الشعبية في الأناضول.

تم اتهام السلطان وحيد الدين بالعمل على استبعاد مصطفى كمال عن استانبول، بتعيينه مفتشاً على الجيش التاسع في الأناضول، بهدف القضاء على الحركات الشعبية التي اندلعت

عام ١٩٥٠ وانتخب جلال بايار رئيساً للجمهورية. تولى زعامة حزب الشعب الجمهوري في الفترة (١٩٣٨- ١٩٧٢)، وتوفى عام ١٩٧٣. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص ٢٩٢

(17)-İnönü'nün Hatıraları, "Ulus Gazetesi", 24 Temmuz 1968

(18) Ahmet Reşit Rey, " Gördüklerim,Yaptıklarım", a.g.e. s. 299

(19) Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s.264

هناك ضد قوات الحلفاء في البداية، ثم ضد اليونانيين الذين قاموا باحتلال إزمير في ١٤ مايو ١٩١٩ بناءً على رغبة قوات الحلفاء المحتلة(٢٠). كما تم اتهامه بمناهضة المقاومة الشعبية في الأناضول، والعمل على إعاقتها. وباتخاذ إجراءات تعسفية ضد مصطفى كمال - الذي فكر في إنقاذ الوطن بإثارة حركة مقاومة شعبية في الأناضول- مثل السعي لعزله من مفتشية الجيش، وتجريده من الأوسمة، واستدعائه إلى استانبول لمحاكمته والحكم عليه بالإعدام(٢١).

الحقيقة أن مصطفى كمال توجه إلى الأناضول بعد أن عينه السلطان وحيد الدين مفتشاً على الجيش التاسع، بهدف أساسي وهو تنظيم حركة مقاومة شعبية في الأناضول من أجل تحرير البلاد، وتحقيق الاستقلال، وإنقاذ مقامي السلطنة والخلافة. واتفق السلطان - الذي كان يخشي انتقام الإنجليز، والقضاء على عاصمة الخلافة - مع مصطفى كمال على بقاء هذا الهدف سري. أما الهدف المعلن فهو تحقيق الأمن والاستقرار في المناطق الموكل التفتيش فيها. ولذلك ذهب مصطفى كمال إلى الأناضول باعتباره نائباً عن السلطان، لإنقاذ الوطن من المحتلين. ومنحه السلطان فرمان يخوله صلاحيات مدنية وعسكرية واسعة في المناطق المكلف التفتيش فيها، ليتمكن من تنظيم مجموعات المقاومة الشعبية في حركة واحدة منظمة تحت إدارته، لطرد قوات الاحتلال(٢٢).

فالسلطان وحيد الدين هو أول من فكرفي قيام حركة مقاومة شعبية موحدة للحصول على الحقوق التركية بعد كارثة الحرب العالمية الأولى، وبعد سقوط الدولة العثمانية. أما مصطفى كمال فهو تزعم هذه الحركة. والسلطان هو الذي رأى أن إنقاذ الوطن لا يكون من استانبول الواقعة تحت احتلال الحلفاء، فأرسل الضباط الذين يثق بهم إلى الأناضول، وأعد لحرب الاستقلال، وقام بتهريب الضباط والذخيرة الحربية والنقود إلى الأناضول(٢٣).

---

(20) انظر- مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٧ وانظر أيضا
-Turgut Özakman, "Vahidettin, M.Kemal ve Milli Mücadele", Bilgi Yayınevi, Ankara 2005, s.201-280

(21) Şükrü Tezer, "Atatürk'ün Hatıra Defteri", a.g.e. s.١٣٩

(22) Mevlanzade Rıfat, "Türkiye İnkılabının İç Yüzü", Pınar Yayınları, İstanbul 1993, s. 209

(23) Hüseyin Hilmi Işık, "Saadet – i Ebediyye", a.g.e. s. 976

فحركة المقاومة الشعبية اندلعت بتلقائية في كافة الأنحاء، وشملت الأمة كلها. فلم تكن من فعل شخص واحد، فهي ثورة أمة، وليس لمصطفى كمال ولا لعصمت إينونو دوراً كبيراً فيها. فحين اندلعت الحركة في الأناضول، كان مصطفى كمال في استانبول، بعيداً عن أي عمل ثوري. كان حينئذ منشغلاً بأمور أخرى، فقد كان يسعى لتولي وزارة الحربية. وعندما قرر السلطان إرسال مصطفى كمال إلى الأناضول، أثار هذا قلق الكثير من الأتراك، فسعوا إلى منع إرساله، ومنهم الصدر الأعظم توفيق باشا، فقد أرسل مع رفيق بك، مدير الخزينة الخاصة، خطاباً للسلطان يقول فيه: "لا ترسل مصطفى كمال، إرسل أحداً غيره"(٢٤). كما أرسل أنور باشا برقية بالشفرة إلى السلطان وحيد الدين في استانبول، يقول فيها: "إن إرسال مصطفى كمال إلى الأناضول، سيكون بداية مصائبنا"(٢٥).

أما بالنسبة لاستدعاء مصطفى كمال إلى استانبول، فحقيقة هذا الأمر هو أن قوات الحلفاء ارتابت في تحركات مصطفى كمال في الأناضول، فقدموا احتجاجًا لدى الوزارة القائمة في استانبول المحتلة - وهى وزارة فريد باشا الثالثة (٢١ يوليو ١٩١٩ ـ ٣٠ سبتمبر ١٩١٩) - مستندين إلى أحكام الهدنة المعقودة في عهد الوزارة السابقة، وطالبوها باستدعاء مصطفى كمال الذي لم يجب الدعوة. فهدد الحلفاء بمواصلة الحرب ضد تركيا، فاضطرت الوزارة إلى إقالته من منصبه، وعرضت القرار على السلطان وحيد الدين لكنه لم يوافق عليه، وأوصى بالاكتفاء بدعوته إلى العاصمة. ولكن مصطفى كمال رفض العودة، وتكررت دعوته، وتكرر رفضه العودة، وتكرر رفض السلطان التوقيع على قرار إقالته. واستمر احتجاج الحلفاء، فاضطر السلطان إلى التوقيع مكرهاً على قرار الوزارة بإقالته، فأعلن مصطفى كمال استقالته من الجيش. وبرغم إقالة السلطان له مكرهاً، لم يصدر ضده أي أمر، بل قام بإقالة الوزارة التي طلبت إقالته في ٢ أكتوبر ١٩١٩، وأتى بوزارتين ملائمتين لحركة المقاومة الشعبية التي يتزعمها مصطفى كمال. وهى وزارة علي رضا باشا ووزارة صالح باشا(٢٦).

---

(24) Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 208-210

(25) في تلك الأثناء كان أنور باشا قد هرب إلى روسيا، بالقرب من الحدود التركية الشرقية. وكان يريد الرجوع إلى تركيا، وقيادة حركة المقاومة، وأرسل برقية يقول فيها راجياً: "دعوني أشترك معكم ولو كجندي بسيط، ولكن مصطفى كمال رفض هذا الرجاء". انظر الرجل الصنم ص ١٨٠،١٨١

(26) مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، الجزء الأول، الطبعة

وفي الوقت الذي رفض فيه مصطفى كمال العودة إلى استانبول، أرسل برقية إلى السلطان وحيد الدين - باعتباره هو الذي أرسله إلى الأناضول - أكد فيها على ارتباطه هو وجميع من في الأناضول من مدنيين، وعسكريين، بالسلطنة والخلافة. وأوضح له أن الجميع هناك يسعون إلى تحرير الوطن، وحماية السلطنة والخلافة. وأكد للسلطان أيضا في هذه البرقية، أن الإنجليز يهدفون إلى عودته هو والوطنيين الذين يخدمون الوطن حتى يتسنى لهم السيطرة على البلاد. وأعلن أنه سوف يستقيل من وظيفته، ويعيش في الأناضول كمواطن عادي، ويستمر في كفاحه لتخليص البلاد من المحتلين، وحماية السلطنة والخلافة، إذا أصرت الحكومة على عودته(٢٧).

إن السلطان وحيد الدين لم يكن في أي وقت من الأوقات ضد حركة المقاومة الشعبية، بالعكس فهو ساندها منذ البداية وحتى النهاية، وهو الذي حاول إقناع مصطفى كمال بالذهاب إلى الأناضول، ومنحه خطاً همايونياً. فالسلطان وحيد الدين هو الذي شكل حكومة على رضا باشا، وأجبر فريد باشا على الاستقالة لأنه لم يوافق على قرارات مؤتمر سيواس، كما سعى بكل جهده حتى أخر لحظة، من أجل إزالة عدم التفاهم الذي أحدثه الإنجليز بين أنقرة واستانبول. وكان السلطان وحيد الدين يدعو جميع المسلمين إلى الجهاد مع القوة الشعبية التي تحارب في الأناضول، ودعمها بالدعاء بالنصر وبالمال. كما كان يدعوا كبار أئمة استانبول إلى حث المواطنين على الانضمام إلى هؤلاء الذين يحملون السلاح ويحاربون العدو في الأناضول، وأدت دعوته تلك إلى ذهاب الكثير من المواطنين إلى الأناضول، وتقديم مساعدة كبيرة للمجاهدين(٢٨).

يقول نجيب فاضل قيصه كورك: ". عندما كانت تبلغ السلطان وحيد الدين أنباء

الأولى، مرجع سبق ذكره، ص ٤٥٢ . ٤٥٧ . انظر ملحق الوثائق ص 297، الوثائق أرقام (٣٠ ، ٣١) ص 327، 328

- كان مصطفى صبري، شيخ الإسلام يتولى في ذلك الوقت الصدارة العظمى بالنيابة عن فريد باشا الذي ذهب إلى باريس لحضور مباحثات السلام هناك.

(27) ATATÜRK, Gazi Mustafa Kemal, "Atatürk'ün Söylev ve Demeçleri", c.1, Toplayan: Nimet Arsan, Türk ınkılâp Tarihi Enstitüsü Yayını, II. baskı, Ankara 1961, s. 15-17

(28) Huseyin Hilmi Işık, "Saadet – i Ebediyye", a.g.e. s. 976

انتصارات حركة الأناضول، لم يكن يعرف ماذا يفعل من شدة سعادته. وبعد انتصار (دوملوبينار) تم عمل استقبال رسمي في جامع السلطان سليم بأمر السلطان، وذهب هو إلى هناك وقرأ الفاتحة على الشهداء. وعندما كان يحدث انسحاباً أو فقداً للأراضي كان يحزن حزناً شديداً. وقد بلغ به الحزن أقصى حد أثناء معركة صقاريا والانسحاب، حيث كان خوفه من احتمال سقوط أنقرة يبلغ حد الجنون. أي خطأ صغير يحدث كان يحزنه، ويجرحه. وأي نجاح صغير يتحقق، كان يجعله يطير من السعادة. فوحيد الدين لم يقف أبداً ضد من قاموا بالحركة الشعبية، فقد كان في أشد خوف، واضطراب لاحتمال أن يخسر هؤلاء المحاربين حربهم. وشعوره هذا كان صادقاً إلى أقصى درجة. فالألم الذي تحمله لم يتحمله أي حاكم في التاريخ. وعندما تحقق النصر كانت تُقرأ قصائد المولد على أرواح الشهداء، كما أقام السلطان صلاة شكر في قصر دولمة باغجة"(٢٩).

وعندما دخل الجيش التركي إلى إزمير، وانتهت الحرب على اليونان، أمر السلطان بقراءة المولد الشريف في جامع آياصوفيا إبتهاجاً بهذا النصر، وحمداً لله، بل وذهب إلى هناك للصلاة، والدعاء بنفسه(٣٠).

٤. فتوى الحكم بإعدام مصطفي كمال

بعد مضي أكثر من عام على حركة المقاومة الشعبية، تقدم اليونانيون نحو قلب الأناضول حتى كادوا أن يصلوا إلى أنقرة. وعندما لم تقبل حكومة صالح باشا - وهي تُعتبر أخر الحكومات التي تحيرت بين المعاهدة والحركة الشعبية - تكليفات دول الحلفاء المناهضة للأناضول، وبعد ممارسة ضغوط مستمرة، تولى فريد باشا الحكومة للمرة الرابعة. وبتشكيل الحكومة الأخيرة هذه أصبحت استانبول رغماً عن رغبة السلطان، جبهة ضد الحركة الشعبية، واضطر السلطان إلى الخضوع والموافقة على أن يتولى الصدارة شخص مناهض لحركة المقاومة الشعبية. كما اضطر أن يتحمل الأزمة، وألا يبدو معترضاً على ذلك، ولم يكن أمامه سوى أن يدعو من كل قلبه للحركة بالنصر. وكانت هذه هي حكومة فريد باشا

---

(29) Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s. 124,125

(30) Goothard Jaeschke, "Kurtuluş Savaşı ile ilgili İngiliz Belgeleri", a.g.e. s. 251

ve Nizamettin Nazif Tepedlenlioğlu, "Ordu ve Politika", a.g.e. s. 367 -370

الرابعة، التي جاءت في وقت كان فيه السلطان وحيد الدين يراعي حركة الأناضول ويساندها سراً، ولكن علنياً، يتخذ موقف معارض للمقاتلين، ويحاول منعهم على أساس إنهم مخطئين، وهو موقف لا مهرب منه. وبينما كان السلطان وحيد الدين يتخذ موقف المناهض للحركة الشعبية، ممتثلاً لعدوه الذي لم يكن يعرف المدى الذي وصلت اليه الحركة حتى ذلك الوقت، كان في حالة معنوية تجعله مستعداً للتضحية حتى بروحه من أجل نجاح هذه الحركة، وإنقاذ الدولة والعرش. وهذا الموقف المتناقض عذبه لأقصى درجة، حيث كان ممزق القلب والعقل، واضطر من أجل سحق العدو الذي وضع قصره تحت الحصار، ومن أجل إنقاذ الأمة، أن يذعن لقوات الحلفاء. فقد اتهمت الوزارة الجديدة مصطفى كمال بالعصيان والتمرد على السلطان، استناداً إلى فتوى أصدرها شيخ الإسلام (عبد الله دري زادة)[٣١]، طالب فيها بضرورة إعدام مصطفى كمال. وبسبب صدارة فريد باشا الرابعة، وخصومته الواضحة لحركة الأناضول، اهتمت الأمة كلها بتلك الحركة. والمجلس الذي تم فسخه بمعرفة فريد باشا، قام بتأسيس مجلس الأمة الكبير بممثلين جدد في أنقرة. وهكذا حصلت حركة المقاومة الشعبية على حقوق أساسية. وقام السلطان بإقالة وزارة فريد باشا، وكلف توفيق باشا- وهو من أنصار مصطفى كمال، ومنحاز للحركة الشعبية- بتأليف وزارة جديدة دامت في الحكم عامان، وذلك لإزالة التوتر بين حكومتي استانبول وأنقرة. وقد خدمت هذه الوزارة أهداف مصطفى كمال[٣٢].

وعندما تولى توفيق باشا منصب الصدر الأعظم أمر بإلغاء حكم الإعدام الغيابي الذي كان قد صدر ضد مصطفى كمال، وأمر بإعادة الألقاب، مثل باشا وبك، التي كان قد أمر بحجبها عن رجال المقاومة، كما أمر بإسقاط الحكم الذي يقول بضرورة محاكمة قادة المقاومة الشعبية أمام محكمة عسكرية، واعتبارهم وطنيين يدافعون عن الوطن[٣٣].

---

(31) صدرت هذه الفتوى في ١٠ ابريل عام ١٩٢٠، ومضمون الفتوى كالتالي:
إن أعضاء حركة المقاومة الشعبية كفار، وقتلهم فرض، ومواجهتهم واجبة، وعدم مواجهتهم يعتبر ذنباً، ومن يقتلهم يصير غازياً. انظر ملحق الوثائق ص297، وثيقة رقم (٣٢) ص 329

(32) مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، الجزء الأول، الطبعة الأولى، مرجع سبق ذكره، ص ٤٥٢. ٤٥٧.

(33) Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s. 221.

وبالنسبة لعصيان الأناضول الذي اندلع في كل الأرجاء، نجد أنه من الأشياء التي ظهرت بنفسها نتيجة للوضع المتناقض للقصر الذي يدعم الحركة سراً، ويبدو أمام الجميع أنه ضدها. فكان موقف السلطان عبارة عن مجرد أنه أشار بقوله: "نأمل أن يتوقف هذا العصيان"، فلم يتدخل بالفعل، ولم يأمر صراحة بضرورة وقفه. كما لم يعلن انضمامه للعصيان ودعمه للحركة التي بدأت بالاتفاق مع القصر، ثم صارت ضده، حتى لا ينكشف ما أراده أن يكون سراً، من أجل إنقاذ السلطنة والخلافة والحفاظ على عاصمة السلطنة استانبول من أن تضيع(٣٤).

كانت فتوى إعلان أن مصطفى كمال وأصدقائه عصاه، وأنه لابد من الحكم بإعدام مصطفى كمال، بمثابة فرصة استغلها من اتهموا وحيد الدين بالخيانة. لأن المعروف أن عدداً من شيوخ الإسلام في الوزارة تم الضغط عليهم من جانب الإنجليز لإعلان تلك الفتوى، ولما رفضوا ذلك تم تعيين دري زادة شيخاً للإسلام حتى يصدر هذه الفتوى. يعني أن إصدار هذه الفتوى جاء نتيجة لضغط الإنجليز، وكان إصدارها في تاريخ ١١ ابريل ١٩٢٠. في ذلك التاريخ كان مجلس الأمة التركي الكبير في أنقرة لم يجتمع حتى تلك اللحظة، ولم تكن هناك أي أحداث تجعل السلطان ينفعل ويصدق على هذه الفتوى. فحتى ذلك التاريخ كانت جميع بيانات مصطفى كمال وأصدقائه تفيد أنهم مرتبطون بالخلافة والسلطنة، كما أن العلاقات بين أنقرة واستانبول لم تكن قد ساءت بعد. فقد كان مصطفى كمال خلال فترة وجوده في الأناضول حريصاً على إبراز تأييده وارتباطه بالسلطان، وظهر ذلك خلال مؤتمر أرضروم في ٢٣ يوليو ١٩١٩، حيث توضح المادة رقم (٢) من مطالب مؤتمر أرضروم هذا الارتباط. إذ تقول المادة: "ضمان سلامة الوطن العثماني، ومصونية مقامي السلطنة والخلافة، واستقلال الأمة". كما نجد نفس التعبيرات التي تدل على مناصرة مقامي الخلافة والسلطنة في مؤتمر سيواس في ٩ سبتمبر١٩١٩، حيث كان مصطفى كمال يشير إلى الخلافة والسلطنة بقوله: "مقام الخلافة العالي ومقام السلطنة ". كما أرسل مصطفى كمال قبل افتتاح المجلس عدة برقيات إلى السلطان يعلن فيها ارتباطه بالسلطان. وأحد هذه البرقيات أرسلها من أرضروم حيث ينهي هذه البرقية بجمله يقول فيها: "إنني عبدكم الصادق دائما الذي يطمع في

(34) Necip Fazıl kısakürek, “Sultan Vahiduddin”, a.g.e. s. 139.

رضائكم ودعمكم".

وقال فوزي چاقمق - الذي انتقل إلى مجلس الأمة الكبير في أنقرة في ٢٧ مايو، موفداً من قبل السلطان وحيد الدين - في المناقشة التي تمت في أول ظهور له في المجلس: "بناءً على علمكم فإن تلك الفتوى قد أُصدرت بحراب الإنجليز". وكان المجلس يقابل البيانات التي يدلي بها فوزي چاقمق بالتصفيق. أما الحكم بإعدام مصطفى كمال فقد صدر في ٢٤ مايو ١٩٢٠. إذاً كيف يرسل السلطان فوزي چاقمق إلى الأناضول من أجل الانضمام إلى الكماليين، بعد أن يصدر فتوى إعدام مصطفى كمال؟ فهذا يوضح أن هذا كان من تدبير الإنجليز من أجل إسقاط السلطان ورجال السياسة من عين الشعب.

فهذه البيانات التي توضح مدى الارتباط بالسلطان وحيد الدين في تلك التواريخ، توضح أن قرار الإعدام ليس قرار وحيد الدين، ولكنه صدر بسبب ضغط الإنجليز. وهناك عديد من البيانات أدلى بها مصطفى كمال وأصدقائه من على كرسي مجلس الأمة التركي الكبير توضح أن حكم الإعدام هذا لم تعطِ له أنقرة أية أهمية، وتوضح أنه فُهم على أنه مناورة سياسية. والمعروف أنه عند صدور فتوى من شيخ الإسلام ينبغي أن نعرف في أي ظرف خرجت هذه الفتوى. ولما كانت هذه الفتوى قد صدرت نتيجة لضغط الإنجليز، لذا فإن هذه الفتوى باطلة ولا تأثير لها. وفي النهاية فإن السلطان قد أوفد فوزي چاقمق إلى أنقرة، وأوضح من على كرسي المجلس أنها خرجت بحراب الإنجليز وبضغطهم. كما أعلن مفتي الأناضول والوعاظ هناك، أن الفتوى التي أصدرها شيخ الإسلام بضغط من قوات الاحتلال، باطلة ولا تفرض حكماً"(٣٥).

ويوضح البيان المنشور بقرار مجلس الأمة الكبير، في أي صورة تم فهم هذه الفتوى. وهذا البيان بتوقيع مصطفى كمال باعتباره رئيس مجلس الأمة الكبير إذ يقول: "إن مجلس الأمة الكبير الذي تشكل من وكلائنا الذين جاءوا من كل أنحاء الأناضول، بعد أن فهم وسمع كل ما جرى، رأى لزوم أن يوضح إلى الأمة الحقيقة. إن بعض الخونة المغرضين، المدسوسين من طرف الإنجليز، ينشرون الأكاذيب من أجل خداعكم، وبقصد إحداث

(35) Tarık Mümtaz Göztepe, "Osmanlıların Son Padişahı Vahiddeddin Mütareke Gayyasında", a.g.e. s. 268 , 269

الفرقة بين أفراد الأمة. فهم يطرحون كلمة العصيان على السلطان والخليفة من أجل محوكم من جديد، أنتم وإخوانكم في الدين والملة: إخوانكم الذين تمسكوا بسلاحهم لمقاومة احتلال العدو لأطراف إزمير، وأنطاليا، وأضنه، وعينتاب، ومرعش، وأوروفه. إن مجلس الأمة يعمل من أجل إنقاذ خليفتنا وسلطاننا من ضغوط الأعداء، والحيلولة دون تقطيع أوصال الأناضول والاستيلاء عليه، وربط مقر سلطنتنا وعاصمتنا بالوطن الأم. وقد أقسمنا نحن ووكلائكم باسم الله والرسول الأكرم بأن كلمة العصيان التي اتُهم بقولها السلطان والخليفة، عبارة عن كذب والغرض منها هو محو القوات التي تدافع عن الوطن، بأيدي المسلمين المنخدعين، وترك الدولة بلا صاحب ولا دفاع. فلا تصدقوا الأكاذيب التي يصطنعها من أجل خداعكم هؤلاء جواسيس الإنجليز، حتى نستطيع إنقاذ وطننا المبارك من الحال الذي آلت إليه مصر والهند. فلا تستمعوا إلى السفلة الذين يريدون أن يجعلوكم تضربوا من الخلف إخوانكم الذين سقطت دماؤهم من أجل شرف أمتهم، ودينهم، والذين يدافعون من أجل عدم استيلاء العدو على وطننا. فالعدو يسعى إلى الاستيلاء على إزمير، وأضنة، وأورفة، ومرعش. وهؤلاء الخونة سوف نعاقبهم بناءً على قرار مجلس الأمة. ولتساعدوني على ذلك حتى لا يضيع ديننا، ووطننا، وتصبح أمتنا أسيرة. وإنني أعلن رسمياً أنه باتحادنا لن يقدر العدو علينا. ولذلك يتعين علينا أن ننزع من أنفسنا ومن بيننا النفاق والشقاق، ولعنة الله على الخونة الذين يساعدون العدو. ورحمة الله وتوفيقه على الذين يعملون من أجل إنقاذ الوطن والأمة وسلطاننا وخليفتنا"(٣٦).

وهذه الوثائق توضح أن لا مصطفى كمال ولا أصدقائه قد أعطوا أهمية للفتاوي المعهودة، بل استمروا في طريقهم. وبينما يسيرون في طريقهم لم يتوانوا عن إظهار ارتباطهم بالسلطان وحيد الدين وبمقام الخلافة. فهذه الفتاوي استغلها بعد ذلك بعض الكتاب من خصوم وحيد الدين كوسيلة لاتهام السلطان وحيد الدين بالباطل(٣٧).

(36) ATATÜRK, Gazi Mustafa Kemal, "Atatürk'ün Söylev ve Demeçleri", c.1, a.g.e. s.15 ve "Tarih Vesikaları", M. E. Bakanlığı, Ankara 1941, s. 7 ve Zabıt Geridesi, c.1, 6.celse Ankara 1940, s. 60, 123 ve Zabıt Ceridasi, c.1, 6 İctima, Brinci celse, Ankara 1940, s. 114

(37) Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 281

٥. إرسال قوة إعادة الانضباط إلى الأناضول وحادثة آنزافور "جيش الخليفة":

عندما اشتعلت حركة المقاومة الشعبية في الأناضول، أرسلت قوات الحلفاء مذكرة إلى حكومة استانبول تدعوها إلى ضرورة إخماد هذه الحركة. ولما لم يُستجب لهذه المذكرة أُرسلت مذكرة أخرى أكثر قسوة تطالب بوجوب تأديب زعماء هذه الحركة، وهددت بأنه إذا لم يتم القضاء على هذه الحركة، وتهدئة الوضع هناك، فسوف تتولى هذا الأمر قوات الأمن اليونانية التي تنتظر الأمر بالتحرك في كريت، وأن الحلفاء سوف يفتحون أبواب استانبول وأدرنة أمام هذه القوات. وأمام هذا التهديد المباشر من جانب قوات الحلفاء، اضطرت الحكومة إلى تشكيل قوة إعادة الانضباط لمنع دخول القوات اليونانية إلى استانبول. وكانت هذه القوة عبارة عن قوة رمزية، فقائد قوة إعادة الانضباط - وهو سليمان شفيق باشا- كان تحت إمرته من ٧٠٠ إلى ٨٠٠ جندي. وقد جاء سليمان شفيق باشا مع هذه القوة بسفينة إلى إزميت، وعادت مرة أخرى بعد الانتظار فترة تزيد عن الشهر، دون أن يُسمح لها حتى بالنزول إلى البر(٣٨).

كان تشكيل هذه القوة مجرد تمويه وخدعة للإنجليز، فلا يمكن أن يفكر السلطان أو الصدر الأعظم في محاربة القوة الشعبية(٣٩) وهما يعلمان المدى الذي وصلت إليه هذه القوة. ويعلمان أيضاً أن ٩٩ ٪ من شعب استانبول، و٨٠ ٪ من شعب الأناضول منحازين تماماً للقوة الشعبية. هذا بالإضافة إلى أنه لا يمكن تشكيل جيش بالمعنى المعروف في الوقت الذي تعجز فيه الحكومة عن فرض كلمتها وحكمها ليس في استانبول فحسب بل أيضا في الأناضول، وفي الوقت الذي تعجز فيه أيضًا عن دفع رواتب الموظفين. ولكن تهديد الحلفاء حيرالسلطان وحكومة فريد باشا الرابعة التي رأت - من باب المناورة السياسية- ضرورة إصدار أمر بتشكيل قوة باسم قوة إعادة الانضباط. كانت هذه القوة عبارة عن مجرد حركة

---

(38) Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 287

(39) يقول إسماعيل حقي: "إن قوة إعادة الانضباط التي تشكلت لمواجهة القوة الشعبية بقيادة مصطفى كمال، المسئول عن تشكيلها هو الداماد فريد باشا وليس السلطان. فعندما أخبرت السلطان أن فريد باشا ينوي تشكيل قوة لمحاربة القوة الشعبية قال: (إن ذلك سيؤدي إلى كسر الأتراك بالأتراك). ولكن تم تشكيل قوة رمزية كتمويه، وجزء كبير منها انضم بسلاحه وذخيرته ومخازن اسلحته إلى القوات الشعبية". انظر: İsmail hakkı okday, "Yanya'dan Ankara'ya", a.g.e. s. 239-241

توازن، وكان الهدف الأصلي من تشكيل هذه القوة مختلفاً، فقد كانت مجرد محاولة من حكومة فريد باشا لكسب الوقت عندما توالت مذكرات قوات الحلفاء التي كانت تحتل استانبول(٤٠).

"فالسلطان وحيد الدين الذي ذكاؤه لا يختلف عليه اثنان، وجميع من اقتربوا منه شهدوا بهذا الذكاء، هل كان في تقديره أن يقوم جنود عددهم قليل كهؤلاء بالتنكيل برجال الحركة الشعبية؟" ولما كانت قوة إعادة الانضباط لم تقم بأي نشاط، فهذا كافٍ لإظهار أن هذه القوة كانت مجرد خدعة من أجل طمأنة الإنجليز. فأمام إلحاح الإنجليز رأت الحكومة أن تقوم بإصدار تصريح حكومي يدين الحركة الشعبية، وتشكيل مفرزة صورية، بدلاً من توجيه كلمة ضد قوات الحلفاء، وعصيان أوامرها، وبهذا يمنعون خطر التهديد(٤١). وقد نبه السلطان على هذه القوات المتوجهة في الظاهر لمحاربة القوات الشعبية، أن لا تبدي أي مقاومة حقيقية، وأن تتقهقر من أول ضربة، وأمرهم سراً بالانضمام إلى القوات الشعبية، والمحاربة معهم ضد العدو(٤٢). فإذا كانت هذه لعبة سياسية برغم كل الشجب الظاهري، والحركات الفعلية، فهي تشكل نصراً كبيراً يُحسب للباب العالي الذي استطاع أن يحافظ تماماً على ماهية هذا النزاع المتوازن الذي بين استانبول وأنقرة بمهارة(٤٣). وكان قرار إنشاء هذه القوة في ١٨ابريل ١٩٢٠، وفي ٢٥ يونيو من نفس العام أُلغيت هذه القوة، بل أن عناصرها دخلت ضمن القوة الشعبية وصارت تحارب معهم(٤٤).

أما بالنسبة لحقيقة حادثة آنزافور أو "جيش الخليفة" الذي أُتهم السلطان وحيد الدين بإرساله للقضاء على الحركة الشعبية في الأناضول، وإشاعة الإرهاب هناك(٤٥)، يوضحها

---

(40) Tarık Mümtaz Göztepe, "Osmanlıların Son Padişahı vahideddin Mütareke Gayyasında", a.g.e. s. 268 ,269

(41) Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. ٢٨٨

(42) بعد تحقيق النصر للقوة الشعبية بوقت طويل، سأل مصطفى كمال (صبحي باشا)، قائد قوة الانضباط عندما جاء إلى محطة أنقرة لاستقباله: "كيف استطعت أن تقبل تلك الوظيفة؟" فأجابه قائلاً: "لكي أندحر أمامك". انظر الرجل الصنم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٢.

(43) Hüseyin Hilmi Işık, "Saadet – i Ebediyye", a.g.e. s. 976

(44) Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s. 177, 505

(45) يقول محمد عارف في كتابه : "إن القوات الانضباطية انضمت إلى القوات الشعبية" . انظر:

ضابط مسئول، وهو (العقيد حسام الدين آرتورك)، رئيس التشكيلات الخاصة حيث قال:

"إن چركس آنزافور الذي مارس نشاطه في أطراف بيجا وكوجا إيلي، هذا الرجل الذي خالف حركة الأناضول، وداس بقواته المسلحة على الحركة الشعبية، والذي أراد إمحائها، كان يشغل في وقت ما رتبة بينباشي في خفر الحدود، وكان شركسياً وقد أُحيل إلى التقاعد بعد ذلك. وجد الإنجليز في هذا الشخص الرجل الذي يمكن شراؤه بالمال، وأمدوه بالمال الذي أراده، وبالرجال الذين طلبهم، ودعموا وحدته بالضباط الباحثين عن الشهرة والمال، وأخرجوا إلى الساحة قوة يُعتد بها وأسموها (جيش الخليفة). وكان تحت إمرة آنزافور قوات الصف الثالث (المشاه والفرسان والمدفعية). لكن عمر لطفي بك، ميرآلاي أركان الحربية، ورئيس الدائرة العمومية لأركان الحربية في استانبول، قام مع أصدقائه المحبين لوطنهم الذين يعملون في نفس الدائرة مثل نعيم جواد، بينباشي أركان الحربية والبينباشي جمال بك، باستبدال الأسلحة المقرر إرسالها للوحدات التي تحت إمرة آنزافور، واختاروا من مخزن السلاح أسوأ الأسلحة وأفسدها وأرسلوها لهم. وهكذا بعد مدة قصيرة تعطل عمل هذا الشركسي الجبار، ولم يستطع استخدام العدد الحربية السيئة التي في يده. ولكن الإنجليز أدركوا هذا الأمر، وقاموا بسد النقص، وأمدوا آنزافور بما يريده من أسلحة من مخازنهم هم. كما قام جميل طوبوزلي، ناظر المرافق في حكومة فريد باشا بقطع المخصصات الخاصة بجماعة الناهبين الذين سموا أنفسهم بـ (جيش الخليفة). ثم تم الإلغاء الكامل لهذه التشكيلات، وكان هذا تحدياً لرغبة ممثلي دول الحلفاء التي في استانبول"(٤٦).

وجدير بالذكر أن وحيد الدين لم يستاء من قطع المخصصات، أو من إلغاء قوة إعادة الانضباط. وهكذا يتضح أن قوة إعادة الانضباط قد تشكلت بناءً على طلب الإنجليز،كما يتضح أيضا الدور الإنجليزي في حادثة آنزافور، ولهذا فإن اتهام وحيد الدين باطل(٤٧).

ثانياً: اتهام السلطان بخيانة الوطن ومغادرة استانبول على ظهر سفينة حربية إنجليزية :

اتهم مصطفى كمال السلطان وحيد الدين بخيانة الوطن، وطلب حماية الإنجليز،

Mehmet Arif Bey, "Anadolu İnkılabı", a.g.e. s.38,45

(46) Hüsamettin Ertürk, "İki Devrin Perde Arkası", a.g.e. s. 391

(47) Cemil Topuzlu, "Seksen Yıllık Hatıralarım", Topuzlu Yayınları, İstanbul 1982, s. 203

والهروب من إستانبول، للحفاظ على حياته وخوفاً من المحاسبة(٤٨). وسار على نهجه بعض الكتاب المعاصرين الذين اتهموه بأنه لم يهتم أبداً بمشاعر شعبه وأمته، وإنه استطاع إنقاذ نفسه فقط بطلب حماية إنجلترا، وهى الدولة التي كان يثق في صداقتها(٤٩).

الحقيقة أن السلطان وحيد الدين قد أعلن إنه مستعد للمحاسبة، وإنه لن يقدم استقالته، إذ كان هو نفسه يرغب في المحاسبة. فقد أعطى السلطان للصدر الأعظم، توفيق باشا في ٤ نوفمبر ١٩٢٢ بياناً لإرساله لمراسل صحيفة (آقشام) لنشره يقول: "إن حضرة السلطان لايريد أن يقدم استقالته في الوقت الراهن، وهو مستعد أن يُقدم للمحاسبة أمام الأمة"(٥٠).

فقد ترك السلطان الوطن حتى لا يتعرض للإهانة وهو الخليفة، مثلما فعلوا بالصحفي على كمال. وخاصة بعد قرار المجلس أنه خائن الوطن. وهو القرار الذي نشرته جريدة توحيد أفكار(٥١).

غادر السلطان وحيد الدين الوطن على ظهر مدرعة قدمها له الإنجليز كخدمة له بعد أن لجأ إليهم، لأن استانبول كانت تحت الاحتلال الإنجليزي، ولم تكن هناك إمكانية أن يغادر الوطن بدون إذنهم وعلمهم(٥٢). ونظراً لظروف تلك الفترة، لم يكن السير في البحر آمناً سوى باستخدام سفن إنجليزية. مثلاً في سنوات حرب الاستقلال كان أعضاء وممثلي

---

(48) مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص ٣٥٢

(49) Tevfik Bıyıklıoğlu, "Atatürk Anadolu'da", a.g.e. s.9

(50) Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. ٢٧٥

(51) Goothard Jaeschke, "Türk İnklabı Tarihi Kronolojisi", c.1, Türk Tarih Kurumu Basımevi, Ankara 1972, s. 512 ve Tevhid- i Efkar, 16 kasım 1922 ve 30 Ekim 1922 ve TBMM Zabıt Geridesi, c. 24 Ankara 1960, s. 251,272,291,297

(52) يقول قدير مصر أوغلي: "إن الطائر نفسه في تلك الأيام كان لا يستطيع أن يطير خارج استانبول بدون إذن الإنجليز. ولنؤكد على ذلك يكفي أن نتذكر أن مصطفى كمال لكي يذهب إلى الأناضول، ومعه ٢٣ ضابطاً، و٤٨ شخصاً، وثلاثة خيول، وعربة، كان لابد أن يحصل على تأشيرة من الإنجليز. وليس مصطفى كمال فقط فأي شخص كان يريد أن يخرج من استانبول، ويذهب إلى الأناضول، كان لابد أن يحصل على تأشيرة من الإنجليز". انظر:

Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 308

-انظر ملحق الوثائق ص 297، الوثائق المصدقة من المفوضية الإنجليزية في استانبول أرقام (٣٣-٣٦) ص 330 - 333

الحكومة في أنقرة الذين كان يتم إرسالهم إلي أوروبا في مناسبات مختلفة، يسافرون على متن طوربيدات فرنسية وإيطالية برغم العداء لإيطاليا وفرنسا ولإنجلترا. وحتى باقي أعضاء الأسرة العثمانية الذين تم نفيهم رسمياً، لم يغادروا استانبول على متن وسائل مواصلات تركية(٥٣).

أسباب مغادرة وحيد الدين لوطنه :

عندما دعت دول الحلفاء حكومة استانبول مع حكومة أنقرة لحضور مؤتمر الصلح معاً في لوزان بعد الانتصار على اليونانيين، أرسل توفيق باشا برقية إلى مصطفى كمال، أعلن فيها أفكاره بخصوص التحرك إلى مؤتمر الصلح. وهنا قام مصطفى كمال الذي أغضبه هذا، لأنه لا يريد أن يكون للدولة العثمانية أي وجود، بإلغاء السلطنة في ١ نوفمبر ١٩٢٢، بقانون قدمه للمجلس. وأعلن بموجب هذا القرار الانقراض الأبدي للدولة العثمانية، وصار السلطان وحيد الدين من وجهة نظر أنقرة، حائزًا فقط على صفة "الخليفة". والسلطان وحيد الدين يعلم أنه لا يجوز شرعاً ألا يكون الخليفة الذي يرعى شئون المسلمين جميعاً، صاحب سلطة كبيرة. فالسلطان وحيد الدين لم يغادر وطنه إلا بعد صدور هذا القرار، وتركه الوطن كان في ١٧ نوفمبر، أي بعد صدور القرار بـ ١٧ يوماً، فماذا حدث خلال هذه الأيام السبعة عشر؟(٥٤).

بعد أن تمكن مصطفى كمال من إلغاء السلطنة في الأول من نوفمبر عام ١٩٢٢ مما أنهى رسمياً الدولة العثمانية، وبعد اقتحام الكماليين حدود استانبول، ومحاولتهم الاستيلاء عليها، صار معلوماً أنه سيعقب ذلك بعض الإجراءات. سقط السلطان فريسة للقلق والاضطراب العميق وشعر أن حياته أصبحت في خطر، وخاصة بعد ما حدث للصحفي (علي كمال) الذي كان يناصر السلطان في كتاباته وكان ينادي بضرورة التمسك بالخلافة. إذ تم اقتياده من أحد الأندية في وضح النهار، تحت سمع وبصر شرطة الحلفاء، إلى حيث تم رجمه بالأحجار حتى مات. ولم يعد أحد من حاشية السلطان، أو خدمه أو وزرائه، أو حتى رئيس الوزارة نفسه،

---

(53) Kadir Mısıroğlu, "Osmanoğullarının Dramı", a.g.e. s. 99, 107, 108.

(54) قال السلطان لرفعت باشا الذي جاء نيابة عن القوة الملية إلى استانبول، مبدياً بوضوح إنه لا يعترف بقرار فصل الخلافة عن السلطنة: "لا يستطيع عزلي من منصبي إلا موكلي ذو الشأن." انظر:
Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 293

يقدر على الظهور في الشارع. وكذلك ما قاله (نور الدين) باشا - وهو قائد ذو نفوذ كبير، وقد جاء إلى إزميت مساء اليوم الذي سُحِل فيه علي كمال - أثناء استضافته للوفد الذي سيذهب إلى لوزان، في إنه يفكر في سحل وحيد الدين في وسط الشارع، بنفس الأسلوب الذي تم به سحل علي كمال. ولكن من أجل حماية حكومة رضا نور الذي كان حاضراً في هذه الاستضافة، أمام الشخصيات العسكرية، فسيكون الأمر بالنسبة لوحيد الدين أخف مما حدث لعلي كمال، حيث سيتم إحضاره إلى أنقرة ثم محاكمته(٥٥).

وعندما أمر السلطان وحيد الدين بوضع الزينات في قصر (يلديز) والقصور الأخرى احتفالاً بالنصر وإنقاذ أزمير من الاحتلال اليوناني، تجمهرت جماعة أمام القصر وأخذت تهتف بشعارات معادية للسلطان مثل " ليُقهر الله وحيد الدين"، كما كُتبت نفس هذه العبارات فوق عربات الترام بالطباشير في ليلة المولد مما أصاب وحيد الدين بارتفاع في ضغط الدم. ومما زاد من حيرته واضطرابه، اقتراح (حاجي شكري)، ممثل ديار بكرفي المجلس في أنقرة، طرد وحيد الدين حيث قال: "إنني اقترح بسم الله أن يُطرد وحيد الدين السافل، الوضيع الذي تفوق سفالته وضعته، سفالة الشيطان لويد جورج". وكذلك ما دار في النقاش الذي أجراه مصطفى كمال في المجلس بمناسبة إلغاء السلطنة، إذ كلما ذُكر اسم وحيد الدين يصيح المبعوثين: "ليقهره الله"(٥٦).

وخلال تلك الفترة أيضا وقع حريق متعمد في القصر، فقد أرادوا إحراق السلطان والقصر معاً، ولكنهم لم يوفقوا في هذا، فأرادوا أن يعتقلوه ويقدمونه للمحاكمة والإعدام في أنقرة. كما كانت تصل إلى القصر يومياً خطابات تحقر من شأن وحيد الدين، وتحثه على ترك الوطن، كما كانت إحدى مهام رفعت باشا الذي جاء إلى استانبول نائباً عن القوة الشعبية،

---

(55) روى يحيى كمال- الذي كان عضواً في الوفد الذي سيذهب إلى لوزان باعتباره أحد المستشارين - حديث نور الدين باشا الذي استضافه ضمن الوفد، عن السلطان وحيد الدين حيث قال: "إن شاء الله نأتي بوحيد الدين إلى جانب علي كمال ونقتص منه". لكن رضا نور، العضو الثاني في الوفد لم يعجبه كلامه، ونظر إليه بدهشة، فاستطرد نور الدين قائلاً: "سوف نخرجه من إينابولي ونحضره إلى أنقرة، فلابد من محاسبته". انظر:

Yahya Kemal Beyatlı, "Ali Kemal", Meydan Dergisi, Sayi 5, 16 Şubat İstanbul 1965, ve "Siyasi ve Edebi Portreler", İstanbul 1968, s. 95

(56) M. İsmail Çalak, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s.16

هي أن يجعل السلطان يغادر الوطن(٥٧).

وقد سبب هذا كله للسلطان ضغطاً نفسياً وروحياً، جعله يشعر أن حياته أصبحت في خطر، بعد أن كان يحاول خداع نفسه بأن الخوف من تعرضه للإعدام والمحاكمة خوف لا داعي له(٥٨). فأراد أن يتجنب ضرر السلطة الجديدة بعد فقده شرف السلطنة والخلافة. وقد ساعد كلام المحيطين به على تفكيره في مغادرة الوطن، فقد أوهموه بأن رحيله سيؤدي إلى تخفيف حدة الأزمة التي سيتعرض لها. فبدأ السلطان وحيد الدين يستحسن فكرة ترك الوطن، وانتشرت أفكار السلطان حول اعتزامه مغادرة استانبول، خارج قصر (يلديز)، حتى أن صحيفة (آچيق كَوز) التي تصدر في (قسطموني) ظلت شهوراً تكتب هذا العنوان الرئيسي:(هل يترك الذات الشاهانية السلطنة؟). وفي ٧ نوفمبر كتبت صحيفة (يني شرق)، وهي إحدى الصحف المشهورة التي خضعت لأوامر إدارية كانت تأتي من أنقرة، تقول: "ماذا ينتظر السلطان السابق؟ بمن يرتبط؟ حتى يتخذ قراره بالانسحاب والذهاب الذي سيُعد بمثابة أكبر خدمة يمكن أن يقدمها للدولة العثمانية حتى وإن لم تعد سلطنته؟". وكان هذا بمثابة إنذار للسلطان بالرحيل. هذا عن صحف استانبول، أما الصحف الأجنبية، فقد كانت على يقين من رحيله، وتخمن أيضا موعد الرحيل(٥٩).

فكر السلطان وحيد الدين في الرحيل بعد أن فقد الأمل من محاولة إقامة حوار أخير مع مصطفى كمال الذي كان يأمل أن يرحل السلطان وحيد الدين عن الوطن حتى لا تكون هناك "ثنائية"، ويحدث اختلاف في الرأي عند مناقشة أي مسألة، وحتى لا تحدث أزمة في

---

(57) كان تعليق السلطان على الحريق: "وهل يهم بعد حريق الوطن، حريق منزلي؟". انظر:
Kadir Mısıroğlu, “bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin”, a.g.e. s.294

(58) İlhan Bardakçı, “Vahdeddin`den Mustafa Kemal`e”, a.g.e. s.107

(59) اعترف الدكتور (رشاد باشا)، طبيب السلطان الخاص، في خطاب له تركه بعد موته في سان ريمو، يقول فيه: "اعفو عني يا سيدي. فقد خدعتك، وجعلتك تخرج من وطنك، وأحضرتك إلي هنا. إنني أخذت الأمان من الأناضول، لكنني كذبت عليك، وقلت لك إنهم سيستدعوننا جميعاً، أنت ونحن، بعد فترة ويمزقوننا ويقتلوننا. وأخافتك بقولي إنهم سيتهمونك أنت وأسرتك بخيانة الوطن، وسيشنقونكم جميعاً، وجعلتك تتخذ قرار مغادرة الوطن تحت هذا التأثير. إن الإنجليز أيضا خدعوك وخدعوني واستغلوني." انظر:

- M.İsmail Çalak, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s.16

النظام. كان مصطفى كمال يرى أنه بتحييد الباقين من أسرة آل عثمان، مع احتمال تهديدهم للنظام الجديد المزمع إقامته، يمكنه توسيع مجال المناورة والحصول الاستقلال. وكان الإنجليز الذين يحتلوا استانبول مقتنعين بذلك أيضا حيث قالوا: "إنها أفضل نتيجة يمكن أن تتحقق للكماليين"(٦٠).

ولما كان مصطفى كمال يرى أن إبعاد وحيد الدين عن الدولة، هو أحد شروط تأسيس النظام الجديد، أمر رفعت باشا - دون علم الحكومة- بعدم منع السلطان من الهرب إذا كان يرغب في ذلك. وبذلك يتخلص من السلطان الذي خلعه عن عرشه، ويضعه في موقف الذي يفر من وطنه، دون أن يكون هو الذي اضطره إلي ذلك، ولكنه اتخذ قراره بنفسه(٦١). وبذلك يتجنب مصطفى كمال ردود الأفعال التي كانت ستنجم عن انفعال الشعب والمثقفين المنحازين للسلطان، دون ضرورة الالتجاء إلي أساليب مختلفة أخرى(٦٢). وفي هذا السياق يقول رفعت باشا: "إذا قام الإنجليز بتهريب السلطان، لن تغفر الأمة التركية لوحيد الدين هذا أبداً، أما إذا تعرضنا نحن له، فلن تغفر الأمة التركية لنا هذا أبداً. فلننتظر حتى يرحل هو بنفسه، وعندئذ تصبح مهمتنا أسهل"(٦٣).

أدرك السلطان وحيد الدين أن حياته صارت مهددة، ليس من جانب الإنجليز المحتلين

---

(60) Gotthard Jaeschke, "Türk Kurtuluş Savaşı Kronolojisi", C.2, a.g.e. s.12 .

(61) Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s. 117

(61) Mustafa Müftüoğlu, "Cumhuriyet Tarihinde Mühim Olaylar", T.T.K. Yay, Ankara 1988, s. 160

- يقول قليج علي في مذكراته: "إن أنقرة كانت تعلم باستعداد السلطان لمغادرة استانبول". انظر:
Kılıç Ali, Hatıralarını Anlatıyor, Sel Yay., İstanbul 1955, s. 115

(62) قال اللورد الإنجليزي (كينروس): "إن الجمهوريين تجنبوا أن يضعوا أنفسهم في موقف سيء، كأن يعتقلوا السلطان مثلاً ويرحلوه إلي المنفى. فقد بدا في موقف الهارب بناءً على رغبته وبمساعدة الكفار. وفي الوقت الذي كان يبدو فيه السلطان مظلوماً، أصبح موضع حقارة العالم الإسلامي كله وكراهيته". كما قال: "رأى الغازي، الذي وضع في حسابه رد الفعل الذي سيأتي من الشعب نتيجة إجباره السلطان على مغادرة وطنه، أنه من المناسب أكثر انتظار ما ستسفر عنه الأحداث". انظر:
Kinross Balfour Patrick, "Atatürk", C.2, çev. Ayhan Tezel, Sander Yayıncılık, İstanbul 1966, s. 535,538

بل من مصطفى كمال نفسه الذي خان ثقته وانقلب عليه، وخاصة بعد علمه أنه ينوي محاكمته ونفيه أو إعدامه(٦٤). وبهذا وجد السلطان وحيد الدين أنه لا مخرج مما هو فيه سوى الخروج من الوطن. فيتخذ قراره نتيجة للظروف المحيطة به، قراره الذي ساقه إلى النهاية التي لم ينتظرها، ولم يكن يريدها، ويفكر في مغادرة الوطن. ويطلب اللجوء السياسي- باعتباره آخر ممثل للأسرة العثمانية- من المفوضية الإنجليزية في استانبول، حتى لا يتسبب في شن حرب داخلية دموية داخل الدولة، وحتى لا يتسبب أيضا في الإضرار بشرف السلطنة، ويسقط عظمة الدولة العلية(٦٥). فالسلطان وحيد الدين لم يهرب بصفته السلطان، لكنه رحل بوصفه فرداً عادياً. فقد ألغيت السلطنة في أنقرة بإطلاق ١٠١ طلقة مدفع. وبعد أن خُلع من عرشه وبعد أن جردوه من جميع ألقابه، لم يتبق له سوى نفسه. وبعد أن أصبح فرداً عادياً أصبح من حقه أن يرحل(٦٦).

ويقبول الإنجليز طلبه، يودع وطنه في صباح يوم ١٧ نوفمبر ١٩٢٢، علي ظهر المدرعة الإنجليزية (مالايا) صامتاً وحزيناً. فقد تحمل كل هذا في سبيل وطنه، وكان يضحي بنفسه في سبيل سعادة وطنه وسلامته. ولم يفقد وحيد الدين الأمل أبداً في عودته مرة أخرى ذات يوم إلى الوطن. وبعد رحيل السلطان أبلغ رفعت باشا، مصطفى كمال باشا بالخبر الذي أسعده كثيراً، وشعر أنه حقق رغبته، وقال لرفعت باشا: "إنني أشكر الجنرال (هارينجتون) لأنه خلصنا من حمل ثقيل"(٦٧).

يقول الشيخ مصطفى صبري عن السلطان وحيد الدين: "لايوجد أحد في الدنيا ائتمن أحداً وأولاه ثقته، كما ائتمن وحيد الدين، مصطفى كمال. ولا أحد خان أحداً وغدره، كما خان مصطفى كمال، وحيد الدين." ويقول أيضا: "إن هذا السلطان الذي فقد عرشه ومات غريباً وفقيراً، والذي طالت ضده ألسنة الدعاة المفترين من أنصار الجمهورية اللادينية في

---

(64) Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s.٢٢٥

(65) يقول عمر ياور باشا: "كان السلطان لايستطيع الإمساك بالقلم من أجل كتابة خطاب اللجوء، وبعد كتابته قام بتسويده مائة مرة. وبعد إعداده والانتهاء من كتابته، لم يستطع توقيعه." انظر:

M.İsmail Çalak, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s. 17

(66) Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s. 245 .

(67) M.İsmail Çalak, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s. 17, 23

الشرق، وأعداء الخلافة الإسلامية في الغرب، قد غلبه مصطفى كمال مستغلاً وطنيته البالغة في التحمس مبلغاً لم يُبقِ لنفسه شيئاً من التحوط والتردد في الثقة بذمة الرجل وأمانته، حتى قال له بعض رجال الترك المعاصرين له: (هذا الرجل لا يُستبعد أن يغتصب عرشك)، فكان جواب السلطان ملحّاً على ثقته به: (ليخدم الوطن وليغتصب عرشي)"(٦٨).

ويوضح السلطان وحيد الدين بنفسه في مذكراته، سبب مغادرته استانبول بقوله: "إنني غادرت استانبول وظللت حتى النهاية متمسكاً بإيماني، لكن خصومي لم يتوقفوا عن إذكاء نار العداوة، وقاموا بتشويه صورتي في الصحف، حتى إنهم هدموا حياتي وكل الأشياء المقدسة التي أحترمها. إنني تركت تراب الوطن من أجل أن أخرج وصورتي جيدة أمام العالم، عندما لم يصبح في إمكاني إبطال افتراءات خصومي بينما أنا في استانبول. فقد كنت مثل مانعة الصواعق. فقد أنقذت الدولة والشعب. فالصاعقة كانت ذات يوم ستصعق الدولة والأمة فتحملتها وحدي، واحترقت أنا، لكن تم إنقاذ الدولة والشعب، وهذا هو المهم، وأنا سعيد بهذه النتيجة. وليس همي بعد هذا العمر أن يُكتب على قبري كلمة سلطان"(٦٩).

خزينة السلطان الخاصة:

عندما كان السلاطين يريدون اقتناء شيئاً من قصر طوب قابي،كانوا يأخذونه مؤقتاً بناءً على إيصال، ثم يردون هذا الشيء وقتما يريدون. وكان لدى وحيد الدين أثراً قيماً باسم (قيامتنامة)، وعندما قرر مغادرة وطنه، أعاد هذا الأثر إلى الخزينة الهمايونية في قصر طوب قابي، وأخذ الإيصال الخاص به. ولما قيل له أن كل ما في الخزينة هو إرث أجدادكم، وإرثكم أنتم أيضا، فهي تشتمل على هدايا أجدادك كان رده: "إذا لم يكن أجدادي سلاطين هذا البلد، فهل كانوا سيحصلون على تلك الهدايا؟ إن هذه الهدايا هي ملك أمتي". ولم يكتفِ بهذا بل ترك باقي مرتب شهر نوفمبر للدولة عندما رحل في ١٧ نوفمبر، وقال عن هذا: "أنا لم أكمل عمل هذا الشهر، ولذلك فإن باقي المرتب ليس من حقي". وأعاد المرتب إلى الخزينة(٧٠).

---

(68) مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، مرجع سبق ذكره، ص ٤٥١، ٤٥٧

(69) M. İsmail Çalak, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s.١٧,23

(70) Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 98,99, ٢٧٢

وهكذا عندما غادر السلطان وحيد الدين الوطن ترك خلفه خزينته الخاصة، وهداياه الخاصة، وثروة ضخمة كانت تكفيه لأن يعيش طيلة عمره في رغد من العيش، برغم احتمال عدم عودته إلى وطنه كسلطان مرة أخرى. وقد تركها برغم ضغط المقربين منه بأن يأخذها معه، حيث رفض ذلك بشدة ودون تردد. وخرج وليس في جيبه سوى ٥٠ ألف ليرة تركية، وهي تساوي ٢٠ ألف ليرة ذهب(٧١). وعندما جاء المقدم (ريتشارد ماكسويل)، مستشار السير(نوفيل هاندرسون)، مساعد المفوض الإنجليزي في استانبول، إلى قصر (يلديز) في ١١ نوفمبر ١٩٢٢ وعرض على السلطان نقل جزء من ثروته إلى الخارج باعتبار هذا حق من حقوقه، رفض السلطان، وأشار إلى أن هذه الأموال هي ملك للدولة وليست ملكاً له(٧٢).

وسهر السلطان ليلة رحيله يشرف على تعبئة المجوهرات، والأشياء الثمينة في صناديق، ثم سلمها إلى القائمين عليها وتركها ورحل(٧٣). فقد كان يهدف إلى ألا يشوب سجل أعماله

---

(71) من الأشياء الثمينة التي خلفها وراءه، الطرة المزدانة بالألماس الخاصة بوالده السلطان عبد المجيد، وعلبة السجائر المغلفة بالمجوهرات، وهداياه كلها تركها في دائرة الخزينة وأخذ إيصال استلام. انظر:
M.İsmail Çalak, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s.18
- عندما أصر المحيطين بالسلطان على أن ياخذ معه هداياه قال: "إن الأمانات المقدسة هي هدية أجدادي إلى الشعب التركي! فكيف أخذ مال شعبي ودولتي؟". انظر
- Tarık Mümtaz Göztepe, "Gurbet Cehenneminde", a.g.e.s.15
- İsmail Hami Danişmend, "Izahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi", c.1, Türkiye Yayınevi, İstanbul 1961, s. 423
-Refi Cevad Ulunay,"Bu gözler Neler Gördü?", Sebil Yayınevi, İstanbul 2004, s. 42

(72) يقول نجيب فاضل قيصه كورك: "هنا لابد أن نتخيل مدى إحساس التضحية والقناعة التي في روح هذا الحاكم، حتى الهدايا الشخصية يعيدها إلى الخزينة الهمايونية، بينما كان في إمكانه وهو السلطان الذي سيرحل، وفي معيته جيش من أسرته وأهله، إلى عالم مجهول، أن يفرغ هذه الخزينه تماماً حيث أنها خزينته الخاصة. ولكنه لم يفعل. كان كل ما معه من مخصصات السلطنة عبارة عن ٥٠ ألف ليرة تركية. وكان يستعد للرحيل بهذا المبلغ البسيط، ومعه معية ضخمة، وإلى بلاد غربة". انظر:
Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s.243

(73) Kinross Balfour Patrick, "Atatürk", c.2, a.g.e. s.536-537 , ve Johannes Glasneck, "Kemal Atatürk ve Çagdaş Türkiye", çev. Arif Gelen, Onur Yayınları, Ankara 1976, s. 210.

أية شائبة، وألا يسد طريق عودته مرة أخرى(٧٤).

وعندما غادر السلطان وحيد الدين وطنه، تم اتهامه بإنه استولى على الثروة الكبيرة من الخزينة العثمانية التي كانت في قصر يلديز، ولكن بعد التحقيق في هذا الإدعاء ثبت أنه اتهام باطل (٧٥). كما أثبتت المعاينات التي جرت في دائرة الخزينة، بعد مغادرة السلطان وحيد الدين، إنه لم يأخذ معه أي شيء(76).

والبيان الذي جاء في الصفحة الرابعة من صحيفة (وطن) بتاريخ ٣ يونيو ١٩٥١ الذي أدلي به (صالح كجه جي)، نائب استانبول، ورئيس الجلسة الخاصة بالتدقيق في الحسابات التي تشكلت في مجلس الأمة الكبير، هو دليل آخر على أن وحيد الدين، قام بتسليم مقتنياته كلها إلى الخزينة الهمايونية قبل مغادرته الوطن، في مقابل إيصال استلام بمعرفة رفيق بك، ناظر دائرة الخزينة(٧٧).

الضغوط التي تعرض لها السلطان وحيد الدين في الغربة :

رحل وحيد الدين إلى إيطاليا، وفي ميناء جنوة استقبله (فيكتور إيمانويل)، ملك إيطاليا والديكتاتور (موسوليني)، والبرنس (عزيز حسن)، حفيد الخديوي إسماعيل باشا الذي أشار على وحيد الدين بأن يستقر في سان ريمو، وهى إحدى المدن الساحلية الإيطالية في الريفيرا التي تقع في شمال إيطاليا وجنوب فرنسا. ثم استضافه في فندق متروبوليتان.

استقر وحيد الدين في فيلا بارودي في جناح مكون من حجرة نوم، وصالون صغير وحمام. ولكن الفيلا كانت صغيرة على المعية، ولما أحس بقرب التحاق أسرته به بحث في نفس المنطقة، واستأجر قصراً يحتوي على ٤٠ غرفة، وحديقة كبيرة، وكانت فيلا مفروشة. وكانت تُسمى قصر مانوليا أو فيلا مانيولي. واستقر هناك حيث عاش حياة تخلو من

---

(74) Tarık Mümtaz Göztepe, "Gurbet Cehenneminde", a.g.e.s.103

(75) قرار البراءة هذا موجود تحت القيد في أرشيف المجلس. انظر:
Bardakçı, "Son Güne Bağlanan Yalan", Zaman Gazetasi, 16 Kasım 1994

(76) الجلسة الخاصة بهذا الأمر مقيدة تحت رقم (٣٥) في أرشيف متحف قصر (طوب قابي)، ومحفوظة تحت هذا العنوان (دفتر القيودات السائرة والمراسلات الخاصة بدائرة الخزينة الهمايونية). انظر:
Kadir Mısıroğlu, "Sarıklı Mucahitler", Sebil Yayınevi, İstanbul 1981,s.90

(77) İsmail Hami Danişmend, "Izahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi", c.4, Türkiye Yayınevi, İstanbul 1972, s. 44

البذخ[٧٨]. وبرغم نقوده القليلة لم يقتر على أفراد معيته يوماً، بل حرم نفسه من كل شيء، وعاش في أواخر أيامه حياة أشبه بحياة الزهد بعد أن نفدت نقوده بسبب إسراف بعض أفراد معيته[٧٩].

وبرغم فقره واحتياجه إلى المال[٨٠]، رفض عرض ملك إيطاليا، بالتكفل بدفع كافة مصروفاته هو وجميع أفراد معيته، لأنه كان يريد أن يكون في الوضع الملائم في وجدان الشعب، وأن يظل نظيفاً خالياً من أية شائبة تشوب كرامته وشرفه[٨١].

وظل السلطان محمد وحيد الدين "الذي يليق بأن يشغل عدة صفحات، للتحدث عن مناقبه في روايات الملوك الذين تم نفيهم عام١٩٢٣"[٨٢]، محتفظاً بكرامته محافظاً على وطنه متتبعاً لأخباره حتى بعد رحيله. ولم يجعل من نفسه في أي وقت ألعوبة في يد الإنجليز أو الإيطاليين لتحقيق أمانيهم، في مقابل مساعدته في اتخاذ موقف عاجل ضد حكومة أنقرة، واستمالة العالم الإسلامي بلقب الخليفة الذي كان لا يزال يحمله حتى ذلك الحين. واستمر الإنجليز في إلحاحهم على وحيد الدين وهو في سان ريمو، من أجل دعوته الشعب التركي

(78) Refi'Cevad Ulunay, "Bu Gözler Neler Gördü?", a.g.e. s. 36,37

(79) Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s. 247.

(80) يقول حسن رضا سوياك- وهو صديق مقرب جداً لمصطفى كمال- في مذكراته في مجلد رقم (١): "من بين الأوراق التي أرسلها لي كچه‌چي زاده عزت فؤاد باشا- وهو أحد الجنرالات العثمانيين الذين استقروا في مصر والذي كان قد تعرف على مصطفى كمال في الجيش - وجدت خطاباً منه. خلاصة هذا الخطاب، أنه ذهب إلى سان ريمو وزار وحيد الدين، السلطان العثماني الأخير. وحكى كيف تناقش مع السلطان في زيارته، وكيف أبدى له السلطان الاحترام والتقدير. وأشار إلى أن السلطان، وهو عضو أسرة عريقة دامت ستة قرون، يعيش الآن في ضائقة مالية. وأن هذا كان واضحاً من حاله وتصرفاته، فهو لم يفصح عن هذا، كما لم يشر إلى أنه محتاج إلى المساعدة". وبينما أقرأ هذا الخطاب إلى مصطفى كمال، بدا عليه التأثر، واغرورقت عيناه بالدموع، وإن كان قد أشاح بوجهه حتى لا أرى ذلك. انظر:
Hasan Rıza Soyak, "Atatürk'ten Hatıralar",c.1, a.g.e. s. 31

(81) Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s.267

(82) مقالة مراسل صحيفة (إيكو دو باري) الفرنسية، في سان ريمو، في النسخة التي بتاريخ ١١ سبتمبر عام ١٩٢٣. وقد نُشرت هذه المقالة في الصفحة الأولى في صحيفة (رسمي جريدة)- وهي الجريدة الرسمية لمجلس الأمة التركي الكبير- في العدد رقم ٢٥ بتاريخ ٩ صفر ١٣٤٢ (١٣ أيلول ١٩٢٣). انظر
Tarih ve Medeniyet, "Sürgündeki Son Hükümdar", sadeleştiren: Ömer Farouk Yılmaz, Sayı: 43 Ekim1997, s.25

لإعلان العصيان، ولتحقيق هذه الرغبة مارسوا ضده بشكل لا يمس كرامته، جميع أنواع الضغوط المادية لكن بلا جدوى، حتى إنه رفض عرض الإنجليز بدفع مبلغ مالي كبير نظير تحقيق أهدافهم، برغم معاناته في أصعب لحظات حياته، حتى لا يحط من كرامته(٨٣).

ورغم أن وحيد الدين قد فضل إيطاليا، بوصفها دوله آمنة يستطيع أن يحتمي بها من الإنجليز الذين كانوا يسعون لاستغلال لقب الخلافة(٨٤)، فقد ناضل نضالاً شديداً هناك من أجل عدم خضوعه لرغبات الإيطاليين السياسية، برغم وقوعه تحت سيطرتهم بوصفه لاجئاً سياسياً. إذ قام الإيطاليون بأول حملة من أجل سحب وحيد الدين، إلى البيئة التي يريدونها. كانوا يفهمون أنه لا يستطيع القيام بأعباء مصاريف (فيلا مانولي)، ومصاريف معيته الكبيرة، بالإمكانيات المادية القليلة التي كان يمتلكها في (سان ريمو). فاستغل (فيكتور إيمانويل)

---

(83) Doğu Ergil, "İngiliz Belgelerinden Osmanlı Ocagı,nın Sonusu", Milliyet Gazetesi, 30 kasım 1989 ve Yılmaz Çetiner, "Son Padişah Vahdettin",.a.g.e. s. 302

(84) عندما لجأ السلطان وحيد الدين إلى الإنجليز لمساعدته على الرحيل من استانبول، وجد (لويد جورج) رئيس وزراء إنجلترا أن اقتراح السلطان باللجوء إليهم يمكن الاستفادة منه من ناحية مصلحة إنجلترا، وأعرب عن وجهة نظره تلك بقوله: "لابد أن نقبل رغبة الخليفة الذي يلتجأ إلينا، لأن هذا الاقتراح يمكن أن يُستغل في سبيل تهدئة المسلمين في البلاد الأخرى، وخاصة في الهند التي أعلنت العصيان ضدنا أثناء عصيان الأتراك في الأناضول". انظر:

Ilhan Bardakçı, "Vahdeddin`den Mustafa Kemal`e", a.g.e. s. 110

-وحتى يحقق الإنجليز أهدافهم باستغلال السلطان وحيد الدين، تم إنشاء مكتب خاص في جهاز المخابرات الإنجليزية بعد أن غادر وحيد الدين الوطن، واستمر عمل هذا المكتب برئاسة (برودريك جون فيتزجيرالد) المسئول عن جهاز المخابرات، حتى وفاة السلطان. وتم تدعيم هذا المكتب بالجاسوس (لورانس) بعد ذلك. وفي أثناء تواجد السلطان في الحجاز، استمر الاتصال سراً بين الشريف حسين ولورانس الذي كان يرغب أن يرتدي الأمير حسين- الذي سيصبح صاحب عرش بعد ذلك- جبة الخلافة، وبذلك تُتاح له الفرصة للسيطرة على مصالح بلاده في شبه الجزيرة العربية لقرنين على الأقل بلا منازع. وروى لورانس هذا في الاجتماع الخاص الذي عقده في ٣ مارس ١٩٢٤، فقال: "إن موضوع الخلافة المثار في مناطق وسط وجنوب شرق الأناضول في تركيا يمكن الاستفادة منه. والسلطان السابق الذي في المنفى اليوم، يُعتبر عنصراً قوياً، وذو قيمة، ولابد من استغلاله. لكن لا أعتقد أن هناك شخصاً يستطيع تنفيذ عملية كهذه حول السلطان السابق في المنفي". انظر Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s. 136

- كان موضوع الخلافة يشغل الإنجليز منذ الحرب الأولى. انظر ملحق الوثائق ص 297، وثيقة رقم (٣٧) وهى مكونة من ٦ صفحات باللغة الإنجليزية، ص 334

ملك إيطاليا الفرصة، واقترح على السلطان أن يختار المنزل أو القصر الذي يريده، في المكان الذي يريده، وأنه بنفسه سيتكفل بكافة المصروفات. ورفض أيضا وحيد الدين هذا العرض بكل احترام[٨٥].

وبعد هذه المحاولات التي لم تأتِ بأية نتيجة، اتجهوا إلى خطة أخرى، وهو زرع عميل ماهر يظل بجانبه حتى يجس نبضه. فيوصون السلطان بتعيين (مادموازيل نوروفينا)- وهى من (ضباط الخدمة السرية الإيطالية)- كمعلمة للأمير أرطغرل أفندي، لتربيته وتعليمه. وكان هذا بمثابة غطاءً لمهمتها الأساسية.

أما (موسوليني) فكان يهدف من وراء تكثيف اتصالات الملك (فيكتور إيمانويل) بوحيد الدين إلى هذه الدرجة، الانتفاع من لقب الخلافة الذي يحمله السلطان، وتنفيذ خطة احتلال جنوب غرب الأناضول. إذ كان (موسوليني) يرى أن: "انتزاع الإيطاليين للأناضول، حتى إذا كان بغاية إعادة وحيد الدين - الذي يحب الشعب التركي ويرتبط به إلى درجة العبادة - إلى العرش ، سيحقق حلم إمبراطورية روما". ولهذا السبب أرسل تعليمات إلى ممثل إيطاليا في استانبول بأن يرسل له تقرير دائم عن الوضع في تركيا بعد إلغاء السلطنة. لكن هذا العرض مثله مثل عرض النقود لم يجد استجابة من وحيد الدين مما خيب آمالهم، وضيع أحلامهم. وفي النهاية عندما أدرك الإيطاليون إنهم لن يستطيعوا تحقيق أحلامهم عن طريق وحيد الدين، قطعوا اتصالهم وعلاقتهم به[٨٦]. وهكذا لم يطلب السلطان وحيد الدين مساعدة فيكتور إيمانويل ملك إيطاليا، أوموسوليني نائبه، طيلة إقامته في إيطاليا. والمساعدة الوحيدة التي كان يطلبها هى حين يريد استخراج جواز سفر، أوالحصول على تأشيرات خروج له، ولمن يريد من معيته، إذا اقتضت الضرورة ذلك. وقامت الحكومة الإيطالية بوضع قصره تحت حراسة مشددة لحمايته، حتى يتعرض لأي ضرر[٨٧].

---

(85) كان هذا رد وحيد الدين: "إذا كنت قد افترقت عن عرشي مؤقتاً أو حتى دائماً، بسبب الوقائع والأحداث التي آلمت بدولتي، فإنني لا زلت أحمل صفة الخلافة. إنني الرئيس الروحي لجميع المسلمين، وأنا أجلس في مقام وكيل الرسول، وهذه الصفة تمنعني من قبول هذا العرض. وأرجوا أن تعذرني". انظر
- Refi Cevad Ulunay, "Bu Gözler Neler Gördü?", a.g.e. s. 41 - 43

(86) Bardakçı, "Şahbaba" , a.g.e. s. 94,131-134

(87) Tarık Mümtaz Göztepe, "Gurbet Cehenneminde", a.g.e. s. 112

رأي الكتاب المحدثين في ادعاء خيانة السلطان وحيد الدين :

استمر الجدال طيلة ٨٨ عاماً بين المدافعين عن وجهة النظر المعارضة، والتاريخ الرسمي. وأكسب بولنت أجاويد[٨٨]، وهو رمز من رموز السياسة التركية، الأحداث بعداً جديداً. فرئيس الوزراء الأسبق هذا أعلن أنه ضد القول بأن وحيد الدين "خائن للوطن" إذ يقول: "إن وحيد الدين كان مؤيداً بشكل واضح لحرب الاستقلال، وقام بتعيين توفيق باشا صدراً أعظم بعد الداماد فريد باشا، لأنه كان يساند حركة المقاومة الشعبية التي كان في طليعتها مصطفى كمال. وعندما غادر السلطان استانبول ترك للدولة كل ما لديه من ذهب ونقود، ولم يأخذ معه سوى مقدار قليل جداً من المال، وكان يستطيع أن يحمل معه كل ما يريد، إذا كان يرغب في ذلك. وهذا موقف منه جدير بالاحترام"[٨٩]. ويؤيده في هذا المؤرخون المحدثون مثل الدكتور أحمد أقگوندوز، رئيس أوقاف الأبحاث العثمانية، الذي يرى أن وحيد الدين كان سلطاناً دبلوماسياً جيداً، ضحى بنفسه في سبيل وطنه. ويعتبر أحمد أقگوندوز وصم الخيانة مجرد تصريح سياسي غير مدعم بالوثائق التي تثبته ويقول: " إن أي اتهام وُجه إلى وحيد الدين بعد عام ١٩٢٢، لا اعتبره قائماً على أساس تاريخي. فالسلطان وحيد الدين ومصطفى كمال عملا سوياً من أجل إنجاح الحركة الشعبية، لكن بعد النصر بدأت صحيفة الحاكمية الملية تقول إن وحيد الدين خائن للوطن. ولأن مصطفى كمال كان جمهورياً، هدم السلطنة وانقلب على وحيد الدين. أما وحيد الدين الذي كان كل همه إنقاذ وطنه وشعبه، كان يقول إن الوطن والأمة في خطر. لا يهم من الذي أنقذ الوطن يكفي أنه قد تم إنقاذه، احضروا مصطفى كمال، إنني أريد أن أناقشه"[٩٠]. وفي هذا الإطار يطالب دكتور

---

(88) ولد بولنت أجاويد في استانبول في ٢٨ مايو عام ١٩٢٥. أُنتخب نائب عن أنقرة في حزب الشعب الجمهوري عام ١٩٥٧. وفي عهد عصمت إينونو، تولى وزارة العمل. وفي عام ١٩٦٦ أُنتخب سكرتير عام لحزب الشعب الجمهوري. وتولى رئاسة الوزارة ثلاث مرات. كان أيضا شاعراً، وكاتباً، وصحفياً حيث عمل بصحيفة (أولوس) في الفترة ١٩٥٠- ١٩٥٦. قام بعمل دراسات في التاريخ العثماني، والشرق الأوسط في جامعة هارفارد في أمريكا. انظر:

Sina Akşın ve Değerleri, “Türkiye Tarihi”, cilt.v, 1.Basım, Cem.yayınevi, İstanbul 1995, s.244

(٨٩) Ömer Şahin, Zaman Gezetesi, sayi,16 Temmuz 2005

(90) انظر مقالة بختيار كوچوك في Zaman Gezetesi, sayı 17 Temmuz 2005

حنفي بستان، وهو أستاذ مساعد وعضو هيئة التدريس بجامعة مرمرة، بضرورة إجراء تحقيق شامل وجاد. كما يطالب بضرورة رفع اتهام الخيانة المذكور في الكتب عن وحيد الدين، لأن العمل الذي قام به السلطان - وهو إرسال مصطفى كمال إلى الأناضول- إنما هو عمل عظيم. وإذا كانت هناك أخطاء ارتكبها السلطان أثناء احتلال الإنجليز استانبول، فهي أخطاء لم يرتكبها عن عمد، ولابد من تقييمها وفقاً لظروف ذلك الزمان، وهي ليست مبرراً لوصمه بصفة الخيانة(٩١).

ويدافع الدكتور مراد بلجا، رئيس قسم الأدب المقارن بكلية الآداب، جامعة استانبول، عن وحيد الدين، فيتساءل قائلاً كيف يخون السلطان وطنه، فهل هو لا يريد ملكه ودولته؟ وهو يرى أن سبب المعلومات الخاطئة المدونة بالكتب عن وحيد الدين، يرجع إلى الاتحاديين الذين شكلوا نسبة ٨٠٪ من المحيطين بمصطفى كمال أيام حرب الاستقلال. بل ويرى أيضا أن مصطفي كمال نفسه، كان مدفوعاً من جانب الاتحاد والترقي(٩٢).

ويرى نظام الدين نظيف تبه دنلي أوغلي، وهو مترجم ومؤرخ محايد، أنه من الإنصاف أن نعترف بحقيقتين للسلطان وحيد الدين، وهما أنه لم يبحث عن مساعدة عسكرية أو طلب سلاح من الإنجليز ضد الأناضول، وبعد خلعه عن العرش لم يفكر في عمل أية مؤامرة ضد تركيا وهو خارج الدولة. ويرى نظام الدين أن مغادرة السلطان وحيد الدين لوطنه لا يُعتبر ذنب نظراً لظروف عام ١٩٢٢، بل هو محق في ذلك. فإن لويس السادس عشر الذي أبدى بطولة، وتمسك بعرشه تم قطع رأسه، ونيكولا الثاني في روسيا، قضوا عليه لأنه لم يهرب ومكث في بلده. ولكن قيصر ألمانيا ويليام الثاني فر إلى هولندا وأنقذ نفسه، وفر أيضا شارل إمبراطور النمسا والمجر الشاب، وألفونس الثالث عشر ملك أسبانيا، وقنسطانطين الأول ملك اليونان، وأمان الله ملك أفغانستان، وكارل الثاني ملك رومانيا، وشاهنشاه إيران محمد رضا بهلوي(٩٣).

---

(91) انظر المرجع السابق

(92) يقول مراد بلجا: "إن السلطان وحيد الدين، والدماد فريد باشا، وعلي كمال كانوا ينفرون من الاتحاد والترقي الذين ارتكبوا أشياء كثيرة جعلت الناس تنفر منهم. وكان الكثيرون يرون أن حركة الأناضول هي حركة جديدة مناهضة للاتحاد والترقي، وهذا خطأ كبير." انظر المرجع السابق .

(93) Nizamettin Nazif Tepedlenlioğlu, "Hanedan ve Son Sultan", Yeni İstiklal,

والبروفيسور د. متا طونجاي، وهو من المؤرخين المحدثين، يرى أن الاتهامات الموجهة ضد السلطان وحيد الدين، كلام لا يُصدق، بل هو مجرد كلام مشوش من النظام الحاكم. ويؤيده في كلامه هذا كثير من المؤرخين الجادين(٩٤). إذ يعتقد د. متا طونجاي أن كلمة (السلطان الخائن) كلمة لايجب أن نتهم بها وحيد الدين إذا أخذنا في الاعتبار ظروف عصره، ويعتبرها مجرد كلمة طُعن بها السلطان لتوفير الظروف الملائمة لتشكيل الجمهورية(٩٥).

ويدافع الكاتب التركي قدير مصر أوغلي(٩٦) عن وحيد الدين، حيث يرى أن السلطان تولى العرش قبل شهور من انتهاء الحرب العالمية الأولى. وكانت أخبار الهزيمة قد بدأت تأتي من جميع الجبهات. وكانت الدولة تعاني من جبروت زعماء الاتحاد والترقي وظلمهم. وهو بصفته سلطاناً وخليفة، كان صاحب سلطة عليا على المؤسسات السياسية والإدارية وحتى العسكرية، كما كان من الناحية الرسمية هو القائد الأعلى، ولكن سلطته كانت اسمية وليست فعلية. فالحقيقة أن السلطة الحقيقية انتقلت، منذ خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش، إلى زعماء الاتحاد والترقي. ولذلك فإن مسئولية الهزيمة والكوارث ليست مسؤولية السلطان وحيد الدين، حتى أن القانون الأساسي العثماني نص على أن السلطان غير مسئول، وهذا

İstanbul 1967, s. 277

(94) يقول ارنولد توينبي، وهوكاتب إنجليزي: "كان الإحساس السائد في أنقرة في البداية هو ضرورة تخليص الحكومة من أيدي الأجانب، وطرد قوات الحلفاء من الأرض التركية، وإنقاذ الأسرة العثمانية. وفي ٩ سبتمبر ١٩١٩، في مؤتمر سيواس، أوضح مصطفى كمال أن هدف الحركة الشعبية هو حماية السلطنة والخلافة، وتخليص الدولة من الضغط الأجنبي. ولم يتم الإفصاح عن وجود نية للحركة لتغيير شكل الدولة التركية في الميثاق الملي الذي تم قبوله في المجلس العثماني في استانبول في ٢٨ يناير ١٩٢٠. ويرغم ذلك قام مصطفى كمال بعد عامين بخلع السلطان، وتأسيس نظام جديد". انظر:

Arnold J. Toynbee, "Türkiye,Bir Devletin Yeniden Doğuşu", 11, a.g.e. s.67

(95) "Eğitim- Bilim Dergisi", sayı 82, Eylül – Ekim 2005, s. 16

(96) قدير مصر أوغلي: هو كاتب ومؤرخ تركي، ولد في عام ١٩٢٣ في أقشاباط في طرابزون، ودرس في كلية الحقوق. تبنى اتجاه إنصاف التاريخ العثماني، وأسس دار النشر سبيل. وسُجن بسبب كتاباته المنصفة للسلاطين العثمانيين، وكتاباته ذات التوجه الإسلامي. وعاش فترة من حياته خارج الوطن بداية من عام ١٩٨٠، ثم عاد مرة أخرى ليستقر في وطنه. ومن أبرز مؤلفاته في هذا الاتجاه:

-"Sultan vahideddin, bir mazlum Padişah", "Osmanoğullarının Dramı" ve "Sarıklı Mücahitler".

انظر: http://www.biyografi.net ، بتاريخ ١١/٣/٢٠١٠.

يعني أنه لا يمكن أن نوجه أي اتهام لوحيد الدين بأي صورة من الصور، فهو اعتلي العرش وقت الهزيمة وهو غير مسئول عنها.

ويرى قدير مصر أوغلي أن اتهام السلطان وحيد الدين بجرم ثقيل مثل خيانة الوطن، إنما هو اتهام قبيح. فمن أجل أن نتهمه باتهام كهذا لابد أن نعرف ماذا فعل؟ هل تركه الوطن على ظهر سفينة إنجليزية، أو إرسال قوة إعادة الانضباط للقضاء على الثورة الشعبية، يعد ذنباً لا يُغتفر ولا يُعفى عنه برغم إنه إدعاء لا أساس له من الصحة؟ وإدعاء الخيانة كان لابد أن يعقبه محاكمة، أما أن نحكم على إنسان بدون أن نسمعه فهذا مخالف لحقوق الإنسان. أما الذين يتهمون السلطان بالتواطؤ مع الإنجليز، فإذا كان هو متواطئ فعلاً، فلماذا لم يلجأ إليهم لمساندته، عندما صدر القانون الذي قضى على الدولة العثمانية، حتى يتم عدم الاعتراف بهذا القانون؟

فإذا كان وحيد الدين يفكر في الإساءة لوطنه كان رجح البقاء في استانبول، ودخل في حرب ضد حكومة أنقرة، وطلب دعم الإنجليز. وإذا كان لا يفكر في شيء سوى عرشه وشخصه، كما يقول بعض الكتاب، أليس هنا يكون مضطراً للتواطؤ مع الإنجليز. ولكنه ليس متواطئاً مع الإنجليز، ولم يفكر في عرشه وتاجه قط، ولم يبدِ تصرفاً ينم عن حرص أو طمع، أو حاول الاستفادة من أية فرصة حتى يستعيد سلطانه. ولم يقم بإهانة إي شخص، حتى الذين أساءوا إليه، وأسندوا له الافتراءات والأكاذيب بعد أن حققوا النصر بمساعدته. وظل كذلك حتى مات مفلساً تماماً في ديار الغربة، ولم يفعل أي شيء يسيء للوطن. إن الذي أساء للوطن وقضى على الدولة العثمانية، ليس المحتلين الذين كانوا موجودين في استانبول. فهل الذي أعد "الانقراض الأبدي" للدولة العثمانية، بالقانون الذي صدر في تاريخ ١ نوفمبر١٩٢٢ - الذي نص على إلغاء السلطنة- هم المحتلين؟ بل المجلس الذي في أنقرة، ورئيسه مصطفى كمال. وبالعكس فإن المحتلين دعوا إلى مؤتمر لوزان، حكومة أنقرة مع حكومة استانبول، وبرغم هذا لا ننكر أن حكومة استانبول كانت مساندة للأناضول.

ولا شك أن وحيد الدين ترك الوطن لأن حياته كانت في خطر، وبالذات بعد واقعة علي كمال حيث تأكد قلقه على حياته. فليس من المنطق بعد اتهامه بخيانة الوطن ألا يخشى على حياته وعلى كرامته. فقد ترك وطنه حتى لا يهين أسرة حكمت ٦٥٠ عاماً في شخص وحيد

الدين. وفضل الرحيل، عن البقاء في استانبول، والدخول في حرب فعلية ضد أنقرة بمساندة الإنجليز بالفرض، مما يسيء إلى وطنه، وتشتعل حرب أهلية.

ويسمي البعض خروج وحيد الدين من استانبول هروباً، ولكنه ليس هروباً، بل خرج مودعاً بلده بكلتا يديه، ومن أجل تأمين خروجه استعان بالإنجليز. والآن بعد مرور أكثر من ٨٠ عاماً أليس من الواجب أن نعطيه بعض الإنصاف(٩٧).

إن السلطان وحيد الدين اعتباراً من لحظة الاحتلال، برغم الظروف الثقيلة، ووطأة الاحتلال، كان دائم التفكير في وطنه وشعبه، متحملاً كل أنواع الأذى والجفاء. ولكنه في النهاية إنسان، وللتحمل وللصبر حدود. فهل يصبح السلطان وحيد الدين خائناً، لأنه أنقذ نفسه قبل التعرض له، وإجباره على الخروج؟ إنه خرج بنفسه قبل أن يُطرد من وطن أسرته السلطانية، فكيف كان يضمن السلطان عدم تعرضه للأذى إذا مكث في الوطن؟ إن اعتقاد كهذا يعد بمثابة محاولة لإخفاء الرأس في الرمال، كالنعامة التي تخفي وجهها للاختباء. إن رجل السياسة مثل أي إنسان واعي، يتجنب أن يلقي بروحة في التهلكة. إن السلطان وحيد الدين ليس خائناً البته، فهو واحد من أشرف الرجال في الدنيا، وعندما مات لم يكن معه أي نقود، حتى أنهم وجدوا تحت وسادته التذاكر الطبية التي لم يصرفها، لأنه كان لا يملك ثمن الدواء. وتم رهن تابوته في سان ريمو بسبب ديونه، وتكفل أقاربه وأصدقائه بمصاريف الجنازة. ولم يروِ مصطفى كمال في نطق، حقيقة أن وحيد الدين هو الذي أسند إليه مهمة إثارة حركة المقاومة الشعبية(٩٨).

كان سلوك وحيد الدين تجاه مصطفى كمال قائماً على الثقة المتبادلة بينهما، كما يعتقد هو، بينما مصطفى كمال اتخذ جبهة ضد وحيد الدين، نظراً لما فهمنا من أنه صاحب أفكار مختلفة بخصوص النظام السياسي الذي سيأتي. وبرغم هذا لم ينطق السلطان وحيد الدين في غربته، أية كلمة ضد مصطفى كمال. ولم يقدم على أي تصرف من أجل استعادة المقام الذي أُلغي في تركيا، مثلما يحدث في الممالك الأخرى، حيث تسعي العائلة الملكية إلى استعادة ملكها من جديد، مثل الجمعية الملكية في فرنسا، حيث يوجد حزب سياسي للأسرة الملكية. ولكن

---

(97) Kadir Mısıroğlu,"bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 262,264, 296,297,324

(98) Kadir Mısıroğlu, " bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 171

السلطان وحيد الدين قنع أن الوطن قد تم إنقاذه من الاحتلال، وأوضح أن الأحداث التي وقعت له كانت نتيجة القدر(٩٩).

الواقع أن السلطان وحيد الدين سعى إلى إنقاذ الوطن من خلال الأناضول، وذلك برغم الظروف الصعبة وعدم الأمان، من أجل تحقيق الحرية والاستقلال. وتم اختياره هو ليكون كبش الفداء من أجل إقامة دولة تركية جديدة، ونظام حكم جديد. وبقي هو موصوماً بالخيانة، يواجه غدر رؤية التاريخ الرسمي التي ترى إنه هرب من الوطن على ظهر مدرعة إنجليزية خصصها له الإنجليز بعد التجاءه إليهم، حتى يكتسب قوة عندما يقرر أن يصبح "تابعاً للإنجليز". وإنه سعى لكسب رضاهم ومعاونتهم، لأنه كان يسعى لوضع الوطن تحت الانتداب الإنجليزي(١٠٠).

ويقول المؤرخ التركي، رشاد أكرم كوچو(١٩٠٥-١٩٧٥): "يقولون إن السلطان محمد وحيد الدين السادس خائن الوطن، وأنا سأقول إنه مثل (المارشال بيتان)(١٠١) الذي حُكم عليه بالسجن المؤبد بدلاً من عقوبة الإعدام، بسبب أنه لم يكن هناك شك في حبه لفرنسا،

---

(99) Kadir Mısıroğlu, “bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin”, a.g.e. s. 287,292

(100) M.İsmail Çalak, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s.١٥

(101) هو المارشال هنري فيليب بيتان(١٨٥٦ . ١٩٥١)، عسكري وسياسي فرنسي، نال في الحرب العالمية الأولى شهرة كبيرة وعُدَّ بطلاً قومياً إثر الانتصار الكبير الذي أنجزه على القوات الألمانية في معركة فردان سنة ١٩١٦، ثم صار في الحرب العالمية الثانية- أي بعد خمسة وعشرين عاماً من ذلك التاريخ- شخصية سياسية مثيرة لجدل كبير. حاول بيتان في حكمه أن يمارس سياسة التوازن في المعاملة بين الحلفاء ودول المحور لا متعاوناً معهم ولا مناهضاً لهم، وفي ظنه أن التعاون والحياد سوف يحميان فرنسا من الاحتلال والتدمير، ويحميان مصالحها وممتلكاتها الاستعمارية وحياة الفرنسيين. وكان من أهدافه بناء فرنسا الجديدة في ظل النظام الجديد الذي كان يعتقد أنه سيسود أوربا بعد انتصار ألمانيا على بريطانيا، ويأمل أن تصير فرنسا الجدار الغربي الذي سيحمي أوربا من البلشفية، ويحلم بثورة وطنية داخلية تحوّل فرنسا إلى دولة ذات نظام استبدادي شعاره: «العمل والأسرة والوطن». قُدم إلى المحاكمة أمام المحكمة العليا بتهمة الخيانة العظمى في ٢٣ يوليو ١٩٤٥، وحكم عليه بالإعدام لتعاونه مع الاحتلال الألماني، ولكن الجنرال ديجول أنزل العقوبة إلى السجن المؤبد، واعتقل بيتان في قلعة بورتاليه ثم في جزيرة يو القريبة من ساحل بريتاني حيث توفي عن عمر يناهز ٩٥ عاماً.

http://www.arabency.com/index.php?module=pnEncyclopedia&func=display_term&id=1667&m=1 بتاريخ ٩/٤/٢٠١٠

والخدماته الجليلة القديمة، ولأنه قد تقدم كثيراً في العمر، والحكم بإعدامه فيه إهانة لوطنه. فالسلطان وحيد الدين ذو الماضي النظيف، والذي انشغل بأمر مملكته بعد سقوطها في دوامة الكارثة، والذي حمل مسئولية ثقيلة، والذي كره أن يكون هناك مزيد من هتك الحرمات فمد يد الصداقة إلى الأعداء المتصرين، يشبه في تاريخ الأمم المسعودين الذين هم مثل لمبات الأمان، والشموع التي تحترق من أجل ضمان حماية التأسيسات الكبيرة"(١٠٢).

وفي النهاية أورد شهادة نوروفينا - ضابطة الخدمة السرية التي زرعها الإيطاليون كمعلمة لأرطغرل بن وحيد الدين للتجسس على السلطان- عن وحيد الدين إذ تقول: "إن هذا السلطان السابق كان سيصبح ممنوناً لأي إنسان يعيد له ألقابه وعرشه، لكن لم يكن يدور بخلده أبداً أن يكون تحقيق ذلك مقابل ارتباطه بلعبة خيانة حقيرة، ورديئة مع القوى الأجنبية. كان يتصور إنه سيعود مرة أخرى للسلطنة التي ضاعت منه، لكنه كان صاحب فراسة وبصيرة، فهو لا يريد أن يكون ذلك على حساب حرب أهلية تصيب وطنه وشعبه. فلم يكن غافلاً حتى يزج بوطنه داخل المشكلات مستخدماً خلافاته مع مصطفى كمال، وحكومة أنقرة كلعبة في يد الأجانب. كان حساساً للغاية، فقد كان يقول (إن الدولة العثمانية، يعني تركيا، في حاجة إلى السكينة والهدوء). كما كان يقول أيضا (إنني غادرت مملكتي، لكنني غادرتها ومعي كرامتي فلم أتركها هناك. وإذا كان القصر والسلطنة تهدما، فيكفي أن الوطن والشعب قد تم إنقاذهما). إن حساسيته كانت واضحة، ولافتة للنظر. فقد كان متمسكاً لأعلى درجة بكرامته، لدرجة إنه كان يتجنب أن يتسبب في ضرر وطنه، ولو ضرر بسيط، أو يتسبب في انكسار شعبه، حتى وإن اضطره ذلك إلى الاحتجاب عن الدنيا. فقد كان يريد أن يحمي كرامته، وكرامة أسرته أمام مصطفى كمال باشا، وأمام الرأي العام"(١٠٣).

دفاع السلطان محمد وحيد الدين عن نفسه:

يقول السلطان وحيد الدين في البيان الذي أدلي به في مكة، مخاطباً العالم الإسلامي بعد مغادرته استانبول: "استمر الخراب، وسقوط الدماء، مع استمرار الحرب حتى معاهدة (موندروس) المشئومة التي فرضت الشروط علينا. والأعضاء الذين تم اختيارهم من أجل

.(102) Reşad Ekrem Koçu, "Osmanlı Padişahları", a.g.e. s. 439
M.İsmail Çalak, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s. 22.(103)

إبرام الهدنة، كانوا تحت رئاسة رءوف بك الذي أصبح رئيساً للوكلاء في أنقرة. وتم اختيارهم بموافقة مصطفى كمال، الذي أصبح رئيساً للمجلس في أنقرة، وكان في ذلك الوقت قائداً لقسم كبير من جيش الدولة العثمانية.

وكانت إحدى مواد هذه المعاهدة تنص على: (الاعتراف بحق دول الحلفاء في احتلال أي مكان يرغبون فيه، من أجل تأمين أمنهم واستقرارهم). وصارت هذه المعاهدة التي وقّعنا على شروطها، وعلى هزيمتنا بمادة في داخلها، سبب الكوارث التي ظهرت بعد ذلك، مثل احتلال إزمير واستانبول وأنطاكيا والموصل وأضنه. وتقع المسئولية الناجمة عن احتلال إزمير، على عاتق من اتهموني. إن كل الكوارث التي جاءت بعد ذلك، وأعمال الاحتلال، تقع مسئوليتها على عاتق كل من مصطفى كمال - الذي لم يعترض على توقيع هذه المعاهدة، إذ كان يسيطر في ذلك الوقت على القوى العسكرية- وعلى عاتق رؤوف وفتحي بك اللذان وقعّا معاً على معاهدة موندروس المذكورة. والآن هؤلاء جميعاً أصبحوا في وضع زعماء الأمة، الذين يحبون هذا الوطن. ولهذا السبب فإنني لست مسئولاً عن هذا الوضع، لأن القانون الأساسي (الدستور) جعل مقام السلطنة مستثنى من المسئولية. والسلطان مضطر إلى التصديق على قرارات الحكومة المسئولة، وعلى ما تتخذه من إجراءات.

فإذا كانت الأسس الدستورية تبيح لي العذر، فإنها لا تقدم العذر لرؤوف بك، الذي وقف على رأس المعارضين لي بعد ذلك، دون أدنى إحساس بالحياء، وذلك لأن رؤوف بك، كان واحداً من الذين وقعّوا على معاهدة الهدنة التي سببت التعاسة والكارثة. ولا تقدم العذر أيضا إلى مصطفى كمال، الذي انسحب بجنوده، وتسبب في أن يصبح قسم كبير من الجيش الذي في أطراف جبل طوروس، في حالة من الفوضى. وبعد هذا الموقف اضطرت الدولة أن تعقد الهدنة"(١٠٤).

ويقول السلطان وحيد الدين في مذكراته: "في أيام الهدنة جعلت من نفسي درعاً في مواجهة المصائب المتعاقبة التي أورثني إياها المجرمون المسئولون عن نتائج الحرب العمومية. فقد كنت مثل مانعة الصواعق، وواجهت الوقائع، والمصائب كلها، التي وقعت

(104) انظر بيان السلطان وحيد الدين المنشور باللغة التركية الحديثة في:
Metin Hülagü, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s.31

دون أن يكون لي يد فيها. واجتهدت لإنقاذ الوطن مضحياً بنفسي. أنا إنسان ولا أدعي العصمة من الخطأ. وأعترف بأخطائي الثلاثة:

الخطأ الأول، هو أنني قبلت مقام السلطنة عقب وفاة اخي السلطان محمد رشاد. والخطأ الثاني، هو أنني انخدعت برجال أمثال عزت باشا، وعلي رضا باشا، وتوفيق باشا، وصالح باشا، وعلى رأسهم فريد باشا. ولم أشك أبداً في إنهم سيكونون سبباً في إهانتي، أو في مقدرتهم على إدارة شئون الدولة على نحو صحيح. فقد بدوا من صفوة الدولة، فأتيت بهم في حكومة الهدنة. والخطأ الثالث، هو أنني لم أتوقع أبداً أن يبايع الشعب هذا- يقصد مصطفى كمال - الذي هدم الخلافة وجميع المقدسات، بعد إخراج آل عثمان، الأتراك المخلصين، ومؤسسي الدولة، من مملكتهم.

ورغم أفكاري وقناعاتي بشأن حركة المقاومة الشعبية التي تغير شكلها وهويتها في النهاية، اخترت واتبعت أسلوب التضحية من أجل مصلحة وطني العزيز. ولهذا السبب شكلت مجلس وزراء موافق لأمال الحركة الشعبية. ومكثت أعواماً أدعم وأنمي هذه الحركة. وكان مصطفى كمال ياوراً لي، وأنا الذي أرسلته إلى الأناضول بوسائط ممكنة وسرية، لكي يقوم بمحاسبة ومواجهة دول الحلفاء المنتصرة التي تحتل مقر الخلافة الذي صار في قلب الخطر. فأعلن مصطفى كمال العصيان ضدي، وخرج عن نطاق تعليماتي كلها، وصار يتخذ قراراته بنفسه، ثم أعلن أنه حر وهز سلطتي كحاكم. كان ثائراً وحكومتي مع الأسف لم تكن قادرة على الوقوف ضده، وأراد الداماد فريد باشا ذات يوم أن يحرمه من المهمة ليعود لصوابه، ولكنه لم ينجح في ذلك. ثم استدعيت توفيق باشا، من أجل أن يتوصل إلى اتفاق مع مصطفى كمال باشا، ولكنه لم يفلح أيضا في ذلك".

"إنني على يقين من أنه سوف تُجمع الأوراق المهمة، والأدلة الدالة على محافظة مقام السلطنة على أحكام القانون الأساسي، والتي تُظهر أن نصر الأناضول تحقق بسبب ترتيباتي التي قمت بها، في ظل شروط وظروف خطيرة لا مثيل لها. وسوف تُستخدم هذه الأوراق، في كشف هؤلاء الذين أصبحوا أمام الرأي العام خادمي الإسلام، ولكنهم في الحقيقة هم من هدموا الإسلام(١٠٥). إن الذين يتهموني بدون وجه حق بخيانة الوطن، وقاموا بتجريد

---

(105) Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s. ٢١٤,417,418

الخلافة من حقوقها ونفوذها، هم من هدموا السلطنة المحمدية. وهم لم يهينوا الوطن فحسب، بل أهانوا العالم الإسلامي كله"(١٠٦).

(106) يقول قدير مصر أوغلي: "لا يوجد وصف يفيد إلى المعنى الذي يقصده السلطان، أجمل وأشمل من وصف الدولة العثمانية، بالسلطنة المحمدية". انظر:
Kadir Mısıroğlu,"bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 276

القسم الثاني

الترجمة

ترجمة كتاب "وحيد الدين"

لنجيب فاضل قيصه كورك

المقدمة

كان هذا الأثر يُنشر على أجزاء في إحدى الصحف منذ ٦ أو ٧ سنوات، قبل أن يخرج في صورة كتاب. وقد لاقى هذا الكتاب إقبالاً كبيراً عند نشره. لكن بعد مدة حدث تأثير عكسي مجهول، لا أعرف من أين جاء، ولا كيف حدث ذلك. فقد رأى البعض أن محاولة تبرئة ساحة وحيد الدين، يُعد تحقيراً لأتاتورك. فتم جمع الكتاب من السوق وإرساله إلى المحكمة. وأصدرت المحكمة حكمها بالبراءة دون أن ترى داعياً لدفاع المؤلف عن نفسه، ودون الحاجة لوجود قاضياً. لكن تم نقض الحكم، واقتربت من عتبة السجن، لولا صدور العفو عن العمل.

والآن وقد تكرر نشر هذا الكتاب، أحب أن أوضح إنني اعتمدت فيه على ثلاثة معايير:

١- ليس معنى أن نمدح شيء، أننا نهجو الشيء المخالف له، فليس مدح النهار معناه إننا نذم الليل. فلا مجال للعبث فيما يختص بالحقيقة، فهذا شيء بديهي.

٢- إذا كان مدح النهار يثير في النفس نفوراً من الليل، فهذا مجرد إحساس لا يُجرم عليه أحداً.

٣- ولعدم إمكان تفسير كافة الأوهام، التي تذهب إلى حد إجراء محاسبة بين وحيد الدين وأتاتورك. فقد كتبت حكماً في الصفحة رقم ٢٢٦[1] يعد إضافة.

ومن هذا المنطلق فإنني أنشر كتابي هذا بغاية تحقيق هدفين: إبراز مالم يُبرز بعد الحماية، والرعاية القانونية التي نحظى بها في بلدنا. مستنداً في ذلك على الدعوى التاريخية الواضحة. أما الهدف الثاني فهو إراحة القلب.

ونستودع كل شيء إلى الحق، وإلى الإحساس بالحق.

---

* الهوامش الواردة في هذه الترجمة من عمل الباحثة، وهى ليست واردة في النسخة الأصلية من الكتاب.

(1) هذا رقم الصفحة في النسخة الأصلية، ويقابله رقم 263 في هذه الترجمة حيث يقول هذا الحكم: "لولا وحيد الدين ما كانت هناك حرب استقلال ولا تحقق التحرير."

والمعطيات المرتبطة بهذا الحكم هى:

ثمة عمل في شكل إنقاذ الوطن، أول من فكر فيه هو السلطان، وثمة نصر تحقق بعد إنجاز هذا العمل. وهنا المنطق يقول إن هذا النصر يعود إلى من قام بإنجاز هذا العمل... أما قيمة العمل نفسه فتصبح من حق السلطان بوصفه أول من فكر فيه. ولهذا لا يجب أن تقتصر قيمه العمل على من قاموا بالعمل فقط، واستثناء العمل نفسه، فلابد أن يُظهر التاريخ نصيب كل فرد من هذا العمل.

نجيب فاضل قيصه كورك[2] على مدار العصور

القصر:

كنت تقريباً في العشرين من عمري، وكنا قد أقمنا لعدة سنوات في (بايلربايي). وكان يدهشني شارع (ياليلر بويو) الذي يقع بين (بايلر بايي) و(شنجل كويو) حيث تراصت الأشجار على الجانبين. وكان أكثر ما يسليني هو التجول ليلاً عبر هذا الطريق الترابي حينئذ - تم رصفه الآن- حتى (حوض باشي) ومن هناك إلى (چنگل كوي) ماراً برصيف الميناء حتى (كوله لي).

وعندما كنت أصل إلى طريق الساحل، عبر المطلع الصغير عند رصيف الميناء في (چنگل كوي)، أجد جسراً موصولا بمعبر مرتفع. من فوق هذا الجسر، كنت أشاهد منطقة مليئة بالأشجار، يتوسطها قصر صغير أبيض بُنى بالأخشاب ... هذا هو قصر وحيد الدين.

قصر مغلق النوافذ، لا أثر للحياة فيه... صاحب هذا القصر هو محمد السادس وحيد الدين، أخر سلطان عثماني، عندما كان أميراً، وقبل أن يرحل عن وطنه، على ظهر بارجة إنجليزية عبر البسفور والدردنيل. وهذا ما جعله يبدو خائناً للوطن في عين أي شخص...

---

(2) نجيب فاضل قيصه كورك: هو مفكر وكاتب مسرحي وشاعر وصحفي وروائي تركي، قُلد وسام أشعر شعراء اللغة التركية في عام ١٩٨٠. ونال عمادة الأدب التركي بجدارة. ولد في استانبول في ٢٦ مايو ١٩٠٤. التحق بالكلية الأمريكية في سن الثامنة، وأتم تعليمه في الكلية الفرنسية عام ١٩١٦. وبعد أن أنهى دراسته في مدرسة (نمونه) التحق بمدرسة العلوم البحرية. وفي عام ١٩١٧ التحق بقسم الفلسفة في كلية الآداب. ثم التحق بجامعة السوربون في باريس لمدة عام واحد، ثم عاد دون أن يتم دراسته. عمل موظفاً في بنك، ثم مدرساً، ثم بالصحافة في جريدة (وقت) عام ١٩٢٤. وأصدر مجلة آغاچ عام ١٩٣٦. أصدر مجلة (بيوك دوغو) أي الشرق الكبير، في الفترة من ١٩٤٣ - ١٩٧١. كان يحيا في شبابه حياة بوهيمية، وبعد تعرفه على الشيخ عبد الحكيم أرواسي؛ تغير مجرى حياته، وبدأ عهد جديد من الوعي والإدراك، وكرس حياته لخدمة الإسلام، والدفاع عنه. وأعاد الاعتبار إلى شخصيات تاريخية شُوهت نتيجة دعايات بعض الأحزاب، مثل: شخصية السلطان عبد الحميد ،والسلطان محمد وحيد الدين. واستمر يشتغل بالكتابه حتى وفاته في ٢٦ مايو ١٩٨٣م. له عدة دواوين شعرية، وعدة مؤلفات نثرية تضم كتب فكرية، ومؤلفات إسلامية، وصوفية، ومسرحيات. هذا بالإضافة إلى القصص القصيرة، والكتب التاريخية، والأبحاث الأدبية، والتراجم، والسير، والمقالات، والسيناريوهات، والخطب. ومن أشعاره ديوان بيت العنكبوت(١٩٢٥) ومن مسرحياته خلق إنسان(١٩٣٨). انظر عزة عبد الرحمن الصاوي،"الاتجاه الإسلامي في أدب نجيب فاضل قيصه كورك"، رسالة دكتوراه، قسم اللغات الشرقية، فرع اللغة التركية، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٨٣، ص١- ٢٠

عندما كنت أمعن النظر في قصر هذا السلطان العثماني الأخير الذي كان يسكنه في فترة ولاية عهده - وكان عمره حينئذ ٣٦عاماً- هذا السلطان الذي أُتهم بخيانة الوطن، كان يجثم على صدري ظلمة، يختلف لونها عن كل ألوان المساء المتعددة.

واستقرت حينئذ بداخلي الظلال الأولى لشعر قصيدتي (استانبول حبيبتي) التي كتبتها بعد ثلاثين عاماً من هذا التاريخ:

للتاريخ عيون، وفي الأسوار ثقوب
تغطيها أشجار السرو السامقة
لم يعد هناك حصان أشهب بعد السلطان الفاتح[٣]، فقد رحل إلى السلطان في السماء
قبابنا من البرلنت، وزنها مليار قيراط
منارتنا المتجهة إلى السماء، هي أصابع شهادتنا
كل نقش فيها يعطى هذا المعنى: سنموت، ما الحيلة؟
الموت حياة الخلود، ورحمة من الذنب الثقيل
وتبكى (قرجة أحمد) بينما تختلج (باي أوغلي)

....

البسفور موقد فضي، يغلى فيه الهواء البارد المنعش
ثم يستقر هذا الماء في أعماق السماء فوق (جامليجة)
ضيف في الطابق الأسفل، لساحل المياه المتلاطمة
شكلاً، هو سفير قديم، حزين، من الدنيا الجديدة

---

(3) هو السلطان محمد الثاني، سمي بالسلطان محمد الفاتح بعد فتحه القسطنطينية عام ١٤٥٣، والتي سُميت إسلامبول أي مدينة الإسلام ثم حُرفت إلى إستانبول. وهو سابع سلاطين الأسرة العثمانية، ولد عام ١٤٢٩، ومات عام١٤٨١عن عمر٥٢ عاماً. كانت مدة حكمه ٣١ عاماً، فتح خلالها مملكة طرابزون الرومية، والصرب، والبوسنة، وألبانيا، وجميع أقاليم آسيا الصغرى. وهو من سمى الحكومة العثمانية بالباب العالي، وجعل لها أربعة أركان، وهى: الوزير، وقاضي عسكر، والدفتردار (ناظر المالية) ونيشانجي (كاتب سر السلطان). كان يجيد اللغات العربية والفارسية واليونانية والإيطالية، وكان مغرماً بالشعر الفارسي والإغريقي. وهو نفسه كان شاعراً مجيداً، واهتم بدراسة الفلسفة والتاريخ. انظر محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٣٠ - ٤٨

و(أوسكودار) تخرج ملتهبة في الأقداح كل مساء
وامتد الحريق من منزل خشبي إلى آخر، حتى قضى على المدينة العظيمة
ثمة صوت لا أعرفه، تُرى أهو صوت طنبور أم صوت عود؟
صوت يرن في الحجرات ذات النوافذ البارزة، يوجعني

....

أشياء منسوجة قديمة فوق (يدى تبه)
أعمال بارزة بلا حصر، من سبعة ألوان، وسبعة أصوات...
و(أيوب) يتيمة و(قاضي كوي) مزخرفة و(موضة) يلفها الدخان، ورياح الجزيرة مسئولة عن تطاير أطراف الثياب
ومن (حصار) تخرج كل صباح السهام من أقواسها
وتخرج حتى اليوم، الصيحات من قصر (طوب قابي)

....

هذا الشعر الذي أخذت منه بعض المقاطع، هو عبارة عن نسج من المعاني المتعلقة باستانبول في عهد أخر السلاطين، السلطان وحيد الدين، بما فيها من قصور وخرابات، وسرور وأحزان، وسعادة ومصائب.

عند المساء انظر إلى قصر(طوب قابي) الذي يبدو كخيال، من خلف شنجل كوي! وسوف تسمع- ولو كنت مقطوع الأذن- صيحات دلي مصطفى[٤] الذي يجرى في أروقة القصر الضيقة، المظلمة، ويقرع الأبواب بصورة عفوية قائلاً :

تعالى يا عثمان[٥]، تعالى يا عثمان
انقذني من مسئولية هذه السلطنة!

---

(4) هو السلطان مصطفى الأول (١٦١٧ -١٦١٨) ثم فترة حكم ثانية من (١٦٢٢ -١٦٢٣) وهو أول سلطان عثماني يُخلع ثم يتولى الحكم مرة ثانية. كان ضعيف العقل، ولذلك أُطلق عليه اسم دلي مصطفى أي مصطفى المجنون. وبعد عزله في المرة الثانية، تم حبسه في قصر طوب قابي. فكان يتخيل أن السلطان عثمان الثاني الذي قتله الإنكشارية، لايزال حياً؛ فكان يقرع أبواب القصر، وينادي عليه حتى يخلصه مما هو فيه. انظر عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها،الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص ٥١٤، ٥١٥.

(5) هو السلطان عثمان الثاني (١٦١٨-١٦٢٢).

ويربت حاجي بكتاش[٦] على ظهر الولي.

- ليكن اسمه (يني شري)[٧] ! وليكن مباركاً على الدولة.

وبعد أن يتفقد گنج عثمان[٨] سلطان الأتراك، وخليفة المسلمين، الجند الذين تم تسميتهم الإنكشارية، يضعوه فوق فرس أجرب، ثم ينغزوه في ساقه، فينطلق مثل أفراخ الحمام إلى أسوار (يدي كوله) حيث يُقتل بوحشية، بخنقه بحبل من رقبته الرقيقة.

و(مارزفونلو قره مصطفى)[٩] والرعب، والاضطراب الذي أحدثه أمام أبواب فيينا...

---

(6) حاجي بكتاش: من أعظم الأولياء منزلة عند الترك ، رحل من خراسان إلى الأناضول في القرن الثامن الهجري. عاش حاجي بكتاش إلى عهد السلطان مراد الأول. كان السلطان يزوره ويلتمس منه البركة والدعاء. وأتباعه هم المعروفون بالبكتاشية. ولما زاره السلطان أورخان في صومعته، وطلب منه مباركة فرقة من جنده، مسح بكمه رأس جندي في الطليعة قائلاً: ليكن اسم هؤلاء "يكي چري"- وتنطق يني شري- جعلهم الله بيض الوجوه، شداد السواعد، ووهبهم سيفاً بتاراً، وسهما صائباً، ونصراً مبيناً. وهذا هو السبب في أن الإنكشارية كانو يلبسون قلنسوة بيضاء - هى قلنسوة الدراويش- يتدلى منها ما يشبه كم حاجي بكتاش. انظر حسين مجيب المصري، تاريخ الأدب التركي، الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى ، القاهرة ٢٠٠٠ ، ص ٣٥

(7) في عهد السلطان أورخان الأول (١٣٢٦ – ١٣٦٠) قام أخوه الأكبر علاء الدين، الصدر الأعظم، بأخذ الشبان من أسرى الحرب، وفصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم، وتمت تربيتهم تربية إسلامية عثمانية، بحيث لا يعرفون أباً إلا السلطان، ولا حرفة إلا الجهاد في سبيل الله. ولعدم وجود أقارب لهم بين الأهالي، لم يكن يُخشى من تحزبهم معهم. ولما صار عنده عدد كبير منهم، سار بهم إلى الحاج بكتاش، ليدعو لهم بخير. فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء، وقال: فليكن اسمهم "يني شري" أي الجيش الجديد. وصارت الكلمة تُكتب وتُنطق "الإنكشارية" باللغة العربية. انظر محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق محمد احسان حقي ، مرجع سبق ذكره ص ١٢٣

(8) گنج عثمان: وتُنطق جانش عثمان أي عثمان الشاب، وهو السلطان عثمان الثاني، الابن الأكبر للسلطان أحمد الأول. ولد عام ١٦٠٤، وتولى السلطنه وعمره ١٤ عاماً. كان واسع الثقافة يميل إلى دراسة الأدب، والتاريخ، ويتقن اللغة العربية، والفارسية، والإيطالية. قامت الإنكشارية بقتله، حيث هجموا عليه في قصره، وانتهكوا حرمتة بعد عزله من السلطنة، وقادوه عنوة إلى ثكناتهم، وأوسعوه سباً وإهانة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الدولة العثمانية. ثم نقلوه إلى قلعة يدي كوله - أي القلعة ذات الأبراج السبعة- حيث أعدموه عام ١٦٢٣. انظر İslam Ansiklopedisi,cilt 10, Beşinci Baskı,a.g.e. s.443-448

(9) كان مارزفونلو قره مصطفى صدراً أعظم (رئيس الوزراء) في عهد السلطان محمد الرابع، حاصر مدينة فيينا عاصمة النمسا في عام ١٦٨٣ لمدة شهرين. واستولى على كافة قلاعها الأمامية، وهدم أسوارها، ولكنه انهزم ورجع، تاركاً كافة المدافع والذخائر والمؤن. ولما وصل خبر هذه الهزيمة التي لم يسبق أن مُني بها جيش الدولة العثمانية، أرسل السلطان أحد حاشيته فقتله. انظر محمد فريد بك المحامي ،تاريخ الدولة العلية

امتلأ الطريق إلى استانبول بالخيول النافقة، والقلنسوات، والطرات، وبقايا السرادقات، وعربات المدافع، والرايات ... ومع ذلك تمت المحافظة على راية سيد الكائنات، المقدسة. ومن ذلك الحين حتى يومنا هذا، صار أسلوب الدفاع، أسلوب مشتت لاهدف له. صار الدفاع في يد جماعة من المتوحشين، المتعصبين، القساة، الرجعيين. قليلي الخبرة. من ذوى المزاج الأسود الذي يتناسب مع نفوسهم السوداء، التي لا تستطيع أن تفهم الحكم التي تملىء بها معايير الدين. فهى جماعة عاجزة عن الارتباط بالدين، والشعور الطيب، وعن الانتباه للوقائع والأشياء، ولم يبق من الإمبراطورية التي ضاعت قطعة، قطعة، سوى استانبول ... ورجال سياسة، لم يجدوا أى وسيلة للترقي، سوى تقليد العدو بدون وعى. فقد كان ذلك، أخر ما لديهم من حيلة ... وتنظيمات، عبارة عن معبر لجميع الأبطال المزيفين، والأقزام المزركشين. نموذج التنظيمات التي وصفها قيصر روسيا بـ"الرجل المريض!"

وجاءت نهاية النهاية للدولة الخالدة في لحظة اقتسامها بعد أن حفظها السلطان العظيم عبد الحميد خان الثاني، الأخ الأكبر للسلطان محمد وحيد الدين. كان خلع السلطان عبد الحميد الثاني من العرش شاهداً على سقوط كل شيء من أساسه ... ومن بعده جاء السلطان رشاد، الأخ الثاني، هادم الدولة ومضيع الأمة الذي عُميت عيناه عن رؤية الزوبعة، فكان نموذج المتوكل، المتواكل ... ومن بعده ...

أه من هذا القصر وما يثيره فينا من ذكريات!

إنني أرى الطريق الذي يقع بين (بايلر بايي) و(كوله لي) عبارة عن برزخ للتاريخ تخرج منه الأنات وقد اختلطت بحفيف أوراق الأشجار.

إن شارع (ياليلربويو) الذي يقع بين (بايلربايى) و(حوض باشي) يُعد دهليزاً للأسرار الباهتة التي لم يعد يبدو منها سوى خيالات لأخر الطبقات الأرستقراطية القديمة في استانبول. تلك الطبقة لم تتخل حتى الآن عن الياقة المرتفعة، المنشاة. ورابطة العنق الحمراء. لكن بدلاً من الطربوش، وضعوا على رؤوسهم تلك القبعة المضحكة. وترى رجال المشروطية المسنين الذين تقاعدوا، يسيرون الآن وكأنما يزحفون حتى يكادوا يقعون، يمسكون بعصي مقابضها صنعت من سن الفيل، ويرتدون الصديرات الفخمة، والساعات

العثمانية ، تحقيق محمد إحسان حقي، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠١

الذهبية ذات السلاسل. وتجد هانم زمان ترتدي على رأسها التيربون الأسود، وعلى ظهرها معطف قصير، وفي قدميها حذاء أسود لامع. يلتفعن بالوقار والحكمة في مواجهة البهرجة ... خيالات عدة ظهرت في شارع (ياليلربويو) بعد أن فرق الزمان الطويل كل واحد عن الآخر ...وقبل ٤٠ عاماً، كانت هذه الخيالات أخر انعكاسات لشمس الماضي التي غابت. هذا الشارع يمتلئ الآن بالمساكن ذات الأسقف المكعبة الرفيعة التي يُسمع بداخلها هدير أصوات السائرين، ويعج بالأتوبيسات، وسيارات الدولمش، وهدير من الفتيات ذوات التنورات القصيرة، والفتيان ذوى الشعور الطويلة.

وها هو مصيف (إسماعيل باشا) الملاصق لجامع (بايلربايى) ومصيف (حاسب باشا) المشهور، المعروض تصميمه في أكاديمية الفنون الجميلة بلندن. وقصر المصريين ومصيف الشيخ (محسن فاني) من الكتاب الأقدمين، وغيره وغيره... وفي النهاية نرى - من فوق الجسر الذي أمام رصيف ميناء (چنگل كوي)- قصر وحيد الدين أفندي ...

في أحد الأيام علمت أن بعض أجزاء قصر وحيد الدين مفتوحة للزيارة، فذهبت لمشاهدة القصر:

عدة ثريات بلورية لا يمكن تحريكها أو تهريبها بأية حال ... كؤوس ملونة ... نقوش في السقف أفسدتها الرطوبة ... جدران مكسوة بالحرير والخشب المُذهَّب ... وفجأة رأيت على البعد ثلاثة فرسان من عهد حرب القرم التي اندلعت في عهد السلطان عبد المجيد، ثلاثة فرسان: سرديني وإنجليزي وفرنسي، فوق خيولهم، يرتدون ألبستهم المزركشة. وتخيلت أن النغمة الصادرة عن ساعة الحائط، موسيقى عسكرية، تصاحب هؤلاء الفرسان الثلاثة، وهم يتجهون بخيلهم ناحية معسكر سليمية.

في كل حجرة دخلتها -بعد أن أدرت مقابض أبوابها البالية، الباهتة، المصنوعة من النحاس- وجدته هناك، منحنياً قليلا إلى الأمام، بعينيه الفاحصة التي ترى داخل الإنسان أكثر من خارجه ... ونظارته المعلقة على أنفه ... وشاربه الأشهب الطويل ... كان يجلس على أريكة، ويسند يده اليمنى على حافتها. كان ينتظر دخول إحدى الحجرات ... كانت الحجرة التي ينتظر فتح بابها هي حجرة التاريخ! ....

كان قصر الأمير وحيد الدين أفندي الذي تحيط به الأشجار الكثيفة، والذي بنى في ركن

هادئ بالقرب من أعلى سد على الدردنيل، يبدو بالنسبة لي، قصر خشبي أصيل ذو مغزى وشخصية، بالمقارنة بالقصور التي لوثتها الطرز المعمارية الأوروبية، مثل طراز (باروك أو روكوكو)[١٠] الذي يشبه مريلة الأطفال الدانتيلا التي لوثتها الأطعمة المختلفة. وهذه القصور هي: (دولمة باغچة، وبايلربايي، وقصر المجيدية، وغيرها من القصور).

وداخل قصر الإمارة، أصبحت كمن يقرأ من كل خط، وكل لون، وكل ركن، وكل موضع، سطور حياة "هذا" السلطان التعيس الذي أُطلقت عليه صفة "خائن الوطن"، وهو الذي أعتلى عرش السلطنة، وقت سقوط الإمبراطورية بالضبط. فكأنما قد وُضع في هذا المكان المنعزل ليشاهد أولاً، العرش العثماني، وقد أحاطت به النكبات من كل جانب. ثم يعتلي هذا العرش، ليصبح هدفاً منفرداً، "وحيداً"، عندما يحين وقت الثأر الداخلي والخارجي.

عبد المجيد:

ولد وحيد الدين في أول فبراير عام ١٨٦١، في أواخر عهد السلطان عبد المجيد. وأعتلى العرش- ليصبح أخر سلطان عثماني- في سن ٥٧ عاماً، في عام ١٩١٨، قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى.

عصر عبد المجيد قال عنه الفرنسيين: "الزمن الجميل"، فهو أبهى عصر للمدنية أو للحضارة الغربية ... فالزي المزركش الذي كان يرتديه الفرسان الثلاثة، الساردينى

---

(10) باروك: هو اصطلاح مستعمل في فن العمارة والتصوير، معناه الحرفي، شكل غريب، غير متناسق. وقد ظهر هذا الفن أول مرة في روما في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر الميلادي، كرد فعل مضاد للكلاسيكية. ويتميز الأسلوب الباروكي بالفخامة، ويمتلئ بالتفاصيل المثيرة. ومن أمثلة القصور الباروكية الفخمة: قصر فرساي بفرنسا، وبهو الأعمدة في روما في كنيسة القديس بطرس. وفي القرن الثامن عشر تطور الفن الباروكي إلى أسلوب أكثر سلاسة وخصوصية، وهو ماعُرف بفن الروكوكو. ظهر هذا الطراز من الفن في القرن الثامن عشر، ويعد امتدادا للباروك، ولكن بمقاييس جمالية تتسم بالسلاسة والرقة. فقد ابتكر المهندسون زخارف استمدوها من شكل الصدفة أو المحارة غير المنتظمة الشكل، ذات الخطوط المنحنية. وهويعتبر فن التزيين الداخلي. واستمر هذا الطراز مزدهرا في ألمانيا وفرنسا بصفة خاصة، واختفى من فرنسا بعد قيام الثورة الفرنسية. وفن الروكوكو لم يكن فن الملوك، كما كان فن الباروك، وانما كان فن الطبقة الأرستقراطية، والطبقة الوسطى الكبيرة. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص ٣٠٧

والإنجليزي والفرنسي، كانت زركشته تسود أوروبا كلها ... كان هذا الزى عبارة عن حذاء طويل الرقبة، وبنطلون ضيق بشريط يمر أسفل الحذاء، وقميص حريري، وسترة ذات ياقة من الفرو، وقبعة مستديرة. وكان نموذج أيضا لما يرتديه المواطن الأوروبي ...وكان الوضع في العالم كالتالي ...

كانت الدول الرأسمالية التي لم تتأثر بالأزمة الغربية الكبيرة في ذلك الوقت، لا تفكر في شيء سوى السعي إلى استعمار واستغلال الدول الأخرى. وسعت إلى إيجاد مخرج لها، ولرؤوس الأموال الغربية التي تراكمت، فاتجهت إلى الشرق ... كانت الاشتراكية مجرد فكرة ... نظرية ... مجرد خيال ... وكانت الشيوعية أو (الاشتراكية العلمية) أو (التجمع الألماني)- قبل أن تختمر على يد (كارل ماركس) و(إنجلز)[١١]- لا تعدو أكثر من مجرد صدى سيء (للكاكوفوني)[١٢]... وبعد عدة سنوات تم عقد (الاجتماع العالمي الأول) وأعقبه صدور (البيان الشيوعي) وأصبحت الشيوعية حقيقة واقعة، وليست مجرد فانتازيا أو نبوءة تتنبأ بموت المجتمع الغربي من فنجان القهوة.

في عهد المدنية الغربية، من يمكن أن يرمز لتركيا المدهشة، الناضجة، كثمرة التين المشروخة الذي سال عسلها، أكثر من عبد المجيد؟

كان عهد التنظيمات، الذي تذكرته ضمن الذكريات التي راودتني عند مشاهدة قصر وحيد الدين افندى الذي في (چنگل كوي) عبارة عن واجهة زجاجية غربية، فالزيت والماء لا يمتزجان أبداً، ويظل دائماً أحدهما فوق الآخر. فهي واجهة المتناقضات التي لا يتلاءم بعضها مع بعض ... والأشياء الأساسية التي تحتويها هذه الواجهة هي: في القسم الأعلى، السلطان عبد المجيد الشاب مرتدياً طربوش بطرة من الصدف اللامع البراق، وسترة طويلة منقوش صدرها بالقصب، وبنطلون ضيق، وحذاء برقبة أسود لامع ... انظر! لاتوجد

---

(11) فريدريك إنجلز (١٨٢٠-١٨٩٥) هو اشتراكي ألماني، أسهم مع كارل ماركس في وضع أسس النظرية الاشتراكية الحديثة، وفي صياغة البيان الشيوعي الشهير عام ١٨٤٨. اشترك في تدبير الحركات الثورية في أوروبا. ومن أهم كتبه (عالم الاشتراكية العلمية) ١٨٧٨ و(الدولة والملكية الخاصة) و(أصل الأسرة) ١٨٨٤. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٧

(12) الكاكوفوني: في لغة الموسيقى تعني التنافر وعدم التناغم، وهى عكس السيمفوني، التي تعني التناغم أو الانسجام .انظر http://www.aawsat.com

قلنسوة أو سروال أو حذاء مغطى. لمن تخلت عن أماكنها طيلة نصف العصر؟

وهل بهذه البساطة تتخلى عن أماكنها؟

إذا مر شخص بزورق، أمام قصر المجيدية الذي يبعد عدة خطوات عن قصر بغداد الملاصق لقصر (طوب قابي) وليس في نيته المقارنة، سيجد فرقاً ... فرق الأصالة والحقيقة التي بين المسكن الغربي الذي يخرج من داخله الأضواء الساحرة، الملونة، والقبة الشرقية التي بدأت أنوار قناديلها في الانزواء. ولا يمكن لأي شيء أخر عدا هذين المبنيين الملاصقين لبعضها البعض، أن يوضح وعلى نحو بارز هذا الفرق. ماذا يفعل قصر المجيدية الصغير الذي بلا شخصية، بطراز (الباروك وروكوكو) الفرنسي الذي يثير الغثيان، بجانب قصر طوب قابي، ذلك المبنى التاريخي، ذو الشخصية الأصيلة، الممهورة بسطور الوقار العريق، ذو المغزى الصامت المغلق؟ هل تعلمت المنازل التي بنيت ملاصقة لجامع السليمانية الكبير، هي والعمارات ذات الأسطح المكعبة الشكل، والألوان المتموجة، والتي بنيت برمال البحر -على مر الزمان- درس الوقاحة الأول، من قصر المجيدية أم من روح بناءيه؟

ويبدو واضحاً أن المعماري (سنان) الفنان العظيم، قد ترك مكانه إلى البناءين الذين يصعدون بالمنزل، دور فوق دور، كأوراق الكوتشينة. ولهدم هذه المنازل الجديدة، تكفي نفخة خفيفة، وليس ريحاً عاتية. فقد ضعف الجمال بضعف الدولة الذي بدأ في عصر السلطان عبد المجيد، حتى قارب الفناء والهلاك. تُرى في أي عصر سيكون هذاالفناء، وأي سلطان سيصيب؟ وهذا السلطان الذي سيجيء في هذا العصر، هل هو ساهم بالكثير أم بالقليل في تحقيق هذا الفناء، أم أنه تحمل وضعاً يحتاج لصبر شديد؟ مثل أب عائد من السفر، وقع ضحية للقدر، فيتسلم ابنه منزلاً مليئاً بالأحزان، دون أن تكون له أدنى مسئولية عما حدث؟

وهذا هو السؤال ... وتهب رياح المعنى التي في داخل هذا البحث، من أول حرف إلى أخر حرف فيه، وتدور حول هذا السؤال فقط.

وحتى نعرف الفرق بين الدولة في عام١٨٣٩- حيث بدأ الاتجاه إلى الاقتداء بالغرب- والدولة في الثلاث عهود التي سبقتها، ننظر إلى قصر (طوب قابي) ونقارن بينه وبين قصر (المجيدية) الذي يشبه الخُن الصغير.

ولنجري عرضاً سريعاً لـ ٧٩ عاماً تلت التنظيمات:-

السلطان عبد المجيد هو أول من عمل على دب الروح في عملية التغريب، وعكس ضوئها بالمرآة ... وهو ابن السلطان محمود الثاني(١٣) الذي قطع بنفسه، السلالة العثمانية وقضى على نسله وحياته، هارباً من شرك لشرك.

قضى السلطان محمود الثاني على الإنكشارية بضربة واحدة، وشنق (باتريك جوروجوريس) الذي ثبت تحريضه لليونانيين والمسيحيين على الثورة، على باب بيته، في حي الفنار. كان يعاني من العزلة، ولم يستطع إدارة الدولة، والجيش الجديد، بعد أن تحطم أسطوله في (نافارين)(١٤) وبعد أن دخل تحت حماية روسيا تقريبا، بموجب معاهدة (خونكار اسكله سي)(١٥). وكان ضعيفاً لدرجة عدم قدرته على التصدي لجيش واليه، محمد على باشا.

---

(13) ولد السلطان محمود الثاني ابن السلطان عبد الحميد الأول، وجد السلطان محمد وحيد الدين، في عام ١٧٨٥. وتولى العرش عام ١٨٠٨، وهو في الرابعة والعشرين من عمره، وسار في طريق الإصلاح والاتجاه نحو الغرب. ورأى أن يبدأ بالإصلاح الحربي، فكلف الصدر الأعظم (مصطفى البيرقدار) بتنظيم الإنكشارية وإصلاح أحوالهم. حاول الصدر الأعظم أن يقوم بالمهمة التي كلفه بها السلطان، فثار الإنكشارية ضده، وحاولوا تولية السلطان السابق (مصطفى الرابع) ليكون ألعوبة في أيديهم. وأضرموا النيران في السرايا الحكومية، ومات الصدر الأعظم محترقا وهو يحاول أن يقضي على تلك الفتنة، واضطر السلطان أن يخضع لهم بعد أن أضرموا النار في العاصمة، وكادت النيران أن تقضي عليها. ثم تخلص السلطان من الإنكشارية في عام١٨٢٦، لأنه كان يرى أنهم عقبة في سبيل أي إصلاح. وألقى القبض على شيوخ البكتاشية التي كانت تُعد العقل المدبر لتصرفات الإنكشارية. ثم شرع في بناء فرق عسكرية تأخذ بالنظم الحديثة. وأنشأ مدرسة حربية لتخريج الضباط. واستدعى عدداً من الضباط من بروسيا لتدريب القوات الجديدة. وأنشأ السلطان عدداً من الترسانات البحرية في عدد من الثغور. واهتم السلطان أيضا بتنظيم التعليم الأساسي. وإرسال البعثات العلمية إلى لندن وباريس، لتحصيل الفنون والعلوم الحديثة. أُصيب السلطان بمرض السل ومات في عام١٨٣٩، وخلفه السلطان عبد المجيد الأول. انظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩٨، ٣٩٩

(14) معركة (نافارين) أو نوارين: هي معركة بحرية وقعت في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧م، بين الأسطول العثماني، والأسطول المصري بقيادة ابراهيم باشا، والأسطول الجزائري، ضد أساطيل بريطانيا وفرنسا وروسيا، في خليج نافارين، في جنوب غرب اليونان، خلال حرب الاستقلال اليونانية،عندما رفضت الدولة العثمانية إجلاء جنودها عن المورة. وفيها انهزم العثمانيون، وتم تدمير الأسطولين المصري والعثماني. واضطر محمد علي إلى تكليف ابنه إبراهيم باشا بالجلاء عن اليونان عام ١٨٢٨. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص 1851

(15) عُقدت معاهدة (خونكار إسكله سي) بين روسيا والدولة العثمانية في ٨ يوليو عام ١٨٣٣. وقد تعهدت فيها الدولتان بالتعاون إذا تعرضت إحداهما للاعتداء. وتضمن الملحق السري للمعاهدة، وعد من السلطان

انظر إلى حال محمود الثاني الذي جاء من نسل السلطان سليم الصارم(ياووز)، فاتح مصر. انظر إلى جيشه وقد انهزم أمام واليه في سهل (نيزيب)[١٦] في جنوب الأناضول. في تلك الأثناء كان يعمل في الجيش العثماني كمستشار، ضابط بروسي برتبة (يوز باشي) اسمه (مولتكة)[١٧] أو مولتكة الكبير. ذهب مولتكة إلى السلطان فوجده ينتظر خبراً من كبير المنجمين، في وقت هجوم الجيش. عندما رأى الضابط هذا، ربت على ظهره، وقال له: "لا أستطيع أن أعمل في جيش مثل هذا" ثم رحل.

مات محمود الثاني، في قصر أخته الأميرة أسماء في (جامليجا)، دون أن يعلم باحتلال (نيزيب). مات محمود الثاني الذي حقر الدولة، لدرجة أنه اشتكى واليه، محمد علي باشا، إلى الروس، وطلب المساعدة من عدو الدولة التاريخي، وتسول منهم قائلاً: "انقذوني من هذا الموظف".

بإغلاق الدردنيل في وجه جميع الدول ماعدا روسيا، إذا اقتضت الضرورة ذلك. انظر محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، مرجع سبق ذكره، ص ١٧١.

(16) تمرد إبراهيم باشا ضد الدولة العثمانية، واجتاحت جيوشه بلاد الشام عام ١٨٣١، واستولى على سوريا وعكا. وفي عام ١٨٣٢ انتصر على الجيوش العثمانية بقيادة رشيد باشا في قونية، وتم أسر رشيد باشا، واستولى على أضنه. وفي عام ١٨٣٣ وقّع اتفاق مع العثمانيين الذين وافقوا على أن يصبح حاكماً على سوريا وأضنه. وفى عام ١٨٣٨ نشب نزاع آخر بين العثمانيين وابراهيم باشا، فى محاولة منهم لاسترجاع سوريا. ولكن إبراهيم باشا هزمهم مرة أخرى. وفى ١٨٣٩ استولى على حيفا. وفى ٢٤ يونيو ١٨٣٩ حارب الجيش العثماني عند بلدة نصيبين أو نيزيب، وانتصر على القوات العثمانية. ولكن الحكومات الأوربية أجبرت محمد على باشا، على توقيع اتفاق ينص على أن يحكم محمد على مصر حكماً وراثياً، ويستقل عن الحكم العثمانى. وفى المقابل يعيد سوريا وأضنه للدولة العثمانية. وفى فبراير ١٨٤١ قامت قوات بريطانية، وقوات أخرى من النمسا، بطرد القوات المصرية من أضنة وسوريا. انظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص ٤٥٣-٤٦٢

(17) مولتكه: هو ضابط بروسي، يعد أحد أربعة قامت على أكتافهم الإمبراطورية الألمانية الحديثة، فى مطلع عام ١٨٧١. وهؤلاء الأربعة هم (غليوم الأول وبسمارك وفون رون ومولتكه) .عُين ضابطاً بالجيش البروسي، ثم سافر إلى استانبول، ونال تقدير السلطان محمود الثاني، وخدم في هيئة أركان الجيش العثماني. واشترك موقعة نصيبين أو نيزيب التي انهزم فيها الجيش العثماني أمام الجيش المصري. وبعد الهزيمة عاد إلى بروسيا، وتدرج في الوظائف العسكرية حتى عُين رئيساً لأركان الحرب بالجيش البروسي. حصل على رتبة مشير ثم تقاعد عام ١٨٨٨. توفى عام ١٨٩١. انظر عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص ٥٥٤ ، ٥٥٥.

قضى محمود الثاني في السلطنة، ٣١ عاماً و١٦ يوماً. ولم يستطع أن يقدم للدولة العثمانية شيئاً سوى عدة أزمات لا منطق لها ولامعنى. أزمات وضعت الدولة في أحرج وضع، وظل هو بعيداً عن الحساب. وقبل وفاته - التي حدثت في عام ١٢٥٥- بعام واحد أصيب برعب وخوف وضيق نفسي، وكان لا يستطيع الوقوف، بل يجلس دائماً على الأريكة. ولم يعد يقدرعلى امتطاء ظهر جواده. كان يقف خلف نوافذ طوب قابي سراي، وينظر إلى الزجاج الذي يعكس شمس المساء خلف جامليجا، ويبكى بكاءاً مخنوقاً في لحظة سقوط الدولة، وما أحدثته من دوي هادر. وسرى الجرح الذي أصاب كبد الدولة العثمانية إلى كبد السلطان محمود الثاني، وانفتحت في كبده ثقوب عديدة.

وأوصى الأطباء بالآتي:

لقد تعرض كبدكم لعفونة، لابد من تغيير الجو. يحسن أن تذهب إلى جامليجا، فالجو هناك أنقى! وفي جامليجا، في قصر أخته الأميرة أسماء، تناول الدواء الذي أوصى به طبيب أوروبي. ونام ثلاث ساعات، ثم استيقظ وطلب الطعام، ودخن سيجارتين تبغ. وعندما رأته أخته بهذه الحالة صاحت قائلة: وفرحتاه! تحسنت صحة السلطان ... وعم القصر هرج ومرج وفرح. لكن هذه كلها كانت علامات كاذبة. ذُبحت الذبائح، وأُفرج عن ٢٠٠ حاج كانوا محتجزين في الحجر الصحي بسبب الوباء. وقاموا بتصفية حسابات المحبوسين على ذمة دين، وفتحوا لهم أبواب السجن وأطلقوا سراحهم. وفي الليل انطلقت الألعاب النارية، وسطعت سماء استانبول بالأضواء . لكن لم يستطع كل هذا تغيير نهاية السلطان محمود الثاني، الذي شعر في اليوم التالي لتلك الاحتفالات بثقل، ثم أسلم الروح فجأة. وفي الوقت الذي كانت فيه روح السلطان محمود الثاني تنسحب منه، كانت هذه الاحتفالات لاتزال قائمة، ظناً بأن صحته قد تحسنت. واصطف الشعب على طول طريق الديوان أو(ديوان يولي) يصرخون ويبكون أثناء سير جنازته نحو المكان الذي سيدفن فيه بجانبه فيما بعد، السلطان عبد الحميد الثاني، في (چامبرلي طاش) حيث أقيم قبره بجانب قبر محمود الثاني، وكانت الجماهير تقول:

يا سلطاننا إلى أين تذهب وتتركنا؟

أي معنى حزين، تثيره هذه الصرخات التي أطلقتها الجماهير بعد رحيل عبد المجيد، وعبد العزيز ومراد وعبد الحميد الثاني ورشاد ووحيد الدين؟ وهي صرخات مست زمن

دخول (كوبري الصراط) في الدولة العثمانية.

ويقول الشاعر إسقاطاً على عام ١٢٥٥هـ المشئومة، التي توفى فيها السلطان محمود الثاني، وأعتلى العرش السلطان عبد المجيد الأول، وقُرأ فيها فرمان التنظيمات[١٨] في ميدان گلخانة:

واحد أثنين وخمستين

أصبح عبد المجيد ملك

فقد عُرف عام "١٨٣٩م-١٢٥٥هـ" بأنه العام الذي قسم التاريخ التركي إلى قسمين.

أصبح عبد المجيد الأول فتى، بلغ مرحلة نضج جديدة في سن السادسة عشرة. ورث عن والده نفس جراح الكبد ورقة ونحافة جسده. لم يكن مضطرباً عقلياً أو نفسياً. فالسلاطين العثمانيين حتى السلطان عبد الحميد الثاني، لم يصابوا بأي اضطراب عقلي أو نفسي، لكن هذا الاضطراب بات واضحاً في السلطان رشاد. أما بالنسبة للسلطان محمد وحيد الدين السادس فكان يبدو هذا الاضطراب في روحه، فقد كان هناك اضطراباً عميقاً مؤلماً يعشش في وجدانه، اضطراب كامن لا يظهر أثره ولا صوته.

كان عبد المجيد الأول غريباً وبعيداً عن هذا الألم عند المقارنة، فهو قد فتح ذراعيه لأوربا وللغرب، ولم يستطع أن يواصل حياة تعمقت فيها جراح كبيرة، جراح مادية ومعنوية على مدى ما يقرب من ٢٠ عاماً.

---

(18) يُقصد بالتنظيمات: تنظيم شئون الدولة العثمانية على غرار الدول الأوروبية، وتقريب العالم الإسلامي من العالم الغربي. وجاء هذا الاتجاه بعد الضعف الذي دب في أوصال الدولة العثمانية، وبعد الهزائم المتكررة التي مُني بها الجيش العثماني. وتم تبنيه اعتقاداً بأن الأخذ بأشكال الحكم الأوروبية، سئؤدي إلى قيام دولة قوية وحديثة. وقد مرت حركة التنظيمات بمرحلتين : الأولى، وهى التنظيمات العثمانية الخيرية المعروفة بـ"بخط شريف گلخانة" التي أعلنها السلطان عبد المجيد الأول عام ١٨٣٩ والتي دعت إلى ضرورة إحداث تغييرات جذرية في مؤسسات الدولة. وعدم التفرقة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، على أساس من مذاهبهم أو انتمائهم العرقي. وحرية ممارسة الشعائر الدينية لكل المذاهب. والثانية، وهى حركة الإصلاحات المعروفة بـ"الخط الهمايوني" التي أعلنها السلطان عبد المجيد الأول في عام ١٨٥٦، والتي أكد فيها على المباديء الإصلاحية الواردة في "مرسوم الگلخانة". وهى تتضمن المبادئ والقواعد المستمدة من الأنظمة الأوروبية. وانتهى عهد التنظيمات في عام ١٨٧٦، عندما تولى السلطان عبد الحميد الثاني الحكم، وأعلن المشروطية الأولى. انظر محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني أخر السلاطين العثمانيين الكبار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨، ٢٩

يرى (انكلهارد) المؤرخ الفرنسي، في كتابه المسمى بـ (تركيا والتنظيمات): أن مصطفى رشيد باشا[١٩] كان دليلاً على أن السلطان عبد المجيد الأول لم تكن لديه شخصية. يقول انكلهارد: "لم تكن لدى السلطان أية سياسة سوى السعي لإرضاء أوروبا. وقد أصبح ألعوبة في يد رشيد باشا الكبير(تلك الصفة المضحكة التي ألحقها الاتحاديون باسمه)، فهو الذي مضى بسفينة الدولة في طريق التفرنج بدون محاسبة أو تحليل أو مراقبة أو تفتيش".

واستمرالسلطان عبد المجيد الأول بالسير بسفينة الدولة القديمة، المتهالكة، الذي أخذ الماء يتسرب من كل جزء في بدنها، إلى أن اصطدم بالصخور، وقام بالاقتراض من رأس المال الغربي، اقتراضاً مادياً ومعنوياً.

وكانت من ضمن الأشياء التي تُعتبر قمة الحداثة في رأي السلطان عبد المجيد الأول، والتي أدرجها بإيعاز من الثوريين المزيفين، هو مد اليد للخزينة الغربية، وإصدار نقود ورقية، مما أدى إلى تدهور النظام الاقتصادي المحلي.

ولمواجهة روسيا التي نصبت من نفسها جلاد غربي يعمل على تصفية تركيا، التجأ إلى أوروبا التي كانت تهدف دائماً إلى القضاء على الأتراك، ولم ترض أبداً عن علاقتهم بروسيا أو تطورهم. فقام بعقد الاتفاقيات، وبهذا استطاع أن يقف في وجه الروس. وظهرت في شوارع استانبول وأسكي دار، الأزياء الإنجليزية والفرنسية والإيطالية المزركشة المبهجة. وبعث الحياة والروح في سطور، وخطوط، مناخ "الزمن الجميل" بكل ألوانه.

وكان أول مظهر لهذه الروح هو ابتلاء السلطان بداء الشرب والنساء والإسراف. فقد كان ينفق على حفلات وولائم السلطنة، نقود كثيرة يمكن أن تملأ ما بين سراي بورنو وحيدر باشا، نقود ملقاة في البحر. كانت ولائم وأفراح مثل تلك التي نقرأ عنها في حكايات ألف ليلة وليلة، وهذا بناءً على رواية أخت السلطان. كانت النساءالأوروبيات تظهرن في حفلات السفارات عاريات الظهر. وكان خليفة المسلمين وسلطان العثمانيين يضع على صدره نيشان "الشرف" الأفرنجي، عند حضوره حفل راقص أقامته سفارة فرنسا. النتيجة ... رقد الوطن مريضا بمرض عضال في الظلام، واستُبدلت الشمس والقمر والنجوم بأضواء أوروبية

---

(19) كان مصطفى رشيد باشا سفيراً للدولة العثمانية في باريس ثم لندن. استدعاه السلطان عبد المجيد الأول، وعينه وزيراً للخارجية، ثم صدراً أعظم. وكان من دعاة الإصلاح، وساهم في وضع "خط شريف گلخانة" عام ١٨٣٩، وهو الذي قرأه. انظر المرجع السابق، ص ٢٥، ٢٦

صناعية متعددة، زائفة، وخادعة. ثم كانت "المسألة الشرقية"[(٢٠)] على حد الوصف الأوروبي. "شيء غريب وصف الخليفة بإنه مشيد الكنائس المسيحية! ..."

أصبح لدي عبد المجيد الأول ٣٠ طفلا، ولم يكن قد بلغ الأربعين من عمره، كان محمد وحيد الدين الطفل رقم ٢٣ ... و الطفل الثالث، كان السلطان مراد الذي جاء بعد ابنتين هن الأولى والثانية، أما الطفل الخامس، فكان عبد الحميد الثاني، والثامن، كان محمد رشاد.

مات عبد المجيد الأول بسبب مجونه، وابتلائه بمرض السل، قبل أن يصل الطفل محمد وحيد الدين إلى السن الذي يستطيع أن ينطق فيه كلمة "بابا".

بعد وليمة كبيرة تثير حقد روما في أيام انحطاطها، شعر بالغثيان، ورقد على سريره، و تقيئ هذه المرة دماً. تم عزله في قصر اهلامور في (بشيك طاش). وفي ٢٥ يونيو عام ١٨٦١ أسلم الروح.

كان محمد وحيد الدين - أخر ابناء عبد المجيد الأول الذكور- عمره حينئذ حوالي أربعة شهور.

---

(20) المسألة الشرقية: مصطلح عام يطلق على العلاقات السياسية بين بعض الدول الأوروبية، وبين الدولة العثمانية في القرنين ١٨ ، ١٩ وأوائل القرن العشرين. بدأت المسألة الشرقية بنهضة روسيا كدولة أوروبية تحت حكم قيصرها بطرس الأكبر. وبانهيار تركيا منذ مطلع القرن ١٨، ساد إنجلترا وبروسيا الخوف من نتائج التوسع الروسي عقب الحروب التركية الروسية التي نشبت في القرن ١٨، إذ رأت بريطانيا في هذا التوسع، تهديداً لمصالحها في الهند. فتحالفت مع بروسيا وهولندا للوقوف في وجه الخطة الروسية النمساوية التى استهدفت تقسيم تركيا عن طريق استيلاء روسيا على المضايق والقسطنطينية، وبسط النمسا نفوذها على بعض الأراضي البلقانية. وتتابعت الحروب بين روسيا وتركيا طوال القرن الـ ١٩، بسبب المطامع الروسية. فنشبت حرب عام ١٨٠٦ التي انتهت بصلح بوخارست ١٨١٢، وحصلت فيه روسيا على بعض المكاسب على البحر الأسود. ثم حرب ١٨٢٨ – ١٨٢٩ وانتهت بصلح أدرنة الذي اعترف فيه الباب العالي باستقلال اليونان. وعندما هدد محمد علي باشا السلطنة العثمانية، اتحدت روسيا وبريطانيا مع تركيا للوقوف ضد محمد علي، وعملا على حرمانه من مكاسبه الحربية عام (١٨٣٣ – ١٨٤٠) ثم انهار هذا الحلف. وعندما طالب قيصر روسيا بحق حمايته للرعايا المسيحيين في تركيا، تحالفت إنجلترا وفرنسا لمساعدة الرجل المريض (تركيا) في حرب القرم (١٨٥٣–١٨٥٦) التي خرجت منها روسيا مهزومة. ونشبت حرب رابعة بين روسيا وتركيا في عام (١٨٧٧–١٨٧٨)، خرجت منها روسيا منتصرة، وفرضت شروطها في معاهدة سان ستيفانو ١٨٧٨. ولكن إنجلترا حرمت روسيا من معظم مكاسبها في معاهدة برلين ١٨٧٨، بتأييد بسمارك لها. ثم نشبت الحروب البلقانية (١٩١٢ – ١٩١٣) التي انتهت بتمزيق الدولة العثمانية في أوروبا. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص١٦٩٣

عبد العزيز:

كانت الأعوام الأخيرة من عهد السلطان عبد المجيد، سنوات انكسار بالنسبة لشعب استانبول ... فقد كان الشعب على حق عندما خرج وراء السلطان محمود الثاني، يبكي ويصرخ قائلاً: "إلى أين تذهب وتتركنا؟"

ومن بعد السلطان الفاني، لم يبق شيء من فرمان (١٨٣٩)،المقروء في ميدان گلخانة، أمام أناس كانوا عبارة عن مجرد ملابس مرصعة، خاوية من الداخل، مثل تماثيل متحف الشمع. أمام ملابس الوزراء، وعمامات العلماء، التي لم تستطع حماية الدعاوي. وملابس السفراء الواعية جيداً للمخططات. والملابس الروحية سوداء اللون والمقصد. وملابس جموع غفيرة من الشعب، كان رد فعلهم تجاه ما يرونه يحدث أمامهم، النظر ببلاهة.

طيلة العصور لم تستطع الحملات الصليبية، ولا النطح في الجباه، أن تُركع هذا الوطن. لكنه وصل الآن إلى حالة الفناء، بعدما انتشرت الميكروبات داخل جسمه بفعل عملاء التقليد. ومضى هذا كله، ورحل السلطان المحتشم، الألعوبة، بلا حساب ولا فهم. وانتهت الدولة العثمانية بعدما أُدخل إليها النساء والخمر ... كان السلطان عبد المجيد الأول غافلا لدرجة اعترافه - في "الخط الهمايوني" الذي كتبه إلى الصدر الأعظم- بإسرافه، وعدم المسئولية.

وها هو ولى العهد عبد العزيز أفندى يبرز في الساحة، وقد أخذ يأسر قلب شعبه بحركاته البهلوانية، وعضلاته المفتولة. وعندما كان يخرج إلى الشارع، أو يبدى بطولة في سباقات الخيل، كانوا يصفقون له باعتباره المنقذ.

عندما أعتلى عبد العزيز العرش، لم يكن هناك فرق كبير في السن بينه وبين السلطان عبد المجيد الأول. وأول شيء فعله بعد اعتلائه العرش، إرسال "خط همايوني" إلى الصدر الأعظم محمد باشا القبرصي، يقول فيه: كل شيء يبقى على ما هو عليه. وبموجب فرمانات ١٢٥٥هـ (١٨٣٩)، و١٢٧٢هـ يبقى كل شيء ثابت في مكانه ... سياسة الإبقاء والدوام ... كان هناك سلطان جديد، ولم يكن هناك شيء جديد. واتضح من أول "خط همايوني" إنه لا يملك في روحه، نفس القوة التي يملكها في ذراعيه.

ويختتم هذا الخط بما يلي:

"_ بناءً على أمر السلطان، يجب أن يتمتع الجميع بدون استثناء بالسلام والرفاهية والعدل، ويحظوا بالاهتمام وتتحسن أحوالهم. وعليهم أن يقدموا فروض الطاعة والولاء للسلطان. كما يجب أن يتفضل الأغنياء كذلك بتقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان، لأنه سبب ثروتهم وجاههم الذي بلغ عنان السماء. وبذلك يتمتعوا بحماية سلطتنا ودولتنا، وبكل ما فيها من خيرات. وأكرر مرة أخرى اعترافي بأهمية استقلال الدولة، واستقلالهم هم أيضا. وليوفقنا جميعاً حضرة الفياض المطلق، والحبيب الأكرم، اللهم أمين!".

وفي عهده تتفاقم الأزمة المالية، وتتجمد مسألة "قره داغ" أي الجبل الأسود، وتقوم ثورة الهرسك، وتتدخل أوروبا في المسألة.

وكان أول ماقام به السلطان عبد العزيز، بناءً على تاريخ لطفي، الآتي:

تخصيص ١٠٠٠ كيسة من الذهب، كمرتب للسلطانة الوالدة. وتخصيص مبلغ ٤١٩٠ كيسة من الذهب، يُصرف من الخزينة الخاصة، كراتب شهري للسلطان والأمراء. وهذا المبلغ يساوي اليوم (٣ مليون ليرة تركية).

عبد العزيز الذي يُقَلد السيف في ضريح حضرة خالد في أيوب، قام في اليوم الثالث لجلوسه على العرش، بإصدار "خط همايوني" أعلن فيه خبر ولادة ابنه عز الدين افندي الذي جاء إلى الدنيا منذ ثلاث سنوات، وكان يحتفظ بخبر ولادته سراً. كان هذا الطفل الذي أخفى أمر ولادته - بناءً على عادة قديمة- يقيم في منزل في منطقة أيوب. كما خصص عبد العزيز مبالغ نقدية كبيرة، لباشاوات التنظيمات القدامى.

والشعب الذي ضاق بإسراف عبد المجيد الأول الشديد، وجد السلطان الجديد أكثر إسرافاً وطمعاً. فقد اتجه في تلك الأثناء (١٨٦٢) إلى الاقتراض من لندن . وقيل إنه بهذه النقود، كان سيتم التعويض عن عدم نجاح القرض القديم، وسيتم أيضا إلغاء النقود الورقية. وكان مقدار هذا القرض حينئذ - نسبة للنقود الورقية- حوالي ١٣ مليون ليرة ... وبهذه النقود المعروفة باسم "القوائم"[٢١]، استطاع السلطان عبد العزيز توفير مقدار من

---

(21) القوائم عبارة عن أوراق صغيرة ملونة بألوان مختلفة، كل منها بقيمة معلومة من النقود. تم إصدارها في عهد السلطان محمود الثاني، والسلطان عبد المجيد الأول، بسبب حرب استقلال اليونان، لتحديث الأسطول العثماني. فأصدرت الدولة في عام ١٨٣٠ أوراقاً بقيمة اثنين وثلاثين ألف كيسة، بفائدة ٨٪ سنوياً، تُستهلك في ثماني سنوات. وبسبب حروب الشام بين مصر والدولة العثمانية، استهلكت الدولة هذا المبلغ، بل

المال تمكن به من سداد بضعة ملايين من العجز. إذ سدد حوالي ٢٠٠ مليون فرنك فقط، من ٥٠٠ مليون ...

ولأن لندن أسهمت بـ ٦٠٪ وبفائدة ٦٪ في السنة، وربحية تقدر بـ ٢٪، أصبحت بمثابة المسيطرة على مواردنا الخاصة، والمنتفعة بها.

واقتصر استيراد الدخان والملح والدمغة على أوروبا، كما اقتصرت عليها أيضا الإمتيازات، وكان هذا الدين هو بداية "الديون العمومية"(٢٢).

فقد قام السلطان عبد العزيز بتسميم شجرة الدولة من جذرها، بدلاً من تلقيحها بلقاح شافٍ. وأصبح دين الدولة العثمانية الذي بدأ في عصر عبد المجيد الأول، ٣٠٠ مليون قطعة ذهبية، أي ما يقدر في يومنا هذا بحوالي (٢٠٠ مليار ليرة) ...

وثمة نقطة دقيقة نتنبه إليها هنا، وهي: إن الرأسمالية الغربية التي قلمت أظافر الاشتراكية، ومن قبلها الشيوعية، قد بلغت درجة كبيرة من القوة، وأخذت في ذلك العصر تبحث عن مخرج لنفسها، من أجل إيجاد سوق استهلاكية لمصنوعاتها، واستغلال الشرق كله، فاتجهت إلى الدولة العثمانية مباشرة.

ثم أوكل الغرب لجيوشه بالأمر لينفذ آخر عملياته. وقدم دماً لمساعدة وطننا في الظاهر، لكنه كان دماً مسمماً، قاتلاً. أما الذين ساعدوا الغرب على تحقيق أمله في القضاء على دولتنا

وأصدرت أوراقاً بلا فائدة، وامتنعت عن دفع الفائدة عن الأوراق الأصلية. وتوالى إصدار الأوراق كل عام. وحاول السلطان عبد المجيد الأول سحب القوائم، لكن حرب القرم حالت دون ذلك. واضطر إلى الاستدانة من أوروبا لمواجهة أعباء الحرب. ولما نفدت أموال القرض، اضطر إلى إصدار قوائم جديدة. واستمر الحال على هذا النحو. وكل عام تزداد الديون الخارجية، والقوائم الداخلية، حتى شارفت الدولة على الإفلاس. انظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص ٥٤٠

(22) تم تأسيس مؤسسة الديون العمومية في الدولة العثمانية في عام ١٨٨٢م. وكان الهدف منها هو تسديد الديون الخارجية، التي اقترضتها الدولة في العهد السابق مباشرة على عهد السلطان عبد الحميد الثاني. فقد وصلت ديون الدولة في أواخر أيام السلطان عبد العزيز إلى 5.297.676.500 فرنكاً ذهبياً. تم تشكيل مجلس إدارة مشترك يضم ممثلين الدول الدائنة. ووضعت هذه المؤسسة إيرادات الدولة الرئيسية تحت تصرفها، لتسديد ديون الدولة، مما أدى إلى إيجاد نوع من الوصاية على سلطة الدولة، وقد لعبت هذه المؤسسة دوراً في تسديد كثير من ديون الدولة أثناء عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ولكنها أدت إلى عجز ميزانية الدولة، وإلغاء رقابة السلطان. انظر محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٩

التركية، فهم هؤلاء الزمرة ... مانيكانات العرش الذين نُحتو بأيدي نجار ماهر... والثورجية المزعومين، صانعي التنظيمات...ولم يكن هناك أنسب من عبد العزيز ذو العقل الصغير، وإحساس بالشرف عالي، وحيثية فوق العادة، وقلب صافٍ، وشجاعة واضحة، ليكون سلطان هذا العصر، الذي يمكن جعله يجلس على اللصق بسهولة.

وأجدني مضطراً هنا أن اتناول بعض النقاط التي تناولتها عند حديثي عن طفولة، وشباب، وإمارة الأخ الأكبر للسلطان وحيد الدين، في كتابي المسمى (السلطان العظيم عبد الحميد الثاني)، ولكن هذه المرة بأسلوب مختلف. ورأيت أن اتناول عصري السلطان عبد الحميد الثاني، والسلطان محمد رشاد، تناولاً سريعاً حتى أبدأ من نقطة البداية عند الحديث عن مرحلة طفولة، وشباب، وإمارة وحيد الدين، وأيضا مرحلة نضجه، وليوفقني الله ألا أكرر كلماتي، واستطيع انتقائها ...

بعد أن أغرقت أوروبا، تركيا في الدين تماماً، تم إنشاء مؤسسة باسم (الديون العمومية العثمانية). كانت هذه المؤسسة بمثابة اليد التي نهبت ثروات الدولة، بحجة تحصيل الدين. وتم الحجر على تركيا، وأصبح الدين سبباً في التدخل الأوروبي السياسي، والعسكري، في المستقبل. وصارت أوروبا تسيطرعلى سياسة الدولة حتى يتسنى لها الهيمنة الاقتصادية، وهذا هو المعنى الحقيقي الوحيد (للديون العمومية) !...

كانت الديون العمومية، ومدرسة (جالاطة سراي) المسماة بـ (المدرسة السلطانية)، المدخنة التي سربت تيار الغرب والتغريب. وكان أرباع المثقفون هم الملاحين الذين أوصلوا هذا التيار للدولة. وكان (البنك العثماني)[٢٣] أو بنك الدولة، هو موظف الصرف، الذي

---

(23) البنك العثماني تأسس في عام ١٨٥٦، في استانبول عاصمة الدولة العثمانية، برأس مال بريطاني بلغ ٢ مليون جنيه إسترليني. ثم أصبح شركة مشتركة تمثل بريطانيا، وبنك باريس، وهولندا، والحكومة العثمانية. كان هذا البنك يمثل الدولة العثمانية، حيث صار بمثابة بنكاً للدولة. وكان أشبه ببنك مركزي محتكرا سلطة إنشاء الأوراق النقدية العثمانية، ليعمل بهذه الصفة حتى عام ١٩٢٤. وفي يونيو ١٩٩٦ اشترته مجموعة مالية تركية. وفي عام ٢٠٠١ صار جزئاً من بنك (غاراناتي) . مركز البنك الرسمي كان في العاصمة البريطانية لندن. وكان فرعه الرئيسي في استانبول. وكانت له فروع في عدد من المدن الواقعة تحت سلطة الدولة العثمانية، لتصل في العام ١٩١١ إلى ٤٥ فرعا. وهذه الفروع هى بيروت (١٨٥٦)، بوخارست (١٨٦١)، سلانيك (١٨٦٢)، الإسكندرية (١٨٦٦)، باريس (١٨٦٨)، بغداد (١٨٦٢)، دمشق (١٨٧٥-١٩٢١)، طرابلس، ليبيا (١٩٠٦-١٩١٢)، بنغازي (١٩١١-١٩١٢)، تونس (١٩٢٠)، عمان (١٩٢٥). انظر .

صرّف هذه الدعوى داخل السلطنة ...

وكان سرعة العمل، والدهاء في تمرير الكرة، داخل هذه المؤسسات التي شكلت المثلث الموسوي ملفتاً. فقد تم قبول خريجي (المدرسة السلطانية) - طاجن العجين الذي خُمر فيه تيار التغريب- من الأوائل وذوي الترتيب الثاني، بدون امتحان، باعتبارهم مريدين صادقين وموثوق بهم. والمبلغ الذي كتبت في أثرى الخاص بالسلطان عبد الحميد الثاني إنه ارتفع إلى ٣٠٠ مليون قطعة ذهبية، مشكلاً دين الدولة، كان في الأصل عبارة عن ١٥٠ مليون ليرة إنجليزية، وذلك وفقاً للمصادر الرسمية. وتردد إنه ارتفع إلى ٣٠٠ مليون بسبب الإمتيازات السرية، التي أضيفت إليه عن طريق جهود وأساليب خاصة. وهذا مبلغ يكفى لإفلاس وانهيار أية دولة وأي اقتصاد.

وقد صورت في أثرى الخاص بالسلطان عبد الحميد الثاني، كيف أصبح عبد العزيزخان سلطاناً مقيداً من رجال قصره ذوي الروح البيزنطية، وهو الذي كانت تصفه أمه السيدة (بيرتافنيال) هانم بقولها: "أسدي، أسدي" لشدة عصبيته. فعندما كان يزأر غاضباً، كانت أحجار أرصفة استانبول تهتز، وبرغم هذا أصبح حصان سيرك مطيع لأوامر سائسيه، الفنانين الذين لم يوجهونه بالسوط . وأصبح هذا السلطان الحاكم من الخارج، المحكوم من الداخل، عبارة عن صورة لحركة التنظيمات - التي أدت إلى التدهور خلال فترة امتدت من ٥ إلى ١٠ سنوا ت- في لوحة زيتية رسمتها يد الفرنجة.

وتبلور حكم قيم في حق السلطان عبد العزيز، في أثرى الآخر الخاص بالسلطان عبد الحميد الثاني، فيما يتعلق بالقصور التي شيدها، والأسطول الذي اشتراه مقترضاً من الرأسماليين الغربيين. فلم تكن لتلك القصور قيمة معمارية ولا شخصية، كانت كنوع من السجن الذي هرّبت بداخله أوروبا، السلاطين من ساحة الدعوى الملية. والأسطول الذي كان يقال عنه إنه أكبر ثاني أسطول في العالم، كان يفتقد لعناصر القوة البحرية الثلاث: القوة المادية، وقوة الأفراد، والقوة المحركة. فقد كانت قوته تحت الصفر.

وعندما تم خلع السلطان عبد العزيز عن العرش، كان هذا الأسطول هو أول القوى التي أحاطت بقصره، وصوبت مدافعها تجاه نوافذه. وكان السلطان ينظر من نافذة لأخرى

---

http\\www.ar.wikipedia.org بتاريخ ٢٠١٠/٥/٩

وهو يقول: "أسطولي، أسطولي". وكان هذا بمثابة جزاءً آلهياً لعدم التفكير والاعتبار. وعندما رأى ما آلت إليه حالته، سقط على الأرض مغشياً عليه. فعندما نضع لأية قطة مخلب أسد، هل يكون هذا مناسباً ؟ ألا نرى أن المخلب يخرج من بنية غير مناسبة؟ فقد كان أسطول تم إلحاقه بجسم مريض، فأصبح لا قيمة له، وليس له قابلية للاستخدام . كان عبارة عن أكذوبة، خدعوا بها السلطان.

وهذا التابلوه أو تلك الصورة، التي رسمناها للمناخ الذي تربى فيه محمد وحيد الدين افندي وكبر فيه، يُظهر المسار الذي لابد وأن تسير فيه محاسبتنا التاريخية، حتى نستطيع فك شفرة ما كان، وما كان يجب ألا يكون.

وهكذا استطعنا بهذه السطور القصيرة،الموجزة، أن نبرز سوء الواقع الذي فاق الحد، حتى جاء اليوم الذي سقط فيه السلطان عبد العزيز- مثل حيوان السلخانة- من على عرشه المنشور بمنشار (الغرب)، مع صراخ أمه: "أسدى، أسدى!".

وبسبب هذه القوائم التي لم تجف جذورها المتنوعة، وبسبب حياة الرفاهية، وتضاعف سعر الذهب لأربعة أمثاله، أصبحت أوقية رغيف الخبز المسمى (نان العزيز) يساوى ١١٠ليرة، والخبز الأبيض يساوى١٤٠ ليرة. (بالقياس بأسعار اليوم، لا يوجد بركة! أليس كذلك؟) ...

"الفكرة العظيمة" التي بدأت بمسألة اليونان، و(حرب المورة)[٢٤]، والتي ساعدت على

---

(24) حرب المورة: وتسمى أيضا بحرب استقلال اليونان، التي وقعت في الفترة بين (١٨٢١م – ١٨٣٢م). وهي ثورة الشعب اليوناني ضد الدولة العثمانية، التي كانت اليونان تشكل جزءً منها منذ فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م. وقد أدت تلك الحرب إلى تأسيس المملكة اليونانية. انحصرت الحرب منذ بدايتها، وحتى عام ١٨٢٥، بين العثمانيين واليونانيين، ولكنها شهدت تغيراً في سير أحداثها، عندما طلب السلطان محمود الثاني المساعدة من محمد علي، أقوى ولاته، والذي كان قد جعل من مصر قوة تنافس سلطة العثمانيين أنفسهم. استجاب محمد علي لطلب محمود الثاني، وأرسل أسطوله البحري بقيادة ابنه إبراهيم باشا، لقمع الثورة اليونانية. فقام الإنجليز والفرنسيين والروس، بإرسال أساطيل حربية قرب سواحل اليونان. ودمروا الأسطول المصري والعثماني في خليج (نافبليو)، فيماعرف بمعركة (نافارين)، في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧. ومع أن معركة نافارين سببت العجز للقوات العثمانية، فقد استمرت الحرب بعدها، وتعقدت أمورها مع نشوب الحرب الروسية العثمانية بين عامي (١٨٢٨ و١٨٢٩). انظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص ٤١٤- ٤٥٠

حماية استانبول منذ ذلك اليوم، هي الدعوى الأساسية التي ستبرز في عهد السلطان محمد وحيد الدين (محمد السادس)، وسيتحمل هذا السلطان مسئولية المحاسبة عن نصف العصر.

من الأشياء المضحكة، انشغال سكان الطبقة العليا بلعب الشطرنج، بينما البيت التركي يحترق من الداخل، فقد انشغلوا بالتشريفات، والألقاب المناظرة للألقاب الأوروبية. فمثلا وزير يقال له صاحب المعالي، صانع العلا المتميز ... إلى نهاية العدد. وشكل الخطاب إلى حملة تلك الألقاب يبدأ من: دولتلي(٢٥) أفندم وينتهي بـ غيرتلي أفندم. هذا بالإضافة إلى الأوسمة الكثيرة، منها الوسام المجيدى المشتق من الوسام العثماني. وفي بعض الأحيان كان يتم الحصول على أربعة أوسمة عثمانية مرصعة، مقابل عشرة آلاف قطعة ذهبية. وكان السلطان مغروراً بهذه الأوسمة لدرجة أنه أيام غروب حكمه، كان يذهب إلى (بورصة) لا ليقوم بسحب أحد هذه الأوسمة، و يضعها على صندوق قبر (عثمان) العظيم، مؤسس الدولة، بل ليُظهر وكأن المكانة التي بلغها، هي بمثابة مكافأة من عثمان العظيم، الذي منح الدولة اسمه. وفي (جالاطه) أصبح محمد علي، واحداً من مريدي شخص يُدعى (رضالي سوفو بابا الصندوقي) حيث تزوج ابنته في البداية، ثم جعله السلطان عبد العزيز، مستشار القصر، بعد أن أصبح صدراً أعظم، ثم قائداً للجيش "سرعسكر"، ثم أميراً للبحر، ثم وزيراً للمدفعية والصحة، بالإضافة إلى وزارة الخزانة الخاصة.

وأصبحت (قره داغ) أو الجبل الأسود والبوسنة والهرسك - بموجب دعوى "وحدة السلاف"- تحت إدارة وقيادة الروس... وببساطة، وقعت تركيا الممزقة، المتشبهة بأوروبا، هكذا في حفرة... وصار العالم سابحاً في الدم والنار. وبعد احتلال جزيرة كريت، صارت تركيا - المتشبهة بأوروبا، تلك الدولة الخالدة، العريقة، التي سعت إلى وضع نفسها بين المطرقة والسندان- تبدأ من جنوب البحر الأبيض، منحرفة إلى الشمال، متقدمة على طول ساحل البحر الأسود.

وغير ولاة مصر القابهم إلى لقب (خديوي) مما أضاف إلى مقامهم، إمتياز فوق إمتياز. وهذا اللقب الذي صار بمثابة إرث يرثه الابن عن أبيه، نال عليه الوزراء ثروات هائلة، من

---

(25) كانت الدولة العثمانية قد وضعت القاباً لكل مرتبة ورتبة ووظيفة. فمثلاً الصدر الأعظم، يخاطب بـ"دولتلي فخامتلي أفندم حضرتلري" أي حضرة صاحب الدولة والفخامة. والمعزول من الصدارة، يخاطب بـ"دولتلي أبهتلي افندم حضرتلري" أي حضرة صاحب الدولة والأبهة.

أجل الحصول عليه من الدولة العثمانية. فلم يعد هناك جيب لم يمتلئ بذهب الخديوي إسماعيل باشا. وكان هذا الحال يعد أمراً طبيعياً، لدرجة أن الوزراء كانوا يرون تعبير (معاملة رفيق الدرب) تعبيراً لائقاً لهذا العمل... ومن ناحية أخرى كان الأمير مصطفى فاضل[٢٦] الغاضب من أخيه إسماعيل باشا، حانقاً. وكان هو أول من اضطلع بالنضال الحر، وقام بحماية جمعية (الشباب العثماني)[٢٧] التي شكلها نامق كمال[٢٨] في الداخل، كما ساعد على هروب نامق كمال وضيا باشا إلى أوروبا...

وعندما يتفاهم الأمير مصطفى فاضل مع الباب العالي، يندفع أبطالنا المزيفون إلى

---

(26) الأمير مصطفى فاضل: هو شقيق الخديوي إسماعيل. كان يرى أنه أحق بعرش مصر، فحدث الخلاف بينه وبين شقيقه، فهرب إلى باريس. وجه خطاباً إلى السلطان عبد العزيز يعلن فيه أنه ممثلاً للعثمانيين الجدد "جون تورك" وأوصاه بتحسين العلاقات الفرنسية العثمانية. كان حرمانه من وراثه العرش في مصر، هى التي دفعته إلى التعاون مع أحرار مصر والدولة العثمانية، حتى أنه أنشأ في باريس شركة مصرفية كان يصرف من أرباحها على الأحرار أمثال، نامق كمال وعلي سيعاوي. ثم تم الصلح بينه وبين الإدارة في الأستانه، وتم تعيينه وزيراً للمالية. انظر الصفصافي أحمد القطوري، التجربة الديموقراطية في تركيا الحديثة والمعاصرة، الجزء الأول، القاهرة ٢٠٠٦، ص ٢٢

(27) جمعية الشباب أو الشبيبة العثمانية: هى منظمة سرية تأثرت بالجمعيات الإيطالية السرية - التي أطلق عليها اسم جمعيات (الفحامين) أو(الكاربوناري)- التي انتشرت في فرنسا والبرتغال وإيطاليا، لتحرير هذه الأمم بمبادئ الثورة الفرنسية. وقد تشكلت جمعية الشباب العثماني في استانبول عام ١٨٦٥، وكان من أهدافها إدخال أشكال الحكم الأوروبي، والعلمانية إلى الدولة العثمانية. وكان من بين أعضائها الشاعر التركي نامق كمال، والمفكر التركي ضيا گوك ألب. وعندما فُرض الحظر على نشاطها، هرب قادتها إلى باريس حيث أصدروا جريدة (الحرية) التي كان يتم تهريبها إلى داخل البلاد التركية. وكانت تدعو إلى ضرورة إقامة حكم دستوري في الدولة العثمانية، وكان الأمير مصطفى فاضل يدعمها هناك. وعندما عاد الأمير مصطفى فاضل إلى مصر، وتم الصلح بينه وبين شقيقه الخديوي إسماعيل، وعاد نامق كمال إلى استانبول، ضعف نشاط الجمعية، وعاد أعضاءها المبعدون إلى بلادهم. انظر علي حسون، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٣

(28) نامق كمال (١٨٤٠-١٨٨٨)، هو شاعر ومؤرخ إسلامي عثماني تأثر بفلاسفة الثورة الفرنسية. بدأ بكتابة المقالات في جريدة (تصوير أفكار) ثم أصبح المحرر السياسي للجريدة . كون مع أصدقائه من الشباب جمعية ثورية تطالب بالدستور . هرب مع أصدقائه إلى باريس، وأصدروا جريدة الحرية. وبعد صدور العفو العام عاد إلى استانبول. من أشهر مسرحياته (وطن)، وتسمى أيضا (سلسترة). انظر محمد حرب عبد الحميد، "الشعر التركي الحديث والمعاصر من بداية الحركة الكمالية إلى نهاية الحرب العالمية الثانية"، رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة ١٩٦٨، ص ٢٠

الشارع في ديار الغربة، كأسمال بالية، ويطلبون هم أيضا العفو السلطاني، ويعودون إلى الوطن.

كانت هناك سطحية كبيرة وضحالة وعدم شخصية، في السياسة والأدب والعلم والفن والفكر بصفة عامة.

وكانت بدعة السفر إلى أوروبا للمتعة والسياحة، أمر يبعث على السخرية. فقد ابتدع السلطان العثماني رقم (٣٢)، السلطان عبد العزيز، فكرة السفر إلى أوروبا بغرض السياحة ... وكان يأخذ معه أولاد أخيه، الأمير مراد والأمير عبد الحميد وابنه يوسف عز الدين وفؤاد باشا[٢٩] الذي سيموت مسيحياً في مدينة نيس. وفي باريس يزورون قصر (الإليزيه) وفى لندن يزورون قصر (باكنجهام)... هذا الرجل الغريب ذو الجذر الشرقي

والأغصان والثمار الغربية المصطنعة، أليس هو حفيد سليمان العظيم؟ ويشاهد الأوروبي هذا التركي الجديد بأدب، متعجباً، ومحتاراً. ويبدى له، للطير الذي فى القفص، احتراما خاصاً.

أما الأمير وحيد الدين أفندي، فلم يكن قد بلغ مرحلة البلوغ حينئذ، فظل خارج كدر السياحة، لأنه كان لا يزال طفلاً. وأقيمت مأدبة ضخمة، فى حجم ميزانية الدولة، لنابليون الثالث والإمبراطورة أوجينى التي أحبها عمه حباً عذرياً. وفى نفس الوقت، ونفس المكان الذي لا يستطيع فيه الموظفون الحصول على راتبهم لمدة ستة شهور، نجد السلطان عبد العزيز يقيم الزينات بين قصر (دولمه باغچة)، وقصر (بيكوز). فكيف لا يكون هذا تحذيراً لعبد العزيز، بعدم الاستمرار فى هذا العمل.

يحاسبون الأمير وحيد الدين أفندي - الأخ الأصغر للسلطان مراد[٣٠] الذي كان نصيبه من السلطنة عدة شهور- ولم يكن حينئذ قد دخل مرحلة النضج والتفكير. كان عمره ١٥

---

(29) فؤاد باشا(١٨١٥-١٨٦٩)، هو الصدر الأعظم في عهد السلطان عبد العزيز، عم السلطان عبد الحميد الثاني. ويلقب بفؤاد باشا الكبير. انظر مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة وتقديم وتحقيق وتعليق محمد حرب عبد الحميد، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٤

(30) السلطان مراد الخامس: هو ابن السطان عبد المجيد الأول، والسلطان الخامس والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية. ولد عام ١٨٤٠، وتولى السلطنه بعد عزل عمه السلطان عبد العزيز وكان عمره ٣٦ عاماً. حكم لمدة ٩٣ يوماً فقط. وعُزل لإصابته بالجنون. وتولى بعده السلطنة شقيقه عبد الحميد الثاني. كان مغرماً بالموسيقى، ويجيد اللغة الفرنسية. انظر المرجع السابق ص ١٣٣

عاماً فقط، وفي بداية سن البلوغ. هذا الشاب الذي يقف على عتبة الشباب، وهو بين العرش والرجولة، كان على بعد عدة أقدام من عبد الحميد الثاني ومحمد رشاد ويوسف عز الدين أفندي.

كان وحيد الدين أفندي، ذلك الشاب المرشح للعرش، نحيفاً وضعيفاً ومريضاً... كان أمير شاب ينتقل من مرض إلى مرض، ويمكن القول إنه كان نموذجاً لحالة الدولة. ونحن لا نعرف الكثير عن المرحلة التي مابين الطفولة والرجولة لمحمد وحيد الدين أفندي، أي عن حياته وتفكيره وميوله وإتجاهاته في تلك المرحلة.

وكرر (علي فؤاد توركجلدي)، باشكاتب القصر فى عهد سلطنته، في كتابة (ما سمعت وما رأيت) قوله: "إن وحيد الدين تعرض فى طفولته وشبابه لعدة أمراض. ولهذا السبب كان هذا الأمير لا يستطيع أن يقرأ أويحصل دروسه بطريقة لائقة. وكان لا يفتخر بعلمه، حيث كان يشعر بنقص لعدم تحصيله الكثير من العلم حتى عهد السلطنة، وكان يعترف بذلك"(٣١).

فى عهد السلطان مراد، كان الأمير محمد وحيد الدين، في مرحلة النقاهة من المرض. كان متعوداً على الوقوف فى النافذة ذات الستائر الحريرية الخفيفة، والنظر إلى مياه البسفور المرتعشة ... يالها من دولة هائلة، فى يد مدحت باشا(٣٢) وأشباهه من الماسونيين، فهو رقم ٤

---

(31) يقول قدير مصر أوغلي في كتابه (السلطان وحيد الدين، سلطان مظلوم) : "إن قول وحيد الدين، أنه لم يحصل على قدر وافٍ من العلم، كان من باب التواضع، لأنه كان يواظب على حضور دروس الفقه والحديث والكلام والتفسير في مدرسة الفاتح، في سنوات شبابه". انظر Kadir Mısıroğlu,“bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin”, a.g.e.s.76

(32) ولد مدحت باشا عام ١٨٢٢ في استانبول. كان والده قاضياً. عُين والياً على دمشق ثم قونية، وحاكماً لبغداد، ثم وزيراً للعدل. شغل منصب الصدر الأعظم مرتين. الأولى، في عهد السلطان عبد العزيز، والثانية، في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. كان متعاطفاً مع أفكار وأراء تركيا الفتاة، ومعجباً بالحضارة الغربية، ومنادياً بضرورة إصلاح الدولة العثمانية، وداعياً إلى وضع الدستور. وفشلت محاولاته لوضع الدستور في عهد السلطان عبد العزيز، والسلطان مراد الخامس. وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني، عهد إليه السلطان تأليف لجنة لإعداد دستور للبلاد. فأعدته اللجنة، ونشرته تحت اسم "القانون الأساسي" في عام ١٨٧٦. تضمن الدستور الجديد الذي تأثر واضعوه بالدستور البلجيكي والروسي، ١٢ قسماً و١١٩ مادة. وأصبح دستوراً رسمياً للدولة، ونص على أن الإسلام دين الدولة، وعلى ضرورة إنشاء مجلساً للمبعوثين أي النواب، ومجلساً للأعيان أي الشيوخ. وأقامة الحكم في الولايات على أساس اللامركزية. وبعد ١١ شهراً من الحياة

من بينهم. وهاهو السلطان مراد -الابن الأكبر للسلطان عبد المجيد الأول، بقميصه الأوروبي، وملابسه المهندمة، خليفة المسلمين وسلطان العثمانيين- نجده مقيداً رقم واحد في السجلات العالمية واليهودية.

كان السلطان مراد معتوهاً في فترة إمارته، كان يشغل وقته بعمل قصور ضعيفة ويقوم بهدمها، ثم يصنعها مرة أخرى ثم يهدمها، لم يكن موزوناً ولا هادئاً. وأثناء مراسم توليته كسلطان، كان يقوم بكثير من الحركات التي تدل على جنونه. وظل سلطاناً على عرش خاوي، ينتظر من سيأتي عليه الدور ليشغله. وهكذا صار الحال إلى أن أصبح عبد الحميد الثاني ولي العهد، السلطان الرابع والثلاثين، وكان يوصف بـ "السلطان العظيم" وظل في الحكم ٣٣ عاماً.

والروايات التي تقول: إن مدحت باشا ذهب إلى قصر ولي العهد عبد الحميد أفندي، وتشاور معه، وساومه بشأن (القانون الأساسي) أي الدستور، ماهي إلا أكاذيب ليس لها قيمة ولا أساس من الصحة، رددها أعداء السلطان عبد الحميد الثاني.

السلطان العظيم عبد الحميد الثاني، في رأيي، كان سلطاناً ذو شخصية متميزة، ولذلك كتبت عنه كثيراً، وسأظل أكتب. ومن خلال حديثي عن هذا السلطان، ستتضح البيئة والوسط الذي تربى فيه السلطان وحيد الدين.

عندما تولى السلطان عبد الحميد العرش، كان وحيد الدين في سن الخامسة عشرة، وظل حتى سن الـ ٤٨ منتظراً دوره للجلوس على العرش، أي إن فترة شبابه ونضوجه وبداية كهولته، كلها قضاها في (العصر الحميدى) الذي استمر لمدة ٣٣ عاماً .

كان السلطان عبد الحميد الثاني يحب أخوه وحيد الدين أكثر من باقي إخوته. وكان من المقربين له من بين إخوته الأمراء الآخرين. كان يحب صحبته، والحديث إليه وتحقيق رغباته،

النيابية، أوقف السلطان عبد الحميد الثاني العمل بالدستور، وأقال مدحت باشا بعدما ثبت تورطه في مقتل السلطان عبد العزيز. وحُكم عليه بالإعدام، ولكن السلطان عبد الحميد الثاني خفف الحكم إلى السجن مدى الحياة بالطائف. ومات عام ١٨٨٤م، حيث أُشيع أنه مات مخنوقاً بأمر السلطان عبد الحميد الثاني. واستمر وقف العمل بالدستور ٣٠ عاماً إلى أن أصدر السلطان عبد الحميد الثاني مجدداً قراراً في عام ١٩٠٨، بإعادة العمل به. انظر Mahmud Kemal İbnül-Emin, "Osmanlı Devrinde Son Sadrıazamla", cilt 2, a.g.e. s.315-320

ويجد فيه مثيلاً له مادة ومعنى. كانا متشابهين من ناحية علاقتهما بالدين، وارتباطهما بالإسلام.

كان عبد الحميد من أكثر السلاطين العثمانيين الـ ٣٦ تديناً وخشية لله، وإحساساً بالمسؤولية. ولم يكن مثله سوى ثلاثة، منهم السلطان محمد وحيد الدين.

كان محمد وحيد الدين من الناحية الصحية، نحيفاً وضعيفاً. وخلال عصر عبد الحميد الثاني تعرض للكثير من الأمراض العضوية، لكن روحه كانت هادئة.

وفي الوقت الذي تتجه فيه الدولة -لأسباب داخلية وخارجية- نحو الهاوية، نرى يد السلطان عبد الحميد العظيم تمتد لتنقذها من السقوط .

وها هي الحرب العثمانية الروسية التي جاءت ضد إرادة السلطان عبد الحميد، وكهدية لمدحت باشا من السفير الروسي (إيجناتيف)، عندما فتح الطريق أمام الروس أكثر. وكانت تسمى بحرب (٩٣)[٣٣]...! وهاهي المشروطية المزيفة، وثقافة الأبطال المزيفين، التى أُعلنت بإطلاق (١٠١) طلقة مدفع، داخل (مؤتمر الخليج)، الذي أضحك علينا كل أوروبا ... وهاهو المجلس الأول الذي آوى الأحزاب الخبيثة التي لم تفعل شيئاً سوى تمهيد الطريق لتقسيم (الدولة العلية). تلك الأحزاب التي حشدت حقل الألغام المتمثل فى جواسيس أوروبا (الإمبريالية)، والشريك اليهودي والماسوني. وهاهو أول قرار عظيم للسلطان العظيم، حيث قال:

إنني أفسخ المجلس، لأن هذه الأمة لم تبلغ روحها سن الرشد الذي يجعلها تُمثل داخل نظام الحرية الأوروبي. وكانت نتيجة قرار الفسخ عبارة عن هذا:

استطاع السلطان عبد الحميد أن يحكم ٣١ عاماً في هدوء، بعد محاولة المشروطية الأولى[٣٤] التي فُرضت على غير إرادته، وبعد انتهاء الأزمات التي نجمت عن الحرب

---

(33) حرب ٩٣: هى الحرب العثمانية الروسية (١٨٧٧- ١٨٧٨). سميت بذلك نسبة إلى السنة الرومية لقيام الحرب، وقد انتهت بهزيمة الدولة العثمانية. انظر مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة وتقديم وتحقيق وتعليق محمد حرب عبد الحميد، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٠

(34) المشروطية: هي إعلان النظام البرلماني في الدولة العثمانية. وبموجبه أصبحت الوزارة مسؤولة أمام البرلمان وليس أمام السلطان. وأصبحت صلاحية تشريع القوانين من اختصاص البرلمان. وقد أعلن السلطان عبد الحميد المشروطية مرتين، مرة عند بداية حكمه، وهي المشروطية الأولى في عام ١٨٧٧. وفي عام ١٩٠٨ أعاد المشروطية والدستور مرة أخرى فيما سمي بـ (المشروطية الثانية). انظر محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني أخر السلاطين العثمانيين الكبار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨.

التركية الروسية.

الدهاء السياسي

كان عبد الحميد يتمتع بدهاء سياسي، وشجاعة مكنته من مواجهة الآخرين، ومواجهة التهديدات التي حاصرت تركيا، وضمان أكبر استفادة من مراقبة إنجلترا وألمانيا، اللتين راحتا تستعدان لشن الحرب العالمية الأولى، التي وقعت بعد ٣٧ عاماً من حكمه... هذا الدهاء أيضا سيمكنه من توجيه ضربة كبيرة ضد (بسمارك)، مؤسس الوحدة الألمانية، وعدو تركيا. وهذا الدهاء أيضا هو الذي جعل القيصر (ويليام) يعترف قائلاً: "إنني تعلمت دقائق السياسة من السلطان عبد الحميد". وهو الدهاء أيضا الذي مكنه من معالجة مسائل مثل، البلقان وكريت ومصر والعقبة والحجاز واليمن، دون أن تؤثر إحداهن على بنية الدولة.

الدهاء الإداري

تمثل الدهاء الإداري للسلطان عبد الحميد الثاني، فى معرفة الأخبار الدقيقة والهامة. واستن سنة – هى الأولى من نوعها- أدت إلى وأد الفتن، ورأب الصدع الموجود فى أساس الدولة. وعمل على القضاء على التيارات السرية، ولم يتبع فى ذلك أساليب خسيسة، مثل تلك الأساليب التي ليس وراءها سوى الأطماع الشخصية، والعمل على إسقاط الأمة. فحافظ بذلك على الأمن القومي – بلغة اليوم- ذلك الأمن الذي تتمتع به تركيا حتى اليوم. فبذور منظمات (المخابرات) الغربية، بذرها السلطان عبد الحميد. والذين اتهموه باستخدام التشكيلات السرية، قاموا هم بعد انتهاء عصره، بتأسيس (منظمات سرية) لتحقيق أطماعهم الشخصية.

ومن دهائه الإداري، أنه أرسى مبدأ التطوير والعطاء. وكان فى عهده ثلاثة من كبار المستشارين، مثل: (غازى عثمان) و(أحمد مختار) و(أدهم باشا)، ورجال فكر وعلم كبار، مثل: (أحمد جودت) و(عبد الرحمن باشا)، بالإضافة الى سرب من المرشحين من الصدور العظام الذين كانوا يقفون فى الصفوف الاحتياطية. وبرز دهاؤه السياسى في الإجراءات القمعية التى اتخذها، لمواجهة الماسونيين واليهود والأرمن.

الدهاء الاقتصادي

كان اول عمل قام به عبد الحميد الثاني بعد اعتلائه عرش السلطنة، هو وضع قيود على

بنوك القصر. وكان يُسمى بـ (حميد البخيل)، لأنه لم يُقرض بنوك (جالاطة). كانت أخلاقه حسنة، ويُحسن التصرف حيث استطاع أن يسدد الديون الفلكية للدولة، من الخزينة الخاصة، والخزينة الهمايونية. واستطاع تخفيض الدين بنسبة ٢٪، ولم يقترض قرشاً واحداً من الخارج، طيلة عهد سلطنته.

كان يقوم بإنشاء خطوط السكك الحديدية. فبعد إنشاء خطوط (سلانيك – استانبول وسلانيك ـ مناستر وإزمير ـ قصبة)، أنشأ خطين كبيرين يدلان على مدى دهائه السياسي والإقتصادي اللذان بلغا أعلى درجة. الخط الأول هو، (خط بغداد ـ الأناضول) الذى حال دون التهديد الألماني والخطر الإنجليزي. والآخرهو، (خط حديد الحجاز) الذى يُعد نموذجاً للوحدة الإسلامية،وهو بطول ٢٠٠٠ كيلومتر،وهو الخط الذى أذهل الروس والإنجليز.

المعيار الثقافي

كان السلطان عبد الحميد مقتنعاً بضرورة الإلمام بالعلوم الغربية، ووضعها فى إطار الروح الشرقية. فقام بإنشاء سلسلة من مدارس الفنون، بالإضافة إلى المدارس العليا المعروفة باسم المدارس السلطانية.

المعيار العسكري

إن الحرب الوحيدة التي شنها عبد الحميد، هى الحرب اليونانية (١٣١٣هـ. ١٨٩٧م) .
استعد عبد الحميد لتلك الحرب استعداداً كبيراً، واستطاع فى وقت قصير أن يصل إلى أبواب أثينا، ويبث الخوف فى قلوب اليونانيين الذين طلبوا المساعدة من أمراء الدول العظمى. واشترى عبد الحميد بقسم كبير من قرض (الديون العمومية)، معدات ولوازم دعم بها الأسطول المتهالك – الذي اقتطع جزءاً كبيراً من ميزانية الدولة– للاستفاده منه. واستطاع بذلك أن يدخله الى الخليج، وأن يحقق للقوات البحرية قوة كبيرة، ويصبح ذا قيمة. وإن دل ذلك على شئ فهو يدل على براعة عبد الحميد العسكرية الكبيرة، وقدرته على الإدارة والقيادة. وبدلاً من أن يقولوا عنه إنه منقذ الوطن، قالوا إنه خائن الوطن. كان عبد الحميد قوياً فى مواجهة أعدائه، ويضع خططاً عسكرية محكمة تخلو من الزخرف، والاستعراض الظاهرى الخادع.

عالج السلطان عبد الحميد كثيراً من الاضطرابات التى أُثيرت من جراء الحركات

العسكرية التى كانت تبدو إنها من تدبير القصر، وكان يحول دون انقلاب الأمر إلى هزيمة. ونجح السلطان عبد الحميد العظيم - الذى كان يميل الى جعل الدولة، (دولة مخابرات)، وكان شديد التأثر بهذا الاحساس- فى فرض السرية التى كانت عاملاً من عوامل نجاحه فى الناحية العسكرية، مثلما كانت أيضا عامل نجاح في إدارة جميع شئون الدولة.

معيار العدل

لم يكن السلطان عبد الحميد يتدخل في أمور العدالة او القرآن، وكان عدله بلا حدود، ورحمته لا مثيل لها، وكان نموذجاً للعطف. وطيلة حكمه الذى استمر ٣٣ عاماً لم يوقع حكماً بإعدام أى فرد، سوى أمره بقتل أحد أغاوات الحرم، وكان دائماً يغير الحكم إلى السجن المؤبد او النفي.

كان ضعف عبد الحميد من النوع الفريد، وكان يمكن نقده، وكان ميالاً للرحمة والتوكل. فعندما رفعت مقدونيا راية العصيان، لم يخرج اليها بجيشه الخاص، قائلاً: "لايمكن أن أريق ولو نقطة دم واحدة لأي مسلم". وتناقلت الأساطير على الألسنة حول تفسير تعبير (السلطان الاحمر) الذى ابتدعه الأرمن، وأطلقوه عليه. فقيل إنه كان يأكل سلاطة مكونة من أمخاخ الأطفال حديثي الولادة، وقيل إنه كان يشرب الدماء. وهذا كذب. فالحقيقة إن هذا السلطان كان رحيماً جداً، وكان يخشى أن يدوس بقدمه على نملة، وما قيل عنه ما هو إلا كذب وإفتراء.

الواقع أن هذا البحث لا يتسع لتصوير حجم هذا الصرح العظيم، السلطان عبد الحميد الذى عفى عن مدحت باشا، بعد قرار المحكمة العليا، المشكلة من هيئة من كبار رجال العدل في الدولة، بإعدامه. وبعد موافقة رجال الدولة على إعدامه - وخاصة الغازى(عثمان باشا)[٣٥] بطل (بلافنه) الذى قال لابد من إعدامه- نقض عبد الحميد، من واقع عفوه ورحمته، قرار المحكمة، وأصدر قراراً باستمرار حبس مدحت باشا فى الطائف، ومع ذلك

---

(35) الغازي عثمان: هو عثمان نوري باشا، قائد عام القوات العثمانية أيام الحرب الروسية العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد. حارب في القرم وكريت وبلاد الصرب. رقي إلى رتبة مشير لانتصاراته في بلاد الصرب عام ١٨٧٦. ودافع ببسالة عن بلافنه في بلغاريا أثناء الحرب الروسية العثمانية (١٨٧٧ - ١٨٧٨)، ضد هجمات الجيش الروسي المتكررة التي اضطرته في النهاية إلى الاستسلام. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص ١١٨٨

أُتهم بإنه أمر بخنقه فى سجنه.

ولابد أن نعلم أن وصف الشهادة المقدس، وتعبير "شهيد الحرية" الذى وُصف به سواء مدحت باشا أو نامق كمال، إنما هو هبة من السلطان عبد الحميد لهؤلاء، بالإضافة إلى الولاية والمصروف، ومئات عديدة من العملات الذهبية، كانت تُصرف شهرياً "كهبة سلطانية"، في زمن كان النفى فيه صناعة مربحة.

أما بعد فيجب أن نضع السلطان عبد الحميد، داخل إطار الوقائع الأخيرة التي ارتبطت بحكمه العظيم، من منطلق روحه وأخلاقه. وأن نحسب مدى تأثير ذلك على محمد وحيد الدين الذى بلغ عامه الـ ٤٨ فى جو هذا العهد العظيم، ثم يضطر بعد ذلك مباشراً، أن يدخل بطلنا، فاتحاً فصلاً جديداً فى عصر المشروطية الأولى والثانية، مدعواً إلى الساحة بصفته ولياً للعهد.

عبد الحميد الخيالي

وحتى ما قيل عن أن عبد الحميد كان أسير خيال أقرب الى الجنون،خيال تسبب في إذلاله، ومنعه من تدبر أمر أعدائه. نقول: إن هذا الخيال كان هو أحد مميزاته التى مكنته من تدبير الحيل. فمن المؤكد إنه كان خيالياً، لكن هذا السلطان العظيم الذى لم يصبح ضعيفاً فى أسر خياله، والذى كان يتخذ قراره بناءً على قوة خياله، بعد مشاهدة الأعمال الرياضية، يُعد مثالاً حياً "للخيال المبدع" الذى تحدث عنه الفيلسوف (بيرجسون).

ونظراً لموهبة الخيال المبدع المتسم بالذكاء التي أودعها الله إياه، والتي برزت فيه بشكل واضح، وأصبحت لازمة من لوازمه فى أى عمل يقوم به، فعندما نقول فى عنوان "عبد الحميد الخيالي" فإننا نعنى بذلك إبراز ميزة كبيرة ينفرد بها بذاته. فإن لم يكن "عبد الحميد خيالياً" لم تكن الدولة العثمانية لتستمر تحت حكمه ثلاثة أعوام، لا ٣٣ عاماً. والدليل على ذلك إنها استمرت بعده مدة ١٠ أعوام فقط.

وفضلا عن إيمانه القوي بالله ورسوله الذي لا يضاهيه فيه أحد، فإن ميزتي "الشك المنظم" - على حد قول الفيلسوف ديكارت - و "الخيال" اللتان تمتعا بهما السلطان عبد الحميد، وبرزتا في إدارته لجميع شئون الدولة، وفي المناسبات الخاصة، لم نجدهما في شخص آخر بهذا القدر وبهذه الكيفية.

عبد الحميد المتدين

نقطة التدين هذه التى لمسناها عند حديثنا عن السلاطين الـ ٣٦ السابقين، كانت بارزة أكثر عند عبد الحميد، وكانت أعمق لدرجة جعلت أحد الأوروبيين يقول عنه هذه الكلمة: "لا يمكن تصور أحداً غيره من المنتمين للديانة الإسلامية، يقبل أن تحيد العدالة ولو ذرة عن مسارها الصحيح". الحقيقة أن عبد الحميد لم يكن يفكر طيلة مدة حكمه سوى فى الله، و أمته، سواء خلال صمته أو حديثه، خلال عمله أو نومه.

عبد الحميد المفكر

بالرغم من إن السلطان عبد الحميد الثاني ليس بالرجل غزير الفكر، العلاّمة، فتخطيطه كان ينم عن حدس غاية فى العمق. إذ أدرك الغاية من الانقلابات الزائفة، وأبطالها الكاذبين، وأعاق حركتهم التي تدل على وضاعة الأصل. ولهذا السبب كان أعداؤه بلا حصر. كان عبد الحميد مرتبطاً بالروح الوطنية، وهو أول وأخر رجل دولة فى عهد الكارثة.

سمات عبد الحميد الشخصية

كان يرتدي دائماً القفاز، ويراعي النظافة فى كل شيء. ويتمتع بالأدب الجم، والخلق العظيم. كان لا يخرج إلى طبيبه إلا وهو يرتدي كامل ثيابه، حتى وهو مريض. وعند دخول أحد الخدم عليه في حجرته، كان يتظاهر بإنه يأخذ شيئاً من على المنضدة، حتى لا يراه الخادم وهو راقداً فى سريره، بل واقفاً على قدميه. وقد اندهش ولي عهد ألمانيا عندما رآه، وشاهد مدى تواضعه برغم هيبته السلطانية. ولم يستطع فهم مغزى إسقاط هذا الخليفة الكبير، والسلطان العظيم الذى قال عنه: "إنه أوروبي أكثر من أي أوروبي متحضر، وشرقي أكثر من أي شرقي عظيم".

وهكذا عاش وحيد الدين في كنف السلطان عبد الحميد، شقيقه الأكبر الذي حاول جاهداً إنقاذ الدولة من التردي، وأحب إخوته إليه، من سن ١٥ إلى ٤٨. وفجأة، وبعد أن سيق الوطن بأكمله إلى الانهيار، دخل إلى عهد السلطان محمد رشاد الذي كان ألعوبة في يد جمعية الأشقياء المسماه بالاتحاد والترقي، التى انقلبت على السلطان العظيم عبد الحميد. وبعد ذلك يعتلى هو العرش، وكأن القدر قد حتم عليه أن يعتلي عرش الدولة، بعد أن يتحقق انهيارها.

الاتحاد والترقي

الجمعية اليهودية...جمعية الاتحاد والترقي...

جمعية التقليد السطحى للغرب الذى بدأ مع التنظيمات، وحركة الانقلاب الرخيصة التي تحولت إلى جمعية سرية تضم منحوسين...جمعية التمرد التي ضمت أنصاف المثقفين الذين احتكوا سطحياً بالثقافة الغربية، بلا تحليل ولا فحص ولا تمحيص ولا مراقبة والذين انخدعوا بالشعارات الغربية الرخيصة...

جمعية الاتحاد والترقي، هى نبتة جماعة "تركيا الفتاة"(٣٦) التي تأسست فى عهد السلطان عبد العزيز، لكن انتشارها كان محدوداً. وهى البذرة التى أُلقيت فى عهد عبد الحميد، ونمت، وإكتمل بلوغها، وصارت شجرة مكتملة، وهى الجمعية التي قادت الدولة العثمانية نحو الانهيار خلال عشر سنوات، بعد عهد السلطان العظيم عبد الحميد. وعلى كتف السلطان محمد وحيد الدين "محمد السادس"، الضعيف، النحيف، يتراكم ذنبها بالكامل، وينكمش الوطن التركي، ويذهب، وينمحي، ويضيع !...

وبهذا يُعتبر أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، هم قتلة وحيد الدين والوطن. فقد أثر غدرهم في السلطان عبد الحميد الثاني، المشهور فى عصره بالرحمة. لكن غدرهم بعبد الحميد، كان غدراً بسيطاً، أثر فيه شخصياً، ولم يؤثر في الوطن. أما وحيد الدين الذى كان شخصاً سيئ الحظ، لم يُمهَل لعمل أي شيء، فقد تأثر بغدرهم بدرجة أكبر. إذ كانت ضربتهم له بمثابة دفنه حياً تحت أنقاض الوطن الذي هدموه. وهذا أدق خيط يؤكد براءة وحيد الدين.

وهكذا فإن واقعة الاتحاد والترقي التي نُسبت لعبد الحميد، أصبح مؤكداً ان تُلصق أيضا

---

(36) تأسست جماعة تركيا الفتاة في باريس عام ١٨٦٠م، على أيدي الأتراك المتأثرين بالأفكار الفرنسية، بزعامة (أحمد رضا بك) الذي كان مديراً للمعارف في إحدى مناطق الأناضول ثم هرب إلى باريس. وكانت جماعة سرية، ثورية، لها فروع في برلين وسلانيك واستانبول. كانت هذه الجماعة ترى أن نهضة الدولة تكون في إدخال النظم البرلمانية الأوروبية. تعاظم نفوذ أعضائها في تركيا، وتمكنوا من عزل السلطان عبد العزيز عن العرش، وأتوا بالسلطان مراد الخامس. اتخذت هذه الجماعة أسماء مختلفة خلال تطورها، مثل العثمانيون الجدد، والشباب العثماني، والاتحاد والترقي. وتمكنت من عزل السلطان مراد. تولى بعده السلطان عبد الحميد الثاني الذي لم يستجب لضغوطهم، وقاومهم، وحاول القضاء على نفوذهم. انظر محمد حرب "العثمانيون في التاريخ والحضارة"، دار القلم، دمشق، ١٩٨٩، ص ٤٨، ٤٩

بوحيد الدين، مع إضافة عوامل اخرى.

جمعية الاتحاد والترقي تشبه جمعية الفحامين، أو(كاربوناري)(٣٧) التي لعبت دوراً كبيراً في تاريخ إيطاليا، والتي تألفت في البداية من ثلاثة او خمسة أشخاص، اجتمعوا في مخزن فحم حجري. إذ تأسست الخلية الأولى لجمعية الاتحاد والترقي في عام ١٨٨٩، في ركن منعزل بمدرسة "الطب السلطانية". وكان المتطوعون الأوائل فيها، خمسة من الشباب ذوي الفكر الرومانسي السطحي، في عمر يمكن أن يقال عنه عمر الطفولة. هؤلاء هم: (ابراهيم تيمو) من أوهري، و(عبدالله جودت) من أرابكير - الذي أصبح فيها بعد صاحب صحيفة الاجتهاد الملحدة- و(اسحاق سكوتي) من دياربكر، و(محمد رشيد) من القوقاز، و(حسين زاده علي) من باكو... اجتمع هؤلاء في مكان منعزل بمدرسة الطب في ٢١ مارس عام ١٨٨٩، وقاموا بقطع أربطة عنقهم، وأقسموا بالقرآن - الذي يجهلونه- أن يتحدوا حول فكر الحركة، ضد السلطان الأحمر(!) ونظامه. وبهذا أسسوا أول خلية للاتحاد، وكان اسمها في البداية (الاتحاد العثماني).

وهاهو أول تقييم لي لهؤلاء المذكورين في هذه الصفحة الخيالية (الفانتازيا)، نظرياً، وأدبياً:

كانت أقوى الشخصيات في هذه الجمعية، هو ذلك الرجل الذى نشأ خارج الوطن في مقدونيا، وتمتع بجوها ومائها. واثنان آخران اصطبغا بروث الثقافة الروسية. واثنان فقط من الأناضول ... كان على رأس هذه الجماعة المدعو (عبدالله جودت)(٣٨) (ولكنه في الحقيقة

---

(37) جمعيات الكاربوناري: هى جمعيات الاغتيال المنظم، وهى جمعيات سرية نشأت في إيطاليا في أوائل القرن التاسع عشر لطرد الأجانب منها، وتوحيدها. ثم انتقلت إلى فرنسا عام ١٨١٨، وانتشرت فيها، وكانت من أهم أسباب سقوط حكومة شارل العاشر، ملك فرنسا الذي أراد إعادة بعض النظم القديمة، المخالفة لروح الحرية ... انظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص ٤١٢، ٤١٣.

(38) عبدالله جودت: هو واحد من رواد حركة تغريب المجتمع العثماني وثقافته. أسس عام ١٩٠٤ جريدة "اجتهاد" التي صارت منبراً للثقافة الغربية، وأداة نشرها بين العثمانيين. تعاون مع جمعية الاتحاد والترقي، ولكنه لم يكن اتحادياً، عمل جاهداً على مدى ربع قرن في جريدته "اجتهاد" على إرساء أسس الانقلاب الكمالي، قبل عشر سنوات من انقلاب أتاتورك الذي سار على خطاه ... انظر محمد حرب، المثقف وتغيير نظام الحكم، حالة اتاتورك، مرجع سبق ذكره، ص ٧٠، ٧١.

ليس عبدالله جودت بل هوعدو الله الظالم). والشابان الآخران اللذان من الأناضول، كانا يختلفان عنه من ناحية الأصل، وشكلا بنيتين متناقضتين ...

رفع المدعو (عبدالله جودت)، ومعه (توفيق فكرت) و(ياسين جاهد) الذين أصبحوا المرشدين الفكريين للجماعة، لواء الكفر والعصيان والهجوم على الدولة. فقام (عبدالله جودت) بترجمة كتاب الدكتور(دوزى) بعنوان "تاريخ الإسلام" إلى التركية. كان هذا الكتاب بمثابة طبق السم الذى تسبب في جفاف وجدان الشباب الغض، وضياع إيمان العديد من طلبة الطب مثله، مما جعلهم يقبلون على الانتحار بسبب هذا الملعون...

تعرفت على عبد الله جودت عندما كنت شاباً في سن ١٩ أو ٢٠ عاماً، في الفترة التي أصدر فيها صحيفته الملحدة "الاجتهاد"، وكنت أنا في بداية شهرتي الأدبية.

كان اسم صحيفة "الاجتهاد" يُكتب بخط التعليق الإيراني، فوق عمود في "چاغا"، في أطراف "يراباطان". وكثيراً ما كان يُكتب بالحروف الفرنسية في أماكن العمل، وأعلى العمارات... عندما رأيت وجه هذا المنحوس المصاب بالجدرى الذى قال عنه سليمان نظيف: "إنه تمزق بظفر يد الله"، شعرت بالغثيان. وكلما شاهدته بعد ذلك يقترن غثيان معدتي، بغثيان روحي. كان هذا الكافر معجباً بي لدرجة إنه وضع صورتي وأنا شاعر جديد على غلاف صحيفته "الاجتهاد"، وكان يقدمني بـ "بودلير"(٣٩) الأتراك. لكن هذا المديح لم يؤثر علي أدنى تأثير مثلما أثر في "نورالله أطاش" الملحد. وكنت اعتبره من أكثر البشر مجوناً، لأن هناك فرق بين الفكر الروحي، والفكر الدُنيوي.

كان معروفاً بخسة الروح، والبخل المادي، ولذلك نُسى عبدالله جودت، عدوالله ورسوله، ولم يُعطَ حقه. كان يعتقد أنه أول من فكر وبشر بجميع الانقلابات، وكان يقول كاشفاً عما بداخله من سوء: "- أنا مؤسس الاتحاد والترقي! أنا أول من حمل لواء الثورة ضد عبد الحميد! وبعد وصول الاتحاديين إلى الحكم تجاهلوني، وتركوني في زاوية النسيان! انقلابات مصطفى كمال كلها أخذها عني (في ذلك الوقت لم يكن عبدالله جودت مؤيداً للانقلاب الجديد الذى حدث في الحروف التركية)، ومع ذلك لم أنل ما استحقه من تقدير!".

---

(39) شارل بودلير (١٨٢١- ١٨٦٧): هو شاعر وناقد فني فرنسي. بدأ كتابة قصائده النثرية عام ١٨٥٧ عقب نشر ديوانه أزهار الشر، ويعتبر بودلير من أبرز شعراء القرن التاسع عشر، ومن رموز الحداثة في العالم. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٦

وهكذا يكفي أن نكشف عن ماهية القضية، وحقيقة الاتحاد والترقي، من مؤسسيها (و هم الممثلين الرئسيين لها).

بعد أن مكث هؤلاء الممثلين شهوراً عديدة في بداية تشكيلها لوضع خطتها الخيالية، وبرغم انضمام أعضاء جدد لها، فجأة سيطر عليها أحد الموجودين في أوروبا في ذلك الوقت، وبهذا حظيت بنعمة التمركز في أوروبا.

في ذلك الوقت كان (أحمد رضا) واحداً من الموجودين في أوروبا، والمعروف أنه من كبار المجاهدين في سبيل الحرية في زمن الاتحاديين. كان ذو لحية بيضاء فى لون الثلج، مقصوصة على الطريقة الأوروبية. وقد أصبح بعد ذلك واحداً من الذين كانوا السبب في غروب جمعية الاتحاد والترقي... جُلب هذا الانتهازي الطماع لرئاسة مجلس الأعيان بعد عهد المشروطية، في تلك الفترة كان يعمل مديراً لمدرسة الزراعة في (بورصة)، وكان ينشر مقالات في صحيفة "نيلوفر" هناك. وفي الأعياد الرسمية كان ينشر رسائل يمدح فيها السلطان عبد الحميد الثاني، تقرباً إليه وتملقاً له (مثلما فعل توفيق فكرت تماماً في ثروت فنون)[٤٠]. فى عام ١٨٨٩ ذهب (أحمد رضا) هذا إلى باريس بمناسبة إقامة معرض باريس، وبدأ فى إمطار عبد الحميد بلوائح الإصلاحات. كان هدفه- بعد أن شعر بالأمان هناك- أن يلفت نظر السلطان إلى النداءات العذبة القاسية، ليجعله يغادر البلاد، وبهذه الطريقة ينتقل إلى مصاف أبطال الحرية.

جاء في مذكرات عبد الحميد أن (أحمد رضا) - الذى كان يحمل دماً أجنبياً من جانب أمه، وهو ما كان السبب في تسميته "ابن علي بك الإنجليزي"- سحر شباب الجمعية بنشاطه

---

(40) ثروت فنون: هى مجلة أدبية تأسست عام ١٨٩٦، رأس تحريرها الشاعر التركي توفيق فكرت، ثم الروائي حسين جاهد. كانت هذه المجلة لسان تلك الجماعة التي عُرفت أدبها بالآداب الجديدة. ويسمي بعض مؤرخي الأدب التركي أدب هذه الجماعة باسم مجلتها. دعى أدباء الآداب الجديدة إلى الثورة على الأدب الديواني، وحرصوا على تقليد الأدب الغربي وخاصة الفرنسي، واقتباس صوره الأدبية. كما حرصوا على استخدام العبارات المنمقة، والألفاظ الرنانة، واستعملوا كثيراً من الألفاظ العربية والفارسية، وكان شعارهم الفن للفن. ومن أبرز أدباء هذه المدرسة الأدبية الجديدة، القصاص خالد ضيا بك الذي كان محرراً مع توفيق فكرت في مجلة ثروت فنون، ومحمد رؤوف وحسين جاهد. ومن أبرز الشعراء توفيق فكرت وجناب شهاب الدين وسليمان نظيف. انظر حسين مجيب المصري، تاريخ الأدب التركي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٨

الذي مارسه في باريس. ويدأ هؤلاء الشباب،، وهم: (أحمد ورداني والدكتور ناظم وعلي زهدي) الذين انضموا إلى المجموعة الأولى، في تنظيم المظاهرات للفت نظر الحكومة. وعندما أصبح وضعهم محرج هربوا إلى باريس، وتعلقوا بأذيال أحمد رضا، هذا البطل المزيف الذى بدأ مقلداً لغيره، ثم معتمداً عليهم، ثم رئيساً لهذه الجمعية. وكانت المراسلات التى تتم بين استانبول وباريس في تلك الفترة، يُكتب فى ذيلها اسم "الاتحاد والترقي".

انجذب (أحمد رضا) إلى (أوجست كونت)(٤١) - وهو الفيلسوف الفرنسي الذي وضع مذهب "العقلانية"- واعتنق فكره وفلسفته "الوضعية"، وكان يمجد عقليته. إذ قال أحمد رضا في أحد المجالس بعد أن فقد إيهانه بالله: "- هناك حقيقة واحدة اؤمن بها، وارتبط بها، إنها المذهب (الوضعي)، العقل، الرؤية، الإثبات! إننى اؤمن بالعقل! فهل يكون هذا عدم إيهان؟".

وهكذا وضع (أحمد رضا) الذي ثلاثة أرباع دمه أجنبي، أساس ما سماها في البداية بالجمعية. ويدأ في إلقاء بذرتها في أوروبا. واقترح أن يكون اسمها "النظام والترقي"، وهو رمز المذهب "الوضعي"... وقام الشباب بعمل تعديل بسيط لهذا التعبير، فبدلوا كلمة "النظام" بكلمة "الاتحاد" فأصبح اسمها "الاتحاد والترقي". وهكذا صار اسم هذه الجمعية التي تولدت عن الفكر الأوروبي، وأُشتق اسمها من تعبير أوروبي، بعد ترجمتها إلى التركية.

بلغ عدد أعضاء الجمعية بعد عامين من تأسيسها ١٢ عضواً، وبعد فترة قصيرة تشكل التنظيم "الهلامي" الذي أخذ يعقد اجتماعات سرية في بستان "مدحت باشا" خارج

---

(41) أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧): عالم اجتماع، وفيلسوف فرنسي، أكد على ضرورة بناء النظريات العلمية المبنية على الملاحظة. وهو المؤسس للفلسفة الوضعية. يرى كونت أن الفكر البشري قد مر خلال تطوره التاريخي بمراحل ثلاث: المرحلة اللاهوتية التي تعلل الأشياء والظواهر بكائنات وقوى غيبية. والمرحلة الميتافيزيقية التي تعتمد على الإدراك المجرد. والمرحلة الوضعية التي تعلل الأشياء عن طريق الملاحظة والتجربة الحسية. ويعتبر كونت أن العلم الذي يتفق مع المرحلة الوضعية، ويساعد على فهم الإنسان، ويستوعب جميع العلوم التي سبقته، هو "علم الاجتماع". ومن أهم أعماله كتاب الفلسفة الوضعية. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص ١٥١٧

"أدرنةقابيسي" في استانبول. ووجدوا في أطراف إزمير والشام، أناس وأجواء متوافقة معهم. وجذبت هذه الدعوة الجديدة - التي أخذت في الانتشار بين الشباب ذوي المؤهلات العليا والضباط- أنظار الجميع عن طريق صحيفة "مشورت" التي بدأ (أحمد رضا) في نشرها في باريس عام (١٨٩٥). وبدأ كل شخص مثقف يميل تجاه الجمعية، وأصبحت موضة... وأصبح هذا الوسط معلوم للزمرة الاجتماعية التي بدأت ترغي وتذبد فيما بينها ضد عبد الحميد، وضد القصر ... وعلى رأسهم كان اليهود والدونما والماسونيين، وكل هذا الوسط عديم الأصل...

ويكتب عبدالله جودت أول بيان للجمعية، ويدير (توستين باشا) - من مدرسي المدرسة الحربية- المراسلات مع أوروبا! وذلك عن طريق مكتب البريد الفرنسي الذي كان في (جالاطة)، ويعاونه مدرساً آخر من نفس المدرسة، وهو (أحمد بك الجركسي) - أصبح باشا بعد ذلك- صديق الأتراك ذو الأصل الأوروبي. وعرف القصر بأمر تلك الجمعية التي انطلقت شرارتها من تركيا، وتركزت في أوروبا ومصر. ويتم البدء في نفي وإقصاء هؤلاء الأبطال إلى زوايا وأركان الدولة العثمانية، ولما كانوا بلا عمل ومفلسين تماماً، ينقذهم هذا السلطان - هذا الصرح الخالد الذي يسمونه بـ "السلطان الأحمر"- بهذا النفى، حيث يرسل لهم المخصصات المالية التي تساعدهم على الحياة هناك.

لكن هذا التدبير لم ينجح، فقد كان بمثابة وضع قطة ضالة في جوال، ومعها طعام وفير، وإبعادها إلى حي آخر حيث تتكاثر القطط الجائعة من ناحية، ومن ناحية أخرى تعود من الأماكن المطرودة منها، وتستمر في تجمعها بين المنازل أو في البدروم.

ويلغت الوقاحة بهؤلاء الاتحاديين الذين اعتمدوا على رحمة السلطان عبد الحميد وسماحته، أن أصبح كل همهم البحث عن سلطان، يكون أسد من حيث الشكل، لكن أسنانه لا تقطع، ومخالبه لا تمزق!.

في تلك الأثناء كان هناك ثلاثة أمراء:

ولي العهد محمد رشاد أفندي الذي بدا مثل عجينة طرية، قابلة للتشكيل... ويوسف عز الدين أفندي الذي كان يخرج من أزمة إلى أزمة. أما ولى العهد الثالث فهو محمد وحيد الدين أفندي الذي كان يقترب من سن الأربعين حينئذ، وكان منزوياً في (چنگل كوي) خلف

حصا زمن الأشجار الضخمة الكثيفة، غير راغباً أو تواقا لاعتلاء العرش...

ويصفعون يوسف عز الدين أفندي، ويصفون وحيد الدين أفندي بإنه "ظل عبد الحميد"، نظراً للحذر الذي أبداه في حماية نفسه، ونظراً لوقاره، والحب المتبادل بينه وبين شقيقه الأكبر عبد الحميد. وانجذبوا نحو السلطان محمد رشاد، ذلك الرداء الذي يليق بهم وبأملهم.

كان محمد رشاد أفندي من المولوية، فماذا يفعلون؟ كان عليهم اللجوء إلى مولانا شيخ التكية المولوية التي في "يوكسك قالديرم" في "باي اوغلو"، والتأثير عليه، وبواسطته يمكن أن تؤول إليه ولاية العهد ... ومثلما لم تعد المولوية في ذلك العصر باباً يصعب فتحه، أصبح من السهل التأثير على شيخها. ووضعوا أمام محمد رشاد كومة رديئة من الشعارات (الحرية والمساواة والعدالة)، لكنهم لم يجدوا في هذا السلطان الذي كان رداءً مثالياً لهم، وكالعجينة الطرية، قدرة على اتخاذ قرار يساندهم ويدعمهم. كان طيلة سلطته لا يقول سوى أربع كلمات يرددهم في أى موقف.

ـ أنا ممنون...أنا محظوظ.

ولذلك اتخذوا قرارهم في الحال، يوسف عز الدين لا عمل له! ووحيد الدين خبيث! أما رشاد فلن يكون سنداً لهم! لكن ...ليصبح سلطاننا عندما نستولى على الحكم! فعندما نغطيه بالشمع، لن يكون هناك سلطاناً!...

ويكشف عبد القادر أفندي، شيخ التكية المولوية التي في (يوكسك قالديرم)، مخططهم وميلهم إلى الثورة. فيتسلل إلى قصر (يلديز) الذي تحت سيطرة السلطان العظيم عبد الحميد، ولا يستنكف عن طلب العون من بعض المسلمين هناك، لإسقاط السلطان. فقد كان هدفه، أن يرى قبعة المولوية فوق العرش العثماني.

ويرسل الاتحاديون القرار إلى أحمد رضا في باريس، ويجيء الرد:

ـ لقد جُن هؤلاء الأفراخ الذين لا يهمهم شيئاً سوى حب الظهور. كيف سيصبح حالنا في باريس، إذا فشلت الحركة؟ ألن تقوم الحكومة الفرنسية بالإلقاء بنا خارج حدود فرنسا؟ ... وينقطع الاتصال بين مركز استانبول وباريس ... ويصدر المركزالعمومي الذى برئاسة الحاج! (أحمد بك) قراراً بإخراج أحمد رضا من الجمعية. وفي الوقت نفسه تنتشر

إشاعة تملأ القصر، وينكشف كل شيء. وبدلاً من إرسالهم إلى المشنقة، يُرسَلون إلى عالم النفي ذو المخصصات. ويحتجب المركز العمومي الأول من تلقاء نفسه، ويصل العهد الأول للاتحاد والترقي لنهايته.

ولننظر إلى نقاط الاختراق وقواعد التمركز. في رومانيا وبلغاريا، كان يوجد ابراهيم الملقب بـ "تيمو"، وهو من أوائل المؤسسين من الجانب الآخر من المياه. وكان أحمد رضا، والدكتور ناظم، وشركائهم في فرنسا. وكان هذا في سويسرا، وذاك في مصر!... وفي ٢١ ديسمبر عام ١٨٩٦، يتم تشكيل "فرقة الانقلاب العثماني" في مدينة جنيف بسويسرا، وهي مجموعة تضم نفس العناصر الراغبة في التحرك بحيوية أكبر، بعد سقوط مركز استانبول... قامت هذه المجموعة بإشعال الاضطرابات والفتن والقلاقل التي كان يتم إخمادها ظاهرياً. ولما صار الوطن كقطعة القماش المحترقة، صار كل أملهم أن يشاهدوا من نافذة الوطن، الشرارات التي تذروها رياح الشمال والغرب. تلك الشرارات التي أخذ هؤلاء من كُتبت في أوراق ميلادهم وهويتهم كلمتي "تركي" و"مسلم"، ينفخون فيها ليزيدوها إشتعالاً من أجل إحراق الوطن كله...

كان أول عمل اضطلعت به "فرقة الإنقلاب العثماني" التي تأسست في سويسرا، هو الاتصال بالأرمن، وطلب العون والتأييد منهم. واتحدوا على فكرة خطة اغتيال مشتركة لسلطان الأتراك، وخليفة المسلمين. وينشر الأرمن بيان يوضح هدفهم وقضيتهم الأساسية، ثم يقدمون للفدائيين الأتراك الموجودين في استانبول القنبلة(٤٢)... واتفقوا على أن يكون

---

(42) حادثة القنبلة: في الخامس من يوليو عام ١٩٠٥، دبر المتمردون الأرمن مؤامرة لاغتيال السلطان عبد الحميد الثاني، وذلك بوضع قنبلة موقوتة في مركبة أُوقفت في فناء الجامع الذي كان يصلي فيه السلطان صلاة الجمعة، وتم توقيت القنبلة بحيث تنفجر في الوقت الذي يخرج فيه السلطان من الجامع. وقد تأخر السلطان في الخروج قليلاً، فانفجرت القنبلة، وأدت إلى مقتل وجُرح العشرات من الأشخاص، بالإضافة إلى الخيول التي كانت تقف في ساحة الجامع. بقي السلطان هادئًا، ثم سار إلى عربته حيث قادها بنفسه بين هتاف الناس له. وقد وقعت هذه المحاولة، بعدما أيقن الأرمن أن السلطان عبد الحميد لن يطبّق البند الوارد في معاهدة "برلين"، حول الامتيازات والمؤسسات الضرورية التي طلبتها الدول الأوروبية الكبرى من الدولة العثمانية، لتأسيس حكم ذاتي مستقل للأرمن الذين كانوا أقلّية في الدولة العثمانية. كانت خطة الأرمن هي اغتيال السلطان أولاً، ثم نسف مقر الحكومة العثمانية، وجسر جالاطة، والبنك العثماني، وسفارات بعض الدول الأوروبية في استانبول، لإشاعة فوضى كبيرة فيها، لفسح المجال لتدخل الدول الأوروبية. وتم اعتقال

تسليم القنبلة في مكان ما في (طونة)، واتخذوا قراراً بأن يتم إرسال القنبلة إلى المكان الذي حدده (ابراهيم تيمو). وتم الاتصال بين هؤلاء الأتراك الذين يمكن وصفهم بأعداء بلادهم، وبين أعداء الأتراك، عن طريق شخص أرمني اسمه (ظريفيان).

لكن برغم نشر الهدف المعهود، وبيان القضية، لم يتم التفاهم بين الأرمن أعداء الأتراك، وبين الأتراك أعداء بلادهم. ولم تتم صفقة شراء القنبلة، وهكذا صار شرف ضرب خليفة المسلمين وسلطان الأتراك، في يد الأرمن فقط (!)

وهاهى مقتطفات من بيان الإنقلاب.

....

نحن العثمانيون! نعرف أن قتل الكلب المسعور فرض! لذلك قررت " فرقة الانقلاب العثماني" التي كانت حتى اليوم تتجنب إراقة الدماء، عندما بلغ الظلم مداه، مقاومته بالسلاح وأخذ ثأر المظلومين!

....

وإذا اعترضت جماعات الضباط، والجنود طريقنا، فلن يكون هناك سوى الموت. نعم سنقتل ونقطع ونحصد ونحرق ونهدم! لم نعد نخاف أحداً.

إن أفول "نجم" هذا السلطان المتوحش سيكون بأيدينا. فقد جهزنا الديناميت الذى سيطيح برماده مباشرة إلى السماء.

وإذا تواجد أحد من الجمهور فسوف يُقضى عليه. ونحب أن نخبركم أننا سوف نبدأ العمل، بافتتاح مجلس المبعوثان، بشعار "إما الحق أو الموت!" وسوف نستأصل حكومة الظالم من جذرها، ونقوم نحن بالعمل!

الأرمني الذي اعترف بارتكابه هذا الجرم، وحُكم عليه بالإعدام، ولكن السلطان عبد الحميد عفا عنه، وأمر بإخراجه خارج الحدود، لأنه لم يكن يرغب في توقيع عقوبة الإعدام على أحد. انظر محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، مرجع سبق ذكره، ص ٦٣.

وكان من الناشطين في أوروبا في تلك الفترة من بين الشخصيات المعروفة، الدكتور (قدري رشيد باشا) و (طونه لي حلمي) والكاتب الكبير (سليمان نظيف). طونه لي حلمى هذا سنراه بعد ٢٠ عاماً، وقد استطاع إنقاذ بعض أطلال الدولة العثمانية التي هدمها الاتحاديين. وسيشترك في حرب الاستقلال التي كان الغرض منها تطهير دنس الاتحاد والترقي. ومن قبلها كان من بين النواب الأوائل في عهد الدولة العثمانية. أما سليمان نظيف البائس، فسيكتب ملحمة تتناقلها الألسنة بعنوان "يوم أسود"، يوم احتلال استانبول، عندما وقف أمام خرابة الوطن الذي تهدمت أطرافه، وصار في حاجة إلى المساعدة.

ووقف وحيد الدين في ركن قصر (چنگل كوي)، يبكي بكاءاً مراً، صامتاً!

وستمهل عند الأحداث الكبيرة، المعروفة لكل واحد منا، حيث تعيش في ذاكرتنا وذكرياتنا، برغم قلة مصادرها، وتولد عنها ما كبر وصغر من أحداث. أما الأحداث الأخرى، فسنمر عليها مروراً سريعاً.

الأحداث الكبيرة للاتحاد والترقي، وقعت في الأعوام الأخيرة من القرن الـ ١٩، والأعوام الأولى من القرن الـ ٢٠. إذ تبدأ الجمعية بإقامة مركزاً مشتركاً كبيراً في سلانيك، وتصل إلى نهايتها "بجيش الحركة"، والفدائيين ذوى القبعة اللباد البيضاء الذين أرسلوا إلى استانبول. ويظهر(أحمد رضا) في الساحة مرة أخرى، وتشتهر معه أسماء عديدة... ويصعد أنور، ونيازي[٤٣]، وطلعت، على المسرح عند انسدال ستائر نهاية القرن. ويخرجون إلى الجبال والسهول، لاصطياد الحرية بغزال مصطنع، ويبقى هؤلاء على المسرح لمدة عشر سنوات، حتى سقوط الدولة العثمانية. وكان معهم العديد من الممثلين والكومبارس الجدد، باستثناء (نيازى بك) ذو الشارب العريض الذى ظل صورة في كارت بوستال، ولم يمهله أجله للعب دوراً على المسرح.

كانت جمعية الاتحاد والترقي (أحياناً يُقال الترقي والاتحاد) في فترة تواجدها في سلانيك،

---

(43) رسنه لي نيازي: ولد عام ١٨٧٣، وشارك في الحرب اليونانية عام١٨٩٧. وهو أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذين أجبروا السلطان عبد الحميد الثاني على العمل بالدستور، ثم خلعوه عام ١٩٠٩. ثم تقاعد نيازي، وقتله أحد الخصوم رمياً بالرصاص عام ١٩١٢. انظر Ekrem Üzümeri ve Değerleri,Tükiye Ansiklopedisi,a.g.e. cilt v, s.17

عبارة عن جمعية أشقياء، وكان المسدس هو الألة التي يتحدثون بها ولا يعرفون سواها، فقد وجدوا في السلاح مفتاح الأقفال الذي يفتح كل الأبواب. وعندما تمكنت هذه الروح من الجمعية، لم يعد هناك دوراً لكلام المفكرين. ومن بين ما قيل عن أنور باشا شئ عجيب، وهو أنه صوب مسدسه تجاه لائحة خشبية، وأخذ يكتب اسمه بطلقات الرصاص التي أطلقها من مسدسه، نقطة نقطة على هذا الهدف.

كل أفكارهم تضمنها شعار "الحرية أو الموت!" التي طرزوها بالحرير الأسود على قبعاتهم اللباد البيضاء...

فهذه الروح التي هُضمت وتأصلت في الجمعية في فترة تواجدها في سلانيك، كانت كالطلسم. وبصفة عامة، فقد استمر تأثير هذا الحماس القاتل الذى يشبه هياج كرة القدم الذي نراه اليوم، والذي كان بارزاً في هذه الجماعة القاتلة.

ويُخرجون وزير السلطان عبد الحميد في سلانيك من مكتب التلغراف، ويطرحونه أرضاً، ويطلق عليه الكثيرون منهم الرصاص، وكأنه تدريب لإحراز الهدف. وبعدها يستمر تدريب التصويب بالرصاص الحقيقي من فوق الجسور، وفي الميادين العامة، رصاص استهدف رقاب العباد، ورقاب الصحفيين الذين أسكتهم صوت طلقات الرصاص. واستهدفت هذه الروح المواطن المسلم شريك الدين، بدلاً من العدو. وسعوا إلى تلقيح الضباط بهذه الروح التي اختمرت.

معظم الشباب الذي نفض من داخله هذا الحماس المجنون، وجذبة الشيطان المصروع، وفهم ما يُسمى بالنموذج الاتحادي، وحالة الروح التي نشروها بسهولة، هم فقط الذين قاوموا هذه الروح، وثقافة إزهاق الأرواح وفنونها. وهذا المذهب الروحاني الفريد لجمعية أشقياء الاتحاد والترقي، هو الذي أوصلها بالتدريج لنهايتها المحتومة، بعد أن أصبح القتل، شهوة ومتعة في حد ذاته. وما كان يجب أن يفعله السلطان العظيم عبد الحميد تجاه هذا المشهد الذي تبلور كثيراً في بداية القرن العشرين، هو أن يقوم بجمع رؤساء الحركة جميعهم، ممن لديهم ميل إلى سلانيك من حيث المعنى، ويشحنهم في السفينة القديمة (تيرى موججان) بدلاً من الباخرة (عز الدين) التي حملت مدحت باشا في سالف الزمان إلى (بريDنديز) ثم الى (جدة). وفي بحر سلانيك الواسع يمسك بالمدفع ويغرقهم!

وأسفاه... السلطان عبد الحميد فيه كل الصفات الجيدة، ولذلك فهذه الروح لم تكن لديه... لم تكن لديه لدرجة إنه كان يُعد تنازلاً منه، إذا استعار هذه الروح من الاتحاديين، وطبق نفس ما كانوا يفعلونه.

والنتيجة:

هاجوا وماجوا وقتلوا وحرقوا وأمطروا القصر بالتلغرافات، وزجروا وزرائه، وطالبوه بإعلان المشروطية.

وفي مجلس المبعوثان، هاجموا عبد الحميد الذي وقف بجانب منصة الرئيس التي جلس عليها أحمد رضا في مواجهتهم، واتهموه بخنق الحرية وإذلال الأمة. وفي النهاية لجأوا إلى أكثر الحيل وضاعة من أجل الإطاحة بالسلطان الذي بدا متوكلاً، ومتحملاً لهذا، فدبروا (واقعة ٣١ مارس)(٤٤). ومن أجل القضاء على الشريعة التي كانوا ضدها، ومحوها من جذرها، ومن أجل إيجاد ذريعة للقيام بهذا العمل، حرضوا الجنود أن يخرجوا في صورة ثائرين، وأن يهتفوا قائلين: "نريد الشريعة". ويجعلونهم يعلنوا أن عبد الحميد هو المحرض على الثورة، ويخرج الصغار والجاهلين إلى الشوارع والميادين، يهتفون قائلين: "الشريعة، الشريعة!". واحتشد قسم كبير منهم في ميدان أياصوفيا، ووطأوا مجلس المبعوثان الذي هناك، (وهو قصر العدلية الذي احترق في السنة العاشرة للجمهورية)، وقاموا بقتل بعض النواب، وهدموا كل شيء، ولجأوا إلى السلب والنهب. وتوجه إلى استانبول مجموعة من الانتهازيين يسمون بـ "جيش الحركة"، وزعم بعض أفراد هذا الجيش قائلين: "جئنا لإنقاذ السلطان!" وقاموا بدمج مجلس الأعيان والمبعوثان، وانتخبوا رجلاً من أتباع عبد الحميد القدامى يسمى سعيد باشا -

---

(44) واقعة ٣١ مارس: هى الحركة التي دبرها حزب الاتحاد والترقي للإطاحة بالسلطان عبد الحميد. ففي ليلة ٣١ مارس ١٩٠٩، تمردت بعض وحدات القناصة في استانبول، وسارت نحو مجلس المبعوثان، وانضم إليها بعض أفراد من الشعب، وهتفوا بحياة السلطان، وطالبوه بحماية الشريعة من الاتحاديين الذين يهدفون إلى القضاء عليها. فحدثت مصادمات بين المتظاهرين، وبين بعض رجال الحكومة، أدت إلى مقتل بعض الوزراء. فتحرك الجيش الثاني المعروف بجيش الحركة من سلانيك بقيادة محمود شوكت باشا، ودخل استانبول، وتمكن من إخماد حركة التمرد. وبعد هذه الأحداث، اتهم الاتحاديون السلطان عبد الحميد بتدبير هذا الحادث لإلغاء العمل بالدستور، وخلعوه عن العرش. انظر:

Necip Fazıl Kısakürek, "Son Devrin Din Mazlumları", Büyük Doğu Yayınları, İstanbul 1997, s.11-35

وهو إنسان عديم الأخلاق، وسيء الطباع، كان يضطر دائماً إلى الالتجاء إلى إحدى السفارات الأجنبية عندما تضطره الظروف لذلك- رئيساً للوفد الذي سموه بـ "مجلس الأمة"، وأعلنوا قرار الخلع عن العرش، بموجب المذكرة التي رفعها رئيس هذا الوفد، بدق الطبول، والنفخ في البوق، وعزف الكمان.

وأكثر ما يحزن في هذا الأمر - والذي سيتضح أكثر يوماً بعد يوم، طيلة السطور القادمة منذ التنظيمات- أن هؤلاء الذين أرادوا القضاء على الشريعة، بلغت بهم براعة النفاق إنهم استندوا على الشريعة، في سبيل القضاء عليها، وحصلوا على فتوى من "شيخ الإنكار"، المفروض أنه "شيخ الاسلام"(٤٥). وقام هذا الرجل ذو الوجه الأسود، باتهام السلطان عبد الحميد المتدين جداً إلى حد الإفراط، بإنه ظالم ومسرف، وأنه أفسد أحكام الشريعة، وحرق كتبها. وبسؤال "هل يجوز هذا" يصير الجواب: "لا، لابد من القضاء على حكمه". وتم تكليف قوة خاصة من قادتهم لخلع عبد الحميد، السلطان العظيم الذي قال: "لا، إنني لا أرضى أن تُراق نقطة دم واحدة لمسلم بسببي" عن العرش.

وبهذا نستطيع من داخل قطار الأحداث الماضية، تعقب الاتحاد والترقي حتى وقت توقيع هدنة ١٩١٨، كما نتعقب طيور الكوارث التي تحوم في سماء الوطن التركي.

وهكذا كما أسلفنا، فقد أطاحوا بالسلطان عبد الحميد، مستغلين معدنه الطيب، واحترامه للحياة، ورحمته، ونقاءه الذي جعلهم يصفونه بإنه: "أرق من الرقة، وأنعم من النعومة" وأجلسوا على العرش العثماني "محمد رشاد أفندي"، وكان سنه حينئذ ٦٥ عاماً، وكان جسداً بلا روح. وافتتحوا به العصر الذى بدأ بالتخلص من الأشياء المتحفية المتعلقة بالحاكم، والعرش العثماني. وسيُطرد هو أيضًا من المتحف بعد ١٤ عاماً.

---

(45) شيخ الإسلام: هو صاحب أعلى رتبة علمية في الدولة العثمانية. ويرأس الطبقة العلمية. وأُستحدث هذا المنصب في عهد السلطان مراد الثاني، وكان يسمى في أوائل عهد الدولة العثمانية بقاضي عسكر. وفي عهد السلطان محمد الفاتح كان يُعرف بالمفتي حيث كان يقوم بإصدار الفتاوي الخاصة بالدعاوي القضائية. ثم صار يُعرف بشيخ الإسلام. والصدر الأعظم هو المسئول عن تعيين شيخ الإسلام. وكان شيخ الإسلام عضواً في الديوان السلطاني الذي يرأسة الصدر الأعظم نيابة عن السلطان. انظر:
Mehmet Zeki Pakalın, "Osmanlı Tarıh Deyimler ve Terimleri Sözlüğü", cilt 3, a.g.e. s.347-350.

السلطان محمد رشاد :

بينما يُرسَل عبد الحميد الثاني في منتصف الليل إلى سلانيك، إلى قصر اليهودي (الأثيني)، جاء ذلك الوفد الذي زعم أنه أصبح ممثلاً للشعب، إلى محمد رشاد أفندي، وأخبره بإنه أصبح خليفة المسلمين وسلطان الأتراك، نزولاً على إرادة الأمة.

محمد رشاد لم يكن طيلة حياته يخرج من قصره للتنزه أو للتجول بدون وضوء، وهو مثل جميع آل عثمان، لم تضعف علاقته بالدين، ولم يشرب قطرة خمر، وتجنب كافة أشكال المحرمات. وخلال فترة ولاية العهد، وحتى فترة شيخوخته، لم يلجأ ولو مرة واحدة إلى الألاعيب والحيل السياسية. وكان يقرأ التاريخ والمثنوي فقط، لكنه عاش محروماً من إمكانية وصل عالمه الداخلي، بالعالم الخارجي. كان نقياً نقاء ماء المطر، لكنه كان محروماً من النشاط والفكر تماماً. فهذا المسن ذو العينان الزرقاوان، والبشرة البيضاء، والوجه الوردي، واللحية البيضاء، المتوكل على الله توكلاً يبلغ حد العبودية، ومثال الخضوع والإذعان، كان هكذا يجيب بكلامه الذي جهزه من قبل على كلمة الوفد:

"- حافظت على اعتدالي لمدة ٣٣ عاماً. وكنت طيلة هذه المدة أدعو لأمتي بالسلامة والسعادة. ومادامت الأمة تريدني، فإنني أقبل هذه المهمة بكل شكر. وأملي الأول تنفيذ حكم الشرع الشريف بموجب القانون الأساسي. ولن انحرف ولو ذرة عن تحقيق آمال ورغبات أمتي. وإذا منّ الله علي بالتوفيق، فسأكون سعيداً".

كانت هذه الكلمات القاتمة، الجوفاء، عبارة عن مساعدة قدمها للاتحاديين، عن طريق الاتهام الخفي لعهد عبد الحميد. وإيضاح أنه كان زمناً من الصعب إبداء الاعتدال فيه. وهي كلمات توضح حالة الفكر لدى السلطان والسلطنة، وتقدم إطار محزن للضعف والتضاد، داخل أسلوب منافق. فقد تحدث عن الموافقة على اعتلاء العرش، بغاية المحافظة على الشريعة، بينما كل شيء يتجه نحو هدم الشريعة. وتصرف وكأنه منقاداً، وغايته إرضاء هؤلاء من هم ضدها. كما توضح كلماته أيضا، تصوره أن خدمة الوطن يكون في سيادة القانون الأساسي، وفي المحافظة على الشريعة. فضلاً عن الإشارة إلى عدم التقاعس عن تحقيق آمال ورغبات الشعب، والعمل على طمأنة الاتحاديين بدلاً من طمأنة الأمة.

ويرسم هؤلاء الذين احتشدوا في الميدان - عندما قام السلطان في هيئة مواطن

"أرناؤوطي" بالسلام على طوابير المسؤلين الذين اصطفوا أمام نظارة الحربية التي أصبحت الآن جامعة - كل سطر وكل لون في عالم الغفلة والعالمية، حول نقطة الحرية المزعومة.

ويروي المؤرخ (أحمد رفيق) الذي رأى المسرح بعيونه،عن حوار دار بين اثنين من عامة الشعب. إذ يسأل أحدهما الآخر الذي يقف بجانبه، مستفسراً:

- من هذه الحرية؟

فيجيب عليه الآخر قائلاً:

- إنها سلطاننا الجديد يا سيدي!

وهكذا لم يعد هناك فرق في رأي الجميع، فسوف يصبح هذا الجديد (الحرية) الذي جاءوا به أظلم ممن ذهب، وممن سيجيء، وهذه الحرية لن تُخلع أبداً عن العرش، وستصبح صنم كل عصر، ولن ترحل بل ستحال من يد إلى يد.

وبينما أبدي أرائي في عهد الاتحاد والترقي، جمعية الأشقياء مادة ومعناً، من خلال قراءتي بنظارتي، كأني استحضر على اللسان، معايير محمد وحيد الدين شخصياً، وكأني أجعله ينطق.

أحب أن أشير إلى إنني اشترك مع محمد وحيد الدين - مع فارق التحليل والأسلوب- في جميع الأحكام القيمة التي أوضحناها، بدءاً من السلطان عبد الحميد الثاني حتى السلطان محمد رشاد. وأحب أن أبرز دليلاً على هذه الشراكة من خلال حديث محمد وحيد الدين مع أحد ياورانه - وهو ليس موجوداً اليوم على قيد الحياة- في الأيام الأخيرة من حياته في (سان ريمو) في إيطاليا، هذا الدليل مكتوب في كراسة مذكرات خاصة رأيتها مع ابن الباشا المرحوم، الذي طلب عدم ذكر اسمه، وهى عبارة عن بعض الجمل التى قالها وحيد الدين:

"- إذا كان أخي حضرة السلطان عبد الحميد قد جاء بعد السلطان سليم (ياووز)[٤٦]،

---

(46) سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح (١٤٧٠- ١٥٢٠ م): سلطان الدولة العثمانية، وخليفة المسلمين، وأول من تلقب بأمير المؤمنين، وخادم الحرمين الشريفين. يلقب بـ (ياووز) أي الصارم، وقد حكم لمدة ثمانية أعوام. ومن أعدائه الشاه إسماعيل الصفوي حاكم إيران، والسلطان قانصوه الغوري حاكم مصر والشام. انتصر على الشاه إسماعيل الصفوي في معركة جالديران ١٥١٦، ودخل "تبريز" عاصمة ملكه. وقاتل قانصوه الغوري في معركة "مرج دابق" شمال حلب، وقتل قانصوه الغوري. ثم زحف على مصر، مصطحباً معه آخر الخلفاء العباسيين "المتوكل على الله الثالث". وحارب "طومان باي" خليفة الغوري، وقتله، واستولى على مصر عام ١٥١٧. عاد السلطان سليم إلى القسطنطينية، وتوفى في عام ١٥٢٠م. انظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٨-١٩٧.

باعتبارهما من كبار السلاطين العثمانيين، لكانت الدولة قد أصبحت صلبة ومحكمة البنيان، وصامدة تجاه أعدائها في الداخل والخا رج. وقد ألمح لي عبد الحميد بنفسه بهذا المعنى. لكنه جاء في عصر من أخطر العصور وأحرجها، وطيلة ٣٣ عاماً عرف وضعاً مأساوياً، مليئاً بالمشاكل الباقية من الماضي. وبرغم ذلك استطاع أن يحافظ على المريض من الموت، وإن لم يستطع أن يجلب له الصحة والسعادة. فقد هدمته جمعية الاتحاد والترقي بسبب طبع التدين الذى كان يتمتع به، والذى لم يسمح له بأن يريق الدماء ابداً. ومن بين أبناء عبد المجيد، انتقوا من هو أكثر حلماً وسلماً وشفقةً ورفقاً وتوكلاً وتحملاً، وأكثر ضعفاً في الإرادة، وأقل معرفة بالسياسة، فوجدوا فيه بغيتهم، وجاء الدور عليه، فوضعوه على العرش. وهكذا دخلت الدولة التي عمرت ٦٠٠ عاماً، في طريق الدمار لمدة ستة أعوام، وبعد تسعة أعوام سقطوها. لايوجد في تاريخنا أي عدو داخلي أو خارجي استطاع الإساءة للأمة، أكثر من هؤلاء الذين أصبحوا أداة اليهود والماسون والدونمة".

ومن الجملة الأخيرة في الحديث السابق الذى ورد حرفياً على لسان السلطان وحيد الدين، نؤكد على هذه الحقيقة الكبيرة التالية.

صارت جمعية الاتحاد والترقي بكل كبار قادتها، تشكيلاً واحداً منساقاً نحو الماسون، ويتحكم فيه التشكيل اليهودى السري. وبعد أن وجه التشكيل اليهودي العالمي أكبر ضربة إلى عبد الحميد- وهو القائد الذي كانوا يعتبرونه شخصية خطيرة نظراً لسعيه نحو توحيد المسلمين، وتوحيد الأتراك- تلك الضربة التي كانت بيد أعضاء الاتحاد والترقي الذين كانوا عبارة عن شباب غض، قليل التجربة، يزعق بالحرية المنحوسة، والتقليد الأعمى للغرب، تركهم أحراراً يُغرقون الدولة بمفردهم. وساقوا صنيعهم وهم الاتحاديين ومعه الوطن التركي إلى العدم، بعد أن جعلوه يمسك بطرف منظومة الحلفاء (إنجلترا وفرنسا وروسيا وعلى رأسهم أمريكا)، ومن خلفهم أزمتي طرابلس والبلقان. وصار هؤلاء المنتسبين لجمعية الاتحاد والترقي، لا فرق بينهم وبين الثور الهائج الذي يهاجم القماشة الحمراء التي يمسكها مصارع الثيران. وهكذا أصبح الاتحاد والترقي ألعوبة لليهود، قبل أن يدركوا أى شئ، ودون أن يُمهَلوا لإدراك أى شئ.

شكّل الاتحاديون أساس الجمعية التي صارت أداة اليهود، وضحيتها بعد ذلك.

ولكونهم ذوي أصول غامضة، قاموا بعد فترة من وصولهم إلى الحكم بالبحث عن أيديولوجية لنظامهم، ووجدوا ضالتهم في القومية التركية فتعصبوا لها، وكان هذا عمل جهز اليهود بيتته دون ظهور أثر مباشر لهم فيه، وفي الوقت نفسه سهل لهم لعب دوركبير فيه.

وضيا گوك ألب- ذلك المفكر الذي أودى به هذا الذي ابتكره، إلى الهاوية، ولن يعفيه الموت من محاسبته في الدنيا- كان غافلاً عن رؤية ساحة الاستثمار الكبيرة التى فتحها لليهود. وعن إدراك الحماية الكبيرة التي وفرها لهم، عن طريق التعصب للقومية التركية التي ابتكرها لتأخذ مكان الإسلام، بدلاً من أن تكون من داخل الإسلام. فالجبان الفيلسوف اليهودي (إميل دور كايم)[٤٧] الذي حرص على الثأر لليهود- لأن الله لعنهم في القرآن- بهدم الأتراك الذين يمثلون الإسلام، والذي حرص على توفير كل السبل، وكل الاعتمادات للقضاء عليهم، هو السبب في توجه ضيا گوك ألب هذا، بأساليبه الرخيصة وتحريفه للحقائق. ومن بعد ضيا، جاء المنادون بالقومية التركية الذين علت أصواتهم تأييداً لنفس هذه الدعوة، منهم (خالدة أديب)[٤٨] وفكرة "يني طوران" أى طوران الجديدة. وكثير من المؤسسات التي تشكلت مثل"تورك أوچاغي" أى جمعية الأتراك، ومعظمها لا علاقة لها بالأتراك، كما ظهرت أنواع كثيرة من هذه المؤسسات خارج الأناضول.

---

(47) إميل دور كايم: هو فيلسوف، وعالم اجتماع فرنسي (١٨٥٨ - ١٩١٧). يُعتبر أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث بعد كونت،فقد تأثر بفلسفته الوضعية التي تقوم على النظرية والتجريب. من آثاره "تقسيم العمل في المجتمع" في عام ١٨٩٣، و"قواعد المنهج الاجتماعي" في عام ١٨٩٥. كان أستاذاً في السوربون حيث تولى تدريس علم الاجتماع والتربية. وسمى أحد كتبه "التربية والاجتماع". انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص ٨١٦

(48) خالدة أديب (١٨٨٢- ١٩٦٤): روائية وأديبة معاصرة، وسياسية، وناشطة نسائية تركية، انضمت إلى الحركة القومية التركية التي تزعمها الشاعر ضيا گوك ألب. وكانت من المؤيدين لتتريك اللغة وتصفيتها من التراكيب العربية والفارسية. اشتهرت برواياتها التي تنتقد واقع المرأة التركية. دعت إلى تحرير المرأة. ناصرت الحركة الكمالية في بدايتها حيث خدمت كجندية في الجيش التركي في فترة حرب الاستقلال. ثم أصبحت وزيرة للمعارف في عهد الجمهورية التركية. هاجرت من تركيا هى وزوجها عدنان بك، وظلت خارج تركيا لمدة ٥ سنوات حيث عملت كأستاذ زائر في جامعات أوروبا وأمريكا. ومن رواياتها (طوران الجديدة) و(اضربوا الغانية) و(قميص اللهب) و(سينكلي بقال). انظر عاطف حسين النحاس،"الواقعية في رواية سينكلي بقال للأديبة خالدة أديب آديوار، ترجمة ودراسة"، رسالة ماجستير، قسم اللغات الشرقية، فرع اللغة التركية، كلية الآداب، جامعة عين شمس ٢٠٠٢، ص١- ٣، ٢٦.

وهذه المذحة لسليمان نظيف، كم تعبر عن الحال:

"- من أدوات الحرفة في اللغة التركية حرف "جي" حسب توافق الحروف الصوتية، فمثلاً: نقول قهوةجي أى عامل بمقهى، وعربة جي أي يشتغل على عربة، وكومورجيَ أى فحام، وصابونجي أي بياع أو صانع الصابون ...... الخ، فإذا قلنا أن كلمة قهوةجي ليست أصلها قهوة، وصابونجي ليست أصلها صابون، وعربه جي ليست أصلها عربة، وكمورجي ليست أصلها كومور، فبالتالى معظم الأتراك ليسوا أتراك باعتبار أن كلمة توركجي معناها ذو أصل تركي!".

وهيام وتهافت شخصيات مثل (خالدة أديب أديوار) صنيعة يهود الدونما، وحاملة مشعل الدعوة، وآخرين مثلها مرتبطين بخارج الحدود التركية، وذوي ثقافات أجنبية، (معظمها روسية)، على القومية التركية، يكفى لإيضاح كل شيء.

ومن المثير للدهشة، ويحيرني أنا بصفة شخصية، هو الرجل رقم "١" في الدولة، ذو العنصر التركي الحقيقي، وهو السلطان محمد رشاد الذي ظل صامتاً، واجماً تجاه هذا الانتحار السياسي والعسكري، وهو الرجل المتدين جداً، والمتصف بالخلق الكريم. ولذلك علينا إيضاح دقائق هذا كله، من حيث البيئة المكانية والزمانية التي تشكلت فيها هذه الأمور.

أما وحيد الدين الذي كان قد قارب الخمسين من عمره حينذاك، فسأجعله يمر من أمام عيني قليلاً حتى نراه في فترة ولاية العهد، وكان قبل ذلك لا يأمل في اعتلاء العرش. ونرى وزرائه وهم يتسببون في اضمحلال الدولة العثمانية وانهيارها، وهو يشهد هذا كله، وتسيل أمامه دماء الوطن الجريح، التي تندفع كلها إلى داخله.

ومن نفس دفتر المذكرات نقرأ:

"- ظللت ساهراً حتى الصباح، مهموماً لاقتراب الدولة الخالدة من الزوال. أمامي أجد يوسف عز الدين في ولاية العهد، وهو أقرب إلى الجنون. كنت أشعر بالأسف الشديد لهذا كله! كان اغتصاب طرابلس الغرب، وحرب البلقان، بمثابة عقوبتين ثقيلتين من الله بعد الأطاحة بعبد الحميد، والحرمان منه. أما العقوبة الأكبر فهى الحرب العالمية التي كانت بمثابة الحكم الأخير بالإعدام..."

فالاستيلاء على طرابلس الغرب، يوضح مدى الضعف المثير للدهشة الذي اصاب بنية

الدولة القوية عندما أُعلنت الحرية. ويكشف أيضا- حتى للإيطاليين صانعي المكرونة- أن الدولة لم تعد قادرة على حماية شمال أفريقيا. وبالنظر بالعين المجردة لانقلاب المشروطية، نجد إنه استثمار سريع للأحداث، الهدف منه ليس بعث الأتراك ونهضتهم، بل قتلهم. إذ يعنى أن أجل الدولة العثمانية قد حان، وجاءت اللحظة التي انتظرتها أوروبا طويلاً.

وصارت حرب البلقان مانشيت غلاف صحيفة (الوستراسيون) الفرنسية التي كانت تصدر في ذلك الزمان. وبعد ٣٨عاماً نشرت صحيفة (بيويوك دوغو) التركية، نسخة مما نُشر في تلك الصحيفة. وها هو جزء من هذا الذى نُشر، وهو ينقل صورة مرعبة لما حدث:

".هاهم من كانوا بالأمس وحوش الأناضول وأسودها التي انطلقت جائعة، بلا سلاح ولا علاج ولا قيادة ناجحة، بعد فساد الجيش نتيجة استشراء سم السياسة بين صفوف الضباط وهيئة القيادة. (فهم لم يكونوا سوى حيوانات دنيئة لا ترقى لمستوى الأسد، كانوا عبارة عن ضبع أعمى، وابن آوى جربان، وفأر أعرج.) هاهم وقد صاروا بعد المواجهة مهزومين، بلا شرف، يعتصرهم الألم."

كانت هزيمة البلقان من أكبر هزائمنا وأفجعها، بداية من الهزيمة الكبيرة التي افتتحت عصر هزائمنا، وكانت على يد (مارزيفونلي قره مصطفى) حيث كادت راية الرسول تسقط في أيدي أعدائنا، لولا إنقاذها على يد بعض المؤمنين الشجعان. وبعد هذه الهزيمة لم يعد في مقدورنا فعل أي شئ سوى إنشاد الأغنيات في مدارس الأطفال، معلنين بيننا وبين أنفسنا سقوط شرفنا، مثل ذلك المقطع من الأغنية:

آه تلطخ شرف الأتراك في ١٣٢٨ (هـ)

آه، آه... آه، آه ! ...

تُرى هل كانت تلك رؤية النظام، هل هو الذى رأى أن نعلن لأطفال المدارس بالأغاني، تلوث شرفنا في العالم؟

قبل حرب البلقان ظهر "المنقذون"، وكانوا عبارة عن مجموعة من الضباط المناهضين للاتحاديين، كانوا بمثابة شرارة كبريت اشتعلت وانطفأت في الحال، لكنها من حين لآخر كانت تهز جمعية الاتحاد والترقي. وأصبحت وكأنها قوة تريد إبعاد الاتحاديين عن الحكم. وبعد الهزيمة أخذ الاتحاديون في هذه الفترة، يتنصلون من مسئولية فجيعة الجيش الذي

أفسدوه. وتهجموا على الباب العالي. وبذلك ارتكبوا جريمتين: الأولى، محاولة الانزواء بمناورة غريبة، في لحظة الأزمة التي تسببوا هم أنفسهم فيها، ثم الظهور في اللحظة التي ينتهي فيها كل شيء، فاتحين المجال لأزمات جديدة...

وكان الهجوم على الباب العالي الذي يمثل قوة الدولة، بمثابة حركة مجنونة ومكشوفة لامثيل لها، قام به بعض المعتوهين الذين نجحوا في الوصول إلى الصدر الأعظم العجوز، الكسلان، دون أن تراهم حتى القوة التي في معيته. ولكنها في الوقت نفسه حركة تتسم بذكاء لا نجده لدى أكبر العقلاء، وفقاً لشروط ذلك الزمان ... فكروا معي! فقد كانت هناك فرقة تقوم بالتدريب العسكري خلف حجرة الصدر الأعظم في ذلك الوقت، وكان من الممكن إصدار الأمر بكسر الزجاج، فيتوقف الهجوم في الحال، وتنتهي هذه الحركة الساذجة. لكن تم الهجوم، وانتشر المهاجمين، ووصلوا إلى مقر ناظر الحربية الذي فغر فاهه، وأرغموه على كتابة استقالته إلى الصدر الأعظم الذي أخذ يرتعد. وبعد ذلك هرولوا إلى القصر، للحصول على تصديق السلطان على تشكيل وزارة جديدة. وهكذا دائماً، لم يكن هناك شيئاً أسرع من توقيع السلطان رشاد. و بتوقيعه انتهى كل شيء!

وبسرعة طرقت الحرب العالمية الأبواب. حرب كانت مقتصرة على دول المحور، و تضم (ألمانيا وأوستريا،أي " النمسا والمجر") ضد الحلفاء، وهم (إنجلترا وفرنسا وروسيا). وعندما تصبح أمريكا على رأس هذه الحرب، تنضم دول العالم جميعها، صغيرها وكبيرها، إلى قوات الحلفاء.

وينساق العالم إلى حرب شنتها فرنسا والأنجلوساكسون، ضد ألمانيا،لإحداث تغييرات كيميائية في بنية الحضارة الغربية. وبجانب هذا السبب الأساسي المؤثر، كان هناك سبباً آخر ظاهري، وهو التنافس الصناعي والاقتصادي بين إنجلترا وألمانيا. استمرت الأزمة الغربية التي بدأت في أوروبا في النصف الثاني من القرن العشرين، ثم تطورت بالتدريج، وعندما لم تحقق أدوات العلم التي تسببت في الأزمة، قوة روحية مؤيدة، خرجت عن نطاق السيطرة. واستمرت المشاكل الجديدة التي جلبتها الاكتشافات الحديثة، والتي أدت إلى ظهور الاشتراكية ثم الشيوعية. وكانت أهم هذه الاكتشافات، اختراع الألة التي بلغت حد التقديس بعد الحرب العالمية الأولى. تلك الألة التي أوجدت الفوارق الاجتماعية داخل

المجتمع الواحد، وفتحت مجالاً إنتاجياً في المجتمعات التي بحاجة إليها. وبجانب ذلك، فتحت أسواقاً استهلاكية جديدة، وأوجدت عالماً سياسياً مغايزاً تماماً. وعندما تجنح تلك الألة، وتصبح أداة تخريب داخلي وخارجي، وتلقي بالجميع في الخطر، تتولد مشكلة أن المجتمع الذي يستعملها يصبح هو الأفضل، و يدعي التفوق. وتنحصر قيمة الألة في هذا.

فماذا كان المشهد في تركيا التي اضطربت بسبب هذا الألم نفسه إلى يومنا هذا، والتي لم يداوى جرحها الحرب الأولى، ولا الثانية، بينما تعيش هذه المشاكل الإنسانية الكبيرة، الروحية والاجتماعية والصناعية والاقتصادية.

منذ بداية الحرب صارت تركيا وطن خارج حدود الزمان والمكان، في أيدى حفنة من المنحوسين المشئومين. وانجرفت تجاه طرف، كان واضحاً إنه مغلوب ومهزوم. انجذبت إلى المظهر الخارجي للجيش الألماني، إلى هندسة جيش منظم أكثر من خلية النحل، إلى قائده الصارم، وإلى زيه المزخرف...

أما مشهد القصر، فيعرض غفلة إثر غفلة...قصر يسيطر عليه بضعة مشئومين، في وطن خارج الزمان والمكان، لايدري شيئاً عن الدنيا، حتى غافلاً عن هذه الحالة التي صار اليها الوطن. فقد توقفت جميع الساعات، وصار حجم الوطن مسطحاً بلا أي أبعاد...

ويروي لنا خالد ضيا أوشاكليجيل، ممثل " الأدب الجديد" خاصة في مجال الرواية، ما رآه في ذلك الوقت الذي كان فيه باشكاتب القصر، في قصر طوب قابي المهيب. فيصفه أولاً من الخارج، بإنه في طراز "الباروك" و"الروكوكو" الذى يخلو من أي ذوق فيقول:

". إذا نظر المرء من جهة البحر، يرى قصر دولماباغجة الذي يمثل التأثير الأوروبي، والذي بُنى وفق شروطه وأسلوبه. كان مثل قطع جاتوه حجرية كبيرة جداً، صنعها حلواني مستخدماً فيها السكر بإفراط، وزينها، ووضعها في الفترينات الزجاجية، بطريقة لا تليق بعصر وقور، مهيب..."

الحقيقة هذه رؤية خاصة بصاحب شخصية وحيشية...

ثم يتحدث خالد ضيا عن السلطان، في المذكرات التي بعنوان(القصر وماورائه) قائلاً: "إنه رجل مثل الباشكاتب، أتت به الجمعية التي خلعت سلطاناً جسوراً، فتح صدره لكل أنواع الخطر، عن عرشه، وأرسلته إلى المنفى، من أجل تأمين وجودها وحياتها".

كان خارج القصر يدل على أن من بداخله بلا شخصية ولا قدرة. كان "باشكاتب القصر" - أي السلطان محمد رشاد الذي أتى به الاتحاديون- مسكيناً، بلا حيلة، لايقول سوى: "أنا ممنون أنا محظوظ".

ولاية العهد

في تلك الأثناء سيطر القلق على محمد وحيد الدين أفندي، فهو وإن لم يحاول تحليل ما يحدث حوله من أمور، فقد كان يشعر بمدى سوئه وفداحته ومرارته.

قلق فترة ولاية العهد...

ما سبب هذا القلق؟ رأى محمد وحيد الدين أنه لابد وأن يعتلي العرش، لأنه أدرك أن "الدولة العلية" تسرع الخطى نحو الانهيار، وكان يريد أن ينقذها. تُرى هل كانت رغبته في الوصول إلى العرش لهذا السبب، أم كان مجرد طمعاً في العرش، ورغبة في تحقيق "سعادته باعتلاء هذا العرش العالي المقام؟".

إنني في الواقع لا أمتلك أي وثيقة تاريخية تثبت أي واحد من هذين الاحتمالين. فكلا الاحتمالين ممكن أن يكون صحيحاً، كما أن الاحتمال الثاني لا يقلل من قيمة وحيد الدين كصديق كبير للوطن. ولو كانت هناك مسابقة لأكثر المظلومين في التاريخ، لكان محمد وحيد الدين هو الفائز الأول. فحتى إذا كان قد رغب في اعتلاء العرش طمعاً فيه، لم يكن ذلك لينام فوقه، بل ليفعل شيئاً للوطن.

بقى أن العرش العثماني في ذلك الوقت كان مثل البرميل المثقوب الذي لا يمكن أن يجذب أحداً، أو يجعل أحداً يطمع في اعتلائه. فضلاً عن ذلك فإن الكلام الذي قاله محمد وحيد الدين فيما بعد، يفيد على نحو واضح أن قلقه خلال فترة ولاية العهد لم يكن سوى من أجل الوطن.

كان وحيد الدين يشعر بالقلق في فترة ولاية العهد بسبب يوسف عز الدين أفندي(٤٩)،

---

(49) كانت ولاية العهد في عهد السلطان محمد رشاد، للأمير يوسف عز الدين ابن السلطان عبد العزيز. وذلك لأن ولاية العهد في الدولة العثمانية كانت من حق أكبر أفراد الأسرة المالكة سناً، بعد الجالس على العرش، وليس من حق أكبر أولاد الجالس على العرش. ومات الأمير يوسف عز الدين عام ١٩١٦، وقيل إنه مات مسموماً على يد الاتحاديين، لأنه لايوافقهم على سياستهم، وأشيع أيضاً إنه مات منتحراً إثر نوبة جنون أصابته كالتي أصابت أباه السلطان عبد العزيز. انظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة

ولي العهد الأصلي. وأذا رجعنا للوراء نجد أن يوسف عز الدين، هو الابن الأكبر للسلطان عبد العزيز. ومحمد وحيد الدين هو الابن الأصغر للسلطان عبد المجيد. إذاً فهما من نسل السلطان عبد العزيز، والسلطان عبد المجيد، ابناء السلطان محمود الثاني. والحكام الثلاثة الذين جاءوا بعد السلطان عبد العزيز، كانوا من نسل السلطان عبد المجيد.

كان وحيد الدين يشعر بالقلق، لأنه وجد الطريق أمام العرش مسدوداً بعد حكم أخوته الثلاثة من نسل عبد المجيد، بينما هو مفتوحاً أمام يوسف عز الدين، وهو شخص قواه العقلية غير سليمة.

الحقيقة إن قلقه بشأن الوطن، ومظاهر هذا القلق المتنوعة، كان بسبب سيطرة تلك الروح على الأمراء السابقين التي يوضحها خالد ضيا بقوله:

"ـعندما كان جميعهم يأوون إلى فراشهم ليلاً، كانوا ينظرون إلى التوقعات والاحتمالات، وكأنها مخطوطة في السقف، ويحصون عدد الذين كانوا قبلهم، وفي الصباح تختفي النقوش المخطوطة عندما يدخل ضوء الشمس من خلال الستائر الحريرية، فيتساءلون قائلين: تُرى كم بقي هذه الليلة من أيام."

وهاهي شروط ولاية العهد:

"ـ أن تصبح ولياً للعهد، وأن ترى اليوم الذى تصير فيه الدولة كلها تحت رجليك، لابد من شرطين. أن تكون الأكبر والأرشد..."

بعد ذلك يمضي خالد ضيا في سرد الحكاية:

"ـ أمام عينى كان هناك اثنان: يوسف عز الدين بن عبد العزيز، ووحيد الدين بن عبد المجيد ... لكن القاعدة تقول أنه لابد أن يكون هناك ولي عهد واحد: يوسف عز الدين كان هو الأكبر من وحيد الدين ... وكان ذلك تفكيره أيضا. لكن وحيد الدين لم يكن يفكر على هذا النحو. كان وفق تفكيره الشخصي يرى أنه لابد أن يكون هناك اثنين ولي عهد. وكان يريد أن يعرف الجميع هذا، بداية من سلطان ذلك الزمان، والحكومة، إلى أصغر فرد. وبالطبع الشخص الذي سيكون هو ولي العهد لم يكن مضطراً لقبول هذا. ومن أول يوم طُرح فيه هذا الاقتراح، اصطدم بموقف ولي العهد الأصلي الذي هاج، وماج، واشتاط غضباً".

العلية العثمانية، تحقيق محمد إحسان حقي، مرجع سبق ذكره، ص ٧١٧

وهنا يظهر أن وحيد الدين طرح هذه الأطروحة الجديدة في قضية ولاية العهد، عندما جاء الدور عليه. تُرى هل فكر وحيد الدين بهذه الأطروحة، في الأسباب الموجبة لذلك:

- إنه يلزم وجود اثنين ولي عهد، عندما تكون بحاجة إلى ترجيح واحداً منهما. فرق السن ليس معيار يوضح أهلية من يريد الوصول إلى العرش، ويسد الطريق أمام غيره. إن معيار الأهلية بين المرشحين أفضل كثيراً. وهكذا يكون هناك نوع من المعيار الديموقراطي داخل السلطنة.

فكرة أن يكون هناك اثنين ولي عهد لا تستحق أن نراها خالية من دقة التفكير العالي، لكونها تصدر مباشراً من وحيد الدين. فمن وجهة نظري الشخصية البحتة أراها غير ضرورية، فإذا كان وحيد الدين هو ولي العهد الثاني من حيث الدور، ففكرة أن يكون هناك اثنين ولي عهد ليست سوى تأكيداً على إنه هو ولي العهد الثاني، لأن دوره حتماً سيجيء بعد الذي أمامه. لكن إذا كان وحيد الدين يريد بهذه الفكرة أن يجعلنا نأخذ في اعتبارنا الجوانب الإيجابية الخاصة به، والجوانب السلبية الخاصة بمنافسه، وفي هذه الحالة تظهر الحقيقة بنفسها. وفي الوقت نفسه لا تدع مجالاً للجدال، وتتضح الأسباب الموجبة لما ذكرنا سابقاً، وهو ضرورة أن يكون هناك اثنين في ولاية العهد.

وفى الوقت الذي يتجنب فيه الروائي خالد ضيا أوشاكليجيل باشكاتب القصر، وجاسوس الاتحاديين في السراي، التلفظ صراحة برجاحة عقل وحيد الدين ورشاده، وعلة يوسف عز الدين الروحية، يجسد لنا هذا المشهد الذي يوضح ذلك:

"- هذه الأطروحة تجعل الاستناد على ماذا؟ ربما على شرط أن يصبح ولي العهد هو الأرشد.. فهو وكل واحد كان يعرف الأحوال الغريبة التي تصدر عن ولي العهد يوسف عز الدين. كانت أفعاله الغريبة واضحة، ولا تخفى عن عين أحد. وكان وحيد الدين يعلم أيضاً ما يُخفى من التصرفات الغريبة التي كانت تصدر عنه، عن طريق استخباراته الخاصة. فهذا الشخص (وحيد الدين) كان باحثاً نفسياً دقيقاً للغاية. فحتى لايتأخر على الوصول إلى الحكم، وحتى لايكون في الساحة سوى ولي عهد واحد ، يدفع بأطروحته. فقد وضع خميرة المرض التي أخذت تكبر يوماً بعد يوم، ساكباً قطرة سم كل دقيقة. وفي النهاية يتحول الوهم إلى حقيقة واضحة. وكانت الأرض المهيئة لبذر بذور هذا المرض مناسبة جداً. ألم يكن عبد

العزيز مصاباً بنوع ما من الجنون؟ وألم تكن السلطنة كلها تمتلئ بمناظر متنوعة من هذا الجنون؟ وعندما ينتهي الأمر بالانتحار تكون الفرضية أقرب للحقيقة. وهنا ألايصبح هذا بالضرورة نتيجة للمرض؟ في خيالي أرى ابتسامة الرضا في عيون وحيد الدين الذي أحكم تدبير هذا التسلسل، وهو يخمن النتيجة.

عندما كنا ندخل القصر نجد الشواهد أقرب إلى ظنوننا. فقد كنا لا نرى يوسف عز الدين إلا نادراً.وكانت تصرفاته تنم عن الكبر والعظمة والغرور. ومن نظرة الغم التي تظهر من خلف نظارته، والتي تبدو وكأنها تبحث عن سر خُفي عنها، ومن يديه في أثناء سلامه علينا، ومن خطواته وهو يصعد السلم، ومن ساقيه خلال تجوله في غرفته قبل أن يسمح لنا بالدخول إلى حضرته، ومن خفقان قلبه ونفسه اللاهث البطيء، وحديثه القصير، كنا نفهم أن المرض يزيد يوماً بعد يوم، وأصبح حقيقة واضحة تنتظر وسيلة من أجل إضفاء صفة الجنون الصريح. حتى نفهم هذا لانحتاج إلى محلل نفساني. فكل شيء كان يدل أننا أمام حالة مرضية. وقد رأينا كيف عاد أندرون أفندي من عنده، ومعه القهوة والماء بعد رفضه تناولهما، خشية أن يكون بهما سماً".

ورسم الشخصية هذا الذي رسمه خالد ضيا لوحيد الدين بحس أقرب للنفرة عن الود، يكشف لنا عن شخصية وحيد الدين بوضوح، فقد كان على حد تعبيره "باحثاً نفسياً دقيقاً، ومالكاً لهيئة استخبارات خاصة، وعاقلاً ومدبراً ورزيناً"، وفي مقابل هذا نجد شخصية يوسف عز الدين، وهو مرشح مجنون يقترب من النتيجة المشئومة كل يوم، مضطرب ومتكدر بسبب طمعه في العرش. فإذا كانت هناك قطرة حب للوطن في قلب وحيد الدين، فلا يكون أمامه تجاه هذا الحال سوى الاجتهاد، وطرح أطروحته السابقة لإعاقة ابن عمه المجنون هذا عن الوصول إلى العرش.

الحقيقة إننا نجد في مذكرات خالد ضيا أجمل تابلوه للحقيقة، حيث نجد المشهد عبارة عن اثنين ولي عهد، أحدهما وسيلته الاضطراب الداخلي، كالسيدة الذي أصابها هوس فتقوم بكسر الأطباق، والآخر يسعى بكل وسيلة لتحقيق مراده.

يقول خالد ضيا في مذكراته:

". كان يسيطر على يوسف عز الدين هذا الوهم: إنه سيُعزل عن ولاية العهد وأن وحيد

الدين سينجح بمساعدة أخيه السلطان من خداع الحكومة، والاستيلاء على مكانه. كان هذا الوهم في البداية مثل ثعبان خامل نائم، ورويداً، رويداً بدأ هذا الثعبان يستيقظ، ويُخرج لسانه، ويطل برأسه من جُحره بلا خجل.إذ رأى أنه لا داعي للاختباء أكثر من ذلك. وبدأ الثعبان في تفقد ما حوله بلا ملل أو كلل. فمن هم هؤلاء الذين كان يتفقدهم ويبحث عنهم؟ كان يبحث عن عناكب الليل التي تعرف كيف تنسج الشباك التي يقتنص بها حقه. وبعد أن وجدهم أخذ يستدعيهم واحداً واحداً لاستجوابهم والتقصي عما خُفى عليه من أسرار يوسف عز الدين، ناصباً شراكه ببراعة على حد ظنه. وبعد ذلك شدد الأمر عندما تقدمت مسألة المرض، وأصبحت المناقشات تبدأ بحلف اليمين على صدق ما يدلون به، كما لو كان يقوم باستجواب قضائي.

....

وحتى نروي ما كان يقوله كل واحد من هؤلاء الذين كان يستجوبهم، سيصيبنا الملل والضيق، لكنني سأجمع ما حدث في خط عام واحد، وأقول إنه كان حريصاً أن يعرف سقطات خصمه يوسف عز الدين الصغيرة، بكل وسيلة ممكنة. ولما لم يصبح وحيد الدين في حاجة إلى معرفة السقطات الصغيرة، أخذ يسقي بذور مرض يوسف عز الدين، ولا يدع فرصة تفوت في رعاية هذا المرض."

ثم يأتي الراوي إلى أكثر المواضع تلويناً في حكايته فيقول:

".تُعد بصفة عامة المراسم والمواكب والضيافة والرحلات، من المناسبات التي يلزم أن يحضرها الاثنان. كانت إحدى وسائل وحيد الدين لإثارة يوسف عز الدين عند الخروج لحضور هذه المناسبات، قوله إن من حقه حضورها بمفرده، وهنا يصير يوسف عز الدين مثل القنفذ الغضبان، ويأخذ في طرح أشواكه أينما أُتفق هكذا علناً أمام الجميع.

....

وبمناسبة أحد المواكب دعّم وحيد الدين فكرة أنه لابد أن يحضرها بجانب يوسف عز الدين بصفته ولي العهد الثاني، (ونرى هنا أن وحيد الدين يسعى بكل وسيلة لإلصاق هذه الصفة بنفسه) ... وربما تولدت هذه الفكرة في رأس السلطان نفسه من أجل أن يحدث صدام بين هذين الخصمين. ووُكلت أنا من دون الجميع للقيام بهذه المهمة. قلت في نفسي (نعم!)

حتى يغضب يوسف عز الدين، ويظهر وحيد الدين هو الأفضل، إذ ليس من الممكن أن يقبل يوسف عز الدين هذا الأمر. إذاً لماذا يحدث هذا؟ ربما من أجل دعم المنافسة بينهما باتهام يوسف عز الدين بعدم الامتثال لرغبة السلطان عندما يرفض هذا الأمر...وربما كانت هذه الفكرة مجرد لعبة من السلطان تهدف الى إغضاب أحدهما من أجل فوز الآخر... أصبحت أنا بين المطرقة والسندان. وكان علي أن أجد وسيلة للخروج من هذا المأزق حتى لايتم سحقي... يجب أن أسوق الماعز بورقة الكرنب ... كما يقول المثل الفرنسي، تُرى من يكون الماعز ومن يكون الكرنب؟... ما علينا، فليس هنا مجال حل ألغاز... دخلت على يوسف عز الدين و أنا أفكر في هذا الأمر، بدأت بقولي: (السلام عليكم يا سيدي)، فجأة هب هذا الرجل واقفاً على قدميه وهو يرتعش قائلاً: ماذا وراء هذا الخبر الذي يقوله كل من يأتي هنا؟ وانتظر ردي الآتي: (لقد رأوا أن الموكب القادم لا يجب أن يكون طويلاً، وهم يتساءلون عما إذا كان من الممكن أن تجلسوا بجانب أخيكم وحيد الدين في عربة واحدة.) فرد قائلاً: أه! أخيكم! ياله من تعبير! كانت اليزابيث وماري ستيوارت تدعوان بعضهما البعض بالأخت الحبيبة، ثم وبسوء قصد انقلبا على بعضهما البعض، ولم تتوان إحداهن عن جز رقبة الأخرى.

كان يوسف عز الدين يهتز من رأسه إلى قدميه، ويعرق ويتلعثم. وعندما بدأ ينطق بصعوبة قال: (أما والأمر كذلك، فأرجوا أن تقبلوا اعتزارى عن حضور الموكب! مستحيل أن أكون في الموكب بجانب هذا الشخص).

وبعد أن فكرت بيني وبين نفسي أن أقول له: (إن السلطان، كما تعلمون، يريد أن يرى كل شخص إنكم متواجدين بجانبه، كجلدتى كتاب واحد)، بحثت عن طريقة لانسحب ببراعة من بين المطرقة والسندان فقلت: (حضرتكم تفهمون إنكم عضو أساسي في هذا الموكب. فإذا سمحتم لي باقتراح يا سيدي: إن وجود عربة أخرى لن يزيد الموكب طولاً، فليجلس أخوكم وحيد الدين في عربة أخرى).

جلس وبدا الأمر يروق له. وكان علي بعد أن أرضيت هذا الطرف، أن أنقل هذا الاقتراح إلى السلطان أيضا، فذهبت إليه، وقلت له: (يقولون يا سيدي إن وجود اثنين في عربة واحدة غير مناسب، حيث سيشعر كلاهما بالضيق، فإذا سمحتم لي بإضافة عربات أخرى إلى الموكب).

لعل السلطان أيضا كان ينتظر هذه النتيجة. إذ قال: (وهو كذلك، وأرجوا أن تخبروا وحيد الدين بالأمر، ثم أدعوهما لحضرتي كل على حده ...).

عندما ذهبت إلى وحيد الدين وجدته هو أيضا يسير في حجرته، فقد كانت أطماع هذا الرجل التي لم تهدأ، تجعله دائم السير بل والركض من مكان إلى آخر. قلت له باختصار: (حضرة السلطان يرحب بوجودكما أنتما الاثنان في الموكب، وسيتم تجهيز عربة من أجلكم) فرد قائلاً: (شكراً على العرض). وانتهى الأمر بهذا الشكل، بعد أن واجهت صعوبات كثيرة في حل هذه المشكلة التي ترتبت على هذه الدعوة الغريبة.

كانت مسألة وحيد الدين هذه بالنسبة لنا عبارة عن مسرحية مسلية، ومقلقة في نفس الوقت. فمع كل فتحة ستارة كانت تظهر مشاهد جديدة كثيرة.

وأحد هذه المشاهد كان مشهد مناورة (سيدلر)، ورحلة (أدرنه) التي أعقبتها.

كان الصراع بين أولياء العهد هذين كالأتي: أحدهما يقول: "أنا الأكبر سناً، وبهذا تكون السلطنة من حقي!" والآخر يقول: "أنا الأنسب لأنني عاقل وليس مجنون! وبهذا من حقي أن أمثل العرش". ولم يكن هناك تأثير للسلطان رشاد على هذا الاشتباك، فقد كان سلطاناً يتجنب التدخل في الأمور الحياتية بصفة عامة، وكان يبدو تجاه هذا الأمر وكأنه ليس من اختصاصه. وأحياناً كانت طبيعة الصراع تضطره إلى توفير الوسائل التي تزيد من اشتعاله. كان واضحاً أن السلطان رشاد يرجح أخيه الصغير وحيد الدين على ابن عمه يوسف عز الدين. فيكفي قبل أي شئ أن وحيد الدين من أولاد عبد المجيد. ولهذا السبب كان السلطان رشاد. وفقاً لبعض الروايات. يُقرب وحيد الدين منه ويضعه بصفة شخصية، في مقام "ولي العهد الثاني"، فلم يكن هناك أي فرمان رسمي بذلك. وعندما كان يدعو وحيد الدين إلى حضرته كان يستخدم هذا التعبير:

- أدعوكم يا ولي العهد الثاني!

أظهرت مناورة (سيدلر) التي أشار إليها خالد ضيا أوشاكليجيل في مذكراته،الوضع المخزي بين أولياء العهد الاثنين، وحال الدولة المفجع:

فقد ظهر على المسرح مشهد شهامة الأتراك في الزمن البعيد، وصورة مناورة محتشمة، القصد منها الرغبة في إظهار قوة الترك أمام الدنيا كلها، ومواجهة ثورة البلقان. ثم يأتي

العرض الرسمي المعظم، التقليدي، بحضور السلطان الجديد... وكان هذا بناءً على رغبة الباشاوات الاتحاديين الذين أرادوا المباهاة، فأصبحوا كمن خلع قميصة للمباهاة بعضلاته، فلم يظهر من تحت القميص سوى جسد بهلوان. فلم يتصوروا أن الذى سيظهر هيكل عظمي نتيجة مرض العظام الذي سببته الأحداث الأخيرة، وسوء القيادة...وهكذا صار الاحتمال، حقيقة صدقتها الدنيا كلها حتى ذلك اليوم. إذ أصبح الجيش- وهو يمثل القوة التركية الوحيدة أمام أوروبا- عبارة عن كومة متعفنة بلا قائد، وبدلاً من أن يكون عنوان قوة أصبح إعلان ضعف. وهى النتيجة التي رآها الأوروبيين يقيناً في المختبر، وكانوا يتوقون كثيراً إلى مشاهدتها على أرض الواقع. أقصد نتيجة تخريب الترك من الداخل وحتى الجذور، وهى نتيجة أخذ الاتحاديين على عاتقهم، أن يقدموها إلى أوروبا مجاناً.

وصار الأمر هكذا!

كانت مناورة (سيدلر) فضيحة للجيش من ناحية التعليم والتدريب والتربية، ومن ناحية الضبط والربط والنظام! ... فقد تداخلت الفرق والطوابير والمواكب، واختلط بعضهم البعض، واشتبكت أرجلهم، وصاروا مثل شعر زنوج قارات العالم أو كالسلك الذي تشابك وأصبح كومة يصعب حلها من بعضها. ثم جاء العرض العسكري، وكان على غرارها. كان عبارة عن مشهد على المسرح يحكي عن معنى عدم النظام. فقد كان الجيش كقطيع حيوانات يسير أمام السلطان، لا يعرف أحدهما شيئاً عن الآخر.

لنتخيل نظرة الاستهزاء التي في عيون السفراء ذوى القبعات ذات الطرات المزدانة بالجواهر، والملحقين العسكرين ذوي الخوذات المذهبة، المزدانة بالريش، عند مشاهدتهم هذا المشهد! ...

وكان أيضا مشهد عودة موكب السلطان مشيناً.

ويقول خالد ضيا عن هذا الموكب ما يلي:

"ـ كان هذا الموكب المضطرب أشبه بهروب منهزمين أكثر منه موكباً ..."

ويعرب السلطان الرقيق كالملائكة، والمحكوم عليه ارتداء صفة "أحمق" لأنه مجرد إنسان، عن إحساسه وانطباعه تجاه هذا المشهد بقوله:

ـ أنا ممنون، أنا محظوظ!

عندما نحيط اللوحة التي رسمناها لتصوير الخواء المادي والمعنوي الذي أسقط الدولة، فضلاً عن حالة الغرور المشئوم، بإطار مما كان يحدث حول العرش العثماني من تصرفات، مثل الجدال الذي ثار في ذلك الوقت بين الأميرين المرشحين لاعتلاء العرش يصبح التأثير فعالاً وكاملاً.

عندما علم السلطان رشاد أن هناك مناورة فرح مثل الطفل، وأمر فوراً بالبدء في تجهيز القصر، وقال لخالد ضيا ،الذي ذكر أن السلطان لم يكن يريد زحاماً حول "المعية السلطانية":

"- يجب أن يحضر معي المناورة يوسف عز الدين أفندي، ووحيد الدين أفندي".

وتصدر الأوامر إلى إدارة سكك حديد الشرق من أجل تجهيز القطارات. ويركب يوسف عز الدين ووحيد الدين في قطار واحد، ولكن في قاطرتين مختلفتين، وتسلك القطارات طريق ساحة المناورة.

ولندع خالد ضيا يتحدث:

"- لم يكن يوسف عز الدين جاهزاً في أي وقت، أما وحيد الدين فكان يجهز، ليس قبل يوسف عز الدين فقط بل قبل أي شخص آخر. مثلاً عند السفر إلى (سيدلر) تم انتظار يوسف عز الدين طويلاً. أما وحيد الدين فقد ارتدى ملابسه الرسمية، وتزين بجميع النياشين، (وقد حدث هذا أيضا في رحلة أدرنه) فقد كان ينتظر بفارغ الصبر مجيء فرصة أن يبدو أمام الناس من نافذه القطار، في صورة ولي العهد الثاني."

وفي المقابل نرى ولي العهد الأصلي، مشتتاً، مريضاً، ومضطرباً. يمر بأزمة تلو أزمة.

وهذا ما قاله وحيد الدين، بعد المناورة والعرض العسكري في (سيدلر)، إلى أحد المقربين منه:

"- فليحفظ الله هذا الوطن الذي صار مضطرباً على أيدي الاتحاديين، من أي حرب مهلكة، وياويل السلطان الذي سيأتي على رأس الأمة، في وقت اشتعال أي حرب!"

والحرب التي كان يشير إليها وحيد الدين لم تكن حرب البلقان الصغيرة، بل الحرب الكبيرة، ولم يكن يعرف أن هذا الدعاء سيخصه هو أكثر من السلطان محمد رشاد.

وبعد ذلك تأتي نهاية يوسف عز الدين ... إذ ينتحر بصورة مفجعة، حيث يقطع شرايين رسغه مثل أبيه على حد الاعتقاد ...

وفي هذا يقول خالد ضيا أوشاكليجيل:

"- جاءت واقعة انتحار يوسف عز الدين المفجعة في السنة الأولى للحرب الكبيرة. والذين شاهدوه وعرفوه عن قرب، لم يستغربوا وقوع هذه النتيجة، لكنهم تأثروا بها تأثراً شديداً. على أية حال فإننا إذا تساءلنا عن كيفية حدوث هذا، نقول إن الأمير كانت تسيطر عليه أوهاماً وأفكاراً أدت إلى تسميم ملكاته العقلية، وتدمير روحه. فقد كان لديه اقتناع بأن الحكومة سوف تنزع عنه صفة ولي العهد ... من أين جاء هذا الاقتناع ؟ يمكن القول بإنه كان يدرك حالته، وإن مرضه من النوع الذي يدخل في دائرة الجنون. ومن يوم ليوم كان يوسف عز الدين ينتهي داخل صراعه واضطرابه، بسبب الوهم الذي سيطر عليه. وفي النهاية، وحتى يتخلص من اكتئابه الشديد، لم يعد أمامه سوى اتخاذ قرار الانتحار. كانت هناك محاولات كثيرة منه للانتحار قبل ذلك، وتم اتخاذ تدابير احترازية مشددة لحمايته، ومنعه من تكرار هذه المحاولات. لكن ذات يوم قام بقطع شريان يده مستخدماً شفرة حلاقة، مثل أبيه تماماً، ولانعرف كيف وصلت هذه الشفرة إلى يده. ما نراه في وقائع الانتحار خصوصاً، إنها كانت عبارة عن عمليات تتسم بالتقليد الأعمى. والغريب أن من يعرفون هذا الرجل سيء الحظ، صدقوا وانخدعوا بالروايات المتنوعة التي قيلت بعد الفجيعة، لأنهم لم يتشككوا مطلقاً في واقعة الانتحار.

بالطبع كان هناك أساس لوهم يوسف عز الدين. فمرضه الذي بلغ درجة تجعله ملحوظاً لكل شخص، كان عائقاً لبلوغه مقام السلطنة. ومما لاشك فيه أنه هو نفسه كان يفهم هذا، أكثر من أي شخص آخر. حتى أننا كنا نسمع دائما ونحن في القصر، من هؤلاء الذين يترجمون تصورات الجمعية (الاتحاد والترقي)، كلام مثل (ماذا سنفعل؟). وكان الذين يرون أن جعل وحيد الدين سلطاناً فيه خطر كبير على الدولة، يفكرون في أن يكون صلاح الدين أفندى ابن السلطان مراد، هو السلطان القادم، خاصة أن ترتيبه يأتى قبل وحيد الدين، شاء ذلك أم أبى، لكنه مات قبل يوسف عز الدين. والغريب أن أفكار وحيد الدين تجاه العرش تغيرت،إذ رأى أنه لامناص من أن يصبح السلطان القادم، فاضطر لقبول ذلك."

وثمة ادعاء بأن يوسف عز الدين لم ينتحر بل قُتل. وهذا القتل من فعل الاتحاديين الذين كانوا يجزرون البشر، ويفرمون الحياة.

إننا لا نقدم احتمالاً! لأن الاتحاديين الذين كانوا يرون أن يوسف عز الدين لايقاوم رغباتهم، فتحوا أمامه طريق العرش. ولما حال مرضه دون تحقيق أملهم هذا، لم يبق أمامهم سوى الرضا عن وحيد الدين الذي كانوا يتشككون فيه قبلاً.

وفي مواجهة وحيد الدين، أخر نموذج للأسرة العثمانية الشريفة، والذي يتصف بالكمال والرزانة والذكاء، نجد ابن عمه ينتمي لرسم آخر. ويشكلا سوياً رسمين متضادين. ويرى فؤاد توركجلدي، باشكاتب ديوان القصر السلطاني، أن الوهم قد سيطر على يوسف عز الدين تماماً لدرجة أنه أخذ ورقة مكتوبة من السلطان محمد رشاد خاصة بولاية العهد، ومكتوب فيها أنه لن يسقطه من ذلك المقام. كما بلغ به الأمر أن أخذ خطاب ضمان منظوم من "الشاعر العظيم" عبد الحق حامد(٥٠). وذات يوم سأل يوسف عز الدين، شيخ إسلام ذلك الزمان، عن حقوق ولاية العهد في الشريعة، فأجابه بقوله:

ـ لايوجد في الشريعة ولاية عهد حتى يكون لها حقوق!

وقد ساءه هذا الرد تماماً.

الحرب الكبيرة

ونستطيع أن نعرف المزيد عن وحيد الدين والمحيطين به، من خلال تعقبنا لإطار الحرب العالمية الأولى، المعروفة لنا بـ "الحرب الكبيرة".

إن الحرب الكبيرة، وتأثيرها الواسع الذى لايُقارن بالحرب العالمية الثانية، من ناحية العالم الذى ذهبت به، والعالم الذي جلبته، تمثل مرحلة لا مثيل لها في تاريخ الإنسانية. هذا بالإضافة إلى المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية التي صاحبتها. وهذا كله خارج نطاق موضوعنا.

فالأصول الفكرية للحرب الكبيرة، كما أوضحنا من قبل، كانت عبارة عن أول انفجار

---

(50) عبد الحق حامد: من أشهر الأدباء والشعراء الأتراك، ولد في استانبول عام ١٨٥١. والده خير الله أفندي المؤرخ المعروف. درس في باريس لمدة عامين، ثم عاد إلى استانبول واستكمل دراسته في إحدى المدارس الأجنبية. عُين والده سفيراً في طهران، فذهب معه حيث تعلم اللغة الفارسية وآدابها. وعُين سفيراً في بروكسل عام ١٩٠٨. ومن أشهر قصائده "مقبر" التي رثى بها زوجته. ومن مسرحياته "دختر هندو" أي الفتاة الهندية، و"طارق" أو "فتح الأندلس". توفي عام ١٩٣٧. انظر حسين مجيب المصري، تاريخ الأدب التركي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٥.

للأزمة الغربية ... وبينما يتناطح الأسد والنمر والفيل والدب، ومن ورائهم قطيع من حيوانات الغابة التي سقطت فوقها الصواعق، كانت هناك غزالة مجروحة مثلنا لم تستطع أن تفعل شيئاً سوى الاختباء في مكان آمن، والبحث عن حل هناك. كان هناك طريقاً واحداً، لكنها سارت في الاتجاه الذي لايؤدى إلى هذا الطريق. ولم تستطع مواصلة السير في هذا الاتجاه، إذ سرعان ما وقعت في مستنقع الكارثة التي كانت تنتظرها في هذا الاتجاه الخطأ. بعد أن تم إيقاف الجيش الألماني في جبهة الغرب، بعد الحرب الصاعقة، والضربة الفجائية التي جاءت نتيجة تكتيك سياسي وعسكري فريد- وكان هذا كله بسبب حظنا العاثر- وبعد أن ضاع كل أمل لهم في النصر، اشتركت "الدولة العلية" في الحرب إلى جانب ألمانيا، وكأنها تركض لنصرة الضعيف. وأخذ أنور باشا الذي كان على رأس الدولة العلية، وهو واحد من الاتحاديين المشئومين، يبحث سراً عن باب البيت التركي، وأخذ معه "حية" متظاهراً بإنه سيقوم بقطع رأسها، ولكن الحية تقطع رأسنا نحن. فقد فرضوا هذا الأمر "كأمر واقع" دون استشارة الأمة، أو الحكومة أو حتى الحزب. وقدموا الوطن التركى للإمبريالية "للحية"، كطعام تأكله.

وهكذا عاش وحيد الدين الذي كان عمره ٥٣ او ٥٤ عاماً، عندما أصبح ولياً للعهد في العام الأول للحرب الكبيرة، في داخل هذه الحرب، وأعوامها المضطربة أيما اضطراب.

ففي الجبهة الشرقية، اكتوت العساكر المحمدية(٥١) بنيران صحاري سوريا، وتجمدت بثلوج جبل "الله أكبر". وتم تقديمها مثل نقود القمار، في سبيل تجسيد رواية "دون كيشوته"(٥٢). وفي أرضروم، صعد من أحد أطراف جبل "الله أكبر"، ٣٠ ألف جندي ثم

---

(51) أسس السلطان محمود الثاني بعد إلغائه الفيالق الإنكشارية، جيشاً جديداً وفق النظم الأوروبية الحديثة، وأطلق عليه اسم "جيش العساكر المحمدية المنصورة". كان هذا الجيش هو حجر الأساس في تشكيل الجيش التركي الحديث. انظر طارق عبد الجليل السيد، "دور المؤسسة العسكرية في الحياة السياسية في تركيا المعاصرة على ضوء المصادر التركية"،مرجع سبق ذكره، ص ٢٩

(52) "دون كيشوته دي لامانتشا": هو عمل روائي ملحمي للكاتب الإسباني "سرفانتس" (١٥٤٧ - ١٦١٦). وتقع في جزأين. وهى تعبّر عن أزمة الفرد الذي لا يتكيف مع التغيير في زمن التحولات. ويسخر سرفانتس في روايته هذه من أفكار الفروسية، ويهاجم الروايات المفرطة في الخيال. وملخص الرواية أن دون كيشوته - بطل الرواية - رجل من الريف، أفسدت ذهنه روايات الفروسية التي كان يقرؤها، فقرر أن يمتطي جواده بصحبه أحد الفلاحين، كخادماً له، ويذهب باحثاً عن أعمال البطولة والفروسية. وأول المعارك التي

هبطوا من الناحية الأخرى في حالة يُرثى لها. فقد صاروا بضعة فرق، بلا طعام، ولا رصاصة واحدة. وبعد سماع أصوات تردد قائلة: "الله، الله!" من بعض الأشخاص الذين عادوا من حرب القناة، بعد أن استطاعوا العبور إلى الساحل المواجه، توقف كل شيء، وساد الصمت، وبدأ الخوف يستولى على سوريا، والبلاد العربية.

أما أمة محمد التى لم تكن قد انكسرت بعد، فقد أبدت شهامة لا نظير لها عند باب الدولة في چناق قلعة، في سبيل الحفاظ على شرف الأمة. كانوا يتلقون بصدورهم طلقات المدافع التي أمطرتهم بها مدرعات الأعداء، بينما يردون عليها بطلقات أشبه بكرات مطاطية، ولكن للأسف لم تثمر هذه الروح، ولم تؤتِ بنتيجة، فقد سال الدم التركي من (جاليجيا) حتى صار بعمق نهر دجلة، وارتوت الأرض به.

وكيف أصبح الحال بعد ما حدث في هذه الجبهة؟

صارت الفتائل الجافة التى تنثر شرارات الهباب بدلا من الضوء، في لمبات الإضاءة في الدولة، بديلاً عن الغاز ... ولم نجد احتياجاتنا من السكر، واستعضنا عنه ببضعة حبات جافة من العنب. وصار الأطفال جلد على عظم، وصار لون جلدهم أصفر من سوء التغذية ... وبدلاً من الخبز الخاص النقى، صرنا نأكل خبز الصامون الأسود، الناشف مثل الحجر، المصنوع من الذرة الصفراء والنخالة ...

هناك روائي عجوز لايزال يحيا حتى اليوم يستخدم هذا التعبير للتحقير عندما يتحدث عن زماننا، من أجل توضيح حالة الطفولة في ذلك الزمان، والضعف الذي أصاب جيلنا الذي عايش تلك الأيام فيقول:

"-جيل خبز الصامون!"

بيد أن هذا التعبير، إذا كان ملائماً لوصف أوضاع تلك الفترة، فهو لا يلائم وصف جيلنا، فهو هنا بعيد عن الحقيقة. فجيلنا كان جيل الاضطراب والخوف والهلع. فقد وُضع في موقع المحاسبة، لجيل فاسد العقل سبقه، والتقدير الجيد، لفجيعة جيل طيب الروح أمامه.

سعى هذا الفارس الوهمي إلى خوضها، كانت ضد طواحين الهواء. فقد توهم أن هذه الطواحين التي لم يشاهد مثلها من قبل، شياطين ذات أذرع هائلة. وتصور إنها مصدر الشر في الدنيا، فهاجمها غير مصغ إلى صراخ تابعه وتحذيره. ورشق فيها رمحه فرفعته أذرعها في الفضاء، ودارت به، ورمته أرضاً، فكسرت عظامه. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص ٨٢٢- ٨٢٣.

وسوف نجد فيما قاله وحيد الدين للمقربين منه مدى الإحساس بالاضطراب والدهشة التي استولت عليه طيلة الحرب الكبيرة، والأحداث التي نجمت عنها. وكيف عاش في مدينة (سان ريمو) في إيطاليا منكسراً أشد الانكسار، بعد ضياع الوطن العزيز، وضياع كل شئ.

وأمام قصر أسير لدى رؤساء الجمعية، وجياع مناظرهم مؤلمة للعين، وألم أمة مريضة يدمي القلوب، وكارثة أسوأ من الموت، لم يستطع ولي العهد أن يفعل أي شئ تجاه ذلك ... فكأنما صبت بداخله دماء الجميع ... وفي المراسم أو أيام التمثيل الرسمي، كان عليه ارتداء زيه الفخم، والظهور بوجه جامد خلو من أي تعبير.

وكانت تُسند إليه مهام مثل، مهمة تمثيل تركيا في جنازة إمبراطور النمسا والمجر.

وبعد ذلك يتعرف وحيد الدين في آخر أيام الحرب الكبيرة على مصطفى كمال باشا(٥٣)

---

(53) ولد مصطفى كمال أتاتورك، مؤسس الجمهورية التركية الحديثة، في سلانيك عام ١٨٨١. وهو من عائلة تركية متواضعة، أبوه موظف حكومي اسمه علي رضا، وأمه هي زبيدة هانم، وقد فقد أباه وهو لايزال طالباً في المدرسة الابتدائية، فرحلت به أمه من سلانيك ثم عادت به بعد أن أتم دراسته الابتدائية. وكان يتلقى الدروس في اللغة الفرنسية في العطلات المدرسية، على يد رئيس دير فرنسي.

دخل المدرسة العسكرية الثانوية وأصبح ضابطاً في الجيش العثماني. وفي هذه المدرسة أُعجب به أحد أساتذة الرياضيات لمهارته في تلك المادة، فاقترح على تلميذه أن يسميه باسمه مصطفى كمال. التحق مصطفى كمال بالمدرسة الحربية العليا في مناستر، ثم بالأكاديمية الحربية في استانبول حيث ظهرت اهتماماته السياسية. تأثر بأفكار الشاعر نامق كمال، وقرأ العديد من الكتب عن الثورة الفرنسية، وكان معجباً بنابليون. تخرج من الأكاديمية الحربية، ثم دخل كلية الأركان وتخرج برتبة نقيب، ثم عُين في سلاح الفرسان المرابط في دمشق. رُقي إلى رتبة رائد، وعُهد إليه بالدفاع عن شبه جزيرة غاليبولي أثناء حرب البلقان في عام ١٩١٠، ثم أُرسل في نفس العام إلى صوفيا كملحق عسكري حيث تأثر بالحضارة الغربية. رُقي إلى رتبة مقدم، وبعد نشوب الحرب الأولى، عُين قائداً للفرقة التاسعة عشرة في "جناق قلعة" حيث هزم الإنجليز مرتين، ورُقّي إلى رتبة عقيد في عام ١٩١٥، ثم إلى عميد أثناء خدمته في الجبهة الشرقية. رافق الأمير وحيد الدين فى زيارة رسمية إلى ألمانيا.

بعد عودته من رحلة ألمانيا تعرض للمرض، ثم ذهب إلى فيينا للعلاج، ثم إلى كارلسباد (كارلوفي فاري في تشيكوسلوفاكيا. عُين قائداً لأحد الجيوش في فلسطين، وبعد عودته من الجبهة، أرسله السلطان وحيد الدين إلى الأناضول لتشكيل القوات الملية أو الشعبية لإنقاذ الدولة العثمانية من يد الحلفاء. حارب اليونانيين وانتصر عليهم في معركة صقاريا خلال حرب الاستقلال، ثم انقلب على السلطان وحيد الدين، وعزله من عرشه، وألغى السلطنة، وأسند اختصاصاتها إلى مجلس الشعب التركي الكبير، وذلك حتى يتمكن من الاشتراك في مؤتمر لوزان الذي تمت فيه تصفيه الدولة العثمانية عام ١٩٢٢. أعلن الجمهورية التركية عام ١٩٢٣، ثم ألغى الخلافة الإسلامية في مارس ١٩٢٤. انظر ماجدة مخلوف، الخلافة في خطاب أتاتورك،

الذى سيعينه ياوراً له فيما بعد، ثم يرسله شخصياً إلى الأناضول حيث يلعب أكبر دور مؤثر في حياته.

باع مصطفى كمال لصاحبه جمال باشا، قائد الجيش الرابع، حصان ومجموعة أفراس بـ ٢٠٠٠ قطعة ذهب، وقام جمال باشا بعد ذلك ببيعهم بسعر أعلى، فأعطى مصطفى كمال ٣٠٠٠ ليرة، فعاد من سوريا، واستقر في حجرة في فندق (بيرابالاس) في (باي أوغلي). (كمال أتاتورك وتاريخ الحرب القومية ص ١٧٩).

وفي هذا الأثر نعرف سبب، وشكل التعارف بين وحيد الدين ومصطفى كمال، من كلام مصطفى كمال باشا نفسه، حيث يقول:

"- أقمت في غرفة بفندق (بيرابالاس) في استانبول. كنت يائساً أفكر مثل أي شخص، مقتنعاً بأن كل شئ انتهى. لكنني كرجل عسكري، كنت أواسي نفسي بأن كل شئ يمكن إنقاذه."

سوف نفهم من هذه الكلمات التي قالها مصطفى كمال باشا نفسه، أنه في النهاية وفجأة، توصل إلى الأمل الذي أوضحه، دون أن يشير إلى من بعثه فيه، برغم مواساة نفسه، واقتناعه في البداية بأن كل شئ انتهى...

وكان يقول دائماً:

"بينما كنت في هذه الحالة النفسية استدعاني أنور باشا، بصفته وكيل السلطان، وكان موجوداً في غرفة المراجعة ... ثم قال لي بنفسه شفاهةً ما يلي:

- إن إمبراطور ألمانيا دعى الذات السلطانية إلى مقر القيادة العامة. ولأن الذات السلطانية لن يسافر، فكرنا أن يسافر حضرة ولي العهد نيابة عنه... فهل تقبل أن تكون برفقته؟

وافقت في الحال على العرض، لأنني رأيت أنه أمرمسلي أن أكون برفقة هذا الشخص. وتم عمل الترتيبات اللازمة، وبعد يومين أوثلاثة تقرر سفري مع وحيد الدين وركوب القطار يوم الخميس. وقيل لي مايلي:

"- قبل السفر لابد وأن تتعرف على حضرة ولي العهد!"

كان ناجى باشا في ذلك الوقت قائد فيلق، وكان قد قام بتدريس مادة التربية العسكرية

مرجع سبق ذكره، ص ٢٦، ٢٧.

لي في المدرسة الحربية، وأظن أنه كان مناسباً وجود الأميرألاي ناجي بك مع وحيد الدين."

وبعد هذا الكلام يروي مصطفى كمال باشا، انطباعاته عن اللقاء الأول بينه، وبين وحيد الدين. في رأيه أن ولي العهد وحيد الدين أفندي إنسان يثير الضحك، ويستحق الشفقة.

"ذات يوم ذهبنا إلى قصر وحيد الدين قبل السفر. أدخلونا إلى غرفة من باب مفتوح على صالون داخل القصر، مفروشة بحصير عربي. كانت الحجرة مليئة برجال يرتدون (الردينجوت) أي ملابس رسمية، وأثاثها عبارة عن كنبة، وعلى جانبيها كراسي كبيرة. وبينما نقف في الغرفة ومعنا الرجال الذين يرتدون الردينجوت، والذين يبدو عليهم عدم المبالاة، انضم إليهم رجلاً آخر يرتدي ردينجوت مختلف. لم ندرك من هذا الذي جاء، ولماذا جاء، وما لزوم مجيئه؟ دخل الغرفة، ونظر تجاهنا، وجلس في الركن الأيمن للكنبة، وجلست أنا على الكرسي المواجه له. وجلس ناجي باشا على الكرسي المواجه. أغلق هذا الشخص عينيه، وسحب تنهيدة طويلة، ثم فتح عينيه، وتفضل بالالتفات إلينا، وقال:

ـ تشرفت بكم. أنا ممنون!

ثم أغلق عينيه مرة أخرى، دون أن ينتظر ردنا على تحيته، فأدركت أنني موجود مع شخصية لا إحساس لديها، ولا شعور. وشعرت بالحيرة، تُرى هل أرد على التحية أم لا. ونظرت إلى وجه ناجى باشا، كان هو أيضا ساكناً. ففضلت الانتظار، وفهمت أنه ليست لديه القدرة على الكلام على نحو متواصل. ثم فتح عينيه بعد قليل، وقال:

ـ سوف نسافر، أليس كذلك؟

شعرت بضيق شديد، وأحسست بالعذاب، وقلت:

ـ نعم سنسافر!

اعترف أنني أحسست كما لو أنني أجلس مع شخص أبله، لكن منعت نفسي من الخوض في هذا. فنهضت من فوري وقلت:

ـ سوف أسافر مع حضرتكم، والسفر سيكون بعد يومين. وستكون حضرتكم في المحطة مساء يوم الخميس، وستتحرك من هناك.

ودعناه وخرجنا. وركبنا العربة التي خصصها لنا القصر. ودار هذا الحديث بيني وبين ناجى باشا:

ـ مسكين، سيء الحظ، يستحق الشفقة... ماذا يمكنه أن يفعل؟

ـ ماذا تقصد!

ـ هذا المسكين سيصبح غداً سلطاناً، فماذا يمكن أن ننتظر منه؟

ـ لا شيء ...

ـ نحن الذين لدينا عقلنا، ومنطقنا، نحن الذين نفهم مقدرات بلدنا وحالها ومستقبلها، ماذا نستطيع نحن أن نفعل؟

قال ناجى باشا:

ـ القوة!..."

يستمر مصطفى كمال باشا، في الحديث عن الرحلة التي قطعها إلى ألمانيا برفقة ولي العهد وحيد الدين أفندي، فيقول:

"ـ ذهبت إلى المحطة مساء يوم الخميس، وكنت قد أخبرت الرجال المحيطين بوحيد الدين قبل السفر، أن الرحلة ستكون عبارة عن رحلة عسكرية. ولذلك يلزم أن يرتدي ولي العهد، ملابس رسمية عسكرية فخمة. عندما ذهبت إلى المحطة رأيت وحيد الدين مرتدياً ملابس مدنية. كان هناك رجل يُدعى إحسان بك، كان يعمل لدى ولي العهد كمسئول عن البروتوكول. قلت له:

ـ كنت قد أبلغتكم بضرورة ارتداء ولي العهد الزي العسكري الرسمي، أليس كذلك؟

فرد قائلاً بكل غرور:

ـ وأنت من تكون؟

قلت:

ـ لا مجال لتعريفكم من أكون، لكنني أسأل فقط: ألم أقل لكم إنه لابد وأن يرتدي ولي العهد الزي الرسمي. فهل أخبرته، أم لم تفعل؟

وقلت هذا الكلام بشيء من الغلظة. فاضطر إلى أن يرد قائلاً:

ـ فلتأذن لي أن أوضح لكم... كان ولي العهد يعرف أنه سيرتدي ملابس برتبة فريق، فلما جاءوا له بملابس برتبة لواء، غضب، وقال: طالما نزعوا مني الرتبة الأولى، فلا أهبط إلى الرتبة الثانية. ولهذا السبب رجح وحيد الدين -الذي لم يكن جديراً بأي رتبة- أن يأتي إلى

المحطة مرتدياً ملابس مدنية. فرأيت أنه لا داعي لأن انشغل أكثر من ذلك بالحديث مع هذا المدعو إحسان بك. وجاء القطار، ووقف في انتظار ركوبنا. كانت هناك مفرزة عسكرية من ضباط الصف تقف منتظرة توديع ولي العهد، اقتربت من ولي العهد، وكان بجانبه أنور باشا، نائب القائد العام، وقلت: هؤلاء الجند جاءوا من أجل توديع حضرتكم. فلتقوموا بتحيتهم!

نظر وحيد الدين إلى وجهي، وكأنما بهذه النظرة يريد أن يقول:

ـ كيف؟

أشرت بقولي:

ـ حضرتكم تسيرون، وسوف نأتي خلفكم.

فمر وحيد الدين من أمام الجنود رافعاً يديه، وأخذ يلقي عليهم التحية بطريقة غير طبيعية. ثم عاد وركبنا القطار. وفتحت نوافذ الصالون الذي جلسنا فيه بداخل القطار، وعندما تحرك القطار قلت لوحيد الدين:

ـ فلتقوموا بتحية الجنود والأهالي الذين يودعونكم خارج القطار! فقال:

وهل هذا ضروري؟

قلت:

ـ نعم ضروري!

كان وحيد الدين منقاداً لي، ومطيعاً. غادر القطار استانبول، وذهب وحيد الدين بعد ذلك إلى صالون آخر في القطار، أُعد له خلف الصالون الذي كنت أجلس فيه معه. وأصبح هذا الصالون الذي غادره لي وحدي، والمفروض أنني سأنام فيه، لكنني رأيت في أنحاء الصالون، أكواماً من الحقائب والسلال وغيرها. وكنت قبل السفر قد أخبرت شخصاً اسمه رفيق بك، وهو من المقربين جداً لوحيد الدين بما يلي:

ـ إنني أريد أن أكون بالقرب من وحيد الدين، وأريد منك أن تطلعه على ذلك.

وعدني هذا الرجل بذلك، ثم عمل الترتيب التالي: وضع بالقرب من وحيد الدين، جميع الرجال المقربين له، وبقى لي هذا الصالون الذي أتحدث عنه ... فقلت له:

ـ لماذا فعلت هذا؟

فأجابني بهذا الرد الجميل:

- إن أفندينا يريد أن يكون بجانبه جميع رجاله المقربين، وهو بهذا قد يتسبب في إزعاجكم. ولهذا السبب رجحت أن تبقى أنت في مكان آخر، متصل بقاطرته."

وهنا، وفجأة، يصل مصطفى كمال إلى هذا التصور:

- لقد وجدت كلام رفيق بك معقول. نعم يلزم أن يكون بجانب وحيد الدين جميع جواسيسه، ورفيق بك هذا على رأس هؤلاء الجواسيس!"

ويروي مصطفى كمال باشا عن رحلته قائلاً:

"ابتعد قطارنا كثيراً عن استانبول، وتقدمنا نحو أرض (تراقيا). وجاءني شخصاً قال لي:

- إن أفندينا يدعوكم إلى صالونه. أسعدتني هذه الدعوة. فقد كان هذا يعني أنه قد أُنعم علي بأول فرصة للاقتراب من سلطان الغد. عندما دخلت على وحيد الدين في صالونه وجدته واقفاً، كان ينتظرني. ثم جلس وأشار إلى المكان الذي علي أن أجلس فيه. وجدته هذه المرة مختلفاً تماماً عن الشخص الذي قابلته في القصر، كان في القصر يتحدث وهو مغلق العينين معظم الوقت. بالعكس هذه المرة، كانت عيونه مفتوحة، وكان ينظر إلي متفحصاً إياي بكل دقة. ثم قال وكأنه يلقي خطبة أو بيان:

- عفواً حضرة الباشا، إنهم لم يوضحوا لي من هذا الشخص الذي أسافر معه سوى من عدة دقائق،وقد فهمت أنني موجود مع قائدنا الذي أقدره، وعرفت عنك الكثير بعد المعلومات التي حصلت عليها بعد تحرك القطار. إنني أعرفك جيداً، فما قمتم به في (أري بورن) و (أنافارتا) والانتصارات التي حققتها كلها معروفة تماماً. إنك قائدنا الذي أنقذ استانبول وكل شيء، إنني سعيد وفخور جداً بسفري معك.

كان وحيد الدين يقول هذا الكلام بثقل وصعوبة، لكن بشكل منتظم. احترت، واندهشت، وأجبت بالرد اللازم. وصارت بيننا صداقة رائعة، جادة، وصادقة."

وكلمات مصطفى كمال باشا هذه التي تُعبر عن اللقاء الأول، واتصاله وتعارفه بوحيد الدين، وتدل على ما كان في فكره وروحه تجاهه، ليست في حاجة لمزيد من الإيضاح، فهي واضحة في حد ذاتها.

وفيما يلي كلام مصطفى كمال باشا، بأسلوبه وتصوره الخاص:

"اعتبرت هذا اللقاء كافٍ من أجل تلك الليلة. استأذنت قائلاً: إنني لا أريد أن أقلق

راحتكم أكثر من ذلك. وعندما عدت إلى الصالون الخاص بي شعرت بالانشراح. كنت أفكر في أن هذا الشخص لابد وأن يكون شخصاً عاقلاً. عندما قابلته لأول مرة في استانبول بدا ولي عهد غريب الأطوار، تحت تأثير شروط وأسباب تسهيل لقائنا، في رأي العارفين ببواطن الأمور في هذا الزمان، لكن بعد أن غادر استانبول شعر بالتحرر تماماً. وعندما فهم أنه يتحدث مع رجل من الرجال الذين يُعتد بهم، لم يجد مانعاً في أن يبدي شخصيته الحقيقية... ولهذا تمكنت أن أطلعه على الأحوال والأمور الضرورية، وأصبح في مقدوري، في رأيه، أن أبدأ نشاطي مرتكزاً على بعض الأسس فتفاءلت.

وتمر أيام الرحلة الواحد تلو الآخر، وكنا نلتقي كل يوم لقاءات طويلة حيناً وقصيرة حيناً آخر. واقتنعت حينئذ أنه يمكن عمل بعض الأشياء مع هذا الرجل، بشرط إظهار الود والتقرب منه وتنويره. وأعربت عن وجهة نظري هذه لأشخاص مثل ناجي باشا وأخرون. وأشرت إلى ضرورة إعداد ولي العهد للقيام بمهمة تستهدف مصلحة الدولة. واستمرت رحلتنا في لقاءات من هذا النوع الذي بين الأصدقاء."

وهنا نجد مصطفى كمال باشا قد غير من رأيه القديم، وأصبح وحيد الدين الذي كان يقول عنة "المسكين المستحق للشفقة"، في رأيه مصدر الأمل الواعد.

ولنستمر في الاستماع إلى مصطفى كمال باشا:

". ذهبنا إلى المدينة الصغيرة التي توجد بها المقر الرئيسي للقيادة الألمانية. ألقينا التحية على حشد ألماني مهيب، يقف منتظماً أمام مدخل مقر الإمبراطور، وكان يشترك في استقبالنا في صحن المدخل القيصر بنفسه. ومن المدخل دخلنا إلى ردهة كبيرة. كان هناك الإمبراطور و(هيندنبرج)[٥٤] و(لودندورف)[٥٥] وجميع أركان القيادة وضباطها، كلهم كانوا في استقبال

---

(54) بول فون هيندنبرج (١٨٤٧- ١٩٣٤): عسكري وسياسي ألماني، كان القائد العسكري لألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ –١٩١٨م). هزم الجيش الروسي في معركة تاننبرج عام ١٩١٤ بمعاونة لودندورف رئيس أركان حربه، واحتل بولندا. أُنتخب رئيساً لألمانيا منذ عام ١٩٢٥ وحتى وفاته. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٠٥.

(55) إريك فريدريك ويليام لودندورف (١٨٦٥ - ١٩٣٧): هو ضابط في الجيش الألماني، وصانع النصر في معركة لياج، وهي عملية غزو بلجيكا، وكانت أول عملية عسكرية في الحرب العالمية الأولى. قاد مع الجنرال بول فون هيندنبرج معركة تاننبرج ضد القوات الروسية في الأيام الأولى للحرب. في أغسطس ١٩١٦ عُين رئيس هيئة أركان حرب القائد هيندنبرج، وبدأ بإدارة دفة الحرب، حتى استقالته في اكتوبر ١٩١٨. ويعد

وحيد الدين ومن برفقته. وبعد أن صافح القيصر ولي العهد، تحدث حديثاً ذو دلالة مع ناجي باشا الذي قال لوحيد الدين:

ـ لابد وأن تقدموا من برفقتكم إلى الإمبراطور.

فقدمني ولي العهد إلى الإمبراطور. كان الإمبراطور يضع إحدى يديه بين الأزرار التي في سترته، وباليد الأخرى أمسك بيدي، وقال بصوت عالي، وباللغة الألمانية:

ـ الفرقة السادسة عشر... أنافارتا...

التفت الجميع ناحيتي عند سماع كلام الإمبراطور. فنظرت أمامي وأنا أشعر بالخجل قليلاً، لأنني لم أفهم ماذا يريد مني فعله بالضبط. وعندما وجدني الإمبراطور خجولاً ومتواضعاً تشككك، وظن أنه أخطأ وسألني قائلاً:

آلست أنت مصطفى كمال قائد الفرقة السادسة عشرة، وقائد معارك أنافارتا؟

قلت:

ـ نعم يا صاحب السمو.

عندما خرجت هذه الكلمات من فمي، فهمت في الحال أنني أخطأت.

كان لابد وأن أقول، ياسيدي أو يا جناب الإمبراطور. كانت ذلة لسان. فكثيراً ما يتسبب الإنسان في المشاكل بسبب الأشياء التي تعود لسانه على قولها. إنني فعلت نفس الخطأ عندما قابلت ملك بلغاريا (فرديناند) لأول مرة."

وبعد هذا يقول مصطفى كمال، إن إقامته في مقر القيادة العامة الألمانية كانت جميلة ومريحة، وإن ولي العهد قام ببعض الزيارات اللازمة، ومنها الزيارات التي قام بها إلى (هيندنبرج) و(لودندورف) حيث يتحدث عنها بقوله:

"كان مكتب هيندنبرج الضخم، صغير جداً. كان المارشال يجلس على رأس المائدة ... ووحيد الدين يجلس على كرسي كبير على يسار المائدة، وبجانب وحيد الدين يجلس ناجي باشا، وكان بمثابة المتحدث عن وحيد الدين"... أما مصطفى كمال، فكان يجلس على كرسي على يمين (هيندنبرج)...

الحرب اشترك في الحركات الوطنية، وخاصة في "الزحف من قاعة البيرة" الذي قام به هتلر في ميونيخ عام ١٩٢٣. أسس مع زوجته الثانية مذهباً دينياً لتمجيد الجنس الآري. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٧٤.

وداخل هذا الديكور الذي رسمه مصطفى كمال باشا شخصياً، كان ولي العهد وحيد الدين أفندي، سيء الحظ، يتحدث مع الرجل العسكري الكبير الذي وجه له الجيش الروسي الضربة القاضية. "ولما كان من غير المعتاد مناقشة أمور مهمة في لقاء قصير كهذا - أجرى بعد مراسم استقبال قصيرة- طمأن المارشال ولي العهد والأمة التركية من خلاله ببعض الكلمات، وشكره ولي العهد على ذلك."

لم ينشرح صدر مصطفى كمال لكلمات المارشال الألماني. فقد أصبح مقتنعاً أنه قد خسر الحرب، وما قاله بعد ذلك ليس سوى عبارات مواساة جافة، وكلام فارغ.

فهكذا يقول بنفسه:

"كنت أحاول أن أقنع نفسي بأن الكلام الذي سمعته من (هيندنبرج) ما هو إلا ختاماً موقراً، وإكراماً للضيف، وإنهاءً للقاء بطريقة مهذبة. وحتى لاأشعر باليأس من مدلول كلامه، رأيت أنه من غير المناسب الاشتراك في الحديث، بل بالعكس كنت أنتظر أن ينتهي اللقاء سريعاً، وهذا بالفعل ما حدث."

وبعد لقاء (هيندنبرج) يلتقون مع (لودندورف) رئيس الأركان العامة الألماني:

"استقبل(لودندورف) وحيد الدين بكل احترام. ويمكن أن يقال إنه هو أيضا حاول أن يقدم مواساته بخصوص الموضوعات المتعلقة بالمارشال، وخاصة أنه في هذه الأيام كان يبحث أمر شن هجوم كبير ضد جيوش الحلفاء في الجبهة الشمالية الغربية، ونحن كنا نعلم بأمر هذا هذا الهجوم. لكني كنت لا أستطيع أن أصبر، وأردت أن أسمع من لسان (لودندورف) النتيجة التي سيسفر عنها هذا الهجوم. ورأيت أن هدف الحديث ليس هذا... إنما الهدف كان عبارة عن الكلام عن هجوم للجيش الألماني يعمل على بعث الثقة، ورفع الروح المعنوية للشعب والجيش الألماني وحلفائه، وحتى أزيح شكي وجهت سؤالاً قصيراً للجنرال:

مامدى تقدم القوات بعد هذا الهجوم؟ وهنا توقف (لودندورف) عن مواصلة كلامه، واستعد بكل احترام للإجابة على السؤال الذي سألته، بوصفي أحد الضباط الموجودين برفقة ولي العهد، والذي سقط عليه كالصاعقة، وفكر قليلاً ثم نظر في وجهي قليلاً وقال:

- إننا نقوم بالهجوم، أما النتيجة فستحددها الوقائع.

قلت:

ـ أظن أنه لا لزوم لانتظار تجلي الحظ، والوقائع لفهم النتيجة التي سيسفر عنها الهجوم الذي سيُشن، لأن هذا الهجوم في النهاية هو هجوماً جزئياً.

فكرر (لودندورف) النظر في وجهي، وفهم جيداً ما أعنيه، فصمت ولم يجب، لا بالنفي ولا بالإثبات.

وتوقف الحديث هنا، وأُختتمت الزيارة.

لقد قرأت ما يدور في رأس (لودندورف)، فقد فكر فيما قلته جيداً. فمن الطبيعي ألا يكون من حقي - لكوني زائراً مجهولاً بالنسبة له- في لقاء قصير، أن أطلب منه الإجابة على سؤال مهم جداً، فكانت إجابته على ذلك هو التوقف عن الكلام. لكنني لم أرد خلال حديثنا في هذه الزيارة مع شخص، هو ضابط كبير وأركان حرب معروف، أن أكتم فكرة طرأت على ذهني خلال تبادلنا الأفكار، ويمكن أن تُطرح."

وهكذا بعد لقاء اثنين من كبار الجيش الألماني، ونقد اللواء مصطفى كمال باشا لكلاهما، والاطلاع على الوضع المحرج للجيش الألماني الذي يستقبلهم، يقومون بزيارة الإمبراطور الألماني شخصياً في مقره:

"في داخل فندق أُتخذ كمقر قيادة للإمبراطورية، وفي الصالون الذي كنا ننتظر فيه قدوم الإمبراطور، تحدثت أنا وناجي باشا مع ولي العهد بشأن المسائل العامة والحيوية التي سوف نطرحها. كنت أحاول إثبات عدم منطقية فكرة الاعتماد على الجيش الألماني، واعتباره نائباً عن القيادة في الدولة، والاعتماد عليه في تحقيق النصر في نهاية الأمر. إن (لودندورف) ذكّرني خلال حديثه، وبعد السؤال القصير الذي وجهته له، بالمتوكلين الذين يدَعون كل شئ إلى الله. كنت أرغب كثيراً، وأسعى بشدة إلى أن يفهم سلطان الغد ماأقوله. لا أعرف لماذا، كنت أريد أن يكون هناك أمل في المحاولة. الواقع أن الإيضاحات التي قدمتها، كانت تقابلها إشارات من جانب ولي العهد تدل على تيقظه وتيقنه."

وهكذا يثبت بهذا الكلام الذي يخرج من فم مصطفى كمال باشا نفسه، أنه وولي عهد ذلك الزمان محمد وحيد الدين أفندي، كانا معاً ضد الاتحاديين، وأن أمله كله في هذا الموضوع يرتبط بوحيد الدين. وأن مصطفى كمال باشا قبل أي شيء، كان ميالاً لأقصى

درجة، للتفاهم مع وحيد الدين.

ثم حان موعد لقاء جناب الإمبراطور "ويليام" ذلك العقرب الملتحي، بطل المدينة الفاضلة التي تحكم العالم كله...

"في تلك الأثناء علت الأصوات التي ملأت المكان الذي كنا نجلس فيه، وسمعنا ونحن في الصالون صوت يقول:

- جناب الإمبراطور، جناب الإمبراطور!

وفُتح الباب، وأُعلن عن قدوم الإمبراطور لزيارة ولي العهد. فأسرعنا لاستقبال الإمبراطور. دخل الإمبراطور إلى الصالون وجلسنا جميعاً. كان الإمبراطور يتحدث في الحقيقة بكل لطف عن أن الدولة العثمانية الصديقة الوفية أصبحت حليفاً مهماً لألمانيا، وعن أنور باشا، وكيل القائد العام الذي يفهم أهمية هذه الصداقة، ويسعى دائماً لتدعيمها، وعن أن القيادة الألمانية، وأركان حربيتها، تعتمد على هذا الشخص وتثق فيه ثقة كبيرة جداً. كنت أجلس على يمين وحيد الدين، وناجي باشا كان يجلس في مواجهتنا تماماً. وتم توجيه هذا السؤال على لسان ناجي باشا:

- إن صداقة تركيا لألمانيا، والكلام الرائع حول كوننا من أهم حلفاء ألمانيا، أثلج صدور الذين يفكرون في مستقبل الدولة العثمانية، لكن بصرف النظر عن مطالعة الوضع العام، والخوض في ذلك، هناك نقطة أحتاج أن أفهمها بوضوح أكثر، إن الضربات التي تُوجه إلى تركيا مستمرة دون توقف. وإذا حالف هذه الضربات التوفيق، فسوف تُمحى تركيا من الوجود. وأنا لم أسمع في كلامكم، ما يفيد أن هذه الضربات سوف تتوقف. فأرجوا أن تتفضلوا بتنويرنا، وطمأنتنا في هذا الخصوص؟

وبسبب هذا السؤال نهض الإمبراطور في الحال من الكرسي الذي كان يجلس عليه، ثم قال الآتي:

- ولي عهد تركيا المحترم! إننى أرى أنه يوجد معكم من يشوش على ذهنكم. إنني أسألك بوصفي إمبراطور ألمانيا، هل بعد حديثنا عما سنفعله، لايزال لديكم شك أم لا ؟

وكان رد ولي العهد، الذي كنت أجلس بجانبه، بالإثبات، سبباً في توتره أكثر.

لم يجلس الإمبراطور على الكرسي الذي نهض من عليه، وأومأ بأدب بإنه سيتركنا. وسار

نحو باب الصالون، وخرج وحيد الدين، ونحن من ورائه، من باب صالون الإمبراطور إلى الخارج. كان الإمبراطور سيمشي من الممر الذي يتجه نحو اليسار، فسلكت أنا الممر المعاكس، لأنني فهمت أنه غير راضياً عني، ووقفت بعيداً قليلاً. سلم الإمبراطور على ولي العهد، وعلى ناجي باشا الذي كان دائماً بالقرب منه، ونظر إلي وانا أقف بعيداً، وبدأ يسير في الممر الذى كان يتجه إلي، ولم يسلم علي. قلت لنفسي إن الإمبراطور لديه حق. فهل يصح أن يقف الإمبراطور على قدميه فترة طويلة حتى يسلم على جنرال من الموجودين في رفقة ولي العهد؟ ألم يكن من الضروري أن يسارع هذا الجنرال قليلاً حتى ينال شرف السلام على الإمبراطور؟ إننى أعترف بخطأي. لا أعرف لماذا تجمدت في مكاني شارد الذهن. لكن الإمبراطور بعد أن سار عدة خطوات، عاد مرة أخرى، واقترب مني وقال:

ـ أرجوا المعذرة، إنني لم أسلم عليك.

مددت يدي بكل أدب مظهراً اهتمامي بعلو منزلته."

والآن نستطيع أن نثبت الحقيقة الكبيرة من الكلام الذي سمعناه في عهد رئاسة الجمهورية، ومن مصطفى كمال باشا مباشراً. وبعد إثبات هذه الحقيقة من كلام مصطفى كمال باشا شخصياً في تلك الفترة، لا يصبح هناك مجال للادعاء بعكس ما قاله، وتصديق زعم أن وحيد الدين كان خائناً وعدواً للوطن.

إن كلام مصطفى كمال باشا يدل على أن وحيد الدين كان واحداً من الذين يحترقون بآلام الوطن. كما أن احتداده على الإمبراطور، وتفكيره في مستقبل الدولة العثمانية، وطلبه ضمانات من الإمبراطور في هذا الخصوص- مما جعل الإمبراطور يخرج غاضباً من الصالون- يظهره بمظهر من لا تأخذه أبهة التشريفات وصخبها بعيداً عن غرضه الأساسي.

ودائماً ما نسمع من فم مصطفى كمال باشا، عن رحلة ألمانيا بإنها كانت تتفق وأصولنا:

"تمت دعوتنا إلى مأدبة عشاء على مائدة الإمبراطور. كان يجلس أمام الإمبراطور أحد الأمراء وعلى يمينه جلس وحيد الدين، وعلى اليسار جلس المرحوم حقي باشا سفيرنا في برلين في ذلك الوقت، وجلست أنا على يسار الأمير، وعلى يساري جلس (لودندورف). كان (لودندورف) يحاورني باللغة الفرنسية. قال الإمبراطور للودندورف باللغة الألمانية:

ـ تحدث مع الرجل الذى على يمينك.

فرد عليه لودندورف قائلاً:

إنني أفعل ذلك.

وطبيعي أنني استطعت فهم كلام الإمبراطور، ورد لودندورف عليه، لأنني أفهم قليلاً اللغة الألمانية. ثم كف لودندورف عن الكلام معي، بعد أن تعب من كثرة تحريك رأسه للالتفات إلي أثناء حواره معي، ولم يجد موضوعاً مهماً للحوار يستحق إشغالي به عن تناول الطعام.

انتهى الطعام. وكان هناك صالون آخر ملاصقاً لهذا الصالون، فذهب قسم منا من الذين حضروا المأدبة إلى هناك، كان هذا القسم يضم الإمبراطور وهيندنبرج ولودندورف وشخص أظن أنه كان رئيس وزراء ألمانيا، ومن جانبنا كان ولي العهد والمرحوم حقي باشا وأنا...

كان الإمبراطور يقف مع وحيد الدين في أحد أركان الصالون، ويتحدث إليه حديثاً ودياً خالصاً. وكنت أنا أقف خلفه مستنداً على الجدار المقوس الذي يفصل بين الصالونين في مواجهة شخصية رفيعة تبدو فاهمة كل الحقائق، ولكنه يتجنب الحديث عن كل ما يعرفه، إنه هيندنبرج! كنت أريد أن أتحدث معه:

في أثناء زيارتنا له كان المارشال يقول إنه لابد من إصلاح وضع سوريا، ولابد من إدخال فرقة سواري جديدة في الأيام الأخيرة إلى ميدان القتال. وماقاله هذا الرجل الكبير كان من ضمن محتوى التقرير الذي قدمه القادة الموجودين هناك بالطبع. في الحقيقة إن موضوع فرقة السواري هذا الذي يتحدث عنه، كنت قد طالبت به عندما كنت لاأزال قائداً للجيش الثاني، إذ طالبت بإرسال هذه الفرقة إلى مجموعة يلدريم (الصاعقة) من أجل تدعيمها. وقبل أن أصبح قائداً للجيش السابع، قمت بتشكيل فرقة السواري هذه، ولما لم يكن هناك مكان يكفي لهذه القوة السيارة التي يمكن جمعها، أصبح لابد من تربية الحيوانات (الخيول) الصغيرة في المراعي التي بجوار (رسولاين)، ثم بعد أن تصبح في حالة يمكن الاستفادة منها، نفحصها من جديد لإرسالها... وبعد عدة شهور من بقائي قائداً للجيش السابع، بحثت هل يمكن الاستفادة من هذه الفرقة أم لا، فجاءني تقريراً جاداً يفيد أن هذه الفرقة لا تصلح. وذلك الذي سمعته من فم هيندنبرج في مقر القيادة الألمانية هو، أن هذه

الفرقة دخلت إلى ميدان الحرب، وأُصلح الوضع. فرويت للمارشال حكاية ما جرى بأمر هذه الفرقة وقلت له:

- أحب أن أقول لكم إنكم لم تأخذوا بمحتويات التقارير التي أُرسلت لكم... لكن أريد أن أقرر لك إنها الحقيقة فعلاً. إن الفرقة لم تُصلح من وضع سوريا. لا بد وأن تعرفوا ذلك. ثم أيها المارشال إنكم ستشنون هجوماً مهماً، ولا أظن أنه سيكون مرتبطاً كثيراً بهذه الفرقة، لكن هلا قلت لي ما الهدف الذي تهدفون إليه؟"

وهنا يؤكد مصطفى كمال باشا شخصياً، أن الوضع الذي يستفسر عنه بهذا السؤال كان صعباً:

"هل يستطيع رجل عسكري كبير، ودقيق مثله أن يجيب على سؤالي هذا؟ كان يجب ألا أنتظر منه ذلك. ربما كان سؤالي هذا عدم إكتراث مني، ولعله كان من تأثير الشمبانيا الجيدة التي قُدمت إلينا في مأدبة حضرة جناب الإمبراطور.

بدا المارشال أنه يستمع جيداً لما أقوله. لكنه أجاب إجابة بسيطة جداً ولطيفة جداً، إذ أشار إلى مائدة صغيرة في وسط الصالون يوجد عليها مختلف أنواع السجائر، وقال:

- ألا تتفضل سيجارة يا إكسلانس؟

ولم يجب هيندنبرج بأية إجابة أخرى. فذهبنا إلى المائدة التي في وسط الصالون وأعطاني بيده سيجارة.

أما الإمبراطور الذي كان يتحدث مع وحيد الدين، فقد لحق بنا، وكان مهتماً بمعرفة ما كان يدور بيننا من حوار، وسأل المارشال باللغة الألمانية:

- ماذا كان يقول؟

فأجاب المارشال قائلاً:

- ثمة أشياء!

بعد أن أشعلت سيجارتي تركت هيندنبرج. وذهبت إلى جانب وحيد الدين الذي كان يتحدث مع الإمبراطور وقلت:

- هل فهمت الحقيقة؟ إنكم كنتم تتحدثون مع إمبراطور ألمانيا. هل قال كلمة واحدة توضح ما يقلقنا بشأن ما تحدثت فيه معك؟

قال:

-لا!

قلت:

-استمر في حديثك معه، وتحدث معه بجدية! ولا تتردد في الحديث مع الإمبراطور حول كل ما يقلقنا! وأنا متأكد إنه لن يرضى عن ذلك. لكن إن لم تفعل ذلك فسيعتقد أن ما من أحد في تركيا يفهم الحقيقة.

فقال ولي العهد بإسلوب بريء:

-سأفعل هذا!"

يبدو من تصرفات ولي العهد محمد وحيد الدين أفندي في رحلة ألمانيا، إنه كان يشعر أن تركيا ستخسر الحرب على يد الاتحاديين بسبب وقوفها في صف ألمانيا، كما يبدو أن مصطفى كمال مشترك معه في وجهة النظر تلك، وإنهما قد اتفقا على أداء هذه التصرفات ، وبهذا يتضح سبب الجرأة والجسارة التي بلا حدود عند مصطفى كمال باشا ولم نجدها لدى ولي العهد...

بعد هذه الزيارات يبقى عمل زيارة للجبهة الغربية. دُعى وحيد الدين أفندي، والوفد العسكري الكبير الذي برفقته، إلى خط النار في الجبهة الغربية بناءً على طلبهم. كان هناك أحد القادة الكبار في الجبهة، في أحد مقار القيادة، يقوم بشرح الوضع إلى ولي عهد تركيا ومن معه، على خريطة وبصورة نظرية. هذا الشرح كان - بتعبير مصطفى كمال باشا- يسير في إطار كلمات "جميلة وبراقة". وفي ذلك الوقت يعود وحيد الدين أفندي إلى مصطفى كمال باشا ويسأل، ماذا ترون؟ فيقول له:

"-عليكم إبداء رغبتكم في رؤية المكان الذي يبدو على الخريطة!"

ويحدث هذا. ويذهبون مباشرة إلى خط النار. وهناك يلتقون بكبار القادة. وكان قد خُطط من قبل الأماكن التي ستعرض على الوفد التركي، وكيف سيصلون إلى هناك، ومن أين... يقول مصطفى كمال الذي رأى الخطة:

"أوضح لنا قائد كبير في الجبهة الوضع بصفة عامة وقال: إن هذه الساحة التي عليها الشرح، هي جبهة القتال التي نحن بداخلها. فقلت أستأذنكم بأن نترك هذه الخطة جانباً، ولنذهب لرؤية الأماكن التي سأشير إليها!"

ويحدث في تلك الأثناء هرج ومرج، ويأخذون ولي العهد إلى مكان آخر وفقاً للخطة الجاهزة، وليس إلى الساحة التي يريد مشاهدتها.

يقول مصطفى كمال باشا:

"إنني لدي عناد الجندي. فلم أتبعهم، لم أحب الاعتماد على دلالة خريطة أمامي بل سرت إلى مكان ما في خط النار، وجئت إلى شجرة خلف خط النار. كان هناك ضابط شاب يقف فوق الشجرة حيث كان يقوم بأعمال المراقبة. وكان معي الضباط الألمان الذين كانوا يرافقوننا، نزل الضابط الذي كان يقوم بأعمال المراقبة من الشجرة وروى لنا ما رآه.

ـ فقلت ألا أذنتم لي أن أصعد الشجرة.

قالوا:

ـ على الرحب والسعة!...

صعدت الشجرة ورأيت نفس ما رآه الضابط. لكن كان لابد من بحث الموضوع الأصلي، فأمام هذا الوضع كان هناك وضع آخر. ومن أجل هذا سألت:

ـ من فضلك هل تفضلتم بإيفادي بمدى استعداد تلك القوة التي تواجة العدو؟

فقال الضباط والقادة الذين يقفون عند خط النار الحقيقة لقائد تركي حليف لهم. وهاهى الحقيقة: إن قوات المشاة أصبحت غير كافية... ولذلك بحثوا عن قوة يمكن استخدامها كقوة مشاة، ففكروا في قوة الخيالة. وبعد تدعيم الخط الأول بهذه القوة، أصبحت الذخيرة غير مناسبة، سواء من ناحية الكم أو الكيف. بعد حصولي على هذه المعلومات شعرت بالحيرة، وقلت لهم بدون خوف، وبكل جرأة:

ـ إنكم هكذا معرضون للخطر!

ـ هكذا الأمر، مالعمل! ..."

وهنا نجد مصطفى كمال باشا الذي أوضح لنا الموقف بلسانه، يتحقق بعد مشاهدة قصيرة من ضعف الجيش الألماني، ووجد في نفسه الثقة ليوضح لقادته حقيقة وضعهم.

ويستمر في كلامه على هذا النحو:

" تبعني أحد قادة الفرق الذى أمره الإمبراطور برفقة وحيد الدين عند مغادرتنا مقر قيادة خط النار. أبدى هذا الشخص منذ تلاقينا منذ أيام إهتماماً بي. ذهبنا بالخيل حتى المكان

الذى سنركب منه العربات. اقترب مني قائد الفرقة الألمانية، وسألني:

ـ هل أنت ياور ولي العهد؟

ـ لا!

ـ إذاً بأي صفة ترافقه؟

ـ أُمرت أن أقوم بهذه المهمة...

ـ إنكم تعرفون كثيراً عن الوضع العسكري!

ـ هل توليت قيادة أي قوة فى تركيا؟

أجبت بالإثبات .

ـ تبدو كأنك قائد فرقة!"

بعد ذلك، وأمام نظرة الحيرة لقائد الفرقة الـ ٦٠، يخبره مصطفى كمال باشا الذي عمره ٣٨ عاماً أنه قائد الجيش، متخطياً بذلك اللواء والفرقة والفيلق، وعند ذلك يكون رد فعل الجنرال الألماني كالآتي، ونقلاً عن مصطفى كمال:

"ـ أرجو المعذرة، إننا حتى الآن نخاطبكم على نحو غير صحيح. يعني كان لابد وأن نخاطبكم بـ إكسلانس!"

إن صورة رحلة وحيد الدين لألمانيا التي نقلناها دائماً بأسلوب ولسان مصطفى كمال باشا، وخاصة إذا تصورنا المكان والزمان الذي يحكي فيه وهو (عهد الجمهورية الذي نُظر فيه إلى وحيد الدين بإنه خائن الوطن) نجد أنه لم يقل أي كلمة تسيء إلى ولي العهد، بل رأيناه كيف يمثل وطنه في ألمانيا بكل وقار وهيبة.

وهاهو مثال يوضح هذا:

ذات ليلة تمت دعوتهم إلى منزل حاكم (الألزاس). جلس الحاكم مع وحيد الدين في صالون جميل، واسع على مائدة، وجهاً لوجه... وبينما كان مصطفى كمال - بتعبيره- يقول: "كنت أتجول بالصالون وأتفحص ما به من أشياء"... يدعوه وحيد الدين للجلوس على المائدة، ويقول له:

ـ سألني الحاكم بعض الأسئلة، وأنا أجبته. لكنني أريد منك أن تؤكد له إجاباتي... فقد قلت له بصحبتي قائداً يعرف وطنه جيداً. وأردت أن تسمع أنت هذا أيضا.

لنعطي الكلمة مرة أخرى إلى مصطفى كمال باشا:

"سألت ولي العهد عن الموضوع الذي كانوا يتحدثون فيه:

قال:

ـ الأرمن!...

قال ناجي باشا، إن الحاكم الألماني كان يتحدث بحسن نية مع ولي العهد عن التجاوزات التركية ضد الأرمن، ويقول إنهم لايستحقون هذا... إن هذا الحاكم عالي المقام ألماني، وألمانيا دولة صديقة وحليفة، وهو يتحدث مع سلطان تركيا القادم، ونحن ضيوف عنده. وعندما فهمت أنه يتحدث في هذا الموضوع احترت. فقلت له:

ـ إن هذا القائد يعرف الموضوع الذي تتحدث عنه سيادتك جيداً.

فقلت للحاكم:

ـ يحيرني الموضوع الذي تتحدثون عنه، وهو لاشك موضوع يهم ألمانيا وولي عهد تركيا، لكنني أتساءل كيف تسنى لكم الحديث لمصلحة الأرمن -الذين يخافلون العالم من أجل إحياء وجودهم الذي يزعمون، إنني لا أعرف في أي عصر كان لهؤلاء وجود- وضد تركيا التي تتحالف معكم، وتتخلى عما تبقى لها من وجود مادي ومعنوي في سبيل هذا التحالف؟

أدركت أن معلومات هذا الحاكم عنا ناقصة، ولم أستطع أن أمنع نفسي من الاستهزاء به، لأنه يطالبنا في مقابل كل ما ضحينا به، بحق الأرمن في أرض تركيا. وفي الحال هدّأ الحاكم من موقفه بعد ما سمعه مني، ورأى أنه مخطيء وليس صاحب دعوى. فقلت له من أجل أن أنهي الحديث في هذا الموضوع:

ـ حضرة الحاكم إننا وفد نقوم بالتجول في الجبهة، وقد جئنا لفهم الوضع الحقيقي للجيش الألماني الذي أصبح حليفنا، وأصبحت دولتنا تعتمد عليه، ولم نأتِ هنا لمناقشة مسألة الأرمن. وبعد أن فهمنا حقيقة وضع الجيش، آن لنا أن نعود لبلدنا.

دعا الحاكم وحيد الدين إلى مائدة الطعام. وبعد ذلك دعانا صاحب مصنع(كروب) الشهير إلى قصره الفخم الذي بجوار المصنع. وهناك تناولنا العشاء، وفي الليل تحركنا بالقطار إلى برلين. وفي برلين كنا ضيوف على الإمبراطور في فندق (أدلون). أقمنا إقامة جميلة في الفندق، وكان كل واحد يقيم في غرفة بمفرده، وشعر وحيد الدين بالفخر لهذا الاستقبال

الجيد، وأجرى لقاءات صحفية مع صحفيين عالميين، وكان يشعر بسعادة غامرة، وكان يُجري مقابلات مختلفة. وذات يوم في الفندق قال لي ناجي باشا:

ـ وحيد الدين يريد أن يتخذك ياوراً له . ولكن لابد أن تعرف مدى صعوبة مسؤلية العمل بالقصر.

فأجبت قائلاً:

ـ إذا كان هذا تكليف وحيد الدين، فلابد من الموافقة. هذا الرجل سيصبح السلطان، ولابد أن يكون بجانبه واحد يطلعه على كل الحقائق بلا خوف ...في الواقع إن العمل في خدمة القصر صعب كما تقول، ولكن من أجل مصلحة الدولة نعمل كل شيء.

واجبت ناجي باشا بالموافقة. وأصبحت ياوراً له بعد أن عدنا إلى استانبول. كان هناك بعض المسائل التي جرت قبل ذلك ونحن في فندق (أدلون). ففي ذات يوم أراد بعض مراسلي الصحف مقابلة ولي العهد مرة أخرى. وكنت حاضراً اللقاء. رأيت في هذا اللقاء أن وحيد الدين كان حتى آخر يوم متأثراً بالأفكار التي أطّلعته عليها في استانبول، فقد كان يتحدث بوحي هذه الأفكار دائماً إذا تحدث مع أي شخص. وفي ذلك اليوم سعدت بمصاحبة بعض الصحفيين الأجانب.

بعد خروج الصحفيين بقينا نحن الاثنين بمفردنا في الصالون. فسألني قائلاً:

ـ ماذا علينا أن نفعل؟

أتذكر أنني تكلمت على النحو الآتي:

ـ نحن نعرف التاريخ العثماني، إذ يوجد في هذا التاريخ صفحات عديدة تُخيفك، وتثير قلقك، وأنت على حق في هذا، ولذلك سأقول لك شيئاً، وسأشاركك حياتي في هذا الخصوص، فهل يسعدكم ذلك.

قال وحيد الدين:

ـ تفضل بالكلام!..."

واضح هنا أن مصطفى كمال باشا، بتعبيره الخاص، لا يفكر في شيء سوى التقرب من وحيد الدين، والارتباط بالدنيا التي سيخططان لها معاً. وهذا التحليل العلمي والمنطقي القاطع ستثبته إفادات مصطفى كمال باشا المستمرة.

ويستمر مصطفى كمال باشا في حديثه قائلاً:

"- إنك لم تصبح سلطاناً بعد، لكنك رأيت في ألمانيا أن الإمبراطور وولي العهد والأمراء كلهم ينشغلون بشئون الدولة، إذاً لماذا تبقى أنت بعيداً عن كل شيء؟

- وماذا عساي أن أفعل؟

- عندما تعود إلى استانبول اطلب أن تكون قائد أحد الجيوش. وأنا أصبح رئيس أركان حربيتك.

- قيادة أي جيش؟

- قيادة الجيش الخامس...

فهذا هو الجيش الذي تحت قيادة (ليمان فون ساندرز)، وهو الجيش الموجود للدفاع عن البسفور.

فقال وحيد الدين:

- لن يعطوا لي قيادة هذا الجيش!...

- أنت تطلب هذا!...

- عندما نذهب إلى إستانبول نفكر في هذا الموضوع.

كان هذا الرد الهدف منه أن أتجاهل هذا الموضوع.

عدنا إلى استانبول. لكنني كنت أشعر باضطراب فظيع بداخلي طيلة فترة السفر. قال الأطباء إن كليتي عليلة. لم أغادر فراشي لمدة شهر. فشل الأطباء في علاجي فعاودت الرقاد مرة أخرى، وفي النهاية قرر الأطباء ضرورة سفري إلى فيينا للعلاج.

في فيينا رأى الأستاذ الطبيب الذي كشف علي هناك ضرورة دخولي المستشفى للعلاج. مكثت في مستشفى (كوتاج) بالقرب من فيينا لمدة شهر، وقام هذا الأستاذ بعلاجي. ثم ذهبت بعد ذلك إلى كارلسباد بناءً على توصية نفس الأستاذ. وفي يوم الجمعة، في الخامس من شهر يولية عام ١٩١٨، جاءني في مقر إقامتي في (كارلسباد) -حيث كنت لا أزال مريضاً ولم يتم علاجي تماماً- بعض الأصدقاء."

هؤلاء الذين أتوا لزيارة مصطفى كمال باشا، أخبروه أن السلطان محمد رشاد قد مات وتولى بعده وحيد الدين. مكث مصطفى كمال باشا متجمداً من المفاجأة، كما سنرى من

كلامه الآتي:

"هل أحزن أم أفرح؟ لم أعرف ماذا أفعل. الحقيقة أنني لم أتألم لموت السلطان، ولاهمني أن يكون عمر السلطان الجديد طويلاً أو قصيراً. تُرى هل كان سبب حزني أن يحدث هذا الأمر، وأنا غير موجود في استانبول؟ لا أستطيع أن اقول كلاماً قاطعاً بخصوص هذا الأمر. لكن كل ما أتذكره أنني تجمدت ولم أنطق. وفي غضون عدة أيام جاءتني معلومات كاملة. فقد أرسلت برقية لوحيد الدين أهنئه على تولي المنصب. وجاءني رده. ووفقاً لما فهمته من المعلومات الأخيرة، أن عزت باشا أصبح ياور السلطان الجديد فأقلقني هذا الأمر. لأنني ظننت أن عزت باشا، علاوة على أنه أصبح ياوراً، ربما يصبح مستشاراً عسكرياً أو رئيس أركان الحربية. بعد عدة أيام تلقيت برقية من جواد عباس بك مساعدي الموجود في استانبول، يخبرني بضرورة عودتي فوراً إلى استانبول. ولما كنت لا أود العودة لأنني كنت لا أزال مريضاً ولم أُشف بعد، كتبت خطاباً إلى جواد عباس بهذا المعنى. تضمنت البرقية الثانية التي تلقيتها منه هذا الكلام: "هناك رغبة بأن تتفضلوا بالعودة سريعاً إلى استانبول". سافرت من كارلسباد يوم السبت ٢٧ يولية عام ١٩١٨، دون أن أرى لزوماً للتساؤل عمن يكون صاحب الرغبة في عودتي.

يستقبل جواد عباس بك، مصطفى كمال باشا في محطة (ساركيجي)، وعندما ينزل مصطفى كمال من القطار يسأله قائلاً:

- من استدعاني ولماذا أُستدعيت؟

فيجيب عليه قائلاً:

- عزت باشا هو الذي طلب مني أن أكتب لكم لتعودوا إلى استانبول.

وفي الحال ذهب مصطفى كمال باشا إلى عزت باشا، وقال له: "أريد أن أفهم، لماذا استدعيتني؟" كأنه يريد أن يطمئن على صحة إحساسه.

كان رد عزت باشا جافاً للغاية.

- لا سبب على الإطلاق!... إنني رغبت في عودتك حيث فكرت إنه سيكون من المفيد أن يستمر اقترابك من السلطان الجديد، لأنني أعلم أنك اقتربت منه كثيراً أثناء سفرك معه عندما كان ولياً للعهد.

شكر مصطفى كمال باشا، عزت باشا لأنه تذكره، ثم أطلعه عما بداخله:

لابد أن أقابل السلطان الجديد من أجل إصلاح الوضع بصفة عامة. فمن المناسب التشاور معه في هذا الخصوص.

كان عزت باشا يرى ذلك أيضا، وفي الحال يقول للسلطان الجديد، عن طريق ناجي باشا: إن رفيقكم في الرحلة التي قمتم بها في فترة ولاية العهد يريد مقابلتكم.

جاء رد السلطان:

ـ تفضلوا!

وبعد أن أقوم بإبراز خصائص السلطان سيء الحظ في عهد الانهيار، سوف أتناول موقف مصطفى كمال باشا من السلطان وحيد الدين. ولنعود الآن إلى وحيد الدين مباشرة في عهد الانهيار...

الانهيار

وحيد الدين على العرش العثماني

في شهر يولية عام ١٩١٨، عام الكارثة التي تحققت بهزيمة الأتراك وجيش دول الوفاق في الحرب الكبيرة التي أسرعت بالدولة العثمانية نحو الانهيار، نظر السلطان محمد رشاد بعينيه الزرقاوان إلى السماء الزرقاء وأغمضهما، وودع الدنيا.

قبل عدة أيام من موته، عثر الباشكاتب (علي فؤاد توركجالدي)على السلطان مغمى علية بجانب صندوق البردة المقدسة التي في حجرة "بردة السعادة : بردة النبي"[٥٦] في أثناء

---

(56) أمر السلطان محمد الفاتح بإنشاء جناح الأمانات المقدسة بين عامي ١٤٧٤-١٤٧٨م في قصر طوب قابي. وكان السلطان أحمد الأول ١٦٠٣-١٦١٧، هو أول من فكر ووضع الصندوق الذي يحتوي على بردة النبي فوق كرسي العرش متبركاً بها. وعندما غادر السلطان محمود الثاني ١٨٠٨-١٨٣٩ قصر طوب قابي نهائياً، أمر بتخصيص القصر بالكامل ليكون متحفاً لحفظ الأمانات المقدسة· في الزاوية اليسرى من الغرفة الخاصة - غرفة العرش سابقاً والتي كانت تسمى غرفة السعادة- توجد شبكة الأمانات المقدسة التي صنعت بأمر من السلطان. في هذه الشبكة يوجد صندوق من الذهب منقوش بالآيات القرآنية والزخارف، أمر بصنعه السلطان عبدالعزيز ١٨٦١- ١٨٧٦ كوعاء يحفظ فيه صندوق أصغر من الذهب أيضا هو الذي يضم بداخلة البردة النبوية الشريفة، أما البردة نفسها فقد وضعت في لفة مطرزة من الحرير· هذه البردة هي التي أهداها النبي للشاعر كعب بن زهير بعد أن ألقى في حضرة الرسول قصيدته المسماه بقصيدة البردة· وانتقلت البردة من الأمويين بعد زوال ملكهم إلى العباسيين ثم انتقلت إلى مصر مع آخر الخلفاء العباسيين. وعندما فتح السلطان سليم الأول مصر تسلّم البردة النبوية في العاشر من فبراير ١٥١٧م مع باقي الأمانات المقدسة، وحملها معه جميعاً إلى قصر طوب قابي. ومن الأمانات أيضاً العلم النبوي الشريف المحفوظ داخل صندوق من الذهب· ورسالة النبي التي بعث بها إلى المقوقس ملك القبط سنة627 م. وتتضمن الأمانات المقدسة ٢١ سيفاً من سيوف الخلفاء والصحابة في مقدمها سيفان للنبي. وهناك أيضا خاتم النبي المصنوع من العقيق، وهو بيضاوي الشكل منقوش عليه عبارة محمد رسول الله. وعلبة يحتفظ فيها بـ شعرة من اللحية النبوية الشريفة. ومن بين الأمانات المقدسة، المصحف الشريف المخطوط على جلد غزال الذي كان الخليفة عثمان بن عفان يتلو فيه عندما أستشهد في بيته، وهو ملطخ بالدماء· وإلى جانب أمانات الرسول توجد بعض الأمانات الخاصة بالكعبة المشرفة، فيوجد مفتاحا الكعبة والقفل وكلها من الفضة، وكذلك توجد ستارتان مأخوذتان من غطاء الكعبة تزينان جدران الغرفة الخاصة، وعليها نجد آيات قرآنية· وهناك بالمتحف حجر عليه أثر القدم الشريفة. انظر: الصفصافي أحمد المرسي، استانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة، دار الأفاق العربية ١٩٩٩، ص ٦١ . انظر أيضا المواقع الإليكترونية التالية:

http://www.alturkiyya.com/ar/detay_liste.asp?yazi=88

http://www.360tr.com/kutsalemanet/english/

زيارته لقصر طوب قابي. ويُخرجون السلطان المتدين بالدين العلوي، صاغراً من الحجرة التي أغلقها على نفسه، ليرقد في الفراش الذي لم يستطيعوا إخراجه منه أبداً.

عالي المقام حتى في حزنه!...

سيكون مصدرنا الكبير والأمين لمعرفة الوقائع التي حدثت بعد ذلك، سواء في السنوات الأخيرة للسلطان محمد رشاد، أو في الأعوام الأولى لعصر وحيد الدين، هو كتاب (مارأيت وماسمعت) لـ (علي فؤاد توركجالدي) باشكاتب القصر. وسوف أبرز أكثر من خلال هذا الأثر، اللحظات الأخيرة للسلطان محمد رشاد:

في الوقت الذي يترقى فيه الطبيب اللواء أحمد بك، طبيب السلطان رشاد الخاص إلى باشطبيب، يرى سيده ممدداً في فراش الموت، وفي قمة الإعياء. وبينما ينظر إليه بحزن شديد لأنه يشعر أن رتبته التي حصل عليها ستموت بموت السلطان، قال له علي باشا وهو أحد أطباء القصر، وكان يقف بجانبه:

"ـ مسكين يا أحمد! أصبحت أحمد سيء الحظ، بعد موت محمد سيء الحظ!"

الباشا الذى قال هذه الكلمة لم يعرف، ولم يقدر حينئذ أن سيء الحظ الحقيقي ليس هو السلطان محمد رشاد الذي كان يبتسم ويقول: "أنا ممنون، أنا محظوظ!" لهؤلاء الذين ساقوا الدولة العظيمة التي أخذوها من السلطان عبد الحميد، نحو الانهيار بحروب طرابلس والبلقان ثم الحرب العالمية بعد ذلك، وفي لحظة السقوط يغمض عينيه ويرحل إلى العالم الآخر دون أن يرى أو يشعر بالهزة الكبيرة ثم الانهيار، بل سيء الحظ هو وحيد الدين الذي اضطر لاعتلاء العرش في هذه الفترة. أما هذه النقطة بالنسبة للسلطان محمد وحيد الدين السادس فهى تمثل تجسيداً لنقطة فارقة بين لحظتين، لحظة توليه العرش، ولحظة خلعه عن العرش.

قبل سبع سنوات من موت السلطان رشاد - من بعد عام أو اثنين من توليه الحكم- يستدعي حضرة حاجي ذهني أفندي، مدير عموم الخزينة الخاصة، ويقول له:

ـ إنني أعطيك بصورة أمانة، وأدفع من نقودى الخاصة مقدماً، مصاريف جنازتي، فخذها! وعندما أموت لا أريد أن تُشيع جنازتي بالإرادة السنية!

ويتوفى السلطان يوم الأربعاء (٣ يولية ١٩١٨) - (٢٤ من رمضان ١٣٣٦)، وفي

الصباح التالي تُشيع جنازته من قصر يلديز إلى قصر طوب قابي، في داخل زورق بخاري عن طريق ميناء (چيراغان)، و يُغَسل في حجرة (بردة السعادة) ومنها إلى أيوب حيث يُدفن في القبر الذي جُهز له، ثم ينتظرون مراسم البيعة للسلطان الجديد.

وقبل يوم ذهب الصدر الأعظم طلعت باشا، وأنور باشا وزير الحربية ونائب القائد الأعلى، وشيخ الإسلام موسى كاظم أفندي، إلى قصر الطفولة الذي تربى فيه وحيد الدين- وهو قصر "چنگل كوي" الذي وصفته في بداية كتابي هذا- وأخبروه أنه بوفاة أخوه السلطان رشاد يحق له الجلوس على العرش العثماني. وظل الوكلاء في قصر يلديز، وتناولوا الإفطار في القصر الذي يرقد فيه السلطان داخل نعشه.

في ٢٥ رمضان ١٣٣٦ (٤ يولية ١٩١٨) يوم الخميس، في وقت الصباح في الساعة العاشرة، يطأ وحيد الدين رصيف قصر (طوب قابي) للجلوس على العرش باسم محمد السادس. وبينما يقترب الزورق الذي جاء به من الرصيف، يهرول الوكلاء المجتمعين في جناح مصطفى باشا في (قصر طوب قابي)، وكبار رجال القصر، وخَدَمة الأندرون(٥٧) أي موظفي القصر، ويصطفون أمام الباب الثالث المسمى بـ (ياالديزلي قابي) أي الباب الذهبي، استعداداً لأداء مراسم استقبال وحيد الدين.

في تلك الأثناء جاء أيضا الصدر الأعظم طلعت باشا، ولكنه أخذ يصيح عالياً قائلاً: "قُضي علي!".

يدخل محمد وحيد الدين السادس من الباب "بمنتهى الوقار"- بتعبير باشكاتب القصر-وخلفه يدخل أنور باشا، ويسير مباشراً نحو جناح بغداد في القصر.

وحدث أن أول كلمة ينطقها وحيد الدين في تلك الأثناء بصفته السلطان، أمام أركان حكومته وقصره، كانت:

"-هذه كارثة!"

نعم، كانت هذه أول كلمة قالها وحيد الدين، أمام أركان حكومته وقصره.

---

(57) أندرون في اللغة الفارسية تعني داخل الشيء، وقد أطلقها الترك على القصر السلطاني. انظر حسين مجيب المصري، تاريخ الأدب التركي، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٧

- خَدَمة الأندرون أي خَدَمة الدائرة السنية السلطانية. انظر قاموس اللغة العثمانية، الدراري اللامعات في منتخبات اللغات، جمعه ورتبه محمد علي الأنسي، بدون تاريخ، ص ٥٠

"هذه كارثة!"

قيلت هذه الكلمة للآتي:

كان السلطان يعاني من الروماتيزم، ويجد صعوبة في السير، ويستعمل دائماً عكازاً... وبينما يسير تجاه جناح بغداد، يشعر بوجع في قدميه، ويطلب السلطان الجديد عكازه من أحد القريبين منه: فيقولون له: نسيناه في قصر (چنگل كوي).

عندما تلقى وحيد الدين هذا الجواب، صاح - وسمعه كل شخص- قائلاً:

"هذه كارثة!"

يقول علي فؤاد توركجالدي:

"وهكذا كانت أول كلمة يتفوه بها عندما دخل من باب القصر، هى كلمة الكارثة. ومر زمن سلطنته كله بالكوارث. ووقعت في تلك الليلة أيضا كارثة أخرى، استمرت حتى الصباح. فقد شب حريق، سرى من الحمام الملاصق لسور طوب قابي حتى حجرات الحريم، وأحدث قلقاً وغماً شديداً."

في رأيي أن حكاية عكاز السلطان المريض بالروماتيزم الذي نسيه في قصره الذي كان يقيم فيه في فترة ولاية العهد في (چنگل كوي)، هى من وحي خيال فطري غاية في الدقة، وهى شيء رمزي، لا توجد أي وثيقة تدل عليها، ولا أستطيع إثباتها من خلال الوثائق التي حصلت عليها وفرزتها بنفسي.

يصل وحيد الدين إلى جناح بغداد، وهو يشد قدميه بصعوبة بسبب الآم الروماتيزم، وهناك يستريح فترة، ويستقبل بصفة شخصية الصدران الأعظم القدامى، توفيق باشا، وداماد فريد باشا. ومن هناك يمر على حجرة (بردة السعادة) ويزورها. وفي الساعة الحادية عشرة يأتى أمام (باب السعد) وبجانبه ولي العهد الجديد عبد المجيد أفندي، ويصعد إلى العرش المقام هناك.

التف حول العرش ممثلين الدولة جميعهم وهم يرتدون الملابس المتنوعة...! أمراء يرتدون الطرابيش والردينجوت، وعلماء يرتدون الجبة والعمامة، وأركان الجيش في زيهم العسكري والقلنسوة، ورجال يرتدون ملابس مدنية مزركشة، وألبسة الرؤساء الروحانيين التي بلون القطران... وعن بعد تُسمع طلقات المدافع احتفالاً بالجلوس على العرش، لكنها

كانت وكأنها تعلن عن إفلاس الدولة التي أوشكت على الانهيار ... فقد حضر كل واحد من أجل مراسم البيعة. وكان صاحب مصدرنا، باشكاتب القصر علي فؤاد توركجالدى، أيضًا خلف العرش طبقاً للأصول... أوشكت مراسم البيعة أن تبدأ، وهى تبدأ منذ القدم بسلام السلطان بيده على أفراد الحاشية ثم تقبيلهم... يستدعي الصدر الأعظم طلعت باشا، توفيق بك، المشرف على موظفي القصر، من أجل تنظيم الحاشية. وفي اللحظة التي يستعد فيها توفيق بك لمباشرة عمله، نسمع صوت السلطان وحيد الدين من فوق العرش يقول:

"ـ أظن أن توفيق بك قد ظل ينظم حاشية أخي لفترة طويلة، ولذلك سيكون متأثراً لذلك وحزيناً. فليتولى تلك المهمة نزهت بك، الموظف الثاني في القصر!"

تجمد الجميع في أماكنهم. لأن توفيق بك الذي كان من المعتقد أن يستمر في عمله،كان عميلاً وممثلاً لجمعية الاتحاد والترقي، وهو قد وُضع بجانب السلطان الراحل بهذه الصفة، وإبعاده عن وظيفته اعتباراً من لحظة الجلوس على العرش، يكون بمثابة محاولة من وحيد الدين، لإظهار أنه يبدأ حكمه بإرادة سلطانية جديدة.

كانت عيون طلعت باشا الذي لم يعجبه ما فعله وحيد الدين، تبحث عن أنور باشا، وكأنه يسأل:

ـ كيف سنعمل مع هذا الرجل؟

وكما أشرنا في البداية، فإن السلطان محمد وحيد الدين السادس، هو الابن رقم ٢٣ للسلطان عبد المجيد الأول، وهو أخر وأصغر أولاد عبد المجيد الأربعة الذين استمروا في السلطنة بالترتيب. وهو السلطان رقم ٣٦ من بين السلاطين العثمانيين، والأخير. وهو أيضا الخليفة رقم ٢٣ (والخليفة رقم ٢٤ الذي جاء بعده، لم يصبح سلطاناً، لأن السلطنة كانت قد أُلغيت). اعتلى السلطان وحيد الدين العرش في سن ٥٨ عاماً، في العام الرابع والأخير للحرب الكبيرة، قبل ثلاثة أو أربعة شهور من انهيار الدولة التي سقطت في فجر يوم أسود، صبغ أفق تركيا كلها بالسواد، وهو ينظر حوله بدهشة وحيرة.

وإذا كان وحيد الدين قد اعتلى العرش في زمان كهذا، فماذا عساه أن يفعل في عهد وجد نفسه فيه منذ اللحظة الأولى مسؤلاً عن حساب العصور الماضية. هل كان يجب عليه أن يتولى العرش، أم ينسحب إلى قصره في (چنگل كوي)، ويسد أذنيه حتى لا يسمع صرخات الوطن

الذي سيذبحونه في السلخانة؟

هذا السؤال يمثل مفتاحاً رئيسياً لمسألة محمد وحيد الدين السادس، وإن كان لا ينصفه حتى هذه اللحظة.

إن محمد وحيد الدين كان سيصبح بالفعل خائناً للوطن، وفاراً منه، لو إنه لم يقبل العرش. فإن توليه العرش والوضع هكذا، إنما هو ذكاءً من وحيد الدين الذي يصفه باشكاتبه بإنه: "ذو فكر يشبه فكر الجان"، كما تنم هذه الخطوة الأولى التي اتخذها عن شجاعة كبيرة. وعندما نأتي إلى الأعمال التي قام بها بعد ذلك، نجد أنه ظل محافظاً على هذه الشجاعة، ولم يتخل عنها أبداً، وسنرى ذلك فى المواضيع التى سنتطرق إليها، وهذا من حيث المبدأ يجعلنا نقول: إنه لم يتخل عن شجاعته الأولى في أي وقت.

كانت هناك بعض البطولات، فقد كان مقاوماً للفساد، ولا يجب أن يكون هو نفسه فاسداً، أو يحمل مغبة الفساد. كان يحب الكمال والخير. كان عالي المقام، يسعى دائماً لعمل كل ما هو جيد.

برغم الحكم المقدم سلفاً في عنواني الذي في أول كتابي وهو: "**السلطان وحيد الدين ليس خائناً للوطن بل صديق كبير للوطن**"، سوف ترون أننى منحاز تماماً للحقيقة في هذا الموضوع.

والآن لنواصل حديثنا من لحظة جلوسه غلى العرش:

إن السلطان الذي لطم الاتحاديين في أول حركة له، عندما أبعد أحد رجالهم الذين في القصر عن محيطه، قال بعد ذلك ما يلي لعلي فؤاد توركجالدي بناءً على زعمه:

"في ذلك اليوم كنت سأكلف توفيق بك بأمر الحاشية، لكن بسبب إصرار ولي العهد على رفض ذلك، لم أجعله يواصل وظيفته حتى لا يكون هناك خلاف بيني وبينه من أول يوم!"

لابد أن نكون أغبياء لأعلى درجة حتىٰ نقبل تفسير الحركة - الموجهة ضد الحزب الأسود حاكم الدولة، والتي كانت عبارة عن أداء سياسي، ورسالة موجهة للاتحاديين والذين حولهم- على هذا النحو السابق.

يقول الباشكاتب أنه كان يجب ألا تُعزف الموسيقىٰ أمام حجرة (بردة السعادة) في وجود نعش السلطان الراحل بداخلها، ويُكتفى بالتصفيق للسلطان الجديد عند دخوله (باب

السعادة)، ولكن حدث العكس وعُزفت الموسيقى طيلة مراسم البيعة. والباشكاتب الذي يفسر هذا بإنه: "بسبب عدم معرفة السلطان للتقاليد القديمة"، يؤكد أن السلطان اندفع يُقبل الحاشية مثلما كان يحدث في العادة، وهذا لا ينطبق على بيعة تمت بموضة حديثة، أو بأسلوب جديد.

وهاهى عادة قديمة أخرى، إذ يتعقب السلطان وحيد الدين الجنازة حتى أيوب، ويحضر الدعاء، ثم يؤدي صلاة الجنازة على روح أسلافه السلاطين، ثم يعود أدراجه إلى القصر.

وعند عودة وحيد الدين من أيوب، يذهب مرة أخرى إلى قصر طوب قابي، ومن هناك يركب يخت (سوغوتلو)، ويصعد إلى رصيف قصر دولماباغچة. وعند الرصيف كانت هناك مجموعة من (الغلمان والخدم) - الذين ذهبوا مباشراً إلى دولماباغچة بالقارب من أيوب- ينتظرون في صفين، قدوم السلطان الجديد.

وبعد ذلك يذهب طلعت باشا - وهو من زعماء الحزب المشئوم، حاكم الدولة والذي أصبح في نظر الشعب بسبب الأوضاع الأخيرة، خائر القوى والعزيمة- إلى القصر لتقديم استقالته وفقاً للتقاليد! نظراً لتغير رئاسة الدولة.

وكان أول قرار للسلطان الجديد، أن يستمر الصدر الأعظم، وأعضاء مجلس الوزراء في أماكنهم. وأن يتولى طلعت باشا تنظيم مسودة خط الجلوس، وهو مدعو بعد يومين (يوم السبت) إلى القصر من أجل إجراء نقاش موسع معه. وقام رشاد بك، الطبيب الخاص للسلطان، بإعلام باشكاتب القصر علي فؤاد توركجالدي، بإنه مستمر في منصبه.

ويأتي طلعت باشا إلى القصر يوم السبت، ويستقبله السلطان، ثم يخرج من اجتماعه معه بعد فترة طويلة. وفي حجرة الوكلاء، يدخل الباشكاتب علي فؤاد توركجالدي بينما يتناقش طلعت بك مع توفيق بك عميل الحكومة الذي أبعده السلطان عنه بإعفائه من منصبه كرئيساً للحاشية، ويقول له طلعت باشا الآتي:

"إن السلطان طلب استدعاء مصطفى رشيد باشا - من الوزراء السابقين- ليتولى منصب رئيس موظفي القصر، وأنا رجوته أن يُعين لطفى بك الرئيس السابق في هذا المنصب فوافق. وأنت سوف تستمر في وظيفتك، أما توفيق بك فسيتم تعيينه في مجلس الأعيان."

وهكذا فإن السلطان الذي كان أول عمل له إبعاد رجل من رجال الاتحاد والترقي عن

القصر، يقبل الرجاء في نفس الموضوع، ليخفف قليلاً من قسوة الحركة التي فعلها ويصير تعويضاً صغيراً للاتحاديين. هذا الموقف كما يعتقد وحيد الدين ليس سوى مجرد سياسة، فهو يريد أن يجعل الإحساس بحزمه وهيبته تدريجي وبسيط. لكن ما الحيلة! فالوقت متأخر جداً على السيطرة، وكبح جماح هؤلاء الاتحاديين الذين سيتركون الوطن ليحتله الأعداء بعد بضعة شهور، ويهربوا بعد انهيار كل شيء.

وبعد طلعت باشا، يستقبل السلطان الجديد باشكاتبه، ويدردش معه بخصوص لطفي سيماوي بك الذي سيتولى وظيفة رئيس موظفي القصر قائلاً:

"- الصدر الأعظم رجح لطفي بك. ولطفي بك متفرنج قليلاً، لكننا معكم يمكن أن نعدل من تفرنجه."

وهذه الكلمة توضح موقف وحيد الدين الشخصي، تجاه من يتظاهرون بالتفرنج.

في الأيام الأولى للجلوس على العرش، كان الباشكاتب يطالع أوراقه على مائدة الكتابة مع السلطان الذي كان يجلس أمامه، وسقط في تلك الأثناء شيئاً في الخارج محدثاً صوت فرقعة، ففوجيء الباشكاتب بوحيد الدين يميل ليأخذ مسدسه من مكانه، وينفخ فوهته، ويضعه في جيبه. هنا الباشكاتب الذي أصابه الهلع الشديد، لم يدرك سبب هذا الحدث الكبير الذي رواه. فالسلطان الجديد كان يرى أنه لا يملك في الدولة العثمانية أي شيء حتى نفسه، وأنه ليس هناك من يدافع عنه. ولهذا الإحساس كان يحمل سلاحه دائماً.

وبعد الاطلاع على الأوراق وهو ما ينم عن شخصيته ونشاطه الأول، يوجه محمد وحيد الدين السادس إلى الحكومة أول أمر له من داخل مقام السلطنة. إذ بينما جرت العادة حتى ذلك الوقت أن يوقع الصدر الأعظم، والوزير المسئول، أسفل الفرمان ويصدق السلطان أسفل توقيعيهما، رأى وحيد الدين أنه بموجب موقعه كسلطان يمكنه أن يغير من هذا الشكل. فأخبر الصدر الأعظم أنه من الآن فصاعداً سيكون توقيعه أعلى الفرمان وليس أسفله، و هذا نص ما قاله:

"- لابد أن يُوضع توقيعي بأعلى الفرمانات. وقولوا للصدر الأعظم، إن توقيعي سيكون بعد توقيعه!".

وبينما يوافق الصدر الأعظم على ذلك، يرى رئيس مجلس المبعوثان (النواب) أن هذا

الشكل مخالف للقانون. وطلعت باشا الذي كان سيذهب للتو إلى أوروبا، يُعلم الباشكاتب بالوضع بقوله:

"- إن الأصدقاء يعترضون على وضع التوقيع الهمايوني بهذا الشكل، قم بعرض الأمر على الذات الشاهانية في الوقت المناسب، بعد أن أذهب إلى أوروبا!".

يُعرض الأمر على السلطان الذي لا يستطيع أن يتراجع عما صرح به، فالمسألة دقيقة وترتبط بحيثية مقامه وشخصيته، فيقول:

"- أبداً!"

هذا كان رد السلطان، ويستدعي نائب الصدر الأعظم، أنور باشا ويجبره على قبول الأمر. ويتم وضع التوقيع الهمايوني أعلى الفرمانات.

وتُرسل إلى مكتب الباشكاتب مسودة خط الجلوس المودعة لدى الباب العالي، وتعُرض على السلطان. وبعد أن يدقق السلطان في عرض الخط واتساعه وطوله، يستدعي الباشكاتب ويقول له، إنني معجب بصفة عامة بالمسودة وبخطها، ولكنني أرى أن هناك بعض القصور، وقد أشرت فوقها في المسودة بالقلم الرصاص. ويطلب منه ضرورة كتابة الخط وفقاً لهذه التعديلات، ويأمر بالآتي:

"- اذهبوا إلى الباب العالي لإطلاع الصدر الأعظم عليها!".

تلك هى النقاط المطلوب إلحاقها بالخط الهمايوني، بعبارات السلطان شخصياً.

١. لابد من الاهتمام بالمحافظة على المعايير الإسلامية الحقيقية، والحيثية العثمانية...

٢. لابد من العمل على إقرار العدل والأمن والانضباط...

٣. ضرورة اتخاذ التدابير اللازمة للتخفيف عن الأهالى الذين تضرروا من غلاء الأسعار، والذين هم في حاجة إلى الإعانة...

٤. استكمال وسائل زيادة موارد الدولة...

٥. العفو عن المجرمين السياسيين المحبوسين، أو المنفيين بصفة مؤقتة...

٦. إطلاق سراح المجرمين العاديين الذين قضوا ثلثي المدة في السجن...

٧. رفع الإجراءات العرفية في التعامل في جميع المناطق، ما عدا المناطق الحربية. وتُنظر القضايا الجنائية في المحاكم المدنية...

٨ـ إعلام الهيئة التشريعية في أول اجتماعاتها، بالقرارات الخاصة بالأمور المالية، والفرمانات التي تحتاج إلى التصديق عليها من قبل المجلس، والخاصة بالحقوق العامة...

٩ـ إبداء الاهتمام عند اختيار موظفي الدولة، فلابد أن يكون اختيارهم طبقاً للقانون، وأن يتصفوا بالشرف والاستقامة...

١٠ـ لا يتم طرد الموظف من وظيفته، مالم تكن هناك أسباب قانونية تستلزم ذلك...

ثم يجتمع الصدر الأعظم بأعضاء مجلس الوزراء، ويعرض عليهم المواد التي تمت إضافتها، فيقبلون المادة الأولى والثالثة، أما مسألة العفو العام عن المجرمين السياسيين التي في المادة الخامسة، فيلزم حتى تمر من المجلس أن يتم تغييرها إلى عفو خاص. ويتم إدخال تعديل صغير أيضا في نفس المعنى في المادة السابعة. أما المادة الثامنة والتاسعة فهي سارية بالطبيعي، وليس من المناسب إبراز أنه يتم عكس ذلك.

ويتخذون موقفاً ضد السلطان الجديد، ويطلبون من طلعت باشا السماح لهم بالذهاب إلى القصر بأنفسهم لإبراز اعتراضهم للسلطان، فينظر إليهم طلعت باشا غاضباً ويقول لهم: "إذا أردتم مقابلته، فاذهبوا الآن، وأنا سأقدم استقالتي!". فيتراجعون ويقررون عرض الأمر على الباشكاتب.

ويقبل وحيد الدين التعديلات بشرط تعهُد الصدر الأعظم شخصياً بعدم نشر الأحكام خارج "القانون الأساسي"، ويعدم طلب مخصصات إضافية في حالة عدم انعقاد المجلس. وهكذا يصير الخط الهمايوني للسلطان الجديد - الذي يوضح مدى ذكائه وشخصيته وإدراكه، والتزامه الديني والأخلاقي والسياسي، ومدى عدالته وإرادته- بمثابة سد أمام رغبات الاتحاديين، وومضة جاءت متأخرة في عام الكارثة، لمعت فجأة ثم خبت سريعاً وانطفأت.

في حضرة السلطان الجديد

كنت قد كتبت أن مصطفى كمال باشا الذي رافق ولي العهد وحيد الدين أفندي في رحلته إلى ألمانيا، كان يُعالج في "كارلسباد"، وعندما تلقى برقية من ياوره جواد عباس يدعوه بالعودة إلى استانبول، عاد وطلب مقابلة السلطان وحيد الدين في القصر. وعند هذه النقطة، تركت هذا الموضوع، وتناولت مراسم الجلوس على العرش.

سأعود مرة أخرى لأقص ما حدث في تلك الأثناء:

عندما تلقى مصطفى كمال خبر وفاة السلطان رشاد، وجلوس وحيد الدين على العرش، لم يعد إلى إستانبول، لكنه أرسل إلى القصر برقية تهنئة توضح وجهة نظره الكاملة تجاه وحيد الدين، وحكمه القيم عليه. وهذا ما قاله بنفسه:

"إن جلوس أفندينا على العرش قد بعث الأمل الكبير في عبدكم، وفي إمكانية تحقيق سلامة وطننا وسعادته. وبرغم الحزن على وفاة السلطان المرحوم، فإنني مقتنع وواثق تماماً من أنكم ستنقذون وطنكم وأمتكم وجيشكم، حتى لا يصير العوبة، وأنكم ستعدلون من الوضع الأليم. وأرجو أن تقبل الذات السلطانية جزيل شكر،وعظيم احترام عبدكم.

مصطفى كمال، قائد الجيش، ١٩ يولية ١٩١٨."

ولنستمع لمصطفى كمال باشا، ومن فمه شخصياً مرة أخرى، وهو يحكي عن موقفه في حضرة السلطان الجديد:

"أدخلني ناجي باشا إلى صالون السلطان الجديد وحيد الدين، بعد فراق بضعة أشهرعن رفيق رحلتي عندما كان ولياً للعهد. وكنت أقول لنفسي في تلك اللحظة، إن هذا الشخص قبل أن يجلس على العرش تحاورت معه حوارات صريحة، وفي أشياء كثيرة، وكان خلال اللقاءات يوافق على كل آرائي ووجهات نظري. تُرى بعد أن أصبح سلطاناً، هل سيأذن لي بالتحاور، والتشاور معه على هذا النحو السابق؟ وهل ستكون هناك لقاءات شبيهة؟ كنت أشك في هذا. وهكذا التقيت مع وحيد الدين، وفي داخلي كل هذه الحيرة.

يجب أن أقول أنه استقبلني بمنتهى اللطف والأدب. واهتم بي اهتماماً أكبر مما حظيت به في فترة ولاية عهده. جلس وأشار علي بالجلوس على المقعد الذي أمامه. وأخذ سيجارة من علبة السجائر التي على المسند الذي بيننا وقدمها لي، وأخذ هو أيضا سيجارة له، ومد إلي يده بالكبريت ليشعل سيجارتي. من هذا الموقف شعرت بأمل كبير. أولاً هنأته بقول مناسب، وبعد ذلك قلت له - موضحاً أنه شغل العرش العثماني في وقت عصيب- ما يلي :

- إنني أفصحت لكم خلال رحلتنا عن كل ما أفكر فيه. فهل تأذن لي هذه المرة أيضا أن أتشاور معك في نفس الموضوع الذي تحدثت فيه معك من قبل؟

قال:

- على الرحب، تفضل!...

إنني انتظرت أن يحين الوقت لأوضح لكم هذه النقطة الأساسية، من واقع خبرتي الطويلة:

ـ يجب أن تتولى بنفسك قيادة "دارعقاب" ولا تعين وكيلاً عنك. وأيضا قوموا بتعيين أنفسكم رئيساً لأركان الجيش! فقبل كل شئ لابد أن تكون أنت صاحب الجيش. ثم تفكر بعد ذلك في القرارات المناسبة التي يمكن تطبيقها.

وبعد عرض اقتراحي هذا على وحيد الدين، أغلق عينيه مثلما فعل عندما رأيته لأول مرة في فترة ولاية العهد. ثم أجاب قائلاً بعد قليل:

ـ هل هناك قادة آخرون يفكرون مثلك؟

قلت:

ـ يوجد!

قال:

ـ سأفكر في الأمر.

وتوقف حديثنا، واستأذنت في الانصراف.

مرت عدة أيام. وأبلغني بعدها ناجي باشا أن السلطان يريد مقابلتي أنا، وعزت باشا.

حضر كلانا عند وحيد الدين. فسرت هذه الدعوة بأن السلطان يرغب في أن يطلعنا نحن الاثنين على مايفكر فيه. وحاولت خلال حديثنا مع السلطان أن أعقب على وجهة نظري، ولم أفلح في إخراج الحديث عن نطاق الموضوعات العامة. كان وحيد الدين حذراً جداً، وفي النهاية خرجنا من لقائنا معه بلا نتيجة.

مرت الأيام، ورغبت أن أتشاور مع السلطان مرة أخرى بمفردي. واستقبلني هذه المرة أيضا استقبالاً جيداً. بدأت في الحديث في نفس الموضوع السابق، وأنا أبدو مصراً على وجهة نظري. أجابني وحيد الدين بسرعة قائلاً:

ـ أيها الباشا، أنا قبل كل شيء أهتم بإشباع شعب استانبول. شعب استانبول جائع، وعندما أضمن إشباعهم، أتخذ بعد ذلك التدابير التي تقول عنها.

في نهاية هذه الجملة، أغلق الذات الشاهانية عينيه. شعرت بالأسى الشديد، واقتنعت أنني أمام ثعلب مكار، مثل غيره من النماذج العديدة التي أشاهدها كل يوم . فقد أدركت أن

السلطان يريد أولاً أن يكسب شعب استانبول، وهو يبحث عن نقطة ارتكاز قوية من أجل عمل محاولة شخصية. لكنني مرة أخرى كنت أفكر فيما يلي: هل يمكن تحقيق هذه الرغبة - حتى إن كانت سليمة من وجهة النظر السياسية- بدون إصلاح الوضع بصفة عامة؟".

كان جلياً أن مصطفى كمال باشا لم يكن منشغلاً لا بالحرب العالمية، ولا بالجيش العثماني، في فترة تردي الدولة العثمانية، بل كان هدفه الوحيد هو أن يرأس وحيد الدين الجيش، ليصبح هو رئيس الأركان العامة.

وبرغم فهم السلطان وحيد الدين لما يطمح إليه مصطفى كمال، ومحاولته الاضطلاع بعمل شخصي يحظى بشعبية، استمر في مخاطبته بكل أدب. ولكن الباشا أبدى اعتراضه على السلطان.

وها هو يحكي بلسانه عن رده على وحيد الدين:

"لكن التدابير والمحاولات التي يجب اتخاذها من أجل إشباع شعب إستانبول لا تمنع الذات الشاهانية من اتخاذ التدابير السريعة، والقرارات الصعبة التي يجب اتخاذها من أجل إنقاذ الدولة كلها. فالجهود التي تستهدف سلامة الوطن، تنجح إذا قمنا أولاً بتفعيل هذه الجهود".

وبعد ذلك يقول مصطفى كمال باشا إنه أراد أن يقنع السلطان بوجهة نظره، ولذلك اضطر إلى أن يقول ما يلي:

"- لابد أن يصاحب أول عمل يقوم به سلطان جديد، القوة التي تمكنه من الدفاع عن الدولة والشعب والمصالح جميعها، وعندما لايملك السلطان هذه القوة، لن تكون سلطته سوى سلطة لفظية فقط."

وكان رد السلطان على هذا الكلام الذي يدعوه إلى الاستحواز على كل السلطات، والسيطرة على كل شيء، والعمل جنباً إلى جنب مع مصطفى كمال، رداً غامضاً، ولكنه ذو مغزى كبير.

نخبركم بالرد نقلاً عن مصطفى كمال باشا:

كان رد السلطان هو الجملة التالية:

"-إنني تشاورت مع حضرة طلعت باشا وأنور باشا في الأمور التي يجب عملها!"

الشخص الذي قال هذا الكلام كان وحيد الدين الذي قال منذ بضعة شهور، عندما كان ولياً للعهد، إنه ينفر من طلعت باشا وأنور باشا، والذي وصف أعمال هذين الرجلين بإنها لن تؤدي سوى إلى القضاء على الدولة. والآن يتشاور وحيد الدين، السلطان والخليفة مع هذين الشخصين، ويتخذ معهما التدابير اللازمة لتأمين سلامة الدولة... كان وحيد الدين يريد أن يقول: هل تريد مني ألا أقيم وزناً لمن يعلوك في المسئولية؟

"بعد أن فهمت هذه النية، انتهت مهمتي تجاه وحيد الدين عند هذا الحد. نهضت واستأذنت في الذهاب. فأغلق عينيه ومد يده بالسلام، دون أن ينطق بكلمة واحدة."

وبعد هذا التصوير الذي نقلناه على لسان مصطفى كمال باشا نفسه، دون أن نضع أي تعليق عليه، لنعطي الكلمة مرة أخرى إليه:

"عندما خرجت من الصالون، بدا ناجي باشا كأنما قرأ ما يبدو في عيني من حزن. وابتعدت عنه دون تبادل الحديث معه. وذهبت إلى حجرتي في فندق "بيرا بالاس"، وبدأت أفكر. حسبته حاج فظهر الصليب من تحت عباءته، (كنت أظنه موسى فبدا فرعون). لابد أن أبحث عن حل آخر. مرت عدة أيام . ليس هناك وقت أضيعه في تجنب أحد. يجب أن أثبت وجودي كقائداً للجيش،لذلك كنت أذهب إلى جامع السلطان "حميد" في يلديز لأداء شعائر صلاة الجمعة. وكنت أجلس قبل الصلاة في أحد الصالونات مع أنور باشا نائب القائد الأعلى، وعزت باشا ووهيب باشا، وهم من القادة الكبار الذين اشتركوا في حرب البلقان. وذات يوم حضر ناجي باشا إلى هذا الصالون وقال لي إن السلطان يريد أن يراني في الصالون الخاص به. سألت:

- هل سأكون معه بمفردي؟

- لا! سيكون معك اثنين من الجنرالات الألمان!...

- إنني من فضلك أريد أن أتناقش مع السطان بمفردي بعد أن يخرج هؤلاء الألمان.

- إنني أفهم ذلك، وطلبت منه ذلك عدة مرات. لكنه يرغب في لقائك في وجود هذين الجنرالين.

- إذا أمكن حاول مرة أخرى.

عمل ناجي باشا ما بوسعه حتى إنه قال للسلطان في أذنه: (من المناسب أن تقابله بعد

ذهاب الجنرالات). وعندما قال السلطان، بالعكس إنني أريد مقابلته في وجودهم، فهمت أن السلطان يقصد ذلك.

دخلت على وحيد الدين. ياله من سلطان مهذب ومحترم! كان عند دخولي لايزال واقفاً يلقي خطاباً قصيراً أمام الجنرالات الألمان. هذه المرة كانت عيناه مفتوحتين، وقدمني إليهم بهذه الكلمات: (القائد الذي أقدره، وأثق فيه كثيراً!).

جلسنا وقال: (إنني عينتك قائداً على سوريا. إن الأوضاع هناك خطيرة جداً، ولابد من ذهابكم إلى هناك. وما أطلبه منك هو الحفاظ على هذه الأطراف من الوقوع في يد العدو!... وأتمنى أن تقوم بهذه المهمة التي أكلفك بها بنجاح. ويجب أن تتوجه في الحال إلى هذه المنطقة!)".

ويذهب مصطفى كمال باشا إلى سوريا متصوراً إنه أُبعد عن المركز، وأُرسل إلى منطقة بعيدة، بعد أن اقترب كثيراً من وحيد الدين، ومن السلطنة ونفوذها.

موكب تقليد السيف للسلطان الجديد

بعد مدة قصيرة من صعود السلطان وحيد الدين على العرش، يتقلد السيف في جامع السلطان أيوب، كما جرت العادة، في ٣١ أغسطس ١٩١٨.

لكن مرسم تقليد وحيد الدين السيف أثار الكثير من الجدل... ولأن شيوخ الإسلام كانو هم من يقوم بتقليد بعض السلاطين السيف في الفترة الأخيرة، رفض السلطان وحيد الدين أن يقلده موسى كاظم أفندي السيف. تُرى هل لأنه من الماسونيين أم من الاتحاديين، الواقع السبب مجهول... هذه المهمة التي يؤديها أحفاد مولانا منذ سالف الزمان، هل من المناسب أن يؤديها الأسياد أو الموالي؟ إن چلبي[٥٨] عبد الحليم أفندي قد بلغت به الوقاحة والجهل وعدم التربية، وخدمة أهداف اليهود، حداً جعلته يرسل برقية إلى السلطان العظيم عبد الحميد في زمانه، يقول فيها: "إنك لا تليق بحمل السيف الذي قلدوه إياك أجدادي!". فهذا يعطي الحق لوحيد الدين ألا يأمن جانب هؤلاء الچلبية. وألا يرجح واحداً من الذين يقال لهم "نقيب الأشراف"، مالم تكن صفة "سيد" أو"شريف" لها علاقة بنسل الرسول.

---

(58) چلبي تعني مولى أو سيد. انظر قاموس اللغة العثمانية، الدراري اللامعات في منتخبات اللغات، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٣.

وهكذا تصبح مسألة من يقوم بتقليد السيف قضية. وليبارك الله للشيخ السنوسي الذي أسرع من بنغازي إلى استانبول وكأنها جاء بغواصة، فيقولون: هذا هو أنسب من يقوم بهذه المهمة، ويمنحونه شرف تقليد السيف.

وفي ذلك اليوم يجتمع الأصهار والأمراء في القصر مبكراً، ويركبون يخت (سوغوتلو)، ويذهبون إلى أيوب. ويذهب السلطان أيضا إلى أيوب بالزورق السلطاني الذي يسع عشرين شخصاً، وبجانبه الياور الأكرم عزت باشا، والباش ياور ناجي بك. وتنطلق صفارات السفن بأصوات رقيقة وغليظة تحية للسلطان الجديد الذي يخرج إلى موكب السيف... ويستقبلون السلطان عند رصيف ميناء أيوب، ومن هناك يسير على قدميه إلى قبر حضرة خالد، ويصل إلى مكان بدء المراسم أمام القبر تماماً. وكان موجوداً هناك جميع الذين سبقوهم من القصر ورجال الدولة والحكومة... وفي الخارج ينتظر فرسان (المعية السَنية) في صف، وتصهل الخيول. وأمام القبر يأخذ الشيخ السنوسي السيف الذي يناوله إياه أمين(الخزينة الخاصة)، ويقلده السلطان، أي يضعه في وسط السلطان.

وتنطلق الأدعية والمباركات... ويصدر أمراً في الخارج يقول: "اركبوا الخيول!" وينطلق السلطان في عربة تجرها أربعة خيول ناحية (أدرنة قابيسي)، ناحية الأسوار...

وفي (أدرنه قابيسي) يقدم (رئيس البلدية) . وفق العادة مرة أخرى . مفتاح مدينة استانبول... مدينتنا، إلى السلطان.

من ينظر إلى المشهد، لا يعتقد أن تركيا تمر بأزمة، بل يعتقد إنها سعيدة وآمنة. ويركب الصدر الأعظم طلعت باشا أيضا من أيوب العربة، ويأتي إلى جانب السلطان ويخبره بما يلي:

ـ طائرات الأعداء مرت من (چناق قلعة) وهى في طريقها نحو استانبول... هذا شيء خطير.

يبتسم السلطان وحيد الدين، ويرد عليه قائلاً:

"ـ إنهم أناس متحضرون. لن يهاجموننا أثناء مراسم دينية كهذه!"

ولا يبدي أحد أي مظهر للقلق.

وينزل السلطان من أيوب أمام قبر الفاتح، ويزور قبر جده السلطان محمود في (چامبرلي طاش) ويتجه نحو (ديوان يولي) ذاهباً إلى قصر (طوب قابي).

وفي اليوم التالي لموكب السيف، يقول السلطان ما يلي لباشكاتبه:

"- في أثناء الموكب رأيت استانبول وقد خربت تماماً، وحزنت لذلك كثيراً."

فيرد باشكاتب القصر جواب يليق بنفسية موظفي القصر:

"- إن شاء الله ترون ملككم الذي تخرب معموراً!"

ويضيف الباشكاتب في مذكراته ما يلي، بعد الحديث الذي سجله:

"- لم يقبل الله هذا الدعاء."

يبدو أن السلطان وحيد الدين المسكين كان يشعر أن الدولة التي آلت إليه خربة من الداخل والخارج، ستسقط في غضون عدة أسابيع، ولذلك كان يشعر بالكدر والحزن الشديد...

عهد الاحتضار

جلس وحيد الدين على العرش في منتصف صيف عام ١٩١٨، وفي نهاية ذلك الصيف كانت جيوش دول الوفاق تحتضر.

بعد أن تقلد السلطان الجديد السيف، بدأت الأخبار التي تأتي من الجبهة، لا تخفي حالة الرعب التي سادت ساحات الحرب في ألمانيا والنمسا وتركيا. وبينما كانت الدولة تئن، وكان الشعب يرتعد من جراء هذا الوضع، كان أعضاء الدولة في مجلس الأعيان ثائرين ورافعين راية العصيان ضد نظام الاتحاد والترقي. ويبدأ الدماد فريد باشا، ومحمود باشا الشركسي، وأحمد رضا المشهور- الذي كان اتحادياً ثم صار ضدهم، وهو في كل لحظة له سياسة مختلفة- في الثورة اللفظية ضد الحكومة. وبينما الوضع هكذا قامت الحكومة بوضع مجموعة من رجالها داخل مجلس الأعيان، وأثناء محاولاتها الاستحواذ على الأغلبية لا تستطيع أن تنجو من الضعف. وبلغ بها العبث درجة أنها تقترح أن يصبح أغلبية المرشحين الذين رشحتهم، أعضاءً في مجلس الوزراء. وساءت الأمور أكثر، وصار كل واحد يتربص بالآخر. وعندما لايكون هناك مكان أو حاجة للاستعانة بأحد المفكرين، وعندما تُشل الإرادة لا يبقى هناك سوى حل واحد... وهو انتظار ما ستسفر عنه الأحداث.

أما حكومة الاتحاد والترقي التي لم تستطع عمل أي شئ سوى الصبر، وتنفيذ قرارات وحيد الدين عندما تولى العرش، فقد انفردت بطاقمها الخاص الذين أخذوا يكيلون الاتهامات لبعضهم البعض...

فمثلاً شيخ الإسلام الماسوني موسى كاظم أفندي، كان في كل مرة يجيء إلى القصر يقول لكل من يصادفه:

"-أنا لا أرى أية نتيجة! آه لو استطعنا النجاة بأقل الأضرار."

وفي النهاية يقول له لطفي بك، رئيس موظفي القصر الذي لا يعجبه كلام هذا المرائي:

"-قل هذا الكلام الذي تقوله لنا، في مجلس النواب!".

وفي ذلك الوقت يخرج أنور باشا الذي كان في حضرة السلطان، ويمر أمام حجرة رئيس موظفي القصر.

فيقول شيخ الإسلام، وهو يمد يديه بالسلام تجاه أنور باشا الذي رآه وهو يمر من الباب

المفتوح:

"ـ عندما أتكلم يقول الأولاد إن شيخ الإسلام بدأ في إعطاء فتوى جديدة!. ألا نستطيع أن نقنع الشباب بكلامنا؟".

ولم يفقد السلطان وحيد الدين برغم علمه بالسقوط، وسوء الوضع بصفة عامة، أبداً أسلوبه المهذب، ولم يتخل عن طريقته في تدعيم المباديء التي تدل على الحزم وقوة الشخصية، في كل المناسبات التي تجمع بين القصر والحكومة. بل كانت مبادئه تزداد كل يوم قوة. مثلا في عهد السلطان رشاد كان الوكلاء، مهما كانت رتبتهم ومهما كانت قضاياهم وشئونهم، كانوا يأتون إلى القصر بدون استئذان ويقابلوه. وعندما حاولوا تطبيق نفس هذا الأسلوب مع السلطان وحيد الدين، أذهلهم هذا القرار المفاجيء:

"ـ ماعدا الصدر الأعظم وأنور باشا، فإن من يريد مقابلتي عليه أن يستأذن أولاً، وإلا فلن أقابله."

حتى إنه ذات يوم جاء رفعت بك رئيس مجلس الأعيان إلى القصر، ورفض السلطان مقابلته نظراً لانشغاله، ولأنه لم يستأذن قبلها، بل وأمر بإعفائه من منصبه، لكنه عاد وأبقاه نتيجة ضغط طلعت باشا.

في تلك الأثناء تم إرسال الأمير عبد الرحيم أفندي إلى إمبراطور ألمانيا والنمسا وملك بلغاريا، لإخبارهم رسمياً بجلوس السلطان الجديد على العرش. واصطحبه توفيق باشا الصدر الأعظم السابق إلى المحطة... وبعد أن غادر الصدر الأعظم محطة (سيركاجي) عائداً، يأتي هذا الخبر المفاجيء:

سقطت جبهة بلغاريا. الجيوش البلغارية تنسحب وهى في حالة رعب!

وفجأة انتشرت شائعة عمت أرجاء استانبول، تقول:

ـ إن وزارات الخارجية والداخلية والخدمات والبريد والبرق استقالت! ... وصار الوضع صعباً داخل مجلس الوزراء.

وجاء خبر آخر بعد يوم واحد، يقول:

ـ إن ملك بلغاريا يستقبل الأمير في محطة قطار صوفيا، ويعتذر لعدم عمل مراسم استقبال نظراً للوضع الراهن.

وفي جبهة الوفاق ساد "هرج ومرج"، وانهزمت دول الجبهة دولة بعد دولة.

وتقهقرت الجيوش الألمانية التي كانت متواجدة في الأراضي الفرنسية مهزومة، أما في سوريا، فالجيوش التي تحت قيادة المشير (ليمان) باشا، اندحرت نتيجة هجوم إنجليزي مفاجيء...

وتتوسل ألمانيا والنمسا لأمريكا ويطلبون الصلح، وكان رد دول الحلفاء على هذا: "لا!"

ومسكين وحيد الدين الذي شهد هذا المشهد مبكراً، وقبل أن تتاح له الفرصة ليمتع عينيه بالعرش الذي جلس عليه تواً.

وكانت هذه العبارة هي الجواب الذي تلقته كل من ألمانيا والنمسا من أمريكا التي طلبوا منها التوسط للصلح:

"لم توافق قوات الحلفاء على الصلح مع دول أعلنت الحرب عليها!".

وارتمت روسيا في أحضان الشيوعية...لكن ألمانيا ودول الوفاق لم تستطع الاستفادة من هذا الوضع... لأن الخراب كان في كل جبهة ماعدا أوروبا الشرقية. وعلاوة على ذلك فإن الإشتراكيين في ألمانيا وفي النمسا قد خرّبوا الجيش من الداخل وفككوا نسيجه.

وتجاه هذا الوضع، لابد وأن نتخيل تركيا التي رسمت تابلوه الاضمحلال الشامل، الروحي والأخلاقي، الإداري والسياسي، الإقتصادي والعسكري... فقد فقدت قبضتها الأصيلة على دولة كبيرة، وبينما يسري تيار المغامرة الحزينة لليوتوبيا الجرمانية في الدول خارج ألمانيا، وبينما ينتهي بهم الأمر إلى الهزيمة، وضياع كل شئ، سعت تركيا بكل جهدها حتى تحظى فقط بحق الحياة داخل وطنها. فقد طاروا بتركيا التي تبعتهم كالذيل، متعهدين بإنهم سيوصلونها إلى أعنان السماء. وعندما انفجرت طائرتهم في الجو، واشتعلت فيها النار، لم يبق أي شيء، حتى الذيل نفسه.

وهكذا فقد كان هذا كله نتيجة خيال الاتحاد والترقي المجنون الذي يفوق جنونه اليوتوبيا الجرمانية... وفي الوقت نفسه، كان نتيجة اضطراب وسوء حظ هذا السلطان الذي اعتلى العرش العثماني في تلك الفترة...

فهؤلاء الاتحاديون الذين لم يستطع وحيد الدين الإطاحة بهم منذ اللحظة الأولى، كانوا

متشبعين ومختلطين بالأجواء والرياح الآتية من الخارج.

والآن ما العمل؟ هل يستقيل الجميع، أم يتوارون بعيداً، أم يُسحبوا بعيداً ويتم القضاء عليهم بسبب الذنوب التي لاتُغتفر، أم يهربون ويتركون الوطن الذي احترق، كما يهرب الجميع من المنزل الذي يشب فيه الحريق؟

قبل كل شيء فإن أول عمل يتم هو الاستقالة، آليس من الواجب ان يُطلب منهم تقديم استقالتهم؟

وهنا أجبر السلطان طلعت باشا على الاستقالة، كما طلب ولي العهد الجديد من أنور باشا تقديم استقالته.

وقُبلت الاستقالتين!...

لكن كان هناك طلب أن يضم مجلس الوزراء الذي سيشكل برئاسة توفيق باشا، اثنين من الاتحاديين وخاصة (جاويد بك) وزير المالية. ويعرضون هذا الطلب بهذه الطريقة، كما يقول طلعت باشا بلسانه:

"- إن جاويد بك مطلع وعليم بالمعاملات والتعهدات المالية، وهو يعرف من أين يأتي بالمال وبأي صورة. وإذا أتينا بوزير مالية آخر، فسيضع الدولة في أزمة مالية، نظراً لعدم علمه بتلك الأمور، وهنا ستسوء الأوضاع أكثر."

فقد كانوا يريدون أن يقولوا:

- نحن الذين أغرقنا الدولة، والآن نسحب طرفنا، وأيدينا من الحكومة! لكن إذا لم يبق لنا أي شيء، فليبق في الحكومة بجانبكم (جاويد بك من دونمة سلانيك)، وزير ماليتنا الذي يتمتع بكفاءة غير عادية، وشهرته بلغت أرجاء العالم. ليستمر في منصبه، فهو مثل مرهم لداء الدولة المالي، بدهائه المالي والإقتصادي، فهو يصنع الزُبد من الدخان (يصنع من الفسيخ شربات)...

وبفكر مسيطر كهذا، كان الاتحاديون - الذين كانوا واهمين للغاية وجاهلين للعواقب- يريدون أن يكون هناك شخص يساندهم، ليضعوه كرأس كوبري في الحكومة الجديدة...

وإذا بدا السلطان موافقاً على هذا، فإن توفيق باشا لم يوافق، وظل يدافع عن مبدأ التصفية الشاملة للاتحاديين.

استغرق توفيق باشا أسبوعاً من أجل تشكيل مجلس وزراء جديد، كان يروح ويجيء من القصر ليلاً ونهاراً، وكان من المحظور دخول أحد عليه في الأوقات التي يكون فيها مع السلطان، لدرجة أن ما من أحد في القصر، كان يعرف أي شئ مما يدور.

والباشكاتب علي فؤاد توركجالدي الذي اعتاد أن تكون أسرار القصر كلها تحت يديه، انتابته الحيرة لجهله بما يحدث في أجواء القصر، ولم يجد حيلة سوى الاجتهاد في تفسير الوضع، بتوضيح مزاج وحيد الدين حينئذ:

"ـ كان مزاج السلطان وحيد الدين غريباً، أحياناً كان يقول كل شيء فيما يتعلق بمجلس الوزراء، وما يحدث فيه من تعديل، وأحياناً كان لا يقول أي شيء. ومرات عديدة كان يقول نتيجة العمل قبل العمل نفسه. فعندما لاتتاح الفرصة لوجود ثالث بين اثنين، لا يمكن إدراك ماهية ما يحدث."

أول مجلس وزراء وهدنة موندروس:

اندهش العاملون في القصر لقدرة السلطان على إخفاء السر، وخانهم ذكاؤهم، واحتاروا عندما رأوه فجأة يأمر بتشكيل الوزارة الجديدة، ويقوم بتعيين عزت باشا من نظار البحرية القدامى و"ياوره الأكرم" صدراً أعظم، ليشكل أول حكومة يؤسسها السلطان الجديد، دون فهم ماقاله من مقدمات.

ياللعجب، ماذا حدث لتوفيق باشا؟ لانعرف!...

دعا السلطان في تلك الأثناء إلى انعقاد "مجلس الأمة" بعد التعديلات التي أجرتها السلطنة، وبتعبير باشكاتبه: "كانت هذه أول وأخر مرة" يظهر فيها السلطان في المجلس.

جرت العادة أن يقرأ منشور السلطان في المجلس طلعت باشا، منذ أن كان صدراً أعظم. وهذه المرة أيضا قرأ هو "الخط" وبعد انتهاء القراءة، نزل السلطان وحيد الدين من مكانه، واتجه بكل وقار تجاه المنصة، وصعد إليها، وبشكل يختلف عن الروايات التي سجلناها من قبل عن حال هذا السلطان وشخصيته، فقد قال للنواب: "بصوت جهوري، قوي" دون أن يغمض عينيه، ودون أن يخفض من صوته:

"ـ مثلما أقسم أننى سأحترم أحكام الشرع الشريف، والقانون الأساسي، وسأصدق الوطن والأمة، فإننى أطلب منكم أن تقسموا أنتم أيضا!".

كان ما قاله كالقنبلة!... صار كل شخص كمن تجمد في مكانه للحظة!...هكذا بدا السلطان، وفي لحظة السقوط كمن يبدع موضة أخرى. فبينما تدعوه الأمة إلى القسم بتوخي الصدق، يطلب هو أيضا نفس القسم ممن وضعهم ممثلين للأمة، إنه على حق. فالحقيقة إنه عندما طلب القسم من هؤلاء الذين وضعهم ممثلين للأمة، فهو هنا يحذرهم من ظلم الأمة، أو هدم الحق.

وأُغلقت جلسة المجلس بهذا التابلوه الذي يصور الأيام الأخيرة للاتحاديين، بتصفيق المجلس الحاد. وعُين رئيسا لمجلس الأعيان، أحمد رضا حبيب الاتحاديين، وعدو الأسرة الحاكمة، الحريص على مصلحته والذي تباعد عن الاتحاديين في الأيام الأخيرة عندما رأى أنه لن يستفيد منهم، واقترب من وحيد الدين في فترة ولاية العهد. واستقال طلعت باشا أيضا، ولم يبدِ أي شخص اعتراضه على تعيين أحمد رضا في ذلك المنصب نظراً لانكسار جناح ساعد المجلس.

عندما كُلف عزت باشا بتشكيل الحكومة، استمر الاستعداد عدة أيام بسبب المناقشات التي استغرقت وقت طويل لبحث مسألة شيخ الإسلام، وفي النهاية تم تأسيس مجلس الوزراء.

وضم مجلس الوزراء الجديد الذى عُين فيه عمر خلوصي أفندي الداغستاني في منصب شيخ الإسلام هذه الأسماء الهامة فانتبه إليها، جاويد بك في وزارة المالية، وفتحي بك (عُرف في عهد الجمهورية بـ فتحي أوقيار)(٥٩) في وزارة الداخلية، ورؤوف بك(٦٠) (وهو رؤوف أورباي، بطل البارجة الحميدية) في وزارة البحرية.

هذه المجموعة المؤسسة للحكومة الانتقالية التي دعى السلطان وحيد الدين لتشكيلها بهدف وقف الحرب، وعقد الهدنة، امتثالاً لرغبة حلفائه، هى مجموعة ملطخة، مشوشة، تضم

---

(59) فتحي أوقيار: هو صديق مصطفى كمال في المدرسة، وعينه بعد ذلك سفيراً لسنوات طويلة، ثم رئيساً للوزراء في عهد رئاسته للجمهورية، ثم زعيماً شكلياً للمعارضة. فقد كان رئيساً لحزب المعارضة في وقت أتاتورك. وكان أنور يبغضه لصداقته لمصطفى كمال. انظر الرجل الصنم، مرجع سبق ذكره، ص ٥٨

(60) كان رؤوف بك ضابطاً في البحرية، وعضوا بارزاً في الاتحاد والترقي، ورئيساً للوفد الذي وقع هدنة موندوروس. وهو أحد الضباط المقربين من أتاتورك منذ بداية الحركة الكمالية، وأحد الشخصيات البارزة في هذه الحركة، وكان وزيراً للبحرية في ذلك الوقت لكنه كان ضد أتاتورك في موقفه من السلطنة العثمانية والخلافة. انظر ماجدة مخلوف، الخلافة في خطاب أتاتورك، مرجع سبق ذكره، ص ٥٤.

الإئتلافيين وبقايا الاتحاديين. وكانت هذه الحكومة عبارة عن تمهيد، وتجربة من جانب وحيد الدين، حتى يستطيع بعد الأزمة، لعب دور منقذ الوطن في الداخل والخارج بسهولة.

وأصبح أول عمل لعزت باشا، والمهمة الوحيدة التي اضطر للاضطلاع بها، هو طلب الهدنة من دول الحلفاء. ولهذا أُختير الجنرال (تاونزهند) - الذي كان أسيراً في تركيا- بصفته أنسب شخص يقوم بالوساطة لأنه عاش بين الأتراك، وأُعجب بهم. وأُحيل الأمر إلى قائد الأسطول الإنجليزي في البحر الابيض، وبدأت المفاوضات حول شروط الهدنة.

ورغب السلطان في تعيين الداماد فريد باشا في اللجنة الأولى التي تناقش شروط الهدنة، لكن الصدر الأعظم الجديد أبدى اعتراضه على هذه الرغبة وقال:

"ـ هذا رجل مجنون، كيف نعهد إليه بمثل هذه المهمة الهامة؟"

وكان رد السلطان إنه لا ينكر أن فريد باشا له بعض الأفكار المضحكة، وإنه إنسان بعيد عن الجدية والوقار والإدراك، لكنه إنسان قابل للتوجيه.

"ـ فلنوجهه نحن!"

ويتشاور عزت باشا مع فريد باشا. ويأخذ الأمر بإصدار تعليمات له. وهاهو ماقاله فريد باشا خلال لقائه مع عزت باشا في مجلس الأعيان - ربما بحسن نية- لكن الحقيقة كان شيئاً مضحكاً:

"ـ إذا لم تضمن الهدنة الحفاظ على سلامة أراضي دولتنا، سوف أطلب سفينة حربية على الفور، وأسافر إلى لندن، وأقابل ملك إنجلترا، وأجعلة ينفذ رغباتي عندما أقول له، أنا كنت صديق قديم لوالدك، وأنتظر منك تنفيذ رغباتي."

وأمام هذا الموقف (الدونكيشوتي)، طار عقل عزت باشا من رأسه. واجتمع النواب على الفور، ويرفض النواب الموجودين إرسال إنسان كهذا ممثلاً عن تركيا إلى قوات الحلفاء للمفاوضة بشأن شروط الهدنة.

وكانت النتيجة أن تم تشكيل وفد برئاسة رؤوف بك، ناظر البحرية، للذهاب إلى موندروس التي حُددت كمكان لإجراء المفاوضات بشأن شروط الهدنة.

وموندروس او (مودروس) هى ميناء صغير في جزيرة ليمني.

أملي السلطان وحيد الدين على ممثلي الوفد، إنه يوجد مادتين لابد وأن يكونا هما الأساس

الذي لابد وأن نركز عليه دفاعنا وهما:

١ ـ ضمان المحافظة على حقوق الخلافة الجليلة والسلطنة السنية والأسرة العثمانية...

٢ ـ بالنسبة لبعض الولايات، فأنا أرى أن يكون استقلالها إدارياً داخلياً، وليس سياسياً حتى لايكون استقلالاً هشاً، في قبوله إهانة للعالم الإسلامي.

وفي صباح يوم ٣١ اكتوبر عام ١٩١٨، استدعى السلطان باشكاتبه، وشرح له إنه يشعر بالقلق لأن البرقية الثانية التي أخطره الصدر الأعظم إنها جاءت من الوفد الذي في موندروس، لم تصل إلى القصر، ويقول مايلي:

"يجدر بحضرة الصدر الأعظم ألا يهملنا هكذا! فقد فهم طلعت باشا جيداً أهمية المقام والموقع والشخصية، ولكن متأخراً قليلاً."

من هذه الكلمات يظهر مدى قوة شخصية وحيد الدين، ومدى فهمه لمعايير الشخصية الجيدة، فهو هنا يريد إفهام الصدر الأعظم إنه سيء مثل طلعت باشا، وأنه اضطر لقبوله في الوفد. ثم يضيف السلطان ما يلي:

" سل وزير الخارجية بالتليفون، ما الأسباب التي وراء عدم إرسال البرقية حتى الآن، فإنني أنتظرها منذ ٤٨ ساعة؟".

ثم تُفهم حقيقة الأمر: بسبب عدم حل شفرة البرقية المرسلة، تم التخابر من جديد، ولهذا لم تصل البرقية إلى القصر.

وتستمر مباحثات الهدنة أربعة أيام، ثم يعود أعضاء الوفد إلى استانبول.

في ١٠ نوفمبر١٩١٨، بعد صلاة الجمعة، رأى أعضاء الوفد إنهم إذا ذهبوا إلى القصر لعرض ماتم بشأن مباحثات الهدنة، فإن السلطان لن يستقبلهم، نظراً لوجوده في ذلك الوقت مع أسرته في الحرملك.

ولم يرغب السلطان في مقابلة أعضاء الوفد، بوصفهم الأطراف التي قبلت شروط هدنة تمثل أول وثيقة لسقوط الدولة، ولا هم أيضا استطاعوا أن يواجهوا السلطان...كان هم السلطان وحيد الدين واضطرابه كبيراً وعميقاً، فما حدث كان وبالاً، لم يكن له يداً فيه...

فى ذلك اليوم كان رؤوف بك يجلس في حجرة رئيس موظفي القصر، ويقول ذلك الخبر، كمن يقول بشرى.

- الألمان تركوا لنا المدرعة جوبن[61] (ياووز)!

انظر إلى حالة الروح التي بلغت مرحلة محيرة لدرجة أن شيئاً صغيراً وبلا معنى، يصبح وسيلة تعزية. فالحرب العالمية دخلناها بهذه المدرعة التي شهدت سقوط دولة كانت خالدة على مدى قرون عديدة، سقوطاً مدوياً، ثم بعد ذلك نرى أن وجود هذه المدرعة في أيدينا نعمة!

ومن أثقل شروط هدنة موندورس، تلك المادة التي تقول إنه يمكن لقوات الحلفاء احتلال ماتراه مناسباً من أراضي الوطن التركي لضمان أمنها، وهي مادة تفتح الطريق إلى استانبول والمواقع الهامة، وتجرد الجيش التركي من السلاح، وتضع اليد على وسائل الاتصال والنقل. وهكذا رقدت تركيا مقيدة بالسلاسل على مائدة الصلح أمام جلاديها.

عندما علم وحيد الدين بشروط الهدنة التي وقعت عليه كالصاعقة، وجعلت المسبحة تسقط من يده، استدار إلى الوراء حتى لا يظهر حاله، وظل هكذا لفترة لم ينطق خلالها بكلمة واحدة.

واجتمع طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا، وهم المسئولون الأصليون عن الكارثة، في مصيف أنور باشا. وفي الصباح ركبوا سفينة حربية ألمانية، وتوجهوا عبر البحر الأسود وكوستانجا إلى ألمانيا.

وفي وطن كالأسير المقيد من كل جانب، ووطن مشوه تقطعت أوصاله قطعة قطعة، وكل قطعة صارت بلا رأس ولا روح، كان هناك رأس وحيد شعر بكل أبعاد الكارثة بين وزراء غافلين وحمقى، هو السلطان محمد وحيد الدين السادس الذي سيخرج بعد ذلك وأمام اسمه صفة "خائن الوطن"...

وأمام فرار رجال الاتحاد والترقي كالقتلة، تاركين الوطن الجريح ممدداً على الأرض، أبدى عزت باشا استعداده للقضاء على بقايا الاتحاديين الذين في مجلس وزرائه. فهذه الحكومة المؤقتة انتهت مهمتها بعد الكارثة، والاضطرار لتوقيع هدنة موندروس. فأطاح عزت باشا

---

(61) أطلق رجال الاتحاد والترقي اسم السلطان سليم (ياووز) على الطراد الألماني جوبن الذي استطاع أن يتخلص من مطاردة الأسطول البريطاني له في البحر المتوسط، في بداية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤. انظر، عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص ٥٠٦.

بوزير العدل في هذا المجلس، وبشيخ الإسلام خيري أفندي، ووزير المالية جاويد باشا، وحتى فتحي بك، فهو يدرك أن ما من حيلة لإنقاذ هوية هذا المجلس الباهت كله سوى بالاستغناء عن مجموعة من وزرائه وتحديثه. ويبقى الخوف من رؤية قبوله البقاء في منصبه، تضحية منه.

إن السلطان الذي طلب تغيير لقب أنور باشا "وكيل القائد الأعلى"، بعد صعوده العرش، ورأى أنه يكفيه - بعد أن أصبح القائد العام، وتوليه نظارة الحربية- لقب "رئيس الأركان العامة للجيش"، ظل محتفظاً بشخصيته القوية، وبسيطرته، برغم الشروط التي قيدت يديه وقدميه ولسانه، والتي جاءت في أعقاب أول حكومة انتقالية. عندما رأى هذا السلطان أن مذكرة استقالة حكومة عزت باشا مكتوبة بكيفية يبدو منها أن السلطان هوالذي اضطرها للاستقالة، وهو ما يُعتبر مخالفاً للقانون الأساسي، بلغ وزير الخارجية الذي أحضر ورقة الاستقالة بهذا القرار الحازم:

"إنني أسف، إن إخطاري بالاستقالة بدون الحضور، يُعد مخالفاً لأحكام القانون الأساسي. وبناءً عليه أنا مضطر لقبول استقالة الوزارة. ولأنه لابد من رفض جميع المستندات غير الصحيحة وإعادتها، فإنني أعيد هذا المستند."

وحكومة عزت باشا التي اضطرتها الظروف الداخلية والخارجية للتباعد عن السلطة، وعندما حاولت مقاومة هذا برغم كل شيء، وخاصة بوحي من جاويد بك، تجيئها الضربة من وحيد الدين، وهكذا، ولكونه أسوأ حظاً من أي سلطان عثماني، فعندما اتضح أنه أول سلطان ذو شخصية يلتزم بتجربة المشروطية، يضطره سوء حظه مرة أخرى إلى عدم المقدرة على إبراز هذا المعنى، مع دنو لحظة الانهيار التام للدولة.

بعد يوم من التخلص من حكومة عزت باشا، مكث السلطان متوتراً، مريضاً في جناح أسرته، ولنمعن النظر في الكلام الذي قاله لكاتبه:

"- إن لم يكن في إمكاني أن أخدم بلدي ومملكتي، كنت لا أقبل هذا الحمل الثقيل، وأظل مرتاحاً في چنگل كوي. إنني لم أتول السلطنة ليُكتب على قبري بعد انقضاء عمري كلمة سلطان!".

ثم يضيف بصوت كله إحساس وتأثر.

"- والله إنني أشفق على طلعت باشا!".

ويصبح الصدر الأعظم هذه المرة، توفيق باشا[٦٢]...

في تلك الأثناء عاد مصطفى كمال باشا إلى إستانبول. وتردد أن عزت باشا هو الذي دعاه للحضور... وعندما نزل من القطار في حيدر باشا، رأى في مياه استانبول أكثر من ٦٠ قطعة من السفن الحربية الخاصة بقوات الحلفاء. فركب زورقاً قديماً يعمل بالموتور. ومر على (سيركاجية)، ومن هناك صعد إلى الباب العالي. كان (فتحي بك) وزير الداخلية، عند (عزت باشا)... وتحدث الثلاثة منفردين.

يقولون لمصطفى كمال باشا:

- نحن على وشك الرحيل، فالسلطان كلف توفيق باشا بتأسيس حكومة جديدة.

يدرك مصطفى كمال باشا الوضع، ويرغب في أن يصبح وزيراً للحربية في الحكومة الجديدة. وهذه هي الحكمة من مجيئه إلى استانبول، تاركاً الجبهة التي سقطت.

ولنتعرف بوضوح، من المذكرات التي أملاها لأنور بهنان شابوليو، على أمله هذا.

مرة أخرى مصطفى كمال باشا و...

في كتاب (الانقلاب وتاريخ الصراع القومي) لأنور بهنان شابوليو الذي استمع لمذكرات مصطفى كمال باشا كما قالها، والتي أبدى فيها رغبته فى تولي نظارة الحربية، في رواية سمعها وعلم بها كل رجل في عصره، كتب في (صفحة ٢٧٣، السطر ١٦) ما يلي:

"- كان مصطفى كمال يريد أن يصبح وزيراً للحربية، وتم التباحث بشأن هذه المسألة. وذهب مصطفى كمال باشا في نفس اليوم إلى مجلس المبعوثان. لكن في ذلك اليوم سقطت حكومة عزت باشا، وتم تشكيل حكومة توفيق باشا. ولم يستطع مصطفى كمال دخول مجلس الوزراء. اكتفى مصطفى كمال بهذا، ولم يعد يفكر في أمر هذه الحكومة، أو أن يكون مؤثراً

---

(62) أحمد توفيق باشا: سياسي تركي. ولد في استانبول عام ١٨٤٥م، وعمل بالسلك العسكري حتى وصل إلى رتبة ملازم ثان، ثم انتقل إلى وزارة الخارجية، وعمل في وظائف دبلوماسية في عدد من السفارات العثمانية بالخارج. وعمل سفيراً في لندن عام ١٩١٣. وعُين وزيراً للخارجية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. ثم عين صدراً أعظم "رئيس الوزراء" أربع مرات، أولها في عام ١٩٠٩م لمدة ٢١ يوماً، والثانية في عام ١٩١٨م لمدة شهرين، والثالثة في عام١٩١٩م لمدة شهرين، والرابعة مدتها سنتان بدأت من ١٩٢٠م وانتهت في ١٩٢٢م. وكان أخر صدر أعظم في الدولة العثمانية. توفي عام ١٩٣٦. انظر:

http://en.wikipedia.org/wiki/Ahmed_Tevfik_Pasha بتاريخ ١٨/٢/٢٠١٠

فيها."

كان واضحاً أن مصطفى كمال يريد أن يحظى بمنصب في الحكومة التي تم تشكيلها في عهد وحيد الدين، وأنه كان يرى أن كل آماله تنحصر في هذا، ويكفي هذا التحليل لتوضيح كل شيء:

إن مصطفى كمال كما أخبرنا بفيه، كان يريد من وحيد الدين أن يكون على رأس الجيش، وأن يوليه هو منصب "القائد العام لأركان الحربية"، وبالقطع فإن الشخص الذي يطلب هذا يمكن أن يرغب في أن يكون في وزارة الحربية، أو في الصدارة العظمى في أحد الحكومات التي سيشكلها وحيد الدين.

شكل توفيق باشا حكومة ضمت مجموعة من الرجال غير المعروفين، عدا الفيلسوف رضا توفيق الذي عُين فى نظارة المعارف. فقد كانوا عبارة عن شخصيات مجهولة، لم يُعرف أي شيء عن قوتها ومؤهلاتها، لكن كان معروفاً عنها رداتها... وكان من بينها أيضا شخص من طرف الأقليات...

والوقت الذي صعد فيه هؤلاء الرجال على كرسي السلطة في الحكومة، كان من أسوأ الأوقات... فكما أوردنا آنفاً، كانت الأساطيل الإنجليزية والفرنسية والإيطالية موجودة في مياه استانبول... وكانت معظم هذه السفن ترسوا أمام قصر دولماباغچة، وكانت مدافعها موجهة تجاه القصر، وتجاه نواحي استانبول.

وكان منظر مرور قائد الجيش الفرنسي، الجنرال (فرانشيه دبيريه)[٦٣] من شارع (باي أوغلي) في طريقه إلى السفارة الفرنسية، منظراً مؤلماً للغاية... تُرى هذا الجنرال وهو راكباً

(63) لم يُخفِ بعض القادة البريطانيين والفرنسيين فرحتهم بدخول مقر الخلافة العثمانية، وفي وقتها أظهر اليونانيون من سكان استانبول شماتتهم بهزيمة الأتراك، وتجلى ذلك حين أهدى السكان اليونانيون في العاصمة جوادًا أبيض للقائد الفرنسي الجنرال فرانشيه ديبيريه في عام ١٩١٩، فدخل العاصمة مزهوًا على صهوة جواده، وكان دافعهم إلى هذا أن السلطان محمد الفاتح حين فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م، دخلها راكبًا حصانًا أبيض، وأراد هؤلاء الشامتون أن يكون احتفالهم بدخول القوات البريطانية وحليفاتها على غرار ما حدث من قبل. وفرانشيه ديبيريه (١٨٥٦-١٩٤٢) هو مارشال فرنسي قاد الجيش الخامس الفرنسي في موقعة المارن عام ١٩١٤، وجيش الشرق عام ١٩١٦، وجيش الشمال عام ١٩١٧. وفي يونيو ١٩١٨ تولى القيادة في سلانيك حيث توقف الحلفاء عن الزحف، فهزم الجيوش البلغارية، وقاد جيوش الحلفاء حتى النصر. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٨٠.

حصانه الأبيض، منطلقاً بلا عنان، هل كان يريد أن يقلد السلطان محمد الفاتح، أم هو مولع بتقليد الفاتحين الرومان القدماء... وفي داخل حلقة تضم المصفقين، من اليهود والأرمن والرومان، الذين عرفناهم كمواطنين، ورفقاء في الوطن والبلد، ولانزال حتى الآن ننظر إليهم من هذا المنظور، تبادل الطرفان السلام. وفي بعض الأماكن، كان هذا الجنرال يدوس بأرجل حصانه على الأعلام ذات الهلال والنجمة. لم يكن قائداً عسكرياً ذو وقار وهيبة، بل كان كالممثل الذي يقوم بدور المنقذ، فيُخرِج كفرة أحياء المدينة، على العباد الأتقياء، الشرفاء.

ويرسم أداء هذا الجنرال الفرنسي، سطور انهدام الدولة العثمانية التي سعوا إلى تقويضها من الداخل والخارج على مر العصور، هذا فضلاً عن التأثير الخارجي، عندما أفسحواالطريق للتأثير الداخلي للانطلاق إلى الخارج، كما يرسم في مخيلته سطور انتصار الصليب على الهلال.

فى تلك الأثناء يتساءل السلطان الذي يشاهد من نافذة القصر بعيون دامعة، أوراق الخريف الساقطة، أليس هذا مكانه؟

هذا الجنرال سليل الأمة الفرنسية التي أنقذ جدي السلطان سليمان القانوني، ملكها فرانسوا الأول بإطلاق سراحه بعد توسلات وتضرعات أمه، بينما كانت يداه ترتعدان. فهل جاء الآن وعلى هذا النحو ليدفع الدين الذي على أمته، إلى الأتراك وإلى التاريخ التركي؟

جاءت حكومة توفيق باشا، بعد أول حكومة انتقالية، في وقت انتشرت فيه جميع أنواع الأزمات. جاءت مع فاجعة سقوط الدولة العثمانية، وظهور الكوارث المتخلفة عن بنية داخلية متهالكة. فقد توقفت تماماً السفن والقطارات والترام والأنفاق وجميع وسائل المواصلات نظراً لأزمة الفحم التي ظهرت فجأة في استانبول، وكأن المدينة عادت إلى حياة العصور الوسطى. كان الأهالي يسيرون على أقدامهم في أنحاء استانبول، وطيلة سيرهم يصبون لعناتهم على الاتحاديين، ويقولون:

"- لم يترك الاتحاديين حجراً فوق حجر في البلد، ولم يتركوا لنا حتى الرأس فوق الكتف!..."

وحكومة توفيق باشا عجزت - مع غبار دخان سقوط الدولة- أن تفعل أي شيء، ولم يبد أحد الأفراد التافهين الذين شكلوا أعضاءها، استعداداً لمجرد التفكير في حل.

فهؤلاء الأفراد كانوا بتعبير باشكاتب القصر:

"- كانوا ضعفاء إزاء الوضع الخطير، وعاجزين عن التغلب على المشاكل الخطيرة التي واجهتهم دفعة واحدة..."

يالهم من أفراد!

في هذا الوضع السيء، صارت القضية الأساسية هى مصير مجلس المبعوثان الذي هو مؤسسة تضم الاتحاديين...

هل يستمر هذا المجلس أم يُحل؟

إن حل المجلس - كما تقول إحدى رسائل البحث- في وطن تحت الاحتلال يؤدي إلى قطع العلاقة بين أطراف الوطن الواحد ومركزه، فيسهل وقوع هذه الأطراف في يد الأعداء، وتصبح أطراف الوطن معزولة وبعيدة عن مركز القرار الوطني.

وهناك آراء أخرى مناقضة لتلك الرسالة تقول، إنه لايجوز أن يعمل الاتحادي في المجلس مرة أخرى، ووجوده يعني أن الحكومة غير شرعية ولاتستطيع أن تعوق سياسات المجلس. ولذلك من الأفضل في وقت الكارثة أن تتوحد الأراء، ولا يكون هناك قطب مخالف بين القوى المتحدة، لذلك يُفسخ المجلس. والمادة السابعة من القانون الأساسي تخول للسلطان هذا الحق. والمسألة بسيطة وفقاً لوجود السبب، كما تقول المادة: "لدواعي سياسية"، ويكفي أن يصدر السلطان "خطاً همايونياً".

في ٢١ ديسمبر عام ١٩١٨ علمت حكومة توفيق باشا أن المجلس ينوي إسقاط الحكومة، فأسرع توفيق باشا، وسبق المجلس، مهرولاً إلى القصر حتى يقوم السلطان بحل المجلس.

ويجعل السلطان الصدر الأعظم يقرأ المادة السابعة من القانون الأساسي الموجود دائماً على مكتبه، ويقول له ما يعني أنه موافق:

"- إن هؤلاء (المبعوثين) يريدون أن يُظهروا لمسة وفاء (للاتحاديين) أولياء نعمتهم. وبناءً عليه يمكن فسخ المجلس، دون انتظار قرار إسقاط من جانب هؤلاء".

ويصدر قراره:

- نظراً لدواعي سياسية اقتضت الضرورة حل مجلس المبعوثان. بالنظر إلى الفقرة الخاصة بالمادة السابعة المعدلة في قانوننا الأساسي التي تقول إن من حق السلطان فسخ المجلس إذا

اقتضت الضرورة ذلك، فإنني أقوم بحل المجلس المذكور، بموجب القانون الأساسي اعتباراً من اليوم.

٢١ كانون الاول ١٣٣٤

م . وحيد الدين.

وفي اليوم التالي يقول السلطان وحيد الدين لباشكاتبه، إن طلب الحكومة، حل مجلس المبعوثان الاتحادي، يبدو أنه نتيجة تحريض الحلفاء وتأثيرهم:

". إن تفكير الأجانب ليس مثل تفكيرنا، فعندما يضعون شيئاً في رؤوسهم لا يتخلون عنه أبداً، فإنهم يقولون كيف تتمسكوا بمجلس المبعوثان، وهو المجلس الذي انتخبته الجمعية القاتلة؟".

بعد عدة أيام، كانت من ضمن "الأمور المعروضة" التي جاءت من الباب العالي، لائحة القرار السلطاني، ومضبطة مجلس الوكلاء،وكانت تبرز ذلك المفهوم:

"ـ لابد من تأجيل الانتخابات الجديدة لما بعد الصلح..."

وتطلب دول الحلفاء من السلطان تشكيل ديوان حرب، مهمته التحقيق في جرائم الحرب التي وقعت أثناء رئاسة المدعو الفريق خيرت باشا. وفي ١٩ يناير عام ١٩١٩، يستدعي السلطان رئيس موظفي القصر وباشكاتبه، ليعلمهم بأول أمر مؤلم من دول الحلفاء المنتصرة، فيقول:

". نظراً لقيام الثورة ضد البلشفية في روسيا، فسوف يتم استقدام جنرالاً و٤٠٠ ضابطاً من فرنسا... وسيكون لهم مقر قيادة عامة في استانبول... ويطلبون إخلاء الأجنحة الخاصة بالأميرات والأمراء التي في (أورتاكوي)، ومصيف الأميرة فهيمة، وشقة عثمان فؤاد أفندي في (چيراغان)، ومصيف الأميرة نجية حرم أنور باشا، من أجل إقامة هؤلاء. وقد أرسلوا إنذاراً إلى الصدر الأعظم بخصوص هذا الأمر. ماهو مصير أفراد الأسرة الذين يقيمون في هذه الأماكن منذ زمن طويل؟ هل سيبقون في الشارع؟ إنني أمرت الصدر الأعظم بتخصيص قصر (بايلربايي) لإقامة الفرنسيين بدلاً من الأماكن المطلوب إخلائها."

كان موقف دول الحلفاء الذين بدأوا بإلقاء أفراد الأسرة العثمانية إلى الشارع، يثير الخوف...

فقد تجمد رئيس موظفي القصر، والباشكاتب في أماكنهما من الدهشة. ولم يستطع الباشكاتب تحمل هذا المشهد المؤلم، وبتعبيره يقول- وهو يجهش بالبكاء- إنه من غير المناسب أن نترك "قصر مهيب من مفاخر السلطنة" ليقيم فيه ضباط جيش العدو، ويدفع بالآتي:

"-حاشا لله يا سيدي! إن قصر (بايلربايي) هو قصر مخصوص لمقام السلطنة! فأذن لي ألا تفعل هذا! ولتأمر سيادتك بإعطائهم بدلاً منه قصور(باري وفاليدا باغي وكاغيدخانه)!..."

وبعد هذا الطرح ينخرط الباشكاتب في البكاء...فقد كان هذا بمثابة، كما يقول بتعبيره هو شخصياً:

"إنها علامة من علامات انقراض السلطنة السنية."

وهنا يرد عليه هذا السلطان المحنك الذي نضج في فرن الهموم التي حملها، هذا السلطان الناضج الذي يعلو فوق الصغائر، والذي لم يفقده اضطرابه، أصالته وإحساسه الرقيق:

"- يا عزيزي أي رأس تلك التي تحملها فوق كتفيك؟ نحن في حالة أسر! فإنهم إن طلبوا حتى قصر (دولمة باغچة)، ماذا سنفعل؟ فقد أمرت منحهم أجنحة (إيهلامور وكوكسو وبيكوز)، لكنهم رفضوا!".

ويواصل حديثه قائلاً:

"- قم بلقاء ولي العهد عبد المجيد أفندي(٦٤) واخبره بالوضع! فلابد من إطلاعه على الأمر لأنه يخص الأسرة العثمانية!".

ويرد ولي العهد بقوله:

"- إن مارآه السلطان هو المناسب، لكنني أود أن أعرض رأيي في هذا الأمر. بما أن هيئة الوكلاء، وناظر الخارجية عاجزون عن تسوية هذه المشاكل الصعبة، فإنني أقترح أنكم تتفضلون باستشارة الأعيان، وسائر الأشخاص الذين تثقون في رأيهم."

---

(64) الخليفة عبد المجيد الثاني: ولد عام ١٨٦٨، وهو آخر خليفة عثماني، وآخر ولي عهد. عندما تولى ابن عمه السلطان محمد وحيد الدين العرش، أصبح هو ولياً للعهد، واختير خليفة من قبل المجلس التركي الكبير في عام ١٩٢٢، بعد رفض السلطان محمد وحيد الدين تولي منصب الخليفة بعد إلغاء السلطنة، ورحيله عن استانبول. وبعد إعلان الجمهورية تم نفي عبد المجيد إلى بارس حيث توفي هناك عام ١٩٤٤. انظر علي حسون، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨٦.

وكان رد السلطان وحيد الدين على هذه الكلمات البلهاء غاية في الرقة والذكاء، إذ يقول:

"- ياعزيزي، هل هناك وقت لاجتماع الأعيان والتباحث في الأمر. إنهم يريدون إخلاء هذه الأجنحة قبل يوم الخميس بأي شكل. وإذا لم يتم هذا، سيقومون بإخلائها بأنفسهم، وينتهكون حرماتنا."

ويقول السلطان بعد هذا الرأي (الواقعي) لأقصى درجة، موضحاً عجزالوكلاء:

"- إنني أرى أن هؤلاء الوكلاء غير أكفاء! لكن من يحل محلهم؟ هناك خمسة أو ستة أشخاص يمكن أن يعملوا بجد في الدولة، لكنهم لا يريدونهم أيضا لأنهم اتحاديون!".

برغم كراهية السلطان ونفرته من الاتحاديين، كان يرى أن فيهم من لديه القدرة على العمل والتصدي للأمر، وهذا يُظهر لنا أن السلطان وحيد الدين لم يعرف سوى الحق والحقيقة!...

في تلك الأثناء يأتي خبر يقول، إنه لم تتم الموافقة على الأبنية التي في نواحي الأناضول، أو قصر (بايلربايي)، وإنهم مصرون على الأوامر السابقة، وإن الإنجليز يريدون مصيف الخديوي الذي في (باباك).

وفي اليوم التالي يستدعي السلطان الباشكاتب لمقابلته لتوضيح الأمر، وبينما يوضح إنه يلاحظ عليه آثار بكاء الأمس، يقول هذا الرأي الذي يعد أقيم وأدق رأي في القضية:

"- إنك بالأمس بكيت، فقد كنت متأثراً جداً. في رأيي إنهم بعد أن دخلوا إلى مُلك آل عثمان، فلن يكون هناك فرق في أن يدخلوا إلى نادي على الحدود، أوإلى قصري أنا!".

الواقع إن هذه الكلمات القليلة شاهد كافٍ على أن السلطان محمد وحيد الدين السادس، هو صديق لوطن كبير، يتضح حجمه من قول حضرة عمر بإنه: "الجدي الذى يحيط بساحل دجلة"، وأنه أخذ على عاتقه مسئولية كبيرة بحجم هذا الوطن.

وانهالت البرقيات على القصر الواحدة تلو الأخرى، من كل أنحاء الوطن الذي سقط، وحتى من المسلمين الذين في الخارج. فبينما يطلب مسلمي (أورلا) إنقاذهم من مضايقات المسيحين اليونانيين، تأتي صيحة من البوسنة والهرسك باسم ٣٠٠ ألف فرد يطلبون حماية حقوقهم الملية. وفي ناحية أخرى يقول ٦ آلاف من (فان)، إنهم أُخرجوا من منازلهم في (بوردور)، وتُركوا بلا طعام أو دواء، بعد قطع مرتباتهم منذ ٨ شهور.

وبينما يعرض الباشكاتب هذه البرقيات على السلطان، فجأة تتدحرج الدموع على وجنتي هذا السلطان الوقور، الرصين، وينحني الباشكاتب انحنائتين أمام السلطان الذي يبكي.

وفي ذلك الوقت يخاطب السلطان محمد وحيد الدين باشكاتبه الذي كان يبكي بالأمس بحرقة شديدة، بهذا القول الذي ينم على الاحترام:

"- بالأمس أنت بكيت، واليوم أنا أبكي! ماذا أفعل؟ ما من قوة بشرية أو حتى قوة نبوية تستطيع تحمل هذا! إن هذا يحتاج إلى قوة إلهية!..."

من جاء بعد وحيد الدين، واستطاع أن يحاسب نفسه تلك المحاسبة عن المصائب التي أصابت الناس، واستطاع إبراز هذا المفهوم؟

محاسبة السلطان لنفسه

تستمر هذه الهموم التي لاتتحملها طاقة البشر، بل وتزداد وطأة كل يوم. ويقدم توفيق باشا الصدر الأعظم فجأة استقالته، ويؤسس في أعقاب ذلك مجلس وزراء آخر بتعيينات جديدة. وكانت هذه مجرد خدعة بسيطة، الهدف منها تعيين وزراء جدد والإطاحة بالوزراء القدامى.

بعد يوم من تأسيس مجلس الوزراء الثاني الذي أسسه توفيق باشا، تبدأ الصحف في انتقاد هذا التعديل، وفي مقدمة الصحف الناقدة كانت صحيفة (وطن). كان يرأس هذه الصحيفة أحمد أمين يالمان، وهو أيضا رئيس تحرير صحيفتين تصدران لأطفال الأناضول باسم (حق الطريق والأخوة عاصم وأوز). كان أحمد أمين قد جاء منذ فترة من أمريكا، وبعد مدة وضع قلمه المنحوس تحت تصرف المؤسسة اليهودية، وأسس في الجريدة أول مقر لها، وأخذ يدافع عن استقلال الأكراد والأرمن، ويطالب بوضع تركيا تحت الحماية الأمريكية. وبكلمة واحدة، أراد الاستقلال والابتعاد عن الوحدة.

ويوضح هذا القلم أن التغيير الذي حدث في مجلس الوزراء، تم بإيحاء من شخص اسمه رفيق بك، وهو من المقربين للسلطان. ويقول إنه تم تعيين ثلاثة وزراء في المجلس الجديد مشهورين بفسادهم. ولهذا لم يوافق الصدرالأعظم على تعيينهم، لكن السلطان وافق على ذلك نتيجة لضغط المقربين له.

أحضر السلطان الصحيفة من الحرملك وأطلع عليها الباشكاتب، واستدعى أيضا رئيس موظفي القصر، وقال لهم مايلي عن رئيس التحرير المعهود:

"- ما علاقة هذا الرجل بالدولة من ناحية السياسة والدين؟ فهو يحمل الجنسية الإسبانية، وهو من دونمة سلانيك!"

وهكذا صار هم أحمد أمين يالمان- وهو العدو الكبير، وكاتب هذا الأثر الذي هو عبارة عن إفساد للوطن باسم (وطن)- منذ ذلك اليوم، وحتى اليوم الذي سيدفن فيه في مقبرة اليهود، هو قلع الروح التركية من جذورها، وإفساد وحدة الأتراك، ورد السائرين في طريق المقدسات، والقومية عن مسارهم.

ويضيف السلطان قائلاً:

"- هل أنا أتشاور أبداً في أمور الدولة مع رفيق بك. فإنني أخفي عنكما أنتما الاثنان ما يدور بيني وبين الصدر الأعظم برغم كونكم من أركان القصر... إن مهمتكم تكذيب ما نُشر بصورة مناسبة."

إن السلطان وحيد الدين الذي يحمل على كتفيه في كل لحظة حطام الدولة التي تهدمت، يزداد حمله ويتضاعف همه وحزنه يوماً بعد يوم.

وها هو السلطان يفرغ ما بداخله لكاتبه فيقول له:

"- إن الأجانب لا يؤتمن جانبهم... الله يعلم ما أتحمله ليلاً ونهاراً، وأعلمه أنا أيضا! فقد جعلونا نحل مجلس المبعوثان نتيجة ضغطهم علينا. يعلنون عن أفكارهم صراحة، وبلا إحساس، إنني حاكم دستوري، ولكنهم يعاملونني كأنني حاكماً مطلقاً. ويرجعون إلي مباشرة. وعندما أبحث أي أمر من ناحية دستورية، يواجهوني بقولهم أي دستور هذا، إننا نعرفك أنت فقط، فأنت السلطة الوحيدة التي أمامنا، والتي نرجع إليها، ونحن نعهدك طاهراً ونظيفاً. يعني يريدون أن يقولوا، إنك إن لم تنفذ كلامنا فلن نعترف بوجودك. لابد من تحمل هذه الأحوال من أجل إنقاذ مستقبلنا. ومن ناحية أخرى فإننا عندما نرجع إليهم في شئ لا يستجيبون في الحال، بل يردون بقولهم إن الجنود الموجودين هنا هم المكلفون بالأمر. صحيح إنني أجلس فوق ريش نعام السلطنة، لكن لا أخفي عليك، إنني أجلس فوق رماد الوطن المشتعل! وأرجو ألا يتم الإدلاء بهذه المعلومات إلى أحد من الشعب، أو مناقشة هذا

مع أحد. بالقطع ذات يوم سيكتب التاريخ هذه الحقائق. فإنني أقول لك أنت فقط هذا الكلام، ولا يجب الإفصاح به لأي أحد، وذلك لأنني أثق بك أنت فقط. الواقع إن المرحوم أخي كان عرشه واقعاً تحت ضغط أغلبية القوى الداخلية. لكن أنا أواجه قوة أقوى من تلك القوى بمراحل عديدة، وإذا كنت أنا من بعده لا أستطيع أن أدير أمور الدولة بكل عدل وأمانة وعدم تميز، فوالله ما قبلت هذا الحمل الثقيل طوال عمري. إنني أعرف المسافة التي بين عرش السلطنة، ومغتسل الميت... أنت أيضا رأيت بعينك فقد كان العرش في جانب، وفي الجانب الآخر كان يقبع التابوت أيضا."

هذه الكلمات التي قالها السلطان محمد وحيد الدين السادس- وهى عبارة عن أقسى حساب مؤلم للنفس- تثبت أنه كان إنساناً وحاكماً عظيماً، كان صديقاً للشعب برغم إنه كان أسوأ سلاطين آل عثمان الـ ٣٦ حظاً، بل إنه أسوأ حظاً من البشر جميعاً.

كان واحداً من أعظم الحكام الأتراك، ولكن حُكم عليه أن يبدو أحقرهم.

استانبول تحت الاحتلال

كنت قد قصصت كيف تجول الجنرال الفرنسي (فرانشيه ديبيريه) في شوارع (باي أوغلي) على حصانه الأبيض، وكان يشبه نابليون، ويذكرنا بالسلطان محمد الفاتح، وكأنما يحيي ذكرى القياصرة. فهذه اللوحة كانت أبرز نموذج حي تصور استانبول تحت الاحتلال... لكن حتى أرسم صورة كاملة للاحتلال، وأبدأ البحث والدراسة، رجحت الانتظار حتى أورد محاسبة السلطان وحيد الدين لنفسه... ذلك السلطان المضطرب أشد الاضطراب، والذي ظل داخل دائرة من النار تحيط به، وتقترب أكثر وأكثر، فيتضح مشهد الوطن من الداخل والخارج.

يجب مشاهدة استانبول تحت الاحتلال من خلال نظارة وحيد الدين وهو يحاسب نفسه تلك المحاسبة التي لم يشر إليها أي شخص حتى يومنا هذا، والتي يلزم أن نوضحها للتاريخ، وتصبح هى نفسها تاريخ ... إن محاسبة النفس هذه - التي توضح حال استانبول والوطن وتركيا كلها- إذا كانت تحتاج لنطاق يحيط بها، فهذا النطاق هواستانبول تحت الاحتلال ...

هذه الأزياء الإيطالية والإنجليزية والفرنسية من كل لون وشكل التي انتشرت في شوارع استانبول، هى ملابس أحفاد الجيوش التي جاءت في عهد أبوه السلطان عبد المجيد،

لتقف مع تركيا ضد روسيا، لكنهم في الحقيقة كانوا المؤثر الذي سحب الوطن التركي إلى أحضانهم، فقد بدأت التنظيمات في ذلك الوقت، وهؤلاء الذين دخلوا المنزل كضيوف هم الذين داسوا عليه بعد ذلك...

وصارت العاصمة، مقر السلطنة، مسخرة لليهود والأرمن واليونانيين... وخرج ضابط جسور إلى الشارع مرتدياً زي قديم لديه، منزوع الشارات، ويبدو كملابس مدنية، لمواجهة التحركات، فدفع حياته ثمناً لكرامته... وقام ضابط آخر بنزع جهاز النافورة، وانبطح على الأرض وكأنما يخرج مسدسه، وقام بتوجيه الجهاز إلى الزنوج السنغاليين الذين كانوا يسيرون فوق الكوبري. وفي ميدان (بايزيد) سأل إنجليزي محتل واحداً من المارة كان يرتدي معطفاً على ظهره يخفي زراعيه قائلاً: لماذا لا تسلم على الضباط الإنجليز؟ وعندما ضربه الضابط الإنجليزي بالسوط، سقط المعطف من على ظهره، فظهر أنه محروم من القدرة على السلام بيده اليمنى المبتورة...

وهكذا تسقط استانبول صريعة، ساكنة، بلا حس، ولا حراك كالقبر، بينما تصدح الأغاني اليونانية والتاتارية من داخل الحمامات التي أسسها الروس البيض، والتي أصبحت جرحاً عميقاً في أخلاق استانبول.

طبل وزمر في بيت الميت، كأنها طعنات له ولأهله...

وفي الأحياء التي يسكنها المسلمون، تسمع نحيبهم خلف الأبواب التي أغلقوها على أنفسهم، ومن تحت اللحاف الذي تغطوا به. ومن المنارات التي تطلق الأذان خمس مرات في اليوم، تسمع نحيب المؤذنين وترى دموع المصلين التي جرت أنهاراً. وفى القصر كان هناك أكثر رجل حزين في العالم وفي تركيا وفي استانبول، يشاهد استانبول في هذه الحال، وهو مستند بجبينه الساخن على الزجاج الذي يملؤه بخار الماء، إنه السلطان محمد وحيد الدين السادس... صار يمضي وقته في توديع أفراد من حكومة توفيق باشا الذين قدموا استقالتهم، وتنعدم سلطته على القدامى الذين دخلوا مجدداً إلى الوزارة، ولا يستطيع تغيير الأوضاع المضطربة في المجلس الذي صار ألعوبة في أيدي قوات الاحتلال... لدرجة أن الجنرال المعهود الذي يقلد نابليون، وهو قائد قوات الاحتلال الفرنسي، يستدعي الصدر الأعظم للدولة في السفارة، تلك الدعوة الوقحة التي لم توجه من قبل إلى صدر أعظم، والتي أثارت

غضب جميع الوزراء، وجعلتهم يقولون للصدر الأعظم:

. لا نستجب لهذه الدعوة التي أهانت كرامتك!

لكن الصدر الأعظم يرى أنه من المناسب، من الناحية السياسية أن يذهب للسفارة، وبالفعل يذهب إلى السفارة دون إخبار السلطان، ويبقى في مواجهة هذا الخطاب:

". إذا لم تقم حكومتك بفرض إجراءات مشددة، فستكون حكومتك مجرد وهم!".

وهناك كلمة أخرى قالها بالمناسبة، هذا الجنرال الذي يقلد القياصرة:

". إن الحكومة تتباطأ في تنفيذ أوامرنا. أنا أستطيع أن أجعل طابور الجند الذي معي يدخل قصر (يلديز) وينفذون ما أطلبه، لكنني لا أفعل ذلك احتراماً للسلطان!".

وهكذا استقروا في استانبول، وضربوا الجيش التركي النائم في معسكرات (بيازيد) بالحراب، لحظة وطأة أقدامهم المدينة.

حكومة فريد باشا الأولى:

ولم تصمد حكومة توفيق باشا الناصعة البياض، الطاهرة التي لا تشوبها شائبة، للرياح، ولم يعد لها القدرة على تحمل الوضع الثقيل...

". يجب أن أنسحب، لكن لمن أترك السلطان!" هذا ما قاله الوزير الأعظم وهو في غاية التأثر، فلم يعد أمامه سوى الانسحاب في النهاية... ثم يعيد "المُهر الهمايوني" إلى صاحبه.

كان موقف قوات الاحتلال من حكومة توفيق باشا متشدداً وحقيراً. فعندما جاء الجنرال الإنجليزي (اللنبي)(٦٥) إلى استانبول،هرول وزيري الخارجية والحربية إلى لقائه، فاستقبلهم قائماً على قدمية. وفي نهاية حديث بارد دار بينهم، تجاهلهما وابتعد عنهما، وبناءً على هذا لم يجد وزير الخارجية شيئاً يفعله سوى تقديم استقالته. وكأنما الذنب ذنب الحكومة

---

(65) ولد إدموند هنري اللنبي في عام 1861 في سفولك بإنجلترا. وقضى سنوات عديدة مع القوات البريطانية في إفريقيا. وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى، عمل في البداية قائدًا أعلى لفرقة خيالة، ثم أصبح القائد الأعلى للجيش عام ١٩١٥م. قاد القوات البريطانية في مصر وفلسطين أثناء الحرب العالمية الأولى. استطاع أن يهزم الأتراك في عامي ١٩١٧م و ١٩١٨م بمساعدة لورانس العرب. أدى انتصاره في مجدّو في فلسطين في ١٨ اكتوبر عام ١٩١٨م إلى وضع سوريا وفلسطين تحت السيطرة البريطانية. عمل اللنبي مفوضًا ساميًا بريطانيًا في مصر من1919م إلى ١٩٢٥م. وكان العرب مستائين بسبب رفض بريطانيا وفرنسا منحهم الاستقلال، إضافة إلى وعد الحلفاء لليهود بوطن قومي لهم في فلسطين. توفي 1936م. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص ٢١١.

التركية، وكان هنا كمن لا يشرب الخمر، لأنها تفسد الصوم!

ثم استقال الجميع بعد ذلك... وأصبح فريد باشا المعروف، صدراً أعظم...

ويدعم فريد باشا المقيد بإرادة جيوش الاحتلال، من أول يوم يرتقي فيه مقام الصدارة، الضوابط السياسية التي تهدف إلى معاقبة المسئولين عن الحرب، والمتسببين في الظلم الداخلي.

".تم اتخاذ قرار عاجل بخصوص الجناة الذين جلبوا كراهية العالم..."

وهكذا تصبح الحكومة الجديدة كمجبراتي أمين على النفس، على رأس كيان الدولة التي خرجت كل عظامها من مكانها.

وكان في الحكومة الجديدة أسماءً جديدة قيمة تلفت الانتباه مثل، شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي، ووزير المعارف الكاتب علي كمال بك.

ومصطفى صبرى أفندى الذي ذهب إلى مصر في نهاية حرب الاستقلال، ومات هناك بعد أن عاش حتى وقت قريب كما يقال، عُين في مقام المشيخة- رغم الاعتراضات التي لا أساس لها، من جانب أحمد رضا الثوري الصوري الموجود على رأس تلك الحكومة- وذلك لأنه كان مسلماً عميق الإيمان بلا جدال. فقد عاش صبري أفندي حزيناً في مصر، وانخرط في الجدال الديني، وأرسل مباركتة وتشجيعه إلي لكتابة هذا الأثر.

وكان أول عمل يقوم به فريد باشا، بدلاً من اتخاذ تدابير تؤدي إلى تخفيض الأسعار، فعل العكس وقام بفرض رسم ثقيل يسمى رسم البيع على الواردات مثل، القهوة والأرز والغاز والسكر، وكانت تلك الواردات شحيحة أصلاً.

رفض السلطان ذلك، وحصر هذا الرسم الذي كان مفروضاً على البضائع المستوردة، على بعض الواردات الضرورية فقط مما خفف من وطأته.

وكان خطاب وحيد الدين للوزراء، خلال مراسم إدلاء الحكومة الجديدة بالقسم هو:

".أرجو ألا ينقاد وزرائنا لهوى النفس الخسيسة."

وبعد ذلك كان تصرف فريد باشا يسير في نفس الخط الذي حذر منه السلطان، ونهى عنه، ووصفه بقوله: "هوى النفس الخسيسة"... فقد تم اعتقال عدداً كبيراً من المسئولين في الحكومة القديمة، إرضاءً لدول الحلفاء... ففي يوم واحد جرى اعتقال ٦٦ شخصاً، وتستمر هذه الاعتقالات كل يوم، وطيلة حكومة فريد باشا. وكان أول حكم بالإعدام صدر ضد

القاتل، القائمقام كمال بك، لقيامه بتهجير وقتل الأرمن... وعندما أرسل الحكم إلى السلطان من أجل التصديق عليه، قال وحيد الدين "الرحيم" الذي يحافظ على الأرواح، وهو هنا يشبه أخيه الكبير السلطان عبد الحميد الثاني، في إحساسه الرقيق:

". أصبح حالنا الآن سيئاً للغاية، لكن طالما هذا الحال مستمر ولم ينتهِ بعد... فلابد أن نقطع الطريق أمام هذا السوء... سلوا شيخ الإسلام صبري أفندي بالتليفون، هل رأى هذا القرار؟ فإذا كان قد رآه، سلوه ! هل يمكن التعهد بإصدار فتوى شرعية في الصباح حتى أستطيع توقيع هذا القرار؟".

ولم يرض مصطفى صبري أفندي المؤمن، صاحب العرفان والأخلاق، أن يصدر فتوى تجيز حكم الإعدام هذا، وبعد مناقشات ومباحثات طويلة، يتم التصديق، بفتوى شيخ الإسلام المشروطة، على الحكم. وكانت فتواه، إنه حكم سوف يؤتي بنتائج سيئة، سواء كان سليماً او فاسداً.

وكان تأثر السلطان بهذا الأمر شديداً للغاية، فيقول لشيخ الإسلام هذا الكلام:

". سنين عديدة وأنا أرى أن النفس البشرية قد أصبحت شديدة الإسراف. لا يجب الإفراط في إصدار قرارات الإعدام. فإذا أصبحت سيئات الإنسان تجاه جناب الحق كثيرة جداً، فهذه أشياء بين العبد وربه، إنني جئت بجبين طاهر ولا أبلغ الكمال حتى الحشر، ولا أريد في أيام عمري الأخيرة، أن أرحل ملوثاً بالدماء!".

وهكذا نجد السلطان وشيخ الإسلام الجديد اللذان لايقسو قلبيهما حتى وهما ينزلان العقاب بالمذنبين، منصفين في زمن يشعرون فيه بالحيرة والذهول، تجاه السقوط الذي أوشك عهده على الاكتمال.

ف ١٤ مايو عام ١٩١٩... كان فريد باشا في حضور السلطان... وجاء خبر يقول:

. ينتظر في منزل الصدر الأعظم، ممثل سياسي للإنجليز... ويريد مقابلته بسرعة:

شعر السلطان والصدر الأعظم بالاضطراب والقلق... فينهي فريد باشا لقائه مع السلطان، ويسرع نحو منزله. ثم يرسل السلطان في إثره أحد المقربين منه، ليخبره بما يجري. وفي اليوم التالي، يوم ١٥ مايو، دخل الباشكاتب على السلطان فوجده في حالة إعياء وذهول واستياء... أصدر السلطان للباشكاتب عدة أوامر مقتضبة وموجزة، وظل متجمداً في مكانه،

بلا حراك على غير عادته. ويسأل الباشكاتب نفسه هذا السؤال المحير:

ـ تُرى ماذا حدث؟ هل حدثت واقعة كبيرة! فالسلطان ليس من النوع الذي تصيبه مثل هذه الأشياء بالجمود.

وفي نفس اليوم توضح البرقية التي جاءت إلى مقر باشكاتب القصر من منتشه، كل شيء:

ـ جاء خبر يقول إن دولة أجنبية قامت باحتلال سواحل إحدى محافظات الدولة، ورفعت علمها على أبنية الجمرك. وهذا ما حدث أيضا لإزمير وسواحلها. النجدة!...

عندما يستلم الباشكاتب البرقية، يسرع لمقابلة السلطان، ويرى أن السلطان لا يندهش من تأثير الخبر، ويفهم أنه علم بهذا الوضع ليلة أول أمس، من الخبر الذي جاء به فريد باشا، والذي تسبب فى إعيائه وكدره، وظهوره على تلك الحال السيئة.

وها هو المشهد الذى رآه الباشكاتب الذي أُرسل إلى الباب العالي في الحال:

كان الصدر الأعظم يجلس في حجرة الاستراحة يتناول طعام الغذاء... وأمامه وزير المعارف على كمال... أما الوكلاء فكانوا مجتمعين في حجرة الاجتماع... ويقول على كمال جملة باللغة الفرنسية: (إن الوضع أحرج ما يكون ...)

ويطرح الباشكاتب أسئلته نقلاً عن السلطان:

ـ مَن الدولة التي احتلت سنجق منتشه؟ هل طُلب من اليونانيين أن يقوموا باحتلال إزمير؟

الجواب:

ـ الممثل الإنجليزي قال إن إزمير سوف تُحتل اليوم من جانب اليونانيين، البرقيتان اللتان جاءتا من والي (آيدين) تقول أنه علم بهذا من أميرآلاي الإنجليز. وهكذا يصير الاحتلال، بناءً على قرارات "مؤتمر باريس"، وتستجيب القوات العسكرية اليونانية لتلك القرارات. وتأتى أكوام البرقيات التي تحمل صيحات الاستغاثة من إزمير ونواحيها، ولا تعرف الحكومة ماذا تفعل إزاء هذا الوضع. ويرجحون أن هذا الاحتلال تم بمعرفة الدول الكبرى. وهم كانوا يعتقدون أن الإيطاليين، هم الذين احتلوا سواحل منتشه.

فالحكومة المنهارة، ساقطة الروح لدرجة إنها تتمنى لو أن إحدى الدول الكبرى، أي

إحدى جلاديها، هى التي قامت باحتلال إزمير، وليس اليونانيين، وتجد في ذلك عزاءً لها، لا تبدي سطوة ولا كرامة سوى إفساح مجالاً آخر للتوقيع على عهد السقوط.

اليوم التالي كان الاحتفال بليلة النصف من شعبان... يعنى الليلة المباركة التي تُعرض فيها أعمال الإنسان عن سنة كاملة... ويتم فها طلب المغفرة والبراءة من الذنوب... في تلك الأثناء، كان أكبر وأقيم براءة من الذنب، هى البراءة من ذنب الوطن التركي!...

اجتمع النواب في القصر للتهنئة بليلة النصف من شعبان. وفي أثناء حضورهم كان الموقف غير واضحاً... فلم يأت خبر من والي إزمير... أما البرقية التي جاءت، فكانت من متصرف (مانيسا)، ومكتوب فيها أن أحد جنود خفر الحدود من جانب إزمير يخبرنا أن أصوات السلاح المنطلق، صار يُسمع من المدينة... والآن يخطرنا الوضع الذي لم يتحدد بعد بشكل واضح وصريح، إن إزمير- وفقاً لعدة شواهد خارجية- تعيش أياماً عصيبة...

وهذه الأوضاع تجعل السلطان يشعر بالحزن والجرح لدرجة جعلته يرتعش من شدة تأثره، ويأمر باشكاتبه بالذهاب وراء الذين ذهبوا للاجتماع في منزل الصدر الأعظم، ويقول:

. لابد أن تكون دائما في حالة اتصال مع الحكومة، وإذا عرفت أي خبر، ولو حتى كان ذلك في أية ساعة من ساعات الليل، اخبرني به في الحال على تليفوني الخاص!

والباشكاتب الذي انتظر مباحثات الحكومة حتى منتصف الليل، يعطي هذه المعلومة التي حصل عليها من وزير الداخلية قرب الصباح:

جاء خبر الآن من مدير مكتب البرق في إزمير يقول، إن اليونانيين بعد احتلالهم المدينة، قاموا بعدة تجاوزات، وتعرضت الأسواق للنهب... لكن تم علاج هذه الأمور، كما تم عودة الموظفين الذين تأثروا من هذه الأحوال إلى وظائفهم... ولا خبر من والي إزمير حتى الآن!...

وهكذا تم إخبار السلطان الذي كان مستيقظاً في فراشه، يعتصر مرارة الألم، بالوضع بالتليفون.

لابد أن نتخيل مدى الألم الذي يحمله هذا السلطان المهموم الذي بدلاً من أن يجلس على عرش وزنه وثقله ٦٠ كيلو جراماً، جلس على عرش وطن ثقل همه مليارات الأطنان، حملها كلها على ظهره.

إن إزمير التي كانت في يد (هوميروس) في اليونان القديمة، تم تداولها من يد ليد عبر القرون، واستقرت في النهاية في يد الأتراك، قدمها الإمبرياليون الغربيون هدية لليونانيين. وهذا التصرف يعد تحقيقاً لهدف وهو استكمال سقوط الدولة العثمانية العظيمة، والقضاءعليها نهائياً، وعدم ترك أي مجال يسمح لها بالسيطرة أو الهيمنة.

وهاهي إحدى الصور المفجعة التي ترسم رمزاً هذا الهدف الوضيع، وتجمع جميع معانيه:

قام اليونانيون بإصدار أمراً للعقيد فتحي بك، رئيس إحدى فرق الجيش، بأن يخلع طربوشه من على رأسه، ويلقي به إلى الأرض، ويدهسه تحت قدميه.

المعنى الذي يدل عليه هذا الأمر هو:

ـ ادهس دينك وتركيتك وماضيك ودولتك الشريفة وجميع مقدساتك، تحت قدميك.

وكان جواب العقيد فتحي بك:

ـ أبداً!...

ـ فيجرحون العقيد جرحاً عميقاً. وبعد عدة أيام يلقى العقيد وجه ربه كشهيد.

ما الذي يمكن أن يفكر فيه فريد باشا سوى تقديم استقالته؟ ويقدم بالفعل استقالته، ثم يؤمر بتشكيل مجلس وزراء جديد. وفي المجلس الجديد، يستمر فريد باشا وشيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي في مناصبهم... ويتولى الكاتب على كمال وزارة الداخلية، بدلاًمن نظارة المعارف، ويبقى الآخرون- سواءً منهم القديم أو الجديد، وهى شخصيات باهته- في مناصبهم أيضا. وكان ذلك دليلاً على عدم معرفة ماذا يمكن عمله؟ ومن الذي يليق بالمكان المناسب؟

لكن "الخط الهمايوني" هذه المرة، كان في شكل أمر من السلطان محاطاً باضطرابه وحيرته:

"ـ في هذه الأوقات العصيبة، يستعد دائماً سلاطين وخلفاء هذه الدولة التي استمرت على مدى ٦ قرون ونصف للتضحية بأنفسهم... ويفكرون في كل ما يجيش بصدر شعوبهم... ولما كان أمل الأمة الوحيد هو المحافظة على سلامة أراضي الدولة، وعلى أفراد الشعب، وحقوق الدولة والأمة، فأرجو أن تبذلوا كل ما في وسعكم من أجل تحقيق هدف الأمة المقدس. وإنني أعتمد على الله أن يوفقكم في كل الأحوال، وأستمد القوة الروحية من صاحب

الرسالة."

وهذا الفرمان أو الخط الهمايوني الذي يحمل تاريخ ١٩ مايو عام ١٩١٩ يعني تاريخ اليوم الذي وطأ فيه مصطفى كمال باشا سامسون بقدميه، لم يكن سوى مجرد سوط يطرقع فوق جسد ميت، فالسلطان المسكين قد وجد في تلك الأيام أن إنقاذ الوطن يبدأ من الأناضول، وليس من استانبول.

سأترك هذه النقطة التي هى بحثنا الرئيسي في كتابي هذا، إلى فصل "حركة المقاومة الشعبية أوالملية"، وأعود وأركز تماماً على مصطفى كمال باشا بشكل محايد للغاية حتى نهاية عصر السقوط، من أجل توضيح الحقيقة، وبمعيار الحقيقة:

كنت قد كتبت قبلاً أن مصطفى كمال باشا الذي جاء إلى استانبول في اليوم الذي حاصرت فيه مدافع أسطول قوات الحلفاء القصر، والقباب التاريخية التي في نواحي استانبول، وكان ثابتاً بشكل منطقي وعلمي، إنه لم يكن يفكر سوى في أن يصبح وزيراً للحربية في أول حكومة جاءت بعد حكومة الاتحاديين، أثناء توقيع معاهدة (موندروس)، وذهب إلى الأناضول، ولم يكن في باله أن يصبح زعيم حركة مقاومة شعبية.

حقيقة هذا الوضع الذي قدمنا الأدلة عليه، والذي بدأ يتضح ويتم الكتابه بشأنه، تثبته تلك الجمل من كتاب اسمه (احتلال الأناضول) للكاتب التركي، صباح الدين سالاك، وهو يشتمل على ٤٤٠ صفحة، ومكتوب في الصفحة رقم ١٧٨ ما يلي:

"- قبل حل حكومة طلعت باشا، اقترح مصطفى كمال باشا على السلطان وعلى أحمد عزت باشا، تأسيس حكومة برئاسة أحمد عزت باشا، وتوليته هو منصب وزير الحربية."

هذا الكتاب الجاد الذي كتبه أحد أعضاء حزب الشعب، لايدع لدينا مجالاً للشك حول هذه الرغبة. والكتاب من نفسه يوضح أن مصطفى كمال باشا الذي كان يخطط لدخول مجلس الوزراء، لم يكن يخطط لتنظيم حركة مقاومة شعبية في الأناضول.

إذ يرد عليه عزت باشا بقوله:

"- نرجو من الله اللطيف أن نتحد بعد الصلح..."

مكث مصطفى كمال- الذى أُبعد عن وزارة الحربية بشكل ماكر، وبأسلوب ذي مغزى منذ هذا التاريخ، وبعد حديث قصير مع السلطان لم يخرج منه بأية نتيجة- بلا عمل، أولاً في

منزل أمه في (بشيكطاش) ثم في (عقاراتلر) ثم في منزله في (شيشلي)، لمدة ٦ شهور. وكان يتابع كارثة السقوط كلها وهو في منزله، ولم يبدِ أي دليل أو علامة على أنه يخطط لتنظيم حركة مقاومة شعبية في الأناضول. وإذا كان قد طلب الزواج من ابنة السلطان الجميلة (صبيحة)، فهو لم يتزوجها لأنها كانت تحب الأمير (عمر فاروق أفندي). وظل لا يعمل ولا يفكر في أي شيء سوى ترقب الأحداث في نهاية عهد السقوط حاملاً لقب "الياور الفخري لحضرة السلطان".

ومن هذه النقطة ننطلق إلى فصل "حركة المقاومة الشعبية"، مركز الثقل في كتابي هذا.

"حركة المقاومة الشعبية"

فكرة محمد وحيد الدين السادس

عند بداية حركة المقاومة الشعبية، كنت في عمر ١٤ أو ١٥ تقريباً، وعند إعلان الجمهورية كان عمري ١٩ عاماً، ومن خلال ما قرأته وسمعته وشاهدته وتمعنت فيه طيلة سنوات عديدة، وصلت إلى هذا الحكم: إن من فكرفي إثارة حركة مقاومة شعبية للحصول على الحقوق التركية بعد كارثة الحرب العالمية الأولى، وبعد انهيار الدولة العثمانية، هو السلطان محمد وحيد الدين، وليس مصطفى كمال. فمصطفى كمال ترأس هذه الحركة. يعني هى حركة نفس الرجل الذى أُتهم بخيانة الوطن...

إنني أطرح في كتابي هذا الحكم بكل أمانة، وأجعل منه أساس بحثي، وأخذ على عاتقي إثبات أدق التفصيلات.

في بداية الهدنة تجمع في استانبول القادة الشبان أمثال، كاظم قرة بكير وعلى فؤاد وجعفر طيار ورأفت بيلين. وعندما تم استدعاء هيئة القيادة العليا لوحدات جيش السلطنة التي تم تسريحها، إلى الاجتماع عند القائد الأعلى في مقر القيادة، لفت هذا الوضع الخطير انتباه كاظم قره بكير:

يقول المرحوم كاظم قره بكير في إحدى كتاباته:

"ـ في عام ١٩١٨ قمت بإطلاع العقيد عصمت (إينونو) مستشار وزارة الحربية على أفكاري التي تستهدف إنقاذ استقلال الوطن على هذا النحو: إن تجميع قيادات الشباب في استانبول، ومنعي وحرماني من هذا الشرف ـ شرف إنقاذ الوطن ـ إنما هو غفلة كبيرة. أرجوا أن تتيح لي هذا الشرف في الحال!"

ويواصل كاظم قره بكير قائلاً:

"ـ وفي الأول من كانون أول عام ١٩١٨، قمت بزيارة حضرة جواد باشا رئيس الأركان الحربية العامة، وأوضحت له مدى غفلة التجمع في استانبول، ورجوت أن يعيدني إلى الشرق، وأن يعمل على عدم إضعاف الجيش. وقلت أيضا نفس هذه الأراء لعزت باشا الذي كان قد استقال من الصدارة العظمى!".

وبقلم كاظم قره بكير تتضح حقيقة أن وحيد الدين هو أول من أدرك سوء هذا الوضع:

"- كنت قد أُستدعيت لحضور مراسم الاستقبال لدى السلطان في ٦ كانون أول عام ١٩١٨. قال السلطان إنه قبل الحديث والتفاوض بشأن تأمين الصلح، لا يجب إضعاف الجيش، أو إبعاد القادة الشباب عن الاضطلاع بالأعمال الرئيسية. وإلا فلن نكون بعيدين عن وضع الأندلس. وعودة القادة الشباب المجتمعين في استانبول، إلى الشرق، إلى الأناضول على رأس جيوشنا، سيحول دون القضاء على الوطن التركي. وأصبح هذا اللقاء أحد عوامل ضمان بقائي أنا وشباب القادة الآخرين على رأس العمل."

الذي يقرأ هذه السطور القصيرة، ويكون عادلاً في وجهة نظره، يفهم على الفور أن وحيد الدين الذي أحاط بجميع أوجه الضعف والقصور، هو الذي فكر في وسيلة لإنقاذ الوطن.

ويوضح كاظم قره بكير باشا- الذي أصبح مصدراً أميناً وشاملاً- بالسطور التالية غير المغرضة، أن مصطفى كمال باشا كان كل همه أن يتولى نظارة الحربية، ولم يكن يفكر في شيء اسمه الحركة القومية:

"- في ١١ نيسان عام ١٩١٩ قمت بزيارة حضرة اللواء مصطفى كمال باشا حتى أثنيه عن رغبته في دخول الوزارة، وأناقشه في مسألة البقاء في استانبول المشار اليها، وهى أحد أسباب الزيارة. كان يرقد مريضا. قدمني الباشا إلى شخص ثالث كان موجوداً في زيارته اسمه روشان أشرف بك."

وهكذا نربط بين هذه الكتابات وبين النتيجة التي ذكرتها قبلاً:

"- نفهم مما سبق حقيقتين، الحقيقة الأولى، هى أن شباب الجيش التركي المتفرق، والقادة الكبار كانوا مجتمعين في استانبول أثناء الهدنة. ويقترح هؤلاء الموجودون على رأس الدولة- الذين رأوا أن هذا الوضع غير سليم- عودة القادة إلى الخدمة في الأناضول في مهمة جديدة. والحقيقة الثانية، هى أن القادة أصحاب الخدمات الجليلة في حرب الاستقلال قاموا بزيارة مصطفى كمال فرادى، لمناقشته والتفاوض معه... وأن احتلال إزمير، ووقوف المنتسبين للاتحاد والترقي مكتوفي الأيدي، قد سبب غليان الأناضول. وحالة الغليان كانت السبب الأول في تفكير شباب وكبار القادة المحنكين في إقامة تشكيل شعبي جديد. بدأ غليان الشعب التركي بعقد الاجتماعات في استانبول. وبسبب استيلاء القوات اليونانية على

الأناضول، شكّل الشعب فرقاً شعبية، وتسلحوا وصعدوا إلى الجبال. ودعى ممثلي الشعب المحليين إلى عقد مؤتمر (رد الحق) في الغرب، و(مؤتمر أرضروم) في الشرق."

هل أصبح واضحاً الآن أن مصطفى كمال باشا كان من أوائل القادة الذين عادوا إلى استانبول، وتجمعوا هناك تاركين وحداتهم تواجه السقوط؟ وأن أمله الوحيد كان نظارة الحربية، وأن فكرة قيام قادة شباب الجيش بتنظيم المقاومة الشعبية، وعودتهم إلى رأس وحداتهم، جاءت من السلطان؟

هذه حقيقة واضحة تمام الوضوح، وستتضح أكثر خلال اللقاءات التي تمت بين مصطفى كمال والسلطان.

خطة إنقاذ الوطن

كان حال السلطان كأنما انهال فوقه تراب الأناضول، وتراكم حتى دفنه في أعماق الأرض السحيقة، فقد كان مضطرباً أشد الاضطراب، ومثقلاً وكأنه يتنفس من ثقب إبرة... كان هو أكثر من أي فرد آخر، مشغول العقل والروح بهذا السؤال الذي يلح عليه:

ـ ما الوسيلة لإنقاذ العرش العثماني الذي دام لأكثر من ستة قرون؟

وجميع المذكرات التي كُتبت في هذا الخصوص، أوضحت موقفه الذي بدا من الخارج غامضاً، ولم تُظهر المغزى الداخلي، وما كان يرمي إليه بالفعل.

كان السلطان يشعر بالاضطراب والقلق الشديد، وكان يواجه المسائل اليومية والوقائع البسيطة بوجه يبدو طبيعياً، لكنه في الحقيقة كان يشعر بالاختناق وهو يأكل طعامه، وبالغليان بينما يستحم بالماء البارد. وعند النظر إلى القادة الشبان المجتمعين في استانبول، ووجوهم الحزينة على الوطن، وإلى مزاجهم السيء، لا يشعر بداخله بأى إحساس ولو صغير بأمان يمليه عليه موقعه كسلطان. فقلقه على الوطن جعله يخجل من اللقب الذي يحمله، ويعتبر نفسه أسوأ حظاً من أي شحاذ فقير، معدم.

فهل نبرز من هنا هذا الحكم؟

تفضلوا:

"ـ خرج وحيد الدين إلى صلاة الجمعة في جامع يلديز. وكان قد اصطف أمام باب المسجد جميع الوكلاء والياوران (المساعدين). (ربما كان مصطفى كمال باشا هناك أيضا)...

وأمامهم أخذ عازفو الموسيقى الهمايونية الذين يعزفون السلام أماكنهم. وعندما اقترب وحيد الدين من باب المسجد، أخذ عازفو السلام يهللون قائلين:

يا سلطاننا لا تغتر، فإن الله أكبر منك!

فأشار وحيد الدين بكلتا يديه إلى هؤلاء غاضباً، وطلب منهم بأن يكفوا عن التهليل، وصاح قائلاً بصوت مملوء بالألم:

- ماذا بقى لنا لنغتر به؟ فقام الياوران بإسكات العازفين"

هذه السطور التى أخذناها من كتاب اسمه (تاريخ السلاطين العثمانيين)، بالرغم من إنها عبارة عن إشارة إلى زمان الهيبة والعظمة، لكن عندما يوجه القصر هؤلاء العازفين إلى هذا الصياح الذي يشبه قولنا لرجل أوشك على الموت: إن "الشره سيىء"، فهذا يدل على مدى الغفلة والحماقة، وعلى مدى عدم مبالاة كبار رجال الدولة كلهم، وغفلتهم عن أن الله قدر أن يصبح صاحب التاج - الذي بقى وحيداً، منفرداً بالقلق والاضطراب - مجرد تمثال جميل!

ما الحيلة لإنقاذ الوطن والعرش العثماني الذي استمر أكثر من ستة قرون؟

أجاب وحيد الدين على هذا السؤال الذي كان يؤرقه. فقد رأى أن يكون أول شيء يفعله هو إرسال شباب القادة الذين كانوا في استانبول إلى رأس الوحدات. والهدف من هذا هو تجميع أكبر قدر ممكن من وحدات الجيش المسلحة التي بلغ عددها ٤٠٠ ألف تقريباً، لكنها كانت تفتقد الهيبة والسلطة، ثم إصدار الأوامر لها بعد ذلك بدعم أي شكل من أشكال المقاومة الشعبية، وبذلك يعيد الرأس إلى الجسد الذي استؤصلت منه.

العمل الآن هو جمع كل هؤلاء القادة الشبان حول رأس مدبر واحد... هذا الرأس لايجب أن يكون من مؤسسات الدولة الرسمية التي في استانبول. فلا يجب أن يكون رئيس أركان الحربية العامة مثلاً، (وكان حينئذ هو فوزي باشا أو المارشال فوزي چاقمق)، أو أي أحد آخر له مقام معين... فهؤلاء تحت وطأة قوات الاحتلال وإرادتهم خاضعة لها... لكن حتى إذا لزم الأمر الإتيان بشخص من خارج استانبول، فلابد أن يكون غير منتمياً لسلطة الحكومة المركزية التي هى في حالة أسر، ويكون جنرالاً متمرداً، وقائداً ثورياً، يليق بأن يكون بطلاً ثورياً...

فمن يكون هذا البطل؟

يمر في مخيلته مصطفى كمال الذي يحمل لقب: "حضرة الياور الفخري للسلطان"، ذو الزى المهندم، والأداء الحكيم، وشعر أصفر بلون شواشي الذرة، وعين زرقاء بلون السماء، وشارب أصفر، وشفتين رقيقتين كأنهما شُقتا بسكين، مقطب الجبين وكأنه نزل إلى الدنيا مخصوص من أجل هذا العمل. إنه الجنرال الذي عمره ٣٩ عاماً الذي رافقه إلى ألمانيا عندما كان ولياً للعهد، والذي كان دائم المعارضة للمارشالات الألمان، ولم تهدأ نفسه أبداً لطمأنتهم...

سأتوقف عند هذا الحد، وأعود إلى المارشال فوزي چاقمق:

ذلك المارشال هو حمو صديقي في الدراسة في فرنسا، المرحوم برهان طوپراق. عن طريقه عرفت إنه كان إنساناً صادقاً، وقد أطلعني على أدق الخفايا...

وسأصرح بنقطة مهمة سمعتها من المارشال شخصياً، عندما كنا نتناقش بشأن مسألة وحيد الدين، حيث قال:

"- طلب مني وحيد الدين قائمة بأسماء القادة الشباب الذين يتميزون بالشجاعة، ويحبون وطنهم لدرجة العشق، والمحترقون بآلام وطنهم، ويستطيعون أن يحملوا على كتفيهم مسئولية إنقاذ الوطن، ويكونوا ذوي عزم وفدائية... فكتبت القائمة، وقدمتها له... وبجانب اسم كل قائد، كتبت ملاحظاتي عن شخصيته. وكان مصطفى كمال على رأس هذه القائمة."

كتب المارشال فوزي چاقمق في القائمة التي أعطاها للسلطان، إن مصطفى كمال باشا يتميز بالكفاءة، وهو إنسان ثوري، ويملك روح المغامرة، لكنه طماع إلى أقصى درجة، وطموح للغاية.

ونستطيع إثبات هذه النقطة في كتاب (احتلال الأناضول) لصباح الدين سالاك، عضو حزب الشعب، والذي تناولناه قبلاً. في صفحة ٤٢ من هذا الكتاب يصدمنا الكاتب بهذا التشخيص لمصطفى كمال باشا، من وجهة نظر وحيد الدين:

"- كنت قد تعرفت على مصطفى كمال باشا في رحلة سفري إلى ألمانيا عندما كنت ولياً للعهد. كان هذا الباشا الشاب في ذلك الوقت يثرثر كثيراً على نحو خطير، وقد شعرت بالخوف منه. وفي النهاية، في الأيام الأخيرة من الحرب، وكان هو قائد الجيش، جاء إلي وطلب مني أن أعيده من الأناضول، وأعين فلان صدراً أعظم، وأعينه هو وزيراً للحربية، فقد كان

طماعاً كبيراً."

وهكذا بعد أن أثبت الكاتب طمع مصطفى كمال باشا، قام ببحث العلاقة بين السلطان وحركة المقاومة الشعبية، وبين مصطفى كمال باشا، فيقول:

"ـ ولأن حركة المقاومة الشعبية لم تكن في يوم من الأيام ضد السلطان، إذاً فالخصومة التي أبداها السلطان، لم تكن موجهة ضد هذه الحركة، بل ضد مصطفى كمال شخصياً. ومثلما كان حسين عوني باشا عدو السلطان عبد العزيز، وكان مدحت باشا عدو السلطان عبد الحميد، كان مصطفى كمال عدو وحيد الدين، لكن مصطفى كمال باشا كان أكثر خطورة من الآخرين. فقد استولى علي جيش السلطان في البداية، ثم على ولايته، وانفصل عنه بعد ذلك. ولابد وأنه كان سيستولى على العرش.

ومع استمرار الكفاح الوطني دون وصول أي أخبار مفرحة، كان هناك صراع أشد يدور بين وحيد الدين ومصطفى كمال، لأن أحدهما كان يريد تصفية الآخر، وكان كلاهما يعرف هذا جيداً. فقد ضاع طرف الحبل من وحيد الدين منذ البداية، وذلك ببقائه في استانبول، وبموقفه من القوة الشعبية، مع إنه كانت هناك فرصة كبيرة في يد وحيد الدين لإنقاذ العرش العثماني، واستعادة استانبول ولو بعد فترة، وذلك إذا كان قد ذهب هو بنفسه إلى الأناضول. فإذا كان استطاع أن يفعل هذا، كان مصطفى كمال باشا سيصبح في النهاية صدراً أعظم للذات الشاهانية."

هدفنا من أخذ هذه السطور، هو توضيح إلى أي مدى تستطيع أراء المؤرخ الخاصة حول أمواتنا، تحريف الحقيقة وطمسها. فالكاتب الذي يثبت رؤية مصطفى كمال باشا تجاه وحيد الدين، وعرضه على نحو مباشر، لا يستطيع أن يتصور أن السلطان بالذات كان لا يستطيع الذهاب إلى الأناضول. فإذا كان قد ذهب إلى الأناضول، كان تم القضاء على حركة المقاومة الشعبية وهى في بدايتها. وسوف نفهم ذلك بعد قليل.

فالعائق الذي وضعوه أمام ولي العهد عبد المجيد أفندي الذي أراد الذهاب إلى الأناضول، والموقف الذي أتخذ ضد الأمير عمر فاروق أفندي الذي ذهب بالفعل إلى هناك فأرجعوه مرة أخرى، هى أدلة واضحة على كيف أصبحت النظرة تجاه القصر، عندما بدأت الحركة الشعبية في الإندلاع.

ولذلك يجب أن نقول هنا أن وحيد الدين ليس هو الذي خرج ضد مصطفى كمال باشا، بل مصطفى كمال باشا هو الذي خرج ضد وحيد الدين...

وسوف أروي حكايتي من أجل توضيح هذه النقطة في المستقبل، وتوضيح أن وحيد الدين هو صاحب فكرة حركة المقاومة الشعبية المباشر:

يستدعي وحيد الدين مصطفى كمال باشا إلى القصر، من أجل إرساله إلى الأناضول في مهمة تحتاج قائداً أوصافه غير عادية، بهدف تأسيس حركة مقاومة شعبية ضده، أي ضد السلطان.

ولنعين أولاً الحكاية على لسان مصطفى كمال باشا، من كتاب أنور بهنان شابوليو، إذ يقول: "جاء ياوري جواد عباس إلى المنزل مرة أخرى، وكان قلقاً وقال:

ـ إن الذات الشاهانية يدعوك على العشاء!

ذهبت إلى قصر يلديز في ١٤ مايو الساعة السابعة والنصف مساءً. أدخلوني حجرة صغيرة جداً. بعد قليل جاء محمد وحيد الدين. نهضت واقفاً. أجلسني بجانبه. كان قريباً جداً مني، كانت الركبة بجانب الركبة. كان على يمين السلطان منضدة يستند عليها بمرفقه، يوجد فوقها كتاب. كانت الحجرة هادئة، ويسودها الصمت. ويُفهم من هذا أن القصر لم تكن به أثر لأي سعادة... كان السلطان يفكر في عاقبته. وكان هذا هو المنظر الذي يبدو من نافذة كبيرة في حجرة تطل على البسفور: اصطفت أساطيل دول الحلفاء موجهة مدافعها تجاه القصر... كان منظراً مرعباً يوحي بالتهديد... وكان لابد أن ترى هذا المنظر، وأنت تجلس بداخل هذه الغرفة...

قال محمد وحيد الدين:

ـ أيها الباشا: إنك حتى هذه اللحظة أديت خدمات كثيرة لدولتنا! بقى أن تُدون كلها في هذا الكتاب.

كان هذا كتاب تاريخ.

ـ لا تنسى هذا! إن الخدمة التي ستقوم بها بعد ذلك ستكون أهم خدمة ستؤديها حتى الآن. فإنك إذا اجتهدت بجد وصدق، تستطيع إنقاذ الدولة من الكارثة التي وقعت فيها. إنني عينت بعض القادة على رأس فرق الأناضول، ومهمتك أنت التفتيش على هؤلاء.

قلت :. سأفعل ما في وسعي، فلتطمئن!

كان أكثر ما يقلق السلطان هو أن قواتنا كانت متفرقة. فقد خرج الجيش من الحرب منهكاً. وكان السلطان يأمل ألا يبدو معارضاً لرغبات الدول المنتصرة. فلابد من منع أي شئ يثير هؤلاء.

نهض وحيد الدين واقفاً وشد على يدي، وقال:

. ليحالفك التوفيق!

غادرت القصر. ومنحني السلطان بعض الهدايا داخل علبة من القطيفة. وفي عتمة الليل ذهبت مع ياوري جواد عباس- مستغرقاً في التفكيرالعميق- إلى سيشلي متجاوزين روابي يلديز."

في هذه الكلمات المروية من مصطفى كمال باشا بنفسه، لا توجد دلالة واضحة على الهدف من استدعائه إلى القصر. فأمر السلطان بأن يكون مسئولاً عن التفتيش على قادة الفرق، وأمره بضرورة عدم وجود أي شئ يخالف رغبة دول الحلفاء مما يؤدي إلى إثارتهم، لا يوضح شيئاً معيناً، بل يثير الغموض، ويعطي انطباعاً بإنه يخفي السبب الحقيقي.

ولأقص أنا حقيقة الأمر، على لسان مصطفى كمال باشا شخصياً، حتى يتضح الأمر. وسوف أبدأ هذا الأمر بإيراد بيانات لها قيمة الوثيقة، أعطاها لي ياور سابق لايزال على قيد الحياة حتى هذه اللحظة.

ما رواه الياور السابق

علي نوري (أوكتاي) هو أحد ياوران السلطان وحيد الدين الذي لا يزال على قيد الحياة، وهو ابن توفيق باشا الصدر الأعظم السابق، وصاحب فندق (بارك) المشهور في (إياس باشا). كان هذا الفندق فيما مضى عبارة عن مبنى قديم أُتخذ كمقراً لوزارة الخارجية، وكان ملكاً لتوفيق باشا في نفس الوقت، ثم احترق بينما كان الباشا يعمل سفيراً في سفارة لندن. وأصبح المبنى القديم عبارة عن قطعة أرض محترقة. ثم أُنشئ مكانه في عهد توفيق باشا، شركة تضم ٧ حجرات، ثم صار اليوم فندق (بارك) الذي يضم ٢١٠ حجرة.

اتصلت بالتليفون بـ علي نوري بك أفندي الذي تجاوز الثمانين من عمره، فلابد أنه يعرف معلومات ثمينة عن السلطان وحيد الدين، فهو كان معاصراً له وذو وضع استثنائي.

كنت أشعر بالقلق على هذا المنبع الأخير، وأخشى أن يكون قد جف برحيله عن دنيانا مع آخرين سبقوه. كان قلقي يشبه قلق المسافر الذي لا يريد أن يفوته أخر قطار. جاءني صوته على التليفون، صوت رجل مسن لهجته أجنبية. بعد أن قدمت له نفسي، واوضحت له سبب رغبتي في مقابلته، رد قائلاً:

- أنا مصاب بنزلة برد من عدة أيام، وأرقد الآن، فإذا كنت لا تخشى على نفسك من أن تُصاب أنت الآخر بنزلة برد، فتفضل لمقابلتي في شقتي في الفندق.

ذهبت إليه في الحال... أنزلوني إلى شقة أسفل فندق (بارك) بدورين. كانت شقة صغيرة مكونة من ثلاث حجرات، ألوانها ونقوشاتها غاية في الخصوصية... طرازها قديم، زُينت جدرانها بصور ورسومات تعود إلى الزمن الماضي... توجد صور لتوفيق باشا، والد نوري بك أفندي، وسعد الله باشا، حماه في إطارات منفصلة جنباً إلى جنب... كما يوجد العديد من الأشياء الأخرى!... على جدران الحجرة الصغيرة الموجودة في القسم الأمامي، ذات البروز على طراز الطنف، يوجد كل أنواع الماضي المدني والعسكري. وتوجد أيضا صورة (فون دير جولتز باشا)، المهداه إلى علي نوري بك أفندي، وعليها إهداء بتوقيعه.

كان يرتدي روباً (دي شامبر) بني اللون. وكان طويل القامة، أبيض الشعر واللحية. وهو إنسان يعطيك انطباع بإنه كان في شبابه أنيقاً ووسيماً. شعرت أن هذا الرجل الأصيل قد ملأ روحي وكياني. فقد وجدت فيه إضافة إلى نمطه الأوروبي، كل المعاني الأصيلة التي أبحث عنها.

بعد السؤال عن الحال والأحوال دخلت بسرعة إلى الموضوع وقلت له:

- إنك ابن رجل كان رئيساً للحكومة في أحد العصور الحرجة في التاريخ العثماني، وهو توفيق باشا! ووالدكم المرحوم، المحترم، كان الصدر الأعظم العثماني الأخير، مثلما كان وحيد الدين السلطان الأخير... وأنت ايضاً كنت ياوراً للسلطان في عهد الهدنة والاحتلال. أنت كنت قريباً من السلطان وحيد الدين، ذلك السلطان الذى وُضع فوق قبره في ديار الغربة، جبلاً ضخماً من الأكاذيب. إنني أطلب من الله أن يمد في عمركم أكثر، فهو وحده ونحن أيضا، نعلم الحكمة من امتداد عمركم حتى الآن. إننى جئت أعرف منك- وأنا مطمئن إلى إنك إنسان تؤمن بالحساب واليوم الآخر- ما تعلمه عن موضوع وحيد الدين،

فتنال رضا الله. وأرجوا منك ألا تُخفى شيئاً من الحقيقة. ولتأذن لي بعد موافقتك، أن أذكر اسمك باعتبارك مصدر المعلومات التي ستقدمها لي، وإذا كنت لا تريد ذلك، فسوف أقدمها إلى الشعب التركي دون ذكر اسمك!

رد علي هذا الرجل ذو الإحساس والذوق الجميل، ذو الوجه الأسمر الذي يبدو كنسمة صيف، قائلاً:

ـ تستطيع أن تفعل ما تريد، تستطيع أن تذكر اسمى كمصدر للمعلومات! إنني شخصياً لا أرى ضرروة لإخفاء شيئاًعلى الشعب، سواء فيما يخص بلدنا او ما يخصني أنا شخصياً.

شعرت بتقدير كبير لهذا الرجل من أول وهلة. واصل الياور السابق كلامه قائلاً:

ـ في عهد السلطان وحيد الدين، كنت رائد ركن، وسلاحي الأصلي كان سلاح الفرسان... دخلت في سلك التدريس في كلية أركان الحربية، وأصبحت من "ياوران حضرة السلطان". ودارت حياتي بين القصر، وكلية أركان الحربية. واشتركت في حرب البلقان، وفي الحرب العالمية الأولى.

كان محدثي يدخل في العمق. سكت برهة، ثم استمر في كلامه:

ـ إنني أعرف السلطان وحيد الدين عن قرب، منذ أن كان أميراً، ولياً للعهد. فوحيد الدين كان حمو أخي حقي بك، (حقي بك شقيق علي نوري بك، كان زوج الأميرة علوية ابنة السلطان وحيد الدين)، ولذلك كنت قريباً جداً منه خاصة في فترة ولاية عهده. ولدي ذكريات عن هذه الفترة. ذات يوم- في فترة ولاية عهد وحيد الدين- جاءت جماعة بينما كنت معه في (كورو چاشمة)، لا أذكر الآن أعضاء هذه الجماعة. كانت هذه الجماعة تريد تشكيل فرقة سلطانية...

استقبل ولي العهد الجماعة. وأوضح هؤلاء القادمون الغرض من زيارتهم. قالوا إنهم يريدون تشكيل فرقة سلطانية، وإنهم جاءوا من أجل ذلك، ويريدون مساعدته ومساندته. شعر وحيد الدين بالحيرة، وأجاب قائلاً: ماذا يعني تشكيل فرقة سلطانية؟ إن تشكيل فرقة كهذه قد يُفهم منه أن هناك ضعف وقد تُحدث أثراً عكسياً؟ إن السلطان هو أبو الأمة كلها، فكيف ينحاز لفئة دون أخرى؟ ألن يكون هناك علم للفرقة؟ إنك تعرف أن السلطان وحيد الدين كان صاحب طبيعة وشخصية جعلته يفهم مدى سوء هذا العرض غير المناسب.

سألته:

. ما حكمكم على ذكائه وشخصيته؟

أجاب قائلاً:

. ذكاء السلطان وحيد الدين لم يبلغ حد الدهاء، لكنه كان يفهم ما يدور حوله بسرعة. كان يحيط بالوقائع ويقيمها، ويفهم معناها الصحيح بسرعة ومهارة.

. ماذا كان موقفه في أيام الاحتلال والهدنة التي كانت تعني سقوط الدولة العثمانية، عند نهاية الحرب العالمية الأولى؟

نهض الياور السابق علي نوري بك أفندي، وذهب إلى الحجرة المجاورة، وأحضر كتاب مذكرات صغيراً، مغلفاً بغلاف جلدي ناعم، ووضعه على الكرسي الوثير، وبعد أن دقق كثيراً في الكتاب، أجاب قائلاً:

. حتى لا تحيرني التواريخ، فقد كتبتها في هذا الكتاب الخاص بي. بعد يوم من احتلال إزمير (أُحتلت إزمير في ١٥ مايو عام ١٩١٩)، يوم الجمعة ١٦ مايو، كان وحيد الدين على رأس الحكومة التي طلبت الهدنة من العدو... بموجب الهدنة كان يتعين عليه أن يسرِح الجيش فوراً. لكن من أجل الدخول في أمور كهذه، كان لابد من ضمان الثقة بأن هناك التزام متبادل بين جميع الأطراف برعاية أحكام الهدنة... لكن هذه النقطة لم تكن موضع ثقة أي طرف... كان السلطان يحترق، وفي قمة اضطرابه وقلقه... وأثناء صلاة الجمعة، الذين رأوا وحيد الدين في ذلك اليوم، كانوا أمام صورة إنسان اضطرابه وكدره فوق العادة.

وعند هذه النقطة، يغير علي نوري بك أفندي مجرى حديثه، فيقول:

. رأت أسرة ملك إنجلترا أن والدي توفيق باشا، يستحق نيشان الأسرة الملكية الإنجليزية. فقد رأوا إنه لا يوجد رجل دولة عثماني آخر سوى والدي، يستحق هذا النيشان. وقام السلطان أيضا بمنح والدي نيشان الأسرة العثمانية. تفضل لأريك هذا النيشان!

أخذني الياور القديم إلى حجرة أخرى كان يوجد بها دولاب. فتحه، ومن داخله أخرج علبة كبيرة على شكل قلب. فتح غطاء العلبة، كان يوجد فيها معدن يأخذ الأبصار... محفور عليه كتابات تخص أسرة ملك إنجلترا، وحاكم إمبراطورية الهند. كان نيشان مهيب، تحيط به سلسلة ضخمة وغليظة... عُدنا الى أماكنا وجلسنا. دخل علي نوري هذه المرة في الموضوع

مباشرة، واستمر في حديثه قائلاً:

بينما كان وحيد الدين قلقاً ومضطرباً في فترة الهدنة، كان يستدعي والدي من حين لآخر، وفي إحدى المرات قال له: "إن الإنجليز يحبونك لدرجة إنهم قاموا بمنحك نيشان الأسرة الملكية...حاول إقناعهم بمعاملة دولة الأتراك بسماح... "كان رد والدي: إن من يوجه السياسة الإنجليزية هو (لويد جورج)، وهو عدو الإسلام وتركيا. فوالدي كان يرى إنه لا فائدة من مراجعة الإنجليز! فحكومة الأسرة المالكة الإنجليزية لاعلاقة لها بالسياسة، وليس من صلاحياتها التدخل فيها! حتى إن قيامنا بمحاولة كهذه قد يكون ضدنا وليس في صالحنا!..."

واصل محدثي كلامه ثم دخل في موضوع آخر، وقال:

ـ إن الأسرة المالكة الإنجليزية قد منحت والدي نيشان الأسرة لأنها رأت إنه يليق به، لكنها منحته له ليملكه في حياته فقط ولا ينتقل لأولاده. وبعد وفاة والدي - في عهد الجمهورية- جاء وفد إنجليزي لحضور الجنازة، واعتقدت إنهم سيستردون النيشان. لكنهم لم يفعلوا. وهكذا ظل النيشان معي. ثم دخل في الموضوع مرة أخرى، وقال:

ـ كان السلطان وحيد الدين منشغلاً جداً بالكفاح الشعبي، وبحركة الإنقاذ الوطنية. بعد بداية الحركة، كان يستدعيني لحضرته مراراً، وكان يأخذ رأيي فيما يتعلق بالأوضاع الداخلية والعسكرية، وكنت قد وضعت خريطة طباعة حجرية كبيرة، أوضح عليها للسلطان الوضع العسكري بأعلام إبر لونها أحمر وأزرق. وكلما أخبرته بأي نصر تحرزه حركة المقاومة الشعبية، كان يتنهد من أعماقه قائلاً (أوه)، وكان يفرح، ويشعر كأنه ولد من جديد. إنني شاهدت هذا بنفسي. إنني أقول، وأؤكد هذه الحقيقة، ولن أمل من تكرارها إلى أن يحين لقاء العبد بربه.

صمت الياور القديم، وبدا عليه التأثر العميق.

إن وظيفتي كمحرر لهذا الكتاب، ليس توجيه هذه الشخصية - التي تُعتبر وثيقة تاريخية كبيرة- إلى قول ما أريده أنا، بل رجحت أن أتركه يسترسل في الكلام على طبيعته حتى أعرف منه التوجهات الحقيقية، وانتظرت حتى يأتي هو بنفسه إلى النقطة الحاسمة الأصلية، دون دعوة مني.

وجاء إلى هذه النقطة!

فجأة، قال الياور القديم هذا الكلام:

- بعد صلاة الجمعة الذي تحدثت عنه، دُعي مصطفى كمال باشا إلى مقابلة حضرة السلطان، وقبل الدعوة. وأقنعه السلطان وحيد الدين بالسفر إلى الأناضول.

فقلت محاولاً التأكد:

- إقناعه؟ هل كان مصطفى كمال باشا في حاجة إلى الإقناع؟

عندما وصلت إلى هذه النقطة الدقيقة، استمر محدثي في الكلام قائلاً:

- سأوضح لك: بعد ساعة أو ساعتين من حضور مصطفى كمال باشا إلى حضرة السلطان، جاء الباش ياور ناجي باشا (هو الجنرال ناجي باشا أل دنيز، المعروف بلقب نازك ناجي باشا الذي انضم إلى حركة المقاومة الشعبية، وظل في القيادة قليلاً، ثم صار عضواً بمجلس الأمة فترة طويلة) إلى حجرة الياوران وصاح قائلاً: "السلطان استطاع إقناع مصطفى كمال باشا. فقد سمعت ما صاح به ناجي باشا كلمة كلمة، وكانت كلمة إقناع هذه قد قالها بالفعل.

- أليس الذهاب إلى الأناضول كان بناءً على رغبة مصطفى كمال باشا نفسه؟

فهم محدثي ما أرمي إليه، ففكر قليلاً ثم رد قائلاً:

- إنني أعرف أن مصطفى كمال باشا رجل عسكري وقائد كبير، لكن ليس عندي كلام أقوله عن مزاياه الأخرى. مصطفى كمال باشا كان في ذلك الوقت لا يرغب في أي شيء عدا أن يدخل الحكومة. وليس لكي يصبح ناظراً للحربية كما يعتقد الكثيرون، بل كان يتطلع لأن يصبح صدراً أعظم. في ربيع عام ١٩١٩ كان الوضع كالآتي: كان هناك رأي يقول بإنه لا يتعين على جيشنا في الشرق أن يلقي سلاحه خشية أن تقوم دول الحلفاء باختراقنا مرة أخرى من المركز. وكان السلطان مقتنعاً بهذا الرأي. أما مصطفى كمال باشا المعروف بإنه قائد كبير وقدير، وإرادته قوية، كان يرى إنه لابد أن تقوم حكومة استانبول بمقاومة قوات الحلفاء، وجعلها ترضخ لطلباتها، ولذلك كان يريد أن يسيطر على الحكومة لتحقيق هذا الهدف. لكن هذا الاعتقاد، وهذا الرأي، لم يكن ذو قيمة سياسية أو عملية. لأنه لا يُنتظر من حكومة مغلوبة، وقّعت هدنة موندروس، أن يكون لديها قدرة أو سلطة على مقاومة العدو المنتصر.

قاطعت كلام علي نوري بك أفندي، وقلت:

- إذا كان الأمر هكذا فإنه لا يُنتظر أيضا من مصطفى كمال باشا- الذي لم يتمكن من دخول مجلس الوزراء لتحقيق ذلك الهدف- أن يكون قد خطط من قبل لحركة المقاومة الشعبية.

استمر محدثي في الكلام دون أن يلتفت لما قلت:

- إن مصطفى كمال باشا قد أُرسل إلى الأناضول. والغرض من إرساله كان لتحقيق ما يلي: إما القضاء على المقاومة التي في الشرق، ونزع سلاح الجيش في الجبهة الشرقية، وهذا يناسب رغبة الإنجليز، أو العكس تماماً، وهو من أجل تشكيل حركة مقاومة شعبية...

- في اعتقادكم، أي الهدفين كان هو الحقيقي؟

أنا ببساطة أسجل الاحتمالات، وأقدم العناصر العائدة على الوقائع، ولتحكم أنت على ما تسمع كما ترغب!... كنت لا أرى طريقاً مؤكداً لعمل تفسير إضافي من جانبي. لكنني تأكدت من نقطة واحدة وهى، إن السلطان هو الذي أقنع مصطفى كمال باشا بالذهاب إلى الأناضول.

وحتى أفسح مجالاً لمعرفة أي الإحتمالين كان هو الواقع، سألت سؤال في صميم القضية:

- فيما يتعلق بهذا الموضوع، هل ما قيل عن أن السلطان منحه نقوداً كثيرة وقال له: "إذا ذهبت أنا إلى الأناضول بوصفي السلطان والخليفة، فإن هذا سيقلق قوات العدو، ويؤدي إلى ضياع الوطن كله، ووقوعه في الأسر. ولذلك أقول لك بوصفك قائداً، أن تذهب أنت إلى الأناضول، وإذا لزم الأمر، قم بعصياني أنا والحكومة، وقم بثورة تضم الأمة كلها" صحيح فعلاً؟

لا أعرف: أعرف فقط أن الحكومة لابد وأن تكون قد منحته مخصصات لزوم إرساله إلى هناك.

وقابلت هذا الرد السياسي من جانبه بقولي:

- غير المخصصات، فهذا شئ طبيعي... لكن هل منحه السلطان نقوداً كثيرة من جيبه الخاص؟ هناك من يقولون إنه منحه ٣٠ ألف ليرة ذهب، وهناك أخرون يقولون ٤٢، ووفقاً لرواية أخرى ٦٠ ألف ليرة...

- لا أعرف! كل ما أعرفه، أن مصطفى كمال أُرسل إلى هذه المهمة من جانب فريد باشا،

بأمر من السلطان!

بما أن السلطان هو الذي أصدر الأمر، ألا يوجد احتمال أن الهدف الرئيسي أخفي عن الحكومة؟ خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن السلطان وحيد الدين كان كتوماً لأقصى درجة، وماهراً في التدبير؟

ـ حسناً!... وحيد الدين كان لا يحب فريد باشا، ولا يعتمد عليه. لدرجة أنه أثناء مباحثات الصلح التي جرت في قصر فرساي في باريس، استدعى السلطان، والدي وأمره بالآتي: "إذهب في إثر فريد باشا وراقبه!..."

وعند هذه النقطة، ترك محدثي الخط الأساسي للقضية، واستغرق في أمور تعود إلى مؤتمر الصلح، وهي أمور لها أهمية تاريخية كبيرة، ثم عاد مرة أخرى إلى الكلام عن طبيعة وحيد الدين المحبة للوطن والمرتبطة به. وبدلاً من تكرار هذا، سأورد الحوار الذي دار بين مصطفى كمال باشا ووحيد الدين، وهو الحدث الرئيسي في قضيتي وبحثي. وبعد أن نستمع لهذا الحوار من مصطفي كمال باشا، سأعرضه من وجهة نظري، ومن خلال الوثائق...

مكان ميلاد الحدث الرئيسي

إن وحيد الدين هو صاحب فكرة حركة المقاومة الشعبية، وهو الذي أرسل مصطفى كمال باشا إلى الأناضول لتحقيق هذا الهدف... وكان مكان ميلاد هذا الحدث، قصر يلديز، في حجرة صغيرة تطل علي البحر.

التقى السلطان بمصطفى كمال في هذا الصالون الذي التقى به فيه من قبل مرة أو مرتين، وكانت هذه المرة هي أخر مرة يرى فيها السلطان مصطفى كمال.

والآن لنعد المسرح لاستقبال نتيجة المحاسبة، وكل شيء كان بمثابة وثيقة، وهو ما سأورده بعد قليل:

عُين مصطفى كمال باشا مفتشاً على وحدات الجيش التاسع، وفقاً للهدف الذي تقرر خلال لقائه مع السلطان من قبل، ومن أجل الذهاب إلى المنطقة المنتشر فيها هذه الوحدات، جهز نفسه للتحرك إلى سامسون بسرعة. وكان هذا هو سبب وجوده في قصر السلطان.

وكانت حجة تعيينه في هذه المهمة الجديدة، هو وجود صدام بين الروم والأتراك في سامسون وحواليها مما أدى إلى اضطراب الأوضاع هناك... فيوضحون للإنجليز الذين كانوا

يريدون القضاء على هذا الاضطراب بسرعة، أن مصطفى كمال يستطيع القيام بهذه المهمة نظراً للمزايا التي يملكها بجانب صلاحياته العسكرية على النحو التالي:

ـ إن هذا الشخص هو الجنرال الذي سيقضي على تمرد الجيش في الشرق، ويعيد النظام والأمن والاستقرار للمنطقة، ويقضي على الاضطرابات.

هذه اللعبة التي لُعبت بهدف خداع الإنجليز، لعبها وحيد الدين بنفس الشكل على حكومته، أي إنه أفهم حكومته نفس هذا المفهوم.

وفي الصفحة رقم ١٩٠ من الكتاب المسمي بـ(أناضولي احتلالي) أي احتلال الأناضول، سنرى تلك السطور التي نوردها، وهي توضح أن السلطان هو الذي قام بتعيينه مباشرة لهذه المهمة:

"قال راجي عزمي يايان بك الذي غادر الدولة حتى لا يدخل ضمن قائمة المائة وخمسين التركية، تعقيباً على هروب وحيد الدين: إن السلطان السابق قال له ذات يوم في سان ريمو:(إنني أخطرتكم أن تعتبروا مصطفى كمال باشا، اللواء أركان حرب من ياوراني، عندما أخبرتكم إنه سيُرسل كمفتشاً على سامسون!)".

يُفهم بوضوح من هذه الشهادة- التي اتضحت نتيجة التدقيق في كلمة خصم لوحيد الدين- أن من عين مصطفى كمال باشا في المهمة الجديدة، ليس وزير الحربية أو الصدر الأعظم. بل السلطان الذي أخفى حتى عن الحكومة، الغرض من هذا التعيين. وما تردد حول أن السلطان وحيد الدين وافق على هذا التعيين مضطراً، كان كلاماً ملفقاً لا أساس له من الصحة.

في نفس الكتاب في نهاية صفحة ١٨٩، وبداية صفحة ١٩٠، يقول الكاتب وهويتحدث عن لقاء السلطان ومصطفى كمال باشا:

"ـ اجتمع السلطان وحيد الدين بمصطفى كمال باشا، ولم يعد هناك شك إنه سيوكل اليه أمر هذه المهمة الهامة. فبعد اقتناعه بذكائه عندما تعرف عليه في فترة ولاية عهده وتعيينه ياوراً فخرياً له، لم يعد هناك سبب يشككنا في ارتباطه به. فكلاهما كان يكره أنور باشا، فلابد أن شعورهما بنفس الإحساس تجاه شخص واحد قد قربهما من بعض أكثر. كما أن وحيد الدين يعرف طبيعة ومزاج مصطفى كمال باشا، وأنه يستطيع القيام بالمهام الكبيرة، ومحتمل إنه كان

يشعر في نفسه أن النتيجة التي سيتم تحقيقها ستكون مفيدة للطرفين."

لكن وجهة النظر هذه- التي نستطيع أن نصفها بكلمة "اعتراف"- تُظهر بعد التحليل عنصر الحقيقة الذي يوضح أن أمر التعيين جاء من السلطان:

"وهكذا تجدون في التعليق أهم سبب، وهو صدور قرار سلطاني، بسرعة وبدون تردد ولو صغير، خاص بتعيين مصطفى كمال باشا في ٣٠ ابريل. إذ كتبت وزارة الحربية إلى الصدر الأعظم بشأن رغبة السلطان في تعيين الباشا، وفي نفس اليوم أُخذ قرار السلطان."

هل يبقى هناك شك في أن وحيد الدين هو نفسه الذي أمر بتعيين مصطفى كمال باشا، وأخفى الغرض من هذا التعيين في نفسه؟ وأنه هو الذي أظهر لحكومته رسمياً، ولقوات الحلفاء أن هذا التعيين إنما هو من أجل تحقيق الأمن في سامسون ونواحيها وإخضاع جيش الشرق لشروط الهدنة...

ونأتي هنا لأهم وأدق نقطة.

تُرى هل أبدى السلطان أو الحكومة سبباً مقبولاً في أثناء هذا التعيين جعلت مصطفى كمال "يقتنع" مثلما أفاد الياور السابق علي نوري بك؟ وإذا كان مصطفى كمال قد قبل التعيين فما الداعي لكلمة " إقناع"؟ لكن إذا كان لم يوافق، فيضطر هنا أن يفكر أكثر في أمر هذا التعيين، ويكون بحاجة إلى الإقناع؟

وإذا كانت حركة مثل إثارة المقاومة الشعبية هى خطته ودعوته، فهل كان هناك لزوم أن يكون هناك إقناع له من جانب السلطان؟

وهكذا لم يعد هناك شك بعدما أخبرنا به الياور السابق بكل صدق ووفاء، ووفقاً لشاهد شخصي مثل ناجي باشا الذي كسب ثقة كمال باشا حيث يقول: إن السلطان قد "أقنع" مصطفى كمال في أخر دقيقة من اللقاء الذي جرى بينه وبين ياوره الفخري، وإن السلطان نجح في ذلك.

وهنا لايسعنا إلا أن نقول، إن مصطفى كمال وافق بعد تردد على المهمة الجديدة التي أوكلها إليه السلطان في أخر لقاء له معه.

فقد استقبل وحيد الدين الباشا مصطفى كمال في الصالون الصغير واقفاً على قدميه أولاً، ثم أشار إليه بالجلوس، وجلس بجانبه لدرجة تلامس ركبتيهما.

ومن ناحية بحثنا، فإننا نخرج من هذا اللقاء الأخير بهذه النتيجة:

يُطلع وحيد الدين، مصطفى كمال باشا من النافذة على أسطول العدو ويقول له كما أوضحت بعض المصادر:

ـ أيها الباشا، هل ترى مدافع العدو التي صوبت ماسوراتها تجاه القصر؟ إن هذا الوضع قد قضى على أمن القصر والدولة كلها!

وفي نفس الوقت يقدم وحيد الدين القهوة التي أحضروها بيده إلى مصطفى كمال باشا، ومرة أخرى يقدم له السيجارة بيده، ثم يستمر في كلامه قائلاً:

ـ إننا هكذا نجلس بجانب بعضنا البعض، ويكون مناسباً أكثر أن نتحدث همساً. فلا أحد يدري كم أُذن وراء جدران هذا القصر، تُصغي لما نقوله؟

وهكذا يبقى مصطفى كمال باشا - الذي يشعر من هذا الأسلوب بأن هناك شيئ غير عادي- أمام حوار يمثل لحظة ميلاد حركة المقاومة الشعبية، ويشكل حدثاً بحجم وطن سيدخل في زمة التاريخ، إذ يقول له السلطان:

ـ أيها الباشا! من أجل إنقاذ تركيا لا يمكن انتظار أي حركة تخرج من استانبول. إن استانبول، قلب الوطن، واقعة في قبضة العدو. لايمكن إنقاذ أي جزء من جسد الوطن بالإضافة إليها (أي استانبول) سوى العضو الذي يحيط بالقلب. إن ما بقي في اليد بعد استئصال جميع الأجزاء التي كانت تربط أطراف الدولة بالقلب هو الوطن الأم، التعس المظلوم! يعني الأناضول!.. لابد من الذهاب إلى الأناضول، وهناك اشعل مقاومة شعبية!

نستطيع أن نقول هنا أن هذا الكلام المهم كان بمثابة مفاجأة لمصطفى كمال. لكن يمكن أن يُقال لنا ما يلي:

ـ قل يا هذا من أين تأتي بهذا الكلام الذي يعطي إيحاءً بإنه من وحي الخيال كحوارات المسرح؟ ومن أجل بيان الحقيقة العلمية والتاريخية، بشهادة من تستطيع أن تثبت هذا الحوار الذي يجب استناده على وثيقة؟

هذا هو جوابي:

ـ أولاً اصغ إلي! ثم بعد ذلك اطلب الإثبات! وبينما أرسم لوحة وحيد الدين ومصطفى كمال باشا، ابق أنت بعيداً عن إطلاق أحكام مسبقة! ولا تنحاز لا لهذا الطرف أو لذاك، ولا

تتأثر بشيء، واحكم بموجب النتيجة! توجد في الرياضيات قاعدة: إما أن يكون عندك الحكم والنتيجة مسبقاً، وأنت تقول كيف وصلت إلى هذا، أو يحدث الإثبات أولاً، ثم تأتي النتيجة بعد ذلك. وأنا أفضل قاعدة تقديم الحكم في البداية، ثم أثبته بعد ذلك.

هكذا!

يقول السلطان لمصطفى كمال باشا:

- إنني أرسلك إلى الأناضول من أجل إشعال حركة مقاومة شعبية! وهذا يختلف عن سبب ذهابكم المعروف لقوات الأعداء- وخاصة الإنجليز- وللحكومة. إن قوات الاحتلال تعرف ان ذهابك إلى سامسون الهدف منه تحقيق الأمن هناك، والقضاء على مقاومة الجيش الذي في الشرق. أما السبب الحقيقي لذهابك فلن يعرفه أحد سوانا، أنت وأنا فقط. ويبدأ يسرد بنفسه تفاصيل المقاومة الشعبية التي لابد وأن تملأ روحها أنحاء الأناضول، فيقول: إن العمل الموكل إليك هو إثارة الحماسة في الروح وإشعال المقاومة، وتوحيد الجيش، وتشكيله في دائرة مركزية واحدة. وقد تم إخبارنا أن اليونانيين قد بدأوا احتلال إزمير. وأنتم تعرفون أيضا المناطق الأخرى المحتلة... لكن هذا الاحتلال الأخير يفتح لك الطريق لمواجهة اليونانيين، وتأكد أن الانفعال الشعبي سيكون وسيلة لإشعال المقاومة. فمن الواجب علينا أمام شروط الهدنة التي أُبتلينا بها، أن نشعل حركة مقاومة تكون موحدة ومركزية. إنني فكرت طويلاً جداً في القائد الذي يمكن أن أئتمنه، وأوكله بهذه المهمة. وفي النهاية وجدتك أنت لأنني أعرف صفاتك! وإنني أصدر الآن قرار تعيينكم في الرتبة التي تناسب وصفك الآن، حتى يُصدق كل طرف ما ذكرته من أسباب.

ويواصل وحيد الدين حديثه بنغمة وأداء مختلف.

- هنا يخطر على بالي سؤال:

"لماذا لا تفكر أنت بصفتك السلطان والخليفة أن تذهب إلى الأناضول، وتثير مقاومة شعبية على أعلى مستوى؟ ولماذا الأناضول بالذات الذي تقترح أن تنطلق منه المقاومة الشعبية؟ الإجابة: "إن محاولة كهذه ستقتل الحركة قبل أن تولد، وتكون سبباً في القضاء علينا. فإذا أعددت لهذه المقاومة سراً، واستطعت إشعال مقاومة فعلية في الأناضول، ستكون مقاومة على أعلى مستوى، ولكنها ستضع أمتي في أزمة، ويكون شيئاً مثل الانتحار. فحينئذ

ستتخلى قوات الحلفاء عن ترددها، وتهجم كلها علينا، لأن الوضع أصبح يستحق ذلك. وتعمل على تصفيتنا جميعاً. وتقوم بسحق الحركة. عندئذ لا يكون أمامنا حلاً آخر. فيتم عرقلة الصلح، وفرض شروط جديدة.

أما مقاومة ذات وزن، وتأتي من الأمة، وليس من مركز الدولة التي تستعد في تلك اللحظة لمؤتمر الصلح، فستؤدي إلى الحفاظ على حقوقنا عندما نجلس على مائدة المفاوضات في المؤتمر، وستشكل هذه الخطة دعماً إضافياً لنا، أمام الخطة التي تستهدف ترويعنا. وهكذا تفهم أوروبا أنها في مواجهة أمة لا تنام، وإذا لزم الأمر فهى مستعدة للتضحية بروحها من أجل الاستقلال. ويؤدى هذا إلى تخفيف الشروط. يعني من أجل إمكانية نجاح المقاومة الشعبية، لابد أن تكون هذه المقاومة خارج استانبول وبعيدة عن الدولة والسلطان، ولابد من المحافظة على شكلها بحيث لا تسبب لعدونا الإحساس بالدهشة والقلق. ويمكن حتى أن نجعل هذه الحركة تبدو وكأنها ضد الحكومة، وضدي أنا أيضا. نعم أيها الباشا، لابد من الذهاب إلى الأناضول، لتحقيق هذا الهدف بذكاء عند قيادتكم الجنود والمدنيين في أدق مهمة، وليوفقكم الله ويكون معكم.

وبعد هذا الكلام الذي قاله السلطان، والذي شكل أساس حركة الإنقاذ الوطني كلها- ذلك السلطان الذي دُفن تاريخه في تراب الوطن الذي تصدع من الاضطراب، وظل هذا الكلام سراً في داخل ذاكرة بعض الأرواح الفانية وطُمس عليه- يقول هذه الكلمة الأخيرة إلى مصطفى كمال باشا الذي اعترف هو نفسه أن السلطان قد قالها له وهى:

"ليوفقك الله! "

تلك كانت أخر كلمة قالها السلطان لمصطفى كمال باشا.

- من أجل أن تنجز هذه المهمة العظيمة، ها أنا أعطيك من نقودي الخاصة (...) قطعة ذهبية. (هذا الرقم لم تُعرف قيمته الحقيقية، فكما قلنا من قبل إنه ٣٠ ألف ليرة وفقاً لإحدى الروايات، و٤٢ ألف وفقاً لرواية أخرى، وتقول رواية ثالثة إنه كان ٦٠ ألف ليرة)... لكن من أجل أن تنجح في مهمتك، يجب أن يكون في يدك اعتماد مالي وصلاحية تمكنك من القيام بها. لذا سيحتاج الأمر إلي إصدار "خطاً همايونياً". بالإضافة لذلك، سأعطيك من جانبي هدية علي سبيل التذكار... (هي عبارة عن ساعة ذهبية حُفر عليها الحروف الأولى من اسم

السلطان)... اذهب وانقذ الوطن! فهل اقتنعتم من حيث المبدأ، بما يجب أن يواكب تلك المهمة من أجل أن تتحقق؟

ويتم "إقناع" مصطفى كمال باشا على حد كلام الياور السابق، ويدخل ناجي باشا، كبير الياوران إلى حجرة الياوران، ويصيح كما أوضحنا من قبل قائلاً: "السلطان أقنع مصطفى كمال باشا"، ويخرج مصطفى كمال باشا من عند حضرة السلطان وهومقتنع تماماً بهذا الموضوع بعد أن كان متردداً. وبعد يوم يتجه نحو سامسون بالباخرة "بانديرما".

هاهى اللوحة التي رسمناها مراراً... أخبروا مصطفى كمال باشا أن محمد علي بك وزير الداخلية سيعطيه مظروف به مخصصات رسمية عند تحركه.

وعند خروج مصطفى كمال باشا من عند حضرة السلطان، يخاطبه السلطان الذي لن يراه مرة أخرى بهاتين الكلمتين: "ليوفقك الله"، وهو مارواه مصطفى كمال باشا شخصياً في مذكراته.

والآن يأتي بنا هذا المشهد الذي اجتهدنا لإحيائه بأسلوب الروايات، والذي هو عبارة عن الحقيقة نفسها، إلى نقطة إثبات أن فكرة اندلاع حركة مقاومة شعبية إنما هى فكرة السلطان.

وبعد أن فحصنا سوياً أولاً الأدلة كلها، لندخلها الآن في تركيبة واحدة لمعمل التحليل لتقييمها، والحكم عليها:

إن أدلتنا وهى عبارة عن ١١ دليل كامل، مختلفة من ناحية القيمة والقوة. وقد رقمت هذه الأدلة بموجب القيمة والقوة التي بينهما. أربعة من هذه الأدلة في قيمة الوثيقة العلمية، وخمسة منهم في حكم قرينة واضحة أقرب إلى الوثيقة، أما الدليلان الأخيران فهما عبارة عن أدلة مروية من جانبي مباشرة. ونظراً لوفاة مصادرهما، فستكون المسألة مسألة ثقة. إذا تم الوثوق بها فستكون قيمتها كبيرة، أما إذا لم يتم الوثوق بها، فلن تكون لها قيمة، لكن لابد من فهمها في إطار الأدلة الأخرى.

الوثائق القاطعة :

١. الوثائق التي نشرها محمد علي بك ناظر الداخلية السابق في أوروبا...

٢. الأثر المهم والمدهش الذي حُظر نشره في الدولة، ونُشر في مصر لصاحبه مصطفى

صبري المشهور بأخلاقه وتدينه بين شيوخ الإسلام، على حد وصف وحيد الدين له...

٣. شهادة علي نوري بك الياور السابق.

٤. مذكرات كاظم قره بكير.

٥. الخط الهمايوني الذي قُدم لمصطفى كمال باشا على غير المعتاد.

القرائن التي في قيمة الوثيقة :

٦. التخطيط الجيد للسلطان وحيد الدين في تلك الأثناء، فقد قام بإعادة القادة الشباب المجتمعين في استانبول بعد أن تركوا وحداتهم، إلى الأناضول ليكونوا على رأس وحدات الجيش الموجودة هناك، وحدد لهم المهام الواجب القيام بها، دون أن يعرف الجميع ما الذي سيفعله هؤلاء...

7. بعد بداية حركة المقاومة الشعبية أخذ وحيد الدين يتابعها دون أن يبدو أن له علاقة بها، مخفياً حبه وقلقه وأمله واضطرابه.

٨. ما رواه الأمير محمود شوكت أفندي...

٩. شهادات بعض المؤرخين...

"ما رويته أنا شخصياً، وهو في قيمة الوثيقة، ويتضح صحته عند مقابلته بالوثائق الأخرى. والقارئ حر في تصديقه أو عدم تصديقه، فهي مسألة ثقة"

١٠. ما سمعته من المارشال فوزي چاقمق...

11. ماروواه لي رفعت باشا...

وسيتضح عندما نقوم بتحليل هذه الوثائق، الواحدة تلو الأخرى، في معمل الإثبات أنه لولا محمد وحيد الدين السادس آخر سلاطين آل عثمان، ما كانت هناك حرب استقلال.

في معمل الإثبات

الدليل الأول، وهو الوثيقة التي نشرها محمد علي بك وزير الداخلية السابق في أوروبا كما قلنا. كان محمد علي بك ضمن قائمة الـ ١٥٠. كان واحداً من أصدقاء مصطفى كمال باشا المقربين في البداية. وكان يفعل ما بوسعه من أجل أن يحظى بتقديره. وهذه حقيقة واضحة في بعض الكتابات التي في شكل مذكرات. وبعد أن تحقق النصر لحركة المقاومة الشعبية، تم وضع القائمة السوداء، قائمة الـ ١٥٠ شخص الذين كانوا بعيدين عن الحركة، أو كانوا

معارضين لها. وكان محمد علي بك ضمن هذه القائمة. وذهب إلى باريس ليعيش هناك، وأصدر صحيفة باسم "زنجيره فوروملش جمهوريت" أي الجمهورية المقيدة بالأغلال. في هذه الصحيفة نشر وثائق قيمة مثل بعض الادعاءات والاتهامات الثقيلة التي ساقها ضد مصطفى كمال باشا. أحد هذه الوثائق تقول أن وزارة الداخلية قدمت لمصطفى كمال باشا، بأمر وحيد الدين ٢٥ ألف ليرة "كمخصصات سرية" في لحظة ركوبه السفينة. والآن إليك هذه الوثيقة من الكتاب الذي تناولناه من قبل، كأحد المصادر المناهضة لدعوتنا، وهو كتاب "احتلال الأناضول" لصباح الدين سالاك الذي يُعتبر خصماً لوحيد الدين، وهو ينتمي لحزب الشعب. يقول في صفحة ١١٧:

"عندما جاء مصطفى كمال إلى أنقرة بعد مرور سبعة شهور ونصف على مغادرته استانبول، كان معه ١٢٠٠ ليرة. وقام المفتي رفعت أفندي بجمع ٦ آلاف ليرة من تجار أنقرة وقدمها إلى الباشا."

والكاتب سجل أنه أخذ هذه المعلومة عن حسن فهمي بك، من وكلاء مالية الحرب القومية، ويوصل حديثه على النحو التالي:

"لم يكن مع مصطفى كمال نقوداً. وبينما كان يغادر استانبول من أجل المشروع الكبير، هل كان يفكر إنه سيحصل في الأناضول على ألف ليرة؟ لا نعرف. لكن المعلومات التي دققنا النظر فيها تُظهر أن مصطفى كمال باشا سعى كثيراً من أجل أن يأخذ مخصصات كبيرة جداً، بالإضافة إلى مرتب ثلاثة شهور لضباط هيئة القيادة، في اليوم الذي سيتحرك فيه من استانبول. ويقول خصومه السياسيون الذي قام بتصفيتهم بعد الانتصار، إنه ذهب إلى الأناضول ومعه نقوداً كثيرة منحها إياه السلطان. لكن ليس هناك دليل حتى الآن ولو صغير يدلل على صحة هذه الرواية. ونشر محمد علي بك - الذي كان وزيراً للداخلية عند مغادرة مصطفى كمال باشا استانبول والذهاب إلى سامسون- في الصحيفة التي أصدرها في باريس باسم (زنجيره فوروملش جمهوريت) صورة الإيصال الذي بقيمة ٢٥ ألف ليرة المقدمة إلى رئيس مفتشية الجيش التاسع، مصطفى كمال باشا، في لحظة رحيله عن استانبول. وهكذا فإن النقود التي أحضرها مصطفى كمال معه من استانبول، كانت عبارة عن هذه النقود."

انظر إلى درجة التناقض، فمصطفى كمال الذي بدا مفلساً بلا نقود، يتضح أنه كان معه

٢٥ ألف ليرة، وهى تساوي ٤ مليون ليرة بالنسبة لقيمة النقود في هذه الأيام إذا كانت بحساب النقود الورقية، ويُستخف من هذا بالقول: "وهل هذا شيء ذا قيمة!". وبعد ذلك يقال إنه كان معه ١٢٠٠ ليرة فقط.

فالحساب واضح: في ذلك الزمان كانت الليرة الذهب تساوى ٤ ليرة ورقية، أما بقياس هذه الأيام فإن الليرة الذهب تساوى ١٧٥ ليرة ورقية... وبهذا يكون مبلغ الـ ٢٥ ألف ليرة التي أخذها، تساوي اليوم ما لا يقل عن ٤ مليون ليرة ورقية... إذاً كيف صرف مصطفى كمال هذه النقود التي مُنحت له للصرف على الاحتياجات الخاصة والسياسية؟ وكيف يمكن نفاد هذه النقود في سبعة شهور ونصف؟

ونحن هنا لم نشِر إلى حساب الـ ٣٠ ألف ليرة التي خرجت من يد وحيد الدين، ومن خزينته الخاصة على إنها هى المخصصات السرية التي منحتها وزارة الداخلية لمصطفى كمال، لأننا إذا فعلنا ذلك فسيكون هناك فرق واحد مليون ليرة. إذ أن ١٢٠ ألف ليرة بقياس ذلك الزمان تساوى ٢٢ مليون ليرة ورقية بقياس هذه الأيام، والمبلغ كله سيصير ٢٦ مليون ليرة ... ونحن هنا أخذنا أقل حد قيل عن المبلغ الذي دفعه وحيد الدين وهو ٣٠ ألف ليرة.

بعد ذلك يقول الكاتب المنتسب إلى حزب الشعب كالببغاء، كيف تم منح مصطفى كمال الذي بدا مفلساً، ٢٥ ألف ليرة:

"إن محمد على باشا وزير الداخلية أعطى مصطفى كمال باشا بنفسه هذه النقود كمخصصات سرية لحظة تحرك السفينة التي أقلته إلى سامسون، وكان معه راضي بك بوصفه أحد مديري شعبه الأمن، وهو الذي كتب الإيصال الذي نشر صورته."

وعندما ندقق النظر في تلك النقطة نستطيع أن نقول إننا أمام وثيقة توضح أن مصطفى كمال مأمور من جانب السطان للقيام بمأمورية معينة، وإنه منحه هذه النقود لهذا الهدف فقط، وليس كما يُزعم إنه لمصاريف مصطفى كمال باشا الشخصية، وليس في سبيل هدف ما. وبعد أن تم دفع مخصصات، وراتب ثلاثة شهور لكادر مقر القيادة، إلى قائد مرسل لمهمة القضاء على مقاومة وحدات الجيش التي في الشرق، وإعادة الأمن إلى سامسون وحواليها، كيف لا يكون هناك سبباً آخر لمنحه هذا المبلغ الكبير. وهكذا فإن النقود تُعد دلالة على أن هناك مهمة كبيرة، وإنها مُنحت من أجل ضمان إشعال حركة كبيرة تشمل الدولة كلها، هذا التحليل

قاطع عند هذه النقطة، ومهما كانت الوجهة التي صُرفت فيها هذه النقود، ونظراً لأنه ثبت أنه أخذ فعلاً مبلغاً من المال لهدف خاص بالسلطان الذي أرسله إلى الأناضول، يثبت أيضا أن هذا الهدف ليس سوى تشكيل جبهة المقاومة الملية.

والأثر الذي لا أتذكر اسمه، والمطبوع في مصر، والخاص بشيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي، يُعد من أهم الوثائق[٦٦].

هذا الأثر لم أراه بعيني، ولم أرى محتواه الأصلي أو المترجم، ولكني أعرف الرسالة التي يحملها هذا الأثر الذي كُتب في مكان بعيد، ومُنع من دخول الدولة. وبعيداً عن الأفكار الشخصية التي في الأثر، وعن رأيي في هذه الأفكار، أحب أن أقول بناءً على ما أخبرني به القارئين لهذا الأثر، أن ما جاء فيه يشبه ما نشره محمد علي بك وزير الداخلية السابق في باريس، وهى بعض المعلومات المهمة التي تهمنا في بحثنا هذا. إنني لاأميل إلى الأراء الشخصية حول مصطفى كمال، ولا أستند عليها، أو أشارك فيها، لأنني ليس في حاجة إليها. لكن غرضي هو تقييم الوثائق التي تشير إلى أن وحيد الدين هو صاحب فكرة حركة الإنقاذ الوطني.

وقيل لي بشكل مؤكد، إن هذا الأثر يوضح بالوثائق أن وحيد الدين هو الذي أرسل مصطفى كمال إلى الأناضول من أجل بدء حركة الإنقاذ. كما يوضح مقدار الليرات الذهبية التي أعطاها له السلطان، ونوع الهدية والغرض منها.

هذا الأثر الذي أشرنا إليه، يعد مصدراً مهماً للمؤرخ الذي يحب إظهار الحقيقة في المستقبل، وإنني أعتبره - بصرف النظر عن الأفكار التي يحويها- بمثابة مستودع وثائق.

والوثيقة الثالثة، هى رأي علي نوري بك أفندي ابن الصدر الأعظم توفيق باشا، وياور السلطان الراحل الذي كان يعرف كل شيء عن وحيد الدين، وهو شخصية أبعد ما تكون عن تحريف الحقيقة بأي شكل حيث قال: "إن السلطان أقنع مصطفى كمال بالذهاب إلى الأناضول"، واستند في كلامه على ناجي بك، باش ياور السلطان، ويسمى أيضا "جنرال أل دانيز". فهذا الرأي يثبت أن السلطان هو صاحب فكرة الثورة الملية، وأن مصطفى كمال باشا كان متردداً في البداية، ولامجال للشك في هذا.

---

(66) يقصد الكاتب هنا كتاب (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين) تأليف مصطفى صبرى، شيخ الإسلام للدولة العثمانية.

أما الوثيقة الرابعة، فهى الأثر الخاص بكاظم قره بكير باشا، وهو من الشخصيات الهامة والعظيمة في الحرب القومية. تم جمع هذا الأثر وطبعه في بداية عهد إينونو بعد تعرضه لعدة معوقات، ثم تم إعادة طبعه بعد إجراء بعض التعديلات عليه. في هذا الأثر دليلاً - كما أوضحنا في النموذج الذي أوردناه له فيما سبق- على أن مصطفى كمال باشا لم يكن يفكر في شيء في فترة الهدنة والاحتلال سوى دخول الوزارة، وأن قره بكير باشا بذل ما في وسعه حتى يغير مصطفى كمال باشا من نيته تلك. فهذا دليل في حكم وثيقة قاطعة، يشير إلى أن مصطفى كمال باشا لم يكن يسعى إلى تزعم حركة قومية في البداية. وهنا يصبح من الضروري، من أجل الحق والحقيقة، أن نقول إنه أخذ هذه الفكرة من السلطان.

والوثيقة الخامسة ربما تكون أقوى من كل الوثائق إذا تناولناها بالطبع بالتحليل العميق، وهى "الخط الهمايوني" الذي مُنح لمصطفى كمال باشا.

ولننشر أولاً هذا "الخط الهمايونى" أمام العين كلمة كلمة:

"من ياوران السلطان إلى اللواء أركان حرب مصطفى كمال باشا:

بالنظر للوضع السياسي الحاصل الآن، والذي أصبح في صالح حلفاء الحرب الكبيرة، وبسبب تعرض مُلك أجدادنا العظام، ومقام الخلافة، للمشاكل وللمخاطر المهلكة، فإني أصدر قرار حكومتي السنية بتعيينكم لتقوموا بتشكيل حركة موحدة تضم الأهالي والموظفين والجنود من أجل تأمين الأمن في المنطقة. وبذل الجهد لمنع وقوع أشياء ضد رغبة السلطان. والعمل على دعم حماية الدولة، وتخليص سلطتنا من أيادي المعتدين. ولتبلغوا سلامي السلطاني للجميع هناك.

محمد وحيد الدين"

هذا الفرمان أو الخط الهمايوني هو برهان قاطع، لايدع مجالاً للشك، على أن السلطان وحيد الدين هو صاحب فكرة حركة الإنقاذ الوطني.

الواقع أن طيلة التاريخ العثماني لم يتم منح فرمان كهذا لأي شخص. وهذا الفرمان لا يبدو فيه صراحة وعلى نحو مباشر، أمر إعطاء دور منقذ الوطن لمصطفى كمال، بل فيه أمر لمصطفى كمال بتشكيل حركة موحدة تضم الموظفين والشعب والجيش، وذلك لإخفاء هذه الغاية، وهى مهمة إنقاذ الوطن.

والحقيقة أن هذا الفرمان لم يلفت انتباه أي شخص لدلالته الواضحة، ومعناه الحقيقي. ولعدم كونه وثيقة، ظل مجهولاً حتى الآن. يعني شيء ظل مجهولاً في داخل شيئاً معلوماً. ولعل عدم كتابته على نحو صريح، كان بناءً على رغبة السلطان، حتى لا يفهم العدو السبب الحقيقي لإرسال مصطفى كمال إلى الأناضول، ولذلك كُتب هذا الفرمان على نحو مبهم وغامض، وظهر في بدايته السبب غير الحقيقي للتعيين. أما تلك الجمل التي في أخر الفرمان فهي تكشف عن فحوى الفرمان كله:

"إنني أصدر قراري بضرورة إعلام الشعب والجيش والموظفين بأن يتحدوا ويعملوا كرجل واحد من أجل عدم سقوط أمتنا، وإنقاذ سلطنتنا من أيدي المعتدين! وبلغهم سلامي السلطاني."

وهكذا أمكن إعطاء فرمان للباشا الذي أُرسل إلى الأناضول من أجل القيام بعمل أمني.

وهذا الفرمان، بعد أن جاء فجأة إلى الجزء المهم، غير لافتاً الإنتباه إليه، مما يدل على دقة التكتيك، يقول:

ـ أيها الشعب والجنود والموظفون، اتحدوا كرجل واحد من أجل إنقاذ الأمة والوطن الذي ضاع استقلاله!

الحقيقة إن هذا الفرمان ليس سوى مجرد أمر بالتخطيط لشن مقاومة شعبية، وهو يشكل سنداً قاطعاً على أن هذه الدعوة كانت أول تلقين لمصطفى كمال من جانب السلطان.

قد نتخيل أن من الممكن أن يكون مصطفى كمال باشا قد أملى هذا الفرمان على وحيد الدين، فإذا قيل هذا الكلام فالجواب بسيط:

في هذه الحالة نقول إن وحيد الدين متفق مع مصطفى كمال باشا، وهذا لا يتناسب ولا يتفق مع معاملة مصطفى كمال باشا للسلطان بعد ذلك، ولابنعته بصفة خائن الوطن. فإذا كان مصطفى كمال قد رأى أنه لابد أن يأخذ فرماناً مهماً من السلطان بهذا الخصوص، فلابد إنه كان يعتمد عليه، ويحتاج إليه في أثناء المهمة، لكن أن يخفيه، ولا يطلع عليه أحداً – وهذا مافعله مصطفى كمال– فهذا معناه أنه لم يأخذه بناءً على طلبه،وأن ذهابه إلى الأناضول كان بصفته مجرد ممثلاً لرغبة السلطان وإرادته المستقلة.

انظر ماذا يقوله كاتب معارض، وهو صباح الدين سالاك، في كتابه (احتلال الأناضول)

في صفحتي ١٩٠ و١٩١، بخصوص هذا الخط الهمايوني:

" . أرى إنه احتمال ضعيف أن يكون الخط الهمايوني الذي بدا في حالة نص، ملفقاً. لكني أرى ما فيه عبارة عن تعليمات تتفق مع المهمة التي قام بها مصطفى كمال باشا، ومحقق إنه لم يستغلها في أي مكان، حتى أن رفعت بك (بالا) الضابط الذي ذهب إلى مقر قيادة الفرقة الثالثة التي في سيواس، والتي صارت تتبع قيادة الباشا، قال لنا إنه لا يعلم شيئاً عن هذه المعلومة. وإذا كان هذا الخط الهمايوني صحيحاً، فلا يمكن أن يجعلنا نعطي للسلطان نصيباً من الشرف. فالكلام المبهم الذي قاله السلطان، لم يكن يقصد به ما قام بعمله مصطفى كمال باشا بالفعل."

في رأينا أن كون مصطفى كمال باشا لم يُظهر هذا الفرمان لأحد كما اتفقنا، ولم يستخدمه في أي مكان، فإن هذا يدعم من بحثنا ولا يضعفه. إذ يدل عدم إظهار فرمان السلطان على أنه قد جاء بالفعل من السلطان، وعلى وجود هذا الفرمان فعلاً. فإذا كانت الفكرة الأولى والقرار الأول قد جاء من السلطان، وبينما هذا يكفي لأن يكون للسلطان نصيباً من الشرف، لا يصح أن نحجب عن السلطان جميع الحقوق، وننحاز إلى مصطفى كمال باشا، وندافع عنه، ونعطيه جميع حقوقه.

إن الفرمان الذي أخذه مصطفى كمال باشا في يده على غير العادة والأصول من أجل أن يحقق رغبة السلطان، وهى إثارة حركة مقاومة شعبية، يُعد بمثابة حُجة لاتدعنا نتشكك في أن إرساله إلى الأناضول كان من طرف وحيد الدين. ويشرف أي انسان أن يكون طرفاً في هذا العمل العظيم.

وبعد عرض الوثائق الخمس الهامة، نأتي إلى الوثائق، السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة التي هى في ماهية قرائن، وتدعم الوثائق السابقة.

الوثيقة السادسة:

قيام وحيد الدين كما ذكرت من قبل، بتعيين الشباب الذين اجتمعوا في استانبول تاركين وحداتهم متفرقة، قادة للوحدات في أنقرة. وقوله المهم: "لابد أن يكون هؤلاء القادة على رأس وحداتهم من أجل عمل شيئاً، وإلا سنصبح مثل الأندلس!" وهذا يمثل قرينة محكمة على بداية تخطيطه في ذلك الوقت للحركة الشعبية.

الوثيقة السابعة:

هى المعلومة الصادقة والقاطعة التي قالها الياور السابق علي نوري بك أفندي، الخاصة بأداء وموقف وحيد الدين أثناء حركة الأناضول، إذ يقول:

"ـ عندما كانت تبلغ وحيد الدين أنباء انتصارات حركة الأناضول، لم يكن يعرف ماذا يفعل من شدة سعادته. وعند تحقيق انتصار (دوملوبينار) تم عمل استقبال رسمي في جامع السلطان سليم بدلاً من جامع يلديز بأمر السلطان، وذهب هو إلى هناك وقرأ الفاتحة على الشهداء. وعندما كان يحدث انسحاباً أو فقداً للأراضي، كان يحزن حزناً شديداً، لا أستطيع أن أوضح مدى الألم الذي كان يشعر به... وبرغم إنه لم يكن ضليعاً في الأمور والثقافة العسكرية، لم يكن يتقبل في تلك الأثناء أي تفسير لهذه الأمور بإنها لا تدعو إلى القلق. وقد بلغ به الحزن أقصى حد أثناء الدفاع عن صقاريا والانسحاب، فقد كان خوفه من احتمال سقوط أنقرة يبلغ حد الجنون. واستدعاني وحيد الدين وطلب مني أن أوضح له الأمر. كنت أقوم بتوضيح الوضع على خريطة مطبوعة طباعة حجرية وأقول له إن أنقرة بعيدة كثيراً عن مرمى العدو، وإنه ليس وضعاً مقبولاً من الناحية العسكرية، وإن اليونانيين، عاجلاً أم أجلاً، سيدفعون غالياً ثمن تهورهم ولا داعي لوقوعه فريسة للإحباط. كان يزداد قلقاً ويقول: (الآن فقدنا نصف الأناضول، وسوف يأتي اليونانيون بأسرهم ويستقرون هناك، لا أستطيع تحمل هذا. إن هذا يضعف أملي، إن هذا شئ فوق الاحتمال!) وحتى عندما كنت أجيبه بقولي، إن الجيش اليوناني ليس جيش عشيرة، فجميع عناصر الجيش قد تركت أطفالها في اليونان ولم تصطحبهم. وعندما يبتعدون عن قاعدتهم الأساسية يزداد ضعفهم يوماً بعد يوم، وعندئذ تستفيد بالقطع قواتنا الوطنية من هذا الوضع، وتتقدم إلى الأمام، كان هذا لا يهدأ من روعه ويطمأنه. أي خطأ صغير يحدث كان يحزنه ويجرحه. وأي نجاح صغير يتحقق كان يجعله يطير من السعادة. لا يمكن أبداً أن يكون وحيد الدين ضد من قاموا بالحركة الشعبية، فقد كان في أشد خوف واضطراب لاحتمال أن يخسر هؤلاء المحاربين حربهم. وشعوره هذا كان صادقاً إلى أقصى درجة. فالألم الذي تحمله لم يتحمله أي حاكم في التاريخ. لا بد أن نقارن بين المواقف الإيجابية إلى أقصى حد للسلطان وحيد الدين، والمواقف السلبية التي اتخذتها الزمرة الحاكمة ضد الحركة الشعبية."

الوثيقة الثامنة:

يوضح البيان الخاص بالأمير محمود شوكت أفندي المنشور في الكتاب الذي كتبه وطبعه (قدير مصر أوغلو) المسمى بـ (صارقلي مجاهدلر) أي المجاهدون المعممون، أن القصر منح مصطفى كمال باشا مساعدة عند تحركه من استانبول، من أجل المقاومة الشعبية، وأن ما تبقى معه بعد ذلك، كان من جملة المبالغ التي أُمر بمنحها لمصطفى كمال، والتي بلغت مئات الآلاف عند بداية الحركة، واقتربت من نصف المليون. ويقول إن هذا المبلغ يعادل اليوم مائة مليون، وهو يربط الحركة الشعبية في مرحلتها الأولى، بقرار مباشر من السلطان.

الوثيقة التاسعة:

هي قرينة بسيطة، عبارة عن الأراء والقناعات الشخصية لبعض المؤرخين، والأحكام العامة، والانطباعات التي أبداها رجال فكر راحلين...

سألت أنور بهنان شابوليو- المؤرخ الذي روى له مصطفى كمال باشا شخصياً مذكراته- في مبنى مطار أنقرة، في حضور بعض الشباب العاملين في جريدة (بيوك دوغو) أي الشرق الكبير:

ـ هل توافق على أن وحيد الدين هو الذي أرسل مصطفى كمال باشا إلى الأناضول للتمهيد لحرب الاستقلال؟ وهاهو رده!

كان رده من كلمتين، كالآتي:

ـ نعم أوافق!

وقال الكاتب (تكين أرار) ما يلي:

ـ هذه حقيقة يعلمها كل شخص!... إنني كتبت في هذا أيضا!

وهناك الكثيرون من رجال الفكر والعلم منهم من ذكر اسمه ومنهم من لم يذكر، ومن بينهم أساتذة في التاريخ، كلهم على اقتناع بهذه الحقيقة.

ومن حقنا أن نجمع معاني خاصة من هذه القرينة العامة.

وبينما كل واحد له الحرية أن يصدق أو لا يصدق صحة هذا، فإن مطالعة الوثيقة السابقة والقرائن معاً قد جاءتا بدليلين عظيمين، يؤكدان صحة بوآعثي الشخصية، وتحرياتي عند بحثهما.

الوثيقة العاشرة:

ما سمعته من المارشال فوزي چاقمق...

كنت قد كتبت أنني تعرفت على المارشال عن طريق (برهان طوپراق) صديق الدراسة في باريس وهو صهر المارشال. وعندما كنت أقوم ببحثي كان هو مصدر ثقة كبير، ومعه استطعت أن أناقش كل شئ مما سبق. فقد تلاقت روحانا، وبلغت الثقة بيننا حداً عميقاً لدرجة أنه ذات يوم عند بداية الحرب العالمية الثانية، ذهبت إلى مكتب القائد العام، وأنا أرتدي زي ملازم أول فرقة السواري (الفرسان)، وقلت للمارشال ما كتبته في الفقرة التالية، مما جعل الخوف يسيطر عليه:

ـ إن عدم دخول الدولة الحرب، سيهوي بها إلى هاوية الأزمة الروحية والأخلاقية والإدارية والاقتصادية! إن الصحف الأوروبية تفيد أن وضعنا هذا يُعتبر من "الجنون"، ويُعد استكمالاً لشروط الاحتلال كلها وانعزالنا، فلماذا في هذه الحالة لا تدفعون الجيش إلى الحركة؟ ولماذا لا تحثونه على النهوض والعمل؟

بعد أن تنهد المارشال تنهيدة عميقة قال ما يلي:

ـ لست إنكشارياً!

ـ سيدي! من أجل القضاء على الإنكشارية، نحن مضطرون أن نكون ولو للحظة واحدة إنكشاريون.

ـ بعد عدة سنوات من هذا النقاش الذي رويته من أجل أن أوضح مدى التقارب بيننا، التقيت بالمارشال ذات يوم في (چانقايا) وكان معنا صهره برهان طوپراق... قلت للمارشال ما يلي:

ـ أنا لا يمكن أن أقول أن وحيد الدين خائن للوطن، بالعكس إنني أراه سيء الحظ، بل أسوأ حظاً من أي إنسان في العالم، وأنا مقتنع إنه مظلوم. بما إنك كنت في ذلك العهد رئيس أركان الحربية العامة، فإنك كنت في موقع العارف ببواطن الأمور. هل كان وحيد الدين منذ بداية الحركة الشعبية حتى أخرها خصماً وعدواً للحركة، أم كان على العكس، هو الشخص الذي دفع بمصطفى كمال، وحرضه على هذا العمل؟

حملق المارشال بعينيه، وركزهما تجاهي، وقال بصوت جهوري:

ـ من قال لك إن وحيد الدين له دور في هذه القضية؟

كان سؤال الماريشال هذا ينم على إنه يقبل إلى حد ما هذه المسألة، لكنه كان غير قادراً على التصريح صراحة. أجبته قائلاً:

ـ هناك رواية تقول هذا، رواها أناس اقتربوا من أحداث ذلك الزمان. حتى قيل إنه قد طُلب منك إعداد قائمة بالقادة الشباب المناسبين للقيام بتلك المهمة...

ـ هذا صحيح، فعلاً طُلب منى قائمة بهذا، لكنهم لم يخبروني بالغرض منها. فقط طلبوا أن أسجل أسماء القادة الشباب الذين لديهم استعداد كبير، وقدرة فائقة.

ـ أليس هذا يشكل قرينة على أن السلطان كان يبحث عن قائد من أجل شن حرب استقلال قومية؟

ـ لا أعرف.

ـ هل كان مصطفى كمال باشا موجوداً في القائمة التى قدمتها للسلطان؟

ـ نعم كان موجوداً في رأس القائمة...

ـ ماذا كتبت بجانب اسمه؟...

ـ ما لزوم ذلك.

ـ إذا أخفيت هذا فلا جدوى من الاستمرار في التساؤل!

ـ يووه! فلتسأل!

ـ من اقترح في البداية فكرة قيام حركة مقاومة شعبية؟

ـ كنت موجوداً مع مصطفى كمال وجواد باشا في منزلي الذي يقع في منطقة (باي كوز) ذات يوم، وطُرح هذا السؤال: كيف يمكن إنقاذ الوطن؟ كان رأيي الاستمرار في المقاومة عن طريق حرب "العصابات"، وإبلاء العدو في حروب جادة، ثم إصابته بالضجر في النهاية. لكن لم نكن نعتقد إنه يمكن حل القضية بفتح جبهة ضد العدو، وإعداد تشكيلات عسكرية منظمة. وكنا نرى أن أخر ما يمكن أن نلجأ إليه، هو شن حرب جادة لاسترجاع الوطن كله. أما مصطفى كمال باشا، فكان يرى أن تكون هناك مقاومة سياسية من داخل الحكومة، ويمكن بمواقف مذهلة وجادة من جانب الحكومة أن نصل إلى نتيجة، وكان يرى أن ذلك، إن لم يؤدِ إلى شيء، فقد يؤدي إلى تخفيف شروط الصلح على أقل تقدير.

ـ إذاً لم يكن مصطفى كمال ينوي من قبل إثارة حركة شعبية شاملة.

ـ قبل ذلك أو بعد ذلك، فالحركة قد تمت وانتهى الأمر.

ـ هذا يهمني لأثبت هل الفكرة الأولى والحملة الأولى جاءت من وحيد الدين، أم من مصطفى كمال؟ وهل كان السلطان هو فعلاً الشخص الذي حث على هذه الحركة، ودعى إليها، أم إنه كان ضدها وكان خائناً للوطن، وراضخاً للعدو؟

صمت المارشال، وعندما ضيقت عليه الخناق وحاصرته، اضطر إلى قول الحقيقة، وفي مواجهة الأسئلة التي تشبه الحصار، قال كلمته الأخيرة، وأغلق الموضوع:

ـ أنا لا أوافق على أن وحيد الدين كان خائناً للوطن!

هذا كل ما لدي من كلام... ولا أستطيع أن أقول أي شيء آخر!

وأضاف صهره برهان طوپراق قائلاً:

ـ إن المارشال قال كل ما عنده، ولنقطع كلامنا في هذا الموضوع عند هذا الحد!

وبعد كلام المارشال نأتي إلى تلك الوثيقة حسب الترتيب، وهى الوثيقة الحادية عشرة.

١١ـ ما سمعته من رفعت باشا...

تعرفت على رفعت باشا - الممثل الأول لحركة المقاومة الشعبية، ذلك الجنرال ذو الروح الأصيلة، الظريفة الذي شاهد الحركة رؤية العين- بينما كنت طالباً في الجامعة في سن العشرين عام ١٩٢٤. كنت في ذلك الوقت أعمل لفترة قصيرة كمراسلاً لصحيفة (وقت) في أنقرة. وذات يوم كنت أركب في إحدى القطارات التي لا أعرف إن كانت تعمل بالفحم أم بالحطب، إذ وصل القطار استانبول بعد ٣٠ ساعة. كنت جالساً بمفردي في مقصورة في الدرجة الأولى ذات الكراسي القطيفة الحمراء الممزقة، وفجأة بينما انتظر ساعة تحرك القطار، فُتح الباب، ودخل شخصاً ضئيل البنية، حلو الوجه، يرتدي قلنسوة من الفرو اللامع. نهضت من فوري لأصافحه بكل احترام لأنني كما ذكرت، كنت قد تعرفت عليه بصفة شخصية، عندما جاء إلى استانبول لإلقاء محاضرة في قاعة (جامعة دار الفنون)، وقدمت له نفسي قائلاً:

ـ مراسل صحيفة (وقت) في أنقرة...

قابلني بوجه باسم يبدو عليه الرضا والسعادة وقال:

- إنني سعيد لمقابلتك! ويسرني أن أرافقك وأتحدث معك خلال الرحلة. وهي فرصة لكي أفضفض لصحفي مفكر مثلك عن مكنون نفسي!

في تلك الأيام التاريخية، كان رفعت باشا مع بعض المفكرين زملائه مثل (رؤوف بك وعلى فؤاد وكاظم قره بكير) من أركان (الحزب الجمهوري التقدمي) الذين أسسوه، ثم انقلب هو على الحزب، وأصبح من معارضيه، كمن انقلب من النقيض إلى النقيض.

تحدثنا سوياً في القطار لما يقرب من ١٢ ساعة، ووجهت أسئلتي للجنرال حول موضوع وحيد الدين، فتحدث رفعت باشا مباشرة، فقد كان أحد كوادرالحزب الذي أفرزته حركة المقاومة الشعبية، والذي بدأ بداية طيبة، وبعد الانتصار تردى. وكان هو على وشك أن يتولى زعامة ذلك الحزب المستغل.

قال ما يلي:

- إن مصطفى كمال نفذ هذه المهمة في خطة مثالية حقيقية حتى النصر. ولا شك في إنه كان مثالاً للقائد والزعيم. لكن بعد تحقيق النصر التف حوله جماعة من الوصوليين وأثروا عليه، ووجود هذه الجماعة من حوله كان السبب في فساد النظام، وانصب كل غضبي على مجموعة الوصوليين تلك. وفي أحيان كثيرة كنت أُذكِّره وأنقده...

وبينما يدخل القطار إلى محطة (أسكي شهر) قال مشيراً إلى خلو المحطة من الناس:

- إنني أتذكر في أثناء حركة المقاومة الشعبية، كانت تُقام لي في هذه المحطة الخاوية الآن، مراسم استقبال كبيرة، يالها من عبرة لتقلب الزمان لمن يعتبر، فلن تدوم هذه الدنيا ولا قيمها الزائفة لأحد!...

ثم فجأة أضاف قائلاً:

- انظر إلى حال وحيد الدين الذي اضطر للرحيل إلى إيطاليا! هذا السلطان سيء الحظ، فقد فعل كل ما بوسعه من أجل إنقاذ الوطن، وفي النهاية يكون وضعه هكذا. كأنه لم يفعل أي شيء إنه سيء الحظ، فقد وصفوه بإنه خائن الوطن. أنا أعرف عن قرب إنه الرجل الوحيد الذي حث مصطفى كمال ودفعه إلى هذا العمل، ومؤكد هذه الحقيقة سيظهرها التاريخ ذات يوم.

في تلك الليلة روى رفعت باشا أشياء أخرى كثيرة، ليس في إمكاني تسجيل أي منها...

بعد ما يقرب من ٣٠ عاماً التقيت به مصادفة في فندق (أنقرة بالاس)، وكان هذا العجوز يتمتع بنفس الروح الظريفة، كنا نجلس على المائدة وكان معنا بضعة أشخاص، وطلبت منه كتابة مذكراته لمجلة (بيوك دوغو)(٦٧)، وأن يتناول فيها موضوع وحيد الدين، فأجاب قائلاً:

نجيب فاضل!... أنا قدمي في القبر... وليس في أيام عمري الأخيرة أعتنق قضية لا تناسب سوى أن يتناولها شاب... استمر أنت في الطريق الذي بدأته وحملت رايته! أما مني فلا تنتظر شيئاً! أنا أعرف موضوع بحثك، وأعرف ضباط المجلس الذين بدأوا في النشر حول هذا الموضوع في أعداد مجلة (بيوك دوغو) في عام ١٩٥١. إن كلامي حول هذا البحث هي عبارة عن جملة واحدة وهي: إن السلطان وحيد الدين، بعد الحرب العالمية الأولى كان يشعر بمدى الكارثة أكثر من أي شخص آخر، ومن أجل إنقاذ الوطن قام بإرسال القادة الشبان إلى الأناضول، وأبدى تضحيات مادية ومعنوية كبيرة من أجل تحقيق هذا الإنقاذ، وهو الذي اختار مصطفى كمال وأرسله إلى الأناضول. إن التاريخ هو العلم الذي يجعل العدالة الإلهية تنجلي وتُظهر حقائق الوقائع، وذات يوم عندما يحين الوقت، ستظهر الحقيقة بعد التحقق من كل الأشياء من دفتر مذكرات أناس مثلي، أما الآن، اتركنا نذهب إلى قبورنا بلا جدال أو قضية!

وهذا الكلام الذي ألقى به صاحبه دون أن يريد أن يظهر في الصورة، والذي كان بمثابة شهادة خرجت من فم شخص كبير ومؤهل كهذا الشخص، نجد تأييداً له في كتاب (احتلال الأناضول) المعروف الذي نُشر في عام ١٩٦٥. يحكي الكتاب عن رفعت باشا في صفحة

---

(67) بيوك دوغو: تعني الشرق الكبير، هي مجلة سياسية، أدبية، دينية، أسبوعية، صدرت في استانبول في الفترة ١٩٤٣ – ١٩٧١، ومؤسسها هو نجيب فاضل قيصه كورك. كانت هذه المجلة إيذاناً بالعودة إلى أصالة الشرق التي افتقدها الأدب التركي. فقد كان نجيب فاضل يرى أن الإسلام هو طريق الخلاص، لذا كان الإيمان بالله هو أساس مجلته بيوك دوغو. فهي ليست مجلة أدبية فحسب بل مدرسة أرست مفهوم الإسلام في تركيا في مجال الفكر والأدب والسياسة. وقد ظهرت في الوقت الذي حاول فيه الزعماء الأتراك إبعاد الأمة التركية عن الإسلام. وقد أدت هذه المجلة دوراً فعالاً في الحملة على الأفكار الغربية والشيوعية، وساهمت في نشر الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي في تركيا. وعملت على إصلاح الروح الإسلامية، وتنشئة مواطن تركي مرتبط بالمقدسات والقيم الإسلامية. انظر عزة عبد الرحمن الصاوي، "الاتجاه الإسلامي في أدب نجيب فاضل قيصه كورك"، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

١٣٠ فيقول:

"أدرج رفعت بك ضمن زعماء الحركة الشعبية بعد أن وافق على المهمة، وعلى الذهاب إلى الأناضول مع مصطفى كمال باشا، و"التوقيع على قرارات آماسيا"، وإن كان بادياً أنه لا يرغب في هذا. كان لا يريد معارضة الحكومة. لكن خرج السهم من القوس فجأة. وبرغم التفكير العميق لم يستطع أن يتراجع. ولهذا السبب رأيناه بعد عدة شهور خلال أحداث الأناضول، بدا متردداً ومرتاباً. لم يكن يعتقد أن العمل الذي بدأه مصطفى كمال باشا كان هو طريق الخلاص، هذا بالإضافة إلى إنه كان لا يثق في الباشا".

ويقول في صفحتي ١٣١ و ١٣٢:

"بعد الانتصار العظيم مُنح رفعت باشا شرف أن يصبح أول قائد يدخل استانبول، لأن مصطفى كمال لم يكن يريد أن يختار قائداً غيره يمكن أن يسبب له كارثة.

فقد كان رفعت باشا يفهم مقتضى الأمور، ويتمتع بإدراك ووعي كاملين، وكان رئيسه يعرف كيف يستغله. وفي هذا السياق، فإنه عند تقييم فترة الحرب القومية نجد أن فعالية رفعت باشا كانت من أسباب النتائج الإيجابية لهذه الحرب.

إن علاقة رفعت باشا بمصطفى كمال باشا تشبه العلاقة بين كاظم قره بكير باشا ومصطفى كمال باشا. هذه العلاقة التي استمرت حتى النصر، سنلخصها في إنها لم تكن علاقة رفض رئاسة رئيس، لكن علاقة عدّم الثقة بالرئيس، مع الاجتهاد دائماً في عدم جعل الرئيس يشعر إنه بالنسبة له ككابوس. كان يراه لائقاً بمقام الرجل الثاني لا الرئيس.

سألنا رفعت باشا عن المسألة التي أدت إلى وقوع أول سوء فهم بينه وبين مصطفى كمال باشا، فأجاب قائلاً: (إنه لم يكن بيننا أبداً أي تفاهم).

يقول رفعت باشا: إنه نصر رخيص وقع مصادفة خلال رحلة كاظم قره بكير إلى الشرق. فهو لايعجبه الباشاوات: قره بكير ولا على فؤاد أو رؤوف بك ويحتقرهم، ويحط من شأنهم. ويصرح قائلاً: إن سبب كتابة مذكراته هو (لأوضح كيف يمكن إسقاط الأبطال الكاذبين؟ فلن أضرب بالطبع كل واحد لأسقطه...) ورغم إنه في معرض كلامه يصف مصطفى كمال باشا بإنه (كان رجلاً فظاً) فهو لا ينقصه حقه، ولا يغتصب منه نصيبه الكبير في شرف تحقيق النصر في الحرب القومية."

هذه السطور التي أخذناها من كتاب كاتب مخالف لوجهة نظرنا العامة، لا تقدم حكماً ذا قيمة يثبت عن طريق القياس العكسي أن الكلام الذي قيل، والذي سمعناه من رفعت باشا، قد وقع بالفعل. وعندما نجيء إلى درجة حقيقة هذا الكلام، فإن تقدير ذلك يعود في رأيي، بعد الوثائق والقرائن التي عرضناها، إلى القاريء وإلى التاريخ.

ومن بين الشخصيات التي قدمت لي الأسرار والبيانات الواقعية، يوجد شخص واحد كان مبعوث (ميرسين) في المجلس الأول، وكان عضواً في (المجموعة الثانية) وهو شخص معروف بالأخلاق العالية والفضيلة، واسمه (شولاق صلاح الدين) وهو من القادة السابقين، وأحد الأبطال الكبار الذي لم يفقد أصوله وصفاءه بعد حرب الاستقلال، ولم يسقط في مستنقع الطمع النفسي مطلقاً، وظل بلا اسم ولا نيشان، برغم إنه واحد من القادة الكبار. وهو في هذه اللحظة في قبره، وبقيت الحقيقة لمؤرخ يأتي في المستقبل ليظهرها وفق شعار إن النسيان خاص بأحباء الله.

عندما قمت بزيارة هذا القائد الراحل في منزله في (حربية) من أجل نشر مذكراته في مجلة (بيوك دوغو) في عام ١٩٤٩، أدهشتني شخصيته الراقية، وهذا الكلام الذي سمعته منه كلمة كلمة،إذ قال :

"- أنا مندهش من شجاعتك وأدعو لك بالتوفيق في قضيتك. لكني لا أملك نفس شجاعتك. وإنني لكوني أعرف كل شيء عن الحركة الشعبية من أولها إلى أخرها، أريد منك نشر مذكراتي بعد وفاتي حتى لا أتعرض للمضايقة في أثناء حياتي!".

وبعد وفاته، كان رأي إحدى بناته المحترمات – كنت قد تشرفت بمعرفتهن عند زيارة والدهن قبل وفاته- هو أن أترك مهمة عرض هذه المعلومات الشخصية الهامة للتاريخ، من أجل خاطر أفراد أسرته الذين تركهم خلفه.

والعمل الآن بعد الـ ١١ وثيقة والقرائن التي تثبت الحقيقة، هو أن نستند على الوثيقة الأخيرة التي جاءت على لسان مصطفى كمال باشا نفسه، وهي وثيقة في غاية الأهمية من حيث دلالتها وقيمتها.

ورأيت أن أفضل ما يناسبها أن أسميها بوثيقة الوثائق. وبعد الاطلاع على جميع عناصر الإثبات بالإضافة إلى هذه الوثيقة، أستطيع أن أصدر حكماً قاطعاً.

وثيقة الوثائق والحكم

هى وثيقة تُعد الأهم من ضمن الوثائق التي عددناهم "١١" وثيقة. ولم ندرجها معهم بل انتظرنا لتكون بمثابة مفاجأة. إنها البرقية التي أُرسلت للقصر، وهى في حد ذاتها بمثابة اعتراف بأن السلطان هو الذي أرسل مصطفى كمال باشا إلى الأناضول من أجل إثارة حركة المقاومة الشعبية. وهى عبارة عن نص البرقية التي قُرأت في المجلس الوطني الأول، ثم وُضعت في مضبطة المجلس بعد ذلك.

هذه البرقية محفوظة في "جريدة مضبطة مجلس الأمة التركي الكبير" (مجلد .١. الطبعة الثانية ـ عام ١٩٤٠).

تقول البرقية في السطرين الرابع والخامس:

"إنني مستمر في أداء مهمتي بعزم وإيمان، ملهم برغبة الذات السلطانية صاحب الملك والمملكة."

هذه السطور هى جملة بسيطة من البرقية الطويلة التي أرسلها مصطفى كمال باشا إلى القصر بعد مدة قصيرة من خروجه إلى سامسون،بعد استدعاء (شوكت طورغود باشا) ناظر الحربية له إلى استانبول، وشك الإنجليز فيه. وهى ليست جملة صريحة واضحة، ولكنها تحمل في داخلها كل شيء...

في ٢٤ ابريل عام (١٣٣٦هـ - ١٩٢٠م) في الساعة العاشرة صباح يوم السبت، يجلس مصطفى كمال باشا على كرسي المجلس، ويبدأ أول حديث مفصل يسجله في جريدة المضبطة قائلاً:

"خطاب مصطفى كمال باشا، مبعوث أنقرة، حول الأحوال السياسية التي وقعت في الماضي حتى افتتاح مجلس الهدنة".

وها هو ما يختص بالأناضول في هذا الخطاب:

" عُينت مفتشاً للجيش بناءً على تكليفي بالاضطلاع بمهام عسكرية ومدنية، واعتبرت هذا التعيين بمثابة مشيئة إلهية عظيمة من أجل إنقاذ الأمة والدين."

(جريدة المضبطة ـ صفحة ٩ ـ سطر ٤،٥،٦،٧،٨)

وبعد هذه الديباجة، يلقي بياناً بوقائع الفترة من ١٩ مايو ١٩١٩ إلى ٢٤ ابريل ١٩٢٠،

أي ١١ شهراً.

في أنقرة في بداية شارع المحطة يوجد مقرمجلس الأمة القديم، وهو عبارة عن بناء حجري فسيح على الطراز المعماري التركي القديم، يبدو إنه قد تم بناؤه أيام الاتحاديين... في هذا المبنى كان المجلس الأول يعقد جلساته، وكان من بين أعضائه من يرتدي العمامة. وكانت تُذبح الأضاحي في عيد الأضحى أمام هذا البناء، وترتفع الأيدي إلى السماء بالدعاء. وفي ٢٤ ابريل عُقد في هذا المبنى الاجتماع الثاني لمجلس الأمة التركي الكبير الذي ضم كوكتيل من القبعات الأستراجان السوداء، والعمامات البيضاء، وبعض الطرابيش الحمراء. وحتى ذلك الوقت لم يكن قد تم رفع راية العصيان ضد السلطان بل على العكس كان الباشا الشاب، زعيم حركة المقاومة الشعبية، يجلس ويستمع على أساس أن كل شيء مرتبط بغاية إنقاذ السلطنة والخلافة.

إنه الباشا الذي، كما أوضحنا سابقاً، قد ذهب إلى الأناضول بعد أن وافق على القيام بالمهمة، وتحمل المسئولية في سبيل الدين والأمة، تلك المهمة التي وُكلت إليه بناءً على رغبة السلطان وإلحاحه...

فالباشا الذي يخبر السلطان في البرقية إنه إذا اضطر للعودة إلي استانبول بناءً على طلب الحكومة، وليس السلطان، فإنه سيقدم استقالته، ويبقى على رأس الأمة، ويسير بمفرده في طريق الثورة الشعبية، يقول في نفس هذه البرقية:

"..حتى يتم استقلال الدولة، وحماية السلطنة المعظمة والخلافة من السقوط، فأنا عبدكم الصادق الذي يبدي دائماً جسارة في سبيل تحقيق رغبتكم السلطانية".

وهنا يمكن أن يُقال:

إن كلمة "رغبة" التي استخدمها مصطفى كمال باشا في البرقية، لا توضح معنى أمر صادر من طرف السلطان لبدء حركة الأناضول، ولا توضح شيئاً سوى رغبة مجردة في سبيل العزم والإيمان. فنظراً لسياسة تلك الأيام، كان مضطراً لمخاطبة السلطان بهذه الطريقة. لكن إذا كانت هذه الرغبة قد اتخذت شكل قرار سلطاني، وفرمان منح لمصطفى كمال، فلن تكون هناك قضية.

أليس كذلك؟

ونأتي هنا لنعرض الإثبات المطلق على أن إرسال مصطفى كمال باشا إلى الأناضول وقبوله المهمة، كان بناءً على قرار وفرمان:

نشرت صحيفة "إرادة يي ملية " في تاريخ ٢٤ سبتمبر (١٣٣٥هـ. ١٩١٩م) صورة البرقية موضوع البحث، قبل سبعة شهور بالضبط من قراءتها في المجلس الأول، وكان بها لفظ "إلقاء" بدلاً من كلمة "إلحاح". وكلمة إلقاء تعني طرح فكرة ومحاولة بث معنى ما في روح الفرد.

وهذا ليس خطأ متعمداً، فكلمة إلقاء التي استخدمها مصطفى كمال، تجعلنا نفهم أن وحيد الدين قد ألقى إليه، بفكرة الذهاب إلى الأناضول. وهذه الفكرة ليست شيئاً سوى مهمة التحضير لثورة شعبية.

وبعد بسط الـ (١١) وثيقة، والوثيقة الأخيرة، نأتي إلى الحكم الذي هو عبارة عن تأكيد نتيجة المعطيات التي أوضحناها سابقا. والحكم هو:

لولا وحيد الدين ما كانت هناك حرب استقلال ولا تحقق التحرير...

والمعطيات المرتبطة بهذا الحكم هي:

ثمة عمل في شكل إنقاذ الوطن، أول من فكر فيه هو السلطان، وثمة نصر تحقق بعد إنجاز هذا العمل. وهنا المنطق يقول إن هذا النصر يعود إلى من قام بإنجاز هذا العمل... أما قيمة العمل نفسه فتصبح من حق السلطان، بوصفه أول من فكر فيه. ولهذا لا يجب أن تقتصر قيمه العمل على من قاموا بالعمل فقط، واستثناء العمل نفسه، فلابد أن يُظهر التاريخ نصيب كل واحد من هذا العمل.

ما بعد هذا العمل

قد تسألون عن الباعث الذي ألهم القلم باستكمال هذا الكتاب بعد أن انتهيت من كتابته... فقد وصلنا إلى النتيجة، وهذا يكفي. فمن السهل أن يقال إننا أثبتنا زاوية المثلث برسم خطين، فما لزوم أن نرسم الخط الثالث؟ لكن توجد أمور عديدة قيمة تحتاج إلى توضيح، مثل الحكايات والوقائع التاريخية، وخاصة تهم الخيانة التي وجُهت إلى وحيد الدين، والتي أميل إلى كشفها برسم الخط الثالث. لكن بعد البحث الأساسي الذي كشف جميع الأحداث، وبعد النتيجة التي أثبتت أن وحيد الدين هو صاحب فكرة حركة المقاومة

الشعبية، ما بعده لابد وأن يبقى للخطة الثانية برغم ما فيه من ثراء. فعندما نفتح جبهة إثبات تنصف وحيد الدين، نجد أن موت مصطفى كمال وأصدقائه يطمس أكثر على الحركة الشعبية التى حث عليها السلطان. لكن ربط الأحكام القيمة بإيضاحات قصيرة عن وقائع مثل مغادرة الوطن على ظهر سفينة حربية إنجليزية، سيجعل كل فرد يرى بعينيه الافتراءات التي تحرف الحقيقة والتاريخ. وبهذا نواصل تعقب نتيجة هذا العمل، لكن بأسلوب مختصر، بدلاً من التحليل المستفيض، وسريع كأننا نستعرض شريط فيلم سينمائي.

الذهاب :

الشائعات التي ترددت حول تعقب طوربيد إنجليزي للسفينة القديمة التي ركبها مصطفى كمال باشا عند ذهابه إلى سامسون، وكاد أن يغرقها، كلها كاذبة.

ويُثبت هذا الكذب (علي نوري) بك أفندي، داخل إطار منطقي تماماً، إذ يقول:

"- كيف يمكن هذا؟ إن مصطفى كمال باشا كان معروفاً للإنجليز، وإنه خرج إلى سامسون بحجة إنه سينزع سلاح جيش الشرق. وخرج أمام جميع العيون، وذهب بمنتهى الهدوء، وإذا كان الإنجليز يريدون فعلاً الإمساك بالسفينة القديمة التي ركبها، كان يمكن أن يمسكوا بها بأي ناقلة تسير بسرعة ٥ ميل في الساعة، وليس بطوربيد يسير بسرعة ٣٥ ميل، أليس كذلك؟".

مجلس شورى السلطنة :

بعد عشرة أيام من تحرك مصطفى كمال باشا إلى سامسون، عُقد مجلس كبير في القصر ضم كبار رجال العلم والسياسة والفكر في الدولة باسم "مجلس شورى السلطنة"، تم فيه مناقشة التدابير التي يجب أن تُتخذ في سبيل إنقاذ الوطن.

افتتح وحيد الدين الاجتماع ببعض العبارات الحزينة جداً، وبعد أن أحال رئاسة المجلس إلى الصدر الأعظم، ترك صالون الاجتماع وانسحب إلى جناحه الخاص.

لنستمع لما يقوله باشكاتبه:

"- غادر المشار إليه (السلطان) المجلس متأبطاً ذراع عبد المجيد أفندي، وكان يقول له، بعد أن تساقطت الدموع من عينيه، وهو ينزل من سلم الخدم حزيناً، ليعود إلى جناحه الخاص الذي في الدور الأوسط، إنني أبكي مثل المرآة."

(انظر كتاب ما رأيت وما سمعت. صفحة ٢١٦)

وبعد هذه الصورة الواضحة المؤلمة التي تنم عن اضطراب كبير، حيث كان السلطان يبكي وهو ينزل من سلم الخدم في مجلس شورى السلطنة، ليس هناك ما يمكن قوله بعد ذلك. الحقيقة أنه في ذلك اليوم، لم يكن هناك أحد آخر في تركيا يشعر مثل السلطان وحيد الدين بألم الأمة. فهو يصيح قائلاً: "إنني أبكي كالمرآة"، بينما ينزل من السلم الخاص بخدم القصر المهيب.

مؤتمر الصلح:

تمت دعوتنا في بداية عام ١٩١٩ في شهر يونيو رسمياً، لحضور مؤتمر الصلح المنعقد في باريس. اعتبر السلطان والصدر الأعظم هذه الدعوة بمثابة اعتراف بأننا موجودين كأمة. وتلقوها بفرحة وبشرى. فقد كانوا يخشون ألا تتم دعوة تركيا إلى المؤتمر، ويستمر تقسيمها الفعلي.

وبعد نقاش وجدال مستمر حول الوفد الذي سيمثل تركيا، يتم تشكيل وفد برئاسة الصدر الأعظم فريد باشا، ويتجه هؤلاء إلي مارسيليا بسفينة حربية فرنسية.

كانت ثقة السلطان بفريد باشا ضعيفة، وبرغم ذلك اضطر إلى الاعتماد عليه لأنه ليس هناك أحد غيره من ناحية، ومن ناحية أخرى كان ضغط العدو شديداً مما جعله لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى الامتثال للواقع وترك الأمور تجري في مجراها. ولكن بعد اسبوع من هذا يقوم بإرسال توفيق باشا الذي سافر بسفينة حربية إنجليزية في إثره لمراقبته.

يمكن أن نطلق على وضع هذين الشخصين اللذان يراقبان بعضهما البعض في فرنسا تعبير "شر البلية ما يضحك".

لنستمع لما يقوله الياور السابق علي نوري أفندي بن توفيق باشا، عن هذا الوضع الذي لم يُسجل في أي مصدر تاريخي حتى الآن:

فقد روى الياور السابق عن إرسال توفيق باشا والده في إثر فريد باشا، وعن المشهد الغريب الذي شهدته باريس قائلاً:

"- اتجه الوفد التركي برئاسة فريد باشا في ٦ يونيو ١٩١٩ إلى مارسيليا على ظهر مدرعة فرنسية تسمى (لا ديموقراسي). وبعد اسبوع سلكت أنا ووالدي نفس الطريق في إثره على

ظهر طوربيد إنجليزي. وفي باريس حدثت لنا واقعة غريبة. احتجزونا في (شاتو) يسمى (مونتكلين) بالقرب من (فرساي) وكنا كالمسجونين فيه. وكُلف ضابط فرنسي يدعى (هنري) بمراقبتنا. قالوا لنا: (يوجد هنا وفد رسمي تركي يقوم بالعمل، أما أنتم فضيوفنا). لكن فريد باشا توجس خيفة من أبي، وقدم في حقنا مذكرة رسمية غريبة إلى حكومة فرنسا، ويبدو إنه طلب منهم إبعادنا عنه... أشار في هذه المذكرة إلى بعض المسائل الداخلية الخاصة بنا، ومنها إعلان القومية العربية والألبانية، وهو شيء لا معنى ولا مناسبة له... هل أقول لك شيئاً؟ فريد باشا أيضا ليس خائناً للوطن. لكنه رجل غير موزون، ولا يعرف ما يفعله. وعندما عاد إلى وحيد الدين لم يوجه إليه أي قول يدل على معنى إنه خائن للوطن."

أما كيف مضى مؤتمر الصلح في طريقه، وكيف تم رسم خريطة تركيا، وكيف تم التوقيع عليه، فهذه وقائع معروفة للجميع من واقع المعلومات الكثيرة التي خطتها الأقلام حول هذا المؤتمر...

لوحة:

في تلك الأثناء وقع حادث في القصر، كانت الدلالة التي أبرزها هذا الحادث عميقة للغاية حيث كان من القوة بحيث كشف لنا بمفرده عن الحالة المعنوية لوحيد الدين، وموقفه من حركة المقاومة الشعبية.

قال (علي فؤاد توركجالدي) الباشاكاتب في كتابه باسم (ما رأيت وما سمعت) في ص ٢٢٦: "في أحد أيام رمضان اندلع حريق في جناح الحرم في قصر يلديز ظل مشتعلاً حتى الصباح. يصحو الباشكاتب ورئيس موظفي القصر اللذان كانا يقيمان في (نيشان طاشي) من النوم ويُخبرون بالحادثة. يسير الاثنان على الأقدام جنباً إلى جنب حتى قصر يلديز لعدم وجود وسيلة نقل تربط بين القصرين، فالطريق إلى القصر يستغرق ساعة بالسير السريع... يالها من مهزلة! اثنين من ذوي المقام الرفيع في القصر، وهما أيضا مسنان، يهرولان إلى القصر على الأقدام لعدم وجود وسيلة نقل تربط بين قصرين كبيرين كهذين القصرين!...

يصلون!... إلى الآن لم يخبرا الحكومة، ولم يخبرا البلدية، ولم يتخذا أي إجراء... ليس هناك موظف مسئول عن إطفاء الحرائق في المنطقة. وإزاء هذا الوضع يهرول جهاز الإطفاء الموجود في أسطول العدو الذي يقف في مواجهة القصر، على الفور لإنقاذ القصر عندما رأوا

النيران، ويتدخلون بمنتهى الفعالية لإطفاء الحريق.

ياله من مشهد مؤسف! وياله من مهزلة مسيئة في حقنا واسمنا!

يخرج السلطان وهو يرتدي جلباب النوم وفوقه بالطو مطر، ويشاهد الحريق بعيون تكشف عما بداخله من اضطراب شديد. كان الحريق قريباً منه، وكانت الشرارات - طبقاً لما سمعناه من مشاهدين آخرين- تسقط على شاربه. في تلك الأثناء بدأ أحد حراس القصر يبكي بشدة، ويطلب السماح من السلطان.

عندئذ يقول السلطان هذا القول الذي يُعلق كالقناديل في سماء الوطن كله، والذي يوضح رؤيته المختلفة لهذا الحادث الذي كان عبارة عن حريق قصر يسرع العدو إلى إطفائه، بينما من هم في معيته يبكون بدموع زائفة:

" إذا كان الوطن كله قد احترق، فما أهمية أن يحترق قصري وبيتي! "

وهكذا ترى كيف تعبر هذه الجملة عن شعور وحيد الدين، فكل شيء يحترق أمام عينيه، حتى نياشينه وثيابه، وعندما يتحول كل شيء إلى رماد، يفكر، بينما تهطل الشرارات على شاربه، كيف يطفيء حريق الوطن.

هذا و ذاك :

من ناحية كانت الحركة الشعبية في طريقها نحو النضج، ومن ناحية أخرى- وبينما ينكوي وحيد الدين يومياً بشرارات شروط الهدنة - كان يتم إجراء تعديلاًت في الحكومة التي تعاقبت الواحدة تلو الأخرى في استانبول ...

اجتمع مجلس المبعوثان، الذي سيضع "الميثاق الوطني" بعد ذلك، في ١٢ يناير ١٩٢٠. وفي يوم ١٦ مارس أعلنت قوات الحلفاء احتلال استانبول رسمياً، وكأنهم يسجلون سندات نصيب اللص من الوطن الذي سرقوه. فقد وضعوا أيديهم على النقاط الحيوية. ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل أخذوا يضغطون على المجلس، فيبقوا على المبعوثين الذين يرغبون فيهم، ويغيرون ويبدلون وفق هواهم. وبسبب ذلك فر الكثير من المبعوثين إلى الأناضول الواحد تلو الآخر.

وعندما لم تقبل حكومة صالح باشا - وهى تُعتبر أخر الحكومات التي تخبطت بين المعاهدة والحركة الشعبية- تكليفات دول الحلفاء المناهضة للأناضول، وبعد ممارسة ضغوط

مستمرة، تولى فريد باشا الحكومة للمرة الرابعة. وبتشكيل هذه الحكومة الأخيرة أصبحت استانبول- رغماً عن رغبة السلطان الداخلية- جبهة ضد الحركة الشعبية. واضطر السلطان أن يخضع، ويوافق على أن يتولى الصدارة شخصاً مناهضاً للحركة الشعبية، كما اضطر أن يتحمل الأزمة، وألا يبدو معترضاً على ذلك. ولم يكن أمامه سوى أن يدعو من كل قلبه للحركة بالنصر. فماذا عساه أن يفعل غير ذلك؟

فريد باشا:

جاءت حكومة فريد باشا الرابعة في وقت كان فيه وحيد الدين يساند حركة المقاومة الشعبية في الأناضول سراً، ولكن ظاهرياً يتخذ موقفاً معارضاً للثوار، ويحاول منعهم على أساس إنهم متمردون، وهو موقف لا مهرب منه. وبينما كان السلطان وحيد الدين، سيء الحظ، يتخذ موقف المناهض للقوة الشعبية ممتثلاً للعدوالذي لم يكن يعرف المدى الذي وصلت اليه الحركة حتى ذلك الوقت، كان في حالة معنوية تجعله مستعداً للتضحية حتى بروحه من أجل نجاح هذه الحركة، وإنقاذ الدولة والعرش. وهذا الموقف المتناقض الذي عذبه لأقصى درجة - حيث كان ممزق القلب والعقل- لم يواجهه قط رئيس أي دولة في التاريخ. وهكذا اضطر وحيد الدين، من أجل سحق العدو الذي وضع قصره تحت الحصار، ومن أجل إنقاذ الأمة، أن يذعن لذلك العدو.

وبسبب صدارة فريد باشا الرابعة، وخصومته الواضحة لحركة المقاومة الشعبية في الأناضول، اهتمت الأمة كلها بتلك الحركة. والمجلس الذي تم فسخه بمعرفة فريد باشا، قام بتشكيل المجلس الوطني الكبير بممثلين جدد في أنقرة. وهكذا حصلت حركة الثورة الشعبية على حقوق أساسية.

في سطور قصيرة:

بعد أن قمت بإثبات بحثي الأساسي، والتوصل إلى نتائج سجلتها بسطور قليلة في هذا الكتاب، سوف أرد على اتهام وحيد الدين بإصدار حكم الإعدام ضد مصطفى كمال باشا وأصدقائه، وتشكيل قوة مضادة باسم مختلف من أجل القضاء على الحركة الشعبية، بأسلوب بسيط وقصير، أسلوب "سهل ممتنع" كما يقولون في لغة الأدب:

فقرار الإعدام كان قرار فريد باشا، وصدر بناءً على فتوى شيخ الإسلام دري زادة. وهنا

وحيد الدين -الذي يواجه عدواً متعقباً للأحداث باهتمام- لا يستطيع أن يقول ببساطة:

ـ لا، لا تنفذ هذه الفتوى، ولا تتحدث عن مشروعية حركة الأناضول!

فإذا كان يتعين على السلطان أن يذهب هو بنفسه إلى الأناضول ويقدم العون للحركة، كان هذا أمراً سهلاً لكن ثمنه باهظ، فقد كان سيفتح الطريق أمام قوات الحلفاء للقضاء على الحركة الشعبية، وهذا أشرت إليه من قبل في كتابي هذا. ولكن وحيد الدين ظل في استانبول معطياً الأمل للعدو، وبذلك ضمن نهوض الحركة الشعبية، ونجاحها، متحملاً هو التضحية بأن يبدو مثل الخائن للوطن. فهو إنسان حرمه القدر من أن يبدو على حقيقته الخالصة، وظهر على غير حقيقته تماماً.

ويالها من منزلة سامية في قدرة الحق!...

في هذه النقطة يبدو مدى الظلم الذي تعرض له وحيد الدين. فقد كان ظلماً لا مثيل له.

أما التشكيلات المختلفة التي باسم (قوة الانضباط) وغيرها من الأسماء، فهى لخزي العيون كما يقولون، أو إنها كانت من قبيل "التمويه"، فلم تستطع واحدة من هذه التشكيلات أن تتشابك مع الحركة الشعبية، بل إنها انضمت إليها. ولعل هذا كله - كما يتضح من سير الأحداث- كان بناءً على تعليمات سرية من وحيد الدين.

وعندما نأتي لعصيان الأناضول الذي اندلع في كل الأرجاء، نجد إنه من الأشياء التي ظهرت بنفسها نتيجة للوضع المتناقض للقصر. ويكشف لنا سير الأحداث أيضا أن القصر كان موقفه عبارة عن مجرد إنه أشار بقوله: "ليتوقف هذا العصيان"، ولكنه لم يتدخل بالفعل، ولم يأمر صراحة بضرورة وقفه، كما لم يعلن انضمامه للعصيان ودعمه بقوله: "استمروا في عصيانكم". إنني لا أرى حاجة لالتماس العذر لوحيد الدين، طالما إنه لم يكن هناك هدف سوى إنقاذ السلطنة والخلافة، فهو عندما أمر الأمير عمر فاروق أفندي بالعودة من (إينابولي) وعاد مناهضاً للقصر صراحة، كان ذلك في ضوء هذه الوقائع أمراً واقعاً، لأن الحركة التي بدأت بالاتفاق مع القصر صارت ضده.

لكننا نجد أن عذره فقط في محاولته إسكات الإنجليز، وفي بطولته العظيمة في اجتهاده لضمان إنقاذ الوطن رغم سياسة أن يبدو في صورة خائن الوطن.

ولابد أن الكلمة التي قالها للمقربين له في منزله في "سان ريمو" بعد مدة قصيرة من

استقراره هناك تبرز بشكل مختصر صحة ما أثبتناه وحللناه:

"إذا كان القصر والسلطنة قد هُدما، فما يعزيني أنه تم إنقاذ الوطن والأمة!..."

الانتصار الوطني والعرش المنهار:

والأحداث التي جرت بعد ذلك حيث كاد الشعب الغاضب أن يسقط اليونانيين المحاصرين، في البحر، معروفة للجميع من خلال المعلومات الكثيرة عنها، بالإضافة إلى إنها خارج نطاق موضوعنا...

في تلك الأثناء بينما تتزايد الأدبيات المنفرة من وحيد الدين، ويزيد ادعاء الخيانة من الغضب الشعبي يوماً بعد يوم، كان وحيد الدين - وفقاً لما سمعناه من الياور السابق علي نوري بك أفندي بن توفيق باشا- يسجد شكراً لله عند سماعه خبر انتصار للحركة، ويكاد يطير من شدة سعادته. لكن سر هذا الموقف الذي أُتخذ ضده لايعلمه سوى الله، وبعض الشخصيات التي رحلت، بينما ظل مستوراً أمام عيون الشعب.

وتحول هذا النصر ضد اليونانيين إلى نصر ضد السلطان والسلطنة، وصار السلطان محمد وحيد الدين السادس أخر سلاطين العثمانيين، قربان هذا النصر الذي كان السبب فيه، بجانب علم اليونان الذي تمزق بالحراب التركية. وكأن الجيش اليوناني كان من قواته الخاصة، وأن وحيد الدين هو الذي دفع به بعد ستره بالطين لمحاربة الشعب التركي.

ويتحدث مصطفى كمال باشا الذي أعطى شكلاً لحركة المقاومة الشعبية، والذي ظهر على السطح مثل الغواصة عندما تحقق النصر، وبعد أن توقف طوربين المراقبة الذي كان على سطح المياه حتى تلك اللحظة، قائلاً:

"- جاءني رؤوف بك ذات يوم في حجرتي التي في المجلس، وقال إنه يريد أن يتحدث معي في بعض الأمور الهامة، وقال لي إنني إذا أتيت إلى منزل رفعت باشا الذي في (كاشي أوران) سيمكننا الحديث على نحو أفضل. فوافقت على اقتراح رؤوف بك. واستأذن أن أوافق على حضور فؤاد باشا أيضا. فرأيت أن هذا مناسباً. اجتمعنا نحن الأربعة في منزل رفعت باشا. وهذا هو خلاصة ما سمعته من رؤوف بك، وهو أن المجلس يشعر بالأسف والقلق لرأيي ضرورة إلغاء مقام السلطنة وربما الخلافة... وأنه يتشكك في الموقف الذي سأتخذه بعد ذلك. وبناءً عليه لابد أن أقوم بطمأنة المجلس ومن ثم تهدأ وساوس الأمة.

سألت رؤوف بك ما مدى اقتناعه بالسلطنة والخلافة، وها هو ما صرح به، حيث قال: (أنا مرتبط وجدانياً بمقام السلطنة والخلافة، لأن والدي تربى في نعمة السلطان، وتوجد أثار تلك النعمة في دم جميع رجال الدولة العثمانية، وفي دمي أنا أيضا، وأنا ليس جاحداً بالنعمة ولن أكون كذلك! إن المحافظة على السلطان دين حقيقي في عنقي! أما ارتباطي بالخليفة فهو نتيجة لتربيتي. وعدا ذلك فإن لدي وجهة نظري الخاصة. إننا نواجه صعوبة في أن نسيطر نحن على الوضع بصفة عامة. لكن يستطيع ضمان هذا، مقاماً مألوفاً يبدو عالياً لدرجة لا يستطيع أي شخص الوصول إليه. إنه مقام السطنة والخلافة. والغاء هذا المقام، واستبداله بنظام آخر سيؤدي إلى الكارثة والخسارة. كما إنه أمر لا يجوز أصلاً!)

وبعد أن تحدث رؤوف بك، سألت رفعت باشا الذي كان يجلس في مواجهتي عن رأيه. وكان هذا هو جواب رفعت باشا: (إنني اشترك تماماً مع رأي رؤوف بك. في الحقيقة إن أي شكل للحكم غير السلطنة والخلافة ليس موضوع بحث، أو جدال في رأينا!)"

(نطق - ١٩٢٧ - صفحة ٤١٨)

ذلك هو رؤوف بك الذي استطاع أن يضمن لنفسة أكبر مقام في حركة الإنقاذ الوطني رغم إنه الذي وقع على هدنة موندروس التي أصبحت بمثابة وثيقة السجن الملية، وبدا خلال فترة كأنه يحافظ على السلطان، ذلك السلطان الذي وُصف بخيانة الوطن، بالرغم من إنه هو الذي أرسل مصطفى كمال باشا إلى الأناضول من أجل إثارة الحركة الشعبية، وهو الذي قاوم حتى النهاية، ورفض التوقيع على معاهدة سيفر.

ولنستمع مرة أخرى إلى مصطفى كمال باشا، لنرى كيف تغيرت أفكار وأقوال الشخصيات التي كانت في موقع أبطال الحركة الشعبية بسرعة:

"- عندما أصدرت قراري بفصل السلطنة عن الخلافة، ثم إلغاء السلطنة أولاً، كانت أحد الأشياء التي قمت بها في البداية هو استدعاء رؤوف بك بسرعة إلى حجرتي التي في المجلس. وبدوت كأنني لم أطلع قط على الأراء التي استمعت إليها حتى الصباح من رؤوف بك في منزل رفعت باشا، ووجدتني أقول له وأنا واقفاً على قدمي: سوف نلغي السلطنة بعد فصلها عن الخلافة! وسوف تجدون هذا في البيان الذي سألقيه من منبر المجلس! وقبل أن يخرج رؤوف بك من حجرتي، جاء كاظم قره بكير الذي دعوته لنفس الهدف. وطلبت منه

أيضا أن يحضر إلي المجلس، ويستمع إلى البيان الذي سألقيه هناك.

أيها السادة، وفقاً لما بدا في جريدة المضبطة الخاصة بذلك التاريخ، فإن رؤوف بك كان موجوداً أثناء إلقائي البيان من منبر المجلس، حتى إنه أشار إلى أن يوم إلغاء السلطنة وافق يوم العيد."

(نطق-١٩٢٧-صفحة ٤١٩)

ولنترك لقرائنا تقييم كلا الطرفين.

وها هو ما حدث في المجلس حتى تم في النهاية إلغاء السلطنة:

بينما يناقش مجلس الأمة التركي الكبير مسألة السلطنة في اجتماع مشترك، وبينما يبدي بعض المبعوثين مقاومة شديدة لمسألة الإلغاء، ينهض مصطفى كمال باشا الذي كان يستمع للمناقشات، فجأة على قدميه.

ولنثبت هذا المشهد بلسانه هو شخصياً:

"صعدت فوق الصف الذي أمامي، وقلت بصوت مرتفع هذا البيان: أيها السادة، يجب أن يعلم الجميع أن الحاكمية والسلطنة لا تُقَدم من شخص إلي آخر بالمباحثة والمناقشة، بل تؤخذ السلطنة والسيطرة بالقوة والقدرة. إن ابناء عثمان قد وضعوا أيديهم على السلطنة، وحكموا الأمة التركية بالقوة. واستمر هذا التسلط ستة قرون. والآن يأخذ الشعب التركي بالفعل السلطة والسيطرة في يده معلناً عصيانه، وواضعاً الحدود لهذه التجاوزات. إن هذا أمر واقع. والمسألة ليست هى هل نترك السلطة للأمة أم لا نتركها. بل هى عبارة عن الإفادة بحقيقة الأمر الواقع. فالأمر سيحدث على أي حال. فالمجتمعون هنا، سواء من المجلس أو من خارجه، إذا رأوا أن هذه المسألة طبيعية، سيكون هنا متفق معي في الرأي. وإذا رأوا عكس ذلك، فالقاعدة أن يفيد بذلك في دائرته. لكن من المحتمل أن بعض الرؤوس سوف تُقطع!".

(نطق-١٩٢٧-صفحة ٤٢٢)

ويحني الجميع رؤوسهم.

ومن نفس الفم نرى شكل القضاء على السلطنة:

"وتم تحديد لائحة القانون بسرعة. وقُرأت في الجلسة الثانية للمجلس في نفس اليوم.

وصعدت على المنبر معارضاً للرأي الذي يقول بضرورة ترشيح أسماء، وأخذ الأصوات. وقلت لا حاجة لنا لذلك. أظن نحن متفقون على إنه من أساسيات المجلس الكبير، المحافظة على استقلال الدولة والأمة. وارتفعت الأصوات قائلة: (فلنأخذ الأصوات!). وفي النهاية أخذ الرئيس الأصوات، وقال: (موافقة!). لكن سُمع صوت معارض يقول: (أنا أعترض)، لكنه خُنق بصدى الأصوات التي تقول (سكوت). هكذا أيها السادة جرت أخر صفحة لمراسم انقراض وانهدام السلطنة العثمانية."

(نطق ـ ١٩٢٧ ـ صفحة ٤٢٢)

وأعلن انهدام العرش، وقيام الجمهورية بإطلاق ١٠١ طلقة مدفع...

ولنأتي لرأي مصطفى كمال باشا في وحيد الدين:

"ـ سافل حصل على مقام عالي، ولقب محتشم نتيجة نظام متوارث سقيم..."

(نطق ـ ١٩٢٧ ـ صفحة ٤٢٣)

إشارة مصطفى كمال باشا إلى ضرورة مغادرة وحيد الدين البلاد:

"ـ في الحقيقة إن وحيد الدين ستتعرض حياته وحريته للخطر لأي سبب، وبأي صورة كانت، إذا فكر أن يعيش بين الشعب كإنسان عادي. أما إذا فكر أن يعيش كرئيساً لهذه الأمة، ولو لدقيقة واحدة، فياله من إنسان تعيس! فسوف يلقى الشكر الذي يستحقه، هذا الذي يريد أن يبقى ليواصل دناءاته، بعد أن أسقط الشعب هذا الدنيء من مقام السلطنة الموروث."

(نطق ـ ١٩٢٧ ـ صفحتي ٤٢٣، ٤٢٤)

وهكذا فجأة يلقى وحيد الدين هذه المعاملة، بعد تحقيق النصر الذي أسعده لأقصى درجة. ويندهش ولا يعرف ماذا يفعل، عندما يرى أن العرش العثماني قد أصبح هدفاً لـ ١٠١ طلقة.

ووجد أمامه نموذج علي كمال الذي تم اقتياده إلى (إزميت) ممزقاً إرباً لأنه حاول الإمساك بطرف الخلافة، وإعلان نور الدين باشا، بإنه سيفعل نفس الشيء لوحيد الدين.

وربما يلقى مصير "گنج عثمان" الذي جروه من فوق حصان أجرب مثل أفراخ الحمام إلى (يدي كوله)، وهو يجر ساقيه بصعوبة، ثم داسو عليه وقتلوه!... أو مصير سليم الثالث!... ولويس السادس عشر... هناك أمثلة كثيرة،مثل قيصر روسيا، نيكولاي الثاني

الذي امتلأ جسده بالثقوب من جراء طلقات الرصاص التي أمطروه بها مع أسرته في أحد المخازن التي صارت أشبه بالسلخانة... أمام وضع كهذا ماذا يجب عمله؟

هناك طريقان...

إما البقاء في البلاد وانتظار ما سيحدث له، أو الرحيل خارج الوطن بوصفه إنساناً عادياً، فقد صفة السلطنة...

لكن هناك أيضا لقب الخلافة، فهو يهم مائة مليون مسلم، وهذا يتطلب ماهية تفوق القرارات المحلية... فهؤلاء المسلمون هم الذين من حقهم المطالبة بالمنصب، بشرط ألا يكون أداة لتحقيق أمل الأنجليز، فقد كان جزء كبير من الأمة الإسلامية في ذلك الوقت تحت السيطرة الإنجليزية. ولذلك فالدولة الوحيدة التي يمكن أن تهتم بالخلافة هى إنجلترا.

وبعد حساب طويل مع النفس يتخذ قراره الأخير: "سأغادر الوطن"، لكن كان هناك صوت داخله يقول!

- لا لن أرحل عن الوطن! سأبقى حتى إذا تعرضت للموت!

ولكنه لا يقولها.

ليته استطاع أن يقولها.

من أجل توضيح معيار تقييمنا، سأقول إنه لا يوجد في قلب وحيد الدين هذا القدر الكبير من الشجاعة، وليس من حق أي شخص أن يطلب منه هذا القدر من الشجاعة.

كان وحيد الدين يستطيع أن يمكث في وطنه عالي المقام، رافعاً الرأس، لكن رحيله عن وطنه لا يحط من قدره، لأن لديه العذر.

كما عرفنا أن وحيد الدين رجع إلى الإنجليز، وطلب منهم باقتضاب أن يساعدوه على الخروج من تركيا.

وها هو خطابه الذي يحمل عنوان "البلاط الهمايوني السلطاني":

"إلى جناب الجنرال هارينجتون، قائد جيوش احتلال دار السعادة:

إنني ألجأ إلى فخامة دولة الإنجليز، لأنني أرى أن حياتي في استانبول أصبحت معرضة للخطر، ولذلك أطلب منكم نقلي من استانبول إلى مكان أخر.

١٦ تشرين ثاني ١٩٢٢

وكان هذا هو رد الجنرال هارينجتون:

ـ سوف أحضر بنفسي غداً إلى القصر الهمايوني، واصطحب الذات السلطانية، وأساعده على الرحيل عن استانبول على ظهر سفينة حربية إنجليزية!

ظل وحيد الدين ساهراً طوال الليل... يفكر في القصر الحزين الساكن سكون القبر، وفي الحجرة الصغيرة التي ستكون سكنه في مالطا. وظل ممدداً على كنبة شيزلونج بسيطة فاتحاً عينيه ناظراً إلى السقف بلا حراك مثل المومياء. إنه سلطان واجه سوء حظ واضطراب لم يواجهه أي سلطان آخر في التاريخ...

أمر بتجهيز حقائب السفر، ولم يسحب شيئاً من الخزينة الخاصة. حتى الطرة الماسية، هدية والده له، وصندوق صغير من الذهب الخالص، تركهم في الخزينة الخاصة مقابل إيصال إستلام. هنا لابد أن نتخيل مدى حس التضحية والقناعة التي في روح هذا الحاكم. حتى الهدايا الشخصية يعيدها إلى الخزينة الخاصة، بينما كان في إمكانه - وهو السلطان الذي سيرحل، وفي معيته جيش من أسرته وأهله إلى عالم مجهول- أن يفرغ هذه الخزانة تماماً حيث إنها خزانته الخاصة ولكنه لم يفعل...

كان كل ما معه من مخصصات السلطنة عبارة عن ٥٠ ألف ليرة ورقية، كان يستعد للرحيل بهذا المبلغ البسيط، ومعة معية ضخمة، وإلى بلاد غربة.

بعد بزوغ النهار بقليل جاء خبر إلى وحيد الدين:

ـ سيدي وصلت أمام باب القصر العربات التي أرسلها الإنجليز... وينتظرون تشريفكم الهمايوني في واحدة من عربات القيادة العليا!

نهض السلطان من الشيزلونج، وكان قد استعد تماماً، وجهز كل شيء، ومر إلى الحرملك ماسكاً بيده ابنه محمد أرطغرل الذي أحضروه ليكون بجانبه.

الوداع... صرخات جريحة من نساء القصر. إن القصر العثماني الذي اعتاد على هذا الصراخ بداية من قصر (طوب قابي)، صار ساحة لتبادل المزيد من صرخات أصحابه الأخيرة. ولن نسمع في هذا المكان مرة أخرى صوت هؤلاء، بل ستملأ المكان أصواتاً، ومعاني أخرى...

خرج وحيد الدين حاملاً مظلة سوداء اللون، مرتدياً ملابس مدنية، وعلى رأسه طربوش، وعلى أنفه نظارته، ودخل إلى العربة الأولى التي انطلقت بسرعة تجاه (دولما باغچة).

وبعد الانتظار من ٥ إلى ١٠ دقائق أمام قصر (دولما باغچة) الحزين، الصامت كالقبر، أومأ الجنرال الإنجليزي إلى السلطان وقال:

ـ ينتظر قارب بخاري خاص بالأسطول الإنجليزي عند الرصيف، لتوصيل الذات السلطانية إلى المدرعة (مالايا)!

قفز وحيد الدين من كرسي العربة منطلقاً خارجها، وسار بخطى ثابتة، وصعد إلى قارب بخاري أبيض اللون، ذو مدخنة صفراء، ثم صعد إلى المدرعة (مالايا) ذات اللون الرمادي، والمدافع التي تشبه أفواهاً عملاقة تقرأ فرمان للأفق المفتوح. وصعد وراءه الجنرال (هارينجتون) من الرصيف إلى سطح السفينة، وكان أمامه الأميرال (دروك) قائد الأسطول الإنجليزي في البحر الأبيض، والمفوض الإنجليزي فوق العادة السير (نافيل هندرسون)...

وأطلق سلاح البحرية - بالمدافع الإنجليزية وليس البنادق التركية المنتصرة- تحية للسلطان البائس.

وبعد وهلة انطلقت المدرعة (مالايا)، وفي داخلها قصر عثماني استمر ٦ قرون، مارقة من أمام قصر طوب قابي العريق، إلى بحر مرمرة.

والآن لا يوجد شيئاً في الأفق سوى دخان رقيق رمادي، يتصاعد من السفينة الرمادية، دخان يعلن عن انتهاء كل شيء.

ويذهب وحيد الدين!

هل هو يهرب؟ هل هو يترك وطنه كالخائن؟

ونطلب من علي نوري أفندي، الياور السابق، أن يفسر لنا معنى هذا الذهاب الذي قيمناه سابقاً:

يقول علي نوري بك:

"ـ وحيد الدين لم يهرب، لم يهرب بصفته السلطان! لكنه رحل بوصفه فرداً عادياً. فقد أُلغيت السلطنة في أنقرة بإطلاق ١٠١ طلقة مدفع. إن وحيد الدين خُلع عن عرشه. وبعد أن جردوه من كل صفاته، لم يتبق له سوى نفسه. وبعد أن أصبح فرداً عادياً فمن حقه أن

يرحل!".

ولأوضح نقطة لعل علي نوري بك أفندي قد نسيها، أو إنه لم يرَ لزوماً ليقولها:

- إن وحيد الدين ذهب ليبحث عن حيلة في رأسه بلقب "خليفة المسلمين" الذي لم يستطع أحد أخذه منه حتى ذلك الحين، فقد أراد من إنجلترا التي تسيطر على جزء كبير من العالم الإسلامي، المحافظة على حقه بصفته الخليفة، دون أن يقدم لها أي مقابل لقاء ذلك.

ويتجه وحيد الدين بالمدرعة الإنجليزية من بحر إيجا إلى البحر الأبيض في اتجاه جزيرة مالطا... وقبل أن نغلق فصل (حركة المقاومة الشعبية) وبحث (العرش المنهدم) لنلقي نظرة أخيرة على الوضع الأخير في استانبول...

ونظراً لأن أخر صدر أعظم في ذلك العصر كان توفيق باشا، لذلك نستمع مرة أخرى إلى ابنه علي نوري بك أفندي:

"- بعد انتصار الأناضول، وإلغاء السلطنة قال والدي: هذا انقلاب وبداية هوية شرعية جديدة، ولابد أن أستقيل من منصبي!

إنكم تعرفون أن والدي كان أخر صدراً أعظم لأخر سلطان. اجتمع مجلس وزرائه في الشقة التي هي الآن قسم البار في مبنى فندق (بارك) الذي ترونه، وترك والدي منصبه بقرار مشترك اتخذه المجتمعون. واحتفظ والدي (بالمهر الهمايوني) أو (المهر الشريف) الخاص بالسلطان. هذا المهر التاريخي لا يزال حتى تلك اللحظة عند أخي حقي بك. في تلك الأثناء استدعاني رئيس موظفي القصر، وأبلغني ذلك القرار: قولوا لوالدكم ليخرج من البلاد، وليذهب إلى أي مكان أخر، الريفيرا مثلاً ليستريح! ... أبلغت والدي بهذا القرار فقال: إنني أشكر اهتمامهم بي، لكن أنا صحتي جيدة، وليس بي حاجة إلى الاستراحة في أوروبا! إنني أرجح البقاء في وطني!

أخبرت القصر بذلك الوضع، فخاطبني رئيس موظفي القصر قائلاً: خذ هذه الرسالة وقدمها لوالدك، وستعرفون منها سبب طلبي منك إخبار والدكم بضرورة خروجه من البلاد!

وأعطاني رسالة مطبوعة في يدي. كانت تلك الرسالة عبارة عن قانون الخيانة الوطنية. أعطيت الرسالة لوالدي فطلب مني أن أقرأها له. كانت المادة الأولى في هذا القانون تبحث في

مسألة مراعاة حرب الاستقلال لغاية المحافظة على السلطان والخليفة، وأمام هذا قال والدي: إذا كان ذلك هو السبب الذي يدعوا لخروجي من الدولة، على العكس إذ يجب على أن أبقى هنا ولا أذهب إلى أي مكان آخر، فالذين كانوا يريدون إنقاذ السلطان والخليفة ماذا عساهم أن يفعلوا سوى تقديم الشكر للصدر الأعظم الذي كان يسعى هو أيضا لنفس هذه الغاية؟...

ولهذا مكث والدي في استانبول. وكان هنا حين استرداد استانبول، ولم يعامله أي أحد معاملة سيئة، بل على العكس لقي احتراماً كبيراً. وعند وفاته أرسلت فرقة سواري للسير في جنازته."

عند وصول المدرعة (مالايا) بكل حمولتها آتية بالسلطان الذي كان كبده يحترق في طريقه للغربة. وبينما يصبح يتيماً من الوطن، يتذكر كلمة كان قد قالها لباشكاتب القصر ذات يوم في الماضي:

"- إنني أشعر في كل وقت بفراق والدي. وعندما أرى يتيماً في أي وقت أتذكر في الحال شفقة الأب. فالحرمان من الأب أليم جداً."

ويتذكر المزيد من الذكريات:

"- كان في أسرتنا كافة أشكال الرجال، الثمل والظالم والمجنون والأبله، لكن لم يكن في أسرتنا أبداً الملحد الذي لا يعرف دينه! حتى عبد العزيز الذي كان أكثر منا جميعاً حرية ولا مبالاة، كان حتى آخر نفس، وهو يسلم الروح محتضناً القرآن. لقد رأيتم أنتم أيضاً بأعينكم في مكتبة يلديز "المصحف الشريف المغطى بالدم!".

هذه الكلمات التي أخذناها من الباشكاتب علي فؤاد توركجالدي، توضح مدى قوة وإيمان هذا السلطان - الذي ظل يتيماً من الوطن أي من الملايين من شعبة- ولم يعد يملك شيئاً بعد رحيله عن الوطن، سوى هذه القوة.

إن صاحب العرش الذي حُكم عليه بعذاب معنوي مخيف، عذاب يفوق الدفن في القبر حياً، لم يحقد يوماً على أحد، ولم يكن عداوة لأحد. والإحساس بالحقد أو بالثأر إحساس غريب عليه، انظر، ماذا قال ذات يوم لباشكاتبه:

"- إنني لا أكن حقداً لأحد، ولا أشعر بإني أريد الثأر من أحد. حتى أنني كنت إذا

غضبت ذات يوم على أحد وجاءني هذا الشخص لاجئاً إلي تزول حدتي، لكن هناك اثنين لم تزولا حدتي معهما. أحدهما والدة السلطان عزيز، والأخرى الوالدة الكبيرة، والدة سعيد باشا..."

وهناك أيضا ثلاثة أشخاص آخرين ينفر منهم السلطان الذي لا يحمل ضغينة لأحد في الأصل، إذ يقول:

"- في هذه الدنيا ثلاثة ملاعين، أحدهما أختي، والثاني فريد باشا زوجها، والثالث سامي ابنهما..."

فذلك كان حكمه على فريد باشا الرجل رقم (١) في الجبهة المعارضة لحرب الاستقلال، وبرغم ذلك كان مضطراً لأن يبقيه في مقام الصدارة العظمى!...

والسلطان لم يحمل ضغينة لأحد خاصة مصطفى كمال باشا، ففي نهاية طريق الرحلة التي قطعها بالمدرعة (مالايا)، وفي فيلته في إيطاليا سأله رجل، ماذا ستفعل مع مصطفى كمال باشا إذا آل الأمر إليك مرة أخرى؟ فروى له منقبة عن السلطان سليم (ياووز) قائلاً ما يلي:

"- إذا كان الياووز قد عفى عن الجندي الذي نهض لقتله، وقال له اذهب فقد عفوت عنك؛ لأنني محتاج لشجاع مثلك، يملك الجسارة التي دفعته لقتل الياووز. وكذلك أنا محتاج لشجاع مثل مصطفى كمال ليكون في جيشي، لذلك فإني سأعفو عنه، وأرسله لخدمة الأمة!".

لكن بينما كان وحيد الدين سيعفو عن مصطفى كمال، صار هو نفسه غير مُعفى عنه، و طُلب منه أن يرحل بذنب لا يقبل التاريخ العفو عنه.

الوثيقتان الأخيرتان:

بينما كنت في كتابي على وشك الوصول إلى النقطة التي أتعقب فيها السلطان وحيد الدين في المدرعة (مالايا)، جاءتني رسالة من صحيفتي على التليفون في منزلي تقول:

- يوجد شخص يريد رؤيتكم ويقول إن لديه معلومات في غاية الأهمية! في تلك اللحظة وهنا...

سألت هذه الأسئلة حتى أطمئن عن شخصيته، هل هو موزون أو غير موزون؟ جاد أم غير جاد؟

- من هو؟ وما الموضوع الذي يريد التحدث فيه؟

ـ لا يقول أي شيء! لكنه يقول إنه يريد فقط أن يتحدث معك!...

ـ دعه يكلمني على التليفون!...

سمعت صوت على التليفون جعلني أشعر بالاطمئنان، قال:

ـ لدي وثيقة متعلقة بسلسلة مقالاتك، أريد أن أعطيها لك؟... لا أستطيع أن أتحدث عنها في التليفون ولا آمن أن أرسلها مع أي أحد. لابد أن أقابلك...

لا أعرف لماذا قلت له ما يلي:

ـ تفضل إلى منزلي لنتحدث سوياً! هل كان ذلك لإحساسي بالاطمئنان لنغمة صوته؟ أم من إحساس تولد بداخلي تجاه هذا الشخص المجهول؟ لا أعرف.

ثم أمليت عليه العنوان.

كان أبيض الشعر، أسمر الوجه ، يبدو في سن الـ ٦٥، محترماً... تشعر إنه واحد من الطبقة الشعبية. فهو يكاد يقرأ ويكتب، ولكنه منظم في حديثه، ولا يخفى عن الأذن قدر الثقافة الضئيل الذي يحمله.

بدأ حديثه على الفور قائلاً:

ـ إنني أقرأ باهتمام، سلسلة مقالاتك عن وحيد الدين، وثمة مسألة تبحث فيها وهي أن السلطان وحيد الدين هو الذي أرسل مصطفى كمال باشا إلى الأناضول، ليبدأ حرباً شعبية... إنني الإنسان الذي سمع أتاتورك وهو يقول هذه الحقيقة بنفسه إلى كاتب مذكراته... الله موجود... وأريد أن أشهد بهذه الحقيقة للتاريخ، والله شاهداً.

ـ أولاً عرفني بهويتك، وما علاقتك بأتاتورك؟

ـ اسمي جمال جراندا... من مواليد عام ١٩١٠، في حي (صالحلي) في إزمير، ونشأت في استانبول. والآن أنا على المعاش من مؤسسة (دنيز يوللري) أي الطرق البحرية. وأسكن في إحدى قرى (يالوفا). فيما بين أعوام ١٩٢٧ ـ ١٩٣٨ كنت في خدمة أتاتورك لمدة ١١ عاماً بالضبط، حيث عملت لديه كسفرجي. كنت على رأس من كانوا يعملون في خدمة تقديم الطعام له في القصر. وبوصفي كنت قريباً من حياته كل لحظة في القصر، كنت أرى عصبيته وفرحته، كما أُتيحت لي فرصة أن أستمع لما يقال بينما أقوم على خدمة تقديم الطعام. إن ما سمعته ومارأيته على مدى الـ ١١ عاماً التي عملت فيها لديه يكفي لملء كتاب.

ـ أي شيء مما شاهدته له علاقة بوحيد الدين؟

ـ كان ذلك في عام ١٩٢٨ـ ١٩٢٩، كان كاظم قره بكير يلقي بعض البيانات والتصريحات، وكان يدّعي أن شرف حرب الاستقلال يعود إلى أتاتورك وإليه هو شخصياً، ولم يعطِ الآخرين أي نصيب من هذا الشرف. فغضب أتاتورك من هذا الكلام غضباً شديداً. وخاصة عندما ادعى كاظم قره بكير إنه صاحب الخطة الأولى... وذات يوم كان يجلس أمام الكاتب توفيق بك، وكان يناقش معه هذا الموضوع بعصبية شديدة. وقد استمعت إلى حديثهما في هذا الخصوص بينما كنت أقوم بخدمتهم، حيث كنت أدخل وأخرج، أحضر القهوة، وسائر الأصناف التي أقدمها لهم، كان يقول:

"إذا كان قد أنقذ هذه الدولة رجلين فقط ،كما يدّعي كاظم قره بكير، فوأسفاه على هذه الأمة... كيف يتفوه بشيء كهذا؟ لابد من عرض هذا الرجل على دكتور أمراض عقلية ولابد من علاجه!... هل إلى هذه الدرجة حريص على إبداء عجزالأمة؟" ثم يقول فجأة وبصورة مباشرة لتوفيق بك: "إن وحيد الدين اختارني أنا من بين العديد من الباشاوات من أجل بدء الحركة الشعبية، وهو الذي أرسلني إلى الأناضول. فإذا لزم البحث عن الشخص الذي أنقذ هذا الوطن، فلابد إنه هو وحيد الدين!". لقد سمعت هذا الكلام بأذني. ولم أنسى حتى هذه اللحظة موقف أتاتورك، أو أي شيء مما قاله. وأرجو أن تكتب هذا الكلام كما قلته، وسوف أوقع على ماتكتبه. وأنا لا أنتظر من وراء هذا سوى إظهار الحقيقة، وأن أنال رضاء الله!

وها هي الوثيقة ومكتوب تحتها:

هذا هو البيان الموقع من جمال جراندا، سفرجي مصطفى كمال الذي أثبت به بحثنا في أن فكرة حركة المقاومة الشعبية هي فكرة السلطان محمد وحيد الدين السادس.

وأمليت على ابني ما أفاد به جمال جراندا، وأخذت توقيعه، كما ترون في الصورة التي أعرضها في ص ٢٥١ من هذا الكتاب(٦٨).

وهذه الوثيقة تعد من ناحية البحث العلمي التاريخي، أوثق وثيقة. فهي عبارة عن شهادة لا غرض من ورائها، أو انتظار فائدة منها، وشهادة جاءت صادقة، وبحسن نية. فإن من شهد بها شخصاً عادياً. ونظراً لأنها تثبت ما أثبتناه بنفسنا في قضيتنا، فإنني أقوم بتقيم ما أثبته

(68) يقصد الكتاب الأصلي.

السفرجي، بإنه شيء كبير وقيم، برغم إنني لم أكن بحاجه إليه. لكن مع ذلك فهى تعد بمثابة وثيقة.

كان جمال جراندا لا يزال عندي عندما جاء ساعي البريد، وأحضر معه صحيفة. كانت صحيفة (دنيا) بتاريخ ١٩ مايو ١٩٥٧، أرسلها لي أحد القراء... تتصدر الصفحة السادسة لهذه الصحيفة خواطر بتوقيع (فالح رفقي) بعنوان رئيسي: "أتاتورك يذهب إلى سامسون"، وعنوانها الفرعي، كان عبارة عن ذلك الكلام الذي سجلته من قبل، وقيل لمصطفى كمال بلسان وحيد الدين وهو:

"ـ أيها الباشا، أيها الباشا! إنكم خدمتم الدولة كثيراً حتى الآن! وكل هذا قد مضى وانتهى! وما ستقدمه الآن هى أهم خدمة تؤديها! إنك أيها الباشا تستطيع إنقاذ الدولة!".

وبالنظر إلى أن إنقاذ الدولة لا يكون بالعمل على استتاب الأمن في سامسون، يأتي هنا تأييد بقلم مثل قلم فالح رفقي، للسبب الأساسي لأرسال مصطفى كمال باشا إلى الأناضول. وهذا الاعتراف يتفق عليه كثيرون من أعداء وحيد الدين، لكن عندما نأتي للمغزى الحقيقي لهذا العمل المكلف به، يفر الجميع من الحقيقة.

لقد أرسل وحيد الدين مصطفى كمال باشا إلى الأناضول مباشراً، من أجل إنقاذ الشعب التركي ودولته. وبعد إنقاذ الدولة نصب مصطفى كمال الظروف اللازمة لإبعاد صاحب فكرة إنقاذ الدولة، وأول من عمل في سبيل ذلك، عن الوطن داخل مدرعة العدو. وبينما يقترب وحيد الدين من شبكة الظروف المنصوبة له، وهو لا يدرك إنها الموت، تسقط الشبكة على البطل العظيم الذي يقف صامتاً، وبذلك يصعد أخر درجة في سلم سوء حظه، بل وتصبح هذه الظروف مستنداً ضده، قدمه بنفسه مجاناً للذين أظهروه خائناً للوطن.

مالطا ومكة

هاهو وحيد الدين - الذي أُطلقت المدافع تحية له، وهو يصعد إلى المدرعة الإنجليزية عند رحيله عن استانبول التي من أسمائها أيضا "دار الخلافة"، والذي رُفعت له الراية على السفينة، وعومل معاملة سلطان مظفر بينما، هو في غاية القلق والاضطراب- يتم استقباله في مالطا بمنتهى البساطة، فلم يشهد أي مراسم عند وصوله. عندما اقتربت المدرعة من سواحل مالطا، ألقت مرساتها، وجاء الحاكم الإنجليزي اللورد (بلومير) إلى السفينة، وسلم على وحيد الدين باسم ملك انجلترا، وقال له إنه يشرفه نزول الخليفة ضيفاً على الجزيرة. وأمر بأن تُنفذ كل أوامر الخليفة بسرعة.

وأمر الضابط الإنجليزي بتخصيص جناحاً واسعاً في مبنى هادىء وفخم كان في الأصل معسكراً قديماً للجنود محاطاً بالأسوار، لوحيد الدين ومعيته. ظل وحيد الدين في هذا المكان الذي يشبه القصر، في جناحه لا تفارق عيناه الأفق البعيد للبحر اللانهائي، ولا يشاهد سوى منظر السفن الحربية ذات اللون الرمادي في ذهابها وإيابها.

كان من بين معيته قائمقام يُدعى زكي بك الذي كان أشد ما أُبتلي به الخليفة في غربته... كان رجلاً وقحاً غير مهذباً، فظاً لأقصى درجة، نفعياً ومقامراً وسكيراً... تُرى ماذا سيكون العمل الذي يليق بهذا الرجل، فقد كان "قائد الموسيقى الهمايونية"، ومن الياوران الفخريين للسلطان وحيد الدين... وهو شقيق إحدى زوجات وحيد الدين التي طلقها، وتركت القصر منذ زمن طويل. وبرغم إنه لم يعد هناك أي علاقة له بوحيد الدين بعد طلاق أخته، فقد ظل زكي بك ملتصقاً كالحشرة بالسلطان، متظراً لعب دور رجل السلطان الخاص.

كان هدف هذا الرجل استغلال قربه من السلطان، ولذلك ذهب معه في غربته لاستغلال هذا الخليفة المضطرب، المظلوم، كأنه صديق، ولكنها في الحقيقة كانت صداقة لا يريدها السلطان هذه المرة. كان هذا الرجل - الذي سنرى بعد ذلك ما سيفعله في وحيد الدين في إيطاليا- خبيثاً وشريراً. لم يكن يرى وجه السلطان، ولم يستأذن منه قط. وبطبيعته هذه كان لا يعرف أي شيء سوى استغلال صبر السلطان وأصالته وموقعه ونفوذه. وقد تسبب هذا الرجل في فضيحة في جزيرة مالطا بالخمر الذي كان يحتسيه صباحاً ومساءً.

أما وحيد الدين فهو إنسان لم يعرف طعم الخمر طيلة عمره، باستثناء نقطة واحدة رشفها عندما كان في رحلة ألمانيا التي قام بها عندما كان ولياً للعهد. فقد اضطر في إحدى الولائم الرسمية إلى أن يرفع كأس الشمبانيا إلى فمه، ويرشف نقطة واحدة، ثم أنزلها بسرعة... لكن طبعه العاجز عن طرد الذباب الذي يحط عليه، يحكم عليه بالابتلاء بشخص كهذا.

كان القائمقام زكي مكلفاً بإحضار الخطاب الذي كتبه الجنرال هارينجتون إلى السلطان، ثم أخذ الرد منه ليسلمه لهارينجتون، لترتيب خطة الرحيل عن الدولة. أثناء تواجده مع السلطان لأداء هذه المهمة، لم يتوان عن الاقتراح على وحيد الدين بأن يأخذ معه الأمانات المقدسة الخاصة بمقام الخلافة التي في قصر طوب قابي. وهنا يرد عليه السلطان قائلاً:

- لن أخذهامعي! إنها أمانات وهدايا أجدادي إلى الشعب التركي.

أما الآخرين الذين كانوا في معيته، فهم رفاقه في الصلوات الخمس. الياور باشا "رئيس موظفي القصر"، ورشاد باشا الدكتور الخاص للسلطان وغيرهم من الشخصيات الجيدة، لكنها شخصيات باهتة.

وكان أسلوب حياته في مالطا، لايختلف عن أسلوب حياة نابليون في منفاه في (سانت هيلانة)... فقد كان لا يهتم سوى بأخبار استانبول والأناضول، وكان أمله وشوقه كله لتركيا.

كان شغله الشاغل هو قراءة الصحف بنفسه، أو تكليف آخرين بالقراءة...

في إحدي المرات، كان يوجد في الصحيفة سباب واتهامات ضده، لم يستطع الذي يقرأ له أن يقولها تأدباً، فقال له وحيد الدين:

- هذا حقك إنك لا تستطيع أن تقرأها، أنا أفهم ذلك، إذاً فلتترك الصحف، وتترك هذه المنضدة، وأنا سأقرأها بنفسي!

وعندما علم بخبر اختيار عبد المجيد أفندي، ولي العهد، خليفة وجلوسه على عرش ياووز الزمردي، أخذ يقهقه على غير العادة، ثم يصمت ليقول بعد ذلك لمن كانوا بجانبه:

- أي عرش؟... هل بقي هناك عرش؟... هذا الأفندي كان يرتدي قلنسوة الفاتح علي رأسه عندما كان ولياً للعهد، وكان يقوم ببعض الحركات الغريبة، وقد وبخه على ذلك أخي الكبير رحمه الله السلطان عبد الحميد. أرى إن طبعه لم يتغير! هكذا كلهم أبناء عبد العزيز...

وهذه الحقيقة عبر عنها السلطان عبد الحميد أجمل تعبير بقوله: "إذا تركتهم لرؤوسهم الفارغة، فإنني أعرف إلى أي درجة سيهبطون بنا!". كيف يرضى هذا الرجل أن يصبح ألعوبة غير ذات قيمة، مغلقة بعظمة جوفاء؟

ثم جاء هذا البيان الذي نشره عبد المجيد بعد ذلك في حق وحيد الدين في الصحف، إذ قال:

".هذا الخائن لم يخن وطننا فقط، بل لعب بشرف أسرتنا السلطانية. إن هذا الرجل الذي خرج من الوطن، يجب أن يخرج أيضا من سجل أسرتنا! للأسف إن أبي يُعتبر عم هذا الرجل الذي لم يفكر حتى في هذا!".

ولا لزوم لوضع أي تفسير لهذه الكلمات التي تنم عن حمق، وضعف عادي، يتسمان به طبع عبد المجيد.

وتقول المعلومات التي حصلنا عليها من نشريات الياور السابق (طارق ممتاز گوز تبه)، إن وحيد الدين بعد قراءة هذا الهجوم الأخير، توقف عن قراءة الصحيفة.

في ذلك الوقت جاء حاكم مالطا اللورد (بلومير) إلى وحيد الدين ذات يوم، بوصفه ممثلاً عن حضرة ملك إنجلترا. وأبلغه ببرقية جاءت من الملك حسين الأول، ملك الحجاز. وتلك هى البرقية التي كُتبت باللغة الإنجليزية، وبشفرة المقام العسكري الإنجليزي:

"خليفة الدنيا وإمام المسلمين جميعاً، حضرة سيدنا أمير المؤمنين، يتشرف عبدكم الملك حسين، باسم رابطة الصداقة والإيمان،بدعوتكم لزيارة الكعبة المشرفة، لتسعد العين برؤياكم البهية."

وكان ذلك هو رد وحيد الدين:

".إن ذهابي إلى الحجاز هو من أجل الاقتراب من الأجواء الروحانية لنبينا وليس بناءً على دعوة الملك حسين، بل بدعوة نبينا وسيدنا الشريف الذي أمثله، واعتبرها بشرى لا مثيل لها".

وهكذا فإن وحيد الدين كان لايزال يعتبر نفسه، خليفة المسلمين وسلطان الأتراك. ولهذا نجده يقول ذات مرة: "لا يستطيع عزلي من مقام الخلافة، سوى موكلي المقدس!"

والبرقية التي أرسلها الياور باشا، رئيس موظفي القصر، إلى الملك حسين، هى بمثابة

وثيقة عظيمة، توضح مدى قناعة السلطان بعلو منزلته:

"إن خطابكم المرسل إلى عتبة مقام الخلافة المقدس، فلكي المقام، أسعد السلطان لأقصى درجة. وقد تفضل بالقرار بسرعة التحرك، تلبية لدعوة موكله ذو الشأن، ولتكحيل العين برؤية الروضة النبوية. كما أمرني بإبلاغكم شكره لشخصكم الكريم، وسوف نبلغكم بيوم السفر."

قام الحاكم اللورد (بلومير) بنقل وحيد الدين ومعيته إلى المدرعة (بارهام) بكل احترام واهتمام. وسلكت المدرعة المخصصة لوحيد الدين، والتي تشبه مقر أميرال، طريق السويس.

وفي السويس قوبل وحيد الدين بحفاوة من جانب عبد الله بن الملك حسين ومعيته، ولدهشته كان من بينهم الفيلسوف رضا توفيق الذي تعرف السلطان عليه بصعوبة، حيث كان في استقباله مرتدياً زي شيخ عربي.

وحيد الدين الذي ساءه أن يذهب إلى (جدة) وهي ميناء الأراضي المقدسة، على ظهر مدرعة إنجليزية يتدلى علمها حتى البحر، عندما علم أن الملك حسين قد أحضر سفينة لإحضاره هو ومعيته، فرح فرحاً شديداً كالطفل، وشكره على اهتمامه.

وصلوا إلى جدة بالباخرة (زمزم) يتدلى علم إيران على صاريها الخلفي، وترفرف راية السلطنة العثمانية على صاريها الأمامي.

لم يكن يبدو هناك أي دليل على وجود مراسم استقبال... وعلى سطح المياه المفتوحة إلى (جدة) بدا منظر المراكب الشراعية الصغيرة والكبيرة وكأنه حقل زهور... وامتلأ الساحل بقبائل الحجاز المختلفة التي جاءت من كل مكان ... وفي اللحظة التي صعد فيها السلطان إلى الزورق البخاري، دوى التصفيق من البحر ومن الساحل... فهذه كانت المرة الأولى التي ترى فيها الحجاز، سلطان الأتراك وخليفة المسلمين برغم إنه كان مخلوعاً عن عرشه.

ونظراً لأن وسائل السفر وأحوال الطريق في تلك الأيام لم تكن جيدة، ركب وحيد الدين داخل عربة حنطور مكشوفة هو وابنه الذي يبلغ من العمر ١٢ عاماً، وركبت معيته فوق الجمال، وتحركوا نحو مكة.

ذهب السلطان - الذي خُلع عن العرش بإطلاق ١٠١ طلقة مدفع التي تُطلق عادة عند اعتلاء السلطان العرش وليس عند خلعه - إلى البلد المقدس الذي يبعد عدة كيلومترات عن

جدة وهو على رأس قافلة. وهناك لقي نفس الاستقبال ودوي التصفيق الذي بلغ عنان السماء...

عندما رأى وحيد الدين بيت الله نزل من العربة، وذهب سيراً على الأقدام إلى الكعبة وانحنى مرتين احتراماً للمكان، و"كحل عينه ووجهه برؤية الحجر الأسود"، لكنه لم يُقبله، ثم طاف بالكعبة....

وخصص الملك حسين له - باعتباره لا يزال يعد أحد السلاطين العثمانيين- مقراً يشبه القصر. وكان الإكرام والاحترام لوحيد الدين مبالغاً فيه لدرجة تجعلنا نظن إن ورائه غرض أو هدف. وفطن وحيد الدين لهذه المبالغة، وقال للقريبين منه ما يلي:

"- إن إصرار الرجل على إكرامي لهذه الدرجة بدأت تزعجني. فهو يعتبر زيارتي له وكأن النبي قد زاره..."

أُصيب وحيد الدين في مكة بالحمى الصفراء، وهو مرض خطير، وظلت حرارته مرتفعة لمدة ١٥ يوماً ثم تحسنت صحته. ويعلق على شفائه من المرض على النحو التالي:

"- إذا كان الله قدر لي ألا أحيا وكتب علي الموت حتى ألقى حسابي، كنت لا أنجو من هذا المرض الخطير، ولا كانت روحانية موكلي ذو الشأن قد أدركتني وساعدتني."

وبعد شفائه من المرض، انتقل وحيد الدين إلي الطائف، وهو إقليم في الحجاز يتمتع بأجمل مناخ. وهناك استقر في قصر عبد المطلب المهيب. وكان السبب المعلن لنقله إلى الطائف هو أن مناخها مناسب لصحته، أما السبب الحقيقي فهو للمحافظه عليه تحت يد الملك حسين كرهينة.

بالنسبة لهذه النقطة، فقد علمنا أن الدعوة الكريمة والاحترام الشديد، كان لهدف وحيد وهو اقتناص الخلافة من وحيد الدين. فحتى يحقق الملك حسين هذه الأمنية، كان عليه إما كسب ود وحيد الدين بالذهب، أوبالاحتفاظ به حتى لا يصير عائقاً، عند اعتزامه القيام بأي تحرك... فقد أعلن عن رغبته في الخلافة بعمل بعض الترتيبات في أنحاء سوريا وفلسطين وعمان، داعياً زعماء العالم العربي إلى الحجاز، ونادى بالاتحاد. كان كل همه أن يبايعه وحيد الدين، وبهذا يكون أول تصديق على خلافته من الخليفة نفسه...

وفجأة يقول وحيد الدين - الذي ينظر بعين الخليفة، ولا يقبل عزل وإسقاط نفسه-

لمعيته بعد أن سقطت الأقنعة، وظهرت الوجوه الحقيقية:

ـ استعدوا، سنرحل غداً عن الطائف - البلدة الجميلة بحراً وجواً- وبعد ذلك نغادر الحجاز!

وكانت مغادرة وحيد الدين الطائف رحمة إلهية، فقد هجم الوهابيون على الطائف في اليوم التالي، وأخرجوا الكثيرين من أهلها، وحرقوا وشنقوا وقتلوا الكثيرين.

وتصاعدت الحركة المناهضة للسلطنة الهاشمية، وانهزمت قوات الملك حسين، ودخل ابن سعود كقائداً رومانياً مظفراً إلى البلدة المقدسة. لكن عندما دخل مكة كان أداؤه السياسي حذراً لأقصى درجة، فقد توجه جنوده إلى الكعبة وهم يهللون: "لبيك اللهم لبيك، دعوتنا فجئنا، وإليك أتينا!". وأبدى اهتماماً كبيراً بالدين.

لكن برغم سقوط مكة، انضمت المقاومة هناك لبعض الضباط الأتراك، وظلوا يقاومون ويدافعون عن المدينة، وتخلى الملك حسين – الذي ذهب إلى جدة في تلك الأثناء- عن الخلافة والسلطنة وكل أحلامه، وترك عرشه لابنه الأمير علي. وبعد هذه النهاية التي تحققت بضغط من الإنجليز، حمل ثروته الضخمة وشد رحاله إلى قبرص التي كانت تابعة لإنجلترا، وظل هناك حتى مات.

وفي النهاية انكسرت المقاومة في جدة، بعد استمرارها لفترة طويلة بقيادة الضباط الأتراك، واستدعى ابن سعود إلى حضوره اثنين من الضباط الأتراك الذين قادوا المقاومة، وباركهم وضمهم إلى صفه.

أما وحيد الدين الذي خرج من الطائف أثناء الاستيلاء الوهابي عليها، واستطاع أن يصل إلى جدة بصعوبة، لم يذهب إلى مصر؛ لأنه حتى إذا كانت لديه الرغبة في الذهاب، فلم يكن الملك فؤاد يقبل ذلك. ولذلك سلك وحيد الدين طريق إيطاليا بوصفها دولة بعيدة عن الضغوط، ولأنها مناسبة له أكثر، حيث يحمل على كتفيه لقب الخليفة والسلطان اللذان يجب عليه المحافظة عليهما دائماً، دون أن يصبح ألعوبة في أيدي الإنجليز مطلقاً.

وهنا نأتي لنقطة دقيقة تشير إلى مدى علياء وحيد الدين. فهو وإن كان يحمل لقباً جافاً فهو يحمل صفة عظيمة، ولا يريد أن يبيع لقبه مقابل أية منفعة، ولايريد أن يصبح موضوع الخلافة لعبة في يد الإنجليز مقابل استفادته من السفينة الحربية. ومن أجل ألا يصبح ألعوبة

اختار هذا الإنسان العظيم إيطاليا - وهى دولة لا علاقة لها بموضوع الخلافة- ليعيش فيها.

وكان أول مكان في إيطاليا يطأه بقدمه هو ميناء جنوة...

ما هذا؟

في هذا الميناء وجد استقبالاً فوق العادة!... من بين من كانوا في استقباله، ملك إيطاليا (فيكتور إيمانويل)[٦٩] والديكتاتور (موسوليني)[٧٠]... وكان هناك (فريد باشا) الصدر الأعظم وزوج أخته، وبعض المنتسبين للقصر...

تم تخصيص قطار خاص لوحيد الدين ومعيته، وذهب إلى المكان المقرر أن يستقر فيه

---

(69) هو فيكتور إيمانويل الثالث آخر ملوك إيطاليا، وابن الملك أمبرتو الأول، ولد في عام ١٨٦٩م في مدينة نابولي في إيطاليا. شهد طوال فترة حكمه الطويلة (١٩٠٠-١٩٤٦) الحربين العالميتين الأولي والثانية، إضافة إلي صعود وسقوط الفاشية، و انتهاء الملكية في بلاده. أصبح تاريخيا آخر ملوك مملكة إيطاليا عقب استفتاء شعبي جاء بنتيجة ٥٤ ٪ لصالح تحويل إيطاليا إلي جمهورية. لجأ إلي مصر وأقام في مدينة الأسكندرية التي توفي فيهاعام١٩٤٧ م. ودفن بها خلف كاتدرائية سانت كاترين بالمدينة. انظر.

http://en.wikipedia.org/wiki/Victor_Emmanuel_III_of_Italy بتاريخ ١٨/ ٢/ ٢٠١٠

(70) هو بنيتو موسوليني (١٨٨٣ - ١٩٤٥م)، سياسي إيطالي أسس الحركة الفاشية، وحكم إيطاليا ٢١ عامًا تقريبًا. حاول أن يجعل من إيطاليا إمبراطورية كبرى، وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى دفع إيطاليا إلى الحرب إلى جانب الحلفاء. واشترك في الحرب عام1915 م، وجُرح عام ١٩١٧م. وفي عام ١٩١٩م أنشأ الحزب الفاشي الوطني المتطرف. وحث موسوليني الشعب الإيطالي على إعادة بناء أمجاد روما القديمة. وفي عام ١٩٢٢م كلفه الملك فكيتور إيمانويل الثالث بتأليف وزارة. وبدأ موسوليني في تكوين نظامه الديكتاتوري، فألغى كافة الأحزاب السياسية ما عدا الحزب الفاشي. كانت سياسته استعمارية حيث أعلن الحرب على أثيوبيا، وتدخل في الحرب الأهلية الإسبانية(١٩٣٦- ١٩٣٩) وضم ألبانيا عام ١٩٣٩. وعقد تحالف مع هتلر، ودخل الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٠. وغزا جنوبي فرنسا. ثم لاقت جيوشه الهزائم في أفريقيا، واليونان، وفي إيطاليا نفسها. وانقلب عليه مجلس الفاشست الأعلى عام ١٩٤٣م ، فأطيح به وأودع السجن، ولكن الجنود المظليين الألمان أنقذوه، وأصبح موسوليني حينئذ رئيسًا لحكومة اسمية في شمالي إيطاليا. وفي ١٩٤٥ انهارت القوات الألمانية في شمالي إيطاليا. وهرب موسوليني مع بعض أتباعه. واعتقلتهم الشرطة السرية الإيطالية، وأعدم موسوليني وأتباعه بعد ذلك رميًا بالرصاص.

انظر http://en.wikipedia.org/wiki/Benito_Mussolini بتاريخ ١٠/ ٢/ ٢٠١٠

وهو (سان ريمو)...

إيطاليا... شجر الورد والفاكهة والصنوبر، شمسها الدافئة التي تلتف برائحة مياه بحرها. مدينة (سان ريمو) من أجمل المدن الساحلية وبها أجمل شاطيء...

وهذا الشعر والموسيقى والمدينة الجميلة، لن تُخرج مملكته من قلبه، فهى ستظل بداخله حتى يتمدد على فراش الموت.

كانت كل النقود التي مع وحيد الدين عبارة عن ٣٥ ألف جنيهاً استرلينياً، وفقاً لما قاله (طارق ممتاز گوز تپه)، أما نحن فنقول طبقاً لمصادر أخرى إنها كانت عبارة عن ٥٠ ألف ليرة تركية ورقية. والحقيقة لا أعرف أي المصادر أصدق، وخاصة أنه لم يكن هناك فرق كبير بين ال ٣٥ ألف جنيه إسترليني ، وال ٥٠ ألف ليرة تركية، وفقاً لسعر العملة حينئذ. هذه النقود سواء ٥٠ أو ١٠٠ أو ١٥٠، تعد مبلغاً ضئيلاً جداً لا تفي بنفقات سلطان، فقد وضعها في داخل حقيبة، وحملها رشاد باشا رئيس الأطباء، والمسئول عن عملية الإنفاق.

وهكذا وضع القائمقام زكي بك، شقيق زوجة السلطان السابقة، عينيه على هذه الحقيبة، وهو رجل أخبرناكم من قبل من أي نوع هو... كان يريد أن تكون الحقيبة في يده هو، ويقوم هو بالإنفاق، وليصل إلى هذه الحقيبة ارتكب كل أنواع السفاهات حتى يصرفها على القمار... هذه الحقيبة كانت تمثل مسألة حيوية للقائمقام زكي، فهى لم تلعب دوراً كبيراً في مالطا والحجاز، لكن الآن في إيطاليا سيبدأ السلطان ينكوي بعدوه، خاصة في هذا المكان الممتليء بالمجون. وسنرى بعد قليل كيف انتقلت هذه الحقيبة إلى يد "قائد الموسيقى الهمايونية"، الياور الفخري، شقيق زوجته السابقة، القائمقام زكي السكير، المقامر، بعد موت رشاد باشا بشكل غامض، وما أدى إليه الباب الذي فتحه.

ونلقي نظرة على وحيد الدين في إيطاليا...

وحيد الدين في إيطاليا:

بعد إلغاء الخلافة تم طرد عبد المجيد ابن عم وحيد الدين وولي عهده، صاحب الشخصية الضعيفة الذي توهم إنه سيستفيد من النظام الجديد، وأخذ يتحامل على وحيد الدين بشكل سيء لأقصى درجة، هو وأفراد أسرته كلها من تركيا. فرحلوا إلى أوروبا. واحتشد عند وحيد الدين في إيطاليا جميع من تركهم أمانة لدى عبد المجيد في استانبول من

السيدات، وسائر أقاربه. ولذلك ترك وحيد الدين الفيلا الصغيرة التي كان يسكن فيها، واستأجر قصراً باسم (فيلا مانيولي). وكان عبارة عن قصر حديث تحيط به غابة كبيرة مزدانة بأشجار زهور المانيولا والبرقوق المالطي والليمون والبرتقال... ومليئة بالورود والأزهار من كافة الأنواع التي تنتشر رائحتها المدهشة بالجو... وكان أمام الفيلا جناح للأطفال يشتمل على عدة غرف... هذا الجناح الصغير الجميل كان مأوى لرذائل القائمقام زكي بك صهره السابق.

والنقود المحدودة التي مع السلطان، تُرى كم من الوقت ستكفيه للإنفاق على نساء القصر، ورئيس الخدم، وعلى رئيس الأطباء، والياور، والمصاحب، والكاتب، والمسئول عن الملابس، والموظف المسئول عن صب المياه على أيدي السلطان، ورئيس الحلاقين، وغيرهم كثيرون ممن يشكلون طاقم القصرالذين شغلوا ٤٠ حجرة في فيلا مانيولي، بالإضافة إلى الجناح الصغير الذي بجانبه، مع وجود ماجن مثل القائمقام زكي على رأس هؤلاء جميعاً؟

وبدأت رذائل القائمقام زكي بعد فترة قصيرة من الاستقرار في (سان ريمو) تأخذ منعطفاً خطيراً. كان لدى وحيد الدين بنت إيطالية صغيرة تقوم على خدمته، حملت من زكي بك، ووقع السلطان وخزينته ضحية فسوقه.

انظر إلى الحياء والتحمل والتوكل والصبر الذي يتميز به بعض أفراد الأسرة العثمانية، فلم يقم وحيد الدين بدفعه من رأسه والتخلص منه!

وفي تلك الأثناء حدث شيئاً عجيباً:

فقد جاء ممثل عن ملك إيطاليا إلى الخليفة يعرض عليه قيام الملك بالتكفل بدفع كافة مصروفاته هو وجميع أفراد أسرته وخدمه، ويترك له حرية اختيار المكان الذي يرغب الإقامة فيه.

انظر إلى هذا الرد الرائع من خليفة المسلمين، وسلطان الأتراك، على ملك إيطاليا الذي رافقه بوصفة ولياً للعهد، عندما جاء ضيفاً لزيارة خرابات (تروفا) التي في (چناق قلعة)، عندما كان هو أيضا ولياً للعهد:

ـ أبلغوا شكري لحضرة الملك المحترم! فأنا في غاية السرور لكرمه وشعوره الرقيق وذوقه! لكن اللقب الذي أحمله وهو "خليفة المسلمين" يمنعني من قبول هذه المساعدة!

"هذه المعلومة أدين بها للمحرر (رفيع جواد أولون) ولمئات الأشخاص الذين واصلوا إقامتهم في (فيلا مانيولي)".

كان الملك (فيكتور إيمانويل) هو والديكتاتور (موسوليني) يقومان برحلة في شمال إيطاليا، ومرا من هناك على (سان ريمو) والتقيا في أحد المطاعم هناك بوحيد الدين، وتولد بين السلطان و(موسوليني) شعور بالارتياح المتبادل. ويمتدح الخليفة ديكتاتور إيطاليا على الانقلاب الذي قام به دون هدم الفاشية.

في سالف الزمان كان الباشاوات والباكوات والأغاوات الذين في معية وحيد الدين يأخذون راتبهم من القصر، والآن أيضا يأخذون راتبهم من وحيد الدين بينما هو في الغربة التي تُعتبر منفى السلطان، وعلاوة على ذلك يتناولون وجباتهم الأربعة، ويشربون ثم يتنزهون. وهذه المصروفات كلها تُصرف من خزينة السلطان المعلومة والمعهودة . وبنمط الحياة هذا، تُرى هل ستكفي النقود عاماً أم عامان؟... لكن السلطان نظراً لأصالة نسبه لم يقصر ولم يتخل ولو ذرة واحدة عن كرمه السلطاني. والتدبير الوحيد الذي اتخذه هو حرمان نفسه من كل شيء والحياة كفرد عادي.

أما زكي بك فقد كان مسلكه انتهازياً... كان كل همه أن ينثر نقود وحيد الدين في كازينو (سان ريمو)، وهو عبارة عن حانة قمار على غرار (مونت كارلو)... وتسبب هذا في إنذارات مؤلمة للسلطان الذي بث ألمه إلى رشاد باشا، رئيس الأطباء الذي كان أيضا تثيره تصرفات هذا الرجل ...

وذات يوم كان وحيد الدين يجلس في الطابق الأسفل من الفيلا وسمع صوت طلق ناري... وصرخات مرعبة. وفي الخارج سمع صوت ارتطام جسد على الأرض أمام باب الغرفة... على الفور فتح وحيد الدين الباب ووثب من المفاجأة... ويا هول ما رأى! محافظ خزانته، الرجل المقرب له، رشاد باشا رئيس الأطباء، ممدداً على الأرض غارقاً في دمائه... وأمام يده المفتوحة على الأرض يوجد مسدس... سقط وحيد الدين على رشاد باشا الذي لم يقل له سوى: "سيدي، إنني أموت!". ويموت رشاد باشا في المستشفى فور وصوله إليها.

وبسبب عدم كفاية الأدلة، استبعدت الشرطة الإيطالية أن يكون الحادث جريمة قتل مع سبق الإصرار، وقيدت الحادثة على إنها إنتحار. لكن الكثيرون يقولون أن من فعلها هو

القائمقام زكي.

وفي (فيلا مانيولي) بحر زهور المانوليا، ينظر وحيد الدين إلى خزانته التي رآها تنفذ يوماً بعد يوم، ودرجة درجة حتى الصفر، مثل الترمومتر، فنهج حياة أشبه بحياة الزاهد، ومال إلى حياة العزلة لدرجة إنه لم يعد يهتم بأي شيء في الخارج، ولا حتى اهتم بأمر انتقال الخزانة إلى يد القائمقام زكي.

وبعد مدة مات صهره فريد باشا في فرنسا، وقبل مرور عام على وفاته ماتت أخته الأميرة مديحة وتبعت زوجها، وكان هذا من ضمن الهموم التي أثقلت كاهل الخليفة...

الأيام الأخيرة لوحيد الدين :

غادر تركيا مع وحيد الدين الكثيرون ممن يعولهم، بالإضافة إلى قائمة الـ "١٥٠" المعروفة. ومنهم من عاش معه في (فيلا مانيولي) التي صارت مثل قصر يلديز، ومنهم من عاش في الفنادق. وهؤلاء صاروا عبئاً على خزانة السلطان الخاصة التي أخذت في النفاذ مثل عمره. ومن بين هؤلاء من خدعوا السلطان بإمكان قيامهم بتدابير سياسية... مثلاً قامت جماعة على رأسها واحد يُدعى (جوموجيناني إسماعيل) بالاستيلاء على ١٠٠٠ ليرة إنجليزية من وحيد الدين، قدمها لهم من نقود ابنه (محمد أرطغرل أفندي) بحجة إصدار مجلة باسم (إنطاق الحق) في باريس، ثم ذهبوا واقتسموا النقود فيما بينهم واختفوا. وتأثر السلطان بشدة بهذه الخدعة التي تبدو عادية في شكلها، ولكن مدلولها كان قوياً. فالنقود التي استولى عليها الخادعون بسيطة، ولكنها كانت أخر ما يملكه السلطان من نقود، فتأثر نفسياً بالأمر، وأحس إنه يعيش في عالم ملوث، أخلاقياً ومعنوياً، لا تعرف فيه الصديق من العدو، ولم يعد يقابل أحداً.

وهكذا يُسحب ماء خزينته ويبدو قاعها فارغاً. ويرى وحيد الدين إنه لابد من تقليل نفقاته، لكن الإجراء الذي اتخذه في سبيل هذه الغاية، يبدو مضحكاً، وطبقه علي نفسه فقط. فقد غير نوع السجائر التي كان يشربها وعددها. نعم، كان يشرب الكثير من السجائر. كان يشرب من ٤ إلى ٥ علب في اليوم، وكثيراً من القهوة... هذا كان كل ما يستهلكه السلطان في اليوم... وهو نوع من الاستهلاك يسرع به الخطى نحو الموت، فيوفر ماينفقه على نفسه هو شخصياً...

وهاهو القائمقام زكي، صهر السلطان الذي تحدثنا عنه من قبل، يبعثر في ليلة واحدة في صالة القمار في كازينو (سان ريمو) نقود السلطان الذي جعله أميناً عليها بعد وفاة الباشطبيب رشاد باشا. وهكذا يصبح الخليفة العظيم، وجميع من حوله، لايملكون ثمن الخبز، يالها من فضيحة كبيرة! تُرى ماذا سيفعل تجار سان ريمو الذين فتحوا اعتماد مالي لفيلا مانيولي؟ وماذا سيكون رد الفعل في أوروبا، وتركيا، عندما يعلمون أن نقود السلطان نفدت، وأن نقوده نُثرت على مائدة القمار؟

أوشك وحيد الدين الذي صارت أصابع يده صفراء من أثر سجائر العسكري (اللف)- وهو نوع رديء من السجائر صار يدخنها- على الموت قهراً، ومع ذلك لم يحمل على هذا الرجل الشرير، ويطرده، بل جلس مع أخته الأميرة مديحة يبحث عن حلاً للوضع. وفي الحال تخلع أخته الشجاعة من أصابعها خاتم زمرد، كان قد أهداه إليها والدهما السلطان عبد المجيد الأول، وتعطيه لأخيها. لكن الخاتم ليست له قيمة في إيطاليا، وفي النهاية يشتريه جواهرجي في لندن بـ ٨ آلاف ليرة إنجليزية. وبهذا ضمن وحيد الدين نفقات عدة شهور، وليس سنة كاملة. لكن عندما تنتهي هذه النقود ،ماذا سيفعل؟

ويبدأ القلق من جديد بسبب هذه النقود التي وزع جزءً كبيراً منها على الدائنين، كما يستمر القائمقام زكي في نفس الطريق، ويأخذ أيضا في بعثرة مال السلطان، ويمتنع الباعة عن تمويل (فيلا مانيولي) عندما رأوا حالة الإفلاس التي صار عليها الخليفة.

وفي تلك الأثناء لم يستطع الملك فؤاد في مصر أن يخرج بشيء من مؤتمر الخلافة الذي نظمه، حيث واجهه عالماً مصرياً بقوله، إن الخليفة لا يكون ممثلاً لدولة لم تحصل على استقلالها التام.

ويجلس عبد المجيد الثاني أيضا في الزاوية التي عاش فيها، مرتبطاً بشدة بلقب الخلافة، ولايريد أن يتخلى عنه لوحيد الدين، ولا يبالي بالتفاهم بين أفراد الأسرة.

وفي وسط هذا العالم كله، لا يستطيع المرء تصور مدى اضطراب وحيد الدين. كان وحيد الدين ينظرإلى حلقات الدخان الأزرق لسجائر العسكري التي يدخنها، والتي بطعم البارود، ويفكر كيف صارت السلطنة التي دامت ستة قرون - وإعتلى العرش فيها بصفته السلطان محمد السادس- دخاناً. ويفكر أيضا في قدره الحزين، قدر جعله يحمل على عاتقه

فجأة كل شيء سواء ماكان هو سبباً فيه، أو ماكان متعلقاً برجال الدولة المتشددين، أو بالدولة نفسها، أو حتى بالتاريخ. تُرى هل هناك في التاريخ من هو مثل وحيد الدين، وسوء حظه؟ ذلك السلطان الذي حمل عبء عصور طويلة للدولة العثمانية التي سقطت في مذبحة السياسة مثل فيل ضخم مجروح، لحظة جلوسه على عرشها وبعد ذلك، عندما يتحقق النصر بعد ترتيباته وخططه الشخصية لإنقاذ الدولة، يصير هدفاً لانتقام الأمة!

الكلمة الرائعة التي أوضحت درجة سوء حظ وحيد الدين، قالها في حقه (عوني باشا) ناظر البحرية السابق، ورئيس الياوران الذي لحق بالسلطان في (سان ريمو)، بوصفة واحداً من الذين خرجوا من الوطن:

"- ليس من بين جميع البشر من هو أسوأ حظاً من وحيد الدين، إنك لو بحثت في علم الأدب والتاريخ كله، لن تجد من هو أسوأ حظاً منه."

وهكذا كان سوء حظه، حيث أُبتلي بالفاسق الذي اسمه زكي بك الذي تسلط عليه، وعلى عرشه، وشرفه، ولم يمنحه الله قدرة على مقاومة أو مواجهة أي شخص، حتى أشقياء الفكر الكثيرون الذين حرفوا حقيقته ومعناه، بل وهبه بدلاً من ذلك قدرة على التحمل والصبر على كل شيء بأصالة ووقار سلطاني. وهكذا وحتى يحتفظ بالسر الذي تناولناه قبلاً، صار هذا الرجل الأصيل، البريء مثل الوعاء الذي امتلأ بالذنوب، والعيوب الخاصة بكل شخص وكل ظرف، عيوب العدو والصديق، وأخطاء الماضي والحاضر، لدرجة أن الماجن الذي اسمه زكي خاطبه ذات يوم من تليفون الفيلا الداخلي بقوله: "يا غلام" فماكان منه، هذا الخليفة العظيم، إلا أن ترك الجريدة التي كان يقرأها، وقام بقطع سلك التليفون الداخلي. وكان هذا رده على حقارة هذا السافل. هذه السمة الشخصية، سمة الأصالة الموجودة في أولاد عبد المجيد الأول ولا نجدها في الكثير من الممالك الأوروبية مثل (البربون) و(الفالوا) و(الهابسبورج) و(الهوهنزو) و(الرومان)، كانت بداية ضعف الدولة الشديد.

فإذا كان السلطان عبد الحميد لم يأمر جيشه الخاص المكون من جنود الأناضول بدهس جيش الحركة الغاصب مادة ومعنى، والذي حمل أجواء (دونمة) سلانيك إلى استانبول، فهذا كان بسبب هذه السمة، سمة الأصالة...

ونحن مدينون بالكلام قليلاً عن (أحمد عوني باشا) ناظر البحرية السابق، وكان يلقب بـ

"الياور الأكرم":

هذا الشخص الذي سهل لمصطفى كمال باشا في استانبول كل شيء، وجهز له السفينة (باندیرما) التي أقلته إلى سامسون، وُضع بعد ذلك في قائمة الـ"١٥٠" المشهورة بمعرفة إحسان بك، وكيل البحرية السابق، وبطل قضية (يافوز. هافوز)(٧١).

وتوجد كلمة قالها عوني باشا عن مصطفى كمال باشا، بخصوص أطماعه السياسية، وهي كلمة رائعة:

"إنه إنسان خرج من أواخر صفوف الجماعة، ووثب على المحراب..."

وفي هذا السياق أوضح معلومة لمؤرخي المستقبل، بشأن قائمة الـ "١٥٠" التي ذكرناها:

تم وضع تلك القائمة بناءً على طلب لندن واللورد (كرزون)، وليس أنقرة. ففي لندن طلب (كرزون) من (عصمت باشا) قائلاً: " يجب أن تتخلصوا من جميع من يخالفونكم" وسأله: "ما عددهم"، فيجيب عصمت باشا - الذي بلغ به الأمر أن يهدم أساس المقدسات التركية، ويجعلها ثمناً للفوز في لوزان!- على هذا السؤال بقوله: "عدد من يخالفوننا ١٥٠ شخصاً". حتى ذلك اليوم، كان العدد ٧٠ شخصاً فقط، ورقم ١٥٠ لفظ به عصمت باشا من أجل أن يبدو كريماً أمام اللورد الإنجليزي. فيطلب اللورد منه أن يأتي له بأسماء هؤلاء خلال أسبوع. أرسل عصمت باشا برقية بالشفرة إلى أنقرة يطلب منهم زيادة عدد الأسماء التي في تلك القائمة السوداء إلى ١٥٠اسماً. ووفقاً لما هو معروف عن أخلاقنا السياسية مثلما بدت في حركة ٢٧ مايو ١٩٦٠، يتم جمع ١٥٠ اسم هكذا عشوائياً، في بيئة حقيرة، حيث أخذ كل واحد يشي بالآخر، ثم قام عصمت باشا بتقديم هذه القائمة إلى سيده اللورد (كرزون).

هذه الحكاية رواها لنا "طارق ممتازگوز تپه" ضيف فيلا مانيولي والياور السابق، وقد رواها في حضور البروفيسور (عثمان طوران) في حجرة الرئاسة (بيت الأتراك) في أنقرة.

كان من عادة السلاطين العثمانيين أن يطلقوا لحاهم عند اعتلائهم العرش ، لكن وحيد الدين لم يفعل ذلك، مثله مثل السلطان سليم الياووز الذي كان يقول لمن يذكره بذلك: "لن

---

(71) هي قضية فساد مالي أُتهم فيها إحسان بك وكيل البحرية السابق، بالعمل بالتجارة والتربح والرشوة، وحُكم عليه بالسجن لمدة عامين في ١٦ ابريل ١٩٢٨. لمزيد من التفاصيل انظر:
http://www.radikal.com.tr/haber.php?haberno=155031 بتاريخ ٢٠١١/٣/٣٠

أعطي لأحد فرصة أن يمسك بلحيتي". لكن وحيد الدين أطلق لحيته في إيطاليا، وكان عندما يقوم بشدها بيده شعرة، شعرة يحاسب نفسه محاسبة وجدانية، وكان هذا هو حكمه الأخير على نفسه.

ـ قد أكون ضعيفاً، لكني بريء من كل إثم!

كان الخليفة يتمتع بثقافة موسيقية عالية، ويملك حساً موسيقياً مرهفاً. كان يستمع بإحساس إلى الألحان الإيطالية التي تتصاعد ملتفة بالجو الدافيء، ومحاطة بالنخيل وأزهار المانوليا، ويتذكر مارش السلطنة العثمانية الذي طلب والده السلطان عبد المجيد الأول من "دونيزيتي" أن يلحنه، ولم يغيره من جاءوا بعد والده. وفي ظل هذه الذكرى يسمع صهيل الخيل، وأصوات حدوات خيول الخيالة الخاصة ذوات الجاكت الأحمر، والبنطلون الرمادي، والقلنسوة الأستراجان، والرمح القصير.

وحيد الدين الذي يمر ماضيه من أمام عينيه في أشد لحظات الضيق والاضطراب المادي والمعنوي، كان أحياناً يدخل حجرته، ويغلقها عليه، ويبدو مشغولاً بعمل سري. كان يتجسس عليه البعض ليروا بأعينهم ماذا يفعل داخل حجرته. كانوا يرون السلطان والخليفة العظيم يضع على ركبتيه نيشان آل عثمان، ويحاول أن ينزع بمقص الأظافر الصغير، فصوص الألماس منه... لقد بلغ به الحال إلى إنه يخلع فصوص الماس من النيشان العثماني لإطعام معدة سرب الطامعين فيه، ويفعل ذلك خفية لأنه كان يخجل من وصوله إلى هذه الحالة، سواء ممن هم معه في داخل الفيلا أو من هم خارجها.

إن هذا الخجل الذي كان يشعر به محمد وحيد الدين السادس، سلطان الأتراك وخليفة المسلمين، لوصوله لهذه الحال، لا يجب أن يشعر به هو وحده، بل لابد أن يقاسمه فيه كل تركي وكل مسلم.

وفي مايو عام ١٩٢٦ اعتكف وحيد الدين بسبب هذه الأحوال كالدرويش، في حجرة في الدور الأرضي في (فيلا مانيولي). صار ضعيفاً، هرماً ومريضاً، ومعتل الصحة. يخبره طبيبه الخاص البروفيسور (فافا)- ولا أعرف كم مرة أخبره بذلك - بأن يتوقف عن شرب السجائر، وعن ابتلاع الأسبرين الذي كان يتناوله كثيراً.

لكن من الذي سيسمع الكلام؟

يرد وحيد الدين على الطبيب بقوله:

ـ إن مزاجي الوحيد يا دكتور هو السيجارة! لقد تعود عليها جلدي وعظامي ودمي... إن تركتها ماذا أفعل؟...

فيقول له الطبيب:

ـ على الأقل يجب على سموك أن تقلل من التدخين! إنك بذلك ستفقد حياتك. كما انصحك بأن تتوقف عن إدمان الأسبرين، فهو يضر بقلبك الضعيف.

لا يهتم وحيد الدين.

وهاهي كلماته في وصيته:

ـ عندما أموت أوصيكم بدفني في الشام، في ضريح صلاح الدين الأيوبي!...

ـ أوصيكم ألا تقيموا جنازتي في بلاد الصليب!...

ـ أوصيكم أن تؤدوا الصلاة عند رأسي، وأن تقرأوا القرآن، ولا تنقصوا شيئاً من الشعائر التي تتم عند الموت!...

لكنهم أمام هذه التوصيات، يردون عليه بكلمات العزاء الواهمة:

ـ ليمد الله في عمركم يا سيدنا! إن شاء الله تعود إلى استانبول وإلى "عرشك عالي البخت"!

هذا الأمل كان يغزي خيال وحيد الدين دائماً، وصار حقيقة، ولم يتخلَّ عنه حتى في لحظات الإحباط، فوحيد الدين برغم كل شيء، صار قانعاً بإنه ذات يوم سيعود إلى تركيا بصفته السابقة، وبكل الأبهة.

وذات مرة تطرق الحديث مع أسرته عن عودته إلى تركيا، وكانوا يلومونه بشدة، ويقولون له ماكان يجب عليه أن يرسل مصطفى كمال باشا إلى الأناضول، فقال ما يلي كلمة بكلمة:

"ـ احترقنا نحن، ولكننا أنقذنا الوطن بإرساله إلى الأناضول!"

ويستمر في كلامه متنهداً تنهيدة عميقة قائلاً:

"مصطفى كمال لايفعل هذا بي، مصطفى كمال لا يفعل هذا بي."

في ١٤ مايو دوى عبر الأفق في (سان ريمو) صوت انفجارهائل... عاصفة شديدة...

صاحبتها صواعق وبرق، وسرعان ماهطلت أمطار شديدة.

في تلك الليلة جمع وحيد الدين جميع الحريم في الفيلا، وأخذوا يتبادلون أطراف الحديث، وكان سعيداً. أخذوا يتذكرون استانبول والقصور خاصة قصر چنگل كوي وهنا وهناك... أه يالها من أيام ... يا لها من أيام!...

كان وحيد الدين شبه ممدداً على الأريكة (الشيزلونج)... ووسط هذه الأحاديث الحلوة جلس على الشيزلونج وأمر حريمه بالآتي:

ـ هيا اذهبوا لتأدية صلاة العشاء، وبعد ذلك تعالوا لنستكمل حديثنا. فيخرجون جميعاً. وقال لزوجته الأخيرة - التي بقيت بجانبه ولم تفارقة أو تتوانى عن خدمته- السيدة (نافزت):

ـ عندي غثيان. احضري لي وعاء!

تذهب السيدة (نافزت) لتحضر الوعاء ثم تأتي، وتميل على السلطان الذي يتقيأ قليلاً ثم يقول لها:

ـ هيا اذهبي افرغي الوعاء ثم تعالي!... هيا لا تمكثي في المكان!...

تذهب السيدة لتفرغ الوعاء وتعود، لترى الأتي، السلطان ممدداً على الشيزلونج وكأنه قطعة حجر...

تصرخ... ويهرول جميع من في الحرملك... وعندما يمسكون بيد السلطان تسقط متراخية بجانبه، فيعلوا الصراخ فوق الصراخ... الجميع على قدم وساق...

مات السلطان محمد وحيد الدين السادس، أخر سلاطين العثمانيين بهذا الشكل غير المفهوم. مات بعد سبع سنوات مرت على لحظة قوله لمصطفى كمال باشا: "اذهب وانقذ الوطن!".

برق، رعد، صواعق، أمطار غزيرة...

الجميع عند رأس السلطان، كل من في الفيلا وفي الجناح الصغير... وكان هناك أيضا البرنس سامي ابن أخت السلطان... وقد عاوده جنونه، وأخذ يصيح في النساء:

ـ ماذا فعلتم بخالي؟

كان السلطان ممدداً وعلى ظهره فراء السمور، عينيه مغلقة، ولا يبدو على وجه إنه ميت،

كان وجهه يبدو نضراً، مبتسماً، سعيداً، وكأنه يسمع كل هذا الضجيج الذي حوله ولا يريد أن يرد...

ويستمر هطول المطر حتى اليوم التالي، وتحيط قوات الشرطة الإيطالية - التي يرتدي أفرادها الطربوش على شكل زورق مقلوب- بفيلا مانيولي... فقد علمت الحكومة الإيطالية على الفور بوفاة السلطان، فأرسلت إلى الفيلا الدكتور الخاص، البروفيسور (فافا) مع ممثلين رسميين عن الحكومة الإيطالية... ورأوا أنه لابد من تشريح جسد السلطان.

ولمعرفة سبب الوفاة، يتم تقطيع جسد الخليفة الذي مات في الغربة ثم إخاطته... وهو عمل لا يتفق والمعايير الإسلامية... ولكنها مسألة أخرى...

يقوم بالتشريح البروفيسور (فافا) بنفسه في الفيلا، وتستمر العملية لفترة قصيرة. ويخرج الدكتور مرتدياً قميصاً أبيض، وفي يده شيء صغير يشبه العظمة، ويُطلع عليها الذين ينتظرون في الخارج ويقول:

- هذا هو سبب الوفاة!... هاهو الشريان الذي يغذي القلب! أصبح كقطعة الحجر... هذا بسبب كثرة تدخين السجائر، وابتلاع عدد كبير من الأسبرين مرة واحدة، فحدث الانسداد ثم الوفاة... ولا داعي للبحث عن سبب آخر!...

يرى (عوني باشا) كبير الياوران، أن السلطان قتل نفسه عندما نفدت نقوده... يعني انتحر... فقد ابتلع بعد تناوله طعام العشاء ٧ أو ٨ أقراص أسبرين، ثم تمدد على الشيزلونج في انتظار نتيجة ما فعله...

إن تناول الخليفة لعدة أقراص من الأسبرين بعد الطعام، لايُحتمل أن يكون بقصد الانتحار؛ لأن هذا السلطان ذو الإيمان القوي، العميق، لا يرتكب ذنباً كهذا. إن هذا أقرب إلى الظن والخيال والتلفيق...

- إن موته في اللحظة التي نفدت فيها نقوده، مجرد لطف من الله، ولا يُفسر سوى إنه رحمة من ربه، ودعوة له للتمتع بنعيم الآخرة.

يتم تحنيط جسد الخليفة أي (مداواته)، ويوضع في تابوت من خشب الجوز الخالص، أعده له البرنس سامي ابن أخته بمبلغ كبير من ماله الخاص.

وكُتب هذا فوق التابوت:

"- حضرة السلطان محمد السادس، خليفة المسلمين وسلطان الأتراك"...

ثم نرى هذا المشهد الذي يُعتبر أسوأ مشهد:

يأتي دائنو فيلا مانيولي، البقال والجزار والفكهاني وغيرهم، فجأة ويحجزون التابوت.

هذه حادثة لم نرَ مثلها في الدنيا. إذ يتم حجز جسد السلطان، تابوته بسبب الدين، ويُحرم من حقه في الدفن في التراب.

يوضع التابوت مفتوحاً، فوق مائدة عالية مفروشة، في فناء (فيلا مانيولي) المرمري لعدة أيام لإلقاء النظرة الأخيرة عليه، ثم يأتي الزائرون من مصر وسوريا والعراق ومعهم مساعدات، ويتم الإفراج عن التابوت، وإنقاذ الموقف.

وإذا كانت حكومة إيطاليا لم تقم بدفع ديون الخليفة، فإنما فعلت ذلك حتى لاتهين الحكومة التركية.

جاء كثيرون من العالم الإسلامي لحضور الجنازة، ويتم قراءة القرآن على رأس التابوت، وإلقاء الأدعية... وجاء رجل عجوز وفتاتان ترتديان الملابس السوداء، جثوا على الأرض المرمرية، وأخذوا يبكون ويلقون أدعية مسيحية. هذا العجوز هو الرسام المشهور الذي كان يقوم برسم السلطان عبد الحميد الثاني واسمه (زونارو)...

وعندما تم فتح الصندوق الخاص بالسلطان وحيد الدين الذي يحتفظ فيه بنقوده وأوراقه الهامة، وجدوا هذا المشهد المدهش...

وجدوا عدد (١٧) ربع ليرة ذهب، ونيشان (أسرة آل عثمان) المنزوع منه أحجاره الكريمة... أي ماوجدوه كان عبارة عن ٤ ليرة ذهب وربع ليرة، ونيشان يشبه فماً بلا أسنان... الحقيقة إن السلطان مات فعلاً في اللحظة التي نفدت فيها نقوده.

تم توصيل الجنازة إلى الشام، وهناك تمت مراسم عادية، قيل إنها رسمية، ونظراً لعدم وجود مكان في قبر صلاح الدين الأيوبي، تم دفنه في فناء جامع السلطان سليم.

وبعد فترة تم إزالة المقابر التي في جامع السلطان سليم، وتسوية الأرض وتحويلها إلى حديقة[٧٢].

---

[72] يقول الكاتب قدير مصر أوغلي: "إن إدعاء أن مزار وحيد الدين الذي في الشام قد تمت إزالته، غير صحيح. انظر:

Kadir Mısıroğlu, “bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin”, a.g.e. s.17,18

ويمكن القول إنه اليوم ليس هناك حتى أي أثر مادي لوحيد الدين خليفة المسلمين وسلطان الأتراك...

لكن هناك أثر معنوي... هذا الأثر إذا تم تعقبه دون النظر إلى لافتات الطريق الرسمية، يمكن الوصول إلى أحد النقاط التي عندها نجد المفتاح الذي يفتح الباب على صناع التاريخ والعلم الكاذب الذين يشبهون من يقومون بتزييف النقود، والذي يؤدي إلى تسليمهم لعناية العدالة الإلهية.

فلنفكر في المقام الروحي لوحيد الدين، ذلك الإنسان الذي تعرض لظلم كبير، وقيل عنه أسوأ ما قيل، رغم إنه إنسان جيد، وهو هنا يشبه السلطان عبد الحميد الثاني الذي ظُلم أيضا. إذ لابد أن وحيد الدين الآن في أعلى درجة عند الله!...

إن السلطان محمد وحيد الدين السادس ليس خائناً للوطن، بل صديق(٧٣) كبير للوطن...

(73) فيما يتعلق بعنوان الكتاب، والذي أورده الكاتب في نهاية كتابه ليختم به، يرى الكاتب قدير مصر أوغلي أن كلمة صديق للوطن لا تنطبق على السلطان وحيد الدين، لأنه صاحب الوطن باعتباره السلطان وليس صديق غريب على الوطن. فكلمة صديق تنطبق على شخص يكون من خارج الوطن. انظر:
Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s.18

الخاتمة

كشفت هذه الدراسة عن اختلاف آراء الكتاب الأتراك حول السلطان وحيد الدين، وحول دوره في السنوات التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الأولى. كما كشفت الدراسة أن آراء الناقدين والمهاجمين ارتكزت كلها على الصورة التي رسمها له مصطفى كمال، وهي صورة سلبية تتهم السلطان وحيد الدين بخيانة الوطن. أما الآراء التي أنصفته فقد اعتمدت على قراءة عدد من المصادر والوثائق التي كشفت دور السلطان وحيد الدين في تحرير الوطن عقب انتهاء الحرب، وأنه هو الذي دفع بمصطفى كمال لقيادة حركة المقاومة الشعبية في الأناضول وتنظيمها. والجدير بالملاحظة أن بعض المصادر التي أنصفته كتبها ضباط وساسة معاصرون لقيام الجمهورية التركية.

وقد أمكن من خلال هذه الدراسة إلقاء الضوء على السلطان وحيد الدين، وتوضيح حقيقة مواقف هذا السلطان الذي أُتهم ظلماً بخيانة وطنه على الرغم أنه هو الذي أرسل مصطفى كمال باشا ياوره إلى الأناضول، من أجل بدء الحركة الشعبية حتى يستطيع مواجهة دول الحلفاء المنتصرة، المحتلة لمقر الخلافة التي صار وضعها خطيراً، ومواجهة اليونانيين الذين احتلوا جزءاً من وطنه، ووفر له جميع الوسائل الممكنة ووثق فيه. وهو الذي قاوم حتى النهاية ورفض التوقيع على معاهدة "سيفر". وبرغم أفكاره وقناعاته بشأن القوة الشعبية التي تغير شكلها وهويتها في النهاية، اختار مبدأ التضحية بنفسه من أجل مصلحة وطنه. وقام بتشكيل مجلس وزراء موافق لآمال القوة الشعبية. ومكث أعواماً يدعم وينمي هذه القوة الشعبية. وأُتهم السلطان وحيد الدين بالهروب من وطنه، لكن بعد الاطلاع على الحقائق التي تضمنها هذا البحث، وجدنا أنه غادر وطنه لينجو بكرامته، وحتى لا يتسبب في الإساءة إلى الأسرة العثمانية في شخصه، وحتى لا يضطر إذا مكث في استانبول إلى خوض حرب ضد حكومة أنقرة مما يؤدي إلى اندلاع حرب أهلية تقضي على شعبه ووطنه.

ومن خلال التعرف على آراء المعاصرين للسلطان محمد وحيد الدين، والكتاب الأتراك المحدثين تتضح حقيقة مواقف السلطان. فقد أوضحوا أنه سلطان مخلص لوطنه يميل إلى خدمة بلاده ويسعى لحماية أسرته السلطانية، وأنه كان يحكم بالعدل بين العناصر المختلفة التي يحكمها. وكان مقاوماً للفساد، ولا يحب أن يكون هو نفسه فاسداً، أو يحمل مغبته، وكان يحب الكمال والخير، كان عالي المقام ويسعى دائماً للعمل من أجل مصلحة وطنه وشعبه. لم يفكر السلطان وحيد الدين في عرشه وتاجه قط، ولم يتواطأ مع الإنجليز ولم يبحث عن مساعدة عسكرية، أو طلب سلاح من الإنجليز ضد الأناضول. وبعد خلعه عن العرش ورحيله عن وطنه، لم يفكر في التحرك ضد وطنه وهو خارج الوطن، ولم يبد تصرفاً ينم عن حرص أو طمع، ولم ينتهز أية فرصة حتى يستعيد سلطانه. كما أنه لم يفكر في الإساءة للذين أساءوا إليه بعد أن حققوا النصر بمساعدته، وظل كذلك حتى مات مفلساً تماماً في ديار الغربة، ولم يفعل سوى الخير لوطنه، وكان كل همه وقلقه وتفكيره وأمله منحصراً في كيفية إنقاذ بلده.

فالسلطان وحيد الدين بذل كل الجهد من أجل إنقاذ وطنه وتحقيق سلامته خلال الأعوام الأخيرة للحرب العالمية الأولى، وفور توليه العرش حيث كان أول من سعى إلى تحقيق الصلح لضمان خروج الدولة العثمانية من حرب لا أمل فيها. و خلال الهدنة وطيلة فترة حكمه حاول توصيل السفينة العثمانية التي كانت تغرق إلي بر الأمان بخطة للإنقاذ برغم الظروف الصعبة وعدم الأمان، وبرغم الأرض السياسية الوعرة التي كان يخطو فوقها. وإثارته مسألة إنقاذ الوطن من خلال الأناضول من أجل حرية واستقلال وطنه، لم تُعفهِ من صفة الخيانة التي أُتهم بها صراحة. فقد تم اختيار السلطان وحيد الدين ليكون كبش الفداء الذي لعنوا من خلاله الماضي من أجل إقامة دولة تركية جديدة، ونظام حكم جديد. وفي

الوقت الذي كان يسعى فيه لإنقاذ وطنه، وُجهت إليه الكثير من الاتهامات التي وصمته بالخيانة، وشوهت صورته.

كما أن الترجمة العربية لكتاب نجيب فاضل قيصه كورك، سوف توفر مادة علمية جديدة تساعد على إعادة كتابة تاريخ هذه الفترة المهمة من تاريخ الدولة العثمانية، وتاريخ تركيا الحديث والمعاصر، وستساعد في إعادة تقييم شخصيات مؤثرة في التاريخ الحديث بشكل أكثر موضوعية.

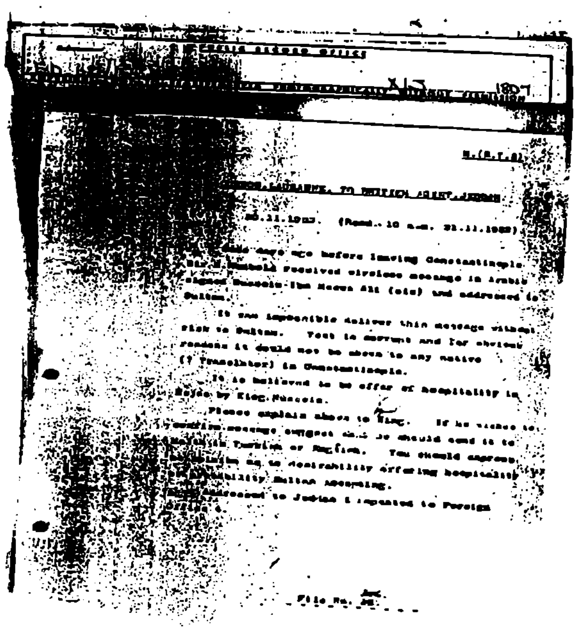
الباحثة

ملحق الوثائق

وثيقة رقم (١)

خطاب موجه من اللورد كيرزون في لوزان بتاريخ ١٩٢٢/١١/٢٠ إلى المفوض البريطاني في جدة يفيده أن السير رامبولد تلقى برقية لاسلكية باللغة العربية موقعة من الحسين بن علي في مكة، وموجهة إلى السلطان وحيد الدين، وهو يعتقد أنها عرض من الملك حسين باستضافة السلطان في الحجاز. ويطلب منه أن يفيد الملك حسين بأنه إذا كان يرغب في ذلك بالفعل، فعليه أن يرسل اقتراحه هذا إلى مالطا مكتوباً باللغة التركية أو الإنجليزية.

Public Record Office, F.O. 686\123



[illegible] LAUSANNE, TO BRITISH AGENT, JEDDAH.

[illegible].11.1922. (Recd. 10 a.m. 21.11.1922)

[illegible] days ago before leaving Constantinople [illegible] received wireless message in Arabic signed Hussein Ibn Mecca Ali (sic) and addressed to Sultan.

It was impossible deliver this message without risk to Sultan. Text is corrupt and for obvious reasons it could not be shown to any native (? Translator) in Constantinople.

It is believed to be offer of hospitality in Hejaz by King Hussein.

Please explain above to King. If he wishes to [illegible] message suggest that he should send it to [illegible] in Turkish or English. You should express [illegible] as to desirability offering hospitality [illegible] Sultan accepting.

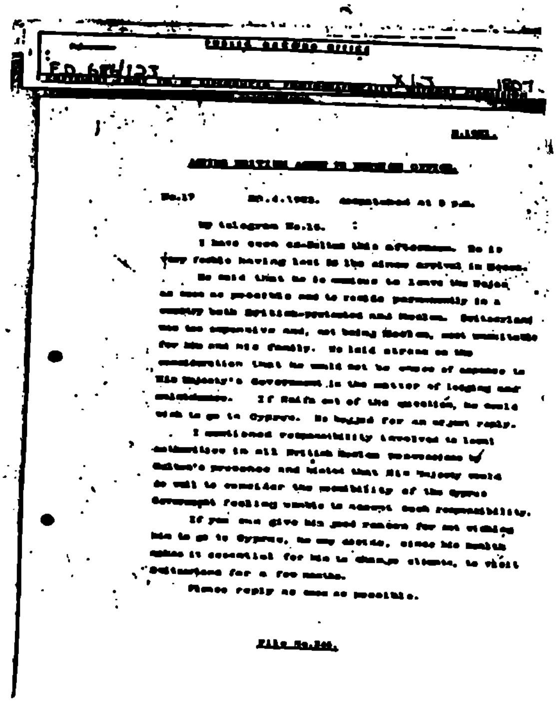
Addressed to Jeddah [illegible] repeated to Foreign Office.

File No. [illegible]

وثيقة رقم (٢)

خطاب بتاريخ ٢ ابريل ١٩٢٣ موجه من المفوض الإنجليزي في مكة إلى وزارة الخارجية البريطانية يفيدها أن السلطان وحيد الدين لا يرغب في الإقامة في مكة، وطلب التوسط لدى الحكومة التركية حتى تسمح له بالإقامة في حيفا في فلسطين، وأكد على أنه لن يكلف الحكومة التركية تكاليف إقامته هناك، وإذا رفضت الحكومة ذلك فهو يرجع الإقامة في قبرص.

Public Record Office, F.O. 686\123



F.O. 686/123

[illegible]

No.17   [illegible].4.1923.   [illegible] at 5 p.m.

My telegram No.16.

I have seen ex-Sultan this afternoon. He is very feeble having lost [illegible] since arrival in [illegible].

He said that he is anxious to leave the Hejaz as soon as possible and to reside permanently in a country both British-protected and Moslem. Switzerland was too expensive and, not being Moslem, most unsuitable for him and his family. He laid stress on the consideration that he would not be cause of expense to His Majesty's Government in the matter of lodging and [illegible]. If Haifa out of the question, he would wish to go to Cyprus. He begged for an urgent reply.

I mentioned responsibility involved to local authorities in all British Moslem [illegible] of Sultan's presence and hinted that His Majesty would do well to consider the possibility of the Cyprus Government feeling unable to accept such responsibility.

If you can give him good reasons for not wishing him to go to Cyprus, he may decide, since his health makes it essential for him to change climate, to visit Switzerland for a few months.

Please reply as soon as possible.

File No.[illegible].

وثيقة رقم (٣)

الرد على خطاب السلطان وحيد الدين، الموجه من وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٤ ابريل ١٩٢٣ إلى المفوض البريطاني في مكة، وفيه نقل رد رفض الحكومة التركية السماح للسلطان وحيد الدين بالإقامة في فلسطين واقتراحها إقامته في سويسرا.

Public Record Office, F.O. 686\123

CONFIDENTIAL.

No.[illegible].

(346).

BRITISH AGENCY,
JEDDAH.

April 14th. 1923.

H.E. for F.A.,
Mecca.

After compliments,

With reference to Your Excellency's letter No.650 of 4.8.1341, I have the honour to request that you will be good enough to inform His Majesty the Sultan Wahid-ud-Din that I have received from His Majesty's Government a telegram in which they ask that he should be notified of the receipt of his second telegram sent to Lord Plumer for transmission to them. His Majesty's Government in reply to these telegrams desire me to inform His Majesty that they find themselves much to their regret unable, in existing circumstances, to make for His Majesty's accommodation in Palestine adequate arrangements, but they suggest that His Majesty might well choose to take up his residence in Switzerland, should that suit His Majesty's convenience.

I have the honour also to request you to inform His Majesty that the High Commissioner in Constantinople has transmitted to me telegraphically the following message from His Majesty's daughter:-

"I am badly in need of money for both lawsuits". Would you be good enough to convey the message to him?

Compliments.

[signature]

H.M. VICE CONSUL.
ACTING BRITISH AGENT AND CONSUL.

وثيقة رقم (4)

القرار الحكومي الخاص بتعيين مصطفى كمال باشا مفتشاً عاماً على الجيش التاسع.

BOA.DUI. nr: 68/11

وثيقة رقم (٥)

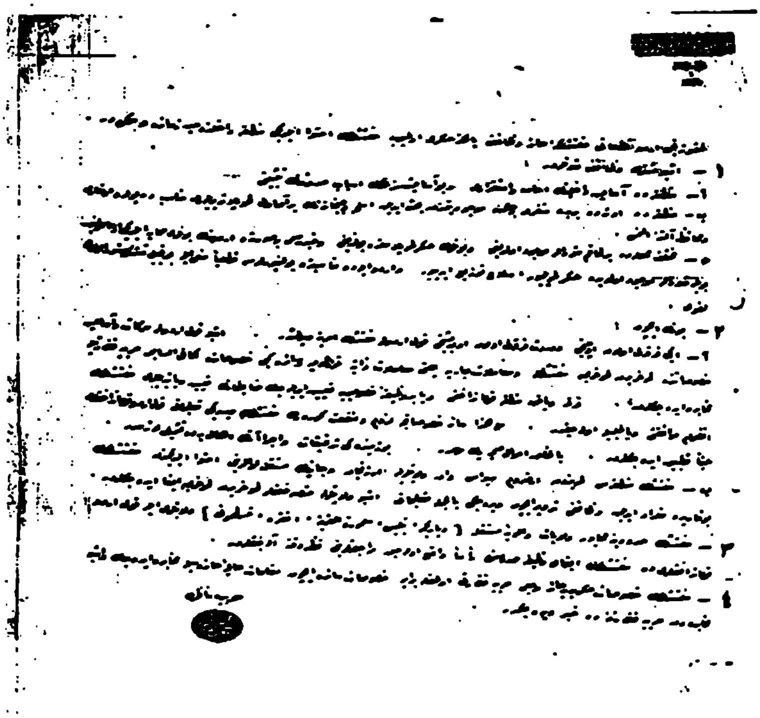
خطاب رسمي بتاريخ ١٩١٩/٥/٦ صادر عن دائرة الأركان الحربية العامة، وبتوقيع وزير الحربية، موجه إلى حضرة مصطفى كمال باشا مفتش الجيش التاسع. يقول الخطاب: "بناءً على صدور الإرادة الشاهانية الخاصة بتعيينكم في مفتشية الجيش التاسع، نرجوا التفضل بالالتزام بالتعليمات الصادرة إليكم من مجلس الوكلاء، والخاصة بالمهام الموكلة إليكم".

BOA. DH. IUM. 19-6 / 1- 702

وثيقة رقم (6)

خطاب رسمي صادر عن دائرة أركان الحربية العامة بتوقيع وزير الحربية محمد شاكر بن نعمان، موجه إلى مصطفى كمال باشا، ويشتمل على المهام الموكلة إلى مفتشية الجيش التاسع والمناطق المراد التفتيش فيها. وهذه المهام هي: تحقيق الأمن والاستقرار الداخلي. تجميع الأسلحة والمحافظة عليها. إصدار الأوامر للجنود والمدنيين. المسئولية عن التعيينات في الأماكن التي وكل بالتفتيش فيها. وإجراء التعديلات في الوظائف.

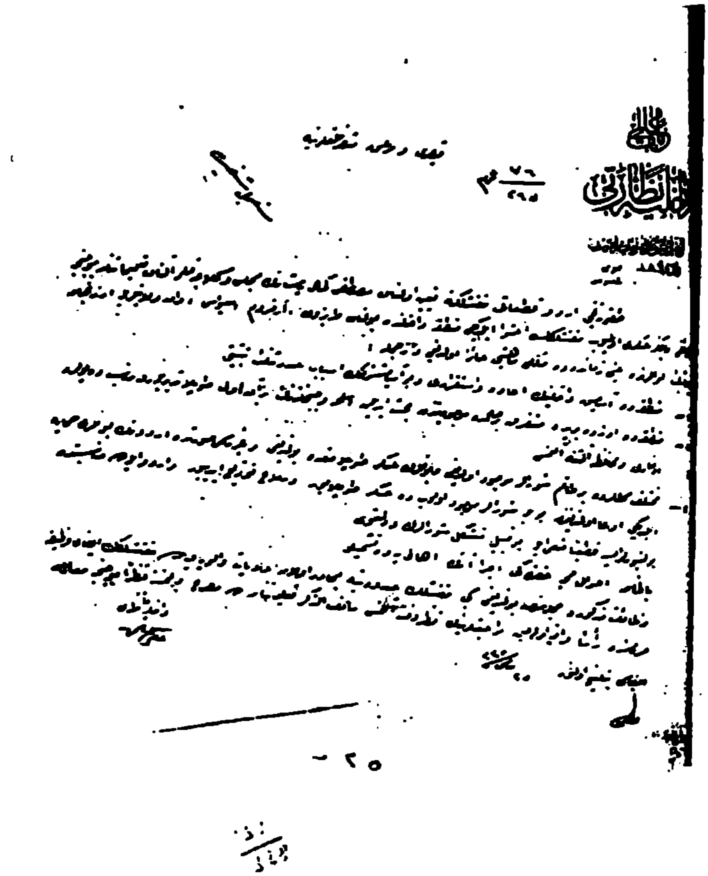
BOA.DH.IUM, 19-6/1-702



وثيقة رقم (7)

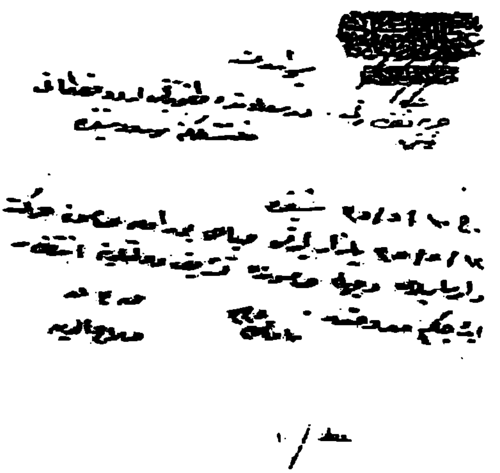
رسالة من وزارة الداخلية إلى وحدات الجيش، تفيد بتعيين مصطفى كمال مفتشاً على الجيش التاسع .

BOA. DH. ŞFR, 99/328



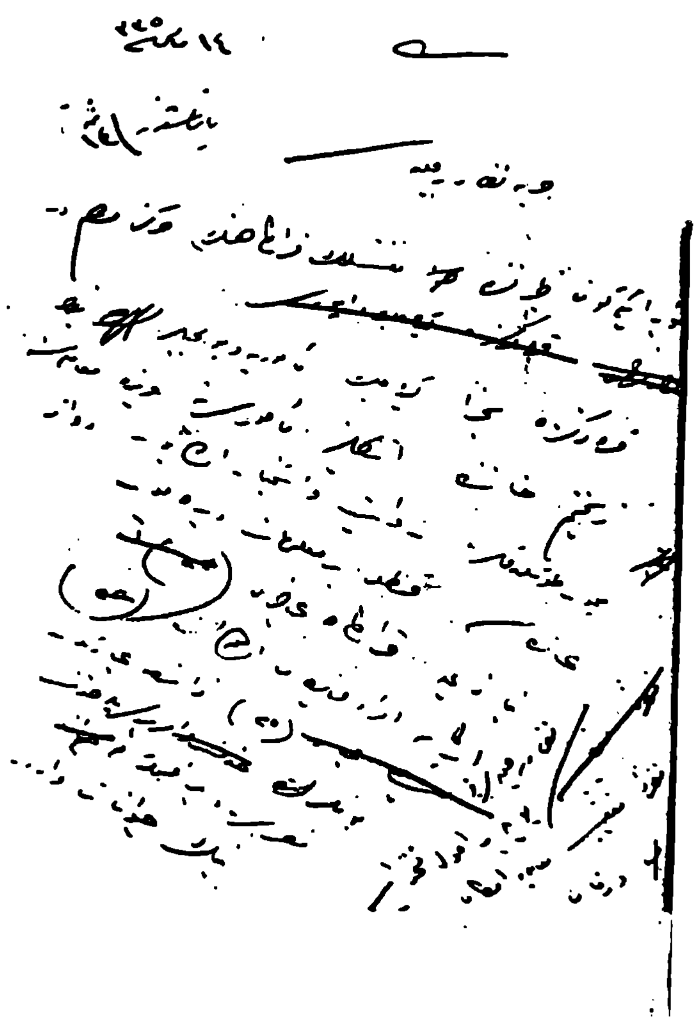
وثيقة رقم (8)

برقية رسمية بتاريخ ١٩١٩/٥/١٢ مكتوبة بالشفرة، واردة من سيواس من القيادة العليا للجيش العثماني الهمايوني، موجهة إلى مفتشية الجيش التاسع في دار السعادة، وبتوقيع صلاح الدين قائد الفرقة ٣ تقول: "نحن في انتظار تشريفكم إلى سامسون بناءً على الأمر السامي الصادر إليكم بالتحرك".



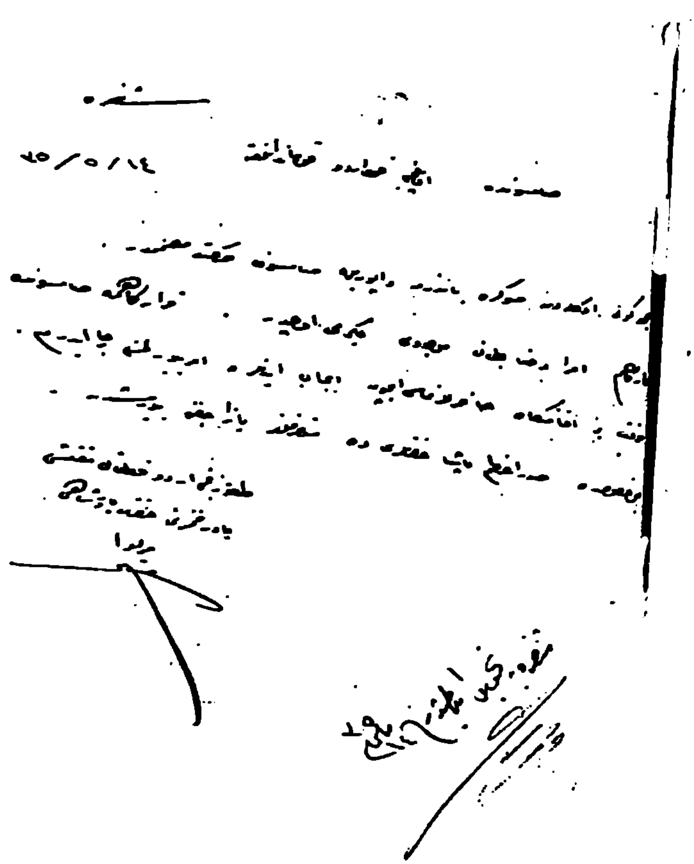
وثيقة رقم (9)

خطاب موجه إلى وزارة الحربية بتاريخ ١٩١٩/٥/١٤، يفيد أن فريق المفتشية سوف يتحرك إلى سامسون خلال يوم واحد.



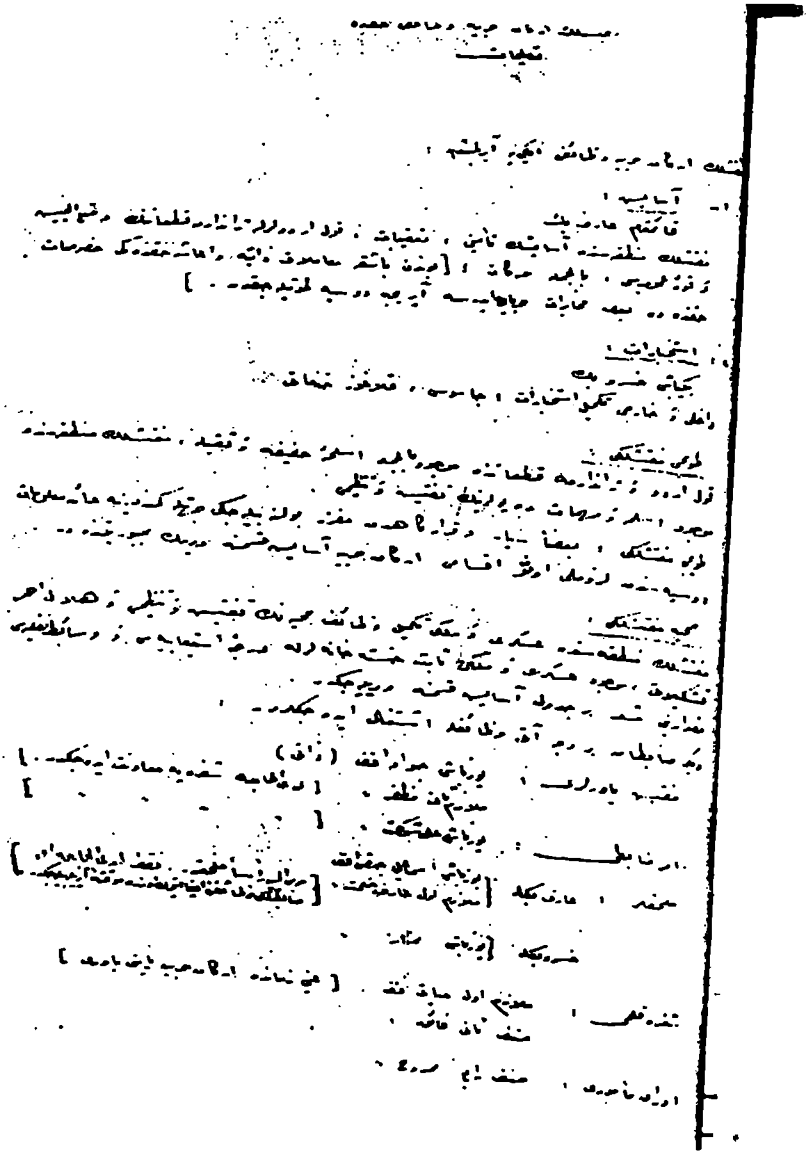
وثيقة رقم (10)

برقية بالشفرة بتاريخ ١٩١٩/٥/١٤، موقعة من أميرلواء مصطفى كمال، الياورالفخري لحضرة السلطان ومفتش الجيش التاسع،موجهة إلى قيادة الفرقة الثالثة في سامسون، تفيد أنه سوف يتحرك بالسفينة باندرمة إلى سامسون ومعه عدد ٢٣ ضابطاً وأميراً وأنه سيقيم هناك بصفة مؤقتة وذلك بناءً على قرار الصدر الأعظم.



وثيقة رقم (11)

وثيقة بتاريخ ١٩ مايو ١٩١٩ تتضمن تعليمات من ثلاث نقاط، توضح المهام الموكلة إلى الضباط المنضمين لمفتشية الجيش التاسع في سامسون، وبتوقيع أميرالاي رئيس أركان الحربية لمفتشية الجيش التاسع.



٦ـ اوراده وارده اوراده مأموری صدوم افندی طرفندن تسلیم آلنجه ، زراعت ایجون لوازملری بالوره
تسلیم . سائره (هادی ، رجب ، غالب) ارکان حربیه یازیه تقدیم قلنه جقدر .
اوراده لزومنه ایده جکدر .
۷ـ زمانی ۳ اوراده ... وقت ... زمانده محلی ... اوراده مأموری مسعود .
امضا ایلیه ... تحریرات ... ایلیه ... اوراده یازیه ... [یـ] حرف اشارت ایلیه ...
رئیسی طرفندن اوراده .
ارکان حربیه
وعده ایتمه یه مجبوردر . ... ضابطان ... نوبت طوته جقدر . ...
۸ـ ... جدول ... ضابطان ... ضابطانک ... زمانه بالوره تسلیم ایده جک ... اوراده
ایده جک ... اوراده مأموری ... .
اوراده کورده ...

نوبت جدولی :

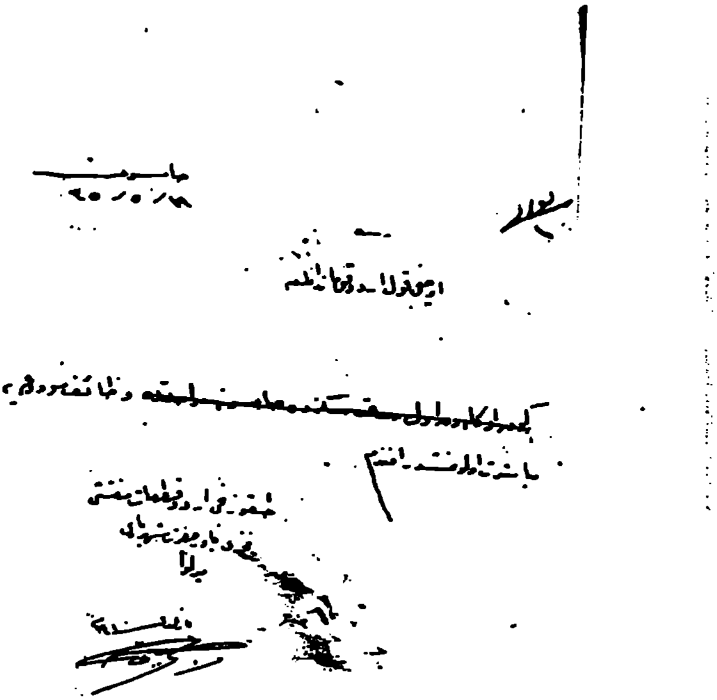
یوزباشی عبد الشفیق افندی
« ... »
« ... »
ملازم اول « ... »
« ... »
ملازم ثانی « ... »

۱۹ / مایس / ۳۳۵ .. صباح ـ

قفقاسیا ... ملحقات مشتکه
ارکان حربیه رئیسی
بالنیابه

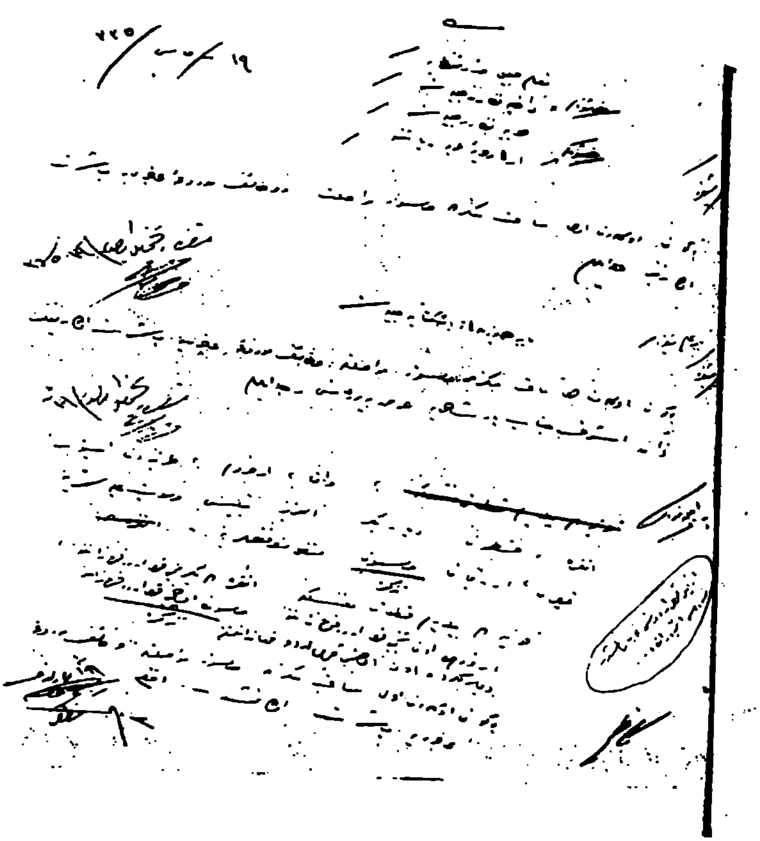
وثيقة رقم (١٢)

برقية بالشفرة بتاريخ ١٩١٩/٥/١٩ من ميرلوا مصطفى كمال، ياور السلطان ورئيس مفتشية الجيش التاسع، موجهة إلى قيادة الفرقة الثالثة في سامسون، تفيد أنه سيتحرك إلى إلى سامسون قبل ظهر اليوم لمباشرة المهام الموكلة إليه.



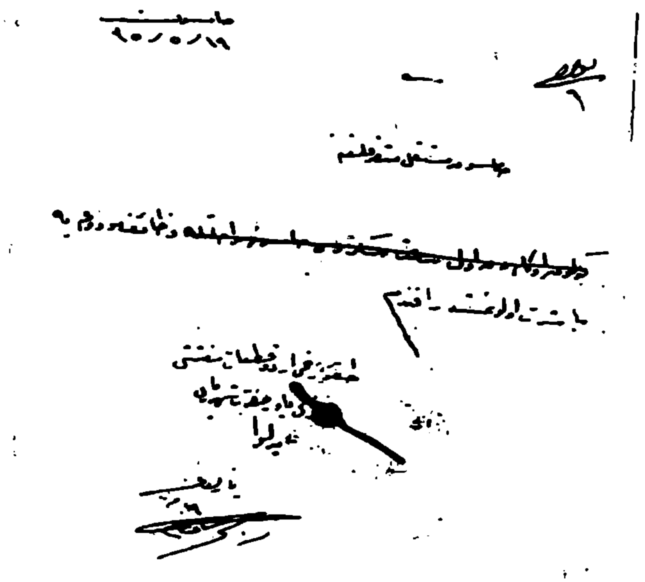
وثيقة رقم (13)

مجموعة برقيات بالشفرة بتاريخ ١٩مايو١٩١٩، موجهة من مصطفى كمال إلى الصدر الأعظم ووزارتا الداخلية والخارجية ورئاسة الأركان العامة، تفيد أنه سيتحرك إلى سامسون قبل ظهر اليوم لمباشرة المهام الموكلة إليه من جانب السلطان. وكل برقية موقعة من الجهة التي استلمتها.



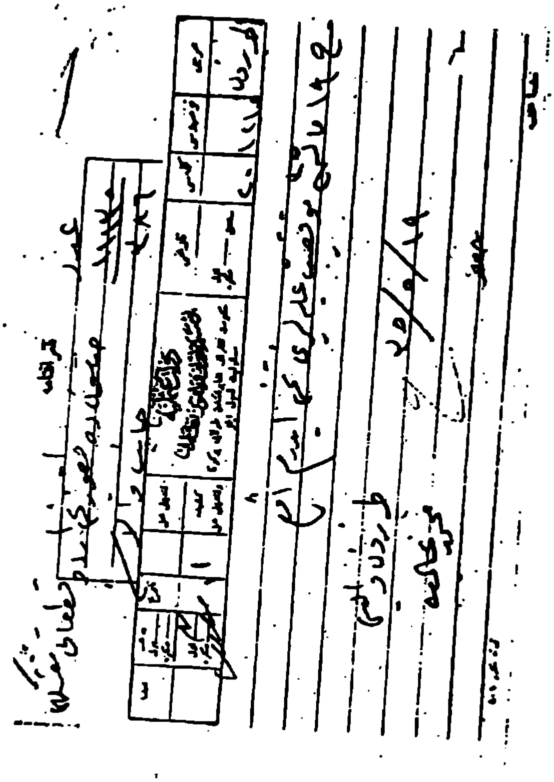
وثيقة رقم (14)

برقية بالشفرة بتاريخ ١٩١٩/٥/١٩، من مصطفى كمال ياور السلطان ورئيس مفتشية الجيش التاسع، إلى متصرفية سامسون، تفيد أنه سيتحرك إلى سامسون قبل ظهر اليوم لمباشرة المهام الموكلة إليه.



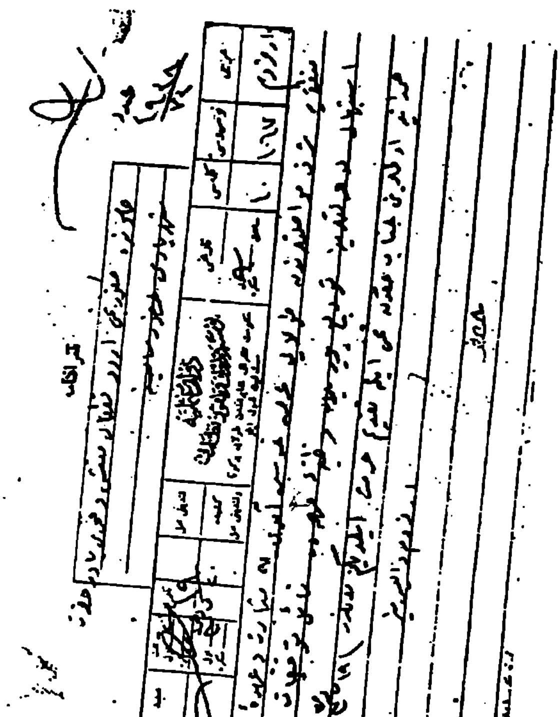
وثيقة رقم (15)

برقية بتاريخ ١٩١٩/٥/١٩، من محمد غالب والي طرابزون إلى مفتشية الجيش التاسع في سامسون، يتمنى فيها التوفيق في المهام الموكلة إلى المفتشية.



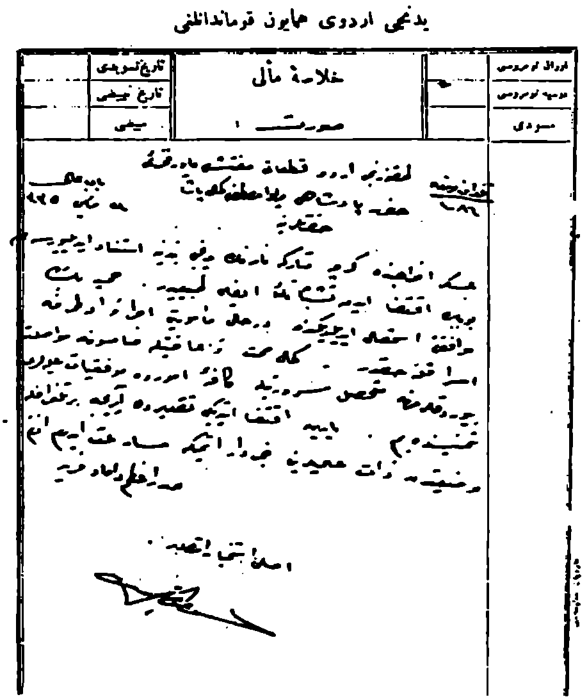
وثيقة رقم (16)

برقية بتاريخ ١٩١٩/٥/١٩، من والي أرضروم إلى حضرة الياور الفخري للسلطان ومفتش الجيش التاسع، بمناسبة وصوله إلى المنطقة يتمنى فيها له التوفيق في المهمة الموكلة إليه.



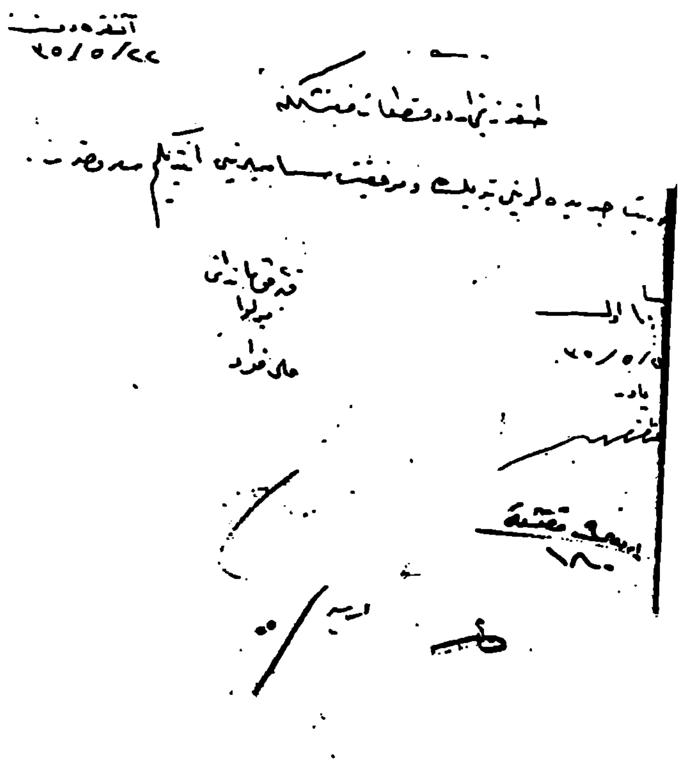
وثيقة رقم (17)

برقية بتاريخ ٢١ /١٩١٩/٥، من الصدر الأعظم داماد فريد باشا إلى حضرة أميرلواء مصطفى كمال باشا، الياور الفخري للسلطان ومفتش الجيش التاسع، يهنئه فيها بسلامة الوصول إلى سامسون، ويتمنى له التوفيق في المهمة الموكلة إليه.



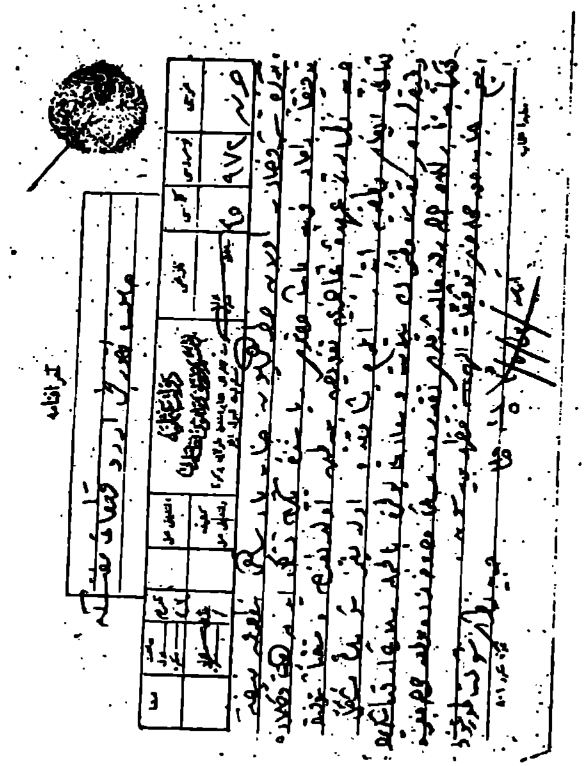
وثيقة رقم (18)

خطاب بتاريخ ١٩١٩/٥/٢٢، من أميرلواء علي فؤاد قائد الفرقة العشرين في أنقرة، إلى مفتشية الجيش التاسع، يتمنى فيها التوفيق في المهام الجديدة.


آنقره دن
٢٢/٥/٣٥
ميرلوا
علي فؤاد

وثيقة رقم (19)

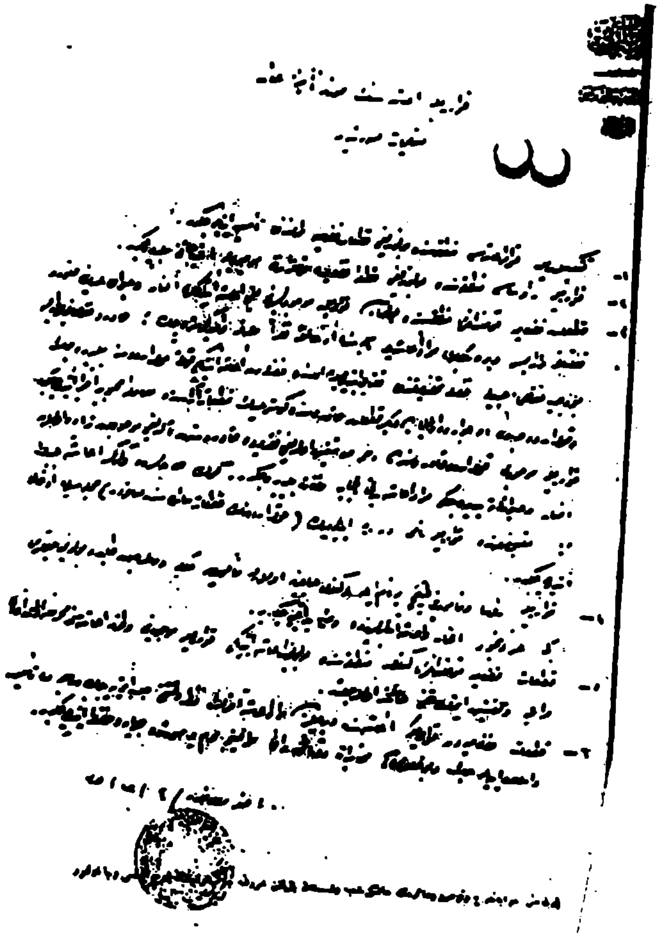
برقية بتاريخ ١٩١٩/٥/٢٣، من شوكت طورغود وزير الحربية، موجهة إلى مفتشية الجيش التاسع، تفيد أنه قد تولى مهام وزارة الحربية، وأنه يتمنى التوفيق لرفاق السلاح في الجهود المبذولة.



وثيقة رقم (٢٠)

أمر وزير الحربية بتقديم الدعم للحركة الشعبية.

BOA. BEO. Harbiye Gelen nr: 345518



وثيقة رقم (21)

وثيقة بتوقيع مصطفى كمال تثبت أنه تقاضى مبلغ ألف ليرة من وزارة الداخلية، بأمر من السلطان محمد وحيد الدين قبل توجهه إلى الأناضول في ١٩ مايو ١٩١٩.

Dahiliye Nezareti

Adet

1000

Yalnız bin liradır

Asayiş-i dâhiliyyede görülecek lüzum üzerine sarf edilmek ve bu dahu tefferuatlı hesap ile tebdil olunmak üzere işbu bâlâda bin lira yı Osmanînın Dâhiliye Nezâret-i Celile Sinden Aldığını mübeyyin makbuzdur

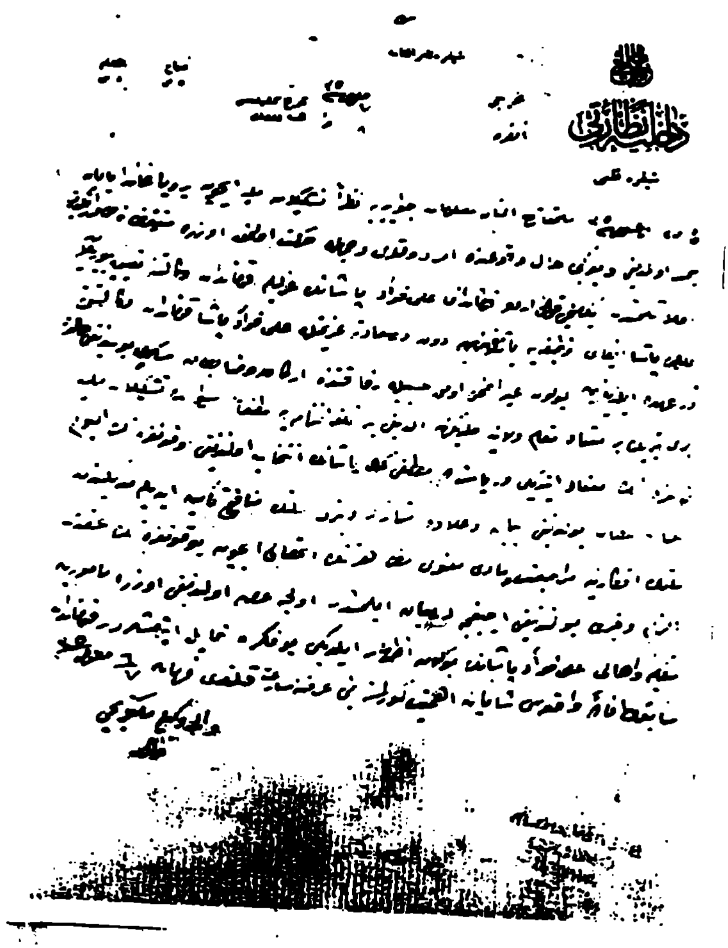
Dokuzuncu Ordu Kıtaat
Müfettişi Mirliva
Mustafa Kemal

Kadir Mısıroğlu, Sarıklı Mücahitler, İstanbul 1980, pp 59-60

وثيقة رقم (٢٢)

برقية تشير إلى انتخاب مصطفى كمال باشا رئيساً لمؤتمر التشكيلات الوطنية في سيواس.

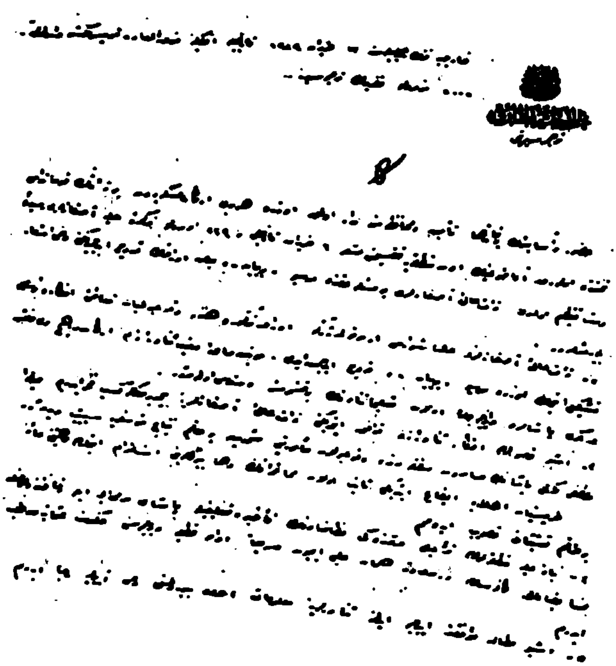
BOA. DH. KMS. 53-3/12-1-2



وثيقة رقم (٢٣)

ترجمة من الإنجليزية إلى التركية لتقرير القائد الإنجليزي، بشأن المطالبة باستدعاء مصطفى كمال إلى استانبول.

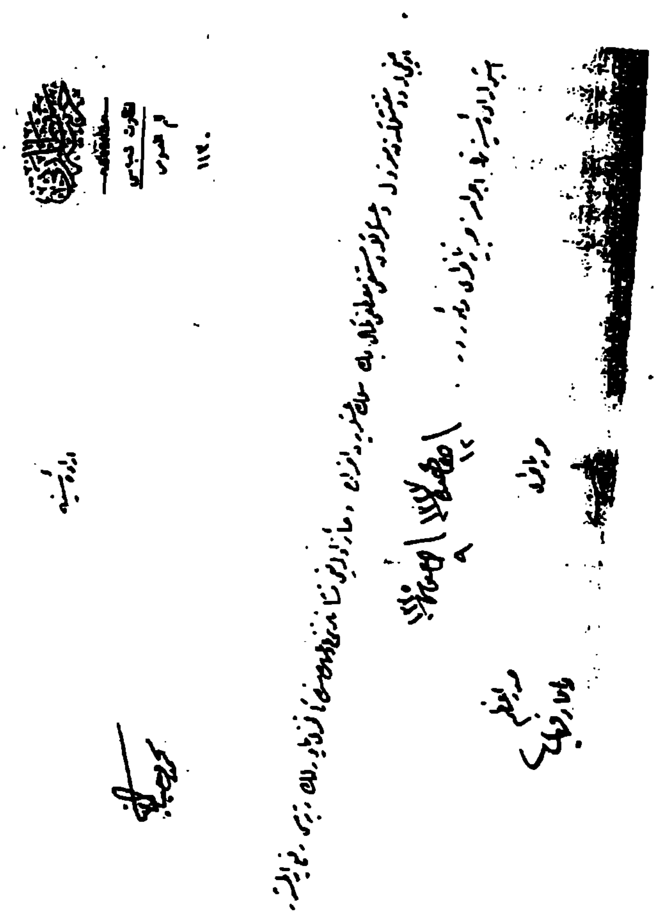
BOA. HR. SYS. 2606/1-30



وثيقة رقم (٢٤)

فرمان السلطان بسحب كافة النياشين والميداليات من مصطفى كمال باشا، وتجريده من لقب الياور الفخري.

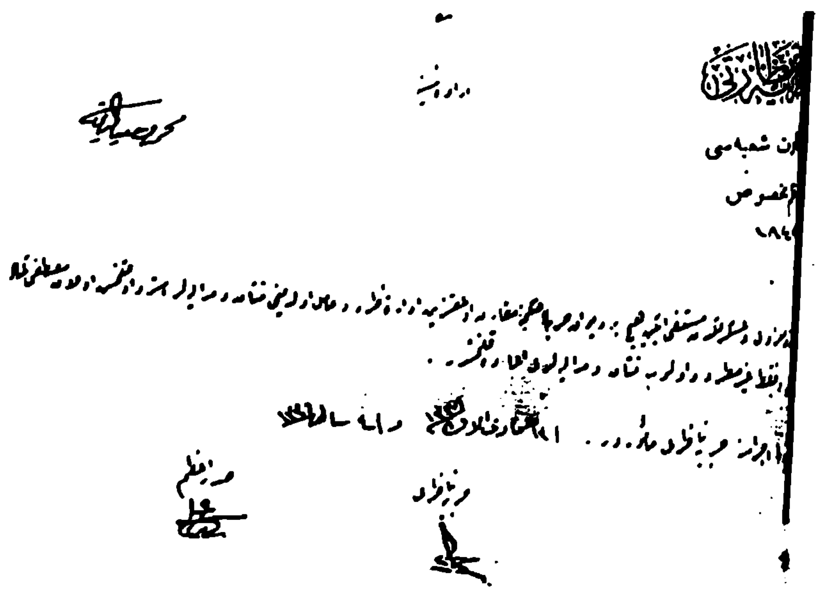
BOA. DUIT. Ds: 68/13



وثيقة رقم (٢٥)

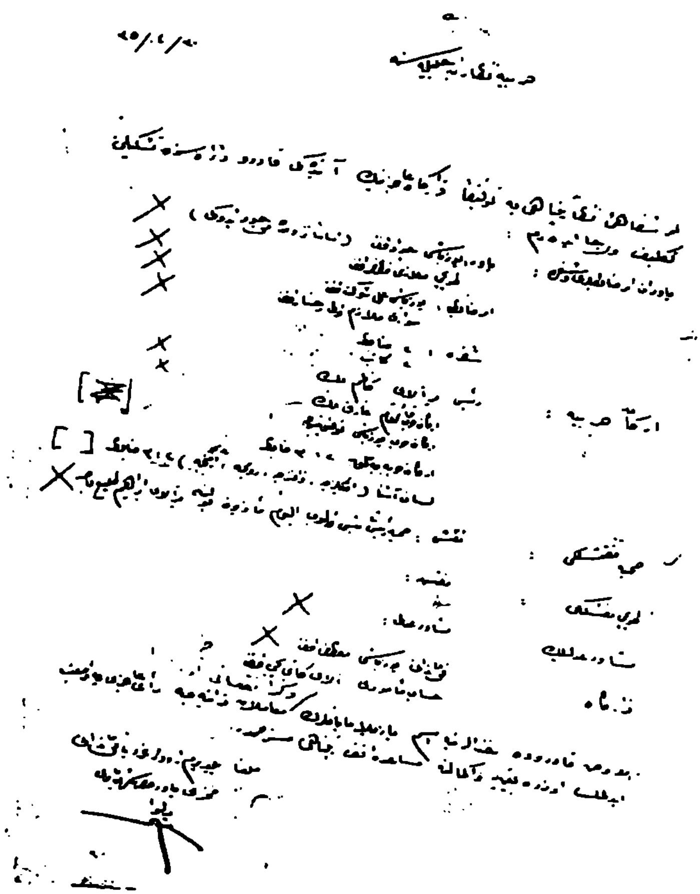
فرمان السلطان بإعادة الميداليات والنياشين إلى مصطفى كمال باشا.

BOA. DUIT. Ds: 68/21



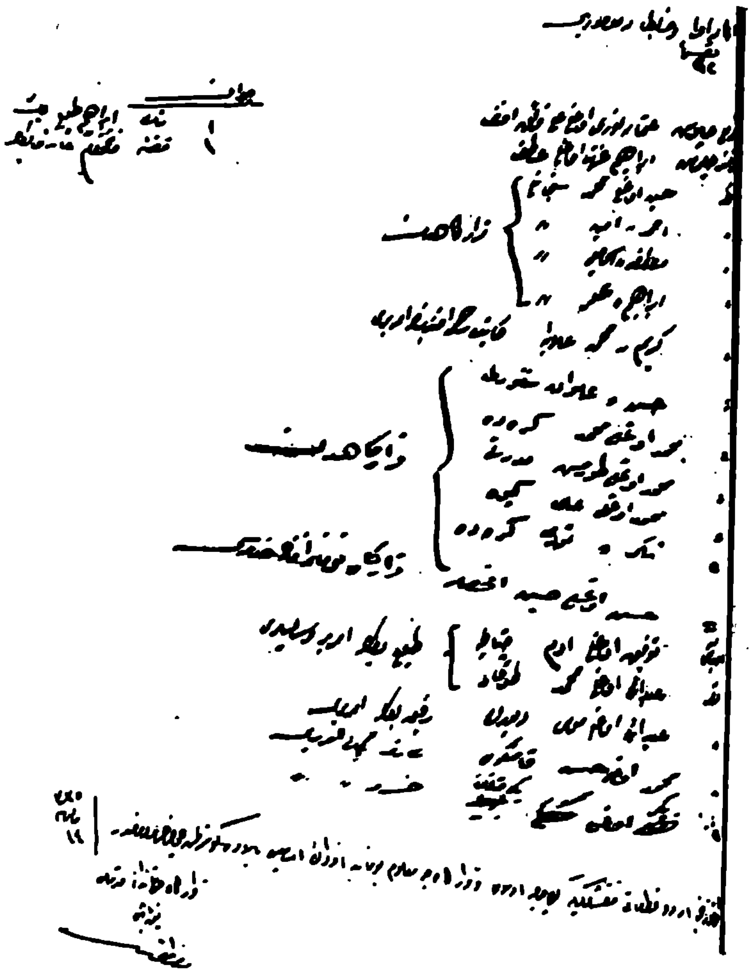
وثيقة رقم (٢٦)

خطاب بتوقيع أميرلواء مصطفى كمال، قائد جيش الصاعقة والياور الفخري للسلطان، موجه إلى وزارة الحربية بتاريخ ٣٠/٤/ ١٩١٩، يحتوي على أسماء الضباط والأفراد المنضمين إلى مفتشية الجيش التاسع ومهامهم في المفتشية.



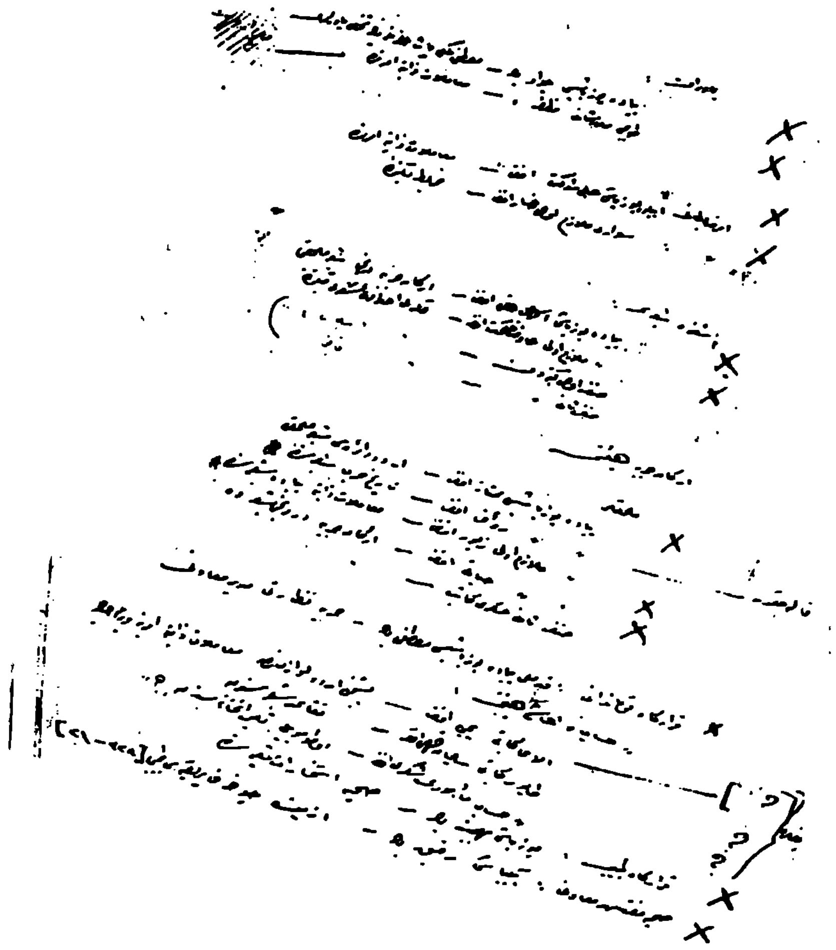
وثيقة رقم (٢٧)

وثيقة تشتمل على باقي الأسماء الموجودة في الوثيقة رقم (٢٦).



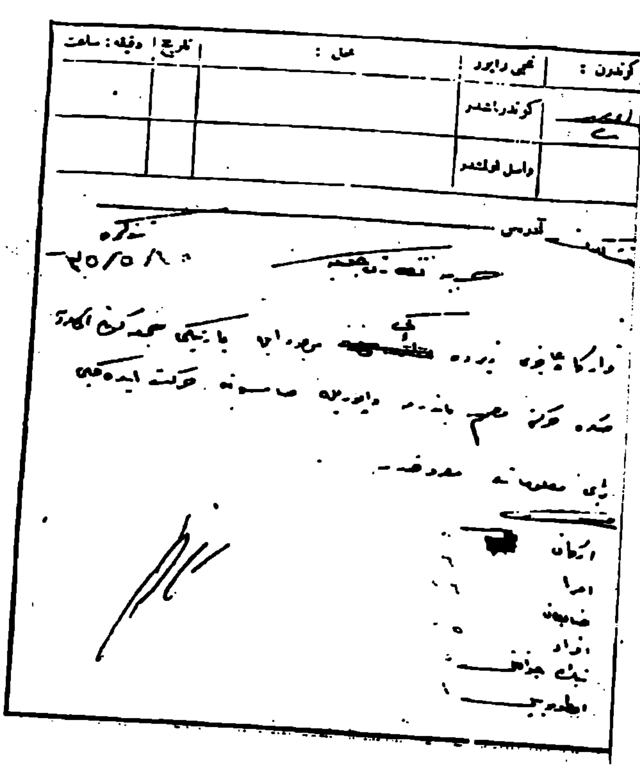
وثيقة رقم (٢٨)

وثيقة تشتمل على أسماء الأفراد الملحقين بمفتشية الجيش التاسع.



وثيقة رقم (٢٩)

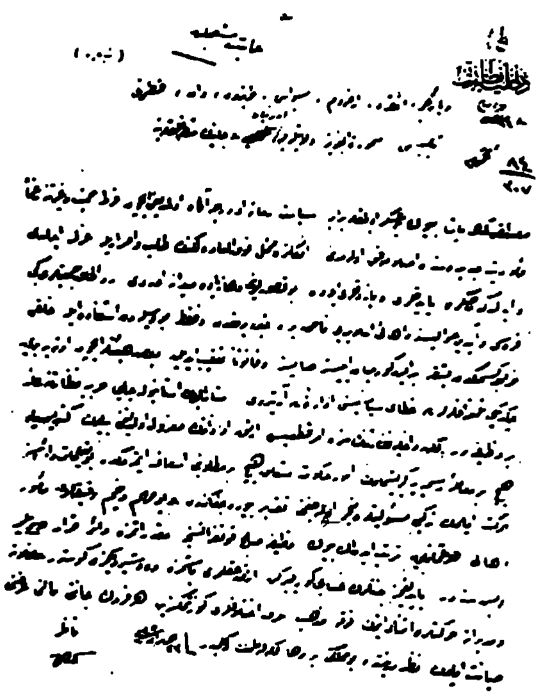
مذكرة من مصطفى كمال موجهة إلى وزارة الحربية بتاريخ ١٩١٩/٥/١٥، تشتمل على عدد ضباط الأركان والأمراء والأفراد والمعدات التي سيتم إرسالها إلى سامسون بالسفينة باندرمة.



وثيقة رقم (٣٠)

رسالة من وزارة الداخلية توضح سبب عزل مصطفى كمال باشا من منصبه.

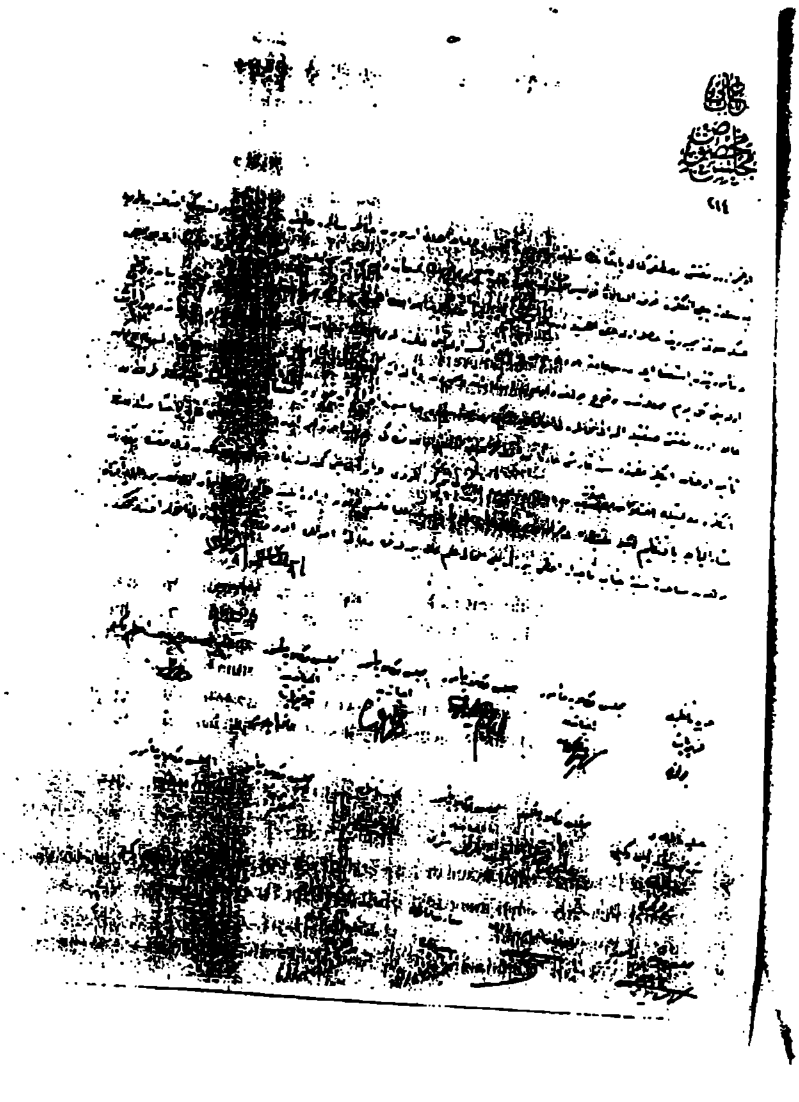
BOA. DH. ŞFR. 160/174



وثيقة رقم (٣١)

قرار مجلس الوزراء بإعفاء مصطفى كمال باشا منصبه.

BOA. DUIT. Ds: 68/13



وثيقة رقم (٣٢)

تشتمل هذه الوثيقة على:

صورة الفتوى التي أصدرها شيخ الإسلام دري زادة.

وصورة الخط الهمايوني بتوقيع وحيد الدين بتاريخ ٥ إبريل ١٩٢٠الذي يفيد إنه تم تعيين فريد باشا صدراً أعظم بعد استقالة صالح باشا، وتعيين دري زادة عبدالله شيخاً للإسلام. وفيه يطلب من فريد باشا اتخاذ ما يلزم من أحكام قانونية تجاه من دبروا العصيان، والعفو عن الذين اشتركوا فيه وهم غافلين عن مصلحة وطنهم.

وصورة بيان الحكومة الذي يقول إنه "بسبب احتلال دول الحلفاء لاستانبول، اندلعت المقاومة الشعبية في الأناضول، ونظراً لقيام شرزمة من العصاة بارتكاب أعمال تؤدي إلى حدوث كوارث، وتهديد الأمن، وهو ما يعد خيانة وطنية تعرقل الذين يفدون أوطانهم بأرواحهم، لذا تؤيد الحكومة ما جاء في الفتوى، وتمتثل لما جاء في الخط الهمايوني، وتشير إلى أنه سيتم العفوعن الذين تراجعوا عن موقفهم وأظهروا امتثالهم للسلطان من هؤلاء الذين اشتركو في العصيان، ومجازاة الذين استمروا في اعتداءاتهم".

...رای شریفه صورتی

[illegible]

خط همایون صورت منیفه سی

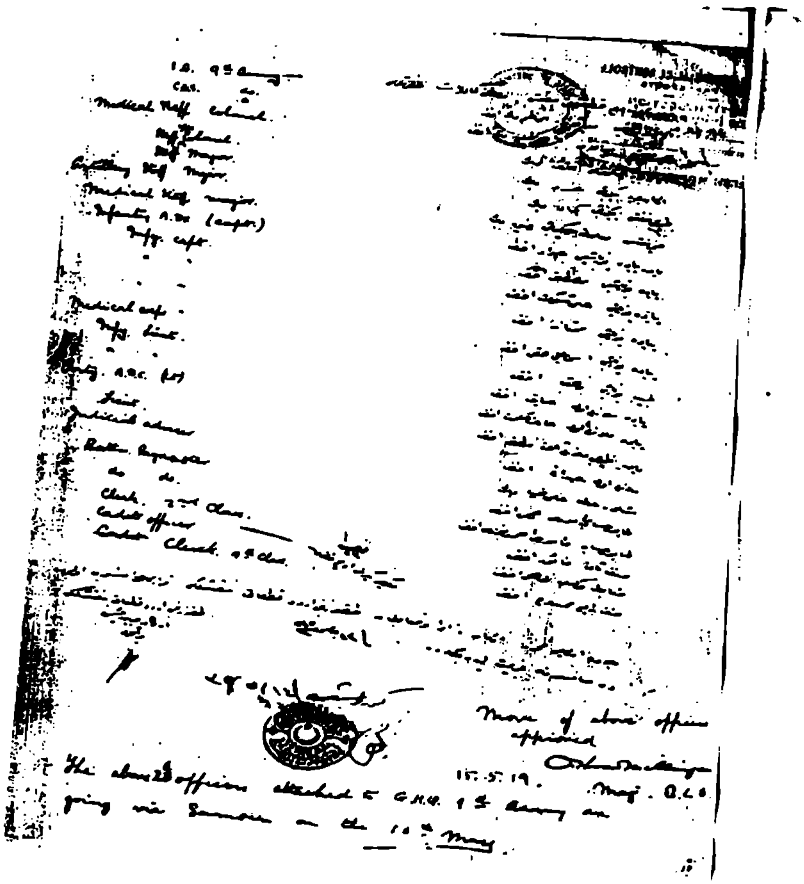
[illegible]

حکومتك بیانلمه سی

[illegible]

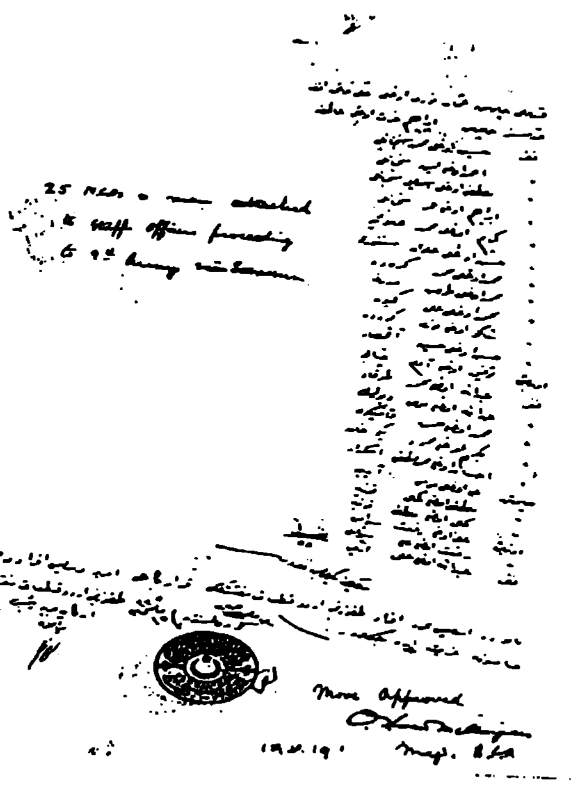
وثيقة رقم (٣٣)

وثيقة بتاريخ ١٤/٥/ ١٩١٩، موقعة من أميرالاي رئيس أركان الحربية لمفتشية الجيش التاسع. تشتمل الوثيقة على أسماء الضباط المشتركين في مفتشية الجيش التاسع. في مقدمة الأسماء اسم مصطفى كمال وكاظم بك وعارف بك وغيرهم. وتوضح أن السفر إلى سامسون سيتم في ١٦ مايو ١٩١٩للتفتيش على الجيش التاسع. والوثيقة ممهورة من الأمام بختم وزارة الحربية، ومصدقة من الخلف بختم مكتب الجوازات البريطاني في القسطنطينية، وموقعة من الممثل البريطاني هناك.



وثيقة رقم (٣٤)

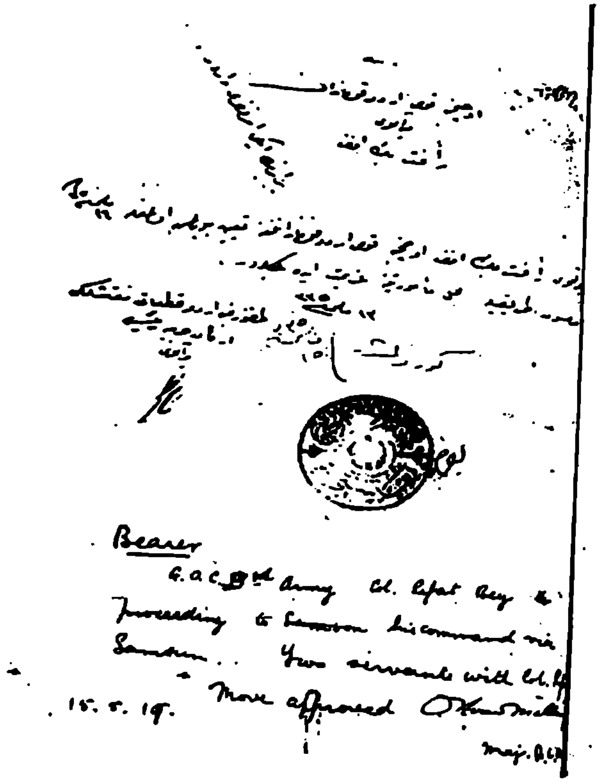
وثيقة تشتمل على أسماء ضباط الصف المشتركين في مفتشية الجيش التاسع وعددهم ٢٥ ضابطاً، والمناطق الموكلين بالتفتيش فيها، وهي بتاريخ ١٣ مايو ١٩١٩، وتوضح أن التحرك إلى سامسون سيتم في ١٦ مايو. والوثيقة ممهورة من الأمام بختم وزارة الحربية وموقعة من أميرالاي رئيس أركان الحربية لمفتشية الجيش التاسع، ومصدقة من الخلف بختم مكتب الجوازات البريطاني في القسطنطينية، وموقعة من الممثل البريطاني هناك، وهي عبارة عن تصريح مرور.



BUREAU INTERALLIÉ DE CONTROLE
DES PASSEPORTS
BRITISH SECTION
GOOD FOR PASSAGE TO
SAMSOUN
CONSTANTINOPLE 16.5.
BRITISH REPRESENTATIVE

وثيقة رقم (٣٥)

تصريح مغادرة لرأفت بك قائد الجيش الثالث، موقع من أميرالاي رئيس أركان الحربية لمفتشية الجيش التاسع، ومهور من الأمام بختم وزارة الحربية، ومصدق من الخلف من مكتب الجوازات البريطاني في القسطنطينية بتاريخ ١٩١٩/٥/١٣، وموقع من الممثل البريطاني هناك.


Bearer

G.O.C. 3rd Army Col. Refat Bey

proceeding to his command via

Samsun. Two servants with Col.

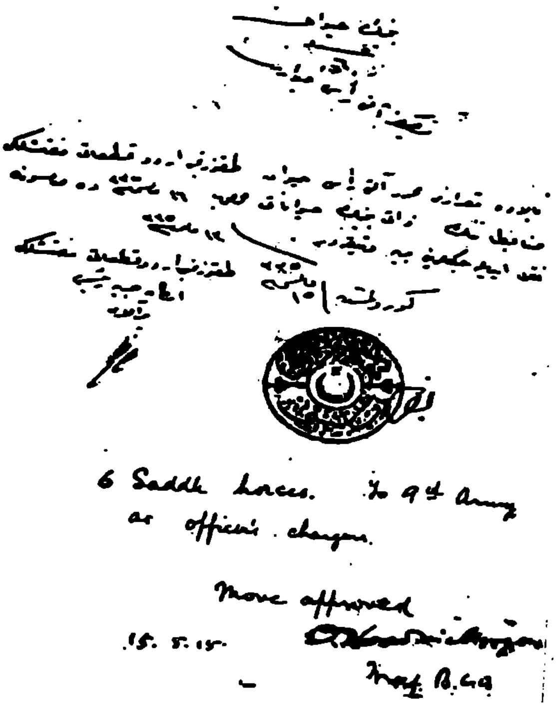
Move approved

15. 5. 19.

Maj.

وثيقة رقم (٣٦)

خطاب من أميرالاي رئيس أركان الحربية لمفتشية الجيش التاسع بتاريخ ١٩١٩/٥/١٥، مصدق من وزارة الحربية، وموجه إلى مكتب الجوازات البريطاني في القسطنطينية، للتصريح بنقل عدد ٦ حصان إلى سامسون، ومصدق من الخلف من مكتب الجوازات البريطاني في القسطنطينية.


6 Saddle horses. To 9th Army
as officer's chargers.

Move approved
15. 5. 19.
Maj. B.G.G.

وثيقة رقم (٣٧)

وثيقة توضح مدى انشغال بريطانيا بموضوع الخلافة منذ الحرب العالمية الأولى.

وهذه الوثيقة عبارة عن خطاب مُرسل بتاريخ ١٩١٧/٧/٣١ من مدير مكتب المخابرات الإنجليزية في جدة إلى مدير مكتب المخابرات الإنجليزية في القاهرة، وفيه يشير إلى حديث جرى بينه وبين ضابط المخابرات البريطاني لورانس والشريف حسين، شريف مكة الذي أوضح أنه يرجح أن يحمل لقب أمير المؤمنين وليس لقب الخليفة، ولكن تكون له سلطة الخليفة على جميع المسلمين.

SECRET.

Ref.No. [illegible]

Director,

Arab Bureau,

Cairo.

I forward herewith a very interesting note on a conversation Captain Lawrence and I had with the Sherif written by the former at my request.

I agree with Captain Lawrence's concluding remarks and as he appears opposed to a Caliphate in principle I am of opinion that his ultimate aim is to be recognised as AMIR EL MUMININ by the Moslem world generally and not as Caliph as I have previously thought, but his object all along has I think been the same viz to be the recognised Head of Islam.

Jeddah.
31.7.17.

Lieutenant Colonel.

[illegible]

4

On 20.7.17. The Sherif of Mecca explained at some length to Colonel Wilson before me his [illegible] position. He began by sketching the original [illegible] of the Wahabi Sect- its puritanism, its literalism, and its asceticism. After the Egyptian conquest of Nejd the sect fell away very quickly in numbers and enthusiasm, till of late years it was practically confined to Ariah. The [illegible], [illegible], and [illegible] had all [illegible] as much as [illegible] [illegible].

About four years ago there was a sudden revival. The Sherif is doubtful as to whether this can be [illegible] to the [illegible] or not. At any rate funds were obtained from somewhere, and Wahabi missionaries went up to Kasim amongst the Ateiba, Hetair, and [illegible], and into Mecca and Taif. The first tenet of the [illegible] that the orthodox [illegible] and Shias [illegible] were infidels. The [illegible] of Mecca was [illegible] a Kafir as the Turks. The constructive side of the [illegible] was curious; they preached an [illegible] "[illegible] everything"; they [illegible] medicine to the sick, discouraged trade, building, and [illegible]. A [illegible] saying was "If a man fall into a well leave it to God to pull him out".

The missionaries were at first [illegible] in great part, and the Sherif took alarm at the [illegible] Abdulla rapidly into Nejd, and by a [illegible] of force recovered the Ateiba, and most of the [illegible], and [illegible] them again to the Emirate of Mecca. He also [illegible] steps to counter-preach the new [illegible], and in a short time the Wahabite movement [illegible] to have spent itself. It was however only [illegible] the last year or so missionaries have [illegible] there.

a contribution of men; and from another a [illegible] in money. This has particularly annoyed [illegible], [illegible], and [illegible], rich and comfortable towns, fond of [illegible] and [illegible] and not too fond of prayer. Their disaffection is wide, again the Sherif regards it as [illegible], since his ambitions extended to the limits of the [illegible] and [illegible] only, and he has no desire to be involved in any question of the suzerainty of the [illegible]. At present there is a sharp cleavage between [illegible] and [illegible], which any external encouragement, or [illegible], might inflame into an open breach. 5

We then asked the Sherif about the position of the [illegible]. Towards the [illegible] he said, they were [illegible] hostile. Other than that he could not say [illegible] policy. They loved his family, since [illegible] have a greater respect for the [illegible] of the Prophet than have the Sunnis. Some such as the [illegible] and [illegible], were in his opinion; more reasonable in their attitude than the [illegible] who oppose them. The [illegible] objection to the [illegible] was political and not doctrinal.

He, in common with all orthodox Islam, was not prepared to deny the Khalifate of [illegible], but [illegible] the [illegible] condemned Abu Bakr, Omar and [illegible]. The [illegible] on [illegible] is largely [illegible], [illegible] of the Persian sects.

(The Sherif is ostensibly a [illegible] took up a middle position [illegible] the Sunni: it is generally believed that [illegible]. Sidi [illegible] is merely an [illegible] of the [illegible] wing: Sidi Ali is a Sunni, and [illegible], and Sidi [illegible] is not a [illegible] [illegible]

I then mentioned to the Sherif that the Northern Arabs commonly called him Emir al [illegible] and asked him if this title was correct and if it met with his approval. After a short reflection he said "No" and made his refusal more definite later. He said that people ascribed to him ambitions which he did not possess; he had even heard talk of his reviving the Khalifate. He explained his position with regard to the Khalifate. It was the simple Shia one (already impressed on me by Feisal and Abdulla,) namely that the Khalifate expired with Abu Bakr, and that any resurrection of the idea today was not only grammatically absurd but blasphemous. He will have absolutely no truck with such a notion. (Sidi Abdulla is weaker than his father in this respect. If he saw profit from the Sunni side in the assumption, he might do it, and [illegible] the lead of the Shia element; yet as matters stand if the decision lies with him it is improbable that it will ever be adopted.) The idea of a Moslem Khalifate was, said the Sherif, suggested to Abdul Hamid by the British, and exploited by him as a stick to beat us with. Its exponents today were Obeidullah, Abd el Aziz Shawish, Shakib Arslan, and Ahmed [illegible], four blackguards without an ounce of Islam honesty between them and its nominal holder the Sultan of the Turks was a pitiable laughing stock: the institution had been fatal to Islam; it tried to twist a religion into a political theory and was responsible for unrest in Turkey, Arabia, Egypt, S.Africa, Java, India and China. It had plunged Turkey into the present war, and caused the Arab revolt, and with this example before his eyes, and in face of his own policy of friendship with Great Britain, he could neither accept [illegible] another's Khalifate, against one [illegible], or [illegible]

prophet, but was objectional politically, on account of the word "Emir". It was no use being Emir, without the power or pretence of giving orders not to a sect or a country or two, but to the Moslem world. The main divisions of Shia and Sunni would unite under this title but the smaller sects, and especially the alien congregations in India and Africa would resent the implication of authority, as, no doubt, would the Great Powers. 7

His policy for Islam was to preserve in Mecca and Medina for the honourable upkeep of the Holy Places, to facilitate the pilgrimage, and to issue Fetwas and [illegible] as required. The Moslem world must have a head, but it would be a less tempestuous body of thought if the head was the Sherif and Emir of Mecca, basing his right on the concrete possession of the Holy Places, and on [illegible] descent, not on a supposed implicit apostolic authority, inherited from an unbroken succession of [illegible]. [illegible] in rebelling against the Turks were [illegible] political object, the liberation of the Arab world from Turkish domination: this he will [illegible] without question of creed; Christian, Druse, Shia and Sunni [illegible] common base of nationality, and must [illegible] with him on level terms if the aim is to be achieved. [illegible] motive was a religious one, purely Islamic in character: it is to provide for the Mohammedan world [illegible] sovereign, ruling in the Holy Places, of the [illegible] family, whose claims to the spiritual leadership of Islam will be so transcendent as to be [illegible], but whose weakness in material resources [illegible] will at once make him [illegible] the Great Powers, and purge Islam of [illegible] polity, [illegible]

have plunged Turkey, the Senussi and Ali Dinar into suicidal [illegible] Jehad? His temporalities he will hold as King of the Arab countries, and his spiritualities as [illegible] of [illegible].

My personal opinion is that the title of [illegible] would not be repugnant to him, if it came not as his assumption, but as the homage of his followers? It is generally used by the tribes [illegible] to [illegible], and will apparently be acceptable to the [illegible] of urban Syria. His present objection, that it involves the power of command in Islam, does not [illegible] it is not fair to interpret it only in [illegible] sense.

As for the Khalifate, [illegible] of Abdul Hamid's bogus claims, [illegible] acknowledgement of this [illegible] himself. [illegible] that his opposition to the idea [illegible] principle. Further, I do not think that all [illegible] of the world would persuade Sherif [illegible] to [illegible] his principles. His transparent honesty [illegible] of conviction (while they may [illegible] between his prejudices and his [illegible] will at all costs ensure his [illegible] with his promised word. It would [illegible] him in coming [illegible] it would be a [illegible].

He appears to hope that, [illegible] political disintegration of Islam, [illegible] may be able to concentrate attention on its dogmatic differences [illegible] to reduce the friction between [illegible] be to moderate Sunni and [illegible] under his presidency, and try to [illegible] in this sense.

قائمة المصادر والمراجع

١- المصادر والمراجع العربية

- أحمد إسماعيل باغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى ١٩٩٦

- توفيق برو، القضية العربية في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) دمشق، ١٩٨٩.

- حسين مجيب المصري، من أدب الفرس والترك، الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٩

- حسين مجيب المصري، تاريخ الأدب التركي، الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٠٠

- سعيد أحمد برجاوي، الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٣

- شوقي عطا الله الجملة، عبد الله عبد الرازق إبراهيم و رباب محمود عبد الحميد سلام، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، الجزء الثاني، من مؤتمر فينا ١٨١٥ حتى الآن، دار الثقافة للنشر، القاهرة بدون تاريخ

- عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٠

- الصفصافي أحمد المرسي، التجربة الديمقراطية في تركيا الحديثة والمعاصرة، الجزء الأول، القاهرة ٢٠٠٦

- الصفصافي أحمد المرسي، استانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة، دار الأفاق العربية ١٩٩٩

- علي حسون، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م

- علي سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، مكتبة طرابلس العلمية العالمية ١٩٩٨

- ماجدة مخلوف، الخلافة في خطاب أتاتورك، مركز بحوث آسيا، الزقازيق ٢٠٠١

- محمد حرب، المثقف وتغيير نظام الحكم، حالة أتاتورك، مركز بحوث أسيا، الزقازيق

٢٠٠٠
- محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق ١٩٨٩
- محمد حرب، الصراع بين الفكر الإسلامي والمادية في تركيا المعاصرة، جامعة عين شمس ١٩٩٠
- محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني أخر السلاطين العثمانيين الكبار، سلسلة أعلام المسلمين، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٠
- محمد سهيل طقوش، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، دار بيروت المحروسة، الطبعة الأولى ١٩٩٥
- محمد صلاح الدين حسين، الحرب العالمية الأولى، إستراتيجية الميدان الغربي، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية ١٩٥٣
- محمد عزة دروزة، تركيا الحديثة، القاهرة ١٩٤٦
- محمد علي قطب، يهود الدونمة في تركيا، الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٢
- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق محمد إحسان حقي، دار النفائس، بيروت ١٩٨٦
- محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٦
- مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ.٢٠٠٦ م، الناشر دار الأفاق العربية

٢- الموسوعات العربية

الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ١٩٥٩

٣- الدوريات العربية

- جريدة الأهرام، عدد ٢٢/١٠/١٩٤٤
- جريدة القبلة، العدد: ٦٤١ السنة السابعة، ١٥ ربيع ثاني ١٣٤١ هـ - ٤ ديسمبر ١٩٢٢م
- جريدة القبلة، العدد: ٦٥٦ ، ١٢ جمادى الثانية ١٣٤١هـ - ٢٩ يناير ١٩٢٣ م

- جريدة القبلة، العدد: ٦٧٢ ، رجب ١٣٤١ هـ - ٢٢ مارس ١٩٢٣م
- جريدة اللواء المصري، العدد: ٣١٥ ، ١٣ رجب ١٣٤١هـ - مارس ١٩٢٣ م
- صحيفة المقطم، العدد: ١٠٦٦٨ ، السنة السادسة والثلاثون، ، ٢٨ شعبان ١٣٤٢ هـ - ٣ ابريل ١٩٢٤م
- مجلة المنار الجديد، عدد: ٣٠ ابريل ٢٠٠٥ م

٤- المراجع المترجمة

- الرجل الصنم، تأليف ضابط تركي سابق، ترجمة عبد الله عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨٢ م (مترجم عن التركية)
- تاريخ الدولة العثمانية، الجزء الثاني، إشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٣ (مترجم عن الفرنسية)
- جواد رفعت آتلخان(جنرال)، أسرار الماسونية، ترجمه عن التركية وعلق عليه نور الدين رضا الواعظ وسليمان محمد أمين القابلي. بيروت، مكتبة المثقف، سنة ١٣٧٦ هـ
- داجوبيرت فون ميكوش، مصطفى كمال، المثل الأعلى، ترجمة كامل صموئيل مسيحة، المكتبة الأهلية في بيروت للترجمة والتأليف والنشر، بدون تاريخ (مترجم عن الألمانية)
- مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة وتقديم وتحقيق وتعليق محمد حرب عبد الحميد، كلية الآداب جامعة عين شمس، دار الأنصار، القاهرة ١٩٧٨(مترجم عن التركية)
- كتاب الوطنية العثمانية، تأليف مدام بيرت جورج جوليس، ترجمة أحمد رفعت، دار الطباعة الفنية ١٩٢٢ (مترجم عن الفرنسية)
- مذكرات جمال باشا، تعريب علي أحمد شكري، القاهرة ١٩٢٣
. هـ. س. ارمسترونج ، الذئب الأغبر، مصطفى كمال، ترجمة حلمي مراد، دار الهلال، القاهرة ١٩٥٢ (مترجم عن الإنجليزية)
- Arnold J. Toynbee, “Türkiye, Bir Devletin Yeniden Doğuşu”, c. I, Milliyet Yayınları, İstanbul 1971
(مترجم من الإنجليزية إلى التركية)
- Arnold J. Toynbee, “Türkiye, Bir Devletin Yeniden Doğuşu”, c.

11, Çağdaş Matbaacılık ve Yayıncılık Ltd. Şti.Ocak 2000

(مترجم من الإنجليزية إلى التركية)

-Charles H. Sherrill, "Bir Elçiden Gazi Mustafa kemal", Tercüman Yayınları, İstanbul, tarihsiz

(مترجم من الإنجليزية إلى التركية)

- Dagobert Von Mikusch, "Mustafa Kemal between Europe and Asia", G.T. Britain 1931

(مترجم من الألمانية إلى الإنجليزية)

- Johannes Glasneck, "Kemal Atatürk ve Çağdaş Türkiye", çev. Arif Gelen, Onur Yayınları, Ankara 1976

(مترجم من الألمانية إلى التركية)

-Kinross Balfour Patrick, "Atatürk", C.2, çev. Ayhan Tezel, Sander Yayıncılık, İstanbul 1966

(مترجم من الإنجليزية إلى التركية)

٥- الرسائل العلمية

- طارق عبد الجليل السيد، "دور المؤسسة العسكرية في الحياة السياسية في تركيا المعاصرة على ضوء المصادر التركية"، رسالة دكتوراه، قسم اللغات الشرقية، فرع اللغة التركية. كلية الآداب، جامعة عين شمس ٢٠٠٨

- عاطف حسين النحاس، "الواقعية في رواية سينكلي بقال للأديبة خالدة أديب آديوار، ترجمة ودراسة"، رسالة ماجستير، قسم اللغات الشرقية، فرع اللغة التركية، كلية الآداب، جامعة عين شمس ٢٠٠٢

- عزة عبد الرحمن الصاوي، "الإتجاه الإسلامي في أدب نجيب فاضل قيصه كورك"، رسالة دكتوراه، قسم اللغات الشرقية، فرع اللغة التركية، كلية الآداب، جامعة عين شمس ١٩٨٣

- محمد حرب عبد الحميد، "الشعر التركي الحديث والمعاصر من بداية الحركة الكمالية إلى نهاية الحرب العالمية الثانية"، رسالة ماجستير، قسم الدراسات الشرقية، كلية الآداب، جامعة

القاهرة ١٩٦٨

٦- المعاجم والمراجع العثمانية

- شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، مهران مطبعة سي، جلد ١ - ٦ استانبول ١٣٠٦ - ١٣١٦

- قاموس اللغة العثمانية، الدراري اللامعات في منتخبات اللغات، جمعه ورتبه محمد علي الأنسي، بدون تاريخ

- مصطفى كمال (أتاتورك) خلافت وسلطنت مسألة سي حقنده، تركيا بيوك ملت مجلس رئيس غازي مصطفى كمال باشا حضرتلرينك نطقللري، قسطموني مطبعةسي،١٣٣٨

- مصطفى كمال (غازي) نطق، تورك طيارة جمعيتي، أنقرة ١٩٢٧

٧- المعاجم التركية الحديثة

- Bekir Sıtkı Baykal, "Tarih Terimleri Sözlüğü", Türk Dil Kurumu, Ankara 1974

- Mehmet Zeki Pakalın, "Osmanlı Tarıh Deyimler ve Terimleri Sözlüğü", cilt 3, Milli Eğitim Basımevi, İstanbul 1983

٨- المصادر والمراجع التركية

- Afet İnan, "Türkiye Cümhüriyeti ve Türk Devrimi", T.T.K. Basımevi, Ankara 1973

- Ahmet İzzet Paşa, "Feryadım", c.2, Nehir Yayınları, İstanbul 1994

-Ahmet Reşit Rey, "Gördüklerim,Yaptıklarım", Türkiye Yayınevi, İstanbul 1945

- Ali Fuad Türkgeldi, "görüb işittiklerim", Türk Tarih kurumu Basımevi, Ankara 1984

- Ardal Aydoğan, "Samsun'dan Erzurum'a Mustafa Kemal", Atatürk Araştırma Merkezi, Ankara 2000

- ATATÜRK Gazi Mustafa Kemal, "Atatürk'ün Söylev ve Demeçleri", c.1, Toplayan: Nimet Arsan, Türk ınkılâp Tarihi Enstitüsü Yayını, II. baskı, Ankara 1961

- Celal Bayar, "Bende yazdım Millimucadeleya giriş", Baha Matbaası, İstanbul 1968

- Cemal Kutay, "Talat Paşanın Gurbet Hatıraları", İkinci Baskı, Türk Kaynak yayınları, İstanbul 1983

- Cemil Topuzlu, "Seksen Yıllık Hatıralarım", Topuzlu Yayınları, İstanbul 1982

- Enver Behnan Şapolyo, "Kemal Atatürk ve Milli Mücadele Tarihi", İnkilap Kitabevi, İstanbul 1958

- Enver Ziya Karal, "Atatürkten Düçünceler", Devlet kitapları, İstanbul 1986

- Esmail Hakkı Uzun Çarşılı, "Osmanlı Tarihi", Türk Tarih Kurumu, Ankara 1972

- Fahrettin Altay, "On Yıl Savaş ve Sonrası", İnsel Yayınları, İstanbul 1970

- Falih Rıfkı Atay, "19 Mayıs", Ulus Basımevi, Ankara 1944

- Falih Rıfkı Atay, "Çankaya", Doğan Kardeş Basımevi, İstanbul 1984

- Feridun Kandemir, "Hatiralar ve Söyleyemedikleri ile Rauf Orbay", Yağmur Yayınevi, İstanbul 1965

-Fethi Tevetoğlü, "Atatürk'le Samsun'a Çıkanlar", Atatürk ve Çevresi Yayınları, Ankara 1971

- Gotthard Jaeschke, "Kurtuluş Savaşı ile ilgili İngiliz Belgeleri",

Türk Tarih Kurumu Basımevi, Ankara 1971
- Goothard Jaeschke, "Türk İnklabı Tarihi Kronolojisi",c.1,Türk Tarih Kurumu Basımevi, Ankara 1972
- Gotthard Jaeschk, "Türk Kurtuluş Savaşı Kronolojisi",c.2, Türk Tarih Kurumu Basımevi, Ankara 1989
- Hasan Gümüş Oğlu, "Osmanlı Hilafeti ve Kaldırılmış", Kaukau Yayınevi, Brinci baskı, İstanbul 2000
- Hasan Rıza Soyak, "Atatürk'ten Hatıralar", c.1, Yapı Kredi Yayınları, İstanbul 1973
- Hüsamettin Ertürk, "İki Devrin Perde Arkası", Sebil Yayınları, İstanbul 1996
- Hüseyin Hilmi Işık "Saadet – i Ebediyye", 6 baskı, İstanbul 1968
- Hüseyin Nihal Atsız, "Türk Ülküsü", Burhan Yayınevi, İstanbul 1956
- İlhan Bardakçı, "Vahdeddin`den Mustafa Kemal`e", Türk Edebiyatı Vakfı, İstanbul 1993
- İsmail Hakkı Okday, "Yanya'dan Ankara'ya" , Sebil yayınevi, İkinci basım, Cağaloğlu, İstanbul 1975
- İsmail Hami Danişmend, "Izahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi", c.1, Türkiye Yayınevi, İstanbul 1961
- İsmail Hami Danişmend, "Izahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi", C.4, Türkiye Yayınevi, İstanbul 1972
- Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", Sebil Yayın, Üsküdar, İstanbul 1992

- Kadir Mısıroğlu, "Geçmişi ve Gelceği ile Hilafet", Sebil Yayınevi, İstanbul 1993 .
- Kadir Mısıroğlu, "Osmanoğullarının Dramı", dördüncü basım, Sebil Yayınevi, İstanbul 1990
- Kadir Mısıroğlu, "Sarıklı Mücahitler", Sebil Yayınevi, İstanbul 1981
- Kazım karabekir, "İstiklal Harbimiz", Türkiye Basımevi, İstanbul 1960
- Kılıç Ali Hatıralarını Anlatıyor, Sel Yay, İstanbul 1955
- Lütfi simavı Bey, "Sultan Mehmet Reşad Han'ın ve Halefinin sarayında Gördüklerim", kısım II, Dergah Yayınları, İstanbul 1984
-Mahmud Kemal İbnül-Emin, "Osmanlı Devrinde Son Sadrıazamlar", cilt 2, Maarif Matbaası, Ak Kitabevi, İstanbul 1964
- Mazhar Müfit Kansu, "Erzarum'dan ölümne Kadar Atatürk'le Beraber", c.1, Türk Tarih Kurumu basımevi, Ankara 1966
- Mehmet Arif Bey, "Anadolu İnkılabı", Çelikcilt Matbaası, ARBA Araştırma Basım Yayın, İstanbul 1987
- Mehmet Doğan, "Kemalizm", Esra Yay., Konya 1994
- Mehmet Saray, "Atatürk ve Türk Dünyası", Türk Tarih Kurumu basımevi, Ankara 1995
-Mevlanzade Rıfat, "Türkiye İnkılabının İç Yüzü", Pınar Yayınları, İstanbul 1993
- Murat Bardakçı, "Şahbaba", yaylacık Matbaası, Pan Yayıncılık,

dördüncü basım, İstanbul 1998
- Mustafa Budak, "İdealden Gerçeğe", Küre Yayınları, İstanbul 2002
- Mustafa Müftüoğlu, "Cumhuriyet Tarihinde Mühim Olaylar", T.T.K. Yay, Ankara 1988
- Mustafa Onar, "Atatürk'ün Kurtuluş Savaşı Yazışmaları", Kültür Bakanlığı Yayınları, Ankara 1995
- Mustafa Şükrü Hanioğlu, "Bir siyasal örgüt olarak Osmanlı İttihad ve Tarakkı Cemiyeti ve Jön Türklük 1889-1902", İletşin Yayınları, Kanlıca 1985
- Naşit Hakkı Uluğ, "Halifeliğin Sonu", İş Bankası yayınları, İstsnbul 1975
- Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", Büyük Doğu yayınları, İstanbul 1975
-Necip Fazıl Kısaküre, "Son Devrin Din Mazlumları", Büyük Doğu Yayınları, İstanbul 1997
- Niyazi Berkes, "Türkiyede çağdaşma", Doğu-Batı yayınları, İstsnbul 1978 - Nizamettin Nazif Tepedelenlioğlu, "Ordu ve Politika", Kutup Yıldızı Yayınları, İstsnbul 2003
- Nizamettin Nazif Tepedelenlioğlu, "Hanedan ve Son Sultan", Yeni İstiklal, İstanbul 1967 .
- Refi Cevad Ulunay, "Bu Gözler Neler Gördü?", Sebil Yayınevi, İstanbul 2004
- Reşad Ekrem Koçu, "Osmanlı Padişahları", Ana Yayınevi, İstanbul 1981

- Rıza Nur, "Hayat ve Hatıratım", c.1-4 Altındağ yayınevi, İstanbul 1968
- Sabahattin Selek, "Anadolu İhtilali", c.1, Remzi Kitabevi, İstanbul 1963
Selahattin Tansel, "Mondros'tan Mudanya'ya Kadar", c.1, Millî Eğitim Basımevi, İstanbul 1991
-Sina Akşın ve Değerleri, "Türkiye Tarihi", cilt.v, 1.Basım, Cem yayınevi, İstanbul 1995
-Şaban İba, "ordu- devlet-siyaset", çiviyazıları, İstanbul 1998
- Şevket Süreyya Aydemir, "İkinci Adam İsmet İnönü", Remzi Kitabevi, c.1, İstanbul 1993
- Şevket Süreyya Aydemir, "Enver Paşa", cılt 3, 1914-1922, Remzi Kitabevi, İstanbul 1992
- Şevket Süreyya Aydemir, "Tek Adam", Remzi Kitapevi, c.2,3, Beşinci Baskı, İstanbul 1988
- Şukru Tezer, "Atatürkün Hatıra Defteri", Türk Tarih Kurumu Basımevi, Ankara 1972
-Tahsin Ünal, "Türk Siyasi Tarihi", Kutluğ Yayınevi, İstanbul 1974
- Tarık Mümtaz Göztepe, "Osmanlıların Son Padişahı Vahiddeddin Mütareke Gayyasında", Sebil Yayınları, İstanbul 1969
-Tarık Mümtaz Göztepe, "Osmanoğullarını Son Padişahı Vahdeddin Gurbet Cehenneminde", Sebil Yayınları, İstanbul 1991

-Tevfik Bıyıklıoğlu, "Atatürk Anadolu'da", Çağdaş Matbaacılık ve Yayıncılık, Ltd.Şti.Mayıs 2000
-Turgut Özakman, "Vahidettin, M.Kemal ve Milli Mücadele", Bilgi Yayınevi, Ankara 2005
- Ümit Özdağ, "Ordu ve Siyaset İlişkisi", Gündoğan yayınları, Ankara 1991
- Vehbi Vakkasoğlu, "Vatanı Terkedenler", 4 Baskı, Dıvan Matbaası, Nesil Yayınları, İstanbul 1977
- Yahya Kemal Beyatlı, "Ali Kemal", Meydan Dergisi, Sayi 5, 16 Şubat, İstanbul 1965 ve "Siyasi ve Edebi Portreler", İstanbul 1968
- Yılmaz Çetiner, "Son Padişah Vahdettin", Milliyet Yayınları, İstanbul 1993
-Zekeriya Türkmen, "Mütareke Döneminde Ordunun Durumu ve Yeniden Yapılanması (1918-1920)", Türk Tarih Kurumu, Ankara 2001
- Ziya Nur Aksun, "Osmanlı Tarihi", Ötüken Neşriyat c.6, İstanbul 1994.

٩- الدوريات التركية

- Egitim – Bilim Dergisi, sayı 82, Eylül – Ekim 2005
- Milliyet Gazetesi, 30 kasım 1989
- Sabah Gazetesi, 23 Temmuz 2005
- Sebil Gazetesi, 8 Eylül 1978
- Takvim –i vekayı nusha nr: ٣٥٤٠ , ٥ Mayis 1919
-Tarih ve Medeniyet, Sayı:43 ekim 1997

- Tevhid- i Efkar, 16 kasım 1922 ve 30 Ekim 1922
- Ulus Gazetesi, 24 Temmuz 1968
-Zaman Gazetesi, 16 Kasım 1994
- Zaman Gazetesi, 16,17 Temmuz 2005

١٠- الوثائق التركية

- Atatürk'le İlgili Arşive Belgeleri, Ankara 1982
-Başbakanlık Osmanlı Arşivi (BOA)
- Babıalı Evrak Odası (BEO)
- BOA. Dosya Usulu Irade Tasnifi (DUIT)
- BOA. BEO. Harbiye Gelen, nr: 345518
- BOA. DH. ŞFR. 160/174
- BOA. Dahiliye Kalem-i Mahsus (DH. KMS)
- Harb Tarihi Vesikaları Dergisi – sayı 1, E.U. Basimevi,1953
- Tarih Vesikaları, M. E. Bakanlığı, Ankara 1941
- TBMM Zabıt Ceridesi, c.1, Ankara 1940
- TBMM Zabıt Geridesi, c. 24, Ankara 1960

١١- الموسوعات التركية

- Ekrem Üzümeri ve Değerleri,Türkiye Ansiklopedisi, Rüzgarlı Matbaası, cilt 1- v, Ankara 1956-1957
-Grand Master Genel Kültür Ansiklopedisi, Milliyet Yayınevi, cilt 1, Ankara 1992
-İslam Ansiklopedisi, cilt 1,10 Beşinci Baskı, Milli Eğitim Basımevi, İstanbul 1978
- Midhat Sertoğlu, Resimli Osmanlı Tarihi Ansiklopedisi, İskit Yayını, İstanbul 1958

١٢- المصادر والمراجع الأجنبية

- Ahmed Emin, "Turkey in the World War", Oxford University Press, London 1930

-Arnold J. Toynbee, "The Western Question in Greece and Turkey", Houghton Mifflin Company, New York 1922

-Edgard Pech, "les Alliés et la Turquie", Les Presses Universitaires de France, Paris 1925

-Kinross Balfour Patrick, "Ataturk, The Rebirth of A Nation", Weidenfield and Nicolson, London 1964

- Lewis Geoffrey, "Turkey", Ernest Benn, London 1974

- Marston .V.S., "The Peace Conference of 1919" (Organization and Procedure), London 1944

١٣- المذكرات والسير الذاتية والموسوعات والوثائق الأجنبية

-Winston S. Churchill, "The World Crisis (1911-1918)", vol.2, Odhams Press, London 1939

- The New Encyclopaedia Britannica, vol.7, London 1988

- Public Record Office, Foreign Office Archives no: 371/ 6469. 163650.

- Public Record Office, Foreign Office Archives no: 371/ 7962. 163552. 20 November 1922

- Public Record Office, Foreign Office Archives no: 371/ 9119. 162922. 20 August 1923

-U.S Foreign Relations, vol. 1, Diplomatic papers 1918, U.S Government Printing Office, Washington 1933

14- المواقع الإليكترونية

- http\\www.aawsat.com

- http\\www.ar.wikipedia.org

-http://www.biyografi.net

-http://www.360tr.com/kutsalemanet/english.

-http://www.alturkiyya.com/ar/detay_liste.asp?yazi=88-

- http://www.arab-ency.com/index.php?module=pnEncyclopedia&func=display_term&id=1667&m=1

- http://en.wikipedia.org/wiki/Ahmed_Tevfik_Pasha

- http://en.wikipedia.org/wiki/Victor_Emmanuel_III_of_Italy

- http://en.wikipedia.org/wiki/Benito_Mussolini

- http://www.radikal.com.tr/haber.php?haberno=155031

السلطان وحيد الدين
وأتاتورك

السلطان محمد وحيد الدين، المعروف بالسلطان محمد السادس (١٨٦١ - ١٩٢٦)، هو من الشخصيات المهمة في تاريخ الدولة العثمانية التي ضمت سلطنة ضخمة، والتي كانت تُعتبر أقوى الحكومات الدينية الإسلامية حيث رأست العالم الإسلامي كله منذ عام ١٥١٧. وترجع هذه الأهمية إلى أنه كان أخر السلاطين العثمانيين، وأنه شهد نهاية الدولة العثمانية، وقيام الجمهورية التركية عام ١٩٢٣. وهذا الكتاب يلقي الضوء على السلطان وحيد الدين، وعلاقته بمصطفى كمال آتاتورك، ويوضح حقيقة مواقف هذا السلطان الذي أُتهم ظلماً بخيانة وطنه، وصار "كبش الفداء" الذي سُب من خلاله الماضي من أجل إقامة دولة تركية جديدة و نظام حكم جديد. و بقي هو في مواجهة طلقات "نيران المدافع " متلقياً غدر رؤية التاريخ الرسمي التي ترى إنه خائن هرب من الوطن على ظهر مدرعة إنجليزية خصصها له الإنجليز بعد التجاءه إليهم. وإنه سعى لكسب رضا الإنجليزومعاونتهم من أجل وضع وطنه تحت الانتداب الإنجليزي.

فهو سلطان اختار مبدأ التضحية بنفسه من أجل مصلحة وطنه. وسعى لتوصيل السفينة العثمانية التي كانت تغرق إلي بر الأمان بخطة للإنقاذ من أجل تحقيق الحرية والاستقلال برغم الظروف الصعبة وعدم الأمان، و برغم الأرض السياسية الوعرة التي كان يخطو فوقها. ففكرفي قيام ثورة قومية للحصول على الحقوق التركية بعد كارثة الحرب العالمية الأولى، وبعد سقوط الدولة العثمانية. وبعد خلعه عن العرش ورحيله عن وطنه، لم يفكر في التحرك ضد وطنه وهو خارج الوطن، ولم يبدِ تصرفاً ينم عن حرص أو طمع، ولم ينتهز أية فرصة حتى يستعيد سلطانه. كما أنه لم يفكر في الإساءة إلى الذين أساءوا إليه بعد أن حققوا النصر بمساعدته، وظل كذلك حتى مات مفلساً تماماً في ديار الغربة، ولم يفعل سوى الخير لوطنه، وكان كل همه وقلقه وتفكيره وأمله منحصراً في كيفية إنقاذ بلده.

الناشر

9789773442253